

طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب

(أواخر العصر الوسطى)

تأليف

دكتور نعيم زكي فهمي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٣

رفع

مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

طرق التجارة الدولية ومحطاتها
بين الشرق والغرب
(أوضاع العصور الوسطى)

جمهورية مصر العربية
وزارة الثقافة

المكتبة العربية

- ١٣٢ -

(٨٨)

(١٧)

تأليف

ترجمة

القاهرة

١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصر الوسيط)

تأليف
دكتور نعيم زكي فهمي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٣

المقدمة

تعتبر الدراسات التاريخية الاقتصادية من أكثر الموضوعات صعوبة وتعقيدا ، لذا يعزف كثير من الدارسين والباحثين عن طرق هذا النوع من الدراسات التي تحتاج الى دراية واسعة باللغات الأوروبية الحديثة والوسيلة ، والى صبر ودأب على استقراء الوثائق والنصوص والمعاهدات ، بالإضافة الى أن معظمها ليس في متناول أيدينا ، رغم أنها الأساس لهذا النوع من الدراسات ، ثم ان المراجع التي تبحث في هذا النوع من الدراسة شحيحة، وبعضها قاصر عن ايفاء الموضوعات الاقتصادية حقها المطلوب .

وتكاد تخلو مكتبتنا العربية من هذا النوع من الدراسة في العصور الوسطى التي يعتبرها الاقتصاديون حجر الأساس في تطوير النظم الاقتصادية في العصور الحديثة . لذا هدفت الدراسات والبحوث الحديثة الى التوسع في هذه الموضوعات . وقد استهوتني الدراسة الاقتصادية منذ فترة غير قصيرة فكعفت على تتبع تطورها ونظمها ، ووجدت أن أكثرها أهمية هي الفترة الأخيرة من القرن الخامس عشر الذي يعتبر من أكثر فترات العصور الوسطى أهمية بالنسبة للأحداث الجسام التي حدثت فيه وأدت الى تغييرات جوهرية في العالم .

ولعل أهم هذه الأحداث وأولها هو سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ في أيدي القوات العثمانية ، واندفاع هذه القوات غربا الى شرق ووسط أوروبا ، ثم مد حدودها بعد ذلك الى البحر الأسود وإيران شرقا . وقد عمدت في تحركاتها العسكرية الى سد الطرق التجارية

لدواعى الأمن ، مما أثر فعلا فى التجارة وطرقها ومراكزها بين آسيا وأوروبا . ومع أن التجارة تحولت تماما بعد هذا الحدث الى موانئ مصر والشام والبحر الأحمر ، الا أن الغرب الأوروبى كان قد مل التعامل مع الممالك بسبب كثرة الضرائب وارتفاع رسوم الجمارك ، وقوة الاحتكارات ، مما دفع الأوربيين الى البحث عن طريق آخر . أكثر أمنا ، ووقع هذا العبء على عاتق البرتغال ، فاندفع بحارتها ، يحدوهم التحمس الدينى ، يدورون حول افريقية ويندفعون الى الهند حيث تمكنوا خلال عدة معارك حربية من القضاء على نفوذ الممالك والسيطرة على تجارة الشرق . وكان هذا ثانى الأحداث الهامة فى هذه الفترة من العصور الوسطى .

أما ثالث هذه الأحداث وأخطرها فهو الذى ختم العصور الوسطى وتم على عهد السلطان سليم الأول العثمانى الذى قضى على دولة الممالك الجراكسة بالشام ومصر ، وأنهى دور هذه البلاد الرائع فى مجال الحضارة والحرب والتجارة .

وقد اتجهت فى هذا الموضوع اتجاها اقتصاديا صرفا ، فأحطت بشتى نواحيه شارحا العلاقات الخارجية بين دول شرق البحر المتوسط وغربه ، داعما هذه العلاقات بالعديد من الوثائق والمعاهدات المنشورة والمخطوطة التى استفدت منها فى استخلاص حقائق ونظم اقتصادية لم يصل اليها جهد الباحثين من قبل ، وكان لابد - والحال كذلك - من البحث فى الطرق والمراكز وأهميتها وما بقى منها وما اندثر حتى وصول البرتغاليين للهند ، والعثمانيين للشرق العربى ، والذى أدى الى انهيار اقتصاديات المنطقة بعد قرون عديدة زاهرة .

وقد ألحقت بالكتاب عدیدا من الوثائق المخطوطة والمطبوعة ، وملحقا خاصا بالخرائط التوضيحية للطرق والمراكز ، وثبتا وافيًا بالمراجع العربية والافرنجية التى رجعت اليها .

وانى اذ أقدم هذا المؤلف للمكتبة العربية ، أرجو أن أكون قد
أضفت اليها لونا جديدا من الدراسات التاريخية الاقتصادية ، كما
أرجو أن أكون قد فتحت بابا للدارسين فى التاريخ الاقتصادى للمزيد
من الجهد الواعى النافع .

والله ولى التوفيق .

القاهرة ١٩٧٠

الدكتور نعيم زكى فهمى

الفصل الأول

نظرة سياسية عامة في أحوال دول البحر المتوسط
من سقوط القسطنطينية ١٤٥٣، إلى
دخول العثمانيين مصر ١٥١٧

أهم أحداث أواخر العصور الوسطى

يجمع المؤرخون على أن استيلاء العثمانيين على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، هو أول حادثة فى سلسلة الحوادث العظمى التى غيرت أحوال البلاد الواقعة حول البحر المتوسط ، ثم أحوال العالم كله أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

أما الحادث الثانى فهو وصول البرتغاليين بحرا من الهند بعد أن داروا حول افريقية عام ١٤٩٨ ، ونتج عن هذا الحادث الثانى نتائج سياسية واقتصادية كبيرة فى شرق البحر المتوسط ، وخاصة فى دولة سلاطين المماليك . وإذا قيل أن سقوط القسطنطينية فى أيدي العثمانيين مهد فعلا للحروب المماليكية العثمانية أوائل القرن السادس عشر فإن وصول البرتغاليين بحرا الى الهند هدد كيان دولة سلاطين المماليك بالذات ، إذ أخذت تجارة الشرق الأقصى وأرباحها الهائلة تتحول عن مصر والشام وموانئهما الى أوربا بالطريق البحرى الجديد، وبكميات متزايدة وأسعار معتدلة . على أنه ينبغى أن يضاف الى هذين الحادثين الكبيرين حوادث أخرى داخلية ساعدت على تهديد كيان دولة سلاطين المماليك منذ عام ١٤٥٣ ، إذ دبت الشيخوخة فى أوصالها واعتري الفساد نظمها ، فعجزت عن الاحتفاظ بكيانها بسبب اشتداد الخلاف بين السلطان وطوائف المماليك ، فكثيرا ما تمرد المماليك كلما دعوا للحرب لعجز السلطان عن توفير المال اللازم لتوزيع ما هو معروف بالنفقة قبل الخروج الى القتال (١) .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٢ ص ٣٩ (طبعة بولاق) .

ولا أقل من أن تلقى نظرة عامة سريعة على دولة المماليك وجيرانها في القرن الخامس عشر لنذكر الظروف التي عاشت فيها هذه الدولة من ناحية والتي أثرت في مصائر حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى . فقد شملت دولة سلاطين المماليك عام ١٤٥٣ البلاد الواقعة من الشلال الأول جنوبا ، وأعلى الفرات شمالا بما في ذلك بلاد الشام وأجزاء من آسيا الصغرى حتى طرسوس وملطية ، كما خضعت لها جزيرة قبرص . وامتدت الأطراف المماليكية الجنوبية من عيذاب على البحر الأحمر الى بلدة القصير على مسافة خمسة أميال جنوبى أسوان ، ومنها امتدت عبر الصحراء مشتملة على بلاد الواح (الواحات) حتى برقة . وعلى الأطراف الشمالية الشرقية امتدت الامارات التركمانية عام ١٤٥٣ ومنها امارة دلغادر وامارة رمضان ومناطق تركمانية أخرى ذات امارات مماثلة ، وانتشرت بالمنطقة حتى ديار بكر، ودانت كلها للسلاطين المماليك بالتبعية والجزية والرأى فى تعيين أمرائها .

وتبدو أهمية هذه الامارات فى موقعها الجغرافى بين الدولتين المماليكية والعثمانية ، فضلا عن مرور الطرق التجارية بها من وسط آسيا الى آسيا الصغرى وشرق البحر المتوسط ، لذا كانت على علاقات سياسية واقتصادية بدولة سلاطين المماليك (٢) .

وأسس امارة دلغادر (زين الدين قراجا) فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، وكان الأمير عليها عام ١٤٥٣ (سليمان بك قراجا) الذى تزوج السلطان محمد الثانى العثمانى أخته . (٣) والى

(٢) الخالدى : المقصد الرفيع المنشأ : ص ٨٢ ، ب (مخطوطة) .

الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٥٢ ، ٥٤ .

المقرئى : الخطوط ج ١ ص ١١٣ .

— Ency. D'Islam, T. II Article, «Karaman Oghlu.»

— Ziada, Foreign Relations. pp. 83-85 and pp. 101-103.

— Lane-peole, A History of Egypt in the Middle Ages. p. 309.

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art., «Dol'Kader» pp. 985-987. (٣)

— Hammer, Histoire De L'Empire Ottomane. T. II pp. 425, 426, & p. 435.

— Ziada, Op. Cit., pp. 252, 253.

الغرب من اماره دلغادر امتدت اماره « قرمان أوغلو » وتنسب الى زعيمها « قرمان » الذي حصل قديما من السلاجقة على حق النزول بالمناطق الجبلية حول قونية . وشملت أملاك هذه الامارة ساحل قيليقية وأنطاكية ، وكانت عاصمتها « لارنده أوقرمان الجديدة » . واحتسب بنو قرمان بسلاطين المماليك خوفا من العثمانيين ، وكان « ابراهيم » حفيد علاء الدين قرمان هو الأمير عام ١٤٥٣ (٤) .

وعلى الأطراف الغربية لامارة قرمان كانت الدولة العثمانية التي أخذت تعمل على اخضاع ما تبقى خارجا عن طاعتها من امارات آسيا الصغرى ، فاكتملت اماره قرمان عام ١٤٦٣ . ومن الامارات الخارجة وقتذاك عن الدائرة العثمانية « اماره اسفنديار » التي امتدت من حدود قرمان أوغلو الشمالية حتى شواطئ البحر الأسود وعرفت باسم « قسطنطيني » أو « قزيل أحمدلي » ، وتنسب لمؤسسها « ميرز الدين اسفنديار » والأمير عليها عام ١٤٥٣ « ابراهيم بن اسماعيل » ، ثم انتزع الامارة منه أخوه قزيل أحمدلي بمعاونة السلطان محمد الثاني العثماني (٥) .

والى الشرق من اسفنديار امتدت امبراطورية « طرابيزون » البيزنطية على الساحل الجنوبي للبحر الأسود حتى أملاك التركمان شرقا . وكان الامبراطور هناك « حنا الرابع كومنين » ، وقد اكتسح

— ابن اياس : المرجع السابق ص ٨١ - ٩٦ - ١٠٩ - ١٣٩ - ٢١٩ - ٢٣٢ - ٢٤٦ - ٢٥٩ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٣٣٠ .

— أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٣٨ - ٨٠٧ - ٨٢٣ - ٨٣٣ (طبعة بوبر - كالفورنيا) .

(٤) القرمانى : أبو العباس بن أحمد الدمشقي : أخبار الدول وآثار الأول ورقة ٩٧ ا

(مخطوطة) ونسخة مطبوعة في بولاق ١٢٩٠ هـ ص ٢٩٣ - ٢٩٥ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. ; «Karaman Oghlu».

Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Isfandiyar Oghlu» T. II. p. 565. (٥)

— Ziada, Op. Cit., p. 103.

القرمانى : أخبار الدول - المصدر السابق مطبوع ص ٢٩٣ - ٢٩٥ .

السلطان محمد الثانى العثمانى هذه الامبراطورية عام ١٤٦١ . (٦)

والى الشرق من طرايزون امتدت مملكة جورجيا حوالى ستين ميلا حتى تفليس ، وهى على الطريق التجارى البرى من وسط آسيا الى شرق البحر المتوسط ، لذلك تعرضت لأخطار المناوشات بين القبائل التركمانية والعثمانيين . (٧) وامتدت مملكة شروان « شرقى مملكة جورجيا حتى بحر قزوين ، والمملك عليها عام ١٤٥٣ ، « خليل الله » ١٤٢٧ - ١٤٦٢ . واتخذ هذا الملك موقف الحياد فى معظم التيارات والحوادث الجارية حوله . (٨)

وعاصرت الدولة المماليكية كذلك قبيلتى « الشاه البيضاء - الآق قيونلو » و « الشاه السوداء - القره قيونلو » التركمانيتين بأعلى العراق وفارس ، ونزلت قبيلة الشاه البيضاء ديار بكر واتخذها أفرادها عاصمة لهم ، ومنها امتدت أملاكهم حتى تبريز ، وكانه الأمير عليها عام ١٤٥٣ « جهانكير » ابن الأمير على بك ونازعه فى الامارة أخوه « أوزون حسن » الذى اغتصب الحكم وانفرد به ، ولم يلبث أن مد فتوحاته فشملت أرمينيا وحسن كيفا وديار بكر وماردين . (٩)

(٦) كان آخر حكام أسرة كومنين الكبيرة فى طرايزون : جون الرابع الذى تزوج

أوزون حسن من ابنته ثم آخرهم داود .

— Heyd, Histoire Du Commerce, T. II pp. 363, 365 & p. 390.

— Camb. Med. Hist. Vol. I pp. 76, 77.

— Hammer, Op. Cit., T. III pp. 36-37, 79, 153.

— Depping, Histoire Du Commerce T. II p. 221.

(٧) الخالدى : المصدر السابق : (مخطوطة) ورقة ٢٨١ ب - ٢٨٢ ب .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Georgie».

— Ziada, Op. Cit., pp. 104-105.

(٨) الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٢٨٢ ب .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Derband. Shirwan Shah».

(٩) قرمانى : المصدر السابق (مطبوع) ص ٣٣٦ .

— Hammer, Op. Cit., III pp. 61, 151-464-466.

— Hammer, Op. Cit., IV pp. 69-80, 81.

الظاهرى : المصدر السابق ص ١٤٩ - ١٥١ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٦ (بولاق) .

— Ency. D'Islam, Op. Cit. Art. «Ak. Kouynlu» p. 228. — Ozon Hassan — Hisn Kaifa.

أما قبيلة الشاه السوداء فامتدت أملاكها جنوب بحيرة « وان » والأمير
عنها عام ١٤٥٣ « جهان شاه » وقد آلت أملاكها الى أوزون حسن
عام ١٤٦٩ . (١٠)

أما بلاد الحجاز فظلت مرتبطة بالسلطنة المالكية والسلطان
الماليكى يخطب له من منابر مكة بألقاب « سلطان البحرين وحامى
الحرمين » وحصل سلاطين الماليك على أموال كثيرة من رسوم تجارة
الهند فى ميناءى جدة وينبع (١١) . وفى اليمن تنازع بنو رسول وبنو
طاهر الحكم بين عامى ١٤٤٦ - ١٤٥٤ م حتى خلصت لبنى طاهر عام
١٤٥٤ وظلوا تابعين للماليك حتى عام ١٥١٧ (١٢) .

وعلى الأطراف الجنوبية لدولة سلاطين الماليك انتشرت قبائل
البجاه بين النيل والبحر الأحمر وامتدت مساكنهم على طول الطريق
التجارى بين قوص وعيذاب . (١٣) .

ومن البلاد التى جاورت الأطراف المالكية الجنوبية ، النوبة
المسيحية — وامتدت أراضيها امتدادا صحراويا من جنوبى أسوان الى

(١٠) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٦٤٤ - ٦٥٠ و ٦٨٥ و ٧٦٦ و ٧٤٠
وج ٧ ص ٢١١ و ٢٤٠ (كاليغورنيا) .
الظاهرى : المصدر السابق ص ٥٩ .
(١١) الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٨٢ أ و ب - ١٥٣ ب و ١٥٥ أ .
الظاهرى : المصدر السابق (ص ١٦ - ٤٢ - ٥٢) .
(أنظر بدم الفصل الثالث)

— Lane Poole, Op. Cit., p. 309.
— Lane Poole, Cairo p. 237.
— Ziada, Op. Cit., pp. 93, 94-98.
— Ency. D'Islam. Op. Cit. Art. «Arabia-Medina».
(١٢) الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ٢٧٣ ب - ٢٧١ أ - ٢٧٤ أ .
القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ١٧ - ٣٥ .
— Lane Poole, Mohammedan Dynasties, pp. 99, 100.
(١٣) القلقشندى : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٧٣ - ٢٧٦ .
— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Bega, Bisharia, T. Is». pp. 608, 609-687.

دارفور الحالية وقاعدتها مدينة « دنقله » (١٤) ومنها أيضا مملكة الحبشة المسيحية التي امتدت شرقى النيل من أطراف سلطنة مالى حتى البحر الأحمر . وفى عام ١٤٥٣ كان على الحبشة الملك « يعقوب » الذى لقب فى العصور الوسطى المتأخرة « بالخطى » ، وحصلت الحبشة على مطرانها منذ القدم من القاهرة . ولكى يتم ذلك يرسل ملك الحبشة الى السلطان يطلب تعيين مطرانا جديدا . (١٥) أما بلاد الأحباش المسلمين فكانت الأراضى الساحلية المطلة على البحر الأحمر ويعبر عنها « بالطراز الاسلامى » وتعرف فى بلاد الممالك باسم بلاد الزيلع وتخضع للخطى ملك الحبشة . (١٦)

وفى شمال افريقية عاصرت دولة سلاطين الممالك دول بنى حفص فى تونس وبنى زيان فى تلمسان فى الجزائر وبنى مرين فى مراكش وامتدت الدولة الحفصية من أطراف مصر الغربية عند برقة وكانت العاصمة مدينة تونس . (١٧) وعقد الحفصيون معاهدات تجارية مع جمهوريات بيزا وجنوة وفلورنسا والبندقية . أما الجزائر فقد تقاسمها الحفصيون وبنى زيان ، وأخذ هؤلاء يستولون عليها شيئا فشيئا حتى

(١٤) الخالدى : المصدر السابق - (مخطوطة) ورقة ٢٧٤ ١ .

القلقشندى : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٧٥ .

— Ency. D'Islam, Art. «Bakt», pp. 608, 609-1072, 1073.

— Lane Poole, A Hist. of Egypt In the Middle Ages, pp. 12-15-27-111.

— Ziada, Op. Cit., p. 113.

(١٥) القلقشندى : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٠٢ - ٣٠٦ - ٣٢٢ - ٣٢٣ .

الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٢٨٨ .

— Ency. of Islam. p. 119. Vol. I.

(١٦) القلقشندى : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٢٤ - ٣٢٦ - ٣٢٨ - ٣٣٢ و ٣٣٣

ج ٨ ص ١٤٩ - ١٥١ .

الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٢٧٥ أ و ٢٧٦ ب - ٢٨٨ ب .

أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٨٩ (كاليغوريا) .

— Ency. of Islam, Vol. I pp. 985, 986.

(١٧) الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٢٧٦ ب .

أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٨٣٤ (كاليغوريا) .

القلقشندى : المصدر السابق ج ٥ ص ١٠٨ - ١٠٩ .

امتلكوها كلها . (١٨) وامتدت مراكش غربا حتى مدينة آسفى على المحيط الأطلنطى وعاصمتها فارس وبقيت فى حكم المرينيين حتى عام ١٤٦٥ ، ثم فى حكم بنى وطاس بعد عام ١٤٦٥ ، وانتزع منهم البرتغاليون والاسبان آسفى ومليلة عام ١٤٧٠ (١٩) .

ومن الدول المعاصرة الاسلامية لدولة سلاطين الممالك ، الهند الاسلامية وأكثرها صلة بمصر مملكة الدكن البهمنية ١٣٤٧ - ١٥٢٦ م والمملكة الخليجية ١٤٣٦ - ١٥٣١ م ومملكة جوجيرات ١٤٠١ - ١٥٧٣ ومملكة دلهى حيث حكمت أسرة لودى ١٤٥٠ - ١٥٢٦ م . وكان ملوك الهند الاسلامية يرسلون للخليفة العباسى بالقاهرة يطلبون التقليد الخلفى لتثبيت سلطانهم على بلادهم ، كما كان لمصر صلات تجارية وثيقة بالهند ، اذ اجتذبت تجارة التوابل والأحجار ، الكريمة أفواجا مستمرة من التجار المسلمين الى سواحل الهند الغربية واشتركت سفنهم مع سفن الممالك فى مهاجمة الأسطول البرتغالى فى مياه الهند عامى ١٥٠٨ - ١٥٠٩ (٢٠) .

أما الممالك المسيحية الداخلة فى نطاق شرق وغرب البحر المتوسط والتي ارتبطت بمصر بروابط سياسية واقتصادية ، فهى مملكة قبرص والجمهوريات الايطالية ومملكة قشتالة بأسبانيا وفرنسا ودانت

(١٨) القلقشندي : المصدر السابق ج ٥ ص ١٤٩ - ١٥١ .

(١٩) القلقشندي : المصدر السابق ج ٥ ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٧٩ - ٢٧٦ أ .

أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٨٣٤ (كالبغورنيا) .

— Ency. of Islam, Op. Cit., Art. «Hafside», Vol. II pp. 229, 230.

— Lane Poole, Op. Cit., Mohammedan Dynasties, pp. 49, 50.

— Ency. D'Islam, Op. Cit., II pp. 509-533. Art., «Benghal-Delhi- (٢٠)

Malwa-Kandish-Gulbara - Kashmir - Djaunpur - Gujerat.»

— Lane Poole, Mohamm. Dynast., pp. 305-308, 189-193, 283-298, 300-312-314.

— Lane Poole, Egypt In The Middle Ages, pp. 350-352.

— Lane Poole, India, pp. 168-170, 171, 172-175, 176.

— Ziada, Op. Cit., pp. 253, 254.

مملكة قبرص لسلطين الممالك بالتبعية والجزية ، وكان ملكها عام ١٤٥٣ « حنا الثانى لوزجنان » (٢١) .

ومن جمهوريات ايطاليا ذات الصلة الوثيقة بشرق البحر المتوسط جمهورية البندقية . ومنذ سقوط القسطنطينية والبنادقة يتجهون بتجارتهن الى بلاد السلطات المماليكية وصارت البندقية أكبر عميل فى تجارة شرق البحر المتوسط ، وأنشأت لها جالية كبيرة بالاسكندرية وغيرها من موانى الممالك . وكانت فلورنسا كذلك من أكثر الجمهوريات الايطالية اتصالا بشرق البحر المتوسط . ومنذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر وأسرة ديميديتشى الحاكمة فى فلورنسا تعمل على توثيق صلاتها التجارية بالسلطات المماليكية ، وذلك رغم التحريمات التى أصدرتها البابوية لمنع التجار الفلورنسيين والبنادقة وغيرهم من المتاجرة فى المواد الحربية مع الممالك . (٢٢)

وفى أسبانيا ظلت دولة المسلمين بالاندلس تغالب المسيحيين حتى لم يبق فى يدها عام ١٤٥٣ الا مملكة غرناطة وكان الأمير عليها اذ ذاك « اسماعيل بن يوسف الناصرى » الذى أعلن خضوعه لهنرى الرابع ملك قشتالة ، وأدى له جزية سنوية قدرها ١٢ر٠٠٠ دينار ، واستمر

(٢١) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٤ (طبعة كاليفورنيا) .

— Heyd, Op. Cit. T. II pp. 425, 426-428, 429-475.

— Lane Poole, Egypt In The Middle Ages, p. 339.

— Muir, The Mameluks or Slave Dynasty, p. 142.

— Mas Latrie, Chypre, T. III p. 73 & p. 765.

— Ziada, Op. Cit., p. 87.

(٢٢) فكرت البابوية بعد هزيمة عكا ١٢٩١ فى اضعاف الممالك عن طريق حرمانهم من المورد الاساسى لغنائم وقوتهم وهو التجارة ، لذلك أصدرت البابوية مراسيم التحريم البابوية متضمنة عدم التعامل مع المسلمين عامة والممالك خاصة فى اصناف معينة من السلع أهمها المواد التى تدخل فى صناعة الأسلحة والسفن كالخشب والحديد والكبريت والفار . وكذلك بعض المواد الغذائية كالحبوب والزيت فضلا عن الرقيق الأبيض الذى اعتمد عليه النظام الممالكي .

سعيد عاشور : العصر الممالكي فى مصر والشام ص ٢٩٤ و ٢٩٥ .

— Pernaud, Les Villes Marchands, p. 30.

هذا العهد حتى قيام الأمير « أبو الحسن على » بعد وفاة أبيه اسماعيل عام ١٤٦٦ ، وكان على مآلقه الأمير « محمد » المعروف « بالزغل » ، وهذان الأميران هما اللذان قاوما قوات أسبانيا المسيحية حتى انتهاء حكم المسلمين في غرناطة ١٤٩٢ م . (٢٣) وحتى وصول البرتغاليين للهند كاز الاسبان يحصلون على حاجتهم من التوابل الشرقية من أسواق شرق البحر المتوسط . وفي فرنسا استطاع الملك « شارل السابع » طرد الجيوش الانجليزية عام ١٤٥٣ من فرنسا . (٢٤)

وفي عام ١٤٥٣ كان السلطان المماليكي في القاهرة السلطان الأشرف اينال (١٤٥٣ - ١٤٦٠) وكان طاعنا في السن منقادا لمماليكه الجليان الذين كثيرا ما رفضوا الخروج للخدمة وحماية الأطراف المماليكية لعجز السلطان عن توزيع النفقة اللازمة للحرب . (٢٥) وأصدر السلطان اينال عددا من القوانين الاقتصادية الهامة مثل قانون العملة وضرب على أيدي الزغلية مزيفى النقود بأن شق عشرة منهم على باب زويلة . (٢٦)

(٢٣) محمد عيد الله عنان : تراجم اسلامية . ص ٢٢٧ - ٢٢٧ .

انظر الفصل الثاني بعده .

(٢٤) — Lodge, Richard, A. Hist. of Mod. Europe. p. 22.

(٢٥) الخالدي : المصدر السابق ورقة ٨٥ ب و ١٤٣ ا و ١٤٥ ا .

الظاهري : المصدر السابق ص ٣٥ .

أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٢٤٠ و ٢٣١ (كاليغورنيا) .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٤١ و ٤٢ و ٤٣ - ٦٤ .

— Lane, Poole, Egypt In The Middle Ages pp. 325, 326.

تسكن بعض القبائل على حدود مصر في الصعيد والوجه البحرى وخاصة في صحراء البحيرة والشرقية وولايات مصر العليا والوسطى وعاشوا بين الأهالي الاصليين وان كانوا يغيرون عليهم في بعض الأحيان ، وكانوا يدفعون الجزية للسلطان . وفي حالات الحرب ترسل هذه القبائل بعض رجالها وخيولها للاشتراك في المارك . وعلى أية حال فقد كانوا مصدر ازعاج دائم للسلطات الحاكمة ، بل كانوا أحيانا يغيرون على قوات السلطان نفسه ويقاثلون بعضهم البعض ويغيرون على الطرق التجارية .

(٢٦) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٥٦ و ٥٧ - ٦١ . انظر الفصل الخامس

بعده .

واتبع اينال سياسة ودية مع جيرانه من الدول الإسلامية وخاصة السلطنة العثمانية ، وأرسل للسلطان محمد الثاني العثماني سفارة لتهنئته بفتح القسطنطينية . وأعلن الأمير « سليمان دلغادر » الولاء للسلطنة المالكية وسلك ابنه « أصلان دلغادر » هذا المسلك حتى عام ١٤٦٥ . (٢٧) وظلت العلاقات طيبة بين السلطان اينال وأوزون حسن زعيم قبيلة الشاة البيضاء التركمانية على حين أعلن جهان شاه « زعيم قبيلة الشاه السوداء » عداؤه للسلطنة المالكية وتحداها بايوائه أحد الأمراء الفارين من القاهرة ، فنهض أوزون حسن لمحاربة جهان شاه وهزمه ونال بذلك رضا السلطان اينال . (٢٨) ولم يحدث أن قام السلطان اينال خلال حكمه الذي امتد الى عام ١٤٦١ بحملة ضد أية دولة إسلامية سوى حملة تأديب ضد « ابراهيم » أمير قرمان الذي استولى على أطنة وطرسوس بعد أن تجاهل السلطان اينال صرخاته عندما اشتد عليه ضغط السلطان محمد الثاني العثماني . (٢٩) وقاد هذه الحملة الأمير المالكي « خشقدم » فصد هجمات ابراهيم قرمان وما زال به حتى طلب الصلح وظل مخلصا للمالك حتى اكتسح السلطان محمد الثاني العثماني هذه الامارة نهائيا عام ١٤٦٣ . (٣٠)

ومنذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، تعرضت جزيرة قبرص لتهديد السلطان محمد الثاني العثماني بعد فتح القسطنطينية ، فطلب ملكها « حنا الثاني لوزجنان » معونة السلطان اينال لابعاد الخطر

(٢٧) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٥٧٦ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٤٨ و ٤٩ .

(٢٨) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٤٨٤ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٦ - ٥٩ .

(٢٩) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٤٧ و ٤٨ .

— Ency. D'Islam, Art. «Karaman Oghlu».

(٣٠) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٤٨٧ - ٤٩٠ و ٥٠٠ و ٥٠١ - ٥٠٨ .

— ٦٥٧ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٥٥ و ٥٦ - ٦٣ .

العثماني على الجزيرة وكتب اينال للسلطان العثماني يذكره بأن ملك قبرص تابع له ، فكف السلطان العثماني عن تهديد الجزيرة . (٣١) ومات حنا الثاني عام ١٤٥٨ وأيد السلطان اينال لحكم الجزيرة الأمير « جيمس » الابن غير الشرعي ، ضد أخته « شارلوت » الوريثة الشرعية وزوجة الأمير لويس حاكم مقاطعة سافوى الايطالية (٣٢) ، على حين أيد فرسان القديس يوحنا في رودس الأميرة شارلوت . وأخيرا سافر من القاهرة واعتلى عرش قبرص باسم جيمس الثاني عام ١٤٦٠ . ورافقه اليها أسطول مماليكى . (٣٣) وانسحبت شارلوت من الجزيرة فى يناير ١٤٦١ ورحلت الى رودس وتعقبها المماليك وهاجموا سواحل جزيرة كالوس التابعة للفرسان . (٣٤)

وخلف اينال فى السلطنة سنة ١٤٦٠ ابنه أحمد الذى لم يلبث أن خلعه المماليك على طريقتهم المعهودة وولوا « خشقدم » عام ١٤٦١ — ١٤٦٨ ، وهو أول السلاطين المماليك من اليونانيين . (٣٥) واتبع خشقدم مدة سلطنته سياسة التفرقة بين المماليك . وفى السياسة الخارجية حدث تغيير جديد فى علاقة المماليك بجيرانهم ، لذا يعتبر عهد خشقدم بداية الصراع الطويل بين المماليك والعثمانيين ، وذلك منذ أن

— Mas Latrie, Documents, T. II p. 73-75 & N. 7 p. 74. (٣١)

أرسل جون الثاني خطاب تهنئة لاينال بمناسبة توليه العرش ، وفى هذا الجزء من الكتاب رد اينال على التهنة . وبالكتاب اشارة بوصول جون الثاني للقاهرة ١٤٥٣ لحضور احتفالات تولي اينال السلطنة . ولو أن المراجع العربية المعاصرة لا تذكر هذا الخبر .

— Mas Latrie, Ibid, T. II p. 89 N.I. (٣٢)

أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٥٤٤ — ٥٤٩ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٩٣ .

(٣٣) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٥١ .

— Mas Latrie, Ibid, T. II p. 96-98 & pp. 104-106.

(٣٤) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٦٥١ .

— Mas Latrie, Ibid T. II pp. 104-106.

(٣٥) السلطان اليوناني الثاني هو « تومرنا » .

— Ziada, Op. Cit., p. 30.

تدخل السلطان محمد الثاني العثماني عام ١٤٦٣ ليؤيد أحد الأمراء على ولاية دلغادر التركمانية غير من أيده السلطنة المماليكية . ومع هذا لم تنشب الحرب على عهد خشقدم . (٣٦) وعلى عهده ساءت العلاقات بين المماليك وأوزون حسن الذي آوى بعض الأمراء الفارين من السلطان ، ثم تحسنت هذه العلاقات عندما أخضع أوزون حسن قبيلة الشاه السوداء التركمانية وذبح زعيمها جهان شاه وأرسل رأسه الى القاهرة . (٣٧) غير أن أوزون حسن لم يلبث أن أعلن عن حقيقة نواياه حين هاجم حصن كيفا التابع للمماليك ، ومع هذا فضل السلطان خشقدم مهادته ومنحه الحصن مكافأة له على خدماته السابقة ضد جهان شاه . (٣٨) وظلت العلاقات طيبة بين المماليك وإبراهيم قرمان ثم تنازع أبناؤه الامارة بعد وفاته عام ١٤٦٤ واستعان أكبرهم « بير أحمد » بخاله السلطان محمد الثاني العثماني واستعان « اسحق » بالسلطان المماليكي خشقدم وأوزون حسن ، وانتصر بير أحمد وصار تابعا للسلطان العثماني ، مما جعل العلاقات تتوتر بين السلطنة المماليكية والسلطنة العثمانية . (٣٩) وفي أثناء تدهور العلاقات بين خشقدم ومحمد الثاني العثماني - بسبب المشكلة الدلغادرية - حاول أوزون حسن أن يدس أنفه في هذه الامارة ، ولا سيما بعد أنه منحه خشقدم نيابة « خربوط » الدلغادرية ، فاغتال أتباعه الأمير « أصلان دلغادر » في « أبلستين » ، واعتقد السلطان خشقدم أنه حل المشكلة الدلغادرية بهذه الطريقة . وتجاهل قدوم الأمير « سيف بن أصلان » الى القاهرة لتلقى الخلة السلطانية خلفا لوالده ، وأعلن شقيقه « شاه

(٣٦) — Ziada, Op. Cit., p. 30.

(٣٧) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٧٠٤ .

(٣٨) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٧٣٠ - ٧٣٢ ، ٧٥٤ - ٨٥٥ .

خليل بن شاهين الظاهري : المصدر السابق ص ١٤٩ - ١٥١ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit. Art. «Hisn Kaifa».

(٣٩) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٨٠٥ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Karaman Oghlu».

بداق « أميراً للإمارة ، على حين أيد السلطان محمد الثاني العثماني أخاً ثالثاً هو « شاه سوار » . ومن أجل ذلك اشتعلت الحرب بين الأخوين ، وتحرك شاه سوار نحو الأطراف المالكية فأرسل خشقدم إلى نواب حلب وحماه وطرابلس للاستعداد للحرب . (٤٠)

وفي قبرص واصل السلطان خشقدم سياسة سلفه في تأييد الملك جيمس الثاني لوزجنان ، وبفضل ذلك التأييد استطاع الملك جيمس استعادة فاماجوستا من الجنوبيين . غير أن جيمس الثاني لم يلبث أن ضاق بأفراد القوة المالكية في الجزيرة فاغتال قائدها وأرسل يعتذر للسلطان عن ذلك الحادث ، كما أعلن استمرار خضوعه للسلطان . وانتهزت الأميرة شارلوت الفرصة وأثارت حقها في عرش قبرص ، ولكن السلطان رفض الاستماع لمندوبيها (٤١) . وفي أواخر أيام خشقدم أثار البدو الاضطرابات في صعيد مصر وسوريا وشمال بلاد العرب ، وأعقب ذلك وفاة السلطان في أكتوبر ١٤٦٧ دون أن تخرج حملة في الداخل أو في الخارج لتأديب البدو . (٤٢)

وفي أواخر يناير ١٤٦٨ تولى السلطنة في القاهرة السلطان الأشرف قايتباي ١٤٦٨ - ١٤٩٦ ، وامتدت سلطنته بالأعمال العمرانية والحرية ، فاهتم ببناء المساجد والمدارس ، وقام بجولات تفتيشية في بلاد السلطنة المالكية وسلك مسلكاً طيباً مع من سبقه من السلاطين المعزولين . (٤٣) وفي المجال الخارجي ترك خشقدم لقايتباي مشكلة

(٤٠) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٧٣٧ - ٧٤٧ ، ٧٥٢ - ٨٠٢ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٨١ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Dol, Kader».

— Ziada, Op. Cit., p. 172.

(٤١)

— Mas Latrie, Op. Cit., T. II p. 402.

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Kochkadam».

(٤٢) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٨٢٦ ملاحظة ٢ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٨٢ .

— Lane Poole, Egypt in the Middle Ages pp. 341, 342.

(٤٣)

— Ziada, Op. Cit., p. 35.

امارة « دلاغار » وعبء مدافعة أوزون حسن عن الأطراف المالكية . واستطاع ابن رمضان - تابع السلطان قايتباى على اقليم أطنة - تشتيت شاه سوار عدو السلطنة المالكية عام ١٤٦٩ وابعاده عن الأطراف الشمالية ، كما نجحت قوات الماليك فى أسره وارساله للقاهرة مكبلا بالحديد حيث شتى على باب زويلة . غير أن الجو لم يصبح بذلك خاليا للأمير « شاه بداق » ، اذ نازعه أخوه « علاء الدولة دلاغار » بتأييد من السلطان بايزيد الثانى العثمانى الذى خلف والده محمد الثانى العثمانى عام ١٤٨١ (٤٤) ثم استطاعت قوات الماليك هزيمة علاء الدولة وأجبرته على اعلان الولاء للسلطنة المالكية ، ولم يلبث أن صار من أخلص أعوان الماليك ، وكان يبلغ السلطان قايتباى تحركات العثمانيين على الأطراف المالكية . أما شاه بداق فوصل الى القاهرة وأرسله السلطان قايتباى الى الصعيد وأجرى عليه الأرزاق حتى مات عام ١٤٩٨ . (٤٥)

وكان أوزون حسن قد هنا السلطان قايتباى بالسلطنة وأرسل اليه هدايا فاخرة لدى اعتلائه العرش فى ٣١ من يناير عام ١٤٦٨ . ثم لم تلبث أطماع أوزون حسن أن ظهرت ، اذ انتهز فرصة الخلاف بين السلطنة المالكية وشاه سوار فاكتمح بقواته قلاع قبيلة « الشاه السوداء » ثم أرسل مفاتيح تلك القلاع للقاهرة عام ١٤٦٩ م ، امعانا فى الخداع ، واضطر قايتباى الى السكوت وقتذاك على مضض لانشغاله بحرب شاه سوار ، ثم توسع أوزون حسن فى فتوحاته شرقا فى فارس ووسط آسيا ، وأسر « أبا سعيد التيمورى » ملك سمرقند

(٤٤) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ١١١ - ١٦٧ و ١٢٩ - ١٣٦ .

— Heyd, Op. Cit., T. II p. 327.

— Lane Poole ; Turkey, pp. 634, 135, 136.

— Hammer, Op. Cit., T. III, pp. 117, 118.

(٤٥) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٣٢ - ٢٤١ - ٢٥٩ - ٢٦١ .

وأصدق خلفاء قبيلة الشاه السوداء وذبحه وأرسل رأسه للقاهرة عام ١٤٦٩ هـ (٤٦) ولم يكتف أوزون حسن بذلك بل أرسل كسوة الكعبة باسمه ، ووصل قصاده فعلا للقاهرة عام ١٤٧١ هـ فى طريقهم للحجاز . وكان السلطان قايتباى قد فرغ من شاه سوار ، فقذف بقواته ضده أوزون حسن وأجبره على الارتداد عند الرها ، وحجز بعثته للحج حتى تم الصلح وسمح له بعد ذلك قايتباى باستئناف السفر للحجاز . ثم لم تلبث العلاقات أن ساءت مرة أخرى بين أوزون حسن وقايتباى ، إذ اختلف مع أحد أبنائه ولجأ هذا الابن الى حلب محتفيا بالسلطنة المماليكية ، ووفدت زوجة أوزون حسن الى القاهرة لتوسط السلطان قايتباى فى الصلح بين الأب وابنه . ولم ينقذ الموقف سوى موت أوزون حسن ١٤٧٨ م ، وخلفه ابنه خليل عام ١٤٧٩ م ، ثم يعقوب عام ١٤٩٠ ، ثم بيصنقر عام ١٤٩٥ م ، ورستم عام ١٤٩٦ ، وسادت الفوضى بعد ذلك مملكة الشاه الأبيض حتى ضم أملاكهم الشاه اسماعيل الصفوى . (٤٧)

أما العلاقات بين السلطنة المماليكية والعثمانيين فظلت على حالها من التدهور فى أوائل عهد قايتباى حتى اتفق الطرفان على عدم التدخل فى شئون إمارتى دغاادر وقرمان . وبدأ أن العداء قد قارب الانتهاء ، وبدأت السفارات مرة أخرى بين القاهرة والقسطنطينية حتى وفاة محمد الثانى العثمانى عام ١٤٨١ م وتولية ابنه بايزيد الثانى ، وذلك

(٤٦) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٦ .

(٤٧) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٠ - ١٥٠ و ١٥٩ و ١٦٠ - ١٨٤ -

٢١٠ - ٢١٢ - ٢٥١ - ٢٧٢ - ٢٨٣ - ٣١٢ - ٣٣٠ .

قرمانى : أخبار الدول وآثار الأول ص ٢٣٧ و ٢٣٨ .

زيادة : نهاية دولة سلاطين المماليك - بحث ببجلة الجمعية التاريخية ، ربيع مايو

١٩٥١ ص ٢٠٣ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «AK KOYUNLU — UZON HASSAN» pp. 1066, 1067.

— Hammer, Op. Cit., T. III, pp. 81-464-466.

أن الأمير جم - صاحب الحق الشرعى فى السلطنة العثمانية - فر الى القاهرة ، ورحب به السلطان قايتباى وأمدّه بالمال مما أثار حفيظة السلطان بايزيد الثانى على الدولة المماليكية . (٤٨) ثم التجأ الأمير جم بعد ذلك الى فرسان القديس يوحنا فى رودس ، فحجزوه ، وساموا السلطان بايزيد الثانى على الاحتفاظ به رهينة لقاء ٤٥٠٠٠ دوكات يدفعها لهم سنوياً ، وفى عام ١٤٨٩ م سلم الفرسان الأمير جم للبابوية ، ثم نقل لفرنسا حيث دس له شارل الثانى السم ومات ١٤٩٥ . (٤٩) وقام السلطان قايتباى أثناء تلك المأساة بدور أدى الى تدهور العلاقات مرة أخرى بين السلطنة المماليكية والعثمانيين ، وزاد هذه العلاقات تدهوراً أن السلطان قايتباى رفض السماح للسلطان بايزيد الثانى باصلاح قنوات المياه فى شوارع مكة ، كما استولى نائب ثغر جدة على هدايا مرسلة للسلطان العثمانى من بعض ملوك الهند وأرسلها للقاهرة . ولهذا كله نشبت الحرب بين الطرفين عام ١٤٨٦ ، واستطاعت قوات السلطان بايزيد الثانى الاستيلاء على طرسوس ومحاصرة ملطية ، وهى كلها أملاك السلطنة المماليكية على الأطراف الشمالية ، وشجع علاء الدولة دلقادر فى ثورته على السلطنة المماليكية وفى عام ١٤٨٩ استطاع امير أذربك المماليكى استرداد ما احتلته القوات العثمانية وأنزل بها هزيمة ساحقة . ثم سئم الطرفان القتال وحل السلام بينهما عام ١٤٩٢ . (٥٠)

واستمرت العلاقات ودية بين قبرص والمماليك على عهد السلطان قايتباى ، وتزوج الملك جيمس الثانى من كاترين كونارو ابنة أحد

(٤٨) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٦ .

— Ziada, Op. Cit., p. 204.
— Hammer, Op. Cit., T. III pp. 353, 354.

(٤٩) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٧ .

— Ziada, Op. Cit., p. 205.
— Lane Poole, Turkey, pp. 147-150.
— Hammer, Op. Cit., T. III pp. 357-360.

(٥٠) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٦ و ٢٢٧ - ٢٦٤ .

أعيان البندقية ، واستخدم فى بلاطه عددا كبيرا من البنادقة . ولما مات جيمس الثانى عام ١٤٧٣ حكمت كاترين الجزيرة بأشراف البنادقة . وأبدى قايتباى ارتياحه لذلك وحذر البنادقة من تأخير الجزية ، فأسرت كاترين بارسال جزية عامين متأخرين ، وسر السلطان قايتباى بذلك وأرسل يؤيد الملكة . ثم تأخرت الجزية مرة أخرى فهدد قايتباى باستخدام القوة ، فوصلته الجزية عام ١٤٧٩ م . وقدرت البندقية أهمية الجزيرة فى الدفاع عن مصالحها وتجارتها فى شرق البحر المتوسط ، واستطاعت أن تقنع كاترين بالتنازل عن الحكم للبندقية ، وتم ذلك فى عام ١٤٨٩ م ، وانتقلت الملكة لتقضى بقية أيامها فى البندقية . وسافر الحاكم اليندى الجديد للقاهرة ، وأوضح للسلطان المماليكى قايتباى الأمر مؤكدا التبعية وضمان وصول الجزية بانتظام . وفى عام ١٤٩٠ أرسل قايتباى لدوج البندقية رسالة يبلغه فيها موافقته على الوضع الجديد للجزيرة مع مراعاة سكانها وحقوقهم ومعاملتهم معاملة طيبة . (٥١)

وفى عام ١٤٩٠ وصلت للسلطان قايتباى استغاثة من الأمير « أبو عبد الله محمد » صاحب غرناطة يطلب العون لصد هجمات فردناند ملك اسبانيا المسيحية ، وكان السلطان قايتباى مشغولا بحروب التركمان والعثمانيين ، فاكتفى بارسال تهديده لملك اسبانيا والبابا بهدم كنيسة القيامة بالقدس ومنع الحج للأراضى المقدسة بفلسطين . ولكن تهديداته لم تؤد لنتيجة ما ، وسلمت غرناطة للملك فردناند الثانى عام ١٤٩١ بشرط أن يبقى المسلمون بها دون ائذاء فى أموالهم أو أرواحهم

(٥١) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ١٨٢ - ١٨٥ .

سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٢٦ .

توليف اسكندر : وثائق تنازل مصر عن حكم قبرص للبندقية - انظر المراجع .

— Mas Latrie, Op. Cit. T. II pp. 391 N. 3. & pp. 472-478 481-483.

أو دينهم ، وطويت بذلك صفحة رائعة من تاريخ الاسلام فى
أوربا . (٥٢)

وفى ٢٠ ابريل ١٥٠١ ولى الحكم بالقاهرة السلطان « الأشرف
قانسوه الغورى » ، وكان عمره ٦٠ عاما ، غير أنه أثبت للأمراء أنه
ليس مطية عجوزا ، ولما كانت الميزانية فى حالة افلاس فقد لجأ الغورى
الى الأهالى يجمع المال منهم بوسائل شتى ، فأخضع للضرائب السلطانية
المباشرة جميع الأراضى والحمامات والسواقى والطواحين والقوارب
ودواب الحمل ، كما فرض على اليهود والمسيحيين أموالا كثيرة ، وطلب
دفع الضرائب مقدما لعدة سنوات ، وأنقص وزن العملة . (٥٣) وفى
عام ١٤٩٨ نزل البرتغاليون فى قاليقوت بساحل الهند الغربى ، بعد
أن داروا حول افريقية ، وأخذوا يعملون على توجيه تجارة التوابل
من الاسكندرية الى لشبونة ، ووصلت رسائل احتجاج من السلطان
الغورى الى البابا وملكى اسبانيا والبرتغال عام ١٥٠٤/١٥٠٧ ، وفيها
هدد السلطان بهدم كنيسة القيامة ومنع الحج الى الأراضى المسيحية
المقدسة فى فلسطين اذا لم يكف البرتغاليون عن تهديد التجارة
الماليكية . ولما لم يجد الغورى استجابة لطلباته أرسل حملة بحرية الى
الهند ، وتحالف مع ملوكها المعادين للبرتغاليين ، واستطاع الأمير حسين
قائد الأسطول الماليسى - بمعونة أسطول مملكة «جوجيرات» - أن
يهزم البرتغاليين عند « شول » حيث قتل القائد البرتغالى « لورنزو
دالميدا » عام ١٥٠٨ . وبعد ذلك بشهور قليلة انتقم « فرنسيسكو
دالميدا » نائب الملك البرتغالى بالهند لموت ابنه لورنزو ، وحطم أسطول

(٥٢) سلمت غرناطة فى ديسمبر ١٤٩١ م/صفر ٨٩٧ هـ . انظر :
محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ص ٢٢٧ ذ ٢٢٨ و ٢٢٩ الى
٢٣٧
(٥٣) ابن اياس : المصدر السابق ج ٣ ص ٥٩ .

المماليك والأسطول المتحالف معه فى وقعه «ديو» ١٥٠٩ . (٥٤) وكان لهزيمة ديو وقع شديد فى القاهرة ، وطلب السلطان الغورى العون العسكرى من البندقية لمواصلة القتال ضد البرتغاليين فى الهند فنصحه البنادقة بأن يتوجه بطلبه الى السلطان بايزيد الثانى العثمانى لخرج موقفهم أمام الدول المسيحية ، واستجاب السلطان بايزيد الثانى وأرسل الأسلحة للسلطان الغورى ، وكذلك الأخشاب عام ١٥١٠ . ولم تكد السفن تبارح الموانئ العثمانية حتى هاجمها فرسان القديس يوحنا وأغرقوا بعضها وأسروا البعض الآخر . (٥٥) فغضب السلطان الغورى وانتقم من الأجانب فى بلاده وخاصة البنادقة ، لظنه أنهم وشوا به لفرسان رودس . وجاء حادث ضبط الرسائل المتبادلة بين قنصل البندقية فى دمشق والشاه اسماعيل الصفوى فى فارس تأكيدا للشكوك التى حامت حول البنادقة ، فقبض على القنصل وأودعه مع بعض مواطنيه سجون القاهرة حتى وصلت بعثة تريفيزانى من الهند عام ١٥١١م وسويت المشكلة فى معاهدة ١٥١٢ م . (٥٦)

ومنذ عام ١٥٠٢ والشاه اسماعيل الصفوى الذى ولى الحكم فى فارس يعمل على توسيع رقعة بلاده غربا ، فضم اليه أملاك قبيلتى الشاه البيضاء والشاه السوداء ، واقترب من أطراف الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى ودولة سلاطين المماليك بشمال الشام والعراق ، وكان الخلاف قد زاد بين الشيعة الصفويين والسنة العثمانيين بصورة واضحة منذ عهد السلطان بايزيد الثانى العثمانى ، ولم تلبث أن قامت الحرب عام ١٥١٤ بين القوتين المتصارعتين على عهد السلطان سليم

-
- (٥٤) — Lane Poole, India, pp. 176, 177.
 — Lane Poole, A Hist. of Egypt In The Middle Ages ; pp. 350-352.
 (٥٥) تاريخ المعركة ١٠ أغسطس ١٥١٠ .
 — Heyd, Op. Cit., T. II pp. 537, 538.
 (٥٦) انظر معاهدة تريفيزانى بالملحق برقم ١٣ ا وما بعدها .
 — Heyd, Ibid, p. 539,

الأول العثماني الذي خلف والده بايزيد الثاني عام ١٥١٢ م^(٥٧) وبدأت أهمية الدولة المماليكية ، وخاصة أملاكها على الأطراف الشمالية في الصراع بين الشيعة والسنة ، وحاول كل من الشاه اسماعيل الصفوي والسلطان سليم الأول التحالف مع المماليك على حدة ، ولكن السلطان الغوري فضل الحياد ، مع العلم بأنه راسل الشاه سرا فيما بعد واستقبل قصاده دفعا لعداوته^(٥٨) . واستطاع السلطان سليم الأول أن يهزم الصفويين في موقعة تشالديران عام ١٥١٤ م ودخل العاصمة تبريز وهدمها ونجا الشاه اسماعيل الصفوي من الأسر واكتفى السلطان سليم الأول بهذا النصر ، وعاد بعد أن استولى على كردستان وديار بكر ومرعش وأبلستين وباقي أملاك دلفادر ، وكان الأمير على بك ابن شاه سوار الذي قتل على عهد السلطان قايتباي قد خلف علاء الدولة دلفادر عام ١٥١٥ م وصار تابعا للسلطان سليم الأول . وباستيلاء السلطان سليم الأول على هذه الامارة ، أصبح فعلا على مقربة من الأطراف المماليكية الشمالية .^(٥٩)

والواقع أنه الخلاف بين المماليك والعثمانيين كان لا بد أن يصل الى نهايته المحتومة ، فلم تكن المناوشات والحروب منذ أيام السلطان قايتباي وبايزيد الثاني الا تمهيدا للمعركة الفاصلة التي وقعت على عهد السلطان سليم الأول . ولما تجاوزت حدود الدولة العثمانية بأطراف الدولة المماليكية الشمالية وضحت نية العثمانيين .^(٦٠) فلا عدااء الغوري ولا ايواء الأمراء الفارين ولا معاهداته السرية مع الشاه الصفوي كانت سببا في النكبة التي حلت بدولة سلاطين المماليك، انما

— Lane Poole, Turkey, p. 141. (٥٧)

(٥٨) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ١١٨ (طبعة محمد مصطفى) .

القرماني : أخبار الدول وآثار الاول ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

— Lane Poole, Turkey, p. 158. (٥٩)

(٦٠) زيادة : نهاية دولة سلاطين المماليك ص ٢١٦ مجلة الجمعية التاريخية مايو

١٩٥٢ .

— Ziada, Op. Cit. p. 222.

هي الرغبة في التوسع وتأمين أطراف الدولة العثمانية (٦١) . فلى يكبد ينتهى سليم الأول من الشاه الصفوى حتى دفع بجيوشه الى المعركة فى الشام والتقى بالسلطان الغورى عند مرج دابق ١٥١٦ م وكان أن انهزم المماليك وسقط الغورى صريعا بسبب الخيانة بين صفوف المماليك مما عجل بالهزيمة . ووصلت الأنباء الى القاهرة فأقام الأمراء العادل طومانباى الثانى سلطانا فى ٧ أكتوبر من عام ١٥١٦ . (٦٢) وبذل طومانباى جهودا يائسة لوقف الزحف العثمانى على القاهرة ، ولكنه تفهقر عند الريدانية ١٥١٧ . (٦٣) وفى اليوم التالى أعلن سليم الأول سلطانا على مصر والشام ودعى له على المنابر ، واستمر طومانباى يقاوم فى الجيزة والصعيد والبحيرة حتى سلمه أحد رؤساء القبائل من البدو للعثمانيين وشنق على باب زويلة فى ٥ من أبريل عام ١٥١٧ . (٦٤)

ويقال ان طومانباى طلب المعونة العسكرية من فرسان القديس يوحنا فى رودس وأنهم أرسلوا اليه معدات حربية عن طريق ميناء دمياط ، ولكن ابن اياس المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث يكذب الواقعة (٦٥) . وقد نقل السلطان سليم الأول الخليفة العباسى

(٦١) ابن اياس : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦١ (طبعة محمد مصطفى) .
— Ziada, Ibid, p. 215.

(٦٢) ابن اياس : المصدر السابق ج ٥ ص ٦٨ و ٦٩ (طبعة محمد مصطفى) .
ابن زنبيل الرمال : كتاب تاريخ السلطان سليم (مخطوطة) ورقة ١٤ وعن تولية طومانباى ورقة ٢٢ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٥ ص ٧٠ و ٧١ و ١٠١ - ١٠٢ .
« لم يقع للوك بنى عثمان مثل هذه النصرة على أحد الملوك قاطبة كما لم يقع قط لأحد سلاطين مصر مثل هذه الكائنة أو مات تحت صنتجة فى يوم الحرب » .

(٦٣) ابن اياس : المصدر السابق ج ٥ ص ١٤٢ و ١٤٣ - ١٤٧ .
ابن زنبيل : المصدر السابق ورقة ٢٩ - ٣٧ و ٣٨ .

(٦٤) ابن اياس : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٠٩ - ٣١١ .
زيادة : نهاية دولة سلاطين المماليك ص ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٢٨ .
— Lane Poole, Turkey, pp. 158, 159, 160, 161.

(٦٥) ابن اياس : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٩٣ - ٣١٩ .

للقسطنطينية . وجاءه وهو بالقاهرة ابن شريف مكة وسلمه مفاتيح
الكعبة ، وكان هذا أقصى ما يتمناه سليم الأول ليصبح خليفة
للمسلمين . وفي عودته للقسطنطينية استولى على جزيرة قبرص ونظم
جزيتها .

ويعتبر سقوط بلاد الشام ومصر في يد العثمانيين أهم أحداث
أواخر العصور الوسطى بعد فتح القسطنطينية وكشف الطريق البحرى
حول افريقية الى الهند .

الفصل الثاني

العلاقات التجارية الخارجية بين دول شرق البحر
المتوسط وغرب في النصف الثاني من القرن الخامس عشر

الشرق والغرب من المصطلحات النسبية التى تطبق على أى اقليم .
وقد اتبعت فى هذا البحث ما جرى عليه معظم المؤرخين الأوروبيين
والأمريكيين لفترة العصور الوسطى ، اذ يطلقون كلمة الشرق على
القارة الآسيوية كلها بما فى ذلك شرق البحر المتوسط والبلاد الناطقة
بالضاد ، ويضيفون الى ذلك البلقان والبلاد التى كان يحتلها العرب
مهما قرب موقعها الجغرافى من الغرب . أما الغرب عندهم فهو الجزء
من أوربا الذى يقع غربى البحر الادرياتي ونهر الألب . وعلى هذا
فالدراسة هنا تتعلق أساسا بالعلاقات التى قامت فى حوض البحر
المتوسط بصفته مركزا للاتصال بين الشرق والغرب ، على أن إسبانيا
وصقلية لا تعدان من البلاد الغربية الا بعد خروج العرب والروم
منهما (*) .

وعلى هذا النحو فقد ظلت مصر والشام وموانئهما على البحر
المتوسط والبحر الأحمر مراكز للاتصال التجارى بين المحيط الهندى
وشرق آسيا والمحيط الأطلسى وغرب أوربا ، حتى نهاية العصور
الوسطى ، فتجمعت فى أسواقهما المتاجر الشرقية والغربية ، ووقع عبء

(*) افاض فى هذا المعنى روبرت لوبيز (Robert Lopez) فى مقاله «التأثيرات
الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب المنشور بالمجلة الدولية التى تصدرها اليونسكو
Cahier D'Histoire International باسم
المجلد الثالث يناير ١٩٥٤ - وقد قام بنقله الى العربية الدكتور توفيق امسكندر فى كتاب
« بحوث فى التاريخ الاقتصادى » - مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عام ١٩٦١
- البحث الخامس من ١٤٢ الى ١٨٧ .

نقلها وتوزيعها على عاتق التجار العرب وتجار المدن والجمهوريات الإيطالية والفرنسيين والقطالونيين .

وأدى سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ في يد الأتراك العثمانيين وما صاحب ذلك من عمليات حرية برية وبحرية واسعة ، الى ارتباك التجارة وانهيار طرقها البرية والبحرية من آسيا وأوروبا عبر البحر الأسود والأناضول والمضائق ، اذ أصبح المرور بها أمرا مخفوا بالكثير من المخاطر . هذا الى أنه السلطات العثمانية أولت كل اهتمامها للعمليات الحربية في محاولة منها لتثبيت أقدامها في أوروبا فلم تهتم بالتجارة ، بل انها قبضت على الجاليات الأجنبية التي احتكرت التجارة في المنطقة منذ أمد بعيد ، وخاصة تجار المدن والجمهوريات الإيطالية لمساعدتهم البيزنطيين في العمليات الحربية ، فأنهت الوكالات والمصارف أعمالها ، وأغلقت الأسواق . ورحل بعض التجار الى بلادهم ، واتجه الآخرون الى فروع وكالاتهم في بلاد السلطنة المماليكية بمصر وسوريا . (١)

وفي مصر اتخذ السلطان اينال ١٤٥٣/١٤٦٠ اجراءات أمن مشددة يتطلبها الوضع الجديد الذي نجم عن سقوط القسطنطينية ، فتحفظت السلطات المماليكية على سفن وسلع وكالات التجار الأجانب، ولكن بعد عودة بعثة الشرف المماليكية التي أرسلت لتهنئة السلطان

(١) الملاحظ أنه في فترة الصراع على القسطنطينية ١٤٥٣ حاولت الجمهوريات الإيطالية ذات المصالح التجارية في المدينة حماية مصالحها ، فراسلت السلطان محمد الثاني ، في الوقت الذي كانت تساعد فيه البيزنطيين سرا لتتال من المنتصر مزايا جديدة . كما يلاحظ أيضا أن عدم اهتمام العثمانيين بالتجارة في ذلك الوقت ليس مرجعه التأخر أو المعجز أو الإهمال ، ولكن في عام ١٤٥٣ كان لدى العثمانيين ما هو أهم من التجارة ، كان لديهم الفتح والتوسع وتأمين الامبراطورية . وقد أثبتت الحوادث ذلك فيما بعد .

— Heyd, Op. Cit. T. II pp. 349 ff. & 428, 429-440.

— Millet, Hist. Des Faits Economiques pp. 110, 111 & 131. ff.

— Pernaud, Les Villes Marchands, pp. 52-56.

— Poston, The Cambridge Economic Hist., P. II pp. 99-102.

— Cioli, Hist. Economique, pp. 106, 107.

— Depping, Hist. Du Commerce, T. I. p. 74. & T. II. pp. 207, 208.

محمد الثانى العثمانى بالفتح العظيم ، اتخذ السلطان اينال تدابير
لمواجهة تدفق الأعداد الضخمة من هؤلاء التجار الأجانب وما صاحبه
من انتعاش ملحوظ فى التجارة الخارجية للدولة المماليكية ، فزاد من
الاعفاءات الممنوحة لهم ، وخاصة من يكثر التردد أو تطول مدة اقامته
فى مصر وسوريا ، وسمح لهم بتوسيع وكالاتهم وتجديدها ، وانشاء
المصارف والمخازن والفنادق . كما أجاز تعيين وكلاء لقناصلهم فى
بعض المرافق والموانئ والمراكز التجارية الداخلية للإشراف على عمليات
البيع والشراء والمقايضة وتحصيل الرسوم المحلية والجمركية وتسليمها
للسلطات الحاكمة . وقد نشطت العمليات المصرفية بعد نقل مراكز
التجارة الرئيسية من القسطنطينية الى مصر والشام التى طبقت فى
مدنها وموانئها نفس القوانين المعمول بها فى مصر ، فاكثرت بالتجار
الأجانب المبعدين من القسطنطينية والذين فضلوا الموانئ والمدن
السورية لقربها من مراكز التجارة فى وسط آسيا ، وآسبا الصغرى
والخليج الفارسى ، فحفلت أسواقها بسلع الصين والهند وفارس
وسلطانية مما لا يتوافر طول العام فى أسواق مصر . وقد تضمنت
المعاهدات الجديدة كل هذه الامتيازات ، كما أكدت الاتفاقيات
السابقة .

وكانت البابوية قد لمست بنفسها مايعانيه تجار المدن والجمهوريات
الاطالية من السلطات العثمانية بعد سقوط الدولة البيزنطية ، وتحت
ضغط تجار هذه الجمهوريات وتجار فرنسا وقطالونيا سبكت البابوية
مسلكا واقعيا ، فقد لاحظت أن التجار يحترمون قوانين المقاطعة ضد
الدول الاسلامية فى الظاهر وينقضونها سرا ، فخففت من قيود
التحريم ، وأباحت للتجار التعامل مع الدولة المماليكية ، وخاصة فى
استيراد البخور والحري والسلع اللازمة للكنيسة ، تعويضا لهم عن
فقد أسواق القسطنطينية ، وإن كانوا قد منعوا من تصدير المواد
الحرية والأخشاب لصنع السفن ، وأصبحت قوانين التحريم المعدلة

تقليدا يقرها كل بابا يلى كرسى روما الدينى . (٢)

ومنذ عهد السلطان اينال ، ومن بعده ابنه السلطان أحمد ١٤٦١ ، ووفود الجمهوريات الايطالية تصل الى مصر لتجديد وتدعيم مراكزها التجارية ، ومن بينها وفود جنوة التى طالما انتشر تجارها فى مدن وموانئ مصر والشام ، وكانوا قد نجحوا منذ أواخر القرن الرابع عشر فى تدعيم كيانهم التجارى ببلاد السلطنة المماليكية بسبب ماحدث لجنوة من ارتباكات سياسية ومالية أدت الى تدخل فرنسا فى شئونها الداخلية ، وزاد من مأساتها اصابتها بنكسة شديدة فى تجارتها الشرقية بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ ، ثم ضياع أملاكها وتجارها تماما فى امبراطورية طرايزون على البحر الأسود التى اكتسحها السلطان محمد الثانى العثمانى عام ١٤٦١ . وقد وجهه الجنويون أن حياتهم مرتبطة باستئناف التجارة فى بلاد السلطان المماليكى فى ظل النظام الجديد ، فمنعوا تهجم سفن أسطولهم الحربى على سواحل مصر والشام وقبرص ، ومنعوا كذلك غارات قراصنتهم ، ومع ذلك فإن هذا النشاط كان صحوة الموت بالنسبة لجنوة كجمهورية لها كيان سياسى ، وكيان اقتصادى مستقل . (٣)

(٢) هذا الازدهار العظيم الذى شمل التجارة المماليكية منذ سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ الى ظهور البرتغاليين فى المياه الهندية ١٤٩٨ ، والذي استمر قرابة نصف قرن خبت جذوته فى الربع الأول من القرن ١٦ وبالضبط حتى سقوط مصر فى أيدي العثمانيين ١٥١٧ وتحول التجارة تماما الى طريق رأس الرجاء الصالح ، لذا يعتبر عام ١٤٥٣ بداية النهاية للعصر الذهبى لتجارة شرق البحر المتوسط .
- فيشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى القسم الثانى - ترجمة زيادة والميرنى حاشية ص ٤٢٦ .

- Poston, Op. Cit., pp. 341, 342.
- Pernaud, Op. Cit., pp. 61, 62 ff.
- Clerget, Le Caire, T. II. p. 303.
- Dopn, l'Egypte Au Gommencement Du 15ème Siècle. p. 59 et.
- Heyd, Op. Cit., T. II. pp. 440-456-459. 460.
- Depping, Op. Cit., T. II. pp. 170, 171 & T.I. p. 81.
- Ziada, Op. Cit., pp. 218-221.
- Pernaud, Op. Cit. pp. 39, 40.
- Heyd, Op. Cit., pp. 469, 470.

(٣)

واستقبلت القاهرة كذلك على عهد السلطان اينال بعثة الملك لويس الحادى عشر الفرنسى للتهنئة باعتلائه السلطنة ولتجديد وتأكيـد التعاون التجارى ، وقد أبلغت البعثة السلطان أن شركة جاك كير الفرنسية للتجارة الشرقية وفروعها وأملاكها فى أوربا وشرق البحر المتوسط قد آلت الى الحكومة الفرنسية ، وطالبت البعثة السلطان باعتماد موظفى الشركة فى بلاده على وضعهم الجديد ، وتم عقد اتفاقية جديدة عام ١٤٥٦ ، واستأنف وكلاء الشركة وموظفوها أعمالهم فى مصر والشام فى ظل الادارة الجديدة . ولكن أعمال المؤسسة فى نظامها الحكومى أخذت تدب إليها عوامل الانهيار والتفكك لخضوعها لقوانين حكومية فرنسية غير متطورة - ويبدو أن ازدهار الشركة وفروعها كان موقوتا ببقاء مؤسسها التاجر جاك كير فى مركزه الممتاز ببلاد ملك فرنسا وبقدرته على ادارة الشركة وبراعته فى الحصول على الامتيازات والاعفاءات من السلطات المالية . وكانت الشركة تعمل على نقل وتسويق المتاجر الشرقية من الاسكندرية ودمشق وبيروت الى فرنسا وسائر الدول الأوروبية . بل ان التغييرات الهامة فى تجارة فرنسا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ترجع فى المقدمة الى جهود هذا التاجر الذى خير أحوال التجارة من خلال فترة تردده الطويلة على مصر والشام وقيامه بانشاء علاقات مباشرة بين فرنسا والسلطنة المالية وحصوله من بابا روما وملوك فرنسا وقطالونيا على امتياز احتكار أنواع معينة من السلع ، ينقلها بأسطول ضخـم على خطوط ملاحـة منتظمة من قاعدة أعماله فى مونتبييه . وبلغ عدد فروع شركة جاك كير ٣٠٠ فرع توزعت ما بين دول غرب أوربا وشرق البحر المتوسط وساندها الأنظمة المالية والمصرفية المعروفة اذ ذاك . وبلغ من شدة ثرائه أنه كان يقرض الملوك والحكومات أموالا طائلة بضمانات عينية كما حملت سفنه الى مصر والشام الأصواف والمعادن والفواكه والزيوت والحـرير ، وعادت بالتوابل والبحار والقطن والجواهر والعاج والعقاقير

والصبغات وريش النعام ، وكلها مما كان يلقي رواجاً كبيراً في أسواق أوروبا . (٤)

وحتى عهد السلطان اينال كانت شركة التجارة الفرنسية جاك كير تمون أسواق قطلونيا بالسلع الشرقية بدلا من تجار قطلونيا الذين أوقفوا أعمال تجارتهم في مصر والشام ، فلما قل نشاط الشركة الفرنسية طالبت هيئة التجار القطلانية الملك الفونسو الخامس ١٤١٦/١٤٥٨ أن يستعيد لهم مراكزهم التجارية في بلاد السلطان المماليكي ، واستجاب

(٤) معظم اتصال فرنسا التجاري مع شرق البحر المتوسط كان مع موانئها الجنوبية في طولون ومرسيليا ومونتبييه Montipiller وقد ازدهر هذا الميناء في القرن ١٥ على عهد التاجر الفرنسي جاك كير Jacques Coeur الذي اتخذها مركزا ، لأعماله التجارية الى الشرق العربي والغرب الأوربي ومركزا لتجارته ومصارفه كما كان على صلة وثيقة بميناء الاسكندرية ودولة سلاطين المماليك حتى عام ١٥١٧ . ومينائها كان على استعداد دائما لاستقبال أكبر عدد من السفن في وقت واحد مما لا يتوافر في كثير من موانئ فرنسا الأخرى . أما موانئ فرنسا على الاطلنطي فلم تتصل مباشرة بشرق البحر المتوسط وان ذكر أن فرنسيس الثاني دوق مقاطعة بريتانى عقد معاهدة تجارية مع السلطان قايتباي عام ١٤٧٩ سمح بموجبها لتجار هذه المقاطعة بمرور الأسواق المصرية والشامية . راجع — Ziada, Op. Cit., p. 243.
— Heyd, Op. Cit. pp. 713, 714.

ويرجع قلة اتصال مدن غرب أوروبا بشرق البحر المتوسط مباشرة الى انتشار القراصنة الأسبان في منطقة جبل طارق وخاصة خلال الصراع بين مسلمي الأندلس والقطلانية على عهد الملك فردناند الثاني ، ففضل التجار الغربيون وصول متاجر الشرق اليهم عن طريق مدن وموانئ إيطاليا ، ثم برا الى أوروبا .

— Heyd, Op. Cit., pp. 718-720.

أما التاجر جاك كير فقد شغل نشاطه فترة هامة من تجارة الشرق على عهد السلطان جقمق حتى عهد السلطان اينال ١٤٣٨/١٤٥٦ وظهر في بلاط فرنسا على عهد الملك شارل السابع الذي استدعاه وأسند اليه منصب مدير دار السكة ثم اختاره رئيسا للبلاط الملكي ومنحه لقب نبيل ورفع أفراد أسرته الى مصاف النبلاء . ولم يبخل هذا التاجر بجهوده على بلاده فرفعها الى مصاف الدول العظمى التجارية حتى أصبح مواطنوه من أكثر الجاليات رعاية في بلاط السلطان المماليكي وأصبح لفرنسا قنصلا في مصر . الا أن شارل السابع ما لبث أن تغير عليه عام ١٤٥٠ لاتهامه بقتل إحدى محظيات الملك ، كما اتهم ببيع الأسلحة للمماليك ، وهرب التاجر الفرنسي الى صديقه البابا نيقولا الخامس ، وكان هذا يجهز حملة ضد العثمانيين . وعلى عهد خلفه قاد التاجر الفرنسي أسطولاً من ١٦ سفينة حربية لتجدة رودس وفي الطريق مرض وتخلف في جزيرة خيوس Chios حيث مات عام ١٤٥٦ . راجع — Camb. Modern Hist., Vol. I p. 504.
— Ziada, Op. Cit. pp. 221 & 240-243.

الملك لهذا الطلب وبدأ بمنع تهجم القراصنة القطلونيين على السفن المماليكية فى البحر المتوسط ، وأرسل البعثات الودية للقاهرة ، ومالبت تجار قطلونيا أن يظهروا فى أسواق الشام ومصر وعادوا الى وكالاتهم وفنادقهم واستأنف قناصلهم أعمالهم الرسمية وحملت سفنهم السلع الشرقية والتوابل والقطن من الاسكندرية ويبروت لمصانع الغزل فى برشلونة . وهكذا يرجع لهيئة التجار القطلانة الفضل فى استئناف واستمرار العلاقات الطيبة بين ملوك قطلونيا والسلاطين المماليك. وتحفل دار المحفوظات ومكتبة الجامعة فى برشلونة بالعديد من المعاهدات والاتفاقيات التجارية وخطابات التوصية المتبادلة بين ملوك قطلونيا والمماليك ، ومن بينها مخطوطة على عهد السلطان اينال منسوبة الى تاجر برشلونى يدعى « بونس » وتحمل تاريخ ١٤٥٥ - عدد فيها التاجر السلع المتبادلة مع مصر « كالتوابل والزنجبيل والقرفة وجوزة الطيب والمسك ومواد الصباغة والدباغة والصمغ والدهون والكهرمان والحنظل والحنطة والسكر والقطن محلوja وغير محلوj والملابس والحرير والعطور والعقاقير » . وكلها من السلع الشرقية التى كانت تحتل المقام الأول فى تجارة أوربا الخارجية . ثم قائمة أخرى بالسلع المصدرة لمصر ومنها « زيت الأندلس والعسل والصابون والجوز والسك والنبيذ والملح البحرى والقطران وجلود الحيوانات وقشر الأشجار والصودا والزنجفر والمرجان والفواكه المجففة واللوز وأبوفروة والشمع والزعفران والأقمشة المنسوجة القطنية والصوفية والحريرية والجوخ والأطلس والمخل والخيش الناعم والخشن منسوجا وغير منسوج والأثاث وقلوع السفن وحبالها من الكتان وكذلك المصنوعات الحديدية والقصدير والصفيح والرصاص والنحاس والزئبق والكبريت وأحجار الطواحين .. (٥)

(٥) ولى الملك ألفونسو الخامس الحكم فى أراجونا عام ١٤١٦ حتى عام ١٤٥٨ ، وقضى أعواما طويلا فى فتح مملكة نابلى حتى توج ملكا عليها وقام بنشاط اقتصادى واسع =

أما تجار البندقية فكانت فترة حكم السلطان اينال بداية طيبة لزيادة نشاطهم التجارى فى مصر والشام وخاصة بعد توتر العلاقات بينهم وبين العثمانيين ، فعملوا على تنمية مراكزهم التجارية وتدعيمها وتثبيت أقدامهم فى بلاد السلطان المماليكى تعويضا لهم عما فقدوه من أسواق القسطنطينية ، وإن كانوا قد طمعوا فى استرداد مراكزهم السابقة التى أصبحت تحت سيطرة السلطات العثمانية ، فبعد أن هدأت الأحوال الحربية عاودوا الاتصال بالسلطان محمد الثانى العثمانى وأبرموا معه اتفاقية تجارية عاد بموجبها التجار البنادقة الى استئناف نشاطهم التجارى فى مراكزهم السابقة وفى نفوسهم آمال عريضة بالمتاجرة فى المورة وعلى البحر الأسود . والواقع أن الاتصال بين البنادقة والعثمانيين كان فيه كثير من التساهل بين الجانبين ، ولعب الخيال فى الاتفاقية دورا كبيرا وبرهنت الأيام على صدق هذا القول ، إذ لاحظ البنادقة أن العثمانيين — سادة وشعبا — بعيدون تماما عن الحضارة والمدنية اللتين كانتا للبيزنطيين ، كما أن اهتمامهم بالتجارة كان

== المبنى فى حوض البحر المتوسط الشرقى والغربى وعقد معاهدات سياسية واقتصادية مع الدول الاسلامية ، وكان أهم أهدافه توثيق العلاقات مع مصر بالذات كمحور ، للنشاط الاسلامى واكبر دولة اسلامية حتى ذلك الوقت فى شرق البحر المتوسط بل وفى غربيه أيضا فضلا عن مركزها التجارى وموقعها الجغرافى . راجع : المجلة عدد يناير ١٩٦١ ص ٨٩ وما بعدها ، بحث/ الطاهر أحمد مكي عن التجارة بين مصر وقطالونيا .
— Heyd, Op. Cit. pp. 482-483.

وقد نقل الطاهر مكي معاهدة بين قطالونيا والسلطات المماليكية عن الاصل العربى المحفوظ بأرشيف برشلونة على عهد الملك الفونسو الخامس عام ١٤١٦/١٤٥٨ والسلطان الأشرف برسباى عام ١٤٢٢/١٤٣٨ وتحمل تاريخ ٧ رمضان ٨٣٣ هـ ، ومع أنها تسبق فترة البحث إلا أنها ظلت سارية المفعول ، إذ أن المعاهدات كانت تتجدد كلما تغير حاكم فى مصر أو فى أراجونا عن طريق تبادل السفارات ويصدر بها مراسيم تؤكد المعاهدات السابقة وملاحق بالامتيازات والاعفاءات الجديدة .

راجع : المجلة : عدد سبتمبر ١٩٦٠ من ص ٤٨ — ٥٩ ، والتعليق بعدد يناير عام ١٩٦١ ص ٨٨ وما بعدها . وفى التعليق ملحق بالوثيقة جدول بالسلع المتبادلة وتذكر الوثيقة اسم التاجر وهو بونس «Bons»

— Depping, Op. Cit., T.I. p. 260.

بالقدر اللازم للحصول على الأموال فزادوا الضرائب التى قللت من أرباح التجار ، كما أن السلطان العثمانى حصن مداخل المضايق وأخضع السفن التجارية المارة بها للتفتيش الدقيق ، وتحمل البنادقة الكثير من العنت والارهاق من أعمال السلطان العثمانى مما جعلهم يترحمون على الأيام التى مرت فى ظل الحكم البيزنطى ويعملون فى الوقت نفسه على تأكيد وتثبيت كيانهم فى بلاد السلطان المماليكى بمصر والشام . (١) وانتهزوا فرصة انهيار الشركة الفرنسية « كير » وأرسلوا سفارة الى مصر وصلت أواخر عهد السلطان اينال ، واستمرت فى مفاوضاتها خلال الفترة القصيرة التى حكم فيها ابنه السلطان أحمد وعقدت الاتفاقية عام ١٤٩١ ، تأكدت بها المعاهدات والاتفاقيات السابقة - كما زادت فترة المدة الخاصة بهم ليتمكنوا من شراء ما يلزمهم من السلع الشرقية تعويضا عن النقص من أسواق بلاد الدولة العثمانية ، وكذلك أعادوا تنظيم رحلات سفنهم التجارية القاصدة موانئ بيروت وصيدا والاسكندرية وشددوا عليها الحراسة لاتساع نطاق الحرب مع العثمانيين فى المياه الاغريقية ، وأمدوا الممالك بالأخشاب والمواد الحربية متحدين بذلك التحريمات البابوية ، وجعلوا سفنا خاصة بالشام تبدأ رحلتها فى الفترة من ٨ - ٢٥ من أغسطس وتتكون كل قافلة من ثلاث سفن ، ويتردد أفرادها على مدن وموانئ الشام ، وتحمل القطن من صور وصيدا وحيفا - أما رحلة الخريف فتتجه الى الاسكندرية وترك بسفنها فراغا لحمل سلع أخرى من ميناء بيروت قبل عودتها الى

(١) أول المعاهدات التجارية بين السلطان محمد الثانى العثمانى والبنادقة بتاريخ ١٨ ابريل عام ١٤٥٤ بعد فتح القسطنطينية (انظر الملحق رقم ١٧) وراجع كذلك شارل ديل: البندقية جمهورية أرستقراطية ترجمة غربال وعزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ص ١٣٧ و ١٣٨ .

— Heyd, Op. Cit., p. 316-320.
— Hammer ; Op. Cit., T. III pp. 30-64 and p. 240.
— Camb. Modern Hist. Vol. I p. 280.
— Depping ; Op. Cit., pp. 227, 228 & N. p. 341.

البندقية . (٧) وأسهمت كثير من بيوتات البندقية التجارية وأسرها في التجارة الشرقية ، واتخذوا دمشق مركزا رئيسيا لنشاطهم ، وأقاموا بها الوكالات والفنادق والقنصليات والمصارف ، وطبقوا بها الأنظمة المالية والمصرفية المتبعة في بلادهم ومنحهم السلطان اينال تسهيلات تجارية واسعة وحرية شخصية فسمح لهم بادخال النيذ في فنادقهم لحاجتهم الشخصية فقط ، واعتمد قنصلهم كممثل لجمهورية البندقية والمشراف على مواطنيه مدة وجودهم في بلاده ، كما سمح لهم أحيانا بالوصول الى القاهرة للبيع والشراء ، وأجازت الدولة استمرار التعامل بالدوكات البندقية عملة رسمية لتسهيل الأعمال التجارية مع الحكومات والأهالي . وقد تناول السلطان الدوكات بالخفض والتغير كلما زادت احتياجاته للمال مع الاحتفاظ بقيمته الاسمية ، وكذلك للضرب على أيدي الزغلية مزيفي النقود الذين زادوا في النصف الأخير من القرن الخامس عشر . (٨) وأوصت الحكومة عمالها بمراعاة مصالح البنادقة وراحة تجارهم . الا أن الطرفين اختلفا في تحديد أسعار بعض السلع ، كعود الند ، وأخشاب الصباغة ، والسجاد ، واليورسلين ، والبلسم ، نظرا لزيادة الطلب عليها مما حدا بالسلطان اينال الى تأكيد احتكاره لها ولبيع بعض السلع الأخرى الشرقية . (٩) فجعل سعر الحمل من توابل الذخيرة الشريفة الخاصة به والمعروفة بالسلطانية مائة دوكات، كما حدد كميات وأسعار ما يعرض منها بالسوق الحر لأجبارهم على شراء التوابل الشريفة أولا . (١٠) ومع هذا لم تضطرب العلاقات على عهد السلطان

(٧) راجع ماكتب عن نظام المدة بفصل « النظم التجارية » : سلفن بيروت تحمل اسم Galee Di Baruti وسلفن الشام تحمل اسم Galee Di Seria وراجع كذلك Heyd, Op. Cit. T; II p. 460, 461.

وقد تحدد شهر أغسطس بالذات لحمل القطن من الشام وشهر سبتمبر لحمله من مصر - لتوافق هذا مع مواعيد هبوب الرياح (انظر بعده الفصل الخامس) .

(٨) من هذه الأسر : أسرة Quirini وأسرة Barbarigo وأسرة Storlato

والأخوين Marco & Albano Morosini

اينال وابنه السلطان أحمد الذى حمل البعثة لدى عودتها الى البندقية رسالة ودية لدوق البندقية وأهدى أعضائها هدايا قيمة (١١) .

ومن المدن والجمهوريات التى أسهمت فى تجارة مصر والشام الخارجية فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر: بيزا ، وفلورنسا . وكان لبيزا مع شرق البحر المتوسط تجارة رائعة، بل انها من أولى المدن التجارية التى كان لها وكالات وفنادق فى صور وصيدا وبيروت وبيت المقدس وأنطاكية واللاذقية وطرابلس والاسكندرية والقاهرة ، وتطبق فى وكالاتها وفنادقها النظم السائدة فى بيزا نفسها، وبقيت كذلك

= راجع :

- walter, J. Fischel, The Spice in The Mameluk Egypt Vol. I Part, II April 1068 p. 286.
- Dopp, Op. Cit., pp. 67,68, Folio 40.
- Heyd, Op. Cit., pp. 482, 483 & 463.

وبخصوص تغيير العملة بالخفض ومحاربة الزغلية مزيلى النقود انظر الفصل الخامس فى موضوع النقد ، وكذلك انظر :

— أبو المحاسن : حوادث الدهور ص ٢٧٨ .

(٩) كانت المتاجر الشرقية شبه احتكار فى يد الكارمية حتى نقلها الى الدولة السلطان الأشرف برسباي ، وأكد السلاطين المتعاقبون هذا الاحتكار حتى نهاية دولة المماليك الجراكسة ، وصار التجار الكارمية موظفين فى الدولة يقومون بجلب التوابل للسلطان ليتولى بيعها بحسابه . (انظر نظام الاحتكار فى فصل النظم التجارية) .

(١٠) قدرت كمية التوابل الشريفة بحوالى ٢١٠ أحمال ، وفرض على التجار البنادقة شراء هذه الكمية بالسعر الذى يحدده السلطان ، هذا غير توابل السوق الحر . انظر : الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٠٧ وما بعدها .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦٨ (طبعة كاليغورنيا) .

— الحمل الاسكندراني من الفلفل وزن ٥٠٠ رطل فرفورى . انظر :

— توفيق اسكندر نظام المياضة فى تجارة مصر الخارجية فى العصور الوسطى ص ٤٢

وانظر كذلك الفصل الخامس بعه .

(١١) كانت السلطات المالية على عهد السلطان اينال قد اتخذت بعض الاجراءات الخاصة بالامن عقب سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، ودققت فى وصول التجار لموانئ مصر والشام . وقد نال التجار الأجانب المستقرين فيها بعض الأضرار وبخاصة البنادقة ، حتى وصلت سفارة بندقية يرأسها Mefeii Michieli وفاوضت السلطان اينال ثم ابنه السلطان أحمد وبقيت حتى عهد السلطان خشقدم ، واكتت الإعفاءات السابقة وتعويض البنادقة عن الأضرار التى أصابهم وتنزيل أسعار التوابل السلطانية والحررة . راجع الخطاب بالملحق برقم (١٥) وكذلك — Depping, Op. Cit., pp. 218 ff.

حتى انضمت الى فلورنسا ، فآلت منشآتها وتآارتها الى الوكالة الفلورنسية فى بلاد السلآان المماليكى (١٢) . وكانت فلورنسا فى فترة تكوينها السياسى قد خاضت غمار حروب عديدة فى ايطاليا ، ولم تستطع منافسة الجمهوريات الايطالية التجارية ، بل انها فشلت فى الاشتراك فى تجارة مصر والشام بصورة فعلية واكتفت بتآجير سفن المدن الأخرى لنقل متآجرها ، وبعد انضمام يزا لها قامت سفنها برحلتين كل عام لشرق البحر المتوسط ، ولم تلبث أن ازدهرت تجآرتها فى وقت بدأت فيه الجمهوريات الايطالية ذات الماضى القديم فى تجارة الشرق تنهار بسبب الصراع العنيف مع القوة النامية فى تركيا (١٣) . ووصلت سفنها عام ١٤٥٣ الى الاسكندرية والى القسطنطينية ويروت وجهدت لتكوين علاقات طيبة مع حكام المنطقة فلم تتدخل فى الصراع الدموى بين العثمانيين من جانب والبيزنطيين والجمهوريات الايطالية من جانب آخر وبعد سقوط المدينة ، وفى الوقت الذى جهدت فيه البابوية لتأليب القوى المسيحية فى العالم لوقف الزحف العثمانى على شرق أوربا . وصل أسطول فلورنسا التجارى الى ميناء يرا العثمانى محملا بالذهب والفضة والأصواف والصابون والزيت ، كما استقبل بعدها حاكم فلورنسا بعثة عثمانية أكدت العلاقات الطيبة بين البلدين فى الوقت الذى كانت تعلق فيه المشآق للأوربيين فى القسطنطينية ، وتوالى

— Depping, Ibid, pp. 222 ff.

(١٢)

— Cioli ; Op. Cit., pp. 106, 107.

انظر ما كتب عن الفنادق فى فصل النظم التجارية .

(١٣) تزرج اتصالات فلورنسا الفعلية بشرق البحر المتوسط وخاصة مصر والشام. فى ١١ مايو عام ١٤٤٥ حيث حل المبعوث الفلورنسى Giovenco, Della Stufa رسائل اعتماد وتوصية لسلطان مصر . وكانت الحكومة الفلورنسية قد أصدرت أمرها الى ادارة البحرية بها لعمل الترتيبات اللازمة لارسال سفينتين موسميتين الى الاسكندرية كل عام ومثلهما الى موانئ غرب البحر المتوسط ، ثم زاد حجم التجارة مع شرق البحر المتوسط فتقرر القيام برحلتين سنويا لموانئ يتلوها رحلة السفن الفلورنسية لغرب البحر المتوسط لامكان توزيع السلع الشرقية الواردة من مصر والشام . انظر :

— Ziada, Op. Cit., p. 245.

— Clive, A Hist. of Commerce T. II p. 990.

— Heyd, Op. Cit., p. II pp. 487-488.

انبعاثات بين البلدين حرصت فيها السلطات العثمانية على اتخاذ تجار فلورنسا أداة لضرب البنادقة في صميم مصالحهم التجارية ، حتى انه اتخذ منهم مستشارين في بلاطه وجواسيس على تجار البندقية مما حدا بالبنادقة الى الاتجاه بكامل ثقلهم الى بلاد السلطان المماليكى (١٤) .

وفي مصر والشام عمل الفلورنسيون على توسيع نطاق تجارتهم ، ولما حاولوا النزول في فندق ييزا بالاسكندرية بعد انضمامها لفلورنسا ، رفضت السلطات المماليكية ، لأن الفندق كان قد أعطى للعثمانيين وأفتى قاضى الاسكندرية بعدم شرعية منحه للأجانب بعد أنه آل للمسلمين . ولم يحصل الفلورنسيون بادية الأمر سوى ما كان ليزا من امتيازات في مصر والشام . (١٥) وبقدر ما زاد نفوذ فلورنسا في بلاد السلطان العثماني بقدر ما زاد نفوذ البندقية في بلاد السلطان المماليكى ، وراقبت فلورنسا بعين القلق ازدياد نفوذ البنادقة التجارى في مصر والشام ، وكانت تحرص دائما على ألا تتفوق أى طائفة عليها في تجارة شرق البحر المتوسط لاسيما البندقية ، فأولت تحركاتها عناية خاصة ، ولما عقد البنادقة معاهدة عام ١٤٦٠/١٤٦١ مع السلطان اينال ، ثم مع ابنه السلطان أحمد ، أسرعت فلورنسا فأوفدت سفارة للقاهرة فافضت السلطان اينال أواخر أيام حكمه ، ثم ابنه السلطان أحمد ، للحصول على نفس الامتيازات التى نالها البنادقة مع تأكيد ماسبق أن منح ليزا وفلورنسا ، كما وصلت بعثة فلورنسية أخرى على عهد السلطان خشقدم عام ١٤٦٥ يرأسها السفير « برناردو برتولوداي كورسى » للتهنئة ولتأكيد ما لتجارها من امتيازات واعفاءات ، وأبرمت اتفاقية

— Heyd, Ibid, pp. 337-339.

(١٤)

— Depping, Op. Cit., p. 224.

(١٥) كان يرأس هذه البعثة Mariotto Squarcialupi وقد صار قنصلا لبلاد في

الاسكندرية انظر :

— Heyd, Op. Cit. ; T. II pp. 488, 489.

— Depping, Op. Cit., pp. 222, 223. & 230-232.

جديدة تضمنت نصا جديدا نالت بموجبه حق اعفاء سفنها من الرسوم الجمركية اذا حملت سلعا لبلاد أخرى ولم تفرغها فى موانئ السلطان، ويعتبر هذا أول اعفاء من نوعه لتجار الجمهوريات الايطالية فى مصر والشام ، وكانت السلطات المالية تفرض رسوم مرور على مثل هذه السلع (١٦) .

وحتى عهد السلطان اينال ظلت جزيرة قبرص محطتا بحريا على الطرق التجارية بين شرق وغرب البحر المتوسط ، بل انها كانت تستخدم فى كثير من الحالات مركزا احتياطيا تبقى فيه السفن التجارية فى فترات النزاع بين الأجانب والسلطات المالية فى مصر والشام ، واستمرت منذ عام ١٤٥٣ تتاجر مع موانئ صور وصيدا ويبروت وطرابلس واللاذقية ، ومع أن الجزيرة كانت تخضع للسلطات المالية سياسيا وحريريا وتجاريا الا أن الادارة المالية فيها كانت تخضع لبنك سان جورج الجنوى مما جعل لجنوة شبه اشراف مالى على الجزيرة وبخاصة على ميناء فاما جوستا . وظل هذا الاشراف قائما حتى استطاع الملك جيمس الثانى العودة الى الجزيرة بتأييد من السلطان اينال واسترد الاشراف الفعلى المالى والتجارى على الميناء (١٧) .

(١٦) الملاحظ أن هذا الطلب كان جديدا على التجارة فى بلاد السلطان المالىكى وقد استحدثت فلورنسا نظاما تجارية جديدة فى تجارتها مع شرق البحر المتوسط نص عليها فى المعاهدات والاتفاقيات مع المالىك فى النصف الثانى من القرن ١٥ الى جانب الامتيازات العادية الممنوحة لسائر الجاليات التى تتاجر فى بلاد السلطان المالىكى .
انظر :

— Clive, Op. Cit., p. 99.

— Ziada, Op. Cit. p. 245.

(١٧) شارل ديل : البندقية جمهورية ارسقراطية (مترجم) ص ١٤١ - ٢٤٢ .

زيادة : المحاولات العربية للاستيلاء على جزيرة رودس ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

— De Mas Latrie, Histoire De L'île De Chypre T. III pp. 34-57 & 73.

— Dopp, Op. Cit., p. 54.

— Heyd, Op. Cit., p. 407- & ff and 423-426.

— Wiet, Precis De L'Histoire D'Egypte, T. II p. 266.

أما جزيرة رودس فظلت على عهد السلطان اينال . كما كانت من قبل مصدر ازعاج للسلطات المالكية للصفة الصليبية المتأصلة في نفوس حكامها من سلالة فرسان القديس يوحنا ، فمارسوا القرصنة في المياه الشرقية للبحر المتوسط ، وكان لمقدمهم عمولة على الغنائم وله حق شراء ما يشاء منها بالسعر الذي يحدده (١٨) . وسلك الماليك مسلك الاعتدال معهم - حماية لتجارتهم وسفنهم - وسمحوا لهم بالصج للأراضي المسيحية المقدسة بشروط معتدلة . وكان لهم أحيانا قناصل تجاريون وسياسيون مؤقتون في الاسكندرية ودمياط وموانئ الشام الهامة (١٩) . وابتان أزمة العرش في قبرص على عهد السلطان اينال بين جيمس الثاني وأخته شارلوت زوجة أمير سافوى ، تدخل الفرسان لصالح الأميرة ضد جيمس الثاني الذي يؤيده الماليك . ولما فشلوا وتولى جيمس الثاني حكم الجزيرة عمدوا الى الانتقام فقطعوا الطرق على سفن التجارة المالكية والسفن القاصدة لمصر والشام وأسروا ثلاث سفن لليندية تحمل سلعا من الاسكندرية للمغرب ، وبلغت الخسائر حوالى ٢٤٠٠٠ دوكات في الأصواف فقط ، غير خسائر التوابل والسلع الأخرى ، مما أثار غضب السلطان ، فقبض على تجارهم وقناصلهم وقصادهم ومؤيديهم من التجار الأجانب ، كما هاجمت البندقية الجزيرة وهدمت منزل مقدم الفرسان ، وفكت أسر السفن وطالبت بتعويض مناسب (٢٠) .

وقد حظيت فترة حكم السلطان الأشرف قايتباى ١٤٦٨/١٤٩٦ بالنشاط السياسى والحربى والتجارى الداخلى والخارجى . ففى محاولة من الدولة المالكية لتأكيد سلطانها على القبائل التركمانية على الأطراف الشمالية للدولة اصطدمت بالقوات العثمانية فى مواقعها بآسيا الصغرى ،

— Cambridge Medieval History Vol. IV p. 127. (١٨)

— Lane Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 338. (١٩)

(٢٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٦٥١ (كالغورنيا) .

ومع أن هذه العمليات الحربية استغرقت معظم فترة حكمه فإنه أولى الشؤون التجارية أهمية خاصة وعمل على تنشيطها في بلاده كمورد رئيسي للثروة ، بل إنه سهل وصول التجار الأجانب ، وأكد لهم الإعفاءات والامتيازات ليجمع أمراء وملوك أوروبا ورؤساء جمهوريات إيطاليا حوله في محاولة لوقف الخطر العثماني الذي بدأ بوضوح يهدد الأطراف الشمالية للدولة .

ففي عام ١٤٧٠ استقبل السلطان قايتباي سفير لويس الحادي عشر ملك فرنسا ، للتهنئة وتجديد الاتفاقيات التجارية السابقة وما تضمنتها من امتيازات على عهد السلاطين السابقين ، وعقدت فعلا معاهدة عام ١٤٧٢ نص فيها على معاملة تجار فرنسا في بلاد السلطان المماليكي معاملة ممتازة ، كما تنبه على عمال السلطان بعدم التشدد معهم أو التعرض لهم بالأيذاء . وجددت المعاهدة عام ١٤٨٥ بعد أن أضيف إليها ملاحق وامتيازات جديدة (٢١) كما شملت المحادثات كذلك موضوع تجارة جنوة ، فإن جماعة تجارها كهيئة مستقلة كانوا قد احتجبوا فترة عن أسواق مصر والشام انشغلوا فيها بإعادة تنظيم تجارتهم في بلاد السلطان العثماني بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ (٢٢) ، وسلخوا مسلك التعقل في معاملتهم للسلطات العثمانية رعاية لمصالحهم مما جعل السلطان العثماني يرحب بوجودهم وخاصة

(٢١) إذا كانت أسواق فرنسا قد ضعف اتصالها بتجارة الشرق الأقصى في القرن ١٤ الميلادي إلا أن القرن ١٥ م شهد إحياءها على وجه قوى وحلت الأسواق العامة في ليون محل الأسواق القديمة وتردد عليها الأسبان والألمان والبرتغاليون والإيطاليون والمغاربة وفي عام ١٤٦٨ قرر الملك لويس الحادي عشر أن تقتصر التجارة في التوابل الشرقية على التجار المحليين وتولت هذه المهمة نقابة التجار الفرنسيين ومع ذلك عقدت معاهدة عام ١٤٧٨ أتاحت لتجار البندقية ممارسة التجارة ثانية مع مدن فرنسا .
أنظر :

— Heyd, Op. Cit. pp. 717-718.

— Cambridge Modern History, Vol. I. pp. 68-69.

(٢٢)

فى ميناء بيزا دون سائر طوائف التجار الأجانب وخاصة لخبرتهم مع أقاليم شرق الامبراطورية فى طرايزون وعلى البحر الأسود^(٢٣) . ولكن منذ أن وجه السلطان محمد الثانى العثمانى عام ١٤٦٠ جهودہ الحربية نحو الشرق لاختضاع ما بقى من جيوب تركمانية ومغولية وأوربية مستوطنة على البحر الأسود شعر تجار جنوة - وكانوا أكبر الجاليات عددا فى المنطقة - أن الفترة الزاهية التى عاشوها قاربت الانتهاء فلم ينتظروا النهاية المحتومة وأسرعوا بانتهاء أعمالهم المالية والتجارية ، وسلموا أموال الجمارك المتأخرة عليهم الى فرع بنك سان جورج بميناء كافا ، واتجهوا الى بلاد السلطنة المالكية لتجديده وتأكيد مركزهم وتجارتهم فى مدن وموانئ مصر والشام^(٢٤) الا أن العلاقات الودية بينهم وبين الماليك كان قد أصابها الفتور بسبب أعمال القرصنة التى يقوم بها بحارتهم فى مياه قبرص وشرق البحر المتوسط عامة ضد سفن الماليك والسفن الحاملة لسلعهم ، كما أنهم كانوا لا يملكون التحدث باسم مدينتهم منذ انضمت الى فرنسا فى أواخر القرن الرابع عشر ، وانتهز الجنويون فرصة ترحيب السلطان الأشرف قايتباى بالتجار الأجانب وطالبوا الملك لويس الحادى عشر ملك فرنسا بالتوسط لهم لدى السلطان قايتباى ليمنحهم حق استئناف التجارة فى موانئ ومدن بلاده ، وشملت المحادثات الفرنسية المالكية عام ١٤٧٢ هذا الموضوع ، وأبدى السلطان قايتباى شعورا طيبا نحوهم ، ولم يثر موضوع تهجمهم

(٢٣) سلم الجنويون حصونهم فى جلاثيا للسلطان محمد الثانى العثمانى لدى تقديمه للقسطنطينية فمنحهم الأمان وحرية التجارة . انظر :

— Heyd, Op. Cit., pp. 311-315.
— Depping, Op. Cit. p. 224.
— Gayet, Histoire Du Commerce, T. II. p. 314.
— Poston, Op. Cit., pp. 353 & ff.
— Pernaud, Op. Cit., pp. 69-70.

(٢٤) وصل فعلا عدد من تجار جنوة النازحين من موانئ البحر الاسود الى مصر والشام . انظر :

— Depping, Op. Cit., p. 222.
— Hammer, Op. Cit. pp. 70-71.
— Camb. Medieval Hist. Vol. I. p. 780.

على قبرص وعلى سفنه التجارية وأعمال قراصنتهم في شرق البحر المتوسط ورحب بمندوبيهم لاستئناف أعمالهم التجارية في بلاده. وبعد مفاوضات ناجحة استأنف تجار جنوة أعمالهم التجارية في مصر والشام عام ١٤٧٤ ، وفتحت الوكالة الجنوية أبوابها وأعيدت لهم فنادقهم بالاسكندرية ويبروت ودمشق واعتمدت السلطات قناصلهم كممثلين لهم ولتجارهم (٢٥) .

أما البنادقة فمع ما نالوه من امتيازات لم تتح للكثير من التجار الأجانب في بلاد السلطنة المماليكية ، فانهم كانوا يحضرون الى أسواقهم القديمة في القسطنطينية وعلى البحر الأسود ، فأعادوا الاتصال بالسلطات العثمانية ونجحوا في عقد اتفاقية استأنفوا بموجبها تجارتهم في المراكز التي حددت لهم والتي سمح لتجارهم بارتياحها . وقبلت البندقية شرط السلطان العثماني بتحديد عدد ما يصدر من الرقيق لمصر حتى لا تزداد قوة المماليك ، وإطلاق سراح المسلمين منهم ، كما نال العثمانيون امتيازات مماثلة لرعاياهم وتجارهم في البندقية (٢٦) . إلا أن السلطات العثمانية كانت تخشى زيادة نفوذ البنادقة في بلادها وتفوقهم البحري في البحر المتوسط ، فلم تلبث أن اتخذت اجراءات معينة ضد تجار ورعايا البندقية اتسمت أحيانا بالعنف والشدة ، ولم يراع فيها تنفيذ الاتفاقيات التجارية المبرمة بين الطرفين . ومع حرص البنادقة على عدم الدخول في صراع مباشر أو غير مباشر مع العثمانيين وتوطئ النفس على تقبل الكثير من عنتهم ، فإن الحرب ما لبثت أن نشبت بين الطرفين في البلوبونيز واستمرت حتى عام ١٤٧٩ . وفي اتفاقية الصلح تعهد

— Pernaud, Op. Cit. pp. 39,40.

(٢٥)

— Heyd, Op. Cit. pp. 469, 470. & 490, 491.

— Thénau, Voyage D'Outre Mer p. 270.

— Von Harff, The Pilgrimage Of... p. 95.

— Breydenbach, Les Saints pp. 67, 68.

(٢٦) . بالمحقق رقم ١٧ ملخص لمشروع المعاهدة بين البنادقة والسلطان العثماني بعد

فتح القسطنطينية وهي بتاريخ ١٤ من ابريل ١٤٥٤ . راجع :

— Depping, Op. Cit., pp. 227, 228.

— Heyd, Op. Cit., pp. 316, 317 & N. p. 341.

البنادقة بدفع عشرة آلاف دوكات سنويا نظير اشرافهم على الحكم والتجارة في بعض الجزر اليونانية ، والتي آلت للعثمانيين . ومثل هذا أيضا لحرية تجارتهم في أثينا وجزر الأرخبيل وخفف قيود التفتيش على سفنهم المارة بالمضايق للبحر الأسود . وفي عام ١٤٨٢ أضيفت الى المعاهدة ملاحق باعفاءات جمركية جديدة^(٢٧) . ومع هذا لم تعد تجارة البندقية الى ما كانت عليه وبدأت ييوتاتهم التجارية ووكالاتهم ومصارفهم تغلق أبوابها لقلة ايراداتها ، وقل وصول سفنهم الى الموانئ العثمانية ، وأنهى مستغلو مناجم الشب أعمالهم وعادوا الى بلادهم^(٢٨) ، واتجه كثير من التجار الى مصر والشام حيث كانوا يلاقون ترحيبا ورعاية أكثر لتجارتهم ومصالحهم بموجب المعاهدات والاتفاقيات المبرمة مع السلاطين . وكان وصول أعدادهم الكثيرة هذه المرة على عهد السلطان قايتباي في فترة تأزمت فيها الأمور بين المماليك والعثمانيين ، ونشبت بينهما حروب دامية على الأطراف الشمالية ، مما أدى الى زيادة نفقات الدولة وبرزت حاجة السلطان الملحة للمال ، فأصدر عام ١٤٨٠ قرارا بتأكيد احتكار التجارة في بعض أنواع المتاجر الشرقية وخاصة في التوابل المعروفة بالشريفة أو السلطانية ، وجعل سعر الحمل منها ١١٠ دوكات بندقى ، وطرحها في فترة (المدة) للبيع ، وفي نفس الوقت أطلق حرية البيع والشراء في كميات أخرى من التوابل في السوق الحرة طول العام بسعر لا يزيد على ٥٠ دوكا ، وحتم على هيئة التجار الأجانب شراء كل ما بالسوق من التوابل الشريفة أولا وبالسعر الذي حدده ، مما أدى

(٢٧) قدرت البندقية وهي تدفع للسلطان ١٠.٠٠٠ دوك تعويض - أن ايراداتها

من تجارة البلوبونيز لا تقل سنويا عن ٣٠.٠٠٠ دوك . راجع :

— Hammer, Op. Cit., p. 51. & pp. 117, 118.

— Heyd, Op. Cit., p. 327 ;

(٢٨) كان السلطان محمد الثاني العثماني قد منح البنادقة حق الحصول على الشب

من مناجم Phocée وحق احتكار صناعة الصابون واستغلال مناجم النحاس ، والاشراف على

دار سك العملة . راجع :

— Hammer, Op. Cit., p. 240.

دبل : البندقية جمهورية أرستقراطية (مترجم) ص ١٧٧ .

الى تأزم الأمور بينه وبين التجار الأجانب ، ولما رفض البنادقة الشراء بهذا السعر حبسهم السلطان فى فندقهم يومين ، ثم أمر بجرهم الى الجمارك وعدم اطلاق سراحهم الا بعد دفع ١٠٠ دوك للحمل الواحد . ويذكر أحد الحجاج الألمان أنه شاهد بنفسه هذه الاجراءات ضد البنادقة ، وأنه شاركهم مصيرهم ، وذكر له التجار أنهم يلاقون نفس المعاملة كل عام ، ويضطر القنصل وهيئة التجار فى نهاية الأمر الى دفع ما يطلبه السلطان (٢٩) . وكانت تتكرر هذه الحوادث كل عام تقريبا . ففى عام ١٤٩١ وصل السلطان قايتباى الى الاسكندرية وأرسل بعض تجار البندقية الى القاهرة ووضعهم فى سجونها لكى يجبر هيئة التجار على شراء التوابل الشريفة بالسعر الذى سبق تحديده ، ورفض البنادقة ثانيا أن يدفعوا أكثر من ٨٠ دوكا للحمل الواحد ، وذكروا أن هذا السعر يكلفهم سنويا حوالى ٣٠٠٠٠ دوك زيادة على ما يشترونه من توابل السوق الحرة . وبعد مفاوضات طويلة وافق السلطان على ألا يقل السعر عن ٨٠ دوكا وأصبح هذا السعر رسميا وينص عليه فى المعاهدات (٣٠) . ولم تكن أسعار التوابل وحدها هى مصدر شكوى البنادقة انما ترددت الشكوى من رداءة التوابل وغشها . وفى رسالة من السلطان قايتباى لدوق البندقية أظهر السلطان اهتمامه البالغ بنقاء التوابل ونبه على عماله بمراعاة ذلك (٣١) . وفى نفس

(٢٩) هو الالمانى Tucher من مدينة نورمبرج قضى اياما فى فندق البنادقة الكبير بالاسكندرية وهو فى طريقه الى بلاده بعد الحج الى بيت المقدس وسانت كاترين راجع :
— Heyd, Op. Cit., pp. 491-493.
— Heyd, Op. Cit., p. 493.

(٣٠)

(٣١) فى رسالة من السلطان الأشرف قايتباى لدوق البندقية بتاريخ ١٠ شعبان ٨٧٧ هـ / ١٤٨٢ م ذكر السلطان « ٠٠ » ورسمنا أيضا بأن فلعل ذخيرتنا الشريفة الذى يعطى لهم (البنادقة) يكون سالما من التراب والبلل والخلط وكل ذلك لأجل خاطر حضرة الدوق « ٠٠ » من مجموعة الأستاذ توفيق اسكندر ونص الكتاب بالمحق رقم ١٦ وراجع :
— Heyd, Ibid, p. 494.

— قابل الرحالة Thénaud فى أثناء وجوده بالقاهرة قنصل البنادقة الذى أخبره انه حضر بناء على توصية من العملاء الألمان الدائمين فى تجارة التوابل بطريق البندقية لكى =

الوقت تكررت شكوى السلطات المالية والتجار المصريين من غش البنادقة للمعادن النفيسة ، كالذهب والفضة ، التي تصل الى الاسكندرية وكذلك تكررت الشكوى من غش الأقمشة وخاصة المخمل والجوخ . (٣٢) وفي الشام برزت عدة مشاكل محلية تتعلق بمرور التجارة من موانئها الى مدنها الداخلية ، فالبنادقة يدفعون رسوما معينة للسلطات المحلية على مرور متاجرهم من ميناء بيروت ، ويحصل نائب دمشق على جزء من هذه الرسوم ، ويحدث مثل ذلك في طرابلس ونيابة حلب ، وسلطات كل ميناء تحرم التعامل مع السفن التي تفرغ حمولتها في الميناء الآخر ، ففي عام ١٤٧٣ أنزل قنصل البندقية في دمشق حمولة من الأصواف والأقمشة في ميناء طرابلس ، فغضب أمير بيروت ونائب دمشق لهذا التصرف ، وحبس حاكم دمشق عددا من تجار البندقية ولم يطلق سراحهم الا بعد زيارة سفير بندقى خاص للسلطان قايتباي في القاهرة وصدر تعليمات السلطان بمنع التعرض للتجار البنادقة بالايذاء والافراج

= يحض السلطان على التنبيه بمراعاة غربة التوابل وقد وصل وفد هيئة التجار الالمان الى البندقية وشكوا من عدم نقائها . وقال القنصل كذلك انه طلب من السلطان اعطاء حق فحص التوابل ومراعاة غريبتها بفرايل معينة .
— Thenaud, Op. Cit., pp. XXXI & ff.

انظر بعده ملاحظة (٥٣) وكذلك الملحق رقم (١٠) .
(٣٢) ذكر السلطان في رسالته السابقة لدوق البندقية «٠٠» أن الذهب والفضة المرسلة للاسكندرية معظمها مغشوش حتى ان المائة درهم من الفضة اذا صبغت لم تقارب مئتين درهما وغالبها من النحاس . اما القماش الذي يصل لأبوابنا الشريفة من المخمل فغالبه مغشوش أيضا . وجرت العادة أن تكون كل قطعة من الجوخ ٥٥ ذراعا ، ولكن ما يصل إلينا لا تزيد القطعة في مجموعها على ٣٠ ذراعا ، وفيها ماهر مقطوع من الوسط مما يتضرر منه تجارنا .٠٠ وتمجينا كل العجب من هذه الأمور وكونه يتفق من تجار حضرة الدوق ، ولا يقابل المعتمد لذلك ، لا يليق به من تعنيف وتأديب ، وقد أعلمنا حضرة الدوق بذلك لبصير على خاطره .٠٠ راجع نص الرسالة بالملحق رقم ٢ ، وكذلك :
— Heyd, Op. Cit. p. 495.

اما بخصوص غش العملة والمعادن النفيسة كالذهب والفضة ، فإن الغش لم يقتصر على العملة المحلية فقط - بل وردت للقاهرة عملة من البندقية على عهد السلطان قايتباي مغشوشة مما أثار الجدل حولها في رسالة قايتباي للدوق - انظر الملحق رقم (٢) ثم انظر بعده الفصل الخامس عن غش العملة المالية والعملة الواردة من البندقية .

عمن سجن منهم (٣٣) . وفي فترة الاضطراب والتشاحن حول منصب السلطنة التي أعقبت وفاة السلطان الأشرف قايتباي عام ١٤٩٦ ، حتى تولى السلطان قانصوه الغوري السلطنة وعام ١٥٠١م أعلن الأمير قصره نائب الشام نفسه سلطانا على الشام واتخذ لقب الملك العادل ثم أصبح فيما بعد آتابكا للعسكر حتى اغتاله السلطان طومانباي الأول . وفي فترة حكمه على الشام وصلت عام ١٤٩٩ بعض السفن من البندقية الى طرابلس ، وأنزل بها سلعا بلغت رسوم جماركها فقط ١٠.٠٠٠ دوك وكان قصره ينتظر وصولها الى بيروت فأسرع بالقبض على التجار البنادقة في امارته وفرض عليهم غرامات ضخمة وازت قيمة الرسوم الضائعة وسجن سبعة منهم . وكان هذا الموقف وموقف السلطات العثمانية من البنادقة قد وجه نظرهم للبحث عن مركز مأمون لهم ولتجارتهم في منطقة شرق البحر المتوسط ، ووجدوا أخيرا ضالتهم في جزيرة قبرص التي تصلح لتكون محطة لقوافل تجارتهم الى الشام ومصر وبلاد السلطان العثماني ، وكان الملك جيمس الثاني الذي عاونه المماليك عام ١٤٦٠ على الانفراد بالحكم في الجزيرة قد خاض غمار حروب عديدة ضد منافسته شارلوت حتى استطاع الانتصار وأتبع جيمس هذا النصر بالتخلص من الحامية المماليكية التي أعانتها للوصول للغرض ، ولو أنه لم ينكر التبعية والجزية لمصر ، وكانت البندقية وراء كل هذه الأعمال ، كما أنها ساعدته على توحيد ما بقي من الجزيرة في أيدي الجنويين ، وبخاصة فيما جوستا (٣٤) . مما أتاح لها الفرصة لنشر نفوذها التجاري ، وبخاصة أن زيادة التقارب بين جيمس الثاني والبندقية

(٣٣) القنصل مر Giovanni Piriuli

راجع كذلك :

— Heyd, Op. Cit., p. 496.

(٣٤) محمد مصطفى زيادة وزميله : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس

(مترجم) - مجلة الجيش ١٩٤٦ ص ٢٠٣ .

سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٢٦ .

— Lane Poole, Op. Cit. p. 338.

اقترن بزواجه من سيدة من البندقية هي « كاترين كورنارو » عام ١٤٧٢ ، وأصبحت هذه المصاهرة مصدر ثراء عظيم للبندقية وقد زاد نفوذ البندقية بعد موت جيمس الثاني عام ١٤٧٣ ثم ابنه الصغير من بعده ، فأضحت كاترينا البندقية الأصل صاحبة السلطة ومن ورائها حكومة الدوج تحكم فعلا وباسمها مدة خمسة عشر عاما . وتدخل البنادقة بصورة واضحة في شئون الجزيرة الداخلية والخارجية ، مما جعل السلطان قايتباي يبدى عدم ارتياحه لهذا التصرف خلال استقباله لقنصل البندقية وتجارها عام ١٤٧٧ (٣٥) . وزاد من تأزم الأمور تأخر الملكة عدة مرات في ارسال الجزية السنوية لمصر بعد وفاة زوجها ، حتى ان السلطان فكر في حملة يسترد بها السلطة كاملة في الجزيرة (٣٦) . وانتهزت البندقية الفرصة وفاوضت الملكة في التنازل عن حكم الجزيرة للبندقية . وتم ذلك فعلا عام ١٤٨٩ . وغادرت كاترينا الجزيرة الى البندقية وبقيت بها حتى ماتت عام ١٥١٠ . وأسرت البندقية بارسال الجزية بانتظام مع مبعوث للسلطان قايتباي ، وأوضحت له أن هذا التصرف في حكم الجزيرة شكلى ولا يمس سيادة السلطان على الجزيرة بشيء ، وانها فعلت ذلك لضمان وصول الجزية في مواعيدها . وبعد تبادل المزيد من الرسائل والعديد من المبعوثين عقدت البندقية اتفاقية مع السلطان قايتباي في ١٩ من مارس ١٤٩٠ أقر فيها السلطان اشراف البندقية على حكم الجزيرة محل الملكة كاترينا كورنارو ، وقد نبه السلطان البنادقة بمراعاة حقوق

(٣٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٤٧ .

— Heyd, Op. Cit. p. 423.

— Mas Latris, Op. Cit. p. 391 & R. 3. and pp. 405, 406. T. II and T. III p. 176.

(٣٦) أرسل السلطان قايتباي للملكة كاترين كورنارو عام ١٤٧٧ براءة اعتراف بها

ملكة على قبرص بعد أن أرسلت متأخر الجزية .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٢ - ١٨٥ .

— Lane Poole, Op. Cit. p. 337.

ومصالح الأهالى ومعاملتهم معاملة طيبة (٣٧) . ومنذ ذلك الوقت والبندقية تحاول أن تجعل من ميناء فماجوستا مركزا ثابتا لتجارتها وتجارة شرق البحر المتوسط عامة ومستودعا لتاجرها ومحطا لسفنها بالإضافة الى مراكزها فى الشام ومصر وبلاد السلطان العثمانى .

ومن الجاليات الأجنبية التى حرص السلطان قايتباى على التعامل معها ، هيئة تجار فلورنسا للسمعة الطيبة التى تمتعوا بها منذ عهد السلطانين اينال وخشقدم ، واستغلت فلورنسا هذه الثقة وعملت على ألا تتفوق عليها أى طائفة من التجار فى بلاد السلطان المماليكى ، وعلى الأخص البنادقة لما بينهما من تنافس شديد فى مجال التجارة الشرقية ، فكلما حصل تجار البندقية على امتياز جديد ، أو عقدوا اتفاقيات جديدة ، أو وصلت سفارة لهم للقاهرة ، أسرع فلورنسا بإرسال سفارة لبلاد السلطان لإضافة امتيازات جديدة حتى أصبح وصول سفاراتهم للقاهرة دوريا كل عام . وفى عام ١٤٨١ ، استقبل السلطان

(٣٧) نشر الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر وثائق تنازل السلطان قايتباى عن الجزيرة لحكومة البندقية والخطابات المتبادلة والاتفاقية وذلك فى الجزء الأول من سلسلة وثائق مصر من محفوظات البندقية ١٩٥٦ نشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٦ .
— خلال وجود الرحالة فيليكس فابرى بالقاهرة (١٤٨٠/١٤٨٣) وصل إليها ابن ملك نابلى طالبا مساعدة السلطان قايتباى فى زواجه من ملكة قبرص الأرملة . وشعر البنادقة بخطر الموقف فأسرعوا بالاستيلاء على الجزيرة وحصلوا على تنازل من الملكة وموافقة السلطان مع ملكية الجزيرة لمصر ويحكمها البنادقة باسم السلطان وتنظيم وصول الجزيرة السفوية : راجع :

— Thenaud, Voyage D'Outre Mer, p. XXXII.

وكان قصد ملك نابلى من زواج ابنه من الملكة الأرملة أن يضع يده على الجزيرة ، وكان يستند فى ذلك الى صداقته للسلطان قايتباى الذى كان يستخدم سفن نابلى فى رحلاته ، جنوده أحيانا الى قبرص : راجع :

— Thenaud, Ibid, p. XXXIII.

كما أنه خلال الصراع بين مملكة غرناطة وفرديناند أرسل قايتباى راهبا من دير جبل صهيون لملك نابلى هذا ليتصل بفرديناند ليكف يده عن أذى المسلمين : راجع :
— Mas Latrie, Op. Cit., T. III p. 828.

سميد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٢٦ .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٢ - ١٨٥ .

فايتباى سفارة فلورنسية لعقد اتفاقية بطلبات جديدة بعد أن شعر الفلورنسيون بالتقارب بين المماليك والبنادقة . وقد رحب السلطان قايتباى بالسفير والبعثة وأبدى استعداده لعقد الاتفاقية المطلوبة فى نطاق خطته الرامية الى كسب أمراء العالم المسيحى فى صفه فى معاهدات ودية ضد السلطان بايزيد الثانى العثمانى بسبب النزاع بينهما على الأطراف الشمالية للدولة ، ولحاجته الملحة للمال . وقد منح الفلورنسيين أقصى امتيازات نالها تجار أجانب ، ولكن الموت عاجل السفير الفلورنسى وهو بالقاهرة فأرسل قايتباى عام ١٤٨٧ مبعوثه « خواجه محمد بن محفوظ المغربى » يرافقه ترجمان صقلى ومعه هدايا لحاكم فلورنسا من أسود وغزلان ومجوهرات . وأبرم المعاهدة بجميع طلباتهم وحملت المعاهدة تاريخ ١٤٨٨ . وكان لهذا التقارب بين الفلورنسيين والمماليك أثره السئ لدى السلطان العثمانى ، ولم تكد تشعر فلورنسا بذلك حتى أسرعت بإرسال سفيرها الى القسطنطينية ليؤكد صداقتها وودها وليوضح للسلطان أن وجود السفير المالىكى فى فلورنسا لا يحل فى طبياته عدااء للقسطنطينية بقدر ما هو اجراء اقتصادى اقتضته ظروف التجارة مع مصر والشام . ومن بين الامتيازات التى تضمنتها المعاهدة ، نصوصا باعتبار عقود البيع المبرمة بين الفلورنسيين والتجار الوطنيين نهائية وملزمة للطرفين وفى حالة المفاضلة لا يحق للتاجر الوطنى مطالبة التاجر الفلورنسى بضمن السلعة نقدا وبخاصة بعد الاستلام ، كما أقر السلطان نظام الحساب الجارى فى الجمارك وحق لجوء سفنهم الى الموانئ الممالىكية وقت العواصف للإصلاح . وشملت الاتفاقية كذلك بعض الحقوق المدنية فنظمت لهم مسألة التوريث فى حالة وفاة أحد تجارهم فى بلاد السلطان المالىكى ، ومنع غش التوابل ، وحق وصول رعاياهم للقاهرة لاستئناف القضايا أمام السلطان نفسه وتسهيل العيش لهم خلال اقامتهم فى بلاده . ويبدو أن الشكوى كانت عامة من كثرة الغش فى التوابل بقصد الاثراء ، فكما اشتكى البنادقة من رداءة التوابل

وغشها ردد الفلورنسيون نفس الشكوى ، وقد أوصى السلطان أمير الاسكندرية بمراقبة التجار والجمالين والضرب على أيدي من يغش منهم التوابل . وحتى عام ١٤٨٨ عومل الفلورنسيون في بلاد السلطان الممالكي معاملة التجار الأجانب الأكثر رعاية ، وعقدوا ملحقا للمعاهدة السابقة تقرر فيه أن يكون البيع أمام شهود وتخلي مسؤولية البائع فور توقيع العقد بين الطرفين بشهادة الشهود ، ومنع السلطان تكرار تحصيل الرسوم الجمركية والسمسة في حالة تغيير موظفي الحكومة أو الجمرك . وأقر كذلك تداول الفرتي ، عملتهم الذهبية في مصر والشام (٣٨) . ولم ينصرم عام ١٤٨٨ حتى وصلت سفارة فلورنسية أخرى لتحية السلطان وشكره على رعايته لتجار فلورنسا وعلى هداياه للحاكم ولم تغادر البلاد قبل أن تبرم اتفاقية جديدة نالت فيها حق توسيع تجارتها في مصر والشام لأقصى طاقتها ، كما أرفقت تعليمات

(٣٨) راس هذه السفارة الفلورنسي Paoloda Colle وكان وصوله للقاهرة في

نوفمبر ١٤٨١ - راجع :

— Heyd, Op. Cit., p. 361.

— Amari, I Diplomi Arabi p. 361.

والمبعوث المصري خواجه محمد بن محفوظ المغربي - ذكره هايد خطأ باسم Malfot — Malfota — Elmalfet — Mazamat.

راجع :

— Heyd, Ibid, p. 489.

يذكر ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٥ (بولاق) في حوادث ذي الحجة

٨٨٣ هـ . (فبراير ١٤٧٩) أن ابن محفوظ هذا زار فلورنسا عدة مرات وكان آخرها عام

٨٨٣ هـ . راجع كذلك :

— Ziada, Op. Cit. p. 246.

— Heyd, Op. Cit., p. 489.

أما المعاهدة التي أبرمها المبعوث الممالكي بتاريخ ١٤٨٨ على عهد لورنزو ميديتشى صدرها . . مرسوم بشأن الامتيازات التجارية الممنوحة لطائفة الفرنتيني في مصر وسوريا بناء على طلب جمهورية فلورنسا ورئيسها الأنخم لورنزو ميديتشى والمقدمة بواسطة التجار لمنهم امتيازات مثل ما للبنادقة في بلادنا . ثم تعليمات لرعاة هذا لرجال السلطان . انظر الملحق برقم ١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢ . وراجع :

— Amari, Op. Cit., pp. 363-369-371.

راجع الحاشية السابقة برقم ٣١ ، ٣٢ عن غش التوابل والعملات والجوخ .

لرجال الادارة المالية فى مناطق التجارة الجديدة برعايتهم وعدم التعرض لهم بسوء (٣٩) .

وفى عام ١٤٩٦ وصلت بعثة فلورنسية جديدة عقدت اتفاقية أكدت فيها ما سبق من امتيازات وما حصل عليه غيرهم وزيدت بنودا تعطى صورة حقيقية لنظام التجارة فى مصر المالية حتى أواخر القرن الخامس عشر . ومن هذه النصوص اعتبار استلام البائع عربونا لبضاعته عقدا ابتدائيا غير قابل للرجوع فيه ، كما لا يحق لأحد الطرفين رد البضاعة أو المطالبة برد ثمنها بعد استلامها ، وفى حالة عدم بيع التاجر العربى ما اشتراه من الفلورنسى فلا يحق له رد البضاعة ولا مطالبة الفلورنسى بثمانها ثانيا وأقر لهم السلطان استمرار العمل بنظام الحساب الجارى فى الجمارك وتسجيله فى دفاتر خاصة تبقى لحين عودتهم فى المرة التالية . وفى حالة استئناف القضايا اشترط وجود طرفى النزاع دون توكيل عنهما مع حضورهما للقاهرة أمام السلطان نفسه . كما تنبه على الخاصكى السلطانى والبريدى تسهيل وصول أصحاب القضايا المستأنفة للقاهرة وأن يكونوا فى حمايتهم فى الحل والترحال . وحصلوا على حق الاقامة فى فندق خاص بهم ووصول تجارهم فى أى وقت من السنة وفى غير مواعيد المدة المقررة لهم . وتضمنت كذلك عدم تحصيل مواجبات زائدة أو أسعار أزيد من السعر السائد بالسوق . وأرفق بالمعاهدة خطابان أحدهما موجه الى السلطان من حاكم فلورنسا

(٣٩) السفير هو Luigi Della Stufa والمعاهدة بتاريخ ٢٤ ذى الحجة ٨٩٤ هـ .

١٨ نوفمبر ١٤٨٩ م ومنشورة بالملحق رقم ٢١ . راجع .
— Amari, Op. Cit., pp. 181 ff.

وبالملحق كذلك نص الرسالة والتكليف من السناتو للسفير الفلورنسى وستوفاء بتاريخ ١٠ من نوفمبر ١٤٨٨ ليسافر الى ليشكر السلطان على هداياه ورعايته لفلورنسا وتجارها فى بلاده . وتعليمات أخرى . بالملحق رقم ٢٠ وراجع كذلك :
— Amari, Ibid, pp. 372, 373.

بالملحق كذلك رقم ٢٢ ملخص للمعاهدة عن :
— Depping, Op. Cit., pp. 480.
— Heyd, Op. Cit., pp. 237, 238.

بالسماح لقنصل الجمهورية بالاقامة بصفة مستمرة بالاسكندرية لمباشرة مصالح مواطنيه ، والآخر لمندوب السلطان الخاصكى « الشمسى بن محفوظ » للسفر ثقلورنسا بهذا الخطاب ومعه الهدايا، اللازمة للدوق وخطاب ثالث لعمال السلطان فى موانئ مصر والاسكندرية بمراعاة مصالحهم (٤٠) .

ومع أن العلاقات بين السلطان قايتباى والتجار الأجانب من كافة الطوائف ظلت طيبة كما كانت على عهد أسلافه ، فانها لم تعد كذلك مع القطلانة بالرغم مما تمتعت به طائفتهم من رعاية على عهد السلاطين اينال وأحمد وخشقدم ، فقد بدأت العلاقات تتوتر بسبب خطف قراصنتهم لبعض البحارة المسلمين عام ١٤٧٠ من السواحل المصرية ومن بين المخطوفين بعض أعيان التجار ووكلاء السلطان التجاريين . ولم يكن السلطان قايتباى بالرجل الذى يترك هذا الحادث يمر دون اجراء حاسم يرد للمواطنين التجار حقوقهم ويحفظ سمعته وسمعة بلاده ، فأصدر أوامره باعتقال كل التجار الأجانب بالشعر وزج بهم فى سجون القاهرة، وأبلغ قناصلهم أن حريتهم مرهونة باعادة المخطوفين بواسطة قراصنة القطلانة وبدون فدية مع دفع تعويض مناسب ، وأوفد التجار مندوبين عنهم لحكوماتهم للسعى لدى أمير قطلونيا لاطلاق سراح البحارة والتجار العرب المخطوفين حتى يسترد الأجانب فى بلاد السلطان حريتهم . ومع أن الجهود التى بذلت كانت تكفى لأن يراجع القطلانيون خططهم العدائية التى كانوا يرمون من ورائها منع الممالك من مساعدة أمير غرناطة الذى دأب على طلب الإعون من السلطان المماليكى ، الا ان

(٤٠) هذه المعاهدة بتاريخ ٢٢ من فبراير ١٤٩٦ / ١٨ ذى القعدة ٩٠١ هـ ومنشورة بالملحق رقم ٢٣ راجع :

— Amari, Op. Cit., pp. 184-209. — XL.

وللمعاهدة ملحق بتاريخ ٢٦ من فبراير ١٤٩٦ / ١٠ جمادى الآخرة ٩٠١ هـ موجه لعمال

السلطان وبه مراعاة الفلورنسيين وبالملحق رقم ٢٤ .

— Heyd, Op. Cit., p. 489.

— Amari, Op. Cit., p. 210-213-XLI.

القطالونيين لم يطلقوا سراح البحارة والتجار العرب الا بعد أن دفعوا فدية ضخمة . ولدى وصولهم للاسكندرية أطلق السلطان سراح الأجانب المحتجزين بعد أن حصل منهم على مقابل ما دفعه المصريون من فدية للقطالونيين . وعاد التجار الأجانب الى سابق عملهم بعد أن أبعدت السلطات المصرية تجار قطالونيا عن مصر والشام وأوقف التعامل معهم ، ونهج كذلك تجار الجاليات الأجنبية نفس المنهج فقاطعوا تجار قطالونيا وسفنها والسفن التي تحمل أعلامها وطاردوا قراصنتهم في البحر . (٤١) وفشل القطالونيون في إعادة العلاقات الودية مع المماليك، بل انه اصرار الملك فردناند الخامس الكاثوليكي ملك أراجونا وزوج ايزابلا ملكة قشتالة على انهاء الحكم الاسلامي في الأندلس ، وبالأخص موقفه من اماره غرناطة الاسلامية ، زاد من هوة الخلاف بين السلطان قايتباي والقطالنة بصورة عامة . ووصل عام ١٤٨٧ الى القاهرة ميعوث الأمير ابي عبد الله محمد صاحب غرناطة وطلب من السلطان قايتباي عوناً عسكرياً لمواجهة هجمات الملك فردناند على امارته المنكمشة . ومع أن السلطان كان يدرك تماماً مدى النتائج الخطيرة التي تترتب على

(٤١) ابن اياس بدائع الزهور ج ٢ ص ١٤٦/١٦١/١٦٢/١٦٦/١٨٥ (بولاق) .
— Zinda, Op. Cit., p. 244, 245.

ذكر ابن اياس هذه الحادثة في حوادث رمضان ٨٨٠ هـ وحوادث المحرم ٨٨١ هـ :
« فقد جاءت الأخبار بأن بعض الفرنج قد احتال على تجار الاسكندرية حتى أسروهم وكان منهم تجار السلطان نفسه وهم : ابن عليبة يعقوب ، وعلى الكيزاني ، وعلى التمرادي . فلما أسروهم الفرنجة خرجوا بهم من الاسكندرية في الوقت والساعة وتوجهوا بهم الى بلاد الفرنجة فاضطربت الحال في الاسكندرية وكادت أن تخرج — فلما كاتبوا السلطان بذلك تأثر لهذا الخبر وعين للوقت خاصكياً من خواصه يقال له « قيث الساقى » الذى تولى ولاية القاهرة فيما بعد — وكتب معه مراسيم شريفة لنائب الاسكندرية بالقبض على جميع تجار الفرنجة بالشر ، فلما توجه قيث الساقى الى هناك قبض على التجار من الساحل كله وضيق عليهم وأودعهم الحديد والزمهم بأن يكاتبوا ملوك الفرنج بما جرى عليهم من السلطان بسبب التجار . وقد قام السلطان في هذا الحادث قياماً تاماً وآخر الأمر اشترى التجار الذين أسروا أنفسهم من ملوك الفرنج بمال له صوره حتى أطلقهم وأتوا بهم الى الاسكندرية .
أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٠٥ و ١٠٦ و ١٠٧ .

— Heyd, Op. Cit., p. 496.

سقوط الامارة الاسلامية الباقية فى الأندلس الا أنه لم يستطع تقديم العون العسكرى اللازم لانشغاله فى حروب العثمانيين وتأمين الأطراف الشمالية للسلطنة ، ومع ذلك فقد كلف الأسقف « ماوروس » رئيس دير جبل صهيون ببيت المقدس لكى يوفد راهبا مندوبا من لدنه لملك نابلى — لما بينهما من علاقات طيبة — لبذل مساعيه الحميدة لدى الملك فردناند ليكف عن أذى المسلمين ، وقرن ذلك بالتهديد بمنع الحج للأراضى المسيحية المقدسة وفرض قيود شديدة على الأجانب فى بلاده ، ومع ذلك سقطت غرناطة فى يد الملك فردناند ١٤٩١ (٤٢) . وفرضت السلطات الممالىكية بعض القيود فعلا على وصول الأجانب للبلاد ، وبخاصة التجار والحجاج فى تلك الفترة ، لاسيما من له صلة بالقطلانية، لا انتقاما من موقفهم ، ولكن حرصا على سلامة البلاد . ولاحظ الرحالة الألماني « برايدنباخ » خلال زيارته لمصر فى فترة الصراع على غرناطة أن عدد اليهود الوافدين الى مصر قد زاد الى حوالى ١٥٠٠٠ ويعملون جميعا فى التجارة . وعلل هذه الزيادة بهجرتهم الجماعية من أسيانيا بعد أن طردهم منها الملك فردناند ، وأضاف الى ذلك أنهم عملوا على اساءة العلاقات بصورة واضحة بين مصر وقطالونيا وحرصوا السلطان ضد تجارها . ولكن الثابت فعلا أنه لم يكن لليهود أثر يذكر فى سوء العلاقات الممالىكية والقطالونية فى تلك الفترة ، اذ أن أشد ما أثار السلطان قايتباى وحرك عاطفته هو ما لاقاه المسلمون من عنت الأسباب ثم تجاهل الملك فردناند لمبعوث السلطان قايتباى ليكف أذاه عن مسلمي

(٤٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٦ حوادث ذى القعدة ٨٨١ هـ .

أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٠٨ - ١١٢ .

سقطت غرناطة فى ديسمبر عام ١٤٩١/صفر ٨٩٧ هـ . انظر :

محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ص ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٢٩ الى

• ٢٣٧

— Ziada, Op. Cit., p. 366.

كان قايتباى يستخدم سفن نابلى أحيانا فى حمل جنوده الى جزيرة قبرص . انظر :

— Mas Latrie, Op. Cit., p. 828 T. III.

غرناطة فى حين أن مواطنيه القطلانة وحجابه يلقون رعاية ممتازة فى بلاده . وبعد هذا الحادث فرضت بعض القيود على الحجاج المسيحيين للأراضى المقدسة فى فلسطين ، لا انتقاما منهم أو من حكوماتهم التى لم تسمع ليكف فردناند عن إيذاء مسلمى غرناطة ، انما حرصا على سلامة البلاد وأمنها وتجارتها (٤٣) .

واستمرت العلاقات متوترة بين مصر واسبانيا حتى ولى الحكم السلطان الأشرف الغورى فى شوال ٩٠٦ هـ ابريل ١٥٠١ ووصل الى القاهرة وفد أمراء مراكش وتونس وحكام الولايات العربية فى شمال افريقية والمهاجرون من الأندلس بعد سقوط غرناطة ، وطلب المبعوثون عون مصر الحربى والمالى ضد مسيحي اسبانيا لاستعادة الامارة ورد هجماتهم على مدنها فى شمال افريقية ومنع أذاهم عن المسلمين الباقين بالأندلس ، وطالبوا - كاجراء مضاد - منع حجاج الفرنجة للأراضى المقدسة ، ومنع تجارهم من ورود مصر والشام . ولم تكد تصل هذه الأنباء لبلاط الملك فردناند حتى قرر أن يسلك مسلكا طيبا مع السلطان المماليكى ، واختار لسفارته الى الغورى عام ١٥٠١ الايطالى « بيار مارتيير دانجييرا » *Piere Martyre D'anghiera* الذى وصل الى الاسكندرية على سفن المدة التابعة للبندقية فى ٢٣ ديسمبر ١٥٠١ ، وأرسل فور وصوله القنصل القطلونى ، والذى يمثل فرنسا فى الوقت

(٤٣) كان لليهود فى اسبانيا مركز ممتاز فى اقتصادياتها خاصة وان معظمهم يعمل فى التجارة بين الشرق والغرب ، كما سيطروا على الأعمال المالية والمصرفية ولهم مراسلون مصرفيون ومكاتب ووكالات وفروع فى معظم مدن وموانئ شرق البحر المتوسط .
— Depping, Op. Cit., p. 241, 242.

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٦ حوادث ذى القعدة ٨٨١ هـ .
وبخصوص الاضطهاد الذى وقع على مسلمى الأندلس بعد سقوط غرناطة ١٤٩١ م .
حاول فردناند وايزابلا تحويل المسلمين الى المسيحية وتهديدهم بالقتل على عكس ما أعلنه
سفير الملك فردناند وقد اشتد الاضطهاد بعد وصول شحنات هائلة من التوابل الى لشبونة
وتحول التجار اليها عن مصر وأهملوا وعودهم للسلطان الغورى . أنظر : محمد عبد الله عنان
المصدر السابق ص ٢٢٧ - ٢٣٧ .

نفسه ، الى القاهرة للحصول على اذن بمقابلة السلطان . واتتهز
المغاربة المهاجرون واليهود المطرودون الفرصة وعملوا على اثارة حفيظة
السلطان ضد الاسبان وسفيرهم . ولكن الغورى حكم العقل وأرسل
اذنا بتسهيل وصول سفير الملك فردناند للقاهرة لمقابلته ، فبارح
الاسكندرية فى ١٦ يناير ١٥٠٢ ، ولدى وصوله الى القاهرة قابل تغرى
بردى كبير تراجمة السلطان ونزل فى داره . وساعده الترجمان مساعدة
قيمة خلال محادثاته مع السلطان ، وبعد الاختفالات الرسمية طلب
السفير عقد جلسة سرية يشرح فيها للسلطان سياسة سيده تجاه المسلمين
والمغاربة واليهود فى بلاده . وكان مما قاله السفير فى الجلسة ان العرب
والمغاربة عنصر هام فى دولته ، وان الملك يحيطهم برعايته لنشاطهم
التجارى والثقافى المتجدد ، وهو لا يستغنى عنهم ولا عن جهودهم .
أما اليهود فقد طردهم . ويبدو أن السلطان قد اقتنع بهذا الكلام ،
فقد هدأت نفسه وتعهد باعادة اصلاح ما تهدم من الأماكن المسيحية
المقدسة فى بيت المقدس والرملة وبيت لحم ، وقال ان السفير اقترح
عليه رصد رسوم الحج لهذه الاصلاحات . ولم تقتصر هذه السفارة
على اصلاح ذات الين بين البلدين ، ولكن تضمنت محادثات تجارية
خاصة بتسهيل ورود تجار قطلونيا للمتاجرة فى بلاد السلطان مع تمتعهم
بإعفاءات وتسهيلات مماثلة لما يمنح للتجار الأجانب وتجديد المعاهدات
السابق عقدها وقرار ما بها من امتيازات ونص على ذلك فى ملحق
أضيف اليه عدم فرض رسم أو ضرائب جديدة على التجارة المتبادلة مع
قطلونيا . (٤٤) وبدأ الملك فردناند من جانبه يعمل على تشجيع التجارة

(٤٤) السفير القطلونى هو بيب مارتير دانجيرا والقنصل القطلونى الفرنسى فى نفس
الوقت فى الاسكندرية هو Philippe De Peredes ، وكانت العادة الا يهتم السلطان
الا بسفراء الدول العظمى والذين يصلون الى القاهرة فى موكب فخم ، ويختار السفير من
بين كبار رجال دولته ، ويمتاز بحضور البديهة واللباقة وحسن التصرف ، وكان يمكث
شهرين فى نظام القديس فرانسوا للتعلمين على العادات الشرقية .

— Heyd, Op. Cit., p. 724, 725.

— Depping, Op. Cit., pp. 242-244.

الخارجية وبخاصة مع الممالك ، ففتح ميناء برشلونة للسفن التي تعمل على خطوط الملاحة مع شرق البحر المتوسط وخفف الرسوم الجمركية على السلع الشرقية وأوفد القناصل ووكلاءهم الى موانئ مصر والشام ومدنها . وكانت له سفن سريعة تقطع الطريق الى الشام في أقل من خمسة أسابيع . ووصلت كذلك المتاجر مع الحجاج المسيحيين العائدين من بيت المقدس والمسلمين العائدين من مكة والمدينة ونافس ميناء برشلونة موانئ إيطاليا في تجارة الشرق . واهتم فردناند بالميناء حتى جعله مركزا تجاريا من الطراز الأول بالاضافة الى أنه محصن وبه أحواض لبناء وترميم السفن ومخازن ومستودعات عديدة وتشرف على تجارته الخارجية هيئة القناصل البحريين . كما أصدر قانونا ضم فيه هيئة التجار القطلانة الى مجموعة التجار المسموح لهم بالتجارة ونقل وتوزيع السلع الشرقية الواردة من مصر والشام (٤٥) .

وجرت الأمور على هذا النحو حتى وصلت الأنباء عن نجاح البرتغاليين في الوصول الى الهند بحرا بطريق رأس الرجاء الصالح ، وأنهم ثبتوا أقدامهم في موانئ ساحل الهند الغربي . ووصول البرتغاليين الى الهند هو ثاني الأحداث الهامة التي ختمت العصور الوسطى وأكثرها أثرا في ماجريات السياسة والاقتصاد في مصر والشام ، ولما أصبحت البرتغال وسيطة التجارة بين الشرق والغرب أغرقت أوروبا بالسلع الشرقية

— Thénau, Op. Cit., pp. 243, 244.

— Ziada, Op. Cit., p. 368.

وبالرغم من أن المعاهدات كانت توقع بين سلطان مصر وملك أراجون فإن هذه المعاهدة وغيرها من المعاهدات لا تشير الى قنصل أراجونا وإنما تسميه قنصل الكاتيلان ، وقطالونيا ، ذلك لأن قطالونيا عندما انضمت الى مملكة أراجون في القرن ١٢ م احتفظت عاصمتها مدينة برشلونة بحق تسمية القناصل لكل رعايا أراجون المقيمين في موانئ البحر المتوسط الرئيسية التي كان لهم فيها نشاط تجارى . انظر : المجلة : عدد ٤٩ يناير ١٩٦١ ص ٩٠ و ٩١ .

— Heyd, Op. Cit., pp. 724, 725.

— Depping, Op. Cit., p. 239.

— Ziada, Op. Cit., p. 368.

(٤٥)

بأسعار رخيصة ، وطاف البرتغاليون بأسواق أوروبا لاستمالة شركاتها وعملائها لأسواق ، لشبونة وتنازلوا عن الكثير من الأرباح والرسوم الجمركية . وفي مصر أصبحت أسعار هذه السلع وخاصة التوابل محلا للنزاع المستمر بين السلطان الغورى والتجار الأجانب بصفة عامة ، نظرا للمركز الذى كان لهؤلاء التجار فى توزيع هذا النوع من السلع الشرقية فى أوروبا منذ عدة قرون . ففى قطلونيا وجد التجار سهولة ويسرا فى ارتياد أسواق لشبونة وأهملوا اتصالهم بموانئ مصر والشام - كما أن الملك فردناند لم يحترم ما تعهد به عام ١٥٠٢ للسلطان الغورى الذى نص على وصول تجاره لمصر ، ونص كذلك على رعايته للمسلمين من عرب ومغاربة فى بلاده . ورغم أن السلطان الغورى سلك مسلكا طينيا هادئا مع الملك فردناند الثانى ، إلا أن جهوده لم تؤد الى نتيجة ايجابية ، ولم يكف الملك عن اساءته للمسلمين والمغاربة ، كما لم تعد سفنه ترد موانئ مصر والشام (٤٦) . ومن ناحية أخرى أكد السلطان الغورى احتكاره لتجارة التوابل والسلع الشرقية وقصر شحنها على ميناء الاسكندرية دون الموانئ الأخرى بقصد التوحيد والتركيز واحكام الرقابة (٤٧) . وخصص أسواق الشام للسلع الواردة من وسط آسيا بالطريق البرى ومع ذلك بقيت الأسعار مرتفعة ، فبلغ سعر الحمل من التوابل الشرقية ١٠٥ دوكات حين وصل سعره فى السوق الحر أكثر من ١٩٢ دوكا ، مما أدى الى اثاره النزاع بين السلطان وعملائه الدائمين من البنادقة الذين رفضوا الشراء بهذه الأسعار وحملوا الى فندقهم حوالى ٢٥٠ حملا فقط مما أغضب السلطان

— Depping, Op. Cit. pp. 260.

(٤٦)

— Ziada, Op. Cit., p. 368.

— Heyd, Op. Cit., pp. 473 & 521-523.

— Cioli, Op. Cit., p. 106.

— Pernaud, Op. Cit., p. 410.

— Thénard, Op. Cit., pp. XLVII, XLVIII.

— Heyd, Op. Cit., p. 493.

(٤٧)

وفرض عليهم غرامة قدرها ٢٠٠.٠٠٠ دوك لتأثيرهم فى الأسعار بالخفض لصالحهم والامتناع عن الشراء بسعر السوق المحدد والحر ، وسجن تجارهم وقنصلهم وضاعت مواعيد عودة سفن المدة بعد أن منع السلطان هذه السفن من مباحرة الميناء . الا أن بعض السفن استطاعت الابحار خفية ، وساء حكومة البندقية هذا التصرف من السلطات المماليكية تجاه تجارها ، وتبادل الطرفان السفارات وهدد البنادقة بهجر أسواق السلطان والتوجه الى لشبونة مما اضطر السلطان أن يحدد سعر التوابل الشريفة بثمانين دوكات للحمل الواحد فى المدة التالية . وترك أسواق البيع الحر بدون تدخل ، وأصبح من السياسة الثابتة مراعاة تجار البندقية فى أسواق مصر وموانئها (٤٨) .

الا أن اتساع نشاط البرتغاليين فى الهند ، وسيطرتهم على مصادر تجارة التوابل والسلع الشرقية ، حجب وصول هذه السلع بكميات كبيرة الى مصر والشام ، وجعل التجار المماليكية تواجه ظروفًا صعبة ، كما كان معناه أيضا أن تجارة البندقية قد آذنت شمسها بالمغيب ، وعادت فى معظم الأحوال كثير من سفنها خالية أو بنصف حمولتها . ففى عام ١٥٠٢ عادت سفن يروت بأربع بالات من الفلفل ولم تجد سفينتان من خمس فى الاسكندرية ما تحمله الا بمشقة كبيرة ، ولم تعد تشاهد سفن المدة الا مرة كل عامين ، بعد أن كانت تصل للموانئ عدة مرات فى السنة (٤٩) . وكانت سفن البندقية عند عودتها من مصر تترك فى مخازنها من المتاجر الشرقية ما قيمته ٣٠٠.٠٠٠ دوك ومثلها على الأقل من النقد البندقى كحساب جار لها ولتجارها فى الجمارك، ويبقى بعد رحيل المدة خمسة عشر تاجرا يشرفون بأنفسهم على تسويق التجارة

— Heyd, Op. Cit., pp. 519-523.

(٤٨)

— Allan, J., The Camb. Shorter Hist. Of India p. 487.

(٤٩) انظر الملحق رقم (٦) عن تعليمات البندقية للسفير سانودو الى السلطان النورى .

— Heyd, Op. Cit., pp. 520, 521.

حتى المدة التالية . أما الآن فالسفن لا تكاد تترك من المتاجر الا ما قيمته ٨٠٠٠٠٠ بندقى ، ومن النقد ما يساوى ٢٠٠٠٠٠ بندقى ، ويبقى من هيئة التجار حوالى ستة ليس بيدهم الموارد الكافية للتسويق للمدة القادمة . وكان من الطبيعى أن ترتفع أسعار المتاجر الشرقية فى أسواق البندقية لقلة الوارد وارتفاع أسعاره مما حدا بعملاء البندقية من التجار الألمان وسكان شمال وغرب أوروبا أن يهجروا أسواقها الى لشبونة ، وليس أدل على تأثر أسواق البندقية من أن الألمان كانوا يصدرون لها كل عام حوالى ٤٠٠٠ قنطار من النحاس ومثلها من أطنان الزيت ، ويحصلون مقابلها على توابل الهند الواردة طريق مصر والشام ، فهبطت هذه الأرقام الى ٨٠٠ قنطار من النحاس ، و ١٥٠٠ طن من الزيت ، وأعلن تجار فينا أنهم سيتوجهون الى لشبونة اذا لم يجدوا ما يكفيهم من التوابل بأسعار مناسبة فى أسواق البندقية ، كما أن باقى المدن الايطالية التى تاجرت فى هذه السلع هددت بالتوجه الى أسواق لشبونة .

أما البرتغاليون فاستمر طواف مبعوثيهم لأسواق أوروبا لاستمالة شركاتها التجارية الى لشبونة ، وتنازلوا عن الكثير من أرباحهم ، وعن الرسوم الجمركية ، تشجيعا لوصول تجار أوروبا الى أسواقهم ، وخطوا خطوة أخرى لتدعيم مركزهم التجارى فى شمال أوروبا بتوزيع المتاجر الشرقية بأنفسهم ، وخاصة فى بلاد الألمان ، بنفس الأسعار المخفضة امعانا فى هدم تجارة مصر والبندقية (٥٠) . وبينما الأمور تجرى على هذا النحو وصل الى البندقية وفد برتغالى وعرض على حكومة الدوج وهيئة التجار بها تسهيل حصولهم على حاجتهم من التوابل والسلع الشرقية من أسواق لشبونة ، على أن يقوم البنادقة بتوزيعها بأنفسهم

(٥٠) ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ١٥١ وما بعدها .

— Thenaud, Op. Cit., pp. XLV-LVI ff.

— Heyd, Op. Cit., pp. 521, 522.

— Allan, Op. Cit., p. 487.

وبمعرفتهم فى أسواق أوروبا. كما كانوا يفعلون ، بدلا من اصرارهم على ارتياد أسواق مصر المرتفعة الأسعار والتي بدأ ينضب معينها (٥١) . ولكن كبرياء البندقية وعظمتها منعها من الاستجابة لهذا النداء حتى لا توقع بنفسها صك تبعيتها التجارية للبرتغال ، ولكنها فى الوقت نفسه لم تغفل ارسال مبعوثيها الى لشبونة لجمع المعلومات الكافية عن رحلات البرتغاليين للهند ، وعما اذا كان بالامكان وصول سفن البندقية الى الهند مباشرة ثم مراقبة مشروعات البرتغاليين القادمة ومواعيد الرحيل والعودة ومعلومات عن طبيعة الطريق الجديد . كما أوصت حكومة الدوج مبعوثيها الى لشبونة بأن ينفردوا بالأمراء الهنود الوافدين مع سفن التوابل البرتغالية لتحريضهم على مقاطعة البرتغاليين ومواصلة التعامل مع السلطان المالكي والبندقية، وأن يوحوا اليهم بأن البرتغال بلاد فقيرة تعجز عن تصريف تجارة الهند بدون مساعدة البندقية التي كانت وستبقى رغم كل هذا ، العميل الأول لتوابل الهند وأكبر دولة تجارية فى العالم المسيحى (٥٢) .

(٥١) طالب الملك عمانويل ملك البرتغال من البنادقة ورود أسواق لشبونة ليحصلوا على طلباتهم من التوابل والسلع الشرقية بدلا من ذهابهم لاسواق الاسكندرية وبيروت . — Heyd, Op. Cit., p. 524.

(٥٢) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ص ١٤٧ - ١٤٩ .
فهم مبعوثو البندقية الى لشبونة أن الملك البرتغالى عمانويل سيعمل تماما على احباط كل مشروع للبنادقة أو للسلطان المالكي فى مياه الهند وحصل على التأييد الكامل فى ذلك من رعاياه ومستشاريه وكان يتمثل الوقت الذى يستطيع فيه أن يخلق طريق البحر الأحمر الى جزر البهار فى وجه المالكي والبنادقة ويحتكر له ولبلاده هذه السلع الثمينة ويجبر البنادقة على ورود أسواقه ، وبالتالي تتبعه تجاريا وفى الوقت نفسه تنهار مصر تجاريا وسياسيا وعسكريا ويحدث مثل هذا للبنادقة ويحقق الملك البرتغال من ذلك ٣ أغراض :
١ - الضرب على أيدي التجار العرب والمصريين والاقبال من ثرواتهم لامكان الانتقام منهم سياسيا ودينيا .

٢ - نقل السيطرة التجارية من البندقية الى البرتغال .
٣ - فتح باب جديد لشراء البرتغال وسيطرتها على الشرق وتجارتها .
وليس أدل على ذلك من أن فاسكوداجاما لدى عودته من رحلته الى الهند عام ١٥٠٣ صرح بأن هذه الرحلات موجهة أساسا ضد سلطان مصر . انظر أيضا :
— Heyd Op. Cit., pp. 525, 526.

ورغم أن البندقية ، حتى ذلك الوقت ، لم تكن فى وضع سيء فانها بدأت تشعر بالقلق الشديد منذ بدأت البرتغال تغزو أسواقها القديمة فى أوربا بكميات وفيرة وأسعار رخيصة . من السلع الشرقية ، وخشيت أن يتزعزع مركزها الرائد فى توزيع هذه السلع منذ عدة قرون فى أوربا وخاصة أنها وجدت نفسها عاجزة عن مسايرة الأسعار التى تجلب بها البرتغال التوابل من الهند ، ففقط التوابل من بعض الأنواع الجيدة يساوى فى الهند ما بين ٢٥ر - ٣٠ دوكات ومن القرفة بالذات حوالى دوكات واحدة ، فى حين أنه فى مصر يصل الى حوالى ١٠٠ دوك ، وفى البندقية أكثر من ذلك . وهو نوع من المضاربة لو نجح لأدى الى اسقاط هيئة البنادقة والمماليك وزعزعة زعامتهم التجارية فى أوربا (٥٣) .

ولدى عودة المبعوثين من لشبونة فهمت البندقية أنه لا بد من عمل حاسم يرد لها كيائها ، والا فانها ستضطر لتوجيه تجارتها الى لشبونة وتقع بالمركز الثانى أو الثالث والتبعية التجارية للبرتغال . وانقسم البنادقة فريقين : فريق يرى التوجه الى لشبونة ويعزز رأيه بما يقاسيه تجاره فى بلاد السلطان وارتفاع أسعار التوابل وقيود الجمارك وعدم امكانهم الوصول بأنفسهم الى مصادر التوابل فى الهند . والفريق الآخر يرى ارسال سفارة قوية لمصر ليتدارك السلطان الأمر للنفع المشترك ، ويضيف هذا الفريق أنه بإمكان البنادقة نشر الشائعات المثبطة فى أسواق أوربا حول عجز البرتغال عن الاستمرار فى هذا العمل الخطير ، على أن تقوم مصر بمثل هذا العمل من جانبها لدى عملائها فى الهند . وصادف ذلك فترة انتكست فيها تجارة البرتغال فى الهند وجاءت خسائرها فوق حدود المعقول بسبب أخطار الطريق وشدة مقاومة الأهالى للبرتغاليين لسياستهم القائمة على السلب والنهب أحيانا ، وأكد البعض

— Thenaud, Op. Cit., p. XXXI.

— Heyd, Op. Cit., pp. 525, 526.

أنه ليس للملك البرتغالي سفنا أخرى يرسلها لمياه الهند وساد الاعتقاد بأن السلطان المالكي قد اتصل بالأمرء الهنود وأن جهوده قد أثرت وأن قوته البحرية ستقضى فعلا على قوة البرتغاليين في المياه الشرقية وأنه لن يترك الأمور تفلت من يده بهذه السهولة (٥٤). وبرغم هذه الشائعات التي رفعت من معنويات البنادقة وسمعتهم في أوروبا ، بقدر ما أساءت الى البرتغاليين وانزعج ملك البرتغال وأرسل مبعوثا لدوج البندقية مكذبا هذه الشائعات وشرح المبعوث مقدرة بلاده على مواجهة كل الاحتمالات على طول الطريق وفي مياه الهند نفسها ، وطلب من البندقية التأييد وتوجيه تجارها الى لشبونة ، كما طلب المبعوث من الدوج أن يرسل مندوبه للتأكد من ذلك . وفي ختام المباحثات طلب من حكومة البندقية أن توجه تجارها الى لشبونة الا أن دوج البندقية نصح مبعوث ملك البرتغال بعدم مقاومة السلطات المالكية وعدم الاستمرار في هذه المغامرة الخطيرة ، وأضاف الدوج فيما يتعلق بتوجيه تجاره الى لشبونة « إن حكومته تضع موضع الاعتبار ترحيبكم بتجارها في بلادكم وتمكينهم من الاستمرار في مراكزهم القديمة في أسواق أوروبا وتوليهم التوزيع بأنفسهم ، ولكننا في الوقت نفسه نخشى فقد مراكزنا القديمة الممتازة في شرق البحر المتوسط لو فرض وعجزت سفنكم عن مواصلة رحلاتها الى الهند » . (٥٥) .

(٥٤) بلغت الشائعات حدّها الاقصى في بداية القرن ١٦ في السنوات الاولى لرحلات البرتغاليين ، وكان البنادقة مصدر معظمها ، الا أن ملك البرتغال كان لديه من الامكانات الضخمة ما يمكنه من الاندفاع في مشروعه بنجاح وهي :

- ١ - مناجم البرتغال من ذهب افريقية تمون باستمرار أسواق التوابل الهندية .
- ٢ - نفقات عودة السفن وألمان ما تحمله من سلع تسدد باستمرار نفقات تسليحها
- ٣ - أن ملك البرتغال قنع في البداية بتسديد النفقات وعدم الربح حتى ثبت أقدامه واحتاج في ذلك الى عمل كل ما في وسعه لنشر أعمال القرصنة في البحر المتوسط وفي مياه الهند ومداخل البحر الأحمر لمنع وصول التوابل لمصر والشام . راجع :

— Heyd, Op. Cit., pp. 517, 518.

— Heyd, Op. Cit., pp. 518, 519.

(٥٥)

وبالرغم من ذلك كله لم تكن البندقية بحاجة لمن يعرفها مدى الخسارة التي تلحقها نتيجة للتوسع البرتغالي في جلب المتاجر الشرقية وقررت أن تسلك مسلكا ايجابيا فأرسلت في عام ١٥٠٢ سفارة برئاسة « بنديتو سانودو » Benedetto Sanoudo ولهذا الرجل تجارب عديدة في التجارة مع مصر فيما بين عامي ١٤٩٦ - ١٥٠٠ وكانت بعثته الى مصر سرية وكان عليه أن يوضح للسلطان الغوري الأخطار التي تعرض لها مصالحه وتجارته وثروته من جراء وصول البرتغاليين للهند واهتمام البندقية بمقاومة مشروعات البرتغال في الهند وفي أوروبا . ووضع سانودو أمام أعين السلطان الحقيقة المزعجة للطرفين ، وصرح له أن التجار الانجليز بدأوا يتوجهون فعلا الى لشبونة لرخص أسعارها عن الاسكندرية وقلة رسوم جماركها . بل ان التجار البرتغاليين بدعوا يجوبون أسواق أوروبا بأنفسهم . واستعان سانودو بالترجمان « تغري بردي » لحض السلطان على القيام بعمل ايجابي ومقاومة البرتغاليين في الهند ومن ناحية أخرى تخفيض أسعار التوابل الشريفة والحرة وخفض رسوم الجمارك لاماكان اقناع تجار البندقية بمواصلة ارتياد أسواق مصر والشام ومواجهة نشاط البرتغاليين في دول أوروبا . ولم يكن هذا هو كل ما تناولته المباحثات بين السلطان وسانودو بل كرر السفير شكوى مواطنيه التجار من تعنت حكام دمشق وبيروت معهم ، فهم يجبرون تجارهم على شراء كميات اضافية من الفلفل بأسعار خيالية في الوقت الذي تمتلئ فيه أسواق أوروبا بالتوابل الرخيصة النقية من لشبونة . وشكا كذلك من سوء معاملة عمال السلطان للتجار في الجمرك ، وأنهم يمنعون لجوء سفنهم ليلا الى الميناء وخلال العواصف ويجبرونها على الرحيل قبل شحن كل ما يشتريه التجار فيبقى معظمه في الميناء للمدة التالية معرضا للضياع والبوار . وطلب السفير آخر الأمر ترك السفن حتى يتم شحن كل مالديها بدون الحاجة الى تصريح سابق

من السلطات . وعاد السفير الى بلاده فى ٢٠ من سبتمبر ١٥٠٣ (٥٦) .

وكان السلطان الغورى مقتنعا بما جاءت به بعثة سانودو ، كما كان مقتنعا بأن ازدياد نفوذ البرتغاليين فى الهند قد يقضى على مصالحه التجارية وهيئته أمام العالم ، وقد تأكد له هذا بصورة عملية عندما أرسل أسطولا تجاريا الى ساحل مالابار شحن كالمعتاد كميات ضخمة من التوابل والمتاجر الهندية . وفى عودة السفن حملت معها عددا كبيرا من الأمراء الهنود ، وعددا من المسلمين فى طريقهم الى الحج ، ولكن هذه السفن بشحناتها لم تصل كاملة الى ميناء جدة اذ هاجمتها سفن الأسطول البرتغالى فى مياه الهند وصادرت معظم شحناتها من التوابل والمتاجر الهندية . وأثارت هذه الأنباء ثائرة السلطان الغورى ، لاسيما أن الأنباء تواترت مرة أخرى عن اجراءات تعسفية ضد العرب فى أسبانيا ، فقرر السلطان أن يعمل عملا جديا فأنزل سفنا حربية جديدة فى البحر الأحمر لمواجهة تهجم البرتغاليين على سفنه فى الهند . ويقال انه أشرف بنفسه على ارسال قطعها الى ميناء الطور وفى الوقت نفسه قرر ارسال بعثة برئاسة الأسقف « ماوروس دى سان برنادينو » Maurus Di San Bernadino رئيس دير جبل صهيون ببيت المقدس ومعه راهبان الى ملوك وأمراء أوروبا وبابا روما للوقوف على الأحوال السياسية بصفة عامة ، وحث البابا على اقناع البرتغاليين بوقف أعمالهم العدوانية ضد

(٥٦) راجع المعاهدة بالملحق رقم (٦) وكذلك

— Heyd, Op. Cit., pp. 519, 520.

— مما دفع البنادقة الى ارسال بعثاتهم المتكررة الى مصر ، أن البرتغاليين افاروا على سفن التجارة المالكية وهى فى مياه الهند بعد شحنها وصادروا ما عليها من شحنات التوابل وخلافه وظهر أثر ذلك بوضوح فى « مدة » البندقية ١٥٠٢ م اذ عادت سفنهم من الاسكندرية ويروت ، وهى لاتكاد تحمل ربع شحناتها وحبولتها العادية ، حتى ان هيئة التجار الألمان الذين وفدوا كالمعتاد لحضور مزادات الاسواق السنوية فى البندقية عادوا بأموالهم بعد أن هددوا السلطات المشرفة على التجارة الخارجية بأنهم سوف يتوجهون الى أسواق لشبونة للحصول على حاجتهم من التوابل . راجع كذلك :

دراج : المالك والفرنج ص ١٣٢ و ١٣٣ .

— Thenaud, Op. Cit., pp. XLVII, XLVIII.

مصالح السلطان فى الهند . ووصل ماوروس ومرافقه الى البندقية فى ابريل ١٥٠٤ ومع خطابا للدوج لطلب مساعدات حرية للسلطان لمقاومة البرتغاليين فى مياه الهند وطلب كذلك منحه خطابات توصية الى ملكى اسبانيا والبرتغال والبابا . وعقد السناتو جلسة خاصة حضرها الأسقف ماوروس ، الذى عرض طلب السلطان المعونة الحرية والتأييد الأدبى لدى البابا وملكى اسبانيا والبرتغال لوقف تعرض البرتغاليين للمصالح السلطانية فى الهند ، أو ارسال أسلحة للسلطان لمقاومة البرتغاليين فى المياه الهندية فى حالة فشل المفاوضات لوقف اعتداءاتهم . وأعلن ماوروس كذلك استياء السلطان من موقف الملك القطلونى من المسلمين فى الأندلس والمغاربة بشمال افريقية واجبارهم على ترك دينهم أو الموت . وقال ماوروس ان ملكى اسبانيا والبرتغال يسلكان مسلكا صعبا ضد السلطان سواء فى أوروبا أو فى الهند وأنه اذا لم تجب كل طلباته بالود والتفاهم فسيجد نفسه مضطرا الى قتل كل أجنبى يصل لبلاده ويهدم ما بها من أديرة وأماكن مسيحية . ورد السناتور على مبعوث السلطان بأن الأضرار التى لحقت بالسلطان قد أصابت البندقية كذلك فى الصميم واعتذر عن الكتابة للبابا وملكى قطلونيا والبرتغال حتى لا تتهم البندقية بمساعدتها للسلطان عدو المسيحيين ، واكتفى السناتو بأن أعطى للأسقف ماوروس عند سفره معلومات عن الحالة فى أوروبا بصفة عامة ليبلغها للسلطان .

وسافر الأسقف الى أوروبا واتصل بالبابا يوليوس الثانى الذى انزعج لما سمعه عن تهديدات السلطان للمسيحيين والأماكن المقدسة المسيحية فى بلاده وأسرع بإرساله ومرافقيه الى فردناند الخامس ملك قطلونيا وعمانويل ملك البرتغال وهناك أوضح لهما الأسقف جلية الأمر ومضمون مهمته . وليس لدينا ردهما المكتوب ولكن كل مانعرفه أن الملك البرتغالى أرسل يطمئن البابا يوليوس الثانى كما نصحه بالآ يقلق أو يلقى بالآ لتهديدات السلطان لأنه ليست لديه القوة الكافية لتنفيذ

هذه التهديدات ، كما أنه لا يستطيع القيام بأى عمل تعسفى ضد المسيحيين فى بلاده أو ضد الأماكن المسيحية المقدسة لأنه يجنى من ورائها رسوما طائلة فى مواسم الحج . وأضاف أنه فى حالة تنفيذ السلطان تهديداته فإن الأسطول البرتغالى سيدخل البحر الأحمر ويهاجم الأماكن الاسلامية المقدسة فى مكة والمدينة كاجراء مضاد . وفى نهاية الرسالة طلب من البابا التأييد الدينى والأدبى فى صراعه مع المماليك والاتصال بملوك وأمراء أوروبا لنفس الغرض .

وأعطى الملك الخطاب للأسقف مغلقا ليسلمه بنفسه للبابا وهو فى طريقه للشرق (٥٧) .

وفى البندقية لم تكذ السلطات تودع الأسقف ماوروس الى روما حتى أسرع بارسال سفارة جديدة الى القاهرة يرأسها « فرنسيسكو تالدى Fransisco Taldi » فى ٢٤ من مايو ١٥٠٤ بعد شهر من وصول الأسقف للبندقية . وفى المحادثات نبه السفير تالدى السلطان الفورى الى ازدياد نشاط البرتغاليين فى الهند وأنهم يوزعون التوابل فى أوروبا بأسعار تقل كثيرا عن أسعار الاسكندرية وبيروت، بل انهم يوزعونها فى ايطاليا نفسها بالأسعار المنخفضة، وأوضح السفير للسلطان أن حكومته لم تستطع منع تجارها من اللجوء أحيانا الى أسواق لشبونة . كما أنها لم تستطع مقاومة اغراء رسل ملك البرتغال الى البندقية ودعوته تجارها لتولى منصب الصدارة فى توزيع هذه التوابل فى أوروبا

— Thénaud, Op. Cit., I. pp. XLVII, XLVIII, XLIX. (٥٧)

— لكى يسهل السلطان على الاسقف ماوروس مهمته طلب منه نزع قطعة رخام من كنيسة القبر المقدس وهى مجزعة بلون بنفسجى ومقاسها ٣ ١/٢ شبر مربع ويقسمها الى خمس قطع متساوية تعطى للبابا والملكة قشتالة والملك البرتغال وللكردينال Carvajal وكان يحمل لقب Sainte-Croix En Jérusalem والخامسة للكردينال D. Francesco Cianerses وقصد من ذلك أن تكون هدايا مقدسة لتسهيل مهمته . انظر كذلك :

— Heyd, Op. Cit., pp. 520-522.

— Lane Poole, Egypt In The Middle Ages, p. 532.

— Muir, W., The Mameluk Or Slave Dynasty, p. 191.

— Charles Roux, J., L'Isthme Et Le Canal De Suez, T.I. p. 42.

بالنظام نفسه الذى يقومون به الآن بشرط قطع الصلة مع السلطان المماليكى . ثم ألمح السفير للسلطان أن بلاده لا تستطيع أن تتغاضى عن ثلاثة قرون من العلاقات الطيبة مع مصر بهذه السهولة ، وصرح بأن الهيئة المشرفة على التجارة الخارجية عارضت سياسة الحكومة الهادئة مع السلطان ، ولكن حكومة الدوج يعز عليها أن تهجر السوق التى طالما ترددت عليه وتأمل أن يتدارك السلطان الأمر . وأضاف السفير إلى ما ذكره أنه وصل إلى البرتغال ١٤ سفينة تحمل حوالى ٥٠٠ حمل من التوابل أرسلت كلها إلى أسواق إنجلترا والفنلندرز وفرنسا وإيطاليا كما يوجد بميناء لشبونة ١٢ سفينة مستعدة للرحيل غير ١٦ رحلت فعلا للهند ونصح السلطان بأن يتخذ اجراء سريعا جديا فيرسل مندوبيه الدبلوماسيين إلى ولايات الهند وأمرائها لينصحهم بمقاطعة البرتغاليين أعداء الدين والوطن ويقرن هذا بعمل حربى يضع البرتغاليين عند حدهم وأن يصحب سفن التجارة المماليكية دائما سفنا حربية ويفرق أسواق الاسكندرية وبيروت بالتوابل النقية الجيدة بأسعار رخيصة لاغراء التجار البنادقة وغيرهم بعودتهم إلى أسواقهم ، وبذلك يكون قد عمل على تدمير مشروعات البرتغاليين فى الهند ، كما نصحه ألا يتخذ أى اجراء ضد المسيحيين والأماكن المسيحية المقدسة فى بلاده لأن هذا سيثير عليه الشعور الدينى فى أوروبا ويكسب البرتغاليين تأييد الدول الأوربية وعطفها على جهودها ضد السلطان (٥٨) . وأوضح تالدى أيضا للسلطان صعوبة كتابة حكومته للملكى قطالونيا والبرتغال والبابا حتى لا يحدث شكاً فى موقف البندقية من الدول المسيحية المعادية للسلطان .

(٥٨) بعثة السفير البندقى تالدى للقاهرة تمت فى ٢٤ من مايو ١٥٠٤ . انظر نص تعليمات السناتو للسفير بالملحق رقم (٧) وكذلك :

— شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ص ١٤٧ - ١٥١ وكذلك :

— Mas Latrie, Op. Cit., pp. 259-263.
— Charles Roux, Op. Cit., T. I. p. 45.
— Heyd, Op. Cit., pp. 521, 522, 523, 524.
— Thénau, Op. Cit., pp. XLV-XLVI ff.

وبخصوص المعونة العسكرية التي طلبها السلطان ، فيبدو أن حكومة البندقية أخطأت في فهم مقاصده فاعتقدت أنه يطالبها بارسال أسطولها إلى الهند بالطريق الجديد ليلتقى بأسطوله ويواجهها مع البرتغاليين ، وأوضحت البندقية على أساس هذا الفهم أن البرتغال تبعد حوالي ٤٠٠٠ ميل عنها ، وبالطبع ستكون المسافة أضعاف هذا بالنسبة للهند بالطريق الجديد علاوة على أن ملك قطلونيا حليف البرتغال، تقع بلاده على الطريق إلى الهند وتجاور كذلك حدود البندقية أملاك لويس الثاني عشر ملك فرنسا الذي استولى على نابلي وهو لن يتحالف معها ضد المسيحية . الا أن السلطان أوضح للسفير أنه يطلب فقط شحنات من الأسلحة والأخشاب إلى الاسكندرية . ثم مرض تالدى وانقطعت محادثاته مع السلطان حتى حل محله مبعوث آخر هو « برناردينو جيونا Bernardino Giova » . ومع كل الجهود التي بذلتها البندقية لم يقدر لهذه المباحثات النجاح ، واعتقد البنادقة أنه لو نفذ السلطان مشورتهم بالاضافة إلى جهوده الخاصة لحسم المشكلة نهائيا (٥٩) . وفي أثناء ذلك وصل الأسقف ماوروس إلى القاهرة في ٥ من مارس ١٥٠٥ وأطلع السلطان على تفاصيل رحلته وبدأ السلطان يتخذ إجراءات هامة فأنزل أسطولا ضخما في السويس وجمع تكاليف الحملة من رفع أسعار التوابل وزيادة رسوم الجمارك ، وقبل بعض التجار الأجانب الزيادة ورفضها قبطان « الجاليز البندقي » وهو « سر بولو كاللو Ser Polo Callo » وطالب بتطبيق المعاهدات المعقودة بين السلطان وبلاده ، وانهز القبطان فرصة انشغال عمال الميناء وأقلع من الاسكندرية دون استئذان السلطات المحلية حسب التعليمات وعاد

(٥٩) نصح السفير تالدى السلطان الفوري بصرف النظر عن التهديد باتخاذ إجراءات عنيفة ضد المسيحيين والحجاج والاماكن المقدسة ببلاده لأن هذا سيثير عليه أوروبا ويمنع وصول التجار إلى بلاده ويفقده رسوم الحجاج . راجع الفقرة ١٢ من الرسالة في الملحق برقم (٧) .

للبندقية خاوى الوفاض ، وكان هذا العمل منه فى هذا الوقت الحرج سببا فى اثاره حفيظة السلطان ، فألقى القبض على القنصل اليندى ووكلائه وقناصل الدول الأخرى ورعاياهم ، وأرسلهم مكبلين بالحديد لسجون القاهرة ومعهم راعى يبعة الاسكندرية البندقى ، وصادر السلطان أموالهم ومتاجرهم فى مصر والشام ويبتع بأبخس الأثمان (٦٠) . وزاد من ثورة السلطان أن فرسان رودس وقراصنتهم صادروا سفنا للسلطان بحمولات ثمينة غربى مياه قبرص ، واعتقد السلطان أن للبنادقة يدا فى ذلك وأنهم أهملوا أو تعمدوا اهمال تنفيذ شروط الاتفاقية المبرمة معهم من عهد السلطان قايتباى والتي بموجبها تنازلت لهم مصر عن ادارة قبرص لقاء تعهدهم بحماية الجزيرة ودفع الجزية السنوية ومنع القراصنة عن مياهها . وفى ثورة الغضب أغار السلطان على مابقى من ممتلكاتهم (٦١) . واتخذ اجراءات أخرى داخلية فأعلن سيطرته الكاملة واحتكاره للتجارة الشرقية وحذر من بقى من التجار الكارمية من التعامل المباشر مع الأجانب وبخاصة البنادقة واقتصرت أعمالهم على جلب التوابل والسلع من الهند ، بعد أن رأى وضوح التقارب بينهم وبين الأجانب المترددين على بلاده ، وظل الكارمية كما كانوا على عهد السلطان قايتباى مجرد موظفين لدى السلطان بالمرتب والعمولة ، وفى الوقت نفسه رفع بعض تجاره من القائمين ببيع التوابل السلطانية للمركز الذى كان للكارمية من قبل رغم قلة خبرتهم فى التجارة الشرقية مما أدى الى تردد الشكوى من سوء تصرفهم . وتضاءلت شخصية التاجر الكارمى الدولية حتى أصبح تاجرا عاديا (٦٢) .

— Thénault, Op. Cit., I. pp. XLVII, XLIX.

(٦٠)

لكثرة ما أمين الاسرى مات القنصل والقس واحد كبار التجار وهو التاجر Ser Alvise Bragadine . بالطاعون والأمراض الأخرى .

دراج : المالك والفرنج ص ١٣٦

— Thénault, Ibid, I. p. LX.

(٦١)

(٦٢) انظر طوائف التجار فى الفصل الخامس وما كتب عن الكارمية .

— Heyd, Op. Cit., pp. 519-520.

ومع هذه الاحتياطات الشديدة وتحذيرات السلطان فإن هذا الاجراء الاحتكاري لم يمنع توثيق الصلة بين التجار الكارمية والأجانب سرا والتعاون على تهريب البضائع أحيانا - ولما اشتدت المراقبة عليهم هجروا مصر وتركزوا في الحجاز والبحر الأحمر ومارسوا تجارة متواضعة نسبيا في مواسم الحج ، كما هجر عدد من الجاليات التجارية الأجنبية مصر والشام الى لشبونة (٦٣) .

وبدا للبندقية هذا الموقف من أسوأ ما واجهته في حياتها التجارية بشرق البحر المتوسط . ومع هذا لم تيأس من اصلاح الحال ، ورأى السناتوأن إعادةالعلاقات الىحالتها الطبيعيةيحتاج لسفارةجديدةيرأسها مندوب فوق العادة من السناتو نفسه تكون له الخبرة الكاملة بمجريات الحوادث على أن تعطى له كل الصلاحيات اللازمة لعقد اتفاق مفيد واختير لهذه البعثة السناتور « الفيز ساجاندينو Alvise Sagandino » لخبرته بشئون الشرق . ووصل السفير في صيف ١٥٠٥ وعرض على السلطان آخر تطورات الموقف في أوروبا وفي الهند واستفسر منه عما اذا كان بإمكانه القيام بعمل ايجابي للمحافظة على مصالح البنادقة في بلاده ولم يتم السفير سفارته لموته المفاجيء . (٦٤)

ولم يكن الغورى في حاجة لمن يعرفه بمدى التدهور الذي بلغه الموقف في الهند وخسائره التجارية وفشل خطته لافساد العلاقات التي نشأت بين البرتغاليين وأمراء كانانور وكوشين ومراكز انتاج البهار ،

— Thenayd, Op. Cit., T.I. pp. XLVII, XLVIII.

(٦٣)

— Heyd, Op. Cit., pp. 520, 521.

(٦٤) يحق لنا أن نتساءل عن مدى ما ترمى اليه البندقية من الحاجها في كل هذه الاجراءات .. ألم يكن بإمكانها إلغاء اتفاقياتها مع مصر وتوجيه سفنها الى لشبونة للحصول على ما تريد من التوابل ، وتنظيم رحلات لها بشروط البرتغاليين الى الهند ؟ الواقع أن الطريق البحري حول افريقية كان طويلا بالنسبة للبرتغاليين وبالطبع أطول بالنسبة للبندقية ، كما أن البنادقة رفضوا كتجار أن يكونوا تابعين لملك البرتغال بعد أن كانوا دولة من الدرجة الأولى لذلك فضلوا أسواق مصر . راجع :

— Heyd, Ibid ; p. 524.

وتدمير البرتغاليين المستمر لأساطيله التجارية وأساطيل الأمراء الهنود الموالين له وبخاصة في قاليقوط ، وترصدهم لسفنه عند مدخل البحر الأحمر ، وفي الوقت نفسه قلة التوابل بصورة مزعجة في أسواق مصر وسوريا وزيادتها الهائلة في أسواق لشبونة ، مما أزعج تماما هيئة التجار والسناتو البندقى وبخاصة لما وصلتهم التوابل والسلع الشرقية من لشبونة حتى بلادهم بأسعار معتدلة ، كما وصلت أنباء عن تدعيم البرتغال لأسطولها في الهند بسفن حربية للحماية وتأكيد السيطرة والاحتكار وافساد كل تدبير للسلطان . بل علم أن البرتغال قررت أن يرافق أسطولها التجارى سفنا حربية اعتبارا من عام ١٥٠٦ وسمحت السلطات البرتغالية للسفن الفلورنسية والجنوية والألمانية بمصاحبة الرحلة على أن يكون ما تشتريه لحسابها بإشراف البرتغاليين ويخصص منه ثلثا الحمولة . وذلك نكايه في البنادقة . وبقدر ما كان هذا العمل توسعا في تجارة البرتغاليين والهنود فإنه لا شك كان انتكاسا شديدا لتجارة الممالك والبنادقة (٦٥) .

الا أن الغورى لم يدع مصالحه تنهار بهذه السهولة ورأى أن الأمر يحتاج لحملة حربية الى مياه الهند وقرر ارسال بعثة الى الهند للمفاوضة في طلب المعونة العسكرية من أخشاب وسلاح واعادة التجارة الى ما كانت عليه لا سيما وأن إراداته انخفضت بصورة مزعجة ، وأسند هذه السفارة الى ترجمانه الخاص تغرى بردى وسافر المبعوث السلطانى فى ٥ من مارس ١٥٠٥ على احدى سفن المدد البندقية الى قبرص ومعه أعضاء سفارته وبقي بها حتى وصله تصريح مرور الى رودس ليفاوض مقدم امبتاريتها «أمايرى دامبواز Ameiry D'Amboise»

(٦٥) سمحت البرتغال لبعض تجار فلورنسا وجنوة والألمان بمصاحبة احدى رحلاتها للتأكد من قدرتها . على أن يسلموا للبرتغاليين ثلثى ما يشترونه بالاسعار العادية . راجع :

— Thenaud, Op. Cit., T. I. p. LI.

فى شأن السفن المأسورة والمصادرة بواسطة فرسانه شرقى البحر المتوسط وغربى قبرص . و انتهى تغرى بردى من مهمته بسهولة وحمله مقدم الاستتارية هدايا للسلطان وأوصله بنفسه للسفينة التى أقلتة للبندقية وبالرغم من عدم الشعور بالارتياح فى البندقية لشخصية السفير الترجمان تغرى بردى فان السناتور اضطر أن يخفى هذا الشعور للصفة الرسمية التى للمندوب السلطانى ، بل ان السناتور تحمل نفقات الرحلة اكراما للسلطان . وفى المحادثات طلب السفير السلطانى معونة عسكرية لمواجهة الموقف فى الهند ، كما طالب بعودة تجار البندقية لموانئ مصر والشام . أما البندقية فان طلباتها تلخصت فى تسهيل مهمة تجارها فى موانئ مصر والشام وأسواقهما ، وفك أسر المسجونين منهم ، وتحديد سعر التوابل الشريفة ، ورفع القيود على السوق الحرة وتخفيض الجمارك وفى الحق أن البندقية لم تشأ أن تعطى رأيها بصراحة فى طلبات السلطان ، كما أن تغرى بردى لم يوافق على طلباتها بسرعة واقترح ارسال خاصكيا من عنده للقاهرة بسرعة لعرض الموقف وطلبات البندقية ورأيها على السلطان . ووافقت البندقية ، وحملت الخاصكى السلطانى وعدا سريا برغبتها فى المساعدة الحرية ، بل انها ستعمل على ذلك بكل طاقاتها سرا حتى لا تثير عليها وعلى السلطان الدول الأوروبية المسيحية ، وفى الوقت نفسه طلب تغرى بردى أنه يبلغ سيده جهارا بأن يتوجه بطلباته من السلاح والسفن الى السلطان العثمانى بايزيد الثانى . ويبدو أن السلطان الغورى كان فى موقف دقيق فعلا فقبل شروط البندقية وأقرها على مطالبتها . وما لبثت أن وصلت سفن المدة التابعة لهم الى الموانئ السلطانية ، وفى الوقت نفسه أنفذ رسله الى السلطان بايزيد الثانى لطلب السلاح (٦٦) الا أن الآمال لم تتحقق وفق ما يرجوه

(٦٦) راجع الملحق برقم (٨) عن مناقشات السناتور بخصوص سفارة تغرى بردى ١٥٠٦ ورقم (٩) بشأن المباحثات بين تغرى بردى وحكومة البندقية وما اتفق عليه فى هذا الموضوع . راجع كذلك :

الطرفان لاستمرار اعتداء البرتغاليين على سفن التوابل المالكية في الهند ، واستأنف تغرى بردى رحلته الى روما وأوروبا في يوليو ١٥٠٧ دون أن يحقق غرضاً إيجابياً سوى إسماع صوت سيده السلطان للمسئولين في روما وأوروبا . وقد عزا تغرى بردى فشل مهمته الى موقف البنادقة المانع من طلبات السلطان مما جعله يوغر صدر سيده عليهم فيتخذ هذا اجراءات أشد عنفاً ثم لا يلبث تغرى بردى أن يتصل بهم في سجونهم ويعرض عليهم الحرية والحياة الكريمة اذا ما حضوا حكومة الدوج على اعطاء السلطان طلباته من السلاح والسفن . وبرغم كل ما قيل وما جاء على لسان تغرى بردى وحكومة الدوج فان الوثائق لا تشير بصراحة عن طبيعة المعونة المطلوبة : أهى مال .. أم سلاح .. أم سفن أم كل أولئك معا .. وهل وعده البندقية بالمساعدة السرية كان وعداً صادقاً أم مسaire للظروف .. والواقع أن توالى الأحداث بعد ذلك أكد تهرب البندقية من تنفيذ وعدها للسلطان متعلقة بحرج مركزها أمام العالم المسيحي (٦٧) .

وإذا كانت العلاقات المالكية البندقية قد استغرقت معظم سنى حكم السلطان الغورى إلا أنه لم يبخل رعاية غيرهم من التجار الأجانب وخاصة من الفلورنسيين . ففي زحمة المشكلات التى اقترنت باتساع نشاط البرتغاليين فى الهند ومحاولتهم تدمير تجارة السلطان ، وفى

= ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٢٦ (طبعة كالة)

— Heyd, Op. Cit., p. 525.

— Depping, Op. Cit., p. 270.

— Thenaud, Op. Cit., T.I. p. LII.

وكانت البندقية قد أرسلت سفارة للسلطان الغورى بشأن نصيحتها له بطلب السلاح من بايزيد الثانى العثمانى والأخشاب من خليج اياس وبالفعل أرسل السلطان الى أدرنة سفيرا من لدنه يوضح الموقف للسلطان العثمانى .

دراج : الممالك والفرنج ص ١٤٠ و ١٤١ .

(٦٧) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٩١ - ١٢٠ .

— Thenaud, Op. Cit., pp. L-LI.

— Heyd, Op. Cit., p. 493.

ان سفارات والبعثات الدبلوماسية لبحث هذه المشكلة وصل الى القاهرة عام ١٥٠٦ مبعوثا فلورنسيا لتحية السلطان وللحصول على تأكيدات لمواطنيه التجار من مصالح وامتيازات في بلاد السلطان المماليكى . وكانت حكومة فلورنسا قد قلقت لقلّة ما بأسواق السلطان من توابل وارتفاع أسعارها وما اتخذهُ السلطان من اجراءات تعسفية ضد التجار الأجانب ، وأقلقها كذلك كثرة السفارات المتبادلة بين مصر والبنديقية وخشيت أن يكون فى الأمر ما يضر بمصالحها فى مصر والشام فعقدت اتفاقية فى ١٢ من ابريل ١٥٠٦ أكد فيها الغورى رعاية حكومته لتجار فلورنسا وتأكيد ما لهم من حقوق وامتيازات ، وطلب من السفير أن يبلغ حكومته اهتمام السلطان بوصول التوابل والسلع الشرقية بصورة دائمة لبلادهِ وأنه لا صحة لما يشاع عن قصور تجاره عن جلب السلع الشرقية من الهند . ثم أصدر له السلطان مرسوما شريفا موجها الى « كل واقف عليه وناظر اليه من الجنایات العالية والمجالس السامية، النواب، والحجاب ، والمباشرين ، والنظار ، والمتكلمين ، وأرباب الادراك ؛ وأصحاب الوظائف بالثغر الاسكندري المحروس وغيره من الثغور الاسلامية والسواحل بممالكنا الشريفة .. بالأمان والاطمئنان لطائفة الفرتيين ورعاية مصالحهم ومصالح تجارهم » . - كما تضمن الخطاب تعليمات السلطان لعماله فى حالة موت أحد تجار الفلورنسيين أو انكسار احدى سفنهم وحماية ملكياتهم الخاصة هذا مع اقرار كل ما منح لهم من امتيازات نالوها فى المعاهدات السابقة من عهد السلطان اينال والسلطان قايتباى ، وبخاصة المعاهدة الشاملة التى عقدها السلطان قايتباى مع سفيرهم « دلا ستوفا Della Stufa » عام ١٤٨٩ (أصبح قنصلهم هو الشخص ، المسئول رسميا عن طائفتهم وفى المحادثات كرر السلطان نفى الشائعات التى يرويها أعداءه اليرتغاليين عن انهيار

تجارته في الهند^(٦٨) . والواقع أن تجار فلورنسا لقوا رعاية خاصة في بلاد السلطان لبعدهم عن المشكلات العامة والخاصة وعدم اعتراضهم على تعليمات حكومة السلطان . ولم يحدث ما يعكر صفو العلاقات بين البلدين حتى ان السلطان كلف مبعوثه تغري بردي بأن يعرج على فلورنسا بعد انتهاء مهمته في البندقية وحمله لحاكمها الهدايا والتحيات ومشروع اتفاقية جديدة بامتيازات أوسع في مصر والشام . وقد وجه حاكم فلورنسا خطاب شكر للسلطان الغوري على هداياه ومنحه لتجارها^(٦٩) . وحمل تغري بردي خطاب الشكر للسلطان الذي أعد مرسوما آخر لعماله بمراعاة طائفة الفلورنسيين في بلاده وألا يؤخذ أحد بجزيرة خطأ ارتكبه آخر ، وألا يمس أحدهم مصالحهم بسوء^(٧٠) ، ومع أنه لم يحدث ما يعكر الصفو بين الفلورنسيين والسلطان الغوري في تلك الفترة فانه عند حدوث أي نزاع بين السلطان والتجار الأجانب في بلاده كان غضب السلطان يجمع الكل بما في ذلك الفلورنسيين أنفسهم فيخضعون لشتى أنواع الضغوط والمصادرة لسلعهم وأموالهم

(٦٨) داب الفلورنسيون على زيادة اتصالاتهم ومواصلة هذا الاتصال بالسلطان المالكي فكانت القاهرة تستقبل كل عام سفيرا فلورنسيا لتأييد الصداقة وتجديد الامتيازات الممنوحة لتجارهم

— Ziada, Op. Cit., p. 246.

راجع الملحق رقم (٢٥) والاتفاقية بتاريخ ٨ ذو القعدة ٩١١ هـ / ١٢ من ابريل ١٥٠٦ اما الاتفاقية التي ذكرها السلطان الغوري من عهد السلطان قايتباي فهي بتاريخ ٢٤ ذي الحجة ٨٩٤ هـ / ١٨ من نوفمبر ١٤٨٩ ومنشورة بالملحق رقم (٢٠) و (٢١) وهي من اهم اتفاقيات اواخر القرن ١٥ م .

— Amari, Op. Cit., pp. 215 ff.

— Amari, Ibid, pp. 181-272-273.

(٦٩) خطاب حاكم فلورنسا للسلطان الغوري للشكر على الهدية المرسلة مع الترجمان

تغري بردي عام ١٥٠٧ منشورة بالملحق رقم (٢٦) انظر كذلك :

— Amari, Ibid, p. XLIX.

(٧٠) خطاب ومرسوم السلطان الغوري الذي حملة تغري بردي لفلورنسا منشور

بالملحق رقم ٢٧ وفيه يؤكد السلطان للحاكم تأمين مصالح رعاياه في مصر والشام ويوجه نداء للتجار الفلورنسيين لارتياح موالي بلاده للتجارة وكذلك صورة الامر الذي أصدره لعمال مواليه لمراعاة هذه الطائفة . انظر كذلك :

— Amari, Ibid ; pp. XVII-218-220.

بالرغم من قلة عددهم (٧١) على أنه بعد هذه الاتفاقيات زادت وكالاتهم التجارية وسمح لهم بإنشاء فروع لقنصلياتهم العامة في مصر والشام وسارت عملياتهم التجارية على نسق ما هو معمول به في فلورنسا نفسها وسمح الغورى باتخاذ عملتهم الذهبية الفرتى عملة رسمية في مصر والشام (٧٢).

الا أن الموقف أخذ يتدهور بسرعة زائدة ، فلدى عودة الترجمان تغرى بردى من رحلته الى أوربا قدم للسلطان تقريراً وافياً ولم ينتظر السلطان أن تفي البندقية بوعودها الحرية بل أنزل أسطولا حريباً في ميناء الطور وجعل عليه الأمير « حسين كرى » بعد أن زوده بالأسلحة والعتاد، وكان قد تحالف مع أمراء الهند وبخاصة أمراء جوجيرات لوضع حد لتصرفات البرتغاليين في مياه الهند . وتجمعت وحدات الأسطول المماليكى المكون من خمسين سفينة في ميناء جدة ، ثم واصل السير الى سورات في مقاطعة جوجيرات عام ١٥٠٧ حيث انضم اليه الأسطول المتحالف من الهنود ، وفاجأ أسطول البرتغاليين بقيادة الميديا الصغير وأوقعه به الهزيمة عند شول «Chaul» عام ١٥٠٨ وقتل القائد البرتغالى فى المعركة (٧٣) ولدى وصول أنباء هذه الهزيمة الى أوربا أثير موضوع

— Heyd, Op. Cit., p. 490.

(٧١)

— Amari, Op. Cit., p. 75.

(٧٢) يرجع ازدهار تجارة فلورنسا منذ النصف الثانى من القرن ١٥ الى مالىتها المستقرة التى ارتكزت على أنظمة مصرفية راقية كانت تمول بموجبها العمليات التجارية فى الشرق والغرب ومن أهم مصارفهم وبيوتاتهم التجارية والمالية بيت آل ميديشى وآل Pazzi وآل Capponi وآل Corsini وآل Falconerie راجع :

— Heyd, Op. Cit., pp. 483, 484.

— Depping, Op. Cit., pp. 232, 237.

— Clive, Op. Cit., p. 99.

(٧٣) دراج : الممالك والفرنج : ص ١٢٧ .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٣٠ - ١٤٢ (بولاق) حوادث المحرم وشعبان

٩١٤ هـ . انظر كذلك :

— Heyd, Op. Cit., p. 536.

— Lane Poole, Egypt... p. 352.

— Lane Poole, Medieval India Under Mohammedan Rule pp. 176, 177.

— Cattani, Joseph, Coup D'Oeil Sur La Chronologie De La Nation Egyptienne, p. 303.

مساعدة البنادقة للسلطان المالكي بالسلاح والمال والأخشاب وكان ملك البرتغال من أكثر المتحمسين لاتهام البندقية ، اذ وصلته أنباء متضاربة عن شحن البنادقة لسفينتين بالمداغ لتكونا تحت تصرف السلطان الغوري في صراعه مع البرتغاليين في الهند وأرسل الملك البرتغالي عمانويل احتجاجا شديدا وتهديدا للبندقية لمعاونتها أعداء المسيحية وأعداء البرتغال (٧٤) .

واقع الأمر أن البنادقة كان يسرهم فعلا مساعدة السلطان لوقف نشاط البرتغاليين في المياه الشرقية ، وتمنوا لو أنه استجاب لدعوتهم في السنوات الأولى لوجود البرتغاليين في الهند ، حيث كان بالامكان القضاء على قواتهم بسهولة . ولكن مطاظة السلطان وانصرافه الى الاحتجاج السلمى والبعثات الدبلوماسية لدى ملوك وأمراء أوروبا وبابا روما جعل البنادقة يشعرون بخيبة أمل ويحجمون عن المساعدة الحربية . واستندوا في ذلك الى حرج موقفهم أمام العالم المسيحي . والثابت فعلا أن البنادقة لم يكن لهم ضلع في حملات السلطان ضد البرتغاليين في الهند ، بل انهم في هذه الفترة كانوا في شغل شاغل بمؤتمرات حلف كامبرى . ومع نجاح العمليات الحربية المالكية في مياه الهند الا أن سفنهم التجارية لم تعد تمارس نشاطها السابق ، وذلك لتجمع سفن الأسطول البرتغالى عند مدخل البحر الأحمر وفي الهند وترصدها السفن المالكية . وفي الوقت نفسه أحجم التجار الأجانب عن الوصول لمصر والشام بعد هزيمة شول ١٥٠٨ حتى لا يتهموا في العالم المسيحي بمساعدة السلطان ماديا ضد البرتغال ، وأدى ذلك الى نقص

(٧٤) أرسلت البرتغال احتجاجا الذى وصل الى البندقية عام ١٥٠٩ كما وصل احتجاج ملك فرنسا عام ١٥١٠ واتهما البندقية بتدبير هزيمة البرتغاليين وقتل قائد أسطولهم في مياه الهند . واستندت البندقية على هذا الاحتجاج في تبرئة نفسها من حوادث فرسان رودس والسلطان التى تلت ذلك وأبلغت السلطان أن عدوها المشترك هو الفرنسيون مدبرو هذه الحوادث . راجع :

— Heyd, Op. Cit., p. 536.

واضح فى التوابل ، وفى المبيعات ، وفى الجمارك فلجأ السلطان الى تسهيلات واعفاءات أكثر ، وبخاصة طائفة الفلورنسيين . وفى عام ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م أصدر مرسوماً بالترخيص لهم بدخول جميع موانيه بما فى ذلك موانى البرلس ودمياط ورشيد ، وكان هذا الأخير لا يزال حتى ذلك الوقت محظوراً الدخول فيه على جميع الأجانب لصفته الحرية (٧٥) ومنحهم كذلك حمايته ورعايته « ... فلا يعترض عليكم أحد ، ولا يزعجكم أحد .. ولا يطالبونكم بأى شئ لأى سبب فى الحال والاستقبال (٧٦) » وفى الهند بعد هزيمة البرتغاليين عام ١٥٠٨ م أقسم « فرنسيسكو دالميديا Francesco D'almedia » الكبير أن ينتقم انتقاماً شديداً فانتهاز فرصة لجوء الأسطول المالكي والأسطول المتحالف معه من أمراء الهند الى جزيرة ديو للتموين والاصلاح ، وفاجأه وأوقع به الهزيمة فى معركة رهية فى ٣ من فبراير ١٥٠٩ م دمر فيها معظم السفن المالكية والهندية ، وانسحب الأمير حسين كردى بعد ذلك الى جدة (٧٧) أما السلطان الغورى فقد هزته الهزيمة ورأى أن احتياطيه من الأموال والسلاح يتناقص بالتدريج ، فى الوقت الذى تزداد فيه قوة البرتغاليين فى الهند وتتسع أملاكهم وتنشط تجارتهم . وكرر طلب السلاح من السلطان بايزيد الثانى العثمانى الذى وعد بارسال مطلوبه هدية لانقاذ

(٧٥) لميناء رشيد صفة حرية منذ عهد الايوبيين ، وكان منع وصول الأجانب اليه للشك الذى كان يحيط بهم دائماً من محاولتهم غزو مصر من الشمال ثم بطريق النيل . راجع كذلك فصل الطرق والمحطات التجارية وكذلك :

— Heyd, Op. Cit., p. 428.

(٧٦) بالمحقق رقم (٢٨) مرسوم السلطان الغورى بتاريخ نوفمبر ١٥٠٨ / ٩١٤ هـ . بعد عودة السفير تفرى بردى الى القاهرة وفيه يؤكد امتيازات السلطان للفلورنسيين فى بلاده وأمر لعماله بمراعاة مصالحهم . راجع :

— Amari, Op. Cit., p. I. & p. 388.

(٧٧) سعيد عاشور : مصر المالكي فى مصر والشام ص ١٧٨ - ١٧٩

دراج : المالكي والفرنج ص ١٣٧ - ١٣٨ .

— Heyd, Op. Cit., p. 536.

— Depping, Op. Cit., p. 269.

— Lane Poole, Med. India, pp. 176, 177.

— George Dunbar, A Hist. Of India, Vol. I. p. 152.

الأماكن الإسلامية المقدسة ، اذ اعتقد كلاهما أن البرتغاليين لن يهدأ لهم بال حتى يصلوا الى مكة والمدينة . ووصلت السفن المالكية الى ميناء الاسكندرية لتحميل المعونة التركية (٧٨) . وفي نفس الوقت قبض السلطان على عدد كبير من تجار البندقية وأرسلهم الى سجون القاهرة وأوصى الحراس بأن يوجوا اليهم بأن حريتهم مرهونة بدعوة جمهوريتهم لمساعدة السلطان حرييا في الهند . ولما بلغ البندقية ما حدث أرسلت تبدي استعدادها لمعونة السلطان حرييا ، بل ومد الهنود كذلك بالسلاح لطردهم البرتغاليين ، ولكن موقفها الحرج في العالم المسيحي يمنعها الآن من تقديم هذه المعونة سرا أو علنا (٧٩) .

أما باقى الجمهوريات والمدن الايطالية فكان لأبناء هزيمة ديو ١٥٠٩ أثره السئ فيها ، ففي فلورنسا بدا القلق واضحا على مصالحها وأسرت بارسال سفارة الى القاهرة يرأسها « برناردو بيروشوا Bernardo Pirochowa » ، ووافق السلطان على كل طلباته ومنح تجاره موسما تجاريا بالاسكندرية وقنصلية دائمة بها ، وأمر عماله بمراعاة هذه الطائفة ، وضمن ذلك اتفاقية بتاريخ ٩ يوليو ١٥٠٩ ، وهى لاتخرج عما سبق أن عقد فى السنوات السابقة (٨٠) .

— Thenaud, Op. Cit., p. LIV.

(٧٨)

يذكر ابن اياس ج ٤ أن البنادقة تصحوا السلطان الفورى بطلب السلاح من السلطان بايزيد العثمانى ويذكرها فى حوادث رجب ٩١٦ هـ « ٠٠ وفيه حضر يونس العادلى وكان السلطان قد أرسل الى بلاد ابن عثمان ليشتري له اخشابا وحديدا وبارودا » فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد المبلغ الذى كان مع يونس العادلى وقال له انما أجهز من عندى زردخانه للسلطان فحضرت فيما بعد « ٠٠ »

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٩٦ (طبعة محمد مصطفى) .

— Heyd, Op. Cit., p. 537.

(٧٩)

(٨٠) الواقع أنه فى فترة حكم الفورى لم يحظ من التجار الأجانب مثل ما حظى به تجار فلورنسا من رعاية ، فلم تنقطع سفنتهم مدة طويلة مثل ما حدث للبنادقة وتجارهم وكذلك فرنسا وقطالونيا ، بل أنه من دواعى فخر فلورنسا أن البندقية استخدمت سفنها فى كثير من الأحيان فى نقل متاجرها من شرق البحر المتوسط =

وفى أثناء ذلك حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فقد وصلت الى الاسكندرية خمس سفن فرنسية محملة بأثواب الحرير والصوف والسلع الأوربية الأخرى ، وبعد أن انتهى التجار من بيع ما معهم من سلع أقفلت السفن عائدة وعلى ظهرها بعض المغاربة وأسراهم وأمتعتهم فى طريقهم الى بلادهم ، فترصد لها فرسان رودس عند « كاسل روسو Castle Rossou » وأسروها واقتادوها الى الجزيرة وجردوها من حمولتها وأسروا ركابها ثم أطلقوا سراح السفن وبحارتها الفرنسيين لتواصل السير لفرنسا . وكان من جملة ما غنمه الفرسان ما يساوى أربعين ألف فوكات (٨١) ولما بلغ السلطان الغورى ذلك اعتقد أن قباطنة السفن الفرنسية دبروا هذه المؤامرة بالاتفاق مع الفرسان وأعطوهم مواعيد العودة من الاسكندرية . وفى ثورة الغضب قبض السلطان على « فيليب ده بيريتاس Philip De Peretas » قنصل فرنسا الذى يمثل قطاونيا كذلك ، وأمر بالقبض على جميع رعايا فرنسا ووضعهم فى سجون القاهرة ومصادرة أموالهم وأملاكهم . واقرنت هذه الاجراءات بإشاعة عن خيانة ترجمانه تغرى بردى واشتراكه فى المؤامرة مع الفرسان فقبض عليه السلطان وسجنه بعد أن جرده من ألقابه ومماليكه ، وأحل

= الى أوروبا فى فترة انقطاع العلاقات البندقية المماليكية أواخر عهد الغورى ، وذلك للاحترام والحماية اللتين حازتهما فلورنسا وتجارها فى مصر والشام .
راجع :

- Heyd, Ibid, p. 484.
- Depping, Op. Cit., pp. 236, 237.
- Thénau, Op. Cit., p. LV, LVI.

(٨١)

دراج المماليك والفرنج من ١٤١ - ١٤٢ .
هاجم فرسان رودس السفن الفرنسية العائدة من الاسكندرية انتقاما لما فعله المماليك فى مارس ١٥٠٩ عندما هاجم الفرنج ميناء الطينة شرقى دمياط ، اذ أسروا سفينة لهم ومن عليها وأرسلوهم الى القاهرة . أنظر كذلك :
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٤٦ .

محله الترجمان يونس ، وهو مملوك أوربي اعتنق الاسلام (٨٢) . ولم يكديفرغ السلطان من هذه الاجراءات حتى فوجيء بكارثة أشد وأنكى؛ فلدى عودة سفن السلاح الثمانى عشرة، والمرسلة من السلطان بايزيد الثانى العثمانى من الاسكندرونة الى مصر، أحاطت بها سفن الفرسان ودارت بين الطرفين فى ١٠ من أغسطس ١٥١٠ معركة غير متكافئة ، استغرقت عدة ساعات غرقت فيها بعض السفن المصرية، وأسر الفرسان البعض الآخر وتاهت سفينتان فى العاصفة ولم يصل للاسكندرية سوى ست سفن خاوية (٨٣). وكانت هذه الكارثة تفوق طاقة السلطان الغورى،

— Thenaud, Ibid, p. LVI.

(٨٢)

— Heyd, Op. Cit., p. 537, 538.

— لما الى علم السلطان توطأ تغرى بردى كبير التراجمة السلطانية مع الفرنج وانه كاتبهم بأحوال المملكة عن عجز السلطان على تجهيز حملة بحرية وخلو السواحل من التحصينات الحربية — فأمر بالقبض عليه والترسيم على بيته وأمواله ..

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٦١ (كالة) حوادث المحرم ١١ محرم ٩١٧ هـ / ابريل ١٥١١ ثم حل محله أواخر المحرم ٩٢٠ هـ الترجمان يونس وهو مملوك اجنبى كان من Verona واعتنق الاسلام وتسمى باسم يونس *
دراج : الممالك والفرنج ص ١٤٧ - ١٤٨ *

(٨٣) تحصل مصر على حاجتها من الأخشاب اللازمة لبناء السفن من آسيا الصغرى وتصدر لها عن طريق ميناء الاسكندرونة ، ولما علم الفرسان بذلك ترصدوا سفنها فى ١٠ من اغسطس ١٥١٠ وصادروا شحناتها لصالحهم ، وقام بهذا العمل قائد أسطولهم المدعو André Di Amaral ، وهو برتغالى الاصل ، بعد أن تأكد من أن هذه الشحنة من السلاح والخشب معدة للحرب ضد البرتغاليين *
راجع :

— Heyd, Op. Cit., pp. 537-539.

— Depping, Op. Cit., p. 270.

— Thenaud, Op. Cit., p. LIV.

— Darnes, The Book Of Durate Barbosa, Vol. I. p. 133 — R.I.

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٢٨ حوادث رجب ٩١٣ هـ وكذلك ج ٤ ص ٢٠١ حوادث شوال ٩١٦ هـ حيث ذكر *

وفيه وصلت عدة مراكب من عند ابن عثمان ملك الروم، وفيها زردخانه للسلطان، فوصلت الى بولاق عند الرصيف ، وشرعوا يحولون ما فيها الى القلعة ، فكان من جملة ذلك مكاحل مسيقيات العدة ثلاثمائة ونشاب ثلاثين ألف سهم ، وبارود أربعون قنطارا ومقاذيف خشب .. وسلب وحبال مراسى حديد وغير ذلك مما تحتاج اليه المراكب . فشكره السلطان =

فأمر بالتحفظ على جميع السفن الأجنبية في موانئ مصر والشام،
ونكل بالأجانب في بلاده ، وخاصة البنادقة ، لظنه أنهم وشوا بأمر هذه
السفن للفرسان ، وأرسلهم الى سجون القاهرة بعد أن صادر أموالهم
وأملأهم ، وطرد رجال الدين من أديرتهم ، وأجبر مطران دير جبل
صهيون على دفع غرامة قدرها أربعة آلاف دوكات فورا ، وصادر الحلبي
والأواني المستعملة في الطقوس الدينية في الكنائس ، واشترط لردّها
أن تدفع عنها غرامة قدرها خمسة آلاف دوكات . وفي الشام قاسى
البنادقة نفس المصير وأغلقت خاناتهم وفنادقهم وقبض على تجارهم
وقناصلهم (٨٤) .

، ويبدو أن الظروف كلها كانت تقف موقف العداء من البنادقة ،
ففى مايو ١٥١١ قبض حاكم مدينة البيرة على الفرات، على قبرصى من
فماجوستا يدعى « نيقولين سورير » يرافقه فارس ويحملان خطابا
من الشاه الصفوى موجهما الى دوج البندقية وقنصلها فى دمشق
« توماسو كوتارينى » وخطابا آخر الى قنصلها فى الاسكندرية « بيترو
زين » . وكان الرجلان - بمساعدة قناصل البندقية فى مصر والشام -

== على ذلك ، وكان السلطان قد أرسل مالا على يد يونس العادلى الى بلاد ابن عثمان لشراء
الأخشاب والنحاس والحديد .. فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد عليه المال وجهاز ما ذكرناه من
عنده مقدمة للسلطان .

— Heyd. Op. Cit., pp. 538-539 & 540.

(٨٤)

— Depping, Op. Cit., p. 329.

— Charles Roux, Op. Cit., Vol. I. p. 42.

يتجنى المؤرخون الأجانب على اجراءات السلطات المالية ضد التجار الأجانب عقب
حوادث تهجم دولهم وقراصنتهم على مصالح العرب ويتهمون السلاطين بالاعتداء على الكنائس
والاماكن المقدسة المسيحية والواقع أن هذه الاجراءات تتصف بالصفة المالية البحتة ، فهي
تأخذ شكل تعويضات للخسائر التى تصيب الممالك . ولعل أبلغ رد على هذا التجنى
ما نعلمه من رعاية السلاطين حتى النورى بتعمير كنائس بيت المقدس ودير جبل صهيون ،
بل وتزايد اعداد التجار والحجاج الأجانب فى معظم الأحيان .

دراج : الممالك والفرنج ص ١٤٣ و ١٤٤ .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ طبعة كالة ص ١٩٦ - ٢٥٥ - ٢٦٩ .

راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٤٥ عن فئات القراصنة فى البحر المتوسط .

قد استطاعا تهريب رسائل من دوج البندقية الى شاه فارس ، وفي عودتهما حملا الرد ، ولكن شاء سوء حظهما أن يقعا في يد السلطات المالكية (٨٥) . وأرسلا الى حاكم حلب خاير بك ، ومن ثم الى القاهرة بتقرير من الحاكم الى السلطان أبان فيه خطورة ما قام به الرجلان والقناصل ، وخاصة أن الحرب بين الصفويين الشيعيين والعثمانيين السنيين كانت وشيكة الوقوع ، وأملاك السلطان الغورى فى شمال الشام تقع بين القوتين المتصارعتين ، وهو لا يريد أن يجر نفسه الى مثل هذه المتاعب . وكان هذا العمل من البنادقة محكا لاثارة السلطان الغورى ، بالاضافة الى الحادثتين السابقتين ، واعتبر السلطان أن عمل القنصلين خيانة عظمى موجهة لشخصه وبلاده . ووصل المتهمون للقاهرة حيث استجوبوا دون نتيجة هامة ثم ألقوا فى السجن (٨٦) وكان لهذه الأنباء أسوأ الأثر فى البندقية ومستعمراتها ، وكان لابد من اتخاذ اجراء سريع لاعادة العلاقات واطلاق سراح الأسرى ، ولكنها كانت حتى ذلك الوقت فى شغل شاغل بمشكلات اتحاد كامبرى Cambri ، كما أن

(٨٥) كان القنصل Pietro Zen سفيرا للبندقية فى تبريز قبل أن يمثل بلاده فى بلاط السلطان المالكي أما Contarini فهو وأسرته كانوا على علاقة ودية مع لاوزون حسن التركمانى فقد كان قريبهم Ambroiso Contarini سفيرا للبندقية فى بلاط التركمان فى تبريز عام ١٤٨٧ .

— Thénau, Op. Cit., T. II. p. LXIII.

وكان Caloyani امبراطور طرابزون قد زوج ابنته Despina لاوزون حسن وتزوجت بناته الثلاث الأخريات من قبرص والبندقية .

— Heyd, Op. Cit., p. 539.

— Thénau, Op. Cit., T. II. pp. LXIII — LXIV.

(٨٦) ترجع خطورة هذا الحادث الذى أثار مخاوف السلطان الى صلة القنصلين بفارس وإلشاه اسماعيل الصفوى « راجع ملاحظة ٨٥ » وخاصة صلة ببيتروزين بحسن الطويل الذى يمتد نسب إلشاه اسماعيل الصفوى اليه . وكان الخلاف قد بدأ واضحا بين الماليك والصفويين منذ عهد السلطان الغورى الذى تقع أملاكه فى الشمال بين القوتين المتصارعتين العثمانيين والصفويين ، والسلطان الغورى لا يرغب فى اقحام نفسه فى خلافتهما . انظر : دراج : الماليك والفرنج ص ١٤٥ .

— Heyd, Op. Cit., p. 539.

— Thénau, Op. Cit., T. II pp. LXIII, LXIV.

لها فى بلاط مصر أعداء ألداء لم يهملوا الفرصة للايقاع بينها وبين السلطان .

ومن خلال المشكلات العديدة التى واجهت السلطان الغورى أبدى بعد نظر وتفهم للمشكلة، فقد وجد أن الفرسان هم أعداؤه فعلا، والمناوئون له فى شرق البحر المتوسط ، وأن باستطاعتهم التعرض لكل معونة عسكرية ترسلها له تركيا أو البندقية . فرغب فى تصفية المشكلات معهم ، ورأى أن الأمر يحتاج لتوسط فرنسا ، ولها اذ ذاك ظل من السيادة عليهم وللفرسان نوع من التبعية لفرنسا . وظهر بجلاء أهمية القنصل الفرنسى والقطالونى المحبوس ، وكذلك أهمية ترجمانه السابق تغرى بردى (٨٧) . واتصل القنصل الفرنسى بلويس الثانى عشر ملك فرنسا ، وفى الوقت نفسه أرسل الغورى تاجرا راجوزيا مقيما فى الاسكندرية ليدعم محادثات السفير مع الملك الفرنسى ويعرض صداقة السلطان واعادة ما لفرنسا من امتيازات وحقوق فى تجارة الشرق وتسهيلات جمركية والسماح للحجاج بالوصول للأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين بحرية كاملة ، وأعلن لويس الثانى عشر هذا كله فى أسواق مدينة ليون خلال الاحتفالات بعيد الفصح عام ١٥١١ وشجع التجار لارتداد أسواق مصر والشام ، وأضاف أنه أرسل سفيرا

(٨٧) كان لفرنسا ظل من السيادة على فرسان رودس ، فقد كان وزير البلاط الملكى الفرنسى وكاردينال نابلي فيما بعد شقيق مقدم الاستبشارية فى رودس Aimery D'Amboise وفى وسعه ومقدوره أن يضبط عليه لاعادة سفن السلطان التى استولى عليها فى خليج ايباس وأن يحمله على الكف عن أعمال القرصنة ضد الدولة المالبكية . انظر :

ابن ايباس : بدائع الزهور ج ٤ (كالة) ص ١٩٦ - ٢٥٥ - ٢٥٩ - ٢٦٩ .

— Heyd, Op. Cit., pp. 539, 540.

— Thénau, Op. Cit., pp. LVIII, LIX & R.I. p. LIX.

قنصل فرنسا هو Phillipe De Peretas وكان يمثل كذلك قطالونيا ونابلي وكان على عداوى مع البنادقة ، وبالرغم من أنه قاسى نفس المصير الذى قاساه الأجنب وقناصلهم الا أنه لم يبق فى السجن أكثر من شهر بسبب رغبة السلطان فى الاستعانة به فى تحسين العلاقات مع فرنسا .

— Thénau, Op. Cit., pp. LV, LVI.

لمصر لاتمام الاتفاقية التي اقترحها السلطان الغورى . أما الترجمان تغرى
بردى فقد وصل الى رودس بعد أن مهد له السفير الفرنسى مقابلة مقدم
فرسانها بمساعدة الرهبان الفرنسيسكان فى بيت المقدس وأبدى كبيرهم
الرغبة فى اصلاح الأمور مع السلطان ، اذ كانت الأنباء توحى بقرب
هجوم عثمانى على جزرهم ، ولكنه اعترض على رد الغنائم والأسلاب^(٨٨)
ووصل فى ٢٥ من مارس ١٥١٢ الفارس « اندريه لوروا Andre le Roi
سفير ملك فرنسا ، وذكرها ابن اياس فى حوادث المحرم ٩١٨ هـ /
١٥١٢ م ... وأشاعوا أن قاصد ملك الفرنج قد جاء يسعى لدى
السلطان فى عقد معاهدة للتجارة ومساعدة السلطان فى المحيط الهندى
وفتح القيامة (كنيسة القيامة) التى بالقدس^(٨٩) . ووصل السفير الفرنسى

(٨٨) تأكد السلطان الغورى أن فرسان رودس هم العقبة فى سبيل الوصول الى حل
لمشكلة البرتغاليين فى الهند وهم العقبة فى سبيل وصول المواد الحربية الى مصر من تركيا
لتقصد تحسين العلاقات معهم بمنحهم تسهيلات تجارية ببلاده والسماح لهم بالوصول لبيت
المقدس للحج وكذلك ارضاء ملك فرنسا لويس ١٢ بمثل ذلك ليضمن عدم تهجمهم على
سفته . انظر :

— Thenaud, Op. Cit., p. LXI & N.p. 5.

— بالملحق ترجمة للجزء الخاص بالحج الى بيت المقدس وسينا . وبخصوص المعاهدة
بين السلطان الغورى ولويس ١٢ انظر النص فى

— Heyd, Op. Cit., p. 540.

— ذكر Thenaud كذلك أن وصول سفير السلطان الغورى بخطابات الى ملك فرنسا
كان بداية طيبة للعلاقات بينهما . وقد ذكر ذلك ملك فرنسا خلال زيارته لمدينة ليون فى
عيد الفصح عام ١٥١٢ وقال أنه وردت اليه خطابات من السلطان العظيم الذى يحكم مصر
والشام وجزءا كبيرا من بلاد العرب . وهى مكتوبة باللغة العربية ويعرض صداقته حتى
يعيد لفرنسا مكانتها الدينية التى كانت تتمتع بها منذ الحروب الصليبية بوصفها الدولة
التي قامت بالدور الأكبر فى الحروب الصليبية ، كما يمكنها من أن تنتزع من البنادقة
والجنويين حق حماية المسيحيين الذين بالاراضى المقدسة . انظر :
دواج : المالىك والفرنج ص ١٥٠ وكذلك :

— Thenaud, Op. Cit., pp. LX, LXI — LXVII.

(٨٩) عين لويس ١٢ Guillebert Chauveau سفيراً الى السلطان الغورى ولكنه
مالبت أن تحاه بعد أن علم بسابق فشله . فى محادثات ماثلة مع السلطان العثماني
بايزيد الثانى عام ١٤٩٨/١٤٩٩ لوقف الحرب بين العثمانيين والبنادقة ، وعين بدله
Andre Le Roi لقد معاهدة مع الغورى وكان السفير يشغل وظيفة سكرتير الملك لويس ١٢
وموثق عقود ، ثم رقاء بعد ذلك أميناً لخزائنه وأرسله الى نابل فى ٢٠ ابريل ١٥٠٢ ليعاون =

للقاهرة ، وتفاوض مع السلطان ، وكان محور المحادثات وقف هجمات
انفرسان ومنح الفرنسيين تسهيلات في بلاد السلطان . وأرسل السلطان
مندوبا عنه الى الفرسان في رودس لأخذ موافقتهم على طلبات السلطان
الخاصة باحلال السلام بين الطرفين ، وحرية الملاحة في شرق البحر
المتوسط ، مع منحهم حرية التجارة في بلاده والحج بالقدس ، وطال
انتظار السفير بالقاهرة ، ولم يصل رد الفرسان ، واضطر السفير الى
مبارحة القاهرة الى رودس وترك ابنه بالقاهرة . أما أعضاء البعثة
الفرنسية فقد سافر بعضهم الى بيت المقدس ، وأبحر بعضهم الى رودس
نفسها (٩٠) .

ومع الجهود الهائلة التي بذلها السفير والترجمان تغرى
بردى في بلاط السلطان الغورى وملك فرنسا ولدى فرسان رودس ،
الا أن هذه الجهود لم يقدر لها النجاح ، فلا السفير أندريه ، ولا مندوبه
« بارليه » الى رودس ، استطاعا أن يكبجا جماح فرسان رودس في
عدائهم للسلطان ، والسفن التي أسرت لن تعود ، وهجمات الفرسان لم
تنقطع ، والبعثة الفرنسية لم تصل الى نتائج حاسمة مع السلطان ، ولم

= الكاردينال حاكم المقاطعة كما أرسله سفيرا الى بابا روما عام ١٥٠٣
ثم الى سويسرا وبقي بها حتى استدعاء ، لسفارة القاهرة ١٥١١/١٥١٢ وظل يخدم بلاده في
سفارات عديدة . راجع :

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٥٥ حوادث المحرم ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م (كالة)

— Heyd, Op. Cit., p. 537.

— Thénau, Op. Cit., pp. LX, LXI, — LXVIII. & ff.

— Charles Roux, Op. Cit., T.I. p. 42.

(٩٠) يذكر Marc Trivizani حاكم كريت وشقيق السفير البندقي دمنكو تريزاني

الذي سافر للقاهرة لتصفية مشاكل البندقية والسلطان عام ١٥١٠/١٥١١ « ان عدم وصول

رد الفرسان في الوقت المناسب اعطى لشقيقه دمنكو فرصة سانحة ليقوى مركزه امام

السلطان الغورى واستجاب هذا لطلباته وان كان السفير يود تحقيق كل ما جاء من اجله

ولكنه اكتفى بما ناله . راجع ؟

— Heyd, Op. Cit., pp. 484-530.

— Thénau, Op. Cit. p. LXXIX.

تستعد ما كان لها على عهد السلاطين العظام منذ منتصف القرن
١٥ م (٩١) .

كانت البندقية ترقب تدهور علاقاتها بالسلطان وازدياد نفوذ
الفرنسيين والفلورنسيين بكثير من القلق فى الوقت الذى كان فيه
تجارها نزلاء سجون القاهرة ، فصممت على معاودة الاتصال بالسلطان
لاصلاح ذات البين ، وألح وفد تجارها على حكومتهم أن تعنى بارسال
بعثة يرأسها مندوب يعلو مركزا على سفير فلورنسا وسفير فرنسا . ففى
٢٠ من يناير ١٥١١ تقرر ارسال رسالة خاصة مع مبعوث الى السلطان
للتمهيد لمفاوضات شاملة لكل الأمور المتعلقة بين الطرفين حتى اذا
سنت الفرصة أرسلت سفيرا لعقد الاتفاق وأثارت حكومة البندقية
فى الرسالة دهشتها وتضاييقها مما حدث لقنصليها فى دمشق
والاسكندرية ولهيئة تجارها فى بلاد السلطان ، ومعاملتهم معاملة
الأعداء ، وعزت ما حدث الى تحريض من أعداء السلطان وأعدائها ،
وقصدت بذلك أن توغر صدره على الفرنسيين وفرسان رودس ومن
ورائهم البرتغاليين وأوضحت حكومة البندقية مشكلة ضبط الرسائل
مع القنصلين ، فقالت ان مبعوثى الشاه الصفوى قصدا فرنسا لوجود
علاقات بين البلدين ، ولدى عودتهما مرا بالبندقية وطلبا باسم سيدهما
الشاه اسماعيل تجديد صداقته مع حكومة الدوج ، ولبساطة الأمر
لم تبلغه البندقية للسلطان كسابق اتفاقهما ، وأضافت فى الرسالة
أنها لم تعط اجابات شافية للمبعوثين ، ولم يكن دور القنصلين البندقيين
أكثر من علمهما بمرور المبعوثين على البندقية بعد عودتهما من فرنسا .
وعلى أى حال فان حكومة الدوج ستقطع تماما كل صلة لها بالشاه
الصفوى . وقصدت البندقية من هذا كله الصاق التهم بفرنسا ورودس
والبرتغال ، وفى نفس الوقت لا تمكن فرنسا من التوسع فى تجارة

(٩١) ابن اياس : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٥٥ - ٢٥٧ - ٢٦٨ .
— Heyd, Op. Cit., p. 541.

مصر والشام . وكعادة البندقية لم تترك الفرصة تمر دون أن تذكر متاعب تجارتها وقناصلها ونوابهم وتطلب المزيد من التسهيلات ، ووعدت فى الرسالة بمواصلة العمل على خطوط الملاحة لمصر والشام بصفة دائمة ، وفى ختام الرسالة أبلغت أن سفيرها للقاهرة يتجهز للسفر وسيصل فى موعد قريب .

وفى دورة السنين فى ١١ نوفمبر ١٥١١ اختار المجلس « دومنكو ترينيزانى Dominico Trivizani سفيراً ومندوباً فوق العادة للتفاوض مع حكومة السلطان وتكونت هيئة مستشاريه من الخبراء الموسمين المجريين فى شئون الشرق وتجارته ومع البعثة تعليمات بعقد اتفاق اقتصادى جديد وتعليمات باعادة فتح طريق الحج للأراضى المقدسة ورد كنوز كنائسها . ووصلت السفارة فى ٩ من مايو ١٥١٢ وفى نفوس أفرادها آمال كبار لتحقيق أهداف بعثتهم، وأعطت البندقية تعليمات لسفيرها الى القاهرة بالتزام القواعد الدبلوماسية، وتقديم الهدايا المناسبة للسلطان ورجاله ، والثناء على سياسته ، وأن يكرر للسلطان ماسبق أنه ذكر فى خطاب ٣٠ من يناير ١٥١١ عن خيانة ملك فرنسا وعداوته له ومؤازرته للفرسان أعداء المسلمين من مئات السنين ، كما أن ملك فرنسا والفرسان لا يداومون الحضور لموانيه الا مرة كل ثلاث سنوات، فى حين أن البنادقة عملاء دائمون يداومون الحضور مرتين أو أكثر فى العام الواحد . وبخصوص موضوع القنصلين فعليه أن يثبت للسلطان حسن نيتهما وأنهما أخذا علما فقط بمرور ميعوثا الصوفى على البندقية بعد عودتهما من فرنسا ، فى مقابلة ودية . ثم عليه أن ينتقل بعد ذلك الى الأهم وهو الشئون التجارية : ويحدد مع السلطان أسعار التوابل الشريفة والحرّة حتى لا يمتنع تجارهم عن الشراء ويتوجهون الى لشبونة ، وأعطيت للسفير رؤوس موضوعات أخرى هامة خاصة بحجز السفن أكثر من اللازم بعد المدة ، أو اعطائها أوامر بالرحيل قبل تشوين كل مشترياتها وبعدم تغيير ديوان القبان ، وهو من أهم

المصالح الحكومية المتعلقة بتجارة البندقية وأن يحصل على معاهدة بكل طلباتهم في أمر « مربع » واجب الاحترام والتنفيذ (٩٢) وفي المقابلة الأولى مع السلطان ثار السلطان الغورى على تريفزانى لمحاولة تبرير فعل القنصلين ، وكادت تنقطع المفاوضات وتفشل السفارة ، حتى أن تريفزانى أمر بحزم حقائبه للعودة ، الا أنه عاد ورجع العقل وعمل على تهدئة خاطر السلطان ، وذكر أنه يجهل تماما ما فعله القنصلان، وانه وحكومته يلتزمان الصفح عنهما واطلاق سراحهما وترحيلهما الى البندقية لمحاكمتهما طبقا للقانون ليلقيا الجزاء الحق (٩٣) والواقع أن هذا المسلك

(٩٢) بالملحق برقم ١١ خطاب البندقية في ٢٠ يناير ١٥١١ للسلطان الغورى تشكو فيه من الاجراءات الانتقامية ضد البنادقة بسبب التجسس . وبالملحق كذلك نص تعليمات الستاتو للسفير دومنكو تريفزانى برقم (٩٢) وبتاريخ ٣١ ديسمبر ١٥١١ يقصد بالامر المربع نوع من الوثائق يحق لمن يحمله أن يلقى التسهيلات في تنفيذ مطالبه وما جاء به من بنود واجبة التنفيذ . أما الامر الطويل فليس له نفس الصفة كما أنه يكلف أوراقا كثيرة .

وصل السفير البندقي للقاهرة في ٢٣ صفر ٩١٨ هـ / ١٥ من مايو ١٥١٢ م .

راجع : ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٥٩ (كالة) .

— Thenaud, Op. Cit., pp. LXV, LXVI.

(٩٣) يذكر مارك انطونيو حاكم كريت وشقيق السفير البندقي الى القاهرة وصفا للقاء بين السفير والسلطان فيقول : « ان الزيارة الاولى استغرقت حوالى ٣ ساعات ظل السفير خلالها واقفا وقبعته في يده ودار الحديث في هذه الجلسة بخصوص القنصلين المتهمين بالتجسس لحساب الشاه الصفوى الذى يعرض السلطان وبلاده للخطر . وكان السلطان يتحدث وهو ثائر ، وبذل السفير جهودا جبارة لكى يهدئ من ثورته ، ولكى يبدد كل ظنونه وشكوكه ، وشرح له ماهية الموضوع ، وأنه ليست هناك أية خيانة من جانب حكومة البندقية أو قنصليها انما هو سوء تصرف منهما . وأكد السفير أن هذه الأمور مما يعنى بها رجال حكومته بكل امانة . وبدا أن السلطان قد اقتنع بكلام السفير الا أنه ما لبث أن صاح قائلا : « .. الى فعلا مقتنع من براءة حكومة الدوج ، ولكن ذلك القنصل زينو قد أساء الى بخيائته اساءة لا تحتمل ! » وكان السلطان يتكلم ووجهه مكتس بالغضب الشديد والسفير يحاول اثبات حسن نية القنصل وبراءة حكومة البندقية . ثم هب السلطان، وقال « .. أيها السفير .. هل تعرف كيف تسير الأمور الآن ؟ اذا كنت موفدا من قبل دوج البندقية سفيرا للتحية أو للاتفاق التجارى فمرحبا بك ، أما اذا كنت قد أتيت لحماية لصوص والدفاع عن خونة فليس لك مكان هنا فى قصرى . اذهب فى رعاية الله ومعك تبارك فليس لى بك ولا بهم حاجة » . راجع :

— Hevd, Op. Cit., p. 541.

— Thenaud, Op. Cit., pp. LXXX, LXXXI.

من تريفزاني كان له رد فعل طيب في نفس السلطان الذي ما لبث أن هدأت نفسه وأخذ برأى السفير ، وطلب منه أن تقوم حكومة البندقية بمحاكمتها بشدة وأن يشنقا في الميادين العامة أو يسجنا مدى الحياة. وأطلق سراح القنصلين وسيقا « كوتارينى Centarini » الى دمشق لتصفية أعماله هناك ، ومنها رحل الى البندقية ، وتم مثل ذلك بالنسبة لقنصل الاسكندرية ، وفي نفس الوقت أطلق سراح التجار المأسورين وردت اليهم ودائعهم ، وهكذا تحقق الهدف الأول من البعثة بنجاح (٩٤)

أما الهدف الثانى وهو الأهم والأشق فكان على تريفزاني أن

— Thénau, Ibid, pp. LXXXII, LXXXIII.

(٩٤)

— Heyd, Op. Cit. p. 542.

١ - العلاقة بين البندقية وفارس ليست بالأمر الجديد في تاريخهما الدبلوماسى ، فقد تحالفت البندقية وحسن الطويل لمواجهة عدوها المشترك السلطان محمد الثانى العثمانى . كما أن الصفويين خلفاء حسن الطويل كانوا يودون الوصول الى البحر المتوسط عبر أملاك السلطان المالىكى ، وفي نفس الوقت شعر البنادقة بتدهور أحوال الدولة المالىكية فرفضوا فى احياء الطريق التجارى عبر العراق والخليج الفارسى وهو يمر بأملاك الصفويين . واحياء هذا الطريق لا يتم الا اذا أصبح للصفويين منفذ على البحر المتوسط الذى تطل عليه أملاك الدولة المالىكية والعثمانية . فقصده البنادقة والصفويين من تحالفهما تبادل المصالح العسكرية والاقتصادية . انظر :

دراج : الممالك والفرنج ص ١٤٦ .

ب - وهناك رأى آخر يقول ان انهيار تجارة مصر بعد وصول البرتغاليين الى الهند جعل البندقية تفكر فى الاستيلاء على نصر وتصل بنفسها الى المياه الهندية ، وهى تحتاج فى ذلك الى حليف ضد القوة الشمالية « العثمانيين » ، فوجدت فى الصفويين الحليف المنشود . ويؤكد ذلك ما عرضه البنادقة على السلطات المالىكية بحفر قناة تصل البحر الأحمر بالمتوسط . انظر :

دراج : الممالك والفرنج ص ١٤٧ . وبالملحق رقم ٦٠ مشروع حفر القناة (والوثيقة

مترجمة عن الايطالية من :

— Ettore Anichieri, Suez Il Mondo D'Oggi, pp. 7,8.

— Thénau, Op. Cit., p. 63.

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٩١ - ٢٠٥ .

ج - وقد تلاشى هذا الأهل بعد استيلاء البرتغاليين على هرمز عام ١٥١٢ وسددهم منفذ

التجارة الى الخليج العربى . انظر :

— Hammer, Op. Cit., T. II pp. 141, 142-168-172 & ff.

يهدم المركز الذى يحتله الفرنسيون لدى السلطان (٩٥) . وقد أوضح السفير للسلطان بطلان الشائعات حول مركز البندقية التجارى وأن البندقية جديرة بأن ترفع رأسها بين أعدائها . بزهو وخيلاء . وأوضح له بأن سفن البندقية كان بإمكانها الحصول على التوابل والمتاجر الشرقية من لشبونة بسهولة وأمان وسعر منخفض ، وأن تتولى بنفسها توزيعها فى أوروبا بنفس الصورة التى كانت لها قبل وصول البرتغاليين للهند ، ولكنها فضلت أسواق السلطان ، وفضلت أن تستأنف العلاقات الطيبة مع مصر ، وتتعهد بأن ترد سفنها موانئ السلطان كما كانت فى السنوات الخالية محملة بالسلع الغريبة والذهب والفضة والأنسجة الصوفية والحريية والخامات اللازمة للصناعات المحلية والرصاص والزيوت ، وامعانا فى الحيطة والحذر صرح السفير للسلطان بأن بلاده لا تمانع أبدا فى أن تكون هناك علاقات بين السلطان وملك فرنسا والبقاء على المعاهدة المعقودة بين الطرفين على يد الترجمان تغرى بردى (٩٦) .

واقع الأمر أن السلطان والسفير كانا يودان انتهاء المشكلة بسرعة لا مكان استئناف التجارة ، فدارت بين الطرفين مفاوضات طويلة وضعاً

(٩٥) يذكر حاكم كريت مارك أنطونيو تريفزانى أن عدم وصول رد فرسان رودس فى الوقت المناسب أعطى صلاحية لنجاح سفارة أخيه دومنكو الى السلطان الغورى . وحتى باقى أعضاء السفارة والبعثة لما طال عليهم الوقت تركوا القاهرة الى رودس ووصل بعضهم الى بيت المقدس ، كما يذكر أن من عوامل نجاح سفارة تريفزانى ، وصول السفير البندقى بعد انتهاء السفير الفرنسى من بعثته التى لم تحقق شيئا وكذلك من عوامل النجاح وصول مبعوث الشاه الصفوى الى القاهرة لتبرئة سيده من تهمة تحالفه مع البندقية ضد السلطان الغورى . انظر ملاحظة ٩٠ قبله وكذلك .

— Thenaud, Op. Cit., pp. XLVIII-LXXIX-LXXXIII and p. 180.

— Heyd, Op. Cit., p. 484-530.

(٩٦) الواقع أن السفير تريفزانى كان بارعا حين تحول عن التعليقات المعطاة له بإساءة العلاقات بين السلطات وفرنسا ، فقد لاحظ أن من الأفضل الظهور بمظهر الحياد والبراءة حتى لا يظن السلطان بالبنادقة السوء ويعلم أنهم دعاة سلم . وفى الوقت نفسه تشعروا دول أوروبا المسيحية أن البندقية لا تعاديهن ولا توغر عليهم صدر السلطان فتحفظت بصداقتها للطرفين . انظر :

— Heyd, Ibid, p. 542.

أساسها وتركها الباقي لهيئة المتفاوضين . وتعتبر المعاهدة التي أبرمت عام ١٥١٢ من أهم المعاهدات التي عقدت بين البنادقة والمماليك وتعرف بالمعاهدة الشاملة . وبعد مفاوضات طويلة اتفق في المعاهدة التي أبرمت بتاريخ ٥ يونيو ١٥١٢ على أربعة عشر سؤالا وأربع عشرة اجابة صيغت فيها تماما كل المشكلات الاقتصادية بين مصر والبندقية ، وساد جو المفاوضات الصراحة التامة (٩٧) وذكر في الردود أنه بعد تحديد سعر التوابل السلطانية بثمانين دوكات للحمل الواحد وتحديد سعر التوابل الحرة كذلك فليس هناك داع لبقاء هيئة من التجار البنادقة للإشراف على تسعير وثمانين السلع (٩٨) . وبخصوص تأجير سفن البندقية للتجار العرب فإن الاضطرابات التي شملت البحر المتوسط شرقا وغربا منعت تأجير هذه السفن للوطنيين للمتاجرة مع المغرب . وذكر المتفاوضون من البنادقة أن توابل الشرق في لشبونة تقل كثيرا عن أسعارها في مصر ، وتفاوت الأسعار على هذا النحو يجعل كثيرا من سفن البندقية تعود دون شراء حاجتها . وتحدد في المعاهدة كذلك أنواع المتاجر الأوربية المطلوب من البنادقة الوصول بها الى الاسكندرية وببيروت ، وكذلك النقد المتداول ، وأضحت المفاوضات أن تجار البندقية الوافدين الى بلاد السلطان يمثل بعضهم شركات كبرى . ولذلك فهم مقيدون باتباع ما تمليه عليهم شركاتهم ، فلا غرابة أن بعض هذه السفن تبارح الموانئ دون شراء حاجياتها تجنبا للخسارة المترتبة ، على ارتفاع الأسعار . وندد السلطان باهمال البندقية في اتخاذ الاجراءات اللازمة لوضع حد لتفجعات قراصنة رودس وابعادهم عن قبرص وشرق البحر المتوسط ، ووعد السفير بابلاغ حكومته احتجاجات وملاحظات

(٩٧) راجع المعاهدة بالملحق رقم ١٣ . غادر سفير البندقية القاهرة الى بيت المقدس

في ٢ من أغسطس ١٥١٢ انظر :

دراج : المماليك والفرنج ص ١٥٢ و ١٥٣ .

(٩٨) راجع النص بالملحق رقم (١٣) وكذلك برقم (١٣ب) .

السلطان . وقد ألحق بالمعاهدة ملاحق خاصة بالتعامل النقدي والبيع بالمقايضة . (٩٩) وحصلت البندقية لتجارها على أوامر وتعليمات لعمال السلطان في الموانئ والمدن الكبرى لراحة تجارها . (١٠٠) كما حصلوا على اتفاقية بالتجارة في طرابلس وحلب (١٠١) وبيروت ودمشق (١٠٢) وفي ميناء الاسكندرية كذلك . (١٠٣) وقد أثار السفير تريفزاني مسألة توحيد الأسعار ومنع التقلبات التي كانت تسود السوق من حين لآخر ، واتفق في هذه المقابلة على أن يدفع البنادقة سعرا موحدا لما مقداره ٢١٠ أحمال من البهار سنويا ، و ١٥٠٠ دوكات لمدة ٣ سنوات مقدما . (١٠٤) وعاد تريفزاني للبندقية في ٢٣ أكتوبر ١٥١٢ بعد أن ترك

(٩٩) راجع النص بالملحق رقم (١٣) ثم انظر الفصل الخامس عن تجارة النقد والمقايضة وكذلك انظر : توفيق اسكندر : نظام المقايضة في تجارة مصر أواخر العصور الوسطى .

(١٠٠) النص بالملحق رقم (١٣) .

(١٠١) النص بالملحق رقم ١٤ - وقد أثار البنادقة ما يلاقيه تجارهم في موانئ بيروت وطرابلس ومدن دمشق وحلب اذا اتجهت السفن الى أى المينائين دون الآخر ، وكان هذا موضح خلاف سابق ولم يتم انهاؤه الا في بعثة تريفزاني ١٥١٢ ، راجع شكوى البندقية من هذا الموضوع في الصفحات السابقة على عهد قايتباي .

بخصوص تجارة البندقية في ميناء طرابلس انظر الملحق رقم ١٤ أ .

وبخصوص تجارة البندقية في حلب انظر الملحق رقم ١٤ ب .

(١٠٢) بخصوص دمشق انظر النص بالملحق رقم ١٤ ب . وراجع هنا أيضا ما ذكر

في معاهدة ساندو عام ١٥٠٢ فقرة ١٣ ومنشورة بالملحق رقم ٦ .

(١٠٣) راجع النص بالملحق رقم ١٣ د وكذلك :

— Heyd, Op. Cit., pp. 544, 545.

(١٠٤) كانت حكومة البندقية قد شكت في خطاب للسلطان الفوري في ١٦ من ديسمبر ١٥١٠ من عدم مراعاة عماله لتجارها في موانئ مصر والشام . وانهم يجبرون التاجر على أخذ كمية من التراب عنوة مع السلع وخاصة التوابل ، لأن المغربلين صمغوا الغرابيل لكي لا ينزل التراب من ثوبها ، وفي هذا خسارة كبيرة لنا ، وهو عمل غير أمين اطلاقا ولم تعود من قبل . راجع النص بالملحق رقم ١٠ . كما شكوا البنادقة من حجز سفنهم بعد مواعيد المدة مما يؤخر وصول البضائع الشرقية في مواعيد الأسواق السنوية في أوروبا . ومع ذلك جاء في حاشية لهذه الرسالة أسف البندقية من أن عمال السلطان لا يزالون يمارسون تعطيل السفن في موانئ مصر والشام . كما نص في الاتفاقية على نظام بيع التوابل الشريفة واستحدث فيها نظام الحساب الجارى لسنوات قادمة (انظر الملحق رقم (١٣) أ) - وقد شكوا السلطان من غش الجوخ وعدم تنديته قبل لفه مما يؤذى =

بعض مواطنيه الذين ردت اليهم حريتهم مؤخرا في حماية السلطان (١٠٥) ولم يحدث بعد ذلك ما يهدد العلاقات بين البندقية والسلطان ، وكان آخر اتصال بين الطرفين في ٣ من مايو ١٥١٤ عندما طلب قاصدهم من السلطان الغوري المزيد من التسهيلات والاعفاءات . (١٠٦)

وكان استئناف العلاقات على هذا النحو بين البنادقة والسلطان الغوري عام ١٥١٢ قد جعل السلطان لا يلح في توثيق العلاقات التجارية مع فرنسا ، وان رغب في توثيق العلاقات السياسية لوضع حد لقرصنة فرسان رودس في شرق البحر المتوسط . ولم يقدر لتجارة فرنسا الازدهار الذي كان لها من قبل ، وان وصلت بعض سفن المدة الفرنسية في فترات متباعدة الى موانئ مصر والشام . ولكن لم يستطع الفرنسيون الاستمرار في التجارة مع السوق المصرية على نطاق واسع بعد أن أغرق البرتغاليون أوروبا بالتوابل النفيسة وبأسعار رخيصة ، ولم يعد هناك داع لوصول تجار فرنسا لمصر (١٠٧) .

أما في الهند فقد شدد البرتغاليون قبضتهم على تجارتها وترصدوا السفن العربية والماليكية عند مدخل الخليج الفارسي والبحر الأحمر ، وصادروا حمولتها ، وجنح أمراء جوجيرات وحلفائهم الى مهادنة

== الى انكماشه بعد أن يفصله المصري وينسله مع وجود عيوب كثيرة به أنظر الملحق رقم ١٣ ج .

(١٠٥) نص خطاب التعليمات المعطاء للسفير تريفزاني بالملحق رقم ١٢ من مجموعة الدكتور توفيق اسكندر - أما نص الاتفاقية المبرمة بين السلطان الغوري والسفير فقد نقلها للفرنسية :

— M. Reinaud, Journal Asiatique, Nouveau Traites Du Commerce, T. IV. pp. 22-51.

وهي تشتمل على ١٤ سؤالا واجابتها واتفاقية التوابل الشريفة واتفاقيات خاصة بميناء طرابلس ودمشق وحلب . راجع الملحق رقم ١٣ وما بعده .

— Heyd, Op. Cit., p. 545. (١٠٦) راجع

— Heyd, Ibid, pp. 483, 484.

ظل قنصل فرنسا يعمل في الاسكندرية حتى وصول السلطان سليم الأول العثماني
١٥١٧ .

البرتغاليين ، وأصبح السلطان وحده فى الميدان يواجه قوات تفوق قواته ، وقل بصورة واضحة وصول السلع الشرقية لمصر والشام ، وبالتالي وصول التجار الأجانب . ومع ذلك استقبل السلطان العورى سفير فرنسا برناردو بيروشوا Bernardo Pirochawa ووافق على كل طلباته ، ومنح تجار فلورنسا موسما تجاريا ثابتا وقنصلا فى الاسكندرية . (١٠٨)

أما الأمير حسين كردى فبعد هزيمة ديو ١٥٠٩ اتجه الى جدة بما بقى معه من سفن ، وعمل على بناء سور ضخيم محصن حولها بعد أن تواترت الأنباء عن محاولة دخول البرتغاليين للبحر الأحمر ، واستغرق بناء السور عامين ١٥٠٩ - ١٥١١ . (١٠٩) ولم يحاول الأمير حسين كردى العودة الى مصر ليواجه السلطان وأمراء المماليك قبل أن يقوم بعمل عسكري ناجح ضد البرتغاليين ، وطلب من حلفائه الباقين أمراء الهنود المسلمين معونة مالية لبناء السور ، فاستجاب له السلطان محمد محمود شاه ١٤٥٨/١٥١١ ملك جوجيرات وأمراء آخرون ، وذكر لهم فى تقرير هذا الطلب أنه مادام البرتغاليون أقوياء وباستطاعتهم دخول البحر الأحمر والوصول الى جدة ، فمعنى ذلك أن بإمكانهم تدمير الأماكن الاسلامية المقدسة فى مكة والمدينة . (١١٠) وقد اعتقد أمراء

-
- (١٠٨) هذه المعاهدة بتاريخ ١٠ ربيع ٩١٥ هـ / ٥ يوليو ١٥٠٩ وبالملاحق رقم ٢٩ راجع الترجمة الفرنسية من
 — Amari, Op. Cit., p. XVIV. pp. 221-223.
 والترجمة الإيطالية كذلك من :
 — Amari, Ibid, pp. 389-390. L. I.
 وأمر السلطان لعماله بالإيطالية من :
 — Amari, Ibid, pp. 391-392 L. II.
 وبالعربى من :
 — Amari, Ibid, pp. 226-229, XLV.
 وبالملاحق رقم (٣٠)
 — Darnes, The Book Of Duarte Barbosa, T.I. pp. 46-47. Hakluyt (١٠٩) Society.
 — Darnes, Ibid, pp. 47.
 (١١٠)

الهند المسلمون أن البرتغاليين لا شك فاعلون هذا وأكثر منه ، لذلك منحوا الأمير حسين طلبه وهدايا قيمة بلغت فى مجموعها حمولة ثلاث سفن من التوابل والبهار . وقد أسهمت هذه الهدايا فى تكاليف بناء السور حول جدة . وفى نفس الوقت كان البرتغاليون - بموافقة ملك قاليقوت - يشيدون حصونا وأسوارا مماثلة داخل المدينة وحولها . ولما طلب ملك قاليقوت من السلطات البرتغالية تأمين وصول سفينة توابل لجدة وافق البرتغاليون على ذلك ، وجعلوا قيادتها لملاح عربى معروف يدعى خليفة ، ووصل الى جدة والعمل قائم فى السور ، وأبلغ الأمير حسين بموقف البرتغاليين وأحوالهم العسكرية فى مياه الهند وتحصيناتهم الجديدة ، وأن خروجه كان بترخيص من قائد الأسطول البرتغالى ، مما جعل الأمير حسين يتوجس خيفة من الملاح ويعتقد أنه جاء للتجسس عليه لحساب البرتغاليين ، ولكى يقطع الشك باليقين حجزه وبجارته وأشركهم فى بناء السور . (١١١)

ومن ناحية أخرى لم يكف الغورى عن مناوأة البرتغاليين فى الهند فأرسل فى عام ٩٢٠ هـ أسطولا عهد بقيادته للأمير حسين كردى نفسه وضم اليه عسكريا من الترك والمغاربة ، ووصل الى جوجيرات . واجتمع بسلطانها خليل شاه ، ثم وصل مدد آخر بقيادة سلمان وتعاونوا على هزيمة البرتغاليين وطردهم من بعض موانئ الهند ، ثم اتجه الأسطول بعد ذلك الى اليمن واستولى عليها من بنى طاهر وجعل عليها ثأبا مماليكيا هو الأمير برسباى الجركسى واستمر بعد ذلك فى طريقه الى جدة . (١١٢)

-
- Darnes, Op. Cit., pp. 48-49.
 - Syngé, A Book Of Discovery. p. 177.
 - Dunbar, A History Of India Vol. I. p. 152.
 - Heyd, Op. Cit., p. 536.
 - Depping, Op. Cit., p. 219. Vol. II.

(١١٢) زين الدين : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين ص ٤٠ - ٤٦ .

وفى ذلك الوقت حدث الصدام بين السلطان الغورى والسلطان سليم الأول العثماني ، وهو الحادث الثالث الهام فى سلسلة الحوادث التى ختمت العصور الوسطى . ووصل الأمير حسين كردى الى جدة وسلمان الى القاهرة فى الوقت الذى قتل فيه الغورى فى مرج دابق ١٥١٦ وقبض شريف مكة على الأمير حسين وأغرقه فى البحر .

وغداة الفتح العثماني لمصر وقع ممثل البندقية فى حيرة شديدة حين أراد أن يجمع حوله اثنى عشر رجلا من التجار بالشعر ليؤلف منهم مجلسه الذى سيقابل السلطان فلم يجد هذا العدد ، وهذا يدل على ما وصلت اليه التجارة فى فترة سقوط مصر فى أيدي العثمانيين ، وتمت المقابلة فى الاسكندرية بين قنصليها فى مصر والشام والسلطان سليم الأول العثماني ، وقدما له فروض الطاعة والولاء مشفوعة بطلبات ومعاهدات جديدة لاقرار الامتيازات التى كانت للبنادقة فى عهد المماليك . وخلال المقابلة أثار السلطان موضوع مساعدة البنادقة للجاليك ضده ووصول سفنهم خلال الحرب الى الاسكندرية حاملة الفضة والذهب ثمنا للتوابل والسلع الشرقية زيادة عما كان مفروضا عليهم طبقا للمعاهدات . وكان على القنصلين أن يفندا هذه التهمة فأفهما السلطان بأنهما يعملان دائما على توسيع نطاق تجارتهم من السلع الشرقية للوقوف أمام فيض السلع الواردة عن طريق البرتغاليين . ويبدو أن السلطان العثماني قد اقتنع بهذا الاعتذار فلم يعارض طلباتهم وأقر معاهداتهم السابقة وضمن ذلك كله فى معاهدة جديدة بتاريخ ٨ من سبتمبر ١٥٠٧ . (١١٣) وقد سلمت المعاهدة لندوبهم « نيقولوموسينيو

(١١٣) قنصل البندقية فى مصر هو Bartholomeo Contarini وفى دمشق هو Alvise Mocenigo

— Heyd, Op. Cit., pp. 545, 546.

— Comb, Précis De L'Hist. D'Egypte, T. III, p. 6.

يذكر كرمب أن السلطان سليم الأول العثماني بعد انتصاره فى تبريز على الصفويين ١٥١٤ قابله قنصل البندقية فى استامبول وحثه على محاربة المماليك وأفاد أن البندقية على استعداد لمؤازرته باسطولها البحرى وفى نفس الوقت أرسلت البندقية رسولا الى القاهرة =

Niccolo Mocenigo « الذى سافر الى القسطنطينية على ظهر احدى سفن الأسطول العثمانى حين قصد القنصل كوتارينى قبرص لتنظيم دفع الجزية المفروضة عليها بعد أن آلت للسلطان العثمانى . وقضت الاتفاقية بأن تدفع الجزية ذهباً ومقدماً لخمس سنوات ، وعدل النص بعد ذلك لتصير سنوياً ، وعينا من السكر والحبوب . (١١٤) واستقبل السلطان كذلك قنصل الفرنسيين والقطالنة فى الاسكندرية وطلب تجديد اتفاقيتهم التى كانت أيام السلاطين ، فمنحهم السلطان حمايته وأصدر أوامره بمراعاتهم فى مصر والشام ، وبعدها فتحت الموانئ المصرية والشامية أمام السفن البندقية . ولم تتغير هيئة القناصل الا عام ١٥٢٥م حيث نقلت قنصلية البندقية من الاسكندرية الى القاهرة ، وصار بالاسكندرية نائب قنصل فقط . ولعل هذا دليل واضح على فقدان الثغر أهميته التجارية التى كانت أيام المماليك . ومما هو جدير بالذكر أنه لا تجارة مصر ولا الشام قد جنتا أى ربح من التغيير الذى حدث فقد أصدر السلطان العثمانى قانوناً يضم تجار الحرير الوارد من فارس الى هيئة تجار القسطنطينية فى محاولة منه لرفع شأن المدينة

= يعرض على السلطان الممالىكى المعونة ضد السلطان سليم الأول راجع Heyd, Op. Cit., p. 546. —
 وارسلت قنصلها فى دمشق الى الشام اسماعيل الصفوى يعرض المساعدة ضد السلطات الممالىكية راجع Heyd, Ibid, p. 537. — وقصدت البندقية من ذلك مبالاة السلطات الثلاث المتصارعة ، حتى اذا ما فازت احداها استطاعت أن تعيش تجارتها فى ظل حكمها . والواقع أن البندقية كانت تبحث لها عن حليف للوصول لوسط آسيا برا ، أو عن طريق الخليج الفارسى للهند وزادت هذه الرغبة بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح وفشل السلطات الممالىكية فى وضع حد لتوسع البرتغال فى الهند ، وسياسيتها هذه تتسم بالأنانية وإيثار المصلحة الخاصة أو كما يقال سياسة الوجهين وهى الصفة التى اصطبغت بها الجمهوريات الايطالية التجارية فى العصور الوسطى . وكانوا قد فعلوا مثل ذلك مع البيزنطيين والعثمانيين . انظر

— Heyd, Ibid, pp. 305, 306, 307.

(١١٤) المعاهدة بين البنادقة والسلطان سليم الأول بالاسكندرية بالملحق رقم ١٥

وانظر كذلك :

— Wiet, Précis De L'Hist. D'Egypte, T. III. p. 96 ff.

— Heyd, Op. Cit., pp. 545, 546.

واحياء مجدها الذى كان أيام البيزنطيين ، وتم ذلك بالطبع على حساب مصر والشام ، البلدين اللذين ولى مجدهما منذ الفتح العثماني ١٥١٦/١٥١٧ . (١١٥)

أما فرسان رودس فقد ترددت الشائعات عن وصول بعض قطع أسطولهم حاملة الأسلحة من بارود ومدافع وألغام من قناصتهم لمساعدة السلطان العادل طومنيان الثانى فى صراعه مع السلطان سليم الأول ، وأن سفنهم وصلت لميناء دمياط . ومع ثبوت زيف هذه الشائعة إلا أن الفرسان كانوا على استعداد دائما لمساعدة كل من يعادى العثمانيين ولو كانوا من المماليك أنفسهم . وابن اياس المؤرخ المصرى المعاصر لهذه الأحداث يكذب الواقعة (١١٦) .

وعلى أى حال فإنه بعد سقوط مصر عام ١٥١٧ قدر السلطان سليم أهمية جزيرة رودس فى الصلة بين تركيا والاسكندرية وباقى مدن وموانئ مصر والشام ، فهاجم الجزيرة واحتلها فى ديسمبر ١٥٢٢ ورحل عنها الفرسان الى مالطة .

أما دول شمال غرب أوروبا فإن اتصالها بشرق البحر المتوسط لم يكن مباشرا ، فلم يدللوا بدلوهم فى التجارة الشرقية الا فى فترة متأخرة ، واكتفوا حتى أواخر العصور الوسطى بانتظار وصول السفن الايطالية اليهم محملة بالسلع الشرقية من مصر والشام، ونظم الايطاليون مع عملائهم الألمان رحلات تجارية ومنظمة تمر بانجلترا حاملة السكر والكروم والتوابل والحرير وتعود محملة بالقصدير والجلود . ومنذ وصول البرتغاليين للهند وهم يقومون بهذه العملية بمساعدة الهولنديين

— Depping, Op. Cit., pp. 242-245. T. II.

(١١٥)

— Heyd, Op. Cit., pp. 438, 484.

(١١٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧١ الى ٧٨ .

— Ziada, Op. Cit., pp. 206, 207.

حتى تخلصت انجلترا من هذا النوع من الوساطة وباشرت اتصالها بالهند بنفسها (١١٧) .

أما الأراضي المنخفضة فوصلتها السلع أولا من مصر والشام وبلاد السلطان العثماني بطريق الايطاليين الذين كان لهم وكالات وفنادق ومنحوا اعفاءات جمركية وتسهيلات ، ثم تحولوا الى لشبونة بعد وصول البرتغاليين للهند ، ولا سيما وأن القرصنة اشتدت على السفن في غرب البحر المتوسط والمارة بجبل طارق . وحصلوا على حاجتهم من السلع الشرقية من لشبونة ، ثم نالوا اذنا من ملك البرتغال بورود أسواق الهند بأنفسهم ، وضاعت هذه الأسواق من البنادقة (١١٨) .

— Heyd, Op. Cit., pp. 725, 726.
— Heyd, Ibid, pp. 720, 721, 722.

(١١٧)

(١١٨)

الفصل الثالث

الطرق والمحطات التجارية

منذ فقد الأوروبيون حرية الاتصال التجاري المباشر باقليم وسط آسيا بعد انهيار القوى الصليبية في شرق البحر المتوسط عام ١٢٩١ م ، وهم يحاولون تدعيم الطريق البري من أوروبا الى فارس والهند المار ببلاد الدولة البيزنطية ، متحاشين المرور بالأراضي العربية والمماليكية. ومع ذلك فإن أكثر القوى نشاطا واهتماما بالتجارة كالبنادقة والجنوئين فضلت الطريق البحري الى شرق البحر المتوسط الا في حالات اشتداد الهجمات من القراصنة ، فكانوا يلجأون الى الطريق البري المذكور من ساحل دماشيا حتى القسطنطينية ، ومنها الى آسيا الصغرى فوسط آسيا . ولهم مع ملوك وأمراء الأراضي المارين بها معاهدات واتفاقيات خاصة بحرية المرور والمتاجرة . وما لبث أن فقد هؤلاء التجار هذا الطريق أيضا بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وتقدم العثمانيون في شرق ووسط أوروبا حتى ايطاليا . واضطر التجار الى العودة الى الطريق البحري القديم الذي ينتهي عند موانئ مصر والشام حيث تتجمع السلع الشرقية من الصين والهند وعقدوا مع حكام مصر والشام اتفاقيات تجارية ظلت سارية المفعول حتى الفتح العثماني للمنطقة عامي ١٥١٦/١٥١٧ (١) .

الطريق الأول :

ومع تعدد الطرق البرية والبحرية الرئيسية والفرعية من أوروبا

— Depping, Histoire Du Commerce, T.I. p. 194.

(١)

وآسيا وشرق البحر المتوسط حتى أواخر العصور الوسطى فإنه بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ بقي منها أربع طرق رئيسية برية وبحرية : أظهرها وأقدمها هو طريق الصين - الهند - الخليج الفارسي ، وهو طريق بحري حتى رأس الخليج الفارسي ، ثم تبدأ فروعه النهرية والبرية من البصرة الى بغداد حيث يتفرع فرعين : يتجه الأول شمالا الى ديار بكر ، ويتجه الثاني غربا الى دمشق ومنها تخرج فروع الى موانئ ساحل البحر المتوسط ، ثم جنوبا الى مصر بجذء الساحل الى غزة ، ثم عبر الصحراء الى القاهرة ، وفرع يتجه شمالا بغرب الى حلب ، ثم الى آسيا الصغرى ليلتقى بالطرق القادمة من وسط آسيا برا ويتحد معها الى القسطنطينية ثم أوروبا . وقد فقد هذا الطريق اتصانه بالطرق القادمة من وسط آسيا خلال غزوات المغول في القرن الثالث عشر ، ثم عاد الاتصال بعد ذلك عندما سيطر العثمانيون على آسيا الصغرى وأمنوا الطرق المارة بها ، حتى انه أصبح يمثل الطريق الاحتياطي للتجارة الشرقية كلما تعطلت الطرق الأخرى أو أصابتها كوارث القراصنة وقطاع الطرق . ويخدم هذا الطريق في جزئه الرئيسي بالخليج الفارسي موانئ ومدن : هرمز ، وسيراف ، وقيس ، والبصرة ، والأبلة .

أما هرمز فظلت المركز الرئيسي لتجارة الخليج الفارسي طوال العصور الوسطى وهي « فرضه اقليم كرمان ومركز تجارته وتجارة اقليم سستان وسوقهما الطبيعي وتبعد عن الساحل بحوالى ١٢ ميلا » . وهرمز في الأصل مدينتان : القديمة ميناء على الساحل ، والجديدة تقابلها في البحر على مجموعة من الجزر . وانشأ المدينة القديمة «ادرشير بايكان» في منطقة مرجستان وترسو بها سفن الهند التي تحمل التجارة لكرمان وسجستان وخورستان ثم تركها أهلها لكثرة تعرضها لهجمات قطاع الطرق وانتقلوا منذ القرن ١٤ م الى مجموعة الجزر التي

عرفت باسم هرمز الجديدة ، ويسمىها العرب جرون وأحيانا هرموز^(٢). ويصلها تجار الشام عن طريق مصب نهر دجلة والفرات للحصول على متاجر الهند والصين وبيع متاجرهم ومتاجر أوروبا الواردة اليهم ، اذ كانت هرمز فى الواقع تمثل الى حد ما مركزا لتبادل السلع الشرقية والغربية . وأحيانا يتقدم تجارها حتى يصلوا الى موقع قاليقوت بالهند على سفنهم الخاصة أو سفن الهنود والصينيين . كما أنهم كانوا يصعدون فى دجلة والفرات حتى البصرة حيث يتجمع فيها أحيانا تجار العراق والشام حاملين معهم سلع العراق والشام وآسيا الصغرى وأوروبا^(٣) . ويفضلها تجار الشرق والغرب على غيرها لقلة الرسوم المفروضة على التجارة وللتسهيلات التى تبذل لترغيب التجار . ومن أهم السلع المتداولة هنا القرفة والفلفل والزنجبيل وخشب البخور وعود الند وخشب الصندل وخشب البرازيل الأحمر والتمرهندي والزعفران والشمع والحديد والسكر والأرز وجوز الهند والبورسلين والأحجار الكريمة واللبان والجاوى والأنسجة الحريرية والقطنية . ولهذه الانسجة عند الأهالى سمعة طيبة فيصنعون منها عماماتهم وشيلائهم ، كما يصلها من عدن النحاس والزئبق ، ومن فارس ماء الورد والأنسجة المطرزة والتافتاه ، ومن البحرين اللؤلؤ الصغيرة والكبيرة ، ومن بلاد العرب الخيول التى تصدر للهند . ولا يقل عدد تجارها كل موسم عن ٤٠٠

(٢) مياهمي : أوضح المسالك فى معرفة البلدان والممالك . مخطوطة ٢٦٨ ب

— Varthema, La Viateur En Orient, pp. 102-104-109 & N.I. p. 102, N. II. p. 104.

— بخصوص تعطيل التجارة على هذا الطريق خلال غزو المنول لغرب آسيا فى النصف الثانى من القرن ١٣ م أنظر :

— Marco Polo, Travels, Vol. I. p. 107-108.

— Darnes, Manuel Longworth, The Book Of Duarte Barbosa, (٣) Vol. I. pp. 68-82 & p. 90, R. II. p. 68 & R.I.

تبدو أهمية ملاحظات وكتابات باربوزا فى كونه شاهد عيان لما يتحدث عنه بل انه صاحب

البرتغاليين فى غزواتهم للخليج الفارسى وبقى معهم حتى ١٥١٨م

— ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك (طبعة لندن) ١٨٧٢ ح ٤٠ .

— الجزرى : تحفة المعجائب مخطوطة ورقة رقم ٢٣٦ ١ .

تاجر . وتباع السلع هنا بالميزان ، وأسعارهم وموازينهم محددة، كما أنهم يستخدمون عملة من الذهب والفضة عليها كتابات عربية من الوجهين تعرف باسم الأشرفى ، ولها عملات أنصاف ، وتلقى هذه العملة رواجاً في الهند لنقاؤها وحسن وزنها (٤) . وحتى وصول البرتغاليين للهند كانت المدينة لا تزال مزدهرة بالتجارة . وقد حاول القائد البرتغالى البوكرك عقد معاهدة مع حكامها عام ١٥٠٧ ، ولما رفضوا هاجمها فى العام التالى واستولى عليها ونكل بمن فيها من التجار العرب ، وأجبر أهلها على دفع جزية ١٥ ألف أشرفى ذهب سنوياً (٥) . ومنذ وصول الشاه اسماعيل الصفوى الى العراق العجمى عام ١٥٠٨ ، وهرمز مجال صراع بين البرتغاليين والصفويين حتى خلصت تماماً للبرتغاليين حين اتخذوها قاعدة لعملياتهم الحربية فى الخليج الفارسى ضد العرب ومصر وفقدت المدينة أهميتها التجارية ، وأصبحت مدينة خربة بعد الغزو البرتغالى على أساس أنها محطة تجارة العرب ومصر لتدمير تجارتهم واعلاء لشأن تجارة البرتغاليين (٦) .

ومن هذه المحطات أيضاً سيراف على ساحل ايران جنوبى شيراز

— ابن أيوب : المصدر السابق ذكره ص ٣٣٩ .

— Wilson, The Persian Gulf, p. 102.

— Sonia, In Quest Of Spices, p. 102.

— Heyd, Op. Cit., p. 457.

(٤) يبلغ سعر الحصان الواحد بما يوازي الآن ٢٠٠ جنيه ، حسب أصلته ونوعه وتنقل الخيل الى قيس وهرمز القديمة حيث ينتظرها الهنود بسفنهم . وسفن الخيل مقسمة الى حجرات صغيرة منفصلة .

Sonia, Op. Cit. p. 102.

Darnes, (Barbosa), Vol. I. pp. 90-93, 94-100, 101-105.

Varthema, Op. Cit. p. 109. and 107 R. 5.

Depping, Op. Cit. T.I. pp. 46, 47.

— بخصوص البحرين وتجارتهما مع هرمز انظر : النجدي : أرجوزة العرب ج ٣

Darnes, Op. Cit. pp. 101-106, 107.

Wilson, Op. Cit. pp. 105-108.

Varthema, Op. Cit. p. 109.

(٦) ابن اياس : نقش الأزار (مخطوطة) ورقة رقم ٦ ١

Heyd, Op. Cit. pp. 500-504.

Charles Roux, Op. Cit. T.I. pp. 27, 28.

التي ظلت حتى أواخر العصور الوسطى من أكبر أسواق الخليج الفارسي وهي لا تقل أهمية عن هرمز وإن كانت تفضلها لقربها من أسواق البلاد العربية ، فتركزت فيها لذلك السلع العربية أكثر من أي مركز تجاري آخر على الخليج الفارسي وتصلها سفن التجارة من الصين والهند واليمن ومسقط كما يصلها تجار شرق البحر المتوسط والعراق وإيران ، لذا كانت مركزا لتبادل السلع الشرقية والغربية . وتجنى السلطات كل عام حوالي ربع مليون دينار مكوسا تجارية على السفن الداخلة إليها . ومما أسهم في نمو هذا الميناء صعوبة الملاحة عند مصب دجلة والفرات ، فاتجهت السفن إلى سيرا فبدلا من مدخل النهرين . وقد استولى على سيرا ف أمير قيس وحول عنها التجارة إلى بلاده فأخذت في الانهيار تماما أواخر القرن الخامس عشر حتى « صارت سبخة لا ينبت بها زرع وانصرف عنها أهلها إلى محطات أخرى ... حتى أن الواحد منهم يسافر عشرين عاما ولا يلتفت إلى أهله وولده » (٧) .

أما قيس أو قيش فهي جزيرة قرب الساحل الشرقي للخليج وبينها وبين الساحل ممر بحري عرضه حوالي تسعة أميال بحرية ويحتكر حاكمها التجارة لحسابه وأسطوله حوالي ٥٠ سفينة وكل سفينة من قطعة واحدة وأسواقها من أكثر أسواق الخليج ازدهارا بالتجارة من

(٧) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٣٩ و ٤٠ .

ابن أيوب : المصدر السابق ص ٣٢٧ .

السيرافي : أبو زيد حسن : وسليمان التاجر : سلسلة التواريخ ص ١٥ - ١٨ .

حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٢٠٦ و ٢٠٧ .

سيامي : المصدر السابق ورقة ١٦٧ أوب .

المقدس : أحسن التقاسيم ص ٤٣١ .

بزرگ بن شهريار الناخوزاه : عجائب الهند بره وبحره ص ٢٢ و ٢٣ .

ابن اياس : نشق الأزهار ورقة ٦٠ .

وتعرف سيرا ف الآن باسم طاهري على الطريق من بوشير إلى قيس وكان انهيارها

قد أدى إلى زيادة نمو قيس وهرمز .

Darnes, (Barbosa) Vol. I. p. 81 & R. I. p. 79-81.

الهند والصين وفارس والعراق والشام لسهولة العيش فيها ، اذ ان أرضها خصبة ، وماءها وفير ، وتفوق باقى المدن والموانىء فى تجارة العبيد المستوردين من شرق افريقية . ومنذ تحول سيل التجارة الى البحر الأحمر بدأت تجارتها فى التأخر الى أن وصلها البرتغاليون وحولوا عنها التجارة فى محاولاتهم القضاء على الطرق التجارية الى البلاد العربية واتخذوها مركزا لتموين سفنهم بالماء والخضر ، وتحولت تجارتها وتجارة الخليج كله الى ساحل الهند الغربى (٨) .

وظلت البصرة بموقعها الممتاز عند التقاء دجلة بالفرات على رأس الخليج الفارسى من أهم المحطات للتجارة الشرقية . وتتصل المدينة بالنهر بقناتين يصلانها ببغداد والخليج الفارسى . وبالمدينة سوق ضخم وجمرك بلغ إيراده منذ منتصف القرن الخامس عشر حوالى ٤٤١٠٠٠ دينار سنويا ، كما أن بها مخازن ومستودعات للمتاجر الشرقية والغربية وتنتهى عندها بعض طرق القوافل وشهدت المدينة ازهى عصورها طوال العصور الوسطى ، فهى مخرج تجارة العراق وتتصل بالصين والهند برا وبحرا كما تتصل بالشام وآسيا الصغرى . الا أنها منذ أواخر العصور الوسطى بدأت تتأخر حتى أصبحت ميناء مساعدا لسيراف ، وكافح الميناء للوقوف أمام منافسة الطريق الثانى فى البحر الأحمر حتى انهارت قيمتهما بعد وصول البرتغاليين الى الهند ودخولهم الخليج الفارسى ولم تعد أكثر من قرية جرداء . وفى فترة احتلال البرتغاليين لهرمز لفتت أنظارهم أهمية البصرة كمركز ومدخل لتجارة الخليج الفارسى الى العراق والشام بالنسبة للعرب فعملوا على تحويل التجارة عنها حتى لا يلجأ العرب الى أحيائها مرة أخرى ،

(٨) ابن أيوب : المصدر السابق ص ٣٣٣ .

Darnes, Ibid, pp. 80, 81.

Wilson, Op. Cit. pp. 97,98.

وسدوا المواصلات البحرية اليها (٩) .

والى الشمال من رأس الخليج الفارسي عند مصب دجلة والفرات تقع مدينة الابلّة وقد شيدت قبل البصرة وتبدو أهميتها في أنها مخرج تجارة العراق الى الخليج الفارسي كما أنها حاضرة ميناء البصرة ، وتقع عند ملتقى أهم طرق التجارة من ايران والعراق وبلاد العرب ، بل انها اعتبرت في وقت ما ميناء العراق الرئيسى الى الخليج الفارسي بسبب صعوبة الملاحة عند مصب الرافدين . ولليهود بها جالية تجارية كبيرة ، كما أن بها فنارات لهداية السفن ليلا ، وهى الآتية من عمان وسيراف ويوجد بها للتجار وكالات وفنادق . ومنذ تحولت التجارة بصفة عامة من موانئ الخليج الفارسي الى البحر الأحمر ومصر بدأت الابلّة فى التأخر ، وانكشفت فى النصف الثانى من القرن ١٥ م لتصبح نجعا صغيرا ، ثم أقفرت تماما بعد تحول التجارة الى رأس الرجاء الصالح فى مطلع القرن السادس عشر (١٠) .

على أنه منذ أواخر القرن ١٥ م وأوائل القرن ١٦ م بدأ هذا

(٩) دائرة المعارف الإسلامية مادة Basra

يجب ألا يغرب عن البال أن جغرافية العراق الآن تختلف عن جغرافيتها فى العصور الوسطى فقيما يختص بنهرى دجلة والفرات ، فالنهران فى الوقت الحاضر يتصلان ببعضهما شمالى مدينة البصرة ويتجهان نحو الخليج الفارسي مسافة ٢٥٠ ميلا من بغداد الى شط العرب . أما فى القرن ١٥ م فكان دجلة يسير فى خط مستقيم حوالى ١٠٠ ميل جنوبى بغداد ثم يدخل فى مجرى قناة تعرف الآن باسم شط الحى ويمر بواسط ويتوء مرة أخرى فى مستنقعات المصب الجنوبى للبصرة وبهذا الطريق المائى تتقدم قوارب النقل بسهولة من بغداد الى البصرة انظر : Wilson, Op. Cit. pp. 65, 66, 67, 68.

Darnes, Op. Cit. pp. 88, 89. & R.p. 90.

متر : الحضارة الإسلامية (مترجم) ج ٢ ص ٢٣٠ .

المقدس : المصدر السابق ص ١٢ .

الاسطخري : المسالك والممالك ص ٣٢ .

ابن حوقل : المصدر السابق ص ٣١ - ابن أيوب : المصدر السابق ص ٣٠٩ .

ظلت البصرة تابعة للصفيين حتى احتلها الترك عام ١٥٣٤ على عهد السلطان

سليمان القانونى بعد سقوط بغداد .

Wilson, Op. Cit. p. 66.

Wilson, Op. Cit. pp. 62-64.

Darnes, Op. Cit. p. 88 R.I.

(١٠)

الطريق يفقد أهميته فى خدمة التجارة وبخاصة فى فروعه من الخليج الفارسى عبر العراق الى ديار بكر وسلطانية . فقد أغلقته الحروب التى نشبت بين الصفويين والعثمانيين فى العراق العربى وآسيا الصغرى . وبعد أن استولى الشاه اسماعيل الصفوى على العراق العجمى منذ عام ١٥٠٨ ، منع تجار الشام من الوصول الى بغداد والبصرة لحمل المتاجر الشرقية ، فامتنعت بالتالى السفن الشرقية الواردة من الصين والهند من دخول الخليج الفارسى وهرمز والبصرة . هذا بالاضافة الى زيادة انتشار قطاع الطرق فى اجزائه البرية فأحجم معظم التجار عن ارتياده وفقدت مدنه وموانيه ومراكزه التجارية أهميتها حتى بطل استخدامه تماما فى الربع الأول من القرن السادس عشر منذ دخول البرتغاليين بأسطولهم الحربى فى الخليج الفارسى واحتلالهم لأهم موانيه وسيطرتهم على تجارته امعانا فى تحطيم التجارة العربية والماليكية . وتأكد هذا الانهيار تماما منذ الفتح العثمانى للشام ومصر ١٥١٦/١٥١٧ (١١) .

الطريق الثانى :

هو طريق بحرى . من الشرق الأقصى الى البحر الأحمر ، وله فرعان : يتجه أحدهما شمالا بعد أن يترك البحر الأحمر عبر سيناء الى دمشق ثم موانئ ساحل البحر المتوسط ، ويتجه الآخر عبر الصحراء الى النيل فالقاهرة ومنها بالنيل أيضا الى الاسكندرية فأوروبا . الا أن هذا الطريق تعترضه صعوبتان :

أولاهما : المساحة البحرية الواسعة من الصين الى الهند الى البحر الأحمر وما فيها من تيارات بحرية وهوائية متعارضة معظم السنة . وثانيهما : كثرة الشعاب المرجانية التى تعترض الملاحة فى البحر الأحمر .

Clive, A Hist. Of Commerce, pp. 84, 85.
Clerget, Le Caire, p. 180 & pp. 189, 190.
Wilson, Op. Cit. pp. 10-13.

وقد ذلت الصعوبة الأولى بعد وصول السفن العربية الى المحيط الهندي فى وقت نضجت فيه المعلومات الجغرافية عن الملاحة فى البحار الشرقية وقد لاءم البحارة أوقاتهم فى مواعيد هبوب الرياح الموسمية (١٢) .

أما الصعوبة الثانية فقد تم تذليلها بالابحار فى البحر الأحمر بعيدا عن الشعاب ، المرجانية والتيارات المتعارضة وبعد بناء سفن ضخمة تتحمل الابعار وسط هذا البحر (١٣) .

ومنذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر بعد غزو المغول لغرب آسيا وتعطل الطريق التجارى البرى من وسط آسيا ، وطريق البحر الأحمر من أكثر الطرق التجارية أهمية بين الشرق والغرب ، فهو بعيد عن ميادين الحرب بين المغول والماليك ، وفيما بعد بين العثمانيين والأوربيين ، ثم بينهم وبين التركمان وامارات آسيا الصغرى ، وبينهم وبين الماليك ثم الصفويين فى مطلع القرن ١٦ م ، فكانت هذه الاضطرابات السياسية والحربية سببا فى قطع الصلات التجارية وسد الطرق البرية القديمة بين الشرق والغرب واضطر التجار الى اللجوء لهذا الطريق المار بأملاك السلطنة المالكية اذ كان أكثر الطرق أمنا ، وان كانت مرحلة البر فيه تكلف كثيرا من الجهد والمال والحراسة (١٤) . ولعل أشد ما كانت تحرص عليه السلطات المالكية عند تحول التجارة

(١٢) ظل طريق عيذاب - قوص - النيل - القاهرة الطريق الأول لتجارة مصر الشرقية من الصين والهند واليمن حتى أواخر القرن ١٣ ثم استخدم طريق البحر الأحمر الى السويس بحرا ثم برا للقاهرة . أما الاسكندرية ودمياط فكانتا أهم أبواب مصر فى تجارة أوروبا .

سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ص ٢٠٨ .
Charles Roux, Op. Cit. T.I. pp. 27, 28.
Depping, Op. Cit. p. 47, T.I.

Gayet, Le Cours, The Camb. Shorter Hist. Of India, Vol. II. p. 315. (١٣)
Clive, Op. Cit. p. 85.

Clerget, Op. Cit. pp. 299-300.

(١٤)

الى هذا الطريق ، هو ضبط الطرق التجارية وحماية التجارة ، والتجار من عبث قطاع الطرق ، وكتب الرحالة المنصفين عن هذه الفترة تزرخ بالاشادة بهذا العمل من جانب السلطات المماليكية (١٥) .

وقد أثرى سلاطين المماليك من التجارة على هذا الطريق ، فعملوا أولا وسطاء بين تجار الشرق والغرب ، ثم تاجروا بأنفسهم واحتكروا هذا النوع من التجارة بعد أن انتزعوها من « التجار الكارمية » ، وغالوا في احتكارهم لها وخاصة في السلع النادرة ، الا أن هذا الاحتكار لم يؤد الى زيادة تداولها ، فارتفعت أسعار التوابل والسلع الشرقية عامة في أوروبا الى أربعة وخمسة أضعاف أسعارها في الهند ، أضف الى ذلك أن المماليك فرضوا رسوما جمركية عالية على كل بالة تجارية تمر من البحر الأحمر الى مصر ودول أوروبا . فالبضائع التي كان ثمنها ٢٠٠٠٠ جنيه كان يدفع عنها في الجمارك رسوما تبلغ

(١٥) بخصوص جهود السلاطين لتأمين هذا الطريق منذ منتصف القرن ١٣ م انظر :

المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ - ٧٠٢ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤١ .

انظر بعده الفصل الخامس عن بطائف التجار الوافدين لمصر والنص في المعاهدات

والاتفاقيات على رعايتهم وحماية مصالحهم .

Felix Fabri, The Wanderings Of Felix Fabri, Vol. I, II. 1480-1483. From The Library of Palestine Pilgrims' Text Society, Vol. VII.

يذكر الرحالة فابري « أنه من دواعي سروري خلال رحلتي للأراضي المقدسة أنه لم تسأ معاملتي بأي حال ، لا من الاعراب ، ولا من البدو ، ولا من السلطات الحاكمة » . ويذكر في موضع آخر أنه بعد زيارته لدير سانت كاترين توجه مع القافلة الى البحر الأحمر ليركب السفينة من الطور الى الشاطئ الغربي في طريقه الى القاهرة وهناك كما يقول : « لاحظنا قافلة قادمة نحونا بسرعة فظننا أنهم لصوص ثم لم تلبث أن توقفت أمامنا تماما وقائدها رجل ضخم الجثة استدعى قائد قافلتنا وسأله : كيف وأنت عربي تفود جماعة من الفرنج بسلحهم كما لو كانوا فرقة حربية ؟ فأجاب الدليل : انهم حجاج ، ولما كانوا يخشون قطاع الطرق فقد استأذنوا حاكم بيت المقدس في حمل السلاح للدفاع على أن يسلموا أسلحتهم في القاهرة » . فحدد القائد لنا هذا وقال لرجالنا انه لو اتبع الحجاج ذلك لقضوا على قطاع الطرق تماما .

Fabri, Vol. I. Part II, p. 243 & Vol. II. Part II, pp. 642-646.

٤٠٠٠ جنيه وفى ميناء بولاق النهري كانت البضائع التى تساوى ٣٠٠٠ جنيه يدفع عنها رسوما تبلغ حوالى ٥٠٠٠ جنيه - هذا غير الهدايا التى كانت تدفع لرجال السلطان وعمال الميناء لتسهيل الشحن وحماية البضائع . ومع كل ذلك تركزت التجارة على هذا الطريق ومدنه وموانيه وفتحت مصر والشام أبواب مدنها ، وموانيهها وامتلات الأسواق بالأجانب رغم « التحريمات البابوية » والمتكررة وخاصة بعد توغل العثمانيين فى شرق أوربا ، وأصبحت بلاد السلطان الممالىكى مقصد تجار البندقية وجنوة وفلورنسا وقطالونيا وفرنسا ولهم وكالات وفنادق ومعاملات وحسابات جارية مصرفية مع السلطات والأهالى . ومن أهم المدن التى خدمت التجارة على هذا الطريق : القاهرة والاسكندرية ، وعلى البحر الأحمر : القلزم والسويس والطور وجدة ثم عدن ، وفى الشام : دمشق وبيروت وحلب (١٦) .

وحتى نهاية العصور الوسطى كان التنافس شديدا بين القاهرة والاسكندرية فى بيع وتوزيع سلع الشرق وبيع الغرب ، ولكن ظلت القاهرة نقطة تجميع السلع ، ومركز توزيعها شرقا للسلع الغربية وغربا للسلع الشرقية والمحلية نظرا لتوسط مركزها كما كانت أقصى ما يصل اليه التجار الأجانب الوافدين لمصر ، ونص على ذلك فى المعاهدات التجارية بين مصر والدول الأوربية (١٧) . وبالمدينة أحياء معينة خصصت لتجارة التوابل والعطور والسلع الشرقية والغربية وللتجار فيها مخازن وقياسر ووكالات وفنادق وأماكن خاصة لدوابهم ، لا سيما الوافدين

(١٦) انظر ملحق الغرايط ، وعن ثراء الممالىك انظر :

Atiya, The Crusades In Later Middle Ages pp. 115-174, 175.

Heyd, Op. Cit. p. 448.

Maurice, Le Caire, pp. 186, 187.

Clerget, Op. Cit. p. 300.

Clerget, Op. Cit. p. 301.

Heyd, Op. Cit. pp. 434, 435, 1697, 698.

من الشام أو بلاد العرب أو السودان وأحيانا من فارس (١٨) . وزار القاهرة في أواخر القرن الخامس عشر عديد من الرحالة الأجانب ويصفون مدى الازدهار التجارى الذى عاشته المدينة فى فترة تحول التجارة عبر البحر الأحمر وبلاد السلطنة المماليكية حتى بداية القرن السادس عشر (١٩) . ويقرن بذكر القاهرة مينائها الهام على النيل

(١٨) بخصوص مدينة القاهرة فإن لشوارعها ودروبها بوابات تغلق عليها ليلا ، ولها حراس ، وبكل شارع سوق لسد حاجات السكان من السلع اليومية ، كما أنها تضام ليلا بالمصاييح ، ويمر جماعة من الطواف ليلا كذلك لتفقد الأمن والحراسة وعقاب المخالفين . وتعنى الحكومة بنظافة الشوارع ورشها وأمام كل حانوت اثناء به ماء لاطفاء ما قد ينشرب من حرائق ، كما أن بالمدينة وكالات وفنادق وخانات وأسواقا متخصصة . انظر :

سميد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٨٢ و ٨٣ .

Dopp, P.H., L'Egypte Au Commencement Du 15 ème Siecle, pp. 50-53 & FOLIO 30-32.

- فبيت : المواصلات فى المصور الوسطى ص ٢٦ .

Clerget, Op. Cit. pp. 180, 181.

Lewis, Robert, 'The Merchants' (Moppe) = Map Of Commerce, pp. 93-97.

انظر ملحق الخرائط .

(١٩) مصطفى الحفناوى : قناة السويس ج ١ ص ١٩ و ٢٠ .

Ziada, Op. Cit. pp. 215, 216.

Breyndenbach, Bernard De, Les Saints Peregrinations (1483) pp. 47, 48-50-53-56.

زار الرحالة برايدنباخ القاهرة عام ١٤٨٣ م وذكر أنها (مدينة كبيرة مزدهمة بالسكان وبها حوال ١٥٠٠٠ تاجر ، ولهم أحياء وشوارع خاصة بهم حيث اشترينا منها الأسلحة والمطور والتوابل) . وزارها كذلك الرحالة هارف ضمن رحلاته Arnold Von Harff, The Pilgrimage Of... (1496-1499).

فى إيطاليا والشام والحيشة وبلاد العرب ومصر والتوبة وفلسطين وتركيا وفرنسا وإسبانيا ، ويقول انه بقى خارج القاهرة فترة قبل السماح له بدخولها ، اذ لا تسمح السلطات الحاكمة للأجانب بدخول المدينة الا بعد الحصول على اذن خاص يذكر فيه هويتهم وسبب حضورهم . . . ويعطينا هارف صورة صادقة عن المدينة عام ١٤٩٧ فهو « . مدينة ضخمة تغلق شوارعها وحواريها بوابات كبيرة ليلا ولكل حارة فرن ومطبخ وحمام مياه ويوقد الأهالى الأفران بالأخشاب المحلية . أما الأخشاب الثمينة فتأتيهم من أوروبا خفية لأن البابوية تحرم التعامل مع المماليك فى المواد الحربية . . . وبالمدينة كذلك عدد كبير من المسيحيين وأهل الشام واليهود ومعظمهم تجار ، ويدفعون جزية سنوية للسلطان . وخلال الأزمات السياسية تقف الحياة فى البلاد تماما وتمتنع التجارة . وقد شاهدت بنفسى احداها خلال الصراع بين السلطان ومنافسيه ، فتوقفت التجارة ، وفقد التجار الأجانب الموجودون بسلعهم ومتاجرهم ، وفقدت خلال ذلك كل أمتعتى وأخذت سجيناً » . أما عن =

بولاق - والذي ظل الميناء الرئيسى للقاهرة على النيل حتى أواخر العصور الوسطى . وتدخل الميناء آلاف السفن المحملة بالسلع والمتاجر من الشرق والغرب ، فتصله السلع من الاسكندرية طريق فرع رشيد . ومن موانئ الشام وتركيا طريق فرع دمياط ، ومن الجنوب سلع الحبشة والنوبة ، وأحيانا البحر الأحمر طريق النيل وموانئه الجنوبية . وبالميناء مخازن ومتاجر ووكالات واسعة ، كما يوجد بها رجال الحكومة وعمال الجمر ك بصفة دائمة لتحصيل الرسوم المستحقة على التجار . ولجمركها باب خاص بالمسافرين تفحص فيه حقائبهم ويدفعون حينئذ ١٠٪ عما فى حقائبهم ، ودوكن للمسافر العادى ، وخمسة للحاج ، مع دقة مراقبتهم (٢٠) .

التجار الوطنيين فيذكر هارف أن بها تجارا أثرياء يتاجر الفرد منهم فى حوالى ١٠٠.٠٠٠ دينار (ويصلهم من أوروبا المعادن الغفل والمسكوكة بما لا تقل قيمته عن ٣٠٠.٠٠٠ دوك سنويا فى مقابل ما يحمله الأجانب من سلع الشرق) .

Harff, Ibid, p. 109-111 & 114 + R.I.

(حدث الصراع الذى يذكره هارف كان بين السلطان محمد بن قايتباى ، ومنافسيه على الحكم بعد وفاة أبيه السلطان الأشرف قايتباى ١٤٩٦/١٤٩٧) أما العملة المسكوكة والغفل التى يذكرها هارف فقد وصلت مع سفن البندقية عام ١٤٩٨ . Heyd, Op. Cit. p. 440.

ومن علماء الرحالة المعاصرين كذلك Thenaud الذى زار القاهرة عام ١٥١٢ مع السفير الفرنسى أندريه لوروى بعد أن زارا الاسكندرية انظر Thenaud, Voyage D'Outre Mer, pp. 48-51. & J.I. p. 50.

ويذكر أن بالقاهرة أسواقا متخصصة ، فهذا سوق المطارين ، وهذا سوق النحاسين ، وخلافه . وبالأسواق وكالات لبيع السجاد والذهب والفضة والحريير والأحجار الكريمة . ولكل طائفة وكالة ، كما للأجانب من التجار وكالات منها : وكالات الأتراك ، واليمنيين ، والفرس ، والمغاربة ، والهنود . وبالقاهرة تجار أثرياء لا يقل ما بيدهم عن مليونى قطعة ذهبية وإيرادات السلطان من أملاكه فى مصر والشام لا تقل عن تسعة ملايين قطعة .

ومن زاروا القاهرة كذلك أواخر القرن ١٥ م وبايغا وكوفلهام Paiva & Covilham مبعوثا ملك البرتغال الى القس يوحنا للاتصال به فى الحبشة أو الهند حيث كان يظن أنه يحكم وقد وصفا القاهرة والطريق من الاسكندرية اليها وهو لايزيد على خمسة أيام بالنيل ، وهى مدينة كبيرة ، تيهز الميون ، ومزدحمة فخطارات الأبل لا تنتهى ، وتموج بالمديد من الأجانب .

Sonia, Op. Cit. p. 99.

Clerget, Op. Cit. pp. 169, 170.

Clerget, Ibid; pp. 169, 170.

(٢٠)

أما الاسكندرية فيحكم موقعها على البحر المتوسط فانها كانت تفوق القاهرة في اتصالها بأوروبا مباشرة ، والمدينة تزدهم طول العام بالأجانب الوافدين اليها للتجارة أو للعبور للحج للأماكن المقدسة في سيناء وفلسطين ، ولدول أوروبا والبحر المتوسط بالمدينة قناصل وسفراء ووكالات وأحياء كاملة وفنادق يمارسون فيها حياتهم الخاصة في حرية . وكان السلاطين المماليك قد سمحوا للحجاج العابرين بدخول الفنادق منذ أواخر القرن ١٤ م بعد دفع رسم سنوى للسلطان . ومن أشهر الفنادق التى كانت تقوم بهذا النوع من الخدمات فندق مدينة نابون وفندق البنادقة وفندق القطلونيين (٢١) . وشهدت المدينة أروع أيامها فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر وخاصة بعد عام ١٤٥٣ حتى ان إيرادات الحكومة كان معظمها من جمرك الاسكندرية التى كانت تتراوح يوميا فى فترات « المدة التجارية » ما بين « ألف وألفى دينار » عدا رسوم السفن والسياح والحجاج (٢٢) . والمدينة لا تقل اتساعا وأهمية عن أكبر مدن العالم التجارية مثل البندقية وجنوة ومرسيليا ولشبونة وكلكتا وزيتون بالصين وكولونيا بألمانيا ، ولها

Lewis, Op. Cit. pp. 98-100.

Thenaud, Op. Cit. p. 121.

Harff, Op. Cit. p. 101.

(٢١) خلفت مدينة الاسكندرية دمياط كميناء مصر الاول على البحر المتوسط منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر بعد أن هدم المماليك جزءا من الميناء وردموا فم بحر دمياط حتى يامنوا أى غزو أوروبى منه ، لذا لم يعد فى استطاعة السفن الاوربية الكبيرة الوصول اليها ، وأصبحت ترسو بالبحر قريبا من مصب فرع دمياط وتستخدم القوارب السيلية بينها وبين الميناء .

القلقشندى : صبح الاعشى ج ٢ ص ٤٠٤ .

انظر ملحق الخرائط .

سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية .

Ziada, Op. Cit. p. 292.

(٢٢) فييت : مصر الاسلامية (المواصلات) ص ٣٩ .

Depping, Op. Cit. T. II. p. 307.

Heyd, Op. Cit. T. II. p. 125.

عدة أبواب يفتح أحدها الى الميناء حيث يوجد به مرسى البرج للسفن
الوافدة من أوروبا ومرسى السلسلة للسفن الوافدة من شمال افريقية
وتقل فيه رسوم الجمارك عن المرسى الأول (٢٣) . وإلى الشرق من
ميناء الاسكندرية يقع ميناء أبو قير عند بحيرة باسم « رأس المعدية »
ويتصل الميناء بالنيل بقناة تصل للبحيرة . ويبعد الميناء حوالى ثلاثة
أميال جرمانية عن الاسكندرية « ثمانية أميال » ، وهو مرفأ للسفن
السورية الواردة للاسكندرية وتدخله السفن الصغيرة أما الكبيرة
فتصل به من البحر بالقوارب (٢٤) .

ومن هذه الموانئ أيضا ميناء رشيد النيلى وتحرم السلطات
الماليكية دخوله من البحر المتوسط لصفته الحرية ، ونقلت نشاطه
التجارى الى ميناء بلدة فوة جنوبه وهى تتصل بالاسكندرية بقناة
ملاحية ظلت تعمل حتى أواخر القرن الخامس عشر (٢٥) .

Harff, Op. Cit. pp. 93-95 & R.I. p. 93.

(٢٣)

Depping, Op. Cit. I. pp. 62-63.

Leo Africanus, The History And Description Of Africa, Vol. III. pp. 861-862.

(٢٤) عن ميناء أبو قير يذكره المؤرخين أواخر العصور الوسطى باسم :

(Campus De Bucher = Aboqir)

Thenaud, Op. Cit. p. 28. R. 2.

Etienne, Combe, Alex. Musuimane, pp. 49-50.

(٢٥) عن ميناء رشيد

Harff, Op. Cit. p. XXIII.

Heyd, Op. Cit. II. pp. 437-438-439.

بالملاحق رقم (٢٧) مرسوم سلطاني لجماعة الفلورنسيين ولتجارهم بمنحهم إعفاءات

وامتيازات فى موانئه ما عدا ميناء رشيد .

Combe, Op. Cit. pp. 50-51-52-53.

راجع كذلك الملاحق رقم (٢٨) ثم

Heyd, Op. Cit. II. pp. 428-435.

سياهى : المصدر السابق ١٤٣ أ

ابن أيوب : المصدر السابق ص ١١٧

وانظر كذلك خريطة مصورة عن الاسكندرية من كتاب :

Atia, The Crusades, Op. Cit. face to page 352.

بين الاسكندرية ورشيد حوالى ٣٦ ميلا : انظر

شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية (مترجم) ص ٥٨/٥٩

Lewis, Op. Cit. pp. 92-93.

ومن جنوبى رشيد تخرج قناة تصل الى ميناء البرلس بين رشيد ودمياط ، وهو مفتوح طول العام ، وله مداخلان الشمالى للسفن المسيحية، والغربى للسفن الاسلامية من المغرب . وتتبع الموانىء نائب الاسكندرية الذى يحصل مندوبوه رسوم الدخول وشحن وتفريغ السلع . وقد ذكرت البرلس فى وثائق البندقية وفلورنسا من العصور الوسطى وان كانت لا تظهر على الخرائط ، وكان بها قنصلية للبندقية وفندق لمواطنيهم (٢٦) .

ميناء دمياط :

ومن أشهر موانىء مصر كذلك ميناء دمياط النهرى البحرى، وهو مخرج تجارة مصر لمدن وموانىء الساحل الشرقى للبحر المتوسط وكريت وتركيا وقبرص - كما يتصل بالقوافل البرية الى موانىء البحر الأحمر، ولا تدخل السفن ميناء دمياط مباشرة بسبب شدة التيار من النيل، وكذلك لردم جزء من فم البحر عندها . انما يخرج من دمياط قناة الى بحيرة المنزلة حيث تدخل اليها السفن الكبيرة من البحر المتوسط حتى تنيس على بعد سبعين ميلا من البحر المتوسط ومثلها من قناة دمياط وهى فى الواقع مركز تبادل السلع الواردة الى دمياط والصادرة منها . وبالمدينة عدد كبير من الأجانب من اغريق وبنادقة وجنوبيين وفلورنسيين وبها قنصلية خاصة بفرسان القديس يوحنا فى رودس ، وظلت هذه القنصلية قائمة حتى الغزو العثمانى لمصر ١٥١٧ م ويقال ان الأسلحة كانت تصل للماليك عن طريق قنصلية الفرسان بالمدينة ،

Depping, Op. Cit. I. p. 74.

Heyd, Op. Cit. II pp. 440-448.

Gioli, Lionelle, Histoire Economique, pp. 196-107.

عن قوة

Thenaud, Op. Cit. p. 29. N. 2, pp. 32-33, No. 5.

Harff, Op. Cit. pp. 97-100.

Heyd, Op. Cit. I. pp. 100 & II. pp. 438-439.

(٢٦) انظر ملحق الخرائط .

Heyd, Ibid, II. pp. 428-429.

ولكن ابن اياس المعاصر للأحداث يكذب هذه الواقعة (٢٧) .

الطرق الداخلية :

واتصال التجار بالهند والصين عن طريق مصر كان يتم بوسيلتين: فهناك طريق القاهرة/ القلزم ثم السويس والطور ومنها الى البحر الأحمر ، والآخر طريق بولاق/ القاهرة بالنيل جنوبا الى قوص ، ومنها شرقا الى عيذاب على البحر الأحمر ، وهذا الطريق بطل استعماله منذ أوائل القرن الخامس عشر تقريبا لطوله وكثرة تكاليفه وصعوبة التفاهم مع أهل الصعيد أحيانا ، وان كانت موانيه مفتوحة طول العام وأقل خطورة من الطريق الأول ، وفضل التجار عنه طريق القاهرة. القلزم .

ومنذ القرن الخامس عشر وهذا الطريق هو طريق التجارة الرئيسى. وزادت أهميته بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ واهتمت به وبموانيه السلطات المالية (٢٨) .

Depping ; Op. Cit. I. p. 64.

(٢٧)

Lewis, Op. Cit. p. 92.

Thenaud, Op. Cit. pp. 121, 122- N. 2 p. 121.

- ابن أيوب : المصدر السابق ص ١١٧٧
- الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٣٥
- ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٥ ص ٨١
- يوسف نقولا : دمياط ص ١٩٧ - ٢٠٠
- ابن اياس : نشق الأزهار : مخطوطة ورقة ٣٧ ب
- ابن اياس : بدائع الزهور فى وقايح الدهور ج ٣ ص ٩٢ أخبار سنة ٩٢٢ هـ (بولاق)

- عن قنصليات الغلوتسيين فى دمياط راجع الملحق رقم ٢٧ - ٢٨
- لاحظ أن دمياط كميناء فقدت أهميتها البحرية منذ أواخر القرن ١٣ م وانتقل مركز النقل والأهمية الى ميناء الاسكندرية واتخذت اجراءات معينة فى الميناء لمنع أى غزو بحرى.
- لمصر من فرع دمياط . انظر قبله ملاحظة ٢١ وكذلك :
- سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٠
- وحتى أواخر العصور الوسطى ظل الاتصال بها عن طريق القوارب النيلية وعن طريق قناة تصل الى بحيرة المنزلة .
- (٢٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥٢ ملاحظة عن القلزم والسويس.
- وطريق البحر الاحمر التجارى طبعة دار الكتب

وكانت السويس قد حلت محل القلزم منذ القرن ١٢ م ، وتصلها سفن التجارة الصغيرة من ميناء جدة وعدن محملة بالتوابل والعطور والعقاقير والأحجار الكريمة والعنبر والمسك ، ثم تحمل على ظهور الجمال عبر الصحراء الى القاهرة ، ثم بالنيل الى الاسكندرية . على أن هذا الميناء التجارى لم يلبث أن هجر وأصبح ميناء مصر الحربى على البحر الأحمر وبُنيت به ترسانات السفن الحربية والتجارية القاصدة الى المياه الشرقية ، ومنه قام أسطول مصر الحربى فى مطلع القرن السادس عشر الى الهند (٢٩) . ولما صارت السويس مرفأ مصر الحربى على البحر الأحمر استقر رأى السلطات المالية على أن يحل ميناء الطور محلها فى التجارة . والواقع أن كثيرا من التجار كانوا يطرقون هذا الميناء متجنبين موانئ الساحل الغربى للبحر الأحمر بسبب ما به من شعاب مرجانية وصخور تتحطم عليها السفن، لذا لم يكن الميناء جديدا يوم تقرر جعله ميناء مصر التجارى على البحر الأحمر ، بل صار بمرور الزمن ميناء التجار المفضل . وميناء الطور يقع جنوب غربى شبه جزيرة سيناء بين فرعى بحر القلزم وعليه أمير مملوكى من القاهرة وتحيط به عدة قرى وهو بالقرب من جبل فاران (فيران) ، وأطلق عليه الأجانب خطأ اسم رايتو التى يسميها العرب الراية وهى غير الطور وبالميناء مخازن ضخمة وجمرك خاص بواردات الهند واتبع به نفس النظام الذى كان لميناء السويس فسفن الهند لا تصله انما

(٢٩) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٢٨ .

سياهى : المصدر السابق ورقة ٢١٩ ١ .

يذكر (بربوزا) أن تجارة السويس فى بداية القرن ١٦ م دمرت وهجرت المدينة نفسها ولكن ناشر كتاب بربوزا يذكر فى الملاحظة (١) ص ٤٣ أن تجارة مصر فى البحر الأحمر التى كانت تنتهى عند السويس لم تدمر نهائيا وأن هجر المدينة كان مؤقتا .
Darnes, Op. Cit. I. pp. 42-45 & R.I. p. 43.

راجع كذلك : ثينود : حيث يقول : انه خلال زيارته لها عام ١٥١٢ كانت قاحلة وليس بها سوى بعض الاعراب بجمالهم وبعض المسيحيين من اليعاقبة .
Thenaud, Op. Cit. p. 63 & N.I.

ابن اياس : نشق الازهار ورقة ٨٨ .

تفرغ حمولتها في عدن وفيما بعد في جدة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ثم تنقل السلع الى الطور بالقوارب ومنها بالقوافل للقاهرة ، وتصل سفن التجارة الهندية الى جدة مرتين في العام ، وفي كل مرة ينشط العمل في ميناء الطور (٣٠) . وعلاوة على أهمية الميناء التجارية فهو المحط الرئيسي للحجاج المسيحيين الوافدين لمصر من دير سانت كاترين ، والحجاج المسلمين الذاهبين لمكة والمدينة . ويهتم الحجاج المسيحيون خاصة بمواعيد وصول سفن التجارة الى الطور ، لأن البندقية توقت (مدة) سفنها التجارية ، للاسكندرية مع مواعيد هذه السفن مع حساب فرق الوقت والتوزيع من الطور للقاهرة ثم الاسكندرية ، فيستطيع الحجاج المسيحيون القاصدون أوروبا اللحاق بقوافل التجارة الى القاهرة والرحيل الى أوروبا على سفن البندقية المنتظرة المتاجر بالاسكندرية . وسفن البندقية لا ترتبط بمواعيد سفن الحج الى مكة والمدينة بسبب اختلاف مواعيد الحج على مدار السنين (٣١) . ووثائق البندقية أواخر العصور الوسطى تؤيد ذلك . وتحدد الفترة من ٨ - ٢٣ سبتمبر من كل عام موعدا لرحيل سفنها للاسكندرية وتكون على استعداد للعودة محملة بالتوابل في منتصف أكتوبر أو بداية شهر نوفمبر على أكثر تقدير قبل حلول فصل الشتاء ، كما أن لها رحلة أخرى في مارس لتصل الى الاسكندرية وتغادرها في أبريل . وعلى هذا فان وصول التوابل للطور كان في أوائل سبتمبر

(٣٠) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٨ ص ١٥٢ .

سيامي : المصدر السابق ورقة ٢١٩ ١ .

ابن أيوب : المصدر السابق ص ١٠٧ .

انظر ملحق الخرايط . وراجع كذلك :

Heyd, Op. Cit. pp. 440-443 ff.

Harff, Op. Cit. T. II. pp. 136, 137-149, 150-154.

Thenaud, Op. Cit. pp. 157, 158.

Heyd, Op. Cit. pp. 446, 447.

Harff, Op. Cit. p. 154.

Darnes, Op. Cit. T. I. p. 45.

من كل عام . وتصلها كذلك سفن الهند فى أوائل مارس بعد خروجها من موانئ الهند فى فبراير من كل عام .

وظلت الطور على هذا النحو من الأهمية والازدهار حتى نهاية العصور الوسطى حين انتشر الأسطول البرتغالى فى مياه الهند وسد مدخل البحر الأحمر ، بالاستيلاء على جزيرة سقطرى وبدأت الطور تنهار فى نهاية السنوات الأولى من القرن السادس عشر . وفى عام ١٥١٧ أصبحت قرية صغيرة مهجورة وقلت القوافل الوافدة إليها برا وبحرا (٣٣) .

ميناء عدن :

وإذا كانت القلزم والسويس والطور هى مدخل البحر الأحمر من طرفه الشمالى فإن عدن مدخله الجنوبى واعتبرت من أكبر محطات تبادل المتاجر والسلع بين الشرق ومصر (طريق البحر الأحمر) وظلت لفترة طويلة لايتعداها تجار الصين والهند الى البحر الأحمر ، بل تنقل

(٣٢) يوضح فيليكس فابري فى رحلته من بيت المقدس الى سانت كاترين بسيناء ثم الى القاهرة بالقوافل والاسكندرية بالنيل ، أن سفن الهند تفرغ حمولتها وتحملها قوارب صغيرة الى الطور ثم تنقل الى القاهرة بالقوافل والاسكندرية بالنيل ، ولهذه السفن مواعيد معينة فهى تتبع فى سيرها الرياح الموسمية فى المحيط الهندى وتتبع فى بعض السنوات مواعيد موسم الحج الى مكة والمدينة . وعلى هذا تنظم البندقية وجاليات التجار الأجانب مواعيد مدة تجارتهم حسب ذلك . كما يرتب حجاج سيناء رحيلهم من الطور الى القاهرة فى مواعيد تحرك القوافل بعد وصول السفن لاماكان مصاحبته للاسكندرية وضمان العودة لأوروبا على سفن البندقية . . ولدى وصولنا الى الطور سألنا دورية الحراس المالكية عن مواعيد وصول سفن التوابل الهندية الى الطور حتى نستطيع مصاحبة القوافل للقاهرة للحاق بسفن البندقية وفهمنا من القائد أن سفن الهند وصلت منذ أيام ومضت القوافل للقاهرة وانزعجنا لهذا الخبر لأن معناه أننا سنفقد مواعيد المدة ونمضى الشتاء بالاسكندرية فآخذنا نحث القائد للاسراع لتلحق بالسفن فى الوقت المناسب .

Fabri, Op. Cit. T. II. pp. 642, 643.

Heyd, Op. Cit. pp. 447, 448.

راجع كذلك : ابن اياس : نشق الازهار ورقة ٦٨ .

شاهد الرحالة ثينود السويس على النحو المذكور خلال رحلته عام ١٥١٢ .

Thenaud, Op. Cit. pp. 80-82.

سلبهم على سفن ممالىكية الى جدة ثم الى القلزم والسويس والطور ..
وفى عدن تتجمع متاجر الشرق والغرب للتبادل فتنتقل الأولى الى مصر
فأوروبا - وتنقل الثانية الى الهند فالصين . وترسو بعدن علاوة على
سفن الصين والهند سفن الحبشة والخليج الفارسي وشرق افريقية
وتعقد أسواقها ليلا بسبب شدة الحرارة ، وتجار عدن يسافرون الى
الشام ومصر وأثيوبيا والهند والصومال ، ومدن وموانئ الخليج
الفارسي ، ويتوافر في أسواقها الحديد والنحاس والزئبق والمرجان
والملابس الصوفية والقطنية والحريية والعقاقير والتوابل والسكر والأرز
وجوز الهند واللبان والجاوى وخشب السند وعود اللند والراوند والمسك،
ويسكنها عدد كبير من العرب واليهود والزنوج ، ويخضعون للملكها
العربي الذي يحصل على مبالغ ضخمة من رسوم الجمارك . ولتجار
مصر الكارمية بعدن مركز ممتاز ولهم مؤسسات ومصارف مالية
وتجارية (٣٣) . على أن ملوك اليمن التابعة لهم عدن كانوا يظهرون
التعسف مع سفن التجار أحيانا فلم يكتفوا بما يفرضونه من ضرائب
عالية ، بل استعملوا معهم القسوة ، وصار من التقاليد المرعية عند
وصول إحدى السفن الى عدن أن يصعد اليها عمال الميناء وينزعوا
قلاعها ودفتها ومرساتها حتى لا يمكنوها من الابحار قبل أن تدفع
الأموال والضرائب المستحقة . أما التجار أنفسهم فكانوا يفتشون
تفتيشا دقيقا قبل نزولهم الميناء وكذلك وجدت عجوز تفتش النساء ...
فاذا أتم التاجر انزال بضاعته ودفع ما عليه من ضرائب وباعها وتأهب
للعودة طاف مناد في طرقات عدن معلنا أن التاجر الفلاني ، يغادر الميناء.

(٣٣) سياهي : المصدر السابق ص ١٩١ .

ابن أيوب : المصدر السابق ص ٩٣ .

منز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

Darnes, Op. Cit. pp. 53-54-55 (56-57 & R. 2, 4. p. 56 ; R. 5. p. 56.

Varthema, Op. Cit. pp. 65-66 & R.I. p. 65-66-67.

Heyd, Op. Cit. II. p. 444.

Depping, Op. Cti. I. p. 47.

فمن له عليه دين أو مال فليطالبه به ، وإذا لم يظهر للتاجر دائن يسمح له بالرحيل (٣٤) .

ومنذ ازدهار طريق البحر الأحمر التجارى فى القرن الخامس عشر ، وخاصة بعد عام ١٤٥٣ ، وسياسة الدولة المماليكية قائمة على تحطيم المركز التجارى لعدن وإحلال جدة محله . لذلك حذروا السفن التجارية من الرسو فى عدن وحرموا على تجار مصر والشام دخول الميناء . كما خفضوا الرسوم الجمركية فى موانئ جدة وينبع وفرضوا رسوما عالية على السفن التى يثبت أنها تمر بعدن أو ترسو بها ، فالضريبة على السلع الواردة من الشرق لجدة رأسا كانت ١٠٪ ، وضعفها إذا مرت بعدن أولا ، بل انهم كانوا يصادرونها أحيانا ، ولدى عودة الحجاج اليمنيين من مكة يدفعون ضرائب عالية فى بلادهم على ما يحملونه من الحجاز وموانئه الى اليمن وعدن (٣٥) . وكانت تستخدم من عدن أحيانا الطرق البرية عبر بلاد العرب المارة بمكة والمدينة ، ومعظم ذلك كان فى مواسم الحج ، وهى تتصل بسيناء وموانئ الشام (٣٦) .

وحتى نهاية العصور الوسطى ظلت مكة مركزا هاما من مراكز تجارة الشرق والواردة بطريق البر من عدن ومن الشام . ومنفذها الى البحر ميناء جدة . والطريق البرى المار بها مأمون ، تحرسه الدوريات لوقوع معظمه فى نطاق سلطنة المماليك (٣٧) . وتنقل على هذا الطريق السلع الخفيفة ، أما السلع الثقيلة فتأخذ الطريق البحرى الى جدة

(٣٤) أبو محمد عبد الله باخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ٥٨ ، ٦٧ - ٦٨ .

سميد عاشور : العصر الممالكي فى مصر والشام ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

Lane Poole, Hist. Of Egypt In The Middle Ages, p. 340. (٣٥)

Depping, Op. Cit. I. p. 51. (٣٦)

انظر ملحق الخرائط .

(٣٧) راجع ما كتبه الرحالة فيليكس فابرى فى هذا الموضوع ص ١٠١ ملاحظة (١٥)

من هذا الفصل .

فالطور (٣٨) . ويصل اليها علاوة على سلع الهند سلع من أثيوبيا، وشرق افريقية وبلاد الزنج كما تصلها سلع أوروبا من مصر ودمشق .. ويصل مكة في مواسم وصول سفن الهند الى عدن مالا يقل عن ٨٠٠٠٠٠ جمل وتوقت وصولها في معظم السنوات في مواسم الحج وتستمر الى دمشق وتعود بسلع الشام والغرب الأوربي الى عدن لتتنقل بدورها الى الهند وتستغرق الرحلة حوالي ٥٠ يوما (٣٩) .

وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر كانت مكة ومينائها جده نهاية سفن الهند والصين الى البحر الأحمر ، ولعبت هي وجده دورا هاما في تحول التجارة من عدن ، مما أدى الى ازدهار تجارة الممالك بصورة رائعة (٤٠) . ومن اجراءاتهم في ذلك فرض رسوم عالية على السفن التي تمر بميناء عدن قبل وصولها الى جدة وخفضها بالنسبة للسفن القاصدة جدة رأسا ونفذوا هذا الحظر والضرائب بكل دقة ، وبمرور الوقت أصبحت جدة المستودع العظيم لتاجر الهند ، وكان هذا مبعث سرور ورضى السلطات المالكية . وحاول أمراء اليمن من آل طاهر الرسولين تعويق مرور السفن الداخلية الى البحر الأحمر، فاتجه التجار الى موانئ شرق افريقية ومنها الى جدة بعيدا عن طريق عدن ، وصدر قرار من السلطات المالكية بجعل الرسوم ١٠٪ فقط مهما كانت جنسية السفينة . ومنذ ذلك الوقت وميناء جدة حتى نهاية القرن الخامس عشر المركز الرئيسي للحجاج والتجار الشرقيين (٤١) . أما التجار الأجانب فممنوعون من دخول ميناء جدة سواء أكانوا غربيين.

Heyd, Op. Cit. II ; p. 446.

(٣٨)

Varthema, Op. Cit. p. 44.

(٣٩)

Thenaud, Op. Cit. p. 37.

Ziada, Op. Cit. p. 225.

(٤٠)

Dopp, Op. Cit. pp. 41-42. Fol. 28 & p. 50, p. 52 Fol. 30.

(٤١)

Ziada, Op. Cit. pp. 222, 225.

Heyd, Op. Cit. II ; pp. 445-446.

أم شرقيين الا باذن خاص من السلطان نفسه (٤٢) . وعند وصول السفن الى جدة تفرغ حمولتها لتقدير رسوم الجمارك عليها ثم تنقل على سفن صغيرة الى ميناء الطور ومنها برا الى دمشق أو الى القاهرة (٤٣) . ويصل الميناء كل عام حوالى ١٠٠ مركب منها مراكب بسبعة أشعة وتؤخذ منها الموجبات والرسوم وتحمل لصاحب مكة ولا تقل سنويا عن ٢٠٠٠٠٠ دينار وحاكمها أواخر القرن الخامس عشر شقيق بركات شريف مكة ونائب السلطان بها (٤٤) .

ميناء ينبع :

ومن الموانئ الأخرى التى أسهمت فى تجارة البحر الأحمر فى هذه الفترة المتأخرة من العصور الوسطى ، ميناء ينبع (ينبع) وهو « ميناء كبير كثير العمائر والأسواق وله بندر ترد اليه السفن بالغالل كل سنة وتقدر قيمة تجارته كل عام بحوالى ٣٠٠٠٠٠ دينار ، وله أمير يتبع السلطان » (٤٥) .

(٤٢) حصل هارف على تصريح شخصى من السلطان محمد بن قايتباى .

(٤٣) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٢٦ - ابن أيوب : المصدر السابق ص ٩٣

سياحى : المصدر السابق ورقة ١١٠ ب .

Depping, Op. Cit. I. p. 51.

(٤٤) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٣ و ١٤ .

ابن اياس : نشق الأزهار ورقة ٨٣ .

« نيسبت لدينا احصائيات دقيقة عن نظام الضرائب التى فرضها السلاطين المماليك بعد برسباى حتى نهاية دولتهم عام ١٥١٧ أكثر مما كان معلوما من عهده الا أنه كان السقوط القسطنطينية ١٤٥٣ أثره فى تشديد المماليك فى تحصيل الضرائب والرسوم الجمركية على السلع فى موانئ الاستيراد بالبحر الأحمر كما احتكروا أنواعا معينة من السلع وأقصوا عنها الكارمية ورفعوا أسعارها واحتج البنادقة لياقة عن التجار الأجانب وهددوا بالامتناع عن الشراء مما أدى الى اضطراب السلطان الى تعديل قيود التجارة وتخفيض أسعار التوابل الشريفة وكذلك تخفيض الضريبة .

Depping, Op. Cit. T. II. p. 50.

Heyd, Op. Cit. T.I. pp. 380, 381 & T. II. p. 444.

Lane poole, A Hist. Of Egypt In The Middle Ages p. 340.

Varthema, Op. Cit. p. 39.

Darnes, Op. Cit. pp. 46, 47.

(٤٥) ابن اياس : نشق الأزهار ورقة ٨٦ .

وازاء تركز التجارة فى البحر الأحمر بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ فقد خصصت السلطات الممالىكية ميناء أيلة لمرور السلع القاصدة الى الشام واقتصر ميناء الطور على سلع القاهرة ، وأيلة على الطرف الشرقى للبحر الأحمر فى مقابلة القلزم، ورغم صغرهما - كمدينة وميناء - فانها خدمت التجارة فترة طويلة، ويسكنها تجار كثيرون وجمركها يتبع السلطان فى مصر . كما يوجد بها قباض المكوس ، وتبعد عن الطور يوما وليلة (٤٦) .

ومن هذه الموانئ التى أسهمت أيضا فى تجارة البحر الأحمر ميناء زبيد الذى اختص بتجارة العبور « المناولات أو الترازيت » فيجتمع فيه التجار من الحبشة والحجاز والعراق ومصر ، للمتاجرة والمبادلة (٤٧) .

أما موانئ مصوع وسواكن فتختص بنقل تجارة الحبشة والنوبة وتصلها بحرا سفن الحبشة وبراقوافل النوبة محملة بالرقيق والشمع والعسل وتصل متاجرها لمصر بطريق البحر الأحمر لسهولة (٤٨) . وقد ورد ذكر ميناء سواكن فى فترات الصراع بين مينائى عدن وجدة ، فكانت سوء معاملة آل رسول باليمن سببا فى توجه سفن التجارة الى جدة لتجد معاملة أخرى سيئة فتوجهت السفن الى ميناء سواكن وجزر « دهلك » ، غير أن المعاملة التى لقيها التجار هنا لم تكن خيرا مما لاقوه فى عدن وجدة ، فتوجهت السفن الى ميناء ينبع (٤٩) .

(٤٦) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٣٩ .

سياهى : المصدر السابق ص ٧٨ .

ابن أيوب : المصدر السابق ص ٨٧ .

ابن اياس : نشق الأزهار ورقة ٨٧ . وانظر ملحق الخرائط .

(٤٧) ابن اياس : المصدر السابق ورقة ٧٧ .

Depping, Op. Cit. T. II. p. 52.

(٤٨)

(٤٩) انظر ملحق الخرائط .

وتمر سفن التجارة الداخلية للبحر الأحمر كذلك بمينائي بربرة وزيلع ، وكلاهما مركز تجمع تجارة الحبشة والنوبة . وفي زيلع تعقد أسواق العبيد والمعادن ، واللؤلؤ وزارها القائد البرتغالي سواريز عام ١٥١٤ ثم استولى البرتغاليون عليها ودمروها عام ١٥١٨ (٥٠) . ويتردد على ميناء بربرة القريب من زيلع فى مواسم التجارة مالا يقل عن ١٠ - ١٥ ألف شخص ، ومعظمهم يتاجرون فى سلع الهند والصين والحبشة والنوبة من عاج وقطن وتوابل وأنسجة وشمع وهى تتبع حاكم الحبشة ودخلها البرتغاليون كذلك عام ١٥١٨ (٥١) .

ويخدم التجارة الداخلية والخارجية فى مصر مجموعة من الطرق الملاحية النهرية والبرية من أسوان الى دمياط ورشيد والاسكندرية ، ومن قوص وقنا وما يقابلهما من موانئ عيذاب والقصير على البحر الأحمر. فأسوان كانت أهم أبواب مصر الجنوبية بالنسبة لتجارة النوبة وعن طريقها شهدت مصر نشاطا تجاريا كبيرا وخاصة فى عصر المماليك مع بلدان السودان الغربى وافريقية الوسطى وعرف تجار تلك الجهات باسم الكارم أو الكارمية نسبة الى مملكة « كانم » كما عرف بعض طوائفهم باسم التكرور نسبة الى مملكة التكرور (٥٢) وهم يجلبون الى دولة المماليك التوابل والبهار والبخور والعبيد مما يتهافت الأوربيون للحصول عليه ، وامتد نشاطهم كذلك الى الهند والصين حتى أصبح اسم الكارمية يطلق على كل من يعمل فى البهار والفلفل ، كما اتخذ عدد كبير منهم مدينة قوص مركزا لنشاطهم التجارى الواسع

Varthema, Op. Cit. T. III. pp. 95, 96,

(٥٠)

Darnes, Op. Cit. T.I. p. 35.

Varthema, Op. Cit. T. III. pp. 95-99.

(٥١)

(٥٢) من المرجح أن تكون تسمية ميناء مصر فى بولاق على النيل باسم بولاق التكرور

نسبة الى تجار التكرور الذين كانت ترد بضائعهم من قوص عن طريق النيل الى ساحل

بولاق . انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩٠ ملاحظة (٤) .

سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩١ .

وغدت المدينة سوقا واسعة لتجارة افريقية الوسطى واليمن والحبشة والهند، وكونوا بها نقابة خاصة بهم هيمنت على تجارة التوابل والبخور والعاج واحتكروها حتى انتزعها منهم المماليك قبيل منتصف القرن الخامس عشر وكان لنقابتهم رئيس ومعتز به من قبل حكومة المماليك أطلق عليه اسم رئيس الكارمية . ولثرائهم كان بعض سلاطين المماليك يقترضون منهم الأموال كلما اضطرتهم الظروف الى ذلك (٥٣). أما الميناء الثانى (قوص) فاتجهت منه القوافل شرقا فى الصحراء الى ميناء القصير وميناء عيذاب ، وتستغرق الرحلة الى القصير من ١٧ الى ٢٠ يوما وتصلها بحرا سفن التجارة من الحبشة واليمن وبلاد العرب والهند وزنبار وأسواقها واسعة وتجارها من مصر واليمن والهند والحبشة المغرب وعدن والسودان، وهى على ثلاثة أيام بالقوافل (٥٤). أما عيذاب على البحر الأحمر فظلت فترة طويلة من العصور الوسطى مركز تجمع الحجاج وتجار الشرق وبلغ الحبشة واليمن التى تصلها بحرا ، وبها وال من قبل البجاء وآخر من قبل صاحب مصر ويقتسمان الرسوم الجمركية . وهم يتعاملون بالدرهم ولا يعرفون الوزن . وظلت عيذاب عامرة بما يصدر اليها حتى القرن الرابع عشر حين كثرت بها عصابات قطاع الطرق فقلت قيمتها وشهرتها ، وان ظلت حتى عهد ابن اياس ميناء بحريا عاديا (٥٥) . وتبع انهيار عيذاب انهيار

(٥٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٣٢ و ١٣٣ .

سعيد عاشور : العصر المالىكى ص ٢٩١ .

(٥٤) ابن ايووب : المصدر السابق ص ١١١ .

المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

ابن اياس : نشق الأزهار - ورقة ٢٣ .

سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ص ٢٠٨ .

Kammerer, Le Mer Rouge, T. I. pp. 72-80.

Depping, Op. Cit. T.I. p. 71.

Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 424-426.

(٥٥) ابن اياس : نشق الأزهار ورقة ٢٦ - ٢٧ .

- المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

- ابن الاثير الجزرى : تحفة المجايب (مخطوطة) ورقة ٢٥٧ .

الموانئ المقابلة على النيل وصادف ذلك ازدهار طريق البحر الأحمر منذ القرن الخامس عشر وموانئه فى جدة وينبع وعدن والطور ، « وهجرت عيذاب لتندثر فى القرن العاشر الهجرى ويتلاشى طريقها التجارى ويتحول عنها التجار والحجاج » (٥٦) .

ومنذ نجاح البرتغاليين فى الوصول للهند بحرا بطريق رأس الرجاء الصالح وطريق البحر الأحمر التجارى يفقد مركزه تدريجيا ، كما بدأت تنهار الموانئ عليه من مدخله الجنوبى فى عدن الى طرفه الشمالى فى السويس والطور ، وكذلك موانئه فى جدة وينبع والساحل الغربى . وقد فهم البرتغاليون أنه استقرارهم فى الهند وازدهار تجارتهم لن يتم الا بالقضاء على تجارة العرب ومصر ، وصدرت منذ عام ١٥٠٢ تعليمات للقائد البرتغالى « دى جاما » بسد المدخل الجنوبى للبحر الأحمر عند عدن - مما عرض السفن العربية فى هذه المنطقة لهجمات الأسطول البرتغالى بكثرة . وفى عام ١٥٠٦ استولى البرتغاليون على سقطرى فتحكموا بذلك فى طريق البحر الأحمر وشرق افريقية . وبعد وقعتى شول ١٥٠٨ وديو ١٥٠٩ وتحكم البرتغاليين فى هذا

-
- ١ - سيامى : المصدر السابق ورقة ١٩١ ١ .
 - المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٦ .
 - القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨ .
 - متز : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .
 - ابن أيوب : المصدر السابق ص ١٢١ .
 - ابن اياس : المصدر السابق ورقة ٢٧ (٩٣٣هـ / ١٥١٧ م) وضعها فى هذا العام .
 - على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٥٦ .
 - أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٦٩ (الملاحظات) طبعة دار الكتب) .
 - سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ص ٢٠٨ .
 Ency. Of Islam, Art. : Aidab.
 Heyd, Op. Cit. T. II. p. 443.
 Clerget, Op. Cit. p. 195.
 Depping, Op. Cit. p. I. pp. : 52, 53, 54.
 Depp, Op. Cit., p. 52 FOL. 30 & pp. 41, 42. & Fol 28 & p. 50. (٥٦)
 Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 445, 446-467-480.
 Ziada, Op. Cit. pp. 222-225.

الطريق يزداد ، بل ان السفن البرتغالية بدأت فعلا تدخل البحر الأحمر عام ١٥١١ بعد أن قرر البرتغاليون السيطرة الكاملة على كل مراكز البهار وطرقها من ملقا في الطرف الجنوبي الشرقي لآسيا حتى هرمز على رأس الخليج العربي وعدن عند مدخل البحر الأحمر وجدة على ساحله الشرقي . وكان معنى ذلك سد كل منافذ التجارة على السفن المالكية ، وبدأت هذه المراكز فعلا تفقد أهميتها التجارية ، بل ان البرتغاليين تقدموا في البحر الأحمر وهاجموا سواكن واستولوا على جزيرة كمران ١٥١٣ م ، في محاولة منهم للوصول الى جدة والأماكن الاسلامية في مكة والمدينة (٥٧) . وقد أدى هذا كله الى اضطراب الأحوال السياسية والتجارية بين مصر وجمهوريات إيطاليا ، وصادف ذلك ازدياد تهجم القراصنة على سفن التجارة المالكية في البحر المتوسط شرقيه وغريه وبخاصة بعد سقوط آخر معاقل العرب في اسبانيا عام ١٤٩٢ م ، فقرر الغوري سلطان مصر اذ ذاك اعادة فرض سيطرته على مياه الهند وطرق التجارة البحرية اليه ، فأرسل عام ١٥١٤ م / ٩٢٠ هـ أسطولا على رأسه الأمير حسين كردى قائد حملة شول ١٥٠٨ م وديو ١٥٠٩ وضم اليه عسكريا من الترك والمغاربة ، وأقطعه جدة فبنى حولها سورا ضخما وأبحر في العالم التالى في طريقه الى الهند . ولما لمس البرتغاليون قوة الأسطول المالكي انسحبوا من مياه البحر الأحمر وعدن وتبعهم الأمير حسين الى الهند حيث اجتمع بسلطان جوجيرات ، غير أنه لم يستطع ازالة الهزيمة بهم وبعث فى طلب العون من مصر . فقامت حملة من السويس بقيادة « الرئيس

(٥٧) حاول القائد البرتغالى البوكرك دخول البحر الاحمر عام ١٥١٣ والاستيلاء على مكة والمدينة وجدة كاجراء مقابل لوجود الأماكن المسيحية فى أيدي المسلمين وللقضاء على تجارة البحر الاحمر التى تركزت فى جدة - وقد فشل لجهله بالملاحة فى هذا البحر . وحاول كذلك الاتصال بملك الحبشة المسيحي الذى كان يظن أنه « القس يوحنا » الشخصية الخيالية ليحثه على تحويل مجرى نهر النيل من فرعه النيل الأزرق الى البحر الأحمر لتجويد مصر واخضاعها . انظر : شارل ديل : الهندية جمهورية ص ١٤٨/١٤٩ .

سلمان العثماني» . وعلى الرغم من ذلك لم توفق هذه القوة البحرية الضخمة في الحصول على نصر حاسم على البرتغاليين الذين كالت قد توطدت أقدامهم في الهند ، وان كانت الحملة قد نجحت في الحصول على نصر مؤقت بإبعاد خطرهم عن البحر الأحمر وفي العودة استولى على عدن وأشرف على احتلالها سلمان العثماني ، وتولاها الأمير برسباي الحاكم الجركسي - وأخيرا عاد القائدان الى جدة ومعهما بعض الأسرى من البرتغاليين ، ولكن كان قد تقرر مصير الدولة المالكية عقب هزيمة مرج دابق ١٥١٦ ثم الريدانية ١٥١٧ - وضاع طريق البحر الأحمر التجارى نهائيا (٥٨) .

وعلى ساحل شرق البحر المتوسط تنتهى الطرق البرية التجارية الآتية من الشرق الأقصى ومن الخليج الفارسي ومن البحر الأحمر في الفرع الممتد من أيلة عبر سيناء والشام وكذلك الفرع القادم جنوبا من آسيا الصغرى والفرع القادم من أوروبا برا ثم الطريق البحري الرئيسي من غرب أوروبا وإيطاليا (٥٩) . وقد اعتاد الأوروبيون منذ الحروب الصليبية الحصول على غالبية طلباتهم التجارية من السلع الشرقية من مدن وموانئ الشام وكثر ورودهم في القرن الخامس عشر وخاصة في نصفه الثاني بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ واضطراب الأسواق

(٥٨) ترقب على الصراع بين المصريين والبرتغاليين في المياه الهندية ضعف الاتصال التجارى بين شواطئ الهند وميناء عدن وموانئ البحر الأحمر على ساحليه الشرق والغرب . كما أدى بدوره الى تحويل تجارة الفرنج من أسواق مصر والشام الى أسواق لشبونة . وذكر ابن اياس المعاصر لهذه الاحداث ان الازمة اشتدت بمصر وأدى هذا الى وخراب بندر الاسكندرية وبندر جدة وبندر دمياط من تعنت الفرنج مع التجار في بحر الهند . ولم تدخل بضائع بندر جدة نحو من ست سنين ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ حوادث المحرم ٩٢٠ هـ وحوادث شعبان ٩٢٢ هـ ٢٠٧ و ٢٠٨ - ٣٣٢ و ٣٥٩ و ٣٨١ ٣٨٣ - ٤٣٥ ر ٤٣٦ - ٤٥٨ و ٤٦١ ثم ج ٥ من ١٩٩ دراج : المصدر السابق ص ١٥٦ - ١٥٧ .
انظر ملحق الخرائط .

والطرق التجارية فى منطقة نفوذ السلطنة العثمانية بآسيا الصغرى
وشرق أوروبا .

واستقر بمدن الشام وموانئها فى دمشق وحلب وبيروت وطرابلس
وصور صيدا وبيت المقدس ويافا وعكا ، عدد كبير من تجار الهندية
جنوا وفلورنسا وبرشلونة وفرنسا ، وبعض مواطنى شمال أوروبا
المرافقين للبنادقة والجنويين ، ووكلاء الشركات الأجنبية الأوروبية التى
لها فروع فى الشرق ، كما كان لهذه الدول والجمهوريات والمدن سفراء
وقناصل سياسيين وتجاريين . ولهذه الصلة التجارية الوثيقة بين أوروبا
والشام ، سادت المنطقة معظم الأنظمة التجارية الموجودة فى الغرب
الأوروبى ، بالإضافة الى الأنظمة المحلية التى كانت سائدة فى ظل قوانين
السلطنة المماليكية الحاكمة . واقبال الأجانب على الشام بهذه الصورة ،
يرجع الى اتصال الشام اتصالا وثيقا ومباشرا بأسواق الشرق ووسط
آسيا ، وكذلك لأن مدنها وموانئها مهبط الحجاج المسيحيين الغربيين
الى بيت المقدس ، ولأن الأوروبيين استقروا بها ، مدة طويلة خلال
الحروب الصليبية (١٠) ومواسم الحج الإسلامية والمسيحية من بين
المواسم التى كان يتم فيها التبادل التجارى فى الشام بين الغرب
والشرق ، بالإضافة الى مواعيد وصول القوافل التجارية من فارس
وسلطانية والهند ووسط آسيا الصغرى والبلغار والبحر
الأحمر ، لذا فاقت أسواقها أسواق مصر فى تنوع السلع التى ترد
إليها (١١) . وحتى نهاية العصور الوسطى كانت دمشق من أهم مدن
ومراكز التجارة بسوريا ، وكانت فى المرتبة الثانية بعد القاهرة وإن
كانت تعتبر أحيانا الثالثة بعد الإسكندرية ، وخاصة منذ عام ١٤٥٣ ،
وهى مركز نائب السلطنة أو كافل السلطنة (١٢) . كما أنها أيضا مركز

Depping, Op. Cit. pp. 81-83.

(١٠)

Heyd, Op. Cit. II ; p. 457.

(١١)

Varthema Op. Cit. p. II. N. 2 & pp. 12-15.

(١٢)

الشام الاقتصادي ومستودع تجارة وسط آسيا الى أوروبا ويتردد عليها في مواسم التجارة حوالي ١٥٠٠٠٠ جمل محملة بالسلع الشرقية لتعود بالسلع الغربية والمحلية ومنها الزجاج والكريستال والأنسجة والعطور والأسلحة والفواكه . وهي أيضا مركز قناصل الدول الأجنبية وبها عدد من الفنادق لسكنى التجار الأجانب شرقيين وغربيين ومخازن لتاجرهم (٦٣) . وتتصل دمشق بالبحر المتوسط بطريق ميناء بيروت الذي يبعد عنها مسيرة يومين ، ومياه هذا الميناء هادئة لذا تلجأ إليها السفن في معظم أوقات السنة ، ويزورها التجار الأجانب وإن كان بعضهم يستقر بها بصفة دائمة من بينهم جاليات من المماليك والشراسة والبنادقة والجنوئين والقطالونيين والأرمن والجورجيين ، ولهم بها فنادق وقياسر ووكالات وكنائس ونواب قناصل . ووكالة البندقية من أظهر هذه الوكالات حتى القرن السادس عشر كما أنه لهم بها ولكل التجار الأجانب وكلاء مصرفيين وفروع لمصارفهم وشركاتهم في أوروبا حيث تسود نفس الأنظمة التي تسود الأصول في بلادهم (٦٤) .

وجمرك بيروت من أغنى جمارك سوريا وأحفلها وتمر به السلع التي تصل الى دمشق من البحر المتوسط أو التي تخرج منها الى أوروبا، كما أنه السوق الطبيعية لمنتجات دمشق المحلية (٦٥) . ومنذ سيطرة

(٦٣) فندق البندقية من أشهر فنادقها ونزل به حارف أثناء وجوده في دمشق .
Heyd, Op. Cit. II ; p. 458.
Depping, Op. Cit. I. pp. 99-100.
Verthema, Op. Cit. p. 20.
Harff, Op. Cit. pp. 230 — & R. 2.
Ziada, Op. Cit. pp. 219-220.

دمشق وصفها حارف خلال زيارته ١٤٩٧/١٤٩٨ .

(٦٤) بيروت : وصفها حارف خلال زيارته ١٤٩٩/١٤٩٨ م .
Varthema, Op. Cit. p. 8 & N. II. p. 8.
Ziada, Op. Cit. p. 220.
Depping, Op. Cit. I. pp. 97-99.
Thenaud, Op. Cit. p. 110.
Harff, Op. Cit. pp. 232-233.

(٦٥) كرد علي : خطط الشام ج ٤ ص ٢٦٨ .
Depping, Op. Cit. I. pp. 97-99.

الممالك على قبرص وميناء بيروت مقصد تجار البحر المتوسط عامة ،
 وازدهم الميناء بالتجار الأجانب بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ (٦٦) .
 ونظمت الجاليات الأجنبية خطوطا ملاحية الى بيروت وبخاصة البندقية
 التي صممت سفنها لتتحمل رحلة الجزء الشرقى من البحر المتوسط
 وتياراته ، فتبدأ الرحلة الأولى فى الفترة من ٨ - ٢٥ أغسطس من كل
 عام - أما الرحلة الثانية فتكون فى الفترة من ٥ أبريل - ١٥ مايو .
 وفى شهر يونيو يصل لميناء بيروت سفن معينة لحمل القطن ويصل الى
 مصر سفن الجمهوريات الايطالية التى تتعامل مع الاسكندرية فى فصل
 الخريف وتخرج فى فترة تسويق التجار متاجرهم على ميناء بيروت
 وطرابلس ، وترك مكانا لسلع مصر بها (٦٧) .

ميناء حلب :

ومن أهم المراكز التجارية فى شمال الشام ميناء حلب التى ظلت
 حتى نهاية العصور الوسطى على علاقات تجارية مع آسيا وأوربا .
 وتقع حلب على عشرين فرسخا من الفرات وتتصل بالبحر المتوسط
 بطريق سهل ، وبالعراق ووسط آسيا وآسيا الصغرى بالقوافل (٦٨) .
 وتبدو أهمية حلب لدى السلطات المماليكية فى وقوعها عند المدخل
 الشمالى للدولة المماليكية بين الشام وتركيا ، وفى تجمع تجارة فارس
 وآسيا وآسيا الصغرى بها ، حتى انه يتوفر بأسواقها مالا يتوفر بأسواق
 القاهرة ، لذا كانت من أكثر مدن وموانئ الشام مقصدا للتجار

(٦٦) لما بدأت بحرية جنوة فى الانهيار منذ النصف الثانى من القرن ١٥ م قلت
 رحلاتها الى الشام واكتفت بالوصول الى فاما جوستا ، وكانت قد سيطرت عليها وحاولت
 جعلها مركز تجارة ساحل البحر المتوسط ولكنها فشلت .

Heyd, Op. Cit. II ; p. 461.

Varthema, Op. Cit. p. 8. N. 2.

(٦٧) عرفت سفن بيروت باسم Galee Di Baruti

وسفن دمشق باسم Navii Di Siria

Heyd, Op. Cit. II ; pp. 460-461.

Depping, Op. Cit. I ; p. 101-102.

Varthema, Op. Cit. pp. 9, 10.

الأجانب الذين يصلون إليها من طرابلس مينائها على البحر المتوسط .
ويصلها سنويا ما بين ٦٠٠٠ و ٨٠٠٠ جمل بالطرق البرية محملة بمختلف
السلع (٦٩) . ومنذ عام ١٤٥٣ والمدينة تزدهر حتى بلغ عدد جمال
القوافل التي تصلها سنويا نحو ١٥ ألف جمل بالطرق البرية بالإضافة
الى الجاليات الأوربية ، وكثرة ما بالمدينة من أجانب أصبح وجودهم
أمرا مألوفا ، فهم اما مواطنون عاديون ، واما تجار دائمون ، واما تجار
موسميون ، واما وكلاء شركات ومصارف أو نواب دبلوماسيون
أو رجال دين ، كما كانت تموج المدينة بتجار الشرق من الكرج والهند
وفارس وكلهم يتاجرون بالنقد والمقايضة . والبنادقة هنا من أشهر وأهم
الجاليات ، وحصيلة ما يدفعونه لجمارك حلب يفوق كل ما يدفعه
الأجانب مجتمعين وزاد تركزهم بالمدينة بعد سقوط القسطنطينية
١٤٥٣ (٧٠) . وظلت المدينة على هذه الحال حتى قام الصراع المسلح بين
العثمانيين و امبراطورية طرايزون بآسيا الصغرى ثم بينهم وبين
التركمانيين ، ثم بينهم وبين الصفويين ، فأغلقت مرة أخرى الطرق الشمالية
من آسيا الصغرى ووسط آسيا الى المدينة . ولما بدأت المناوشات بين
العثمانيين والمماليك اقتصر وصول المتاجر اليها برا من أيلة على البحر
الأحمر ثم بالصحراء حتى أفقدها الطريق البحري الى الهند حول
افريقيا الكثير من مكائنها التجارية (٧١) .

(٦٩) راجع ما كتب عن تحصيل الضرائب في موانئ بيروت لصالح حاكم دمشق وفي
طرابلس لصالح حاكم حلب في الفصل الثاني Depping, Op. Cit. I. p. 103.
(٧٠) زار حلب أواخر العصور الوسطى عديد من الرحالة الأجانب منهم
Chiatl & Vartherma عام ١٤٨٣ ونوهوا باتساع المدينة وازدهارها بالتجار وامتلاء
حوائيتها ووكالاتها بالسلع المحلية من المنسوجات والزجاج والسجاجيد والمجوهرات والأواني
الذهبية والشمع والمسك والتوابل والمصنوعات الحديدية . راجع - كرد على المصدر السابق
ج ٤ ص ٢٦٧ .
Depping, Op. Cit., I. p. 63.
Hayd, Op. Cit. II ; p. 59.
(٧١) محمد كرد على : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦٨ .
كانت هذه الطرق البرية من وسط آسيا قد أغلقت خلال غزوات المغول لغرب آسيا .
Heyd, Ibid, II ; p. 459-460.
انظر قبله ملاحظة (٢) .

ميناء طرابلس :

ويأتى ميناء طرابلس فى المرتبة الثانية بعد بيروت بالنسبة لتجارة الشام الخارجية والداخلية . وهو مخرج تجارة منطقة حلب ، وحتى نهاية العصور الوسطى وهو صلة التجار الأجانب من آسيا وأوروبا ، والوطنيين من حمص وحلب ودمشق وحماه وبعبك ، وعلى طول شوارع الميناء تنتظم مخازن وحوانيت التجار التى تمتلىء بالسلع الشامية والسلع المستوردة . وبالميناء نائب للسلطان ، وقناصل للدول الأجنبية ، ووكلاء ومندوبو الشركات الأجنبية ، ومصارف وفروع مؤسسات أوروبا التجارية ، وفنادق وقياسر . ويستوعب الميناء عددا كبيرا من السفن المختلفة الأحجام . وازدادت أهمية الميناء فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر وبخاصة بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ثم بعد سد الطرق البرية الشمالية ، وأصبح منفذ التجارة الى حلب للبحر المتوسط لتصدير السلع الواردة من البحر الأحمر طريق أيلة ، بعكس ما حدث لميناء اللاذقية الذى قلت أهميته وتركز النشاط فى طرابلس (٧٢) .

وعلى طول الساحل الجنوبى للشام الى مصر تنتشر المدن والموانئ العديدة . ولكل ميناء أهمية نوعيه فمنها ما يرد اليه تجار القطن ومنها ما يرد اليه الحجاج من أوروبا الى بيت المقدس . ومن أبرز موانئ هذا الجزء من الشام صور وصيدا وعكا ويافا وللجاليات الأجنبية فى صور وصيدا مساكن وفنادق ووكالات تجارية ومخازن وظل ازدهارها متألقا فترة طويلة من النصف الثانى من القرن الخامس عشر واقتصر التعامل فيها على تصدير القطن والحج (٧٣) . وفى عكا أقامت البندقية وكالة

(٧٢) ابن حوقل : المصدر السابق ص ١٠٨ .

ابن أيوب : المصدر السابق ص ٢٤٣ .

Depping, Op. Cit. I. pp. 99-100.
Heyd, Op. Cit. II ; p. 460.

(٧٣) ابن أيوب : المصدر السابق ص ٢٤٣ .

Depping, Op. Cit. I : p. 96.

ونائب قنصل يختص بتشوين القطن وتصله سفن البندقية في فترة « المدة » وكذلك سفن الفترة المعروفة باسم « فائض المدة » بصورة منتظمة لنقله الى أوربا (٧٤) . وظلت يافا طوال العصور الوسطى المتأخرة وفترة من عصر النهضة ميناء لمدينة القدس وينزل بها الحجاج المسيحيون في طريقهم لبيت المقدس وللجاليات الأجنبية بها أماكن محددة لا يتعدونها ، فللجنوبيين مثلاً حي خاص آل لفرنسا منذ أصبحت السلطة في جنوة للفرنسيين ، ولم يعد رعاياها يتمتعون بامتيازات الدولة الأكثر رعاية وأصبحوا مجرد حجاج أو زوار يدفعون الرسوم المطلوبة مثل غيرهم على الحج والتجارة وقد اهتمت السلطات المالية حتى نهاية دولتهم بزيادة الحجاج المسيحيين للأراضي المقدسة في فلسطين لأسباب سياسية واقتصادية . وموضع الأهمية هنا هو ماتجيه الدولة من رسوم جمارك وحج وكذلك انتعاش التعامل التجاري في هذه الفترة القصيرة في مدن يافا والرملة وبيت المقدس حيث تباع السلع الشرقية المستوردة، والسلع المصنوعة محلياً من الأنسجة والعطور والحلويات ، حتى ان أماكن التجار تظل تفوح منها رائحة العطور والبخور فترة طويلة . ولهذه الأسباب حذرت البندقية السلطان الغوري عن طريق سفيرها تالدي عام ١٥٠٤ من منع الحج للأراضي المسيحية في فلسطين كتهديد منه للبابوية وملوك أوربا اذا لم يوقف البرتغاليون تعرضهم لتجارة السلطان الشرقية في الهند ، ومما قاله السفير للسلطان : « ان هذا سيحرم بلادك من رسوم ضخمة ، ويفقدك عطف الدول الأوروبية المسيحية ، بل سيثيرها عليك ، ولن يمنع البرتغاليين من هدفهم » (٧٥) ولميناء يافا علاوة على ذلك سمعة طيبة تجارية ،

Heyd, Ibid, II. p. 465.

(٧٤)

Depping, Op. Cit. I. p. 96. II. p. 310.

(٧٥) ساد ميناء يافا نفس الأنظمة التي اتبعت في كل موانئ ومدن السلطان المالكي باستثناء واحد وهو قصر مدة بقاء سفن الحجاج المسيحيين يوماً واحداً انتظاراً لعودة الحجاج من بيت المقدس ، وهذا ينطبق على حجاج بيت المقدس فقط ولا ينطبق على الحجاج =

فتتجمع به تجارة الداخل من نابلس وغزة ورام الله والرملة وبيت المقدس (٧٦) . وفي أواخر القرن الخامس عشر بدأ الميناء يفقد مركزه التجارى فقط ، وتحولت عنه التجارة الى بيروت والاسكندرية بقصد التركيز ، وذلك على عهد السلطان الغورى بعد سيطرة البرتغاليين على مياه الهند وتجارها (٧٧) . ولدى الفتح العثمانى للشام ١٥١٦ كانت يافا مجرد قرية مهملة (٧٨) .

= المتوجهين بعد ذلك الى سيناء لزيارة دير سانت كاترين فهؤلاء يعودون عن طريق مصر ، وللزيارة ترتيبات معينة فلدى وصول السفن المقلّة للحجاج الى الميناء تطلب أولا اذنا من السلطان بدخول الميناء والا اطلقت عليها المدفعية ، ويرسل قائد السفينة لحاكم الميناء يطلب الاذن للوصول الى بيت المقدس ولا بد أن يؤيد هذا الطلب رئيس دير جبل صهيون ومتى وصلت الموافقة يصحبهم نائب الحاكم مع بعض الادلة وفرسان الماليك الى المدينة المقدسة . ويصحب هذا أيضا بعض اجراءات تفتيش على الامتعة والتحقق من الشخصية وتقرر دخولهم للمدينة المقدسة على اقامة الشعائر الدينية ، ويدفع كل حاج دوكين نظير الاقامة والضريبة وفى بيت المقدس ٧٪ دوكات ويسجل اسمه ثم ١٢٪ دوكا ضريبة رأس ويسمح لهم بالتجارة فيما يحملونه أو يشترونه من سلع العرب ويقومون فى بيت المقدس يوما وليلة يؤدون فيها الشعائر الدينية ويزورون الأماكن المقدسة ويعودون ثانيا يوم الى يافا أو الى دير سانت كاترين ، وهؤلاء يرحلون ثالث يوم من بيت المقدس .

انظر الفصل الثانى ثم الملحق رقم (٧) عن بعثة تالدى للغورى والمعاهدة .
Fabri, Op. Cit. Vol. VII. Part, II. pp. 213-226.
Ziada, Op. Cit. pp. 293-296.

(٧٦) تذكر مراجع العصور الوسطى المتأخرة طريقا آخر من يافا الى بيت المقدس مارا بمدينة الرملة وتمر بمدينة الرملة تجارة البندقية مرتين فى العام وتحمل سفنها المتاجر والحجاج ، فى حين أن سفن الحجاج الخاصة لا تحمل معها متاجر . ولكن البندقية فى النصف الثانى من القرن ١٥ م خالفت هذه القاعدة وحملت المتاجر على سفن الحجاج لدى عودتهم من بيت المقدس ومن بين هذه السلع المتاجر الشرقية والمحلية والمنسوجات والزجاج . وللبنادقة فى الرملة قنصل وهم لا يطرقون يافا الا فى حالات نقل الحجاج المسيحيين القادمين من الرملة وبيت المقدس ثم فى الحاجة الى خيوط الغزل القطنية التى تشتهر بها هذه المنطقة بالرغم من مغالة الأهالى فى أسعارها تشدد السلطات فى الجمارك والأصل فى وجود القنصل هنا هو تسهيل أمور الحج للمسيحيين الى بيت المقدس وأضيف اليهم بعد ذلك رعاية تجارة مواطنيهم . ويدفع الحاج رسوما للحج ورسوما للجمر عن تجارته اذا كان يحمل متاجرا ورسوما للقنصل ويؤجر دليلا للطريق .

Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 466, 467.
Fabri, Op. Cit., Vol. I. Part. II. pp. 266-269.

(٧٧) ركز السلطان الغورى تجارة الشرق فى الاسكندرية وبيروت بعد أن قلت وارداته من التجارة الشرقية منذ وصول البرتغاليين الى الهند . راجع الفصل الثانى .
Depping, Op. Cit. T.I. pp. 88, 89. (٧٨)

أما الطريق البرى من دمشق للقاهرة فيسير بحذاء الساحل حتى غزة ، وبها تجارة على جانب كبير من الرواج ومعظم تجارها هنا من الوطنيين ولا يتردد الأجانب عليها الا قليلا ، واذا نزلوا فهي عندهم استراحة فى طريقهم لمصر وقد أصاب مدن الشام بصفة عامة ضرر بالغ بعد أن شق البرتغاليون طريقهم البحرى للهند فتحوّلت عنها تجارة الشرق من الصين والهند بحرا ، كما بطل عمل القوافل البرية التى كانت تروح وتغدوا بين الشرقين الأدنى والأقصى وقل بها عدد الأجانب من التجار المستقرين والمارين وانحصرت التجارة الداخلية فى نطاق ضيق وأصبحت لا تتعدى حد الاستهلاك (٧٩) .

الطريق الثالث :

أما الطريق الثالث الرئيسى : فهو طريق برى من وسط آسيا ومن الهند عبر جبالها وممراتها الى نهر الأمليل ويتقابل مع القوافل الوافدة من الصين ، ثم يسيران معا حتى بخارى حيث يتفرع فرعان الأول: الى بحر قزوين فنهر الفلجا وبلاد البلغار . والثانى: يتجه الى البحر الأسود وموانيه، ثم القسطنطينية وأوربا وتخرج منه فروع جانبية الى حلب وساحل البحر المتوسط ، وآخر الى بغداد وديار بكر، والثالث : غير مطروق ويعبر أرمينا وآسيا الصغرى برا الى القسطنطينية . وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر تعددت مرات اغلاق هذا الطريق ووقفت حركة التجارة فى مدنه وموانيه بسبب اشتداد الصراع بين العثمانيين والتركمان والجيوب الرومانية على البحر الأسود ، ثم الصفويين والماليك . كما تأثرت فروعه بهذه العمليات الحربية التى اشتدت بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م (٨٠) .

(٧٩) كرد على المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦٨ .

(٨٠) انظر ملحق الخرائط وراجع كذلك

Clive, A Hist. Of Commerce, pp. 85, 86.

Eleen Power, Travel & Travellers, pp. 136, 137.

وبالرغم من سيطرة القوات التركية على هذا الطريق قبل سقوط القسطنطينية فإن التجارة لم تتوقف فيه ، بل وصلت قوافل الصين والهند حاملة معها التوابل والأنسجة والأحجار الكريمة من الهند والصين ، كما وصلت عليه الأنسجة المطرزة والسجاد من فارس وشيراز وأصفهان وكردستان وما بين النهرين، والجلود والفراء والحنطة وسمك الكافيار والعبيد من بلاد البلغار عن طريق نهر الفلجا لتقابل مع السلع الواردة من الشرق الأقصى وتوجد طريقها الى آسيا الصغرى ثم الى البحر المتوسط أو القسطنطينية وأوروبا . والقادة في هذه التجارة هم البنادقة والجنويون ثم الفلورنسيون وآخر نقط وصولهم شرقا هي مصب نهر الفلجا عند تقابل طرق الشرق والوسط والشمال ويتولون هم بعد ذلك نقلها للقسطنطينية أو موانئ الشام (٨١) .

وإذا كنا بصدد الحديث عن التجارة عبر هذا الطريق من آسيا الى آسيا الصغرى فإن موقف الأتراك العثمانيين هنا هو حجر الزاوية فيما آل اليه منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر . فهذه الطرق لم تعد منذ ذلك الوقت تصلح للاستخدام بعد أن ظلت فترة طويلة مسرحا لحروب مدمرة بين الأتراك العثمانيين والغرب المسيحي ، ولم يعد بإمكان السفن التجارية دخول المضائق والبحر الأسود بنفس الحرية التي كانت لها أيام البيزنطيين ، وواجهت التجارة صعوبات جمة من تفتيش دقيق وقيود شديدة ورسوم عالية ونهب أحيانا . وتدخلت السياسة في تنظيم الاقتصاد ، فصادر العثمانيون السفن الحربية عدة مرات لصالح الحرب ولما تعددت الاعتداءات، وكثرت الشكاوى، ضج التجار وجأروا بالشكوى لحكوماتهم ووجدت هذه الحكومة أن خير ما تنصح به تجارها ورعاياها هو التوجه الى الساحل الشرقي والجنوبي

Pernaud, Op. Cit. T. II. pp. 65, 56.
Gayet, Op. Cit. T. II. p. 315.

للبحر المتوسط فى مصر والشام . لذا شهد النصف الثانى من القرن الخامس عشر حركة تجارية جديدة ، فبعد أن كانت السفن يتجه معظمها الى الشمال والشمال الشرقى حولت وجهتها الى الشرق والجنوب الشرقى للبحر المتوسط (٨٢) . وبعد فتح القسطنطينية وصلت التجارة لبلاد السلطان العثمانى بطريق الشرق وبطريق الغرب برا وبحرا . وفى عودة التجار الأوربيين كانوا يحملون معهم السلع الشرقية . ولما كان البيزنطيون من قبلهم هم سادة المنطقة انحصرت سياستهم الاقتصادية فى أنهم اذا أمكنهم السيطرة بأنفسهم على التجارة واحتكارها فانهم يقومون بذلك وعلى نطاق واسع والا تركوها للتجار الغربيين مع منحهم جميع التسهيلات لمباشرة نشاطهم التجارى — أما الأتراك العثمانيون كما يقول « هايد » : « فكانوا يتصرفون على غير ذلك ، فعلاوة على أن روح المتاجرة لم تجر فى عروقهم ولم تشغل أفكارهم ، فان الرغبة الجامحة فى الفتح والحرب سيطرت على كل جهودهم وبخاصة الجمهوريات الايطالية التجارية لثرائها وقوتها البحرية لمساعدتهم للبيزنطيين خلال الصراع على القسطنطينية ، فلم يلق العثمانيون بالا لما يجره عملهم هذا على التجارة وطرقها ، بل كانوا فى عنفهم يدمرون الأسواق ويخضعون لسيطرتهم مراكز الجاليات التجارية ومن بها من تجار وتجارة ، وفر الكثيرون الى وطنهم مكتفين من الغنيمة بالاياب » ، والواقع أن مؤرخى الفترة الأخيرة من العصور الوسطى ومنهم « هايد » يتهمون السلطات العثمانية بالتأخر وفقدان روح الحضارة ويلقون مسئولية غلق هذا الطريق فترات طويلة على عاتق العثمانيين . والحقيقة أن العثمانيين فى فترة تكون دولتهم نحوا التجارة جانبا ، لا اهمالا منهم ، ولا لأنهم رعاة آسيويين ، ولكن لأن تأمين امبراطوريتهم أهم فى هذه الظروف من المتاجرة ، وأهم من فتح

أبواب بلادهم للأجانب وهم على عدااء معهم وبخاصة أن الجيوش العثمانية تعبت كثيرا في شرق أوروبا ووسطها ، كما أن هذه السلطات كانت تعلم أن قواد الجمهوريات الايطالية - التي اشتركت في الحرب ضدها - قائم على التجارة وانها مصدر خطر حربي على الامبراطورية الجديدة (٨٣) . وليس أدل على ذلك من أن التجارة ظلت مستمرة في آسيا الصغرى في الأماكن التي غزاها العثمانيون قبل سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ ، كما أنه بمجرد انهيار الامبراطورية البيزنطية واستقرار الأمور للعثمانيين في القسطنطينية وفي البلقان استؤنفت حركة التجارة بين الشرق والغرب على هذا الطريق ، وتقدم البنادقة والجنويون والفلورنسيون وغيرهم من تجار راجوزا وسين والألمان بطلبات استئناف التجارة في ظل السيد الجديد ، وعقدوا اتفاقيات تجارية أكدت سابق امتيازاتهم ، وإن كانت الضرائب قد زادت أحيانا ودفعوا تأمينات لهم في الجمارك (٨٤) . إلا أن العثمانيين تشددوا في الجمارك وتفتيش السفن وبخاصة في فترة الحروب : كما حدث في الصراع الحربي بينهم وبين الياوية على عهد البابا كالكتس ١٤٥٧ وجرت اليها البندقية في صراع استمر حتى عام ١٤٧٩ أغلقت فيه المضائق في وجه سفنها وجرى تفتيش دقيق للسفن المحتجزة في البحر الأسود كما أغلق الطريق البري من وسط آسيا ، وهذا اجراء تطلبت

(٨٣) الملاحظ أن بعض المؤرخين مثل هايد يتعامل كثيرا على العثمانيين علما بأنه أشاد بموقفهم عند الكلام على تجارة القرن ١٥ م مع قفالونيا وفلورنسا والبندقية . انظر ملاحظة ٨٧ بعده

Heyd, Op. Cit. II. p. 349.

(٨٤) حصل الجنويون على معاهدة تجارية مع العثمانيين بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ وكانوا قد سلموا حصونهم في جلاثيا للسلطان محمد الثاني العثماني . فمنحهم الأمان وحق المتاجرة ، أما البنادقة فقد عقدوا اتفاقية مع العثمانيين لتنظيم شئون رعايا وتجارة الدولتين وتحديد الرسوم الجمركية . ملخص معاهدة البندقية والسلطان محمد الثاني العثماني بالملحق رقم (١٧) .

Cambridge Modern Hist. Vol. I. p. 278.
Heyd, Op. Cit. II ; p. 214-215. & pp. 316-317.
Depping, Op. Cit. II ; pp. 214-215-227-228 & N. p. 341.

«الضرورة الحربية كما أنه من حقوق السيادة للعثمانيين»^(٨٥) . الا أن هذا العداء مع البندقية لم يشمل باقى الجمهوريات والمدن الجمهورية، الايطالية فتمتعت فلورنسا بامتيازات رائعة فى الموانئ والجمارك العثمانية ، بل ان السلطان العثمانى استخدم بعض الفلورنسيين فى قصوره كمستشارين وتبادل الطرفان العديد من المعاهدات^(٨٦) . كما زادت بعثات عثمانية مدينة فلورنسا وتبادلت مع حاكمها الهدايا^(٨٧) .

ومن المحطات العثمانية التى خدمت التجارة على هذا الطريق مدينة أدرنة التى زخرت بالتجار البنادقة والجنوئين والفلورنسيين وعرب الشام والعراق .

وامتد النشاط كذلك الى بروسة حيث تعقد بها أسواق يبيع التوابل والسلع الشرقية عامة ومعظم روادها من تجار الشام والعراق ؛لذين يتجهون بعد التسويق الى حلب وبغداد ، بل ان أهالى ضاحية بيرابعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ وحصولهم على الأمان لهم ولتجارتهم اتجهوا الى بروسة وأدرنة للحصول على حاجتهم من السلع

(٨٥) شارل ديل : البندقية جمهورية ص ١٢٨ .

Depping, Op. Cit., T. II. pp. 228 & N. p. 341.

Heyd, Op. Cit. T. II. p. 318.

Hammer, Op. Cit. T. III. p. 240.

(٨٦) عقدت فلورنسا مع العثمانيين معاهدات تجارية عديدة منها معاهدات عام ١٤٦١

— ١٤٦٣ — ١٤٦٩ — ١٤٧٠ — ١٤٨٣ — ١٤٩٨ — ١٤٩٩ — ١٥٠٧ .

Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 339, 340-343-346.

(٨٧) يمكن أن يقال بوجه عام ان عدم اهتمام العثمانيين احيانا بالتجارة كان مبعثه أموراً سياسية واقتصادية ، فكانت البندقية وقوتها العسكرية هى المقصودة من اجراءات غلق الطرق والموانئ والمضائق ومصادرة الأموال والمتاجر . فانه بعد أن استقر الأمر للعثمانيين فى القسطنطينية وشرق أوروبا بحثوا فى فرض السيطرة على مواصلات وتجارة البندقية فى بلاد السلطان العثمانى لأن رواج تجارتها يزيد من ثرائها وتهديدها المستمر للفتوحات العثمانية ووجد العثمانيون أن السبيل الوحيد لمنع التهديد ، وللثراء التجارى هو القضاء على تجارة البندقية ومواصلاتها البرية والبحرية ثم تشجيع باقى المدن الايطالية مثل الفلورنسيين للعمل على نطاق واسع . ومعنى هذا ان الطرق لم تغلق نهائيا انما أغلقت فى وجه جاليات بعينها لدواعى الأمن . انظر ملاحظة (٨٣) وكذلك : Heyd, Op. Cit. T. II. p. 349.

الشرقية . ومعظم المتاجر الشرقية فى مدنه ومراكز آسيا الصغرى كانت فى يد العرب المستوطنين والتركمان وبعض الأجانب المغامرين من بنادقة وجنوبيين وفلورنسيين ولهم وكالات ومخازن . ومن أكثر مراكزهم ازدهاما طوروس ، وبها سوقان : أحدهما : للتحرير والمنسوجات القطنية والأحجار الكريمة ، والآخر : للقطن الخام والصابون والتوابل والسلع التى يكثر الطلب عليها فى أسواق الشرق والغرب ، كالسجاد والصوف والجلود المدبوغة والشمع وبذور الصبغة ، وبخاصة صبغة المن والقمح (٨٨) . وفى فترات الصراع الحربى - اقتصر التعامل التجارى على الفلورنسيين والعرب (٨٩) . وعلى شواطئ البحر الأسود مرت سلع هذا الطريق التجارى من الشرق الأقصى وسيطر على تجارته فى هذا الجزء الايطاليون بصفة عامة برا وبحرا ، وتعاملوا مع قبائل القوقاز ووسط وشمال آسيا وارتكزت تجارتهم على قواعد ثابتة من التعامل النقدى والمؤجل والمقايضة ، ومن أهم مراكزهم على البحر الأسود كافا ، وتتصل بالطريق البرى من بكين بالصين ، واتخذها الجنوبيون عاصمة لهم ولتجارتهم وتردد عليها التجار البلغار والردانيون والبولنديون والأتراك والأرمن والبنادقة والفلورنسيون أحيانا بعد عام ١٤٦١ (٩٠) . وكان الجنوبيون يعتبرون البحر الاسود بحيرة جنوبية حتى سقطت القسطنطينية عام ١٤٥٣ وسيطر العثمانيون على هذا الطريق فى جزئه الأوسط بآسيا الصغرى حتى شرق أوروبا مما جعل المراكز التجارية فى الأناضول وعلى البحر الأسود شبه معزولة ، وإن كان التجار الأجانب فيها قد نالوا حق استخدام هذا الطريق فى

Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 353.

(٨٨)

Heyd, Ibid, T. II. pp. 250, 351.

(٨٩)

Poston, Camb. Med. Hist., II ; pp. 353-354.

(٩٠)

Depping, Op. Cit., T. II. pp. 224-227.

Gayet, Op. Cit. T. II p. 314.

Pernaud, Op. Cit. pp. 69-70.

أملاك الدولة العثمانية ضمن المعاهدات والاتفاقيات التي عقدها مع السلاطين المتعاقبين ، إلا أنهم شعروا بقرب انتهاء وجودهم ، وبخاصة عندما عاد السلطان محمد الثاني العثماني الى الشرق منذ عام ١٤٦٠ لاختضاع ما بقي من جيوب تركمانية ومغولية وأوربية في شرق آسيا الصغرى . وكذلك نهاية للفترة الزاهية التي عاشها تجارهم قرونا عديدة . وسلم الجنويون أموالهم لينك سان جورج ورحلوا الى مراكزهم في مصر والشام (٩١) .

وبعد أن اكتسح السلطان محمد الثاني العثماني الامارات التركمانية استولى على المراكز الاغريقية الباقية في بوتس وهراقليا وسينوب وسمسون التي انقسمت الى قسمين : التركي وهو سمسون ، والجنوي سميسو ولجنوة في الجزء التركي قناصل وتجار (٩٢) . أما مدينة طرايزون فتتصل بطرق برية بفارس وأرمينيا ، وبها أسواق عالمية وتمد أوروبا بالسلع الشرقية ، وللجاليات الأجنبية فيها وكالات وفنادق . وتتصل بحرا وبرا بباقي موانئ البحر الأسود وبالقسطنطينية كما تتصل عن طريق ديار بكر ببغداد بالخليج الفارسي . ولدى وصول السلطان محمد الثاني للمنطقة حاول ممثلو طرايزون في أوروبا إثارة حروب أوربية ضد السلطان العثماني ، وأقاموا حلفا عسكريا من أمراء المسلمين الحاقدين على الأتراك وأمراء جورجيا المسيحيين والبابوية ، ولكن فشل الحلفاء وسقطت المدينة عام ١٤٦١ (٩٣) .

(٩١) انظر ملحق الخرائط وراجع

Gayet, Op. Cit. T. II. p. 314.
Poston, Op. Cit. T. II. p. 354.
Depping, Op. Cit. T. II. p. 221.

Depping, Ibid ; p. 222.

(٩٢)

Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 359, 360, 361.
Hammer, Op. Cit. T. III. pp. 70, 71.

(٩٤) انظر ملحق الخرائط وراجع :

Depping, Op. Cit. T. II. pp. 128, 129.
Camb. Mod. Hist. Vol. I. p. 78.

وخلال الفترة التالية لسقوط امبراطورية طرايزون ماجت المنطقة بالصراع السياسى والحربى الذى امتد من حدود فارس الى حدود سلطنه الممالك بأطراف الشام والعراق وديار بكر ، وشمل عصر سلاطين آل عثمان محمد الثانى وبايزيد الثانى وسليم الأول . ومن سلاطين مصر الممالك شمل عصر السلطان قايتباى والسلطان الغورى ومن فارس فترة طويلة من عصر انشاء اسماعيل الصفوى . وكان لامتداد القتال فى هذه المنطقة أثره البالغ فى طريق التجارة الأوسط البرى والبحرى وفروعه بين الشرق والغرب ، وليس أدل على ذلك أن الترك كثيرا ما كانوا يرسلون سفنهم الى الاسكندرية ودمياط ويبروت للحصول على حاجتهم من السلع الشرقية ، بل منح تجارهم فى الاسكندرية فندقا ومركزا دائما (٩٤) . وكان هذا الفندق من قبل لجلالية بيزا ورفض قاضى الاسكندرية منحه للفلورنسيين بعد انضمام بيزا اليهم - وقد آل الفندق للمسلمين .

الطريق الرابع :

أما الطريق الرابع فهو من الصين بحرا الى الهند ، وعندها يتحد مع الطريق الأول الى الخليج الفارسى ، والطريق الثانى الى البحر الأحمر ويخدم التجارة على هذا الطريق عدة موانئ بالصين والهند ، أبرزها خانتو (كانتون) وزيتون وكنساي بالصين . أما بالهند فعلى ساحل الملابار مدن جوجيرات وكمباى وديو وقاليقوت وجوا وكولون وشول وکانانور وسورات ثم محطات قليلة على ساحل كروماندل الشرقى فجزيرة سيلان . وقد سيطر على هذا الطريق من طرفيه دولتان تجاريتان عظيمتان ، ففى طرفه الشمالى الصين ، وبها أسرة منج الوطنية التى

(٩٤) شارل ديل : الهندية جمهورية ص ١٥٠ - ١٥١ .
Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 374-350 & 735, 736.

حكمت من عام ١٣٦٨ / ١٦٤٣ . وفى طرفه الغربى دولة سلاطين المماليك بمصر والشام من ١٢٥٠ / ١٥١٧ م وأشرف الصينيون على الطريق من عاصمتهم نانكنج ، وقد ظهرت أهمية هذا الطريق منذ أن هددت الحروب العديدة الطريق البرى من شرق ووسط آسيا والهند الى آسيا الصغرى . وكان أقصى نقطة وصلت اليها السفن الصينية هى جدة فى البحر الأحمر وقد نشطت العلاقات التجارية من الرحلات المباشرة بين شرق وغرب آسيا والتي يقوم بها الطرفان ووصلت بعثات الصين التجارية الى الساحل الجنوبى لبلاد العرب والساحل الشرقى لافريقية حتى مقديشو ، كما أن سفنهم مرت فى هذا الطريق بالخليج الفارسى ومدنه وموانيه ، وإن كانت معظم الرحلات توجه أساسا الى البحر الأحمر ومصر والشام (٩٥) .

أما التجار العرب فقد ازدادت رحلاتهم للمياه الصينية بعد غلق الطريق البرى الأوسط منذ أن ملأت الفتوحات العثمانية النصف الثانى من القرن الخامس عشر فى آسيا الصغرى ، وازداد بالتدريج عدد التجار العرب وسيطروا على تجارة جنوب شرق آسيا ، واتخذوا من خائفو قاعدة لعملياتهم التجارية وأنشأوا مواصلات منتظمة بين مراكزهم على الخليج الفارسى ومراكزهم الجديدة جنوب شرقى آسيا . وانتقل هذا النشاط بعد ذلك الى البحر الأحمر الذى اتصلوا منه مباشرة بموانئ الصين ، وتركزت التجارة الى حد كبير فى يد بعض الأسر ، وخائفو من أهم مراكز التجارة فى الصين ، وتزخر أسواقها بالحريز والمسك والعود والسروج والسمور والدارصينى والأبنوس وخشب الصندل والكافور والخيزران ومختلف أنواع الأفاوية ، وذكرها معظم مؤرخى العرب كمرفأ للسفن « ومجتمع تجارات العرب ولهم بها رجل مسلم يوليه صاحب الصين الحكم بين

(٩٥) انظر ملحق الخرائط وكذلك :

Hyzayyin, Arabia & The Far East, pp. 180, 181.

المسلمين القاصدين تلك الناحية ، وفي العيد يصلى بالمسلمين ويخطب ويدعو للسلطان » (٩٦) . وبالإضافة الى العرب فيها جالية يهودية ونصارى ومجوس . « ولدى وصول سفن البلاد العربية تدخل الميناء ، وتنقل السلع الى الجمرک وتبقى فيه مدة حيث يصير تقدير ثمنها وتحصل الحكومة على ثلاثة أعشار الثمن جمارک وضرائب ، ويستطيع الامبراطور أن يشتري ما يشاء بأثمان غالية بلا ظلم لأحد » (٩٧) . ومن أسباب احتجاز السلع حتى نهاية الموسم اتاحة الفرص للأهالي للشراء بأسعار منخفضة ، وذلك باغراق السوق بالسلع . ومن النظم كذلك قيود التفتيش فيلزم مفتش التجارة البحرية الصينى التجار بتسجيل أسمائهم وشحناتهم فى مكتبه لامكان حصر قيمة الضرائب ورسوم الشحن على سلعهم ، كما يحرم عليهم تصدير السلع النادرة أحيانا (٩٨) .

أما ميناء زيتون (٩٩) فهو من مداخل الامبراطورية البحرية ومستقبل السفن الضخمة وبه مخازن واسعة ، وجميع الأهالي هنا يعملون اما تجارا ، واما صناعا كما أن معظم السفن التى تدخل الميناء

(٩٦) ابن الوردي : فريدة العجائب ص ٤١ و ٤٢ .

ابو زيد حسن السيرافى : سلسلة التواريخ ص ١١٠ .

الجزرى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة رقم ٢٤٤ - ٢٤٥ .

ابن اياس : تشق الأزهار : (مخطوطة) ورقة رقم ١٢٨ .

سياهى : المصدر السابق ص ١٢٧ ب .

Hyazayyin, Ibid, pp. 157-158.

(٩٧) حوراني : المصدر السابق ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٩٨) راجع ملحق الخرائط وكذلك :

Hyazayyin, Op. Cit. pp. 160, 166.

Eleen Power, The Opening Of The Land Route To Cathay, pp. 148 ; Chp. VIII From «Travel & Travellers».

Gayet, Op. Cit. T. II. p. 315.

(٩٩) زيتون هي المدينة الصينية « تشوان - تشو » Chù an-Chow

ويقال انها تسوتونج Tsau - Tung من موانئ اقليم فوكن . ولا يرد اسمها الا فى

المصادر العربية المتأخرة . انظر :

حوراني : المصدر السابق ص ٣٣١ ملاحظة (٦) .

Hyazayyin, Op. Cit. pp. 178. R. 3, 197. R. 2.

أجنبية وبالأخص عربية . وبها جمر ك على جانب كبير من الاتساع والثراء ويستوعب الميناء حوالى ١٠٠ سفينة فى المرة الواحدة من السفن الكبيرة وضعفها من السفن الصغيرة ، ولزيتون اتصالات وثيقة بمدن وموانئ غرب آسيا فى مصر والشام وترسو فى مينائها سفن الصين بشكلها المعروف محملة بالتوابل وعود الند والصابر والأبنوس وخشب الصندل من الهند الصينية والمسك من التبت والحرير الخام من الصين نفسها . وفى طريقها للبحر الأحمر تمر بالهند لتحمل اللالىء والجواهر والأحجار الكريمة والفلفل والحرير والأفاوية (١٠٠) .

ومن هذه الموانئ أيضا ميناء « هانج تشو » الذى يعرفه العرب باسم كينساي أو كينسا . ويقع شمالى زيتون وهو من أعظم فرض الصين واليه ينتهى وصول تجار الغرب من العرب وغيرهم . ومع أنها ليست كبيرة إلا أنها اكتسبت شهرتها كمركز تسويق ومدخل لنهر يانج تسي ، وبها مراكز ووكالات تجارية للمسلمين مثل كانتون وزيتون (١٠١) .

على أن هذا الطريق لم يكن معظمه آمنا ، فليست صعوبة المواصلات فى بعض أجزاءه هى العقبة الوحيدة إنما انتشرت القرصنة فى بعض أجزاءه عند البحرين وقطر والساحل الايرانى فى الخليج الفارسى . وكان القراصنة يأوون فى الشعاب المختلفة بالبحر ، بل انتشروا كذلك فى مياه الهند والسند وهم المعروفون باسم « الميد

(١٠٠) سياهى : المصدر السابق ص ١٣١ ١

Eleen Power, Op. Cit. p. 136.

(١٠١) اصل هذه المدينة هو King Sec أى المدينة المركزية وعرفت كذلك

باسم Quinsay, Kinsa وتقع على عدة جزر بينها قنوات مائية ولها ١٢ بوابة و ١٢ كوبرى - ويسكنها سادة الصين وتجارها يتمتعون بجميع الحقوق المدنية والدينية والسياسية .

Hyzyyin, Op. Cit. p. 108.

Eleen Power, Op. Cit. p. 134.

والكرج » ويسكنون بلاد السند . لذا كان على السفن التي تصل الصين على هذا الطريق البحري أن تزود بما تحتاج اليه من مياه ومؤن من ميناءى صحار ومسقط على ساحل عمان ، ثم تمخر المحيط مباشرة الى كولم ملى فى جنوب مالابار لتتفادى بذلك قراصنة الميد والكرج . بل ان هؤلاء القراصنة وصل نفوذهم أحيانا الى جزيرة سقطرى واتخذوها وكرا لهم ليرصدوا السفن القادمة الى شرق افريقية والبحر الأحمر ، لذا حرص الصينيون على أن تحمل سفنهم التجارية جنودا بحريين مدربين على رمى النار اليونانية . (١٠٢) ومن هذه العقبات أيضا اختلاف هبوب الرياح فى المحيط الهندي من فصل لآخر ، ولكن الملاحين استطاعوا تذليل هذه الصعوبة بعد أن مارسوا الملاحة فترة طويلة فى هذا المحيط ووقتوا مواعيد رحيلهم وأوبتهم مع دفع الرياح الى جهة مقصدهم . وتبعاً لاختلاف هبوب الرياح فى البحار الشرقية فإن السفن القاصدة للصين كانت تدخل الخليج الفارسى قبل أن تشتد عواصفه فى شهرى سبتمبر واکتوبر . وتعبّر المحيط من مسقط الى ساحل الملايار بالهند بدفع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية وتستغرق هذه الرحلة شهرا مابين شهرى نوفمبر وديسمبر وتبقى حتى تنتهى العواصف الدوارة من خليج البنغال . ومن ساحل الملبار تسير السفن الى جزيرة « سرنديب » سيلان الياقوت ، وأحيانا تعرج على خليج البنغال بعد هدوء عواصفه ثم تسير شرقا مباشرة الى جزر نيكوبار ليتزود رجالها بالماء والميرة ويتبادلون السلع مع السكان وهم ممتطون قواربهم ، ويكون شهر يناير قد انتهى ، وانتهى كذلك هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ، وتتجه السفن الى ملقا مدفوعة بالرياح الموسمية الجنوبية ، وبحلول شهرى أبريل ومايو تكون قد وصلت الى الملايو ثم تتجه فى شهور الصيف الأولى الى سومطرة وجاوة

والهند الصينية ، وتستغرق في هذه الرحلة حوالى ستة شهور من الخليج الفارسي لتدخل في النهاية ميناء كاتون « خانفو » وبحر الصين عامة . واذا سارت السفن من مسقط الى كاتون مباشرة دون توقف استغرق سفرها حوالى ١٢٠ يوما . وبعد قضاء الصيف في بحر الصين تحمل السفن السلع الصينية لتعود مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية الى مضيق ملقا فيما بين أكتوبر وديسمبر ، وتعبر الخليج في البنغال في يناير مستعينة بدفع الرياح الموسمية الجنوبية الغربية . ثم تختتم رحلتها الى الخليج الفارسي ويكون الصيف قد حل . ورحلتنا الذهاب والاياب تستغرقان نحوا من عام ونصف عام (١٠٣) .

وفي الهند على هذا الطريق انتشرت المدن والمراكز التجارية على ساحل ملابار - الساحل الغربى للهند - وهى تحجز خلفها مساحات واسعة من الأراضى ذات المناخ المسمى والانتاج الوفير من التوابل ويزرع الأهالى الحاصلات ، بأنفسهم وتقوم الوكالات الأجنبية بتسويقها وتصديرها للخارج ، ومن هذه الوكالات وكالات الجاليات العربية الذين يكونون خمس سكان الموانئ ، ويراسلون التجار في مصر وأوربا ولهم وكلاء في الخليج الفارسي وسواحل بلاد العرب وشرق افريقية وقد ثبتوا أقدامهم في مدن وموانئ ساحل ملابار منذ أمد طويل ، واشتركوا مع الأهالى في اللغة والدين والعادات والتقاليد والعمل المشترك (١٠٤) ، وانقسمت الولايات الهندية الى مجموعة من الإمارات تنافست بعضها مع بعض في السياسة والانتاج الاقتصادى وشمل التنافس جميع فئات التجار الوطنيين ، والأجانب ، ولكل اقليم منتجاته الخاصة به التى يزداد الطلب عليها فى الأسواق العالمية تبعا

(١٠٣) حوراني : المصدر السابق ص ٢٢٠ و ٢٢١ .

(١٠٤) انظر ملحق الخرائط ثم راجع :

Depping ; Op. Cit. I. p. 39.
Darnes, Op. Cit. II. p. 75.

لجودتها وندرته ونقاؤها . والانتاج هنا يصل الى التجار مباشرة دون وساطة مما جعل أسعاره منخفضة . وميناء قاليقوت من أبرز موانئ هذا الساحل والتجار العرب هم أول من وردوا أسواق قاليقوت ويصلون منها شرقا الى الملايو والصين . واكتسبت المدينة شهرتها العالمية التي امتازت بها من تجارة التوابل والأحجار الكريمة الثمينة ، وتموج العديد من الجاليات الأجنبية من العرب، السوريين والمصريين واليمنيين والأحباش والترك والعجم والصينيين (١٠٥) . وبالإضافة الى اتاجها الوفير ، تصلها توابل وبهار الصين وجزر الهند الشرقية وسيلان ويحملها العرب الى الخليج الفارسي والبحر الأحمر ، وتعقد أسواقها السنوية في الأعياد ، ويدفع التجار لسلطات الميناء رسوما جمركية ثقل أو تزيد بحسب تغير الحكومات ، وبارتفاع رسوم الجمر ك ترتفع تبعا لذلك أسعار السلع أربعة أو خمسة أمثال ثمنها أحيانا . وعلى هذا فان الفائدة البضخمة هي التي يجنيها التجار الذين يحملون السلع الى غرب أوربا مباشرة دون وساطة (١٠٦) .

ووصف قاليقوت الرحالة المسلم ماهون في القرن الخامس عشر وكان ترجمانا لامبراطور الصين فذكر أنها « ... من أهم مراكز العالم التجارية ويرد اليها التجار من جميع أنحاء العالم ... ولدى وصول سفن الصين اليها ، يعتليها مندوبو الملك لكي يلقوا نظرة على البضائع والسلع ويثمنون حمولتها ، ويعين لكل تاجر حارس ، لحمايته ومحاسب لتنظيم حساباته وتقدير رسوم الجمارك وسمسار لتسويق ما يطلبه من سلع أو يبيعها نظرا لمعرفته ببلاده وطباع أهلها ولغتهم . وعلاوة على الحارس الخاص فإن جميع ضباط الميناء والبحرية ورجال الجمارك

(١٠٥) انظر ملحق الخرائط وذلك :

Heyd, Op. Cit. II ; pp. 497-499.
Synge, A Book Of Discovery, p. 178.

(١٠٦) هم البرتغاليون بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح .
Gamb. Med. Hist., I. pp. 25-26.

فى حراسة أمتعه وبضائع التجار الأجانب ، ويحصلون لقاء ذلك على ربع قيمة المبيعات والمشتريات ، وإذا لم تبع فلا يحصلون أى عوائد .. وإذا دفعت الرياح أى سفينة الى الميناء بطريق الخطأ أو القهر وجد ربايتها فى الميناء الأمن والسلامة بعكس الموانئ الأخرى التى تنهب وتصادر حمولة السفن المحتمية بها لصالح السلطان أو تفتك بركابها (١٠٧) . ومعظم أهالى قاليقوت بحارة مهرة وشجعان ولا يجرؤ أى قرصان مهاجمة سفينة يقودها بحار من قاليقوت هذا برغم انتشار القراصنة فى المنطقة من سقطرى الى ساحل ملابار . (١٠٨) وحوانيت العرب والفرس والصينيين هناك مشهورة ببيع الأحجار الكريمة واللؤلؤ والعطور والتوابل والبخور والحرير الصينى . ويرد للميناء سلع أوروبا عن طريق الخليج الفارسى والبحر الأحمر ، ولهذه السلع حوانيت خاصة تباع النيذ الوارد من كريت والأصواف وغيرها . أما العملة المتداولة هنا فهى قطع ذهبية مضروبة فى مصر كما يستعملون أيضا الدوكات البندقى وعملة أخرى من الفضة تزن حوالى ١٦٣ر٢٤ قمحة ، وكثر استعمالها فى أسواق الصين (١٠٩) . والميناء ، صالح لرسو السفن الكبيرة والصغيرة ويستعمل العرب هنا السفن الصغيرة والسفن الكبيرة الضخمة كالصنادل التى لا تقل حمولة كل منها عن ألف ومائتى بهار (البهار أربعة قناطير) وتربط ألواحها بعضها ببعض بخيوط من القنب والقطن . أما الهنود فيستعملون سفنا تسمى « سامبوك Sam-Buques » ويستعمل الصينيون هنا سفنهم المسماة « يونك Yonques » . وليس

(١٠٧) Mockerrji, Indian Shipping (A Hist. Of ...) pp. 196, 197, 198.

(١٠٨) عن قرصنة الميد والكيرج : تركنوا أولا فى خليج Cathiawar, Cutch

كما تجولوا فى أرجاء المحيط الهندى ودخلوا الخليج الفارسى والجزء الجنوبى من البحر الأحمر وسواحل سيلان وجزيرة سقطرى من أوكارهم . ولرد عدوانهم حملت السفن التجارية معها بحارة محاربين ممرنين على النار الاغريقية .

حورانى : المصدر السابق ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

Mockerrji, Ibid, pp. 196-197.

(١٠٩)

Depping Op. Cit. I. pp. 30-31 & ... 40.

بالسفن أسطح علوية ، وظلوا حتى وصول البرتغاليين للهند لا يستعملون الحديد فى ربط ألواح السفن بعضها ببعض (١١) .

Depping, Op. Cit. I. pp. 31-33.

(١١٠)

Varthema, Op. Cit. pp. 153, 172-177 & N.I.

Darnes, Op. Cit. II. p. 77.

حتى وصول البرتغاليين للهند ظل العرب والشرقيون عامة يستخدمون فى رحلاتهم البحرية من الصين الى الخليج الفارسى والبحر الاحمر وشرق افريقية سفنا ذات انماط واحدة فى صناعتها وان اختلفت فى اسمائها ومن أبرز خصائصها .

(١) ان ألواحها تخاط بالخيوط المصنوعة من القنب ولا تدق فيها المسامير .

(٢) طول الصارى وامتداد الشراع على طول السفينة فهيكلكم السفينة يصنع من ألواح خشب الساج وخشب جوز الهند وكلاهما متين لا يتشقق ولا يتغير شكله فى الماء، ومعظم هذه الأخشاب تأتي من الهند ولا تصنع السفن فى المنطقة من شرق البحر الاحمر الى الصين من أشجار النخيل والسرو ، وبخاصة فى الخليج الفارسى ، لأنها لا تصلح للسفن المحيطية .

• حوراني : المصدر السابق ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

وتثبت ألواح الهيكل بعضها الى بعض أفقيا بخيوط من الليف ثم توضع لها ضلوع لتقاوم أمواج المحيط الصاخبة . والألواح الجانبية متلاصقة الاطراف . وتغرز الخيوط خلال ثقب على أبعاد معينة قرب أطراف الألواح المتجاورة . والخيوط من القنبار ومن ليف النخيل .

• حوراني : المصدر السابق ٢٥٦ - ٢٥٧ .

More Land, The Ships Of The Arabian Sea, J.R.A.S. pp. 191-192 & pp. 172-174-179.

Mockerjii, Op. Cit. pp. 196-197.

ثم تسد ثقبها بأجزاء من عيدان النخيل تعرف باسم الدستور أو مسامير الخشب وأحيانا من شحم الحيتان الصغيرة الموجودة فى مياه عدن بعد طبخه وأحيانا يستخدمون دهن سمك القرش وساد هذا النوع من الدهون سفن فارس والهند والصين وساحل عمان ، ثم تطل بالقار .

• حوراني : المصدر السابق ص ٢٥٩ .

يزرك بن شهر يار : كتاب عجائب الهند بره وبحره وجزائره ص ٢٣ - ٩٤ - ٩٤١

(نشر سيجر)

Darnes, Op. Cit. II ; p. 76.

Varthema, Op. Cit. I. p. 152.

يرجع بقاء هذه السفن على هذا النحو حتى القرن ١٦ م الى غلاء صناعة الحديد الذى يحتاج الى أفران صهر وخبرة وغلو نفقاته مما لم يمس عليه الشرقيون ، كما ان البحارة الشرقيين اعتادوا هذا النوع من السفن ، وهى مرنة تتحمل صدمات الصخور وشعاب البحر الاحمر المرجانية ، وليس كما قيل عن ارتفاع ملوحة المحيط الهندى وتأثيره فى المسامير والروابط الحديدية .

More Land ; Op. Cit. pp. 188 & 191, 192,

ومن الجاليات الأجنبية المستقرة هنا أيضا بأسرها : فرس وخراسانيين ولهم كبير يفصل في أمورهم . وكان لاستقرار العرب والجاليات الأخرى في قاليقوط أثره في الصعوبة التي واجهها البرتغاليون في محاولتهم السيطرة على التجارة في المحيط الهندي والهند (١١١).

وفي ولاية جوجيرات تقع أعظم مراكز الهند في تجارة التوابل ، وهي كمبای ، وديو . ويسكن المنطقة معظم تجار وأعيان الهند

== حوراني : العرب والملاحة ص ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٩ .

أما دفة السفينة فكانت في الجنب ، وهي النوع الوحيد الذي عرف في العصور الوسطى . ولكل سفينة دفتان على جانبيها مادامت تعبر المحيط . أما المرساة فهي حجر عظيم في وسطه ثقب للحبال وأحيانا من الرخام وتعمل بالسفن المحيطية ستة مراسي .

بزرک : المصدر السابق ص ٨٧ .

حوراني : المصدر السابق ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

Varthema, Op. Cit. p. 152.

أما صواري السفن فهي من الخشب (الساج) وأطول من السفينة ، وينسج شراعها من أوراقي جوز الهند ، أو سعف النخيل ، أو النسيج القطني . واختصت السفن العربية بالشرع المثلثة حتى القرن الخامس عشر ، ونقلها عنهم كولبس ودياز وفاسكودي جاما . وترجع أهميتها إلى تسهيل تحويل السفينة تجاه الريح من كل جانب حتى لا يضغط على الشراع ويحطم الصاري . وللسفينة أشعة احتياطية .

حوراني : المصدر السابق ص ٢٦٣ - ٢٨٦ .

ومن الأجهزة المعينة في الملاحة عندهم : البوصلة ولها عندهم ٣٢ قسم وصعب عليهم استعمال الاسطرلاب بسبب شدة اهتزاز السفن في البحر وإن كانوا يستعملونه على الساحل وتحدد خطوط العرض نهارا بالشمس وليلا بالنجم القطبي لتمكن تحديد مكان السفينة وتسجل في دفاتر الارشادات البحرية التي أطلق عليها اسم « رهمانى » الذى يضم عدا خطوط العرض والجداول الفلكية معلومات عن الرياح والسواحل والشعاب وكل ما يحتاج إليه الربانة في رحلاتهم ويحمله الملاحون والتجار في المحيط الهندي والبحر الأحمر . ومن أشهر هذا النوع من الكتب في نهاية القرن الخامس عشر « رهمانى أحمد امن ماجده » الذى اعتمد فيه على خبرته الخاصة وخبرة أبيه وجده من قبل من سنين طويلة في المحيط والبحر الأحمر ، وهو « كتاب الفوائد في أصول علم البحار والزخار » وعلق عليه فراند في المجلد الأول من :

Ferrand, Instructions Nauatiques et Routiers...

أما الابرة المغناطيسية فكان استخدامها قليلا بسبب صفاء السماء معظم فصول السنة .

حوراني : المصدر السابق ص ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٤ .

Darnes, Op. Cit. II. p. 76.

(١١١)

والعرب، ولهم اتصالات قوية بمصر وفارس والصين، ففي كمبای تنتشر جالية عربية غنية لها وكالات وفنادق وهم وكلاء عن كبار تجار الشام ومصر والعراق . ويدخل ميناء كمبای السفن العربية المحملة بالخيول والقطن والتيل « والمتاع الديبلى » لتعود بالتوابل والأحجار الكريمة والحرير والكشمير والعقيق وزيت السمسم والأخشاب والناordin والمسك واليوراكس والأفيون والصبغات والحبوب (١١٢) ويدفع التجار هنا ١٪ لصالح تعمير المدينة ، كما يتعاملون بنقود ذهبية فضية مسكوكة وعليها من الوجهين كتابات عربية (١١٣) .

أما ديو فهي مخرج تجارة كمبای ، وبها جاليات مصرية وفارسية وعربية ويعمل الأهالي كلهم في التجارة وفي تجارة التوابل فقط يعمل حوالي ٥٠٠٠ تاجر ، كما يصلها أكثر من ٢٤٠٠ تاجر سنويا . ويرد لها من الصين البورسلين والمسك ، والحرير وخشب الصندل ومن فارس المعادن النفيسة والفضة الخام والمسكوكة واللؤلؤ والبلح ومن مصر والشام متاجر غرب أوروبا كالأصواف الايطالية والذهب والفضة والأسلحة والزجاج والكريستال والروائح العطرية ومن بلاد العرب الخيول (١١٤) . وحاكمها في ١٥٠٦ هو الملك العزيز الذي تعاون مع أسطول مصر ضد البرتغاليين ، وبعد هزيمة ديو ١٥٠٩ وهي المعركة التي تأيد بعدها

(١١٢) ابن أيوب : المصدر السابق ص ٢٤٩ .

Depping, Op. Cit. I. pp. 35-36-37.

Heyd, Op. Cit. II. pp. 500-501.

Varthema, Op. Cit. pp. 117-118-120.

Darnes, Op. Cit. I. pp. 164-165 & 108-156 & R. 3 p. 119.

Lane Poole, Med. India, p. 5.

Camb. Med. Hist. I. p. 28.

Varthema, Op. Cit., p. 129.

(١١٣)

Darnes, Op. Cit. I. p. 154, 156.

(١١٤) انظر ملحق الخرائط وكذلك :

Lane Poole, Med. India, Op. Cit. pp. 170-175.

George Dan Bar, A History Of India, p. 141.

Varthema, Op. Cit. pp. 99, 100 & R. I. p. 100.

Depping Op. Cit. I. p. 36

Darnes, Op. Cit. I. pp. 128-130 & R.I. p. 128-129.

سيطرة البرتغاليين على التجارة الشرقية ونهاية تجارة العرب ومصر في الهند ، طلب الحاكم الصلح وأجابه اليه البوكرك القائد البرتغالي الذي لاحظ أهمية ديو فسيطر عليها عام ١٥١٣ (١١٥) .

ومن الموانئ الهامة التي لها صلة بالتجارة مع شرق وغرب آسيا ميناء جوا في مملكة الدكن وسكانها من الهنود والعرب والفرس والصينيين ، وتصلها سفن مكة وجدة وزيلع وعدن وهرمز وكامبای ولا يدخل الميناء أجنبي قبل اجراءات تفتيش دقيقة ، وحاكمها عام ١٥٠٩ هو عادل شاه . ولما علم بهزيمة ديو فتح بلاده لكل الفارين من بطش البرتغاليين ومنحهم حق الالتجاء والحماية والمعونة لاستئناف الحرب ضد البرتغاليين ، وقد بنى أسطولا ضخما وحصونا لأسلحتهم وجنودهم : ولما علم البوكرك بذلك هاجم الميناء واستولى على حصونه وأسلحته وأجبر الأهالي على دفع الجزية ، ثم اتخذها قاعدة حكمه في الهند . ويصل لجوا من هرمز الخيول العربية ويحصل مندوب ملك البرتغال على نسبة معينة من بيع كل حصان وإيراده من ذلك سنويا حوالي ٤٠٠٠ دوك ، ويعود تجار هرمز بحمولات من السكر والرز والحرير والفلفل والبهار والزنجبيل والعقاقير وخلافها (١١٦) .

وفي ميناء ثول على الساحل الغربى للهند حدثت المعركة البحرية بهذا الاسم عام ١٥٠٨ وفيها انتصر الأسطول المماليكى بقيادة الأمير حسين على أسطول البرتغال بقيادة « الميديا الصغير » وتعاون مع الأسطول المماليكى أسطول ديو الذى يقوده حاكمها . وفترة ازدهارها بالتجارة تمتد من ديسمبر الى مارس فى العام التالى - وللتجار بها

Darnes, Op. Cit. I. p. 132 & R. 2. p. 132 & R. 1 p. 133.
Depping, Op. Cit. I. p. 36.

(١١٥)

Darnes, Op. Cit. I. pp. 170, 171, 172-175, 176-178, 188. & R. 2. p. 170 & R. 2. p. 176

(١١٦)

أماكن محددة . ولهم عملة مسكوكة محليا من النحاس (١١٧) . ومن الموانئ الأخرى على ساحل مالابار التي أسهمت بنصيب كبير في تجارة الشرق والغرب عدا ذلك كوشين (١١٨) وسورات (١١٩) وكولام (١٢٠) وكانافور (١٢١) ، والميناءان الأخيران رحبا بوصول البرتغاليين للمياه الهندية ومنحوا أسطولهم مرفأ وحصونا وأسواقا (١٢٢) . كما أن كولام تعود شهرتها الى تصدير الأعشاب الطيبة والعقاقير ، « اذ لا يوجد صُب بالهند الا بها ويعمل بها كذلك الأوانى الصينية البيضاء وبها منابت الخيزران والساج الذى يجاوز فى الطول مائة ذراع » (١٢٣) وصلة كولام بمصر وثيقة فميناؤها آخر بلاد الفلفل من الشرق « ويقلع منها الى عدن » والبحر الأحمر . كذلك تشتهر بشجر البقم وهو مثل حب الرمان (١٢٤) . وأهلها يعرفون بالصوليين وتجارتهم مصدرة ثرائهم (١٢٥) . ولكوشين صلات تجارية مع الملايو ومصر فتبحر منها السفن التجارية الى جدة محملة بالتوابل وجوز الهند والعقاقير والبخور والسكر والشمع والسنباذخ (حجر الجلخ) وفى عودتها تحمل القمح والدقيق والذرة والشعير وزيت السمسم والقماش من حرير وموسيلين

Depping, Op. Cit. I. p. 33. (١١٧)

Lane Poole, Med. India, p. 177.

Darnes, Op. Cit. I. pp. 158-163 & R. I. p. 134 & R. 2. p. 162.

Depping, Op. Cit. I. pp. 38-39. (١١٨)

Darnes, Op. Cit. I. pp. 148-150. (١١٩)

Darnes, Ibid. II. pp. 95-102 & R. II. p. 95. & R. I. p. 97. (١٢٠)

Varthema, Op. Cit. p. 197 & R. I. p. 197.

Varthema, Ibid, pp. 123-141 & R. I. p. 141. (١٢١)

Darnes, Op. Cit. II. pp. 79-83.

Darnes, Ibid, II. p. 80, R. 3. (١٢٢)

Varthema, Op. Cit, p. 141 R. I.

(١٢٣) ابن اياس : نشق الازهار ورقة ١٣٤ .

(١٢٤) ابن ايوب : المصدر السابق ص ٣٦١ .

(١٢٥) ابن بطوطة : تحفة الإنظار فى غرائب الأمصار ج ٢ ص ١١٨ .

والأصواف المستوردة من أوروبا . كما أنه يسكنها عدد كبير من
المسيحيين (١٢٦).

أما ساحل كروماندل - ساحل الهند الشرقى - فمعظم اتصال
مدنه وموانئه بالشرق الأقصى وحركته التجارية مع العرب محدودة ،
ويؤمه تجار كمبای والحبشة ومصر وفارس وبلاد العرب للبحث عن
أنواع معينة من العقاقير والتوابل والنحاس والعطور ويبادلونها بالسلع
الغريبة ، كما أن الجالية العربية محدودة ويلحون هنا فى الحصول على
العبيد البخرى لقصور الحكام والأمراء والحريم (١٢٧) .

وعلى الطريق البحرى من الهند الى الصين تقع جزيرة سيلان (١٢٨)
وهى مقصد تجار الصين والعرب والفرس والهنود والشوام ويسكنها
عدد كبير من العرب وكلهم رعايا ملك الجزيرة الذى يمنح التجار
والأهالى منهم حرية أكثر لذا يفضلها تجار ساحل مالابار الهنود . وأهم
ما تشتهر به سيلان زراعة القرفة التى تنمو على التلال فى شكل
شجيرات صغيرة وتقطع هذه الشجيرات لحساب الملك وتوضع فى
الشمس لتجف فى أشهر معينة وتجهز لحملها للخارج . ويتاجر الأهالى
فيها فى اللؤلؤ والكافور ومختلف أنواع الأدوية والمسك والأحجار
الكريمة والياقوت والماس والسنياذخ والأنسجة القطنية والحريية وقد
هاجمها البرتغالى لورنزو دالميديا الصغير عام ١٥٠٦ ثم بنى بها

Depping, Op. Cit. I. pp. 38-39.

(١٢٦)

Depping, Op. Cit. I. pj. 41.

(١٢٧)

(١٢٨) يسميها العرب «سرنديب» كما تسمى هى والجزر حولها باسم

أو بلاد «السيبال» أو «سهيلان» ويطلق عليها أهلها سهالا Sihala

Ency. Of Islam, I. p. 839 Art. Ceylon.

« لوبوسواريز » القائد البرتغالى حصنا فى العاصمة « كولمبو » عام ١٥١٨ (١٢٩) .

والمار بهذا الطريق البحرى من البحر الأحمر أو الخليج الفارسى
لهند والصين لابد وأن يمر بمسقط أكبر مراكز عمان ومينائها التجارى
وقد اعتبرها البوكر ك من أهم المراكز على الطريق الى الهند فاستولى
عليها وحصنها وصارت مركزا حريا وتجاريا للبرتغاليين (١٣٠) .

وحتى مطلع القرن السادس عشر وطرق التجارة من الشرق للبحر
الأحمر تتجه بفرع لها نحو شرق افريقية على المحيط الهندى جنوبا ،
وطافت بهذا الساحل سفن سيراف وعمان كذلك فى تجارة منتظمة ،
ونيس لهذا الساحل طرق منتظمة ، انما تسير السفن على طول الساحل
الافريقى الشرقى ، ثم حول ساحل الصومال حتى عدن ثم الخليج
الفارسى والهند وأحيانا تشق السفن القادمة من الشرق الأقصى الطريق
مباشرة من رأس « فرتك » جنوب شبه الجزيرة العربية الى رأس
« جاردافوى » مباشرة ثم باقى الساحل الافريقى وربما كان الطريق
الأول هو الأرجح من شرق افريقية الى الهند . وفى عودته يتلاقى فى
البحر بسقطرى ثم بعدن ثم حول ساحل الصومال الى رأس جاردافوى
ثم باقى الساحل الافريقى بعيدا عن مخاطر القراصنة فى سقطرى . ومن
ساحل افريقية جلب التجار الرقيق والعاج والعنبر وكانت أقصى نقطة
يصلون اليها هى موزمبيق وقنبلة (مدغشقر) التى يقال أنها بلاد الواقع

(٢٩) ابن الفقيه : كتاب البلدان ص ٨ و ٩ و ١٠ .

سليمان الفارسى : سلسلة التواريخ ص ٧ .

ابن ايوب : المرجع السابق ص ٣٧٥ .

القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٧٨ و ٧٩ .

Darnes, (Barbosa) Op. Cit. II. pp. 109-113-118.

Darnes, Op. Cit. II. pp. 71 & I. p. 7 kl ;

(١٣٠)

الواق (١٢١) وعلى الطريق المباشر من شرق افريقية الى الهند يمرون
بجزيرة سقطرى قرب مدخل الخليج المؤدى الى البحر الأحمر
الجنوبى . وطول الجزيرة ٨٠ فرسخ وهى من المراكز التى يأوى بها
قراصنة البحر من الميّد والكيرج ومن أهم انتاجها الصمغ والصابر .
وسكانها مسيحيون يعاقبة ويدفعون الجزية لملوك الهند (١٢٢) .

وقرب باب المندب تقع جزيرة قمران (كمران) وهى محط للسفن
التجارية بين الهند وجدة وتتمون منها السفن بالماء والميرة . واستولى
عليها البوكر ك البرتغالى ١٥١٣ م فى محاولة منه للوصول لميناء جدة ،
وفعل مثل ذلك البرتغالى لوبوسواريز ١٥١٧ نظرا لقربها من الساحل
وأهميتها الحربية (١٢٣) .

ومن هذه المراكز الهامة أيضا على الطريق التجارى لشرق افريقية
ميناء مدغشقر مقديشو وهو على الساحل نحو البحر الأحمر ، وله ملك
عربى كأهله وتصله سفن الهند فى قوافل محملة بالسلع التجارية
كالأقمشة والتوابل وتصله السفن من عدن مباشرة وفى عودتها تحمل
العاج والذهب والشمع . وفى مقديشو نزلت أولى أفواج الغرب وبخاصة
التجار منهم واستقروا بها بعد أن وصلوا الى رأس جاردافوى وشاهدوا

(١٢١) يذكر حورائى : الملاحة فى المحيط الهندى ص ٢٤١ - ٢٣٢ أن مدغشقر
هى واق واق الجنوب وسومطرة هى واق واق الشرق وعن فراند : وصحة القول بأن هناك
صلة بين الجزيرتين اذ هاجر بعض سكان سومطرة الى مدغشقر منذ القرون الاولى للمسيحية
لذا عرفت بهذا الاسم وان كان الأرجح أن اليابان وحدها هى واق الواق . انظر كذلك :
المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٧ .
متز : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٧٠ و ٣٧١ وانظر ملحق الخرائط .

(١٢٢) ابن أيوب : المصدر السابق ص ٣٧١ .
سباهى : المصدر السابق ص ١٦٠ ا و ب وانظر ملحق الخرائط .
Harff, Op. Cit. pp. 155-159.
Dapping, Op. Cit. I. p. 47.

— Darnes, Op. Cit., I. p. 52.

دى جاما لىدى عودته من رحلته الأولى الى الهند عام ١٤٩٩ (١٣٤) .

أما رأس جاردافوى فهى على بعد غير قليل من مقديشو وعندها ينحنى الساحل الافريقى ليدخل البحر الأحمر «وتمر بها السفن القادمة من الهند وسيام وسيلان وملقا وسومطرة والصين ويتاجر أهلها فى سلع الشرق الأقصى والهند والبحر الأحمر وعدن وزيلع وبربرة وينتظر فيها البرتغاليون لقطع الطريق على سفن العرب القادمة من البحر الأحمر لأسرها ونهبها» (١٣٥) .

وهكذا ظلت سفن التجارة الشرقية من الصين والهند وبلاد العرب تقطع هذا الطريق قرونا طويلة حتى نهاية القرن الخامس عشر حين انقطعت الزعامة للشرقيين بدخول البرتغاليين فى مياه المحيط الهندى .
ففى عام ١٤٩٨ كان فاسكودى جاما الملاح البرتغالى فى ملندى بشرق افريقية يبحث عن دليل يحمله الى الهند فلم يجد الا الملاح العربى «شهاب الدين أحمد بن ماجد» وأقنعه دى جاما بقيادة السفن البرتغالية عبر المحيط للهند فكان من سخرية القدر أن ملاحا عربيا كبيرا ساعد فى القضاء على الملاحة العربية فى المياه الشرقية ، فلم يستطع العرب ابعاد البرتغاليين عن المياه الهندية وبدءوا يتوسعون شرقا وغربا حتى سيطروا على الطريق المذكور من مالقة الى الخليج الفارسى ، ثم وسعوا نفوذهم ليشمل المنطقة من سقطرى الى كاتتون وجزر مكاو بالصين وقضوا على الملاحة والتجارة العربية وندرت سفن العرب ، وبخاصة

— Darnes, Ibid, II. p. 31 & R. I. p. 32 R. 2.

(١٣٤)

— Darnes, Ibid, II. pp. 32-33.

(١٣٥)

الاسم العربى الحديث لهذا الرأس هو (رأس أشير) ، أما الاسم الاول فقد استخدمه البرتغاليون لأول مرة وهو لا يطلق على الرأس نفسه انما على مكان جنوبه بحوالى ٦٠ ميلا يعرفه العرب باسم « رأس هافون » ، ويبدو أن الاسم الأخير يطلق على الساحل كله وليس على مكان بعينه ويطلق عليها الغرس اسم انحناء هافون انظر ملحق الخرائط .

بعد أن سدوا مدخل البحر الأحمر الجنوبي ، وفى عام ١٥١٧ كانت
تجارة هذا الخط فى جزئه الغربى بالخليج الفارسى والبحر الأحمر قد
انهارت تماما .

وفى البحر المتوسط لم تكن هناك طرق مباشرة بين شرقيه
وغربيه انما تخرج السفن من المدن الايطالية وجمهورياتها متفرعة غربا
الى غرب أوروبا ، وشرقا الى مصر والشام والأناضول ، مارة بمراكز
عدة : فمن البندقية شمال الادرياتى تخرج السفن فى طريقين يسير
الأول بحذاء ساحل دالماشيا مارا براجوزا ، ثم الى كورفو ويدور حول
شبه جزيرة البلقان وعندها ينقسم قسمين يتجه أحدهما الى ساحل الشام
مارا بكريت ورودس وقيرص وموانئ بيروت وطرابلس والشام وعكا ،
ويتجه الآخر الى الاسكندرية مباشرة . أما الفرع الآخر من طريق
البندقية الملاحى فيدور من البحر الادرياتى حول ايطاليا عابرا مضيق
مسينا الى نابلى ، ومنها مباشرة الى مالطة مارا بجنوب سردينيا ويعبر
مضيق جبل طارق الى لشبونة فى البرتغال وبردو فى فرنسا ، بعد أن
يعبر مضيق دوفر ليتجه الى كاليه وبروج ثم دول الهانسا شمال أوروبا .
وله فرع من بروج الى لندن (١٣٦) .

طريق البندقية التجارى :

وقوافل البندقية البحرية تعرف باسم « مراكب المدة » ولكل
جهة سفن معينة فهناك سفن المدة للقسطنطينية ، ومدة البحر الأسود ،
ومدة الشام ، ومدة الاسكندرية ولدى عودة هذه السفن من الشرق
ينتظرها الأهالى بفارغ الصبر الأسواق الكبرى التى تعقد فى عيد
الفصح فى شهرى سبتمبر وفى عيد الميلاد (١٣٧) .

(١٣٦) راجع ملحق الخرائط وكذلك :

— Poston, Op. Cit. xi. pp. 292-293 & ff.

(١٣٧) كلمة « مدة » هنا تعنى قافلة الموسم ولما أضيفت اليها كلمة مراكب أصبحت
تدل على بيان وقت رحيل وأوبة سفن القافلة ، وتطورت الكلمة لتشمل أنواع السلع التى =

وترحل سفن المدة الى الشرق فى اوقات وصول السلع الى هذه البلاد ، وهى فى الغالب اوقات الحج لتعود فى الخريف قبل حلول فصل الشتاء ، ويصاحب سفن المدة أسطول بحرى لحمايتها من القراصنة المنتشرين على طول الطريق شرق وغرب البحر المتوسط . وقد قسمت الجمهوريات الايطالية رحلاتها الى مراحل ، وفى كل مرحلة يصاحب السفن أسطول بحرى للحراسة ويوصلها لنقطة الحراسة التالية ويبقى لحين عودتها لمصاحبها . وتقع هذه النقط فى جزر ومدن السواحل ، وللبندقية بها مخازن . ومن أشهرها كورفو وكورون ومورون وكاندى (كريت) وقبرص (١٣٨) .

ومنذ الفتوح العثمانية فى شرق أوروبا بعد عام ١٤٥٣ ، حولت البندقية طريقها من كورون ومودون الى كورفو بعد أن سقطت الجزيرتان فى أيدي القوات العثمانية . ولما استقر البنادقة فى جزيرة قبرص على عهد السلطان قايتباى صارت الصلة وثيقة بين قبرص والشام وكريت والاسكندرية ، وأصبحت الجزيرة أهم مركز تجارى للبندقية شرق البحر المتوسط لا سيما وأن العلاقات كانت متوترة بصورة دائمة بين البنادقة والعثمانيين . أما سفن البندقية الى ساحل افريقية الشمالى الغربى فلم يكن مباشرا ، فان سفن الاسكندرية قبل توسيقها تتجه الى طرابلس الغرب وتونس وتعود الى الاسكندرية لتملا ما بها من فراغ ، وتنتظر كذلك سفن بيروت أحيانا ، وعند عودتها الى البندقية يعاد تصدير السلع برا وبحرا الى أوروبا (١٣٩) .

= تحمل على سفن معينة وتصل فى اوقات محددة فيقال مدة سبتمبر مثلا لتدل على اسطول الشرق العائد فى شهر سبتمبر قبل حلول فصل الشتاء فى أوروبا وأحيانا أطلقت كلمة المدة على مدة بقاء السفن فى الموانئ فيقال « مدة المدة » ليكون لها حق الأولوية فى الشحن والرعاية . انظر الفصل الخامس .

(١٣٨) انظر ملحق الخرائط .

(١٣٩) بخصوص سفن البندقية الى طرابلس وتونس انظر ملحق الخرائط وكذلك

معاهدة تريغيزانى بالملحق رقم (١٣) السؤال السادس .

ومن المحطات على الطريق التجارى للشرق جزيرة كورفو ، وهى مركز شحن وتسويق السلع الواردة من الشرق ، وفى القرن الخامس عشر طرأ تغيير على نظام سفن البندقية فأصبحت كورفو مخزنا للبضائع الهامة وتمر بها السفن الآتية من الاسكندرية وبلاد السلطنة العثمانية . وكان على السفن أن تمر بالضرورة على كورون ومودون فى الذهاب والاياب ، ولكن كورفو كانت اختيارية بالنسبة بها ، ثم بدأت تحتل مكاتها ، الممتازة بعد سقوط القسطنطينية وتقدم الأتراك فى البحر الأيوني وسرعان ما احتلت مكانة كورون ومودون (١٤٠) .

ومن هذه المراكز أيضا « رافنا » ، ولها أسطول يصل لشرق البحر المتوسط ، وللبندقية بها مخازن ومندوب يتولى شحن وتسهيل العمليات التجارية (١٤١) .

ومن أبرز هذه المراكز كذلك « راجوزا » على الادرياتى ، وهى مركز للأسطول البندقى فى الذهاب والاياب ، وحصل الراجوزيون على تراخيص للمتاجر فى بلاد السلطان العثمانى بعد عام ١٤٥٣ ، على عهد السلطان محمد الثانى عام ١٤٨٠ ، وبايزيد الثانى ١٤٨١ ، وسليم الأول ١٥١٧ . ويحملون من الشرق الغراء والشمع والبهار ، والجلود

— Renaud, Journal Asiatique, T. IV.

— Heyd, Op. Cit. T. IV pp. 79-80.

— Hammer, Op. Cit. T. IV pp. 79-80.

(١٤٠) بخصوص استخدام هذه الجزر كمستودعات ومخازن للسلع فان البندقية قسمت سفنها الى سفن الاسكندرية وبيروت ، وهى تصل للبندقية مرتين فى العام مرة سبتمبر ومرة ابريل فى العام التالى وبين هذين التاريخين يتم توزيع السلع فى أوروبا وترسل أحيانا بين هذين التاريخين سفن تعرف باسم فائض المدة لتحمل مابقى من السلع فى مخازن الاسكندرية وبيروت ويتم تخزينه فى هذه الجزر حتى ينقل الى البندقية . انظر ملحق الخرائط .

— Depping, Op. Cit. II. p. 310.

(١٤١) انظر ملحق الخرائط .

— Depping, Ibid, pp. 313.

المدبوغة والذهب والفضة من صربيا التي دخلت في حوزة العثمانيين
كما روجوا المنتجات الأوربية في بلاد السلطان العثماني مثل حرير
وصوف تسكانيا (١٤٢) .

وتقع كريت على الطريق البحرى الى شرق البحر المتوسط ، كما
أنها محط للسفن ، ويستقبل ميناؤها الواسع السفن الكبيرة ، وتتصل
تجاريا بمصر والشام وآسيا الصغرى وتصدر السكر والنيذ
والعسل (١٤٣) .

وتبدو أهمية قبرص لوقوعها على الطريق التجارى البحرى الى
الشام وآسيا الصغرى وهى ملجأ التجار اذا حاق بهم أى ضرر فى
بلاد السلطنة المماليكية أو العثمانية بل انه القبارصة قاموا فى أوقات
عصية بالنسبة للأوربيين بنقل متاجر الشرق من صور وصيدا وحلب
وبيروت والاسكندرية وأنطاكية الى جزيرتهم حيث ينتظرها البنادقة
والجنوئين وغيرهم. وميناؤها الرئيسى فاما جوستا مزدهم دائما بالسفن،
وبه ويبقى الموانئ فنادق ووكالات ملاى بالتاجر والتجار من عرب، وترك
وجنوبيين وبنادقة وفلورنسيين وغيرهم . وفما جوستا من أشهر موانئ
شرق البحر المتوسط تصلها التجارة من وسط آسيا برا ثم بحرا ،
وكذلك من حلب وديار بكر والاسكندرية ووسط الشام والعراق .
وتمتلىء أسواقها بالحرير والكتان والقطن وجوز الهند واللبان والجلد
والنحاس والفواكه والعنب الغض « الطازج » والمجفف والمطاط وعاج
افريقية والفراء والصابون والشب من طرايزون وبروسة والحرير
والسجاد من قونية والأحجار الكريمة من الشرق الأقصى ، ويدفع
القبارصة ١٪ رسوم جمارك ، فى حين يدفع الأجانب ٤٪ واتخذت

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 346-348.

(١٤٢)

— Depping, Op. Cit. I. p. 112.

(١٤٣)

البندقية الجزيرة أكبر مركز تجمع لتاجرها شرق البحر المتوسط بعد أن ساءت العلاقات بينها وبين السلطات العثمانية وحصلت من السلطات المالية على حق حكم الجزيرة مع دفع الجزية السنوية ، وبذلك ضمنت البندقية حرية تجارتها وحماية مخازنها في شرق البحر المتوسط . واستولى عليها العثمانيون عام ١٥١٧ (١٤٤) .

ومن هذه المراكز أيضا جزيرة خيو التي ظلت حتى الربع الأول من القرن السادس عشر من أشهر وأهم مراكز التجارة على الطريق الى الشرق العربي ، ونالت ثراءها من تجارتها مع الغرب بعد توزيعها سلع الشرق في أوروبا ، وكان لجنوة في الجزيرة مركز ومخزن ومندوب تجارى (١٤٥) .

طريق جنوة التجارى :

أما سفن جنوة فتتكون من أسطول للشرق وآخر للغرب ويتجه أسطول الشرق، جنوبا بحذاء شاطئ شبه الجزيرة الإيطالية مارا بنابلى ومضيق مسينا الى كريت ، ويتجه شمالا عابرا مضيقا البسفور والدردنيل الى القسطنطينية ، ثم موانئ البحر الأسود أما فرعه الغربى فيمر بساحل فرنسا الجنوبي على البحر المتوسط عند مرسيليا ثم الى برشلونة وفالنسيا فى قطلونيا . ويخرج من جنوة أسطول آخر يتجه مباشرة الى تونس ويسير على طول ساحل افريقية شرقا الى الاسكندرية ومدن وموانئ الشام وغربا عابرا مضيق جبل طارق الى غرب افريقية . وفى البحر الأسود تتوحد طرق الملاحة بالنسبة لكل السفن التجارية الوافدة من المضيقين وتنفرع الى ٣ فروع شمالا لبلاد البلغار ، وفرع الى كافا على شبه جزيرة القرم ، وآخر الى طرايزون ومدن شاطئ

(١٤٤) انظر ملحق الخرائط وراجع :

- Bernard, Cypris, pp. 3-4-6-7-8-21 ;
- Depping, Op. Cit. I. pp. 106, 108.
- Depp, Op. Cit. pp. 54-556.
- Heyd, Op. Cit. IX. pp. 335-336.

(١٤٥)

البحر الأسود الجنوبي ومنها بوتس وهرقليا وسمسون ومينوب، كما ان هناك فرعا بریا من أوروبا يعبر مرمره الى الأناضول ليتصل بالطرق البرية الآتية من وسط آسيا وتبريز ويتجه فرع منه جنوبا الى لاجاسو وانطاكية ودمشق على الليفنت ثم بحذاء الساحل الى القاهرة (١٤٦) .

طريق فلورنسا التجارى :

أما فلورنسا فانه بعد انضمام بيزا اليها بجزر وموانئ البحر المتوسط وبخاصة خيو وجاليوبولى ، وصلت بسفنها الى البحر الأسود والاسكندرية، ولها فى كريت ورودس مندوبون تجاريون (١٤٧) .

وبرغم الصلة الوثيقة بين جمهوريات ايطاليا ومصر والشام فان بعض مدن ايطاليا مثل أنكونا فضلت التعامل مع السلطات العثمانية . وسارت فعلا سفنها الى القسطنطينية عام ١٤٧٥ ، وحصلت على حق المتاجرة مع مدن تركيا - وخلال حروب السلطان العثماني مع البنادقة قطع الطريق البحرى التجارى ، ومع ذلك نعم التجار الانكويون بكرم الضيافة العثمانية ، واتخذوا فى رحلاتهم من رودس مركزا لتجمع متاجرهم وسفنها (١٤٨) .

مدينة سيين :

أما مدينة سيين فى مقاطعة تسكانيا بايطاليا فقد اكتفت سفنها بالوصول الى قبرص وأحيانا تتجه الى البندقية نفسها للحصول على حاجتها من سلع الشرق وسوقهم الطبيعية فى فرنسا وأسبانيا وانجلترا وألمانيا أكثر من مدن ودول شرق البحر المتوسط ، وفى عام ١٤٨٩

(١٤٦) شارل ديل : البندقية ص ٢٠ و ٢١ ومابعدها .

— Heyd, Ibid, pp. 345 & ff.

(١٤٧)

(١٤٨) انظر ملحق الخرائط :

— Heyd, Op. Cit. p. 346.

اتصلوا بأنفسهم بالسلطات العثمانية وصارت لهم قنصلية في القسطنطينية حتى عام ١٥٠١ (١٤٩) .

طريق مرسيليا التجارى :

وحتى الربع الأول من القرن ١٦ م ظلت مرسيليا متصلة بشرق البحر المتوسط ولها في مصر وسوريا وكلاء وفنادق — وهى مخرج تجارة فرنسا الى البحر المتوسط ، كما أن لها اتصالا بالمدن الإيطالية ويمر بها خط جنوة البحرى التجارى الى أسبانيا (١٥٠) .

طريق برشلونة التجارى :

وعلى الشاطئ الاسباني الشرقى كانت برشلونة ملتقى الطرق البحرية من ايطاليا وفرنسا الى أسبانيا . وقد نافست المدن الإيطالية فى التجارة الشرقية ، ولها امكانيات مهدت لها أن تكون مركزا تجاريا من الطراز الأول فميناؤها محصن وتدخله السفن من الدول المختلفة وله أحواض لبناء وترميم السفن ومخازن ومستودعات للسلع وترسانات ضخمة لعبت دورا هاما فى اجلاء العرب عما بقى لهم بالأندلس أواخر القرن الخامس عشر ، كما أن هذه الترسانات بنى السفن للدول التى تتاجر مع شرق البحر المتوسط (١٥١) . ووصلت سفنها كذلك الى بلاد المغرب ، ولكل جهة سفن معينة وقناصل ومراكز تجارية ، وللقناصل التجاريين نقابة تحميهم ، وكان ضمن رجال حكومة قطلونيا فى القرن الخامس عشر عضوان ينوبان عن القناصل فى شئون التجارة . وقد حرم ملوك قطلونيا دخول سفن أجنبية تحمل سلعا من الشرق حتى يقتصر ذلك لدى السفن القطلونية فقط (١٥٢) .

(١٤٩) انظر ملحق الخرائط :

— Heyd, Ibid. p. 347.

(١٥٠) انظر ملحق الخرائط :

— Pernaud, Op. Cit. p. 40.

— Pernaud, Op. Cit ; p. 41.

(١٥١)

— Depping, Op. Cit. I. p. 260.

(١٥٢) انظر ملحق الخرائط وراجع :

— Depping, Op. Cit. pp. 251-254, 258-259.

— Heyd, Op. Cit. II ; pp. 473, 477.

طريق القسطنطينية البرى :

أما الطريق البرى من أوروبا الى القسطنطينية فقد وقعت أجزاء عديدة منه تحت حكم العثمانيين بعد أن سيطرت السلطات العثمانية بفتوحاتها حتى شرق ووسط أوروبا - وموضع الأهمية هنا أن الرقعة التى سيطر عليها العثمانيون هى محور تجارة الشرق والغرب ، فما من طريق تجارى من الشرق الى الغرب أو من الغرب الى الشرق الا ويمر ببلاد الترك أو بدول تحت سيطرة الأتراك العثمانيين واذا نظرنا الى خريطة العالم فى الربع الأول من القرن السادس عشر لاحظنا أن هذه الطرق اذا اتجهت من اليسفور والدردينيل الى البحر الأسود فلا بد أن تمر بأرض عثمانية ، واذا اتجهت الى ساحل الشام ومصر فلا بد أن تمر بتركيا وبأرض تحت سيطرتها ، واذا اتجهت الى البحر المتوسط والبحر الأحمر من الشرق فلا بد أن تمر بأرض تحت سيطرتهم ، اذ أن أملاكهم شملت رقعة واسعة تمتد من العراق شرقا الى الادرياتي غربا والى البحر الأسود شمالا وحدود النوبة جنوبا . وعلى هذا أصبح على التجار الغربيين اذا أرادوا الوصول الى أى مكان فى الشرق أو الليفنت أو القسطنطينية أن يمروا بأرض عثمانية ويحصلوا على تصاريح من السلطات العثمانية. على أن هذا لم يوقف التجارة على هذه الطرق من أوروبا لشرق البحر المتوسط بل استمر فى ظل السيد الجديد وتحت اشرافه ، وكانت الفتوحات العثمانية فى شرق أوروبا قد أحيت طرقا برية قديمة منها الطريق الذى يبدأ من راجوزا ، Ragusie والطريق الذى يبدأ من سبلاتو Spalato وهما يلتقيان عند بليفليج Plevlje ثم يتوحد ليصلا الى مدينة بريبوليج Prepelje على نهر ليم Lim ثم الى مدينة نوفيبازار Novibazar حيث يوجد للتجار جاليات ، وفنادق ووكالات ومنشآت تجارية عديدة وخاصة البنادقة ، وبعد مبارحة مدينة نيش Nich تدخل القافلة الى الطريق الموصل لبلغراد ثم الى القسطنطينية مارة بمدينة صوفيا Sophia وفهليبوبولى Philippopoli

وأدرنة والمدينة الأخيرة كسوق عالمية كانت تلقى أهمية القسطنطينية نفسها التي تصلها القوافل بعد ٣٠ يوما من رحلتها اليرية من راجوزا (١٥٣) . هذا فيما يتعلق بشرق البحر المتوسط .

أما في غرب هذا البحر في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر وعلى وجه التحديد في البرتغال واسبانيا وغرب أوروبا فانه حدثت تغييرات واسعة النطاق بعيدة الأثر في المراكز الأساسية التي اختصت بالتجارة العالمية في العصور الوسطى في غرب آسيا وغرب أوروبا والشرقين الأدنى والأقصى ، فقد بدأت شعوب أوروبا على الأطلنطي رحلاتها الطويلة عبر البحر ونجحت أخيرا في إيجاد طريقها الى الشرق بحرا دون وساطة مصر والشام أو آسيا الصغرى ، وفتحت مخاطرتهم فصولا جديدة في العلاقات العالمية ليس فقط لأن هناك طرقا جديدة قد فتحت، ولكن لظهور وسطاء جدد على المسرح أحدثوا تغييرات حقيقية أسرع بنهاية القرون الوسطى في عالم التجارة . وكان الانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة في التجارة العالمية ثوريا من كل الوجوه . واستمرت نفس السلع يحملها البرتغاليون والهولنديون بعدهم ، وقد ساروا على نهج العرب وتقاليدهم ، وبقيت هذه التقاليد حتى ظهرت الطوائف الأكثر حداثة ونشاطا في شمال غرب أوروبا (١٥٤) .

ومع أن العثمانيين في فتوحاتهم نجحوا في السيطرة على مصر والشام ، مفتاح التجارة العالمية في العصور الوسطى ، فانهم أخفقوا في أن يحلوا محل العرب في السيادة الاقتصادية ، لاختلافهم عن العرب التجار بالفطرة ، وقد بذلوا جهودا طيبة لانعاش الطريق البحري

(١٥٣) انظر ملحق الخرائط وكذلك :

- Heyd, Op. Cit. pp. 334, 335.
- Atiya, The Crusades, p. 477.
- Hyzayyin, Op. Cit. p. 153.

(١٥٤)

القديم وشجعوا تجار البحر المتوسط للاقامة في أراضيهم الجديدة
ولكن كانت أسواق الشرق العربي قد انهارت وفقدت أهميتها في
التجارة العالمية التي انتقلت بالتالى الى غرب أوروبا (١٥٥) .

(١٥٥) بالملحق رقم ٢٥ معاهدة السلطان سليم الاول العثماني للبنادقة في مدن
موانئ مصر - راجع الفصل الثانى وكذلك :

— Hyzayyin, Ibid, p. 185.

الفصل الرابع

السلع التجارية

أنواع السلع المتبادلة :

تعتبر الفترة الأخيرة من العصور الوسطى من أنجح فترات الازدهار التجارى بين الشرق والغرب ، فقد عمل المماليك فى مصر والشام وسطاء لأهم السلع التجارية من الشرقيين الأدنى والأقصى ، وهى التوابل ، والعقاقير الطبية ، والعييد ، والمنسوجات ، والصينى ، والأحجار الكريمة ، والأخشاب ، وجميع السلع التى يكثُر طلب الغرب الأوروبى لها . ولعبت الطرق البحرية والبرية عبر مصر والشام دورا هاما فى هذا المجال ، كما ارتبطت ثروة البلاد وقوتها العسكرية وهيبتها فى العالم بتجارها الشرقية ، وظلت فترة الازدهار باقية مابقى الاتصال مباشرا مع الهند والصين ، وانتهت وأنتهت معها دولة سلاطين المماليك بعد أن تحول الطريق حول إفريقيا على يد وسطاء جدد من غرب أوروبا . وفى أوائل العصور الوسطى كانت التوابل والإفاويه الشرقية هى غذاء الأغنياء فى غرب أوروبا ، كما كان البخور الشرقى من متطلبات الكنائس الغربية ، حتى الملابس المطرزة كانت لا ترد لهم الا عن طريق الشرق ، بل يقال ان الإشراف ورجال الكنيسة كانوا من المولعين بالطعام المتبل . وفى عصر النهضة أولع الشعب بهذه الطريقة فى الطهو ، بعد أن اعتاد استعمال التوابل فى الأطعمة منذ

الحروب الصليبية (١) . وفي العصور الوسطى المتأخرة زاد الالاحاح فى طلبها حتى أصبحت هذه السلع الشرقية جزءا لا يتجزأ من حياتهم فهى عندهم ضرورة لتحسين الطعام ولصنع النبيذ وحفظ الأطعمة لكثرة وطول الصيام عندهم ، كما كانت تدخل فى صناعة العقاقير الطبية (٢) . وقد اكتفى الممالك خلال فترة حكمهم الأولى حتى القرن الخامس عشر بتسهيل استيراد هذه السلع من شرق آسيا والهند ، وتسهيل ورود الأجانب لحملها الى أوروبا ، مع تسهيل اقامتهم فى الفنادق ، ومنحهم كل التيسيرات ، وكان لكل هذا رسوم تجبيها خلاف الرسوم الجمركية على الوارد والصادر . وسيطر على هذه التجارة جماعة الكارمية الذين قاموا بالعبء الأكبر فى استيرادها من الشرق الأقصى وتسويقها ، حتى أن اسم الكارمية كان يطلق على كل من يعمل فى تجارة البهار والفلل ، وأصبح « لرئيس الكارمية » صلة معترف بها لدى السلاطين . ولثرائهم من احتكار هذه التجارة كانوا يقرضون السلاطين كلما اضطرتهم الظروف الى ذلك (٣) . ولكن فى القرن الخامس عشر عندما بدأت القوات العثمانية تزحف حثيثا نحو الغرب اضطربت الطرق البرية من وسط آسيا وآسيا الصغرى حتى أغلقت فى عام ١٤٥٣ بسقوط القسطنطينية وتركز جلب هذه السلع على طريق البحر الأحمر ، وتنبه سلاطين الممالك الى ذلك ، والى أن دولتهم قائمة فعلا على أموال

(١) اشتد الطلب على التوابل أواخر العصور الوسطى فى أوروبا اما لشدة البرد أو لتبديل الطعام وحفظه أو لاستعماله كعقار طبي ، وكان الأوروبيون يطيب لهم أكل السجق المتبل والفطائر المتبل ، كما أن ساعات الشتاء الطويلة تدعو الى احتساء فنجان من شراب مزوج بقليل من البهار والتوابل كالجنزبيل وجوزة الطيب والقرفة والقرنفل .

— توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى (مترجم) ص ١٤٠

— Sonia, In Quest of Spices, pp. 13-14.

— Sonia, Op. Cit. pp. 19-20.

(٢)

— Clerget, Le Caire, pp. 343.

— Clive, A History of Commerce pp. 79-80.

(٣) سعيد عاشور : العصر المالىكى فى مصر والشام ص ٢٩١ .

المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٩٩ حاشية ٢ + ج ٢ ص ٨٣٧ حاشية ٣ .

التجارة بالإضافة الى أن الوضع اختلف فى هذه الفترة من فترة حكم المماليك البحرية ، اذ تطرق الفساد الى النظام الاقطاعى الذى اعتمدوا عليه فى فترة تكوينهم الأولى ، ولم يعد يسد حاجتهم المالية والمادية بوجه عام لذا اتجهوا نحو الاشتغال بالتجارة واتبعوا سياسة احتكار السلع التجارية الشرقية لتعويض النقص المادى الناجم عن الغاء النظام الاقطاعى . فأقصوا الكارمية عن التجارة ، واقتصروا عملهم على تسويقها ونقلها من مصادرها ، ثم ما لبث السلاطين أن أقصوهم نهائيا عنها واحتكروها احتكارا كاملا (٤) . وقد أضر هذا الاحتكار بالتجارة فارتفعت أسعار التوابل ارتفاعا فاحشا الأمر الذى أنزل الضرر بالتجار الأوربيين وتعدى الأمر الى تحديد أسعار التوابل الحرة وأسعار التوابل السلطانية أو الشريفة مع اجبار التجار على شرائها وأحجم التجار الأجانب أحيانا عن الشراء ، فكانوا يلاقون العسف من عمال السلطان. ويظل الأمر كذلك حتى تصل اليعثات لايجاد حل مرض للطرفين . ومع هذا زاد الرواج التجارى فى السلع الشرقية فى بلاد السلطان الممالىكى حتى أن سفن البندقية وحدها ، وهى العميل الأول لتجارة التوابل فى مصر ، كانت تحمل سفنها سنويا من موانئ مصر والشام سلعا تقدر بحوالى ٣٠٠٠٠٠ دوكات من المعادن الثمينة والنقود ذهباً وفضة وأقمشة (٥) ، برغم قوانين « التحريمات البابوية » التى حذرت ،

(٤) سعيد عاشور : المصدر السابق ص ٣٩٥ .

(٥) فى الفصل الثانى فصل العلاقات التجارية الخارجية توضيح لموضوع التوابل السلطانية . والواقع أنه منذ أواخر عهد قايتباى وعهد الغورى بدأ رصيد الذهب يقل فى خزائن المماليك ، وعلاجا لذلك بدأ السلاطين فى زيادة ، الاهتمام بالتوابل المعروفة باسم « التوابل الشريفة أو السلطانية أو النخيرة » وفرضوا على البنادقة شراءها على أن تدفع القيمة نقدا وبالذهب مع بقاء معاملتهم مع الأفراد حرة فى الالتجاء للمقايضة أو الشراء بالمال ، اذ كان البنادقة حتى ذلك الوقت ملوك الذهب فى العالم المسيحي . انظر : توفيق اسكندر : نظام المقايضة ص ٤٣ - ٤٤ .

وقد طبق هذا النظام على البنادقة فقط فى مصر والشام ولما ترددت شكواهم حددت قبة التوابل السلطانية المفروضة عليهم بنسبة معينة الى السلع الأخرى وهى « حمل من =

التعامل بين المسيحيين والعرب عامة وممالك مصر والشام خاصة . وكان هذا القانون الذى أصدره البابا نقولا الرابع سنة ١٢٩١ موضع عناية وتأيد البابوات المتعاقبين . وهدف القانون الى تدمير تجارة الممالك فتضعف دولتهم ويسهل هزيمتها . ولم يكن التحريم فى الواقع أمرا قاطعا أو دائما بل اقتصر منذ أواخر القرن الرابع عشر وفى القرن الخامس عشر على المواد التى يمكن أن يستفيد منها الممالك فى بناء السفن وعمل الأسلحة كالأخشاب والحديد والنحاس واليارود وخلافه . وإذا كان اصدار هذه القوانين واطاعة البنادقة والجنويين وغيرهم لها تقليد جرت عليه الأمور حتى القرن الرابع عشر، فانه فى القرن الخامس عشر ضرب التجار بهذه القوانين عرض الحائط ، فهى تحترم نظريا وتنقض عمليا ، والعرب يعرفون تماما مدى احتياجات الغرب الأوربي الى السلع الشرقية الواردة عن طريقهم ، كما أن الأوربيين لم يتقيدوا بحرفية قوانين التحريم ولاحظ البابوات ذلك ، كما أن حاجة أوروبا أخذت تزداد يوما بعد يوم للسلع الشرقية ولا سيما السلع الخاصة بالكنيسة ، فكان لابد من مسايرة الواقع وتعديل قوانين التحريم — واحقاقا للواقع عدلت القوانين ، وخلال السنوات الأخيرة من القرن

= التوابل عن كل ألف دوكة من السلع الأخرى « ثم حددت نهائيا بعدد معين مسعر من أحمال التوابل سنويا ، وهى ١٠ أحمال بسعر لا يزيد على ٨٠ دوكة للحمل الواحد . الحمل الاسكندراني = ٥٠٠ رطل فرفورى « وقد أدى هذا الاجراء الى قيام نوع من الحساب الجارى بين الخزينة السلطانية وهيئة تجار البنادقة التى كانت مدينة باستمرار عن عدة سنوات خللت وظل هذا الاجراء متبعا حتى عام ١٥١٦ وان كانت البندقية قد ساومت أكثر من مرة فى سعر هذه الصنفية الاجبارية التى سبق تسعيرها . انظر :

توفيق اسكندر : المصدر السابق ص ٤٤ ملاحظة (١) .

— فى عام ١٤٩٦ حملت سفن البندقية من ميناء الاسكندرية ما قيمته ٢٠٠٠٠٠ دوكات ومن بيروت ١٢٠٠٠٠ دوكات وفى عام ١٤٩٧ حملت من الاسكندرية ما قيمته ٣٠٠٠٠٠ دوكة ومن بيروت ما قيمته ٦٠٠٠٠ دوكة . انظر : شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٥٨/٥٩ .

الخامس عشر صار تجديد القوانين على بنودها المعدلة (٦) . ومن السلع التى نقلها التجار الأجانب لمصر والشرق ، علاوة على منتجات المناجم ، الأخشاب والأسلحة والجوخ والشمع والعنب الطازج والمجفف والقراء والصوف والزعفران والمرجان والمصطكى والبندق والموالح . أما النيذ فكان محرما تعاطيه فى مصر بحكم الدين ، ولكن السادة المماليك كانوا يسمحون لأنفسهم أحيانا بشرب بعض أنواعه ، وكان يستورد لحسابهم من كريت خفية . وأسواق القاهرة كانت تزخر بأنواع مختلفة من الأقمشة الأوربية . فأرواب السادة المماليك تصلهم من البندقية وفلورنسا ودول شمال أوروبا ، ويجد هذا النوع من الأقمشة الصوفية والجوخ رواجاً فى الأسواق العربية لجودة نسجه ، وإن شابه أواخر العصور الوسطى الكثير من الغش ، وظهر هذا فى شكل احتجاجات فى المعاهدات بين المماليك والبندقية (٧) . بقى أن نذكر أن للسلطين المماليك تجارة خاصة بهم ، وهى تجارة الصقور أو الباز ، فكان السلطان المماليكى لا يخرج للصيد الا ومعه رمزه الباز ، وكانوا يدفعون فى الباز الواحد من الأنواع الممتازة مالا يقل عن ٣٠٠٠ دراهمة ، أو ما يوازى ١٥٠ قطعة من الذهب ، ونصف هذا الثمن للباز

(٦) من بين السلع التى استثنت من التحريم (الشب) إذ كان احتكارا للبابوية .

انظر : سعيد عاشور : المصدر السابق ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

قيصر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى (مترجم) ج ٢ ص ٤٢٦ حاشية للدكتور

زيادة .

فكرت البابوية بعد وقعة عكا ١٢٩١ فى إضعاف المماليك عن طريق حرمانهم من المواد اللازمة للحرب كالحديد والخشب والقار والكبريت وكذلك عدم شراء المتاجر منهم حتى تبور وتضعف دولتهم لذا أصدروا (قوانين التحريم البابوية) ومن بين السلع التى شملها المنع الرقيق الذى اعتمد عليه المماليك فى تكوين جيوشهم .

— Pernaud, Les Villes Marchands, pp. 30, 31.

— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 440.

— Depping, Op. Cit. T. II. p. 170.

— Day, & Hist. of Commerce, p. 79.

(٧)

— Poston, Camb. Med. Hist. of Commerce, Vol. II. p. 331.

الذى يموت فى الطريق . وكان البنادقة هم المتعهدين ويجتهدون فى الحصول على أفضل الأنواع (٨) .

ولقاء هذا كانت مصر تصدر من انتاجها الخاص للغرب : السكر من أحسن أنواعه والتمر والمواالح والكبر والبلسم والقطن والكتان والشب والصبغات . وأكثر الموانئ استقبالا للتجار للحصول على السلع المحلية والشرقية هى الاسكندرية حتى ان السلطات خصصت بابا فى منطقة الجمرى عرف باسم باب البهار وشارعا له نفس الاسم (٩) ، وقد احتجرت تجارة التوابل فى مصر مجموعة ضخمة من التجار ووكلاء البيوتات التجارية فى أوروبا ، يتولون عمليات التسويق والشحن وحسابات الجمارك وأحيانا هم الممثلون السياسيون لبلادهم فى بلاد السلطان الممالىكى وكان من صميم أعمالهم فرز التوابل لابعاد التالف (١٠) . ومنذ أن صارت هذه التجارة حكرا لسلطين الممالىك ، والشكوى تتردد عن غشها وخلطها بمواد غريبة وأتربة ، وأنها تغربل بغرايل مصمغة الخروج . وفى المعاهدات المتأخرة من القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر نص على نقاء هذه التوابل ، ونص كذلك على مراعاة عدم غش الجوخ والأنسجة الأوربية التى ترد لمصر (١١) .

— Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 442, 443.

(٨)

(٩) تولى اسكندر : نظام المفايضة فى تجارة مصر الخارجية — بحث فى المجلة التاريخية ص ٤٦ ملاحظة (٢) ويذكر ان البهار فى تجارة الاسكندرية الخارجية كان يحوز الاهمية التى تحرزها الآن تجارة الشاي والقطن الخام والمنسوج لانجلترا والسكر والتاباكا لكوبا . ويأتى فى الاهمية بعد البهار القرفة وجوز الهند والزنجبيل وخشب الساج والعاج والجواهر والاحجار الكريمة .

(١٠) خصصت السلطات الممالىكية وكالات للبهار وأسواق تحمل اسم العطارين لا تزال ، بالاسكندرية لليوم كمام صرحت بفتح فنادق لتجار هذه السلع لاقامتهم خلال وجودهم بمصر .

(١١) تردد فى معاهدات قايتباى مع البندقية وكذلك معاهدات الفورى شكوى تجار =

وعلى رأس قائمة السلع التى كانت تلقى رواجاً فى أوروبا فى العصور الوسطى : التوابل والأفاويه وهى من أسباب ثراء مصر فى عصر المماليك ومن أجلها دار البرتغاليون حول افريقية فى بداية لحركة كشف جغرافى واسع نقل العالم من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ، كما أنها كانت سبباً فيما عرف فى التاريخ بحروب التوابل والبهار . وكانت مدخلا لحركة الاستعمار الحديث فى الشرقين الأدنى والأقصى . ومن أهم هذه السلع : التوابل والبهار والأعشاب الطبية ، والصبغات والصبوغ والبخور والعطور والأخشاب والمعادن والأحجار الكريمة والمنسوجات، وتدفق تيار هذه المتاجر الى أوروبا من شرق البحر المتوسط حتى أحصى مؤرخو العصور الوسطى ٣٨٦ نوعاً من التوابل (١٢) . وكان أبرزها وأهمها وأكثرها طلباً فى أوروبا الفلفل . وقد اشتدت الرغبة فى الحصول عليه أكثر من أى تابل آخر على الرغم من ارتفاع ثمنه . ومصادره الهند والشرق الأقصى وشرق افريقية . والفلفل له ثلاثة أنواع الطويل وهو غير مستكمل النضج ، والأبيض الذى لم تصهره الشمس بعد ، ثم الأسود الناضج بعد تحميصه وهو أحسنها كلها « وهو حريف المذاق ذو رائحة طيبة ويشترط وجود الماء بكثرة فى جذوره وثمرته تشبه العناقيد ، وإذا اشتدت الشمس وارتفع حرها تنضم أوراقها على عناقيدها والا حرق الفلفل قبل أوان

الفلندرز والامان من غش التوابل وشكوى المصريين من غش الجوخ الوارد من أوروبا ونص فى المعاهدات على مراعاة ذلك من الطرفين . بالملاحق ونص المعاهدات رقم (٢) و (١٣) ب .

- Clerget, Op. Cit. pp. 343, 344, 345, 346, 347.
- Poston, Op. Cit. T. II. p. 351.
- Clive, Op. Cit. p. 79.

(١٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤٢٠ وما بعدها .

- Hyzayyin, Op. Cit., pp. 35-38.
- Poston, Op. Cit. Vol. II. p. 351.
- Lopez ; Med. Trade pp. 109-114.
- Day, Op. Cit. p. 79.

ادراكه (١٣) : والنوع الذى ينمو فى شرق افريقية يصدر عن طريق ميناء مقديشو وتنمو أشجاره على أميال طويلة على مدى البصر. وشجرته ذات عناقيد تتدلى منها كعناقيد العنب وتعطى ثمرها ثلاث مرات سنويا وتظهر زهور الفلفل فى شهر مارس ، وبعد أن تتلون تقطع وتغرس فى الشمس لتجف وتأخذ لونا أشهب ويتم ذلك فى شهر مايو ، أما الأنواع الأخرى فبعد أن تجف يصبح لونها أسود . والأهالى هنا يستخدمون الفلفل فى طعامهم وشرابهم ويقال انهم يضعون النيران تحت الشجرة لكى لا تقترب منها الثعابين كما يقال انهم يضعون الثمار فى الفرن لكى لا يعاد بذرها فى بلاد أجنبية (١٤) . وهناك نوع آخر لا يجلب من الشرق الأقصى ولا الهند ولا شرق افريقية وشاع استعماله فى مدن مونتبييه Montpellier وملقه Malaguetta وكان الايطاليون يتعاونونه من شمال افريقية . أما مصدره الأصلى فلم يكن معروفا حتى عصر الأمير هنرى الملاح عندما نقله بحارته معهم فى عودتهم من جنوب غرب افريقية . وأنواعه تفضل كثيرا أنواع الشرق الأقصى وعلى درجة كبيرة من النقاء ، اذ أن فلفل الهند داخله الغش فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر بعد وصول البرتغاليين للهند ، وبنشوب الصراع على التوابل بينهم وبين العرب قل الوارد ولجأ الباعة الى غشه لعدم وجود رقابة كافية بعد احتكار الدولة لهذه السلعة فكان يضاف اليه أنواع رديئة وأتربة مما أدى الى تكرار الشكوى من تجار البندقية

(١٣) ابن اياس : نشق الأزمهر (مخطوطة) ورقة ١٣٤ .

الجزرى : تحفة العجايب (مخطوطة) بدار الكتب رقم ط ١٣٤٤ ورقة ٤١٣ و ٤١٤ .

ابن بطوطة : المصدر السابق ج ٢ ص ١١٢ .

— Von Harff, Op. Cit. pp. 169, 170, 178.

« ساد الاعتقاد فى العصور الوسطى أن الفلفل ينبت فى جنوب التوقاز فى وحي الشمس وتقوم على حراسته الحيات والثعابين وعندما ينضج تشعل النار فى أشجاره فيسود بعد أن يكون أبيض » .

— Soniá, Op. Cit. p. 19.

— Harff, Op. Cit. p. 171.

وعملائهم تجار الفلاندرز والألمان ووفده بعضهم للاسكندرية لإعلان ذلك ومراقبة البيع ونص على نقاء هذه السلعة في معاهدة قايتباي ودوج البندقية عام ١٤٨٣ ومعاهدات الغورى والبنادقة وخاصة المعاهدة الشاملة (١٥) . والمثل الشائع في أوروبا في العصور الوسطى « ان شيئاً ما غال كالفلفل » ، ومنشأ ذلك أنه كان للفلفل قوة شرائية يتعامل بها في ظروف معينة فكان من العادات الشائعة بين رؤساء الكنيسة الفرنسية أن يتقاضوا العشور توابل ، فلفلأ أو جنزيبلا كما كان العبيد يشترون حريتهم بأحمال من الفلفل ، ويفرض على اليهود جزية ضرائية قوامها الفلفل والجنزيبيل والشمع . نظير السماح لهم بحق حيازة مدافن لموتاهم ومدارس لأبنائهم « وفي انجلترا كانت له قوة شرائية مثل العملة تماماً لندرته وغلوه بل انه كان يقوم مقام المال في الايجارات الزراعية ومهور الزواج » . (١٦) وساحل المالابار هو مصدر أوروبا من هذا التابل في العصور الوسطى وتزرع منه كميات كبيرة كذلك في كلكتا وسيلان والهند الصينية وإن كانت مدن ساحل مالابار أوفرها إنتاجاً . وعندما شدد البرتغاليون قبضتهم على الهند كان الفلفل يهرب الى مكة ومنه الى أوروبا كما أن بعضه كان يصل للصين (١٧) . وكمية الفلفل المرسلة الى أوروبا تصلها عن طريق مصر والبندقية حتى احتل البرتغاليون مناطق انتاجه فصارت لشبونة مركز تصدير لأوروبا (١٨) .

(١٥) بالملحق معاهدتي قايتباي والغورى الاولى برقم (٢) والثانية برقم (١٢) راجع

لذلك :

— Sonia, Op. Cit. p. 72.

— Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 658, 659-662-664.

(١٦)

— Sonia, Op. Cit. p. 20, 21.

(١٧) هناك أنواع أخرى أقل قيمة «تأتى على ما يذكر من الملايو والهند الشرقية وتقدر

حمولة المركب الصينية بعدد اسبات الفلفل التى كانت تحملها وفى عام ١٥١٥ كان ما حملته السفن الى الصين من الفلفل من جزيرة سومطرة حوالى ٦٠ر٠٠٠ قنطار ليعاد تصديره للغرب » .

— Hyzayyin, Op. Cit. p. 205.

— Heyd, Op. Cit. p. 660.

(١٨)

وللفل سيلان سمعة طيبة الا أن سيطرة البرتغاليين على تجارته فى الهند وسيلان فى مطلع القرن السادس عشر حجب وصوله لمصر وأوربا عن طريق البندقية ووصل بدله فلفل جزر الهند الشرقية والهند الصينية . وفلفل سومطرة من النوع الطويل ، وكان قبل ذلك نادرا ما يصل لمصر والغرب لبعده مصادره ولكفاية ما كان يصل من الهند (١٩) . وليس معنى ذلك أن الصين لا تزرع الفلفل ولكن الثابت أنها كانت تزرع كميات هائلة منه بالاضافة الى ما يرد لها من جزر الهند الشرقية والملايو ليعاد تصدير الكل على السفن الواردة من الهند ومن البحر الأحمر لأن موانئ الصين تستقبل السفن الضخمة (٢٠) . ولهذا كان سعر الحمل الذى يساوى أربعة جنيهات على السفن المتجهة مباشرة من الهند الى البحر الأحمر يساوى بعد خروجه من الصين حوالى ١٥ دوكات (٢١) . ومن أهم استعمالاته لدى الأوروبيين تأثيره القوى فى علاج بعض الأمراض وادخاله فى صناعة النبيذ وحفظ الطعام (٢٢) . واذا كان الفلفل قد استخدم بكثرة فى الأطعمة المتبلة وفى بعض حالات العلاج

— Heyd, Ibid, p. 665.

(١٩)

(٢٠) و ان كل شحنة مركب واحدة ذاهبة للهند أو الاسكندرية أو أى مكان آخر أو متجهة للمناطق المسيحية كان يأتى مئات أمثالها وأكثر الى ميناء زيتون بالصين .

— Hyzayyin, Op. Cit. p. 205.

— Clerget, Op. Cit. p. 343.

(٢١)

— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 663.

(٢٢) للفلفل تأثير قوى كعلاج للأمراض فهو عند مزجه بورق الغار يفيد فى حالات لدغ الكائنات السامة وعندما يمزج بالزيت يكون مرهما مقمولا قوى التأثير واذا أضيف الى النبيذ أفاد فى النزلات الشعبية والتهاب الرئة وهو يستخدم كثيرا فى تنشيط الجهاز الهضمى وحفظ اللحوم والاعذية لمدة طويلة .

— Sonia, Op. Cit. p. 20.

ويقول الجزرى : المصدر السابق ورقة ٤١٣ و ٤١٤ أنه حار يابس جدا وفيه جذب لاصول البلغم ويسكن المعصب ويلطف الاغذية الغليظة ويهضم الطعام ويمنع ظلمة البصر .

الطبي ، فان الشرق أنتج محاصيل عديدة اقتصرت الافادة منها على صنع العقاقير الطبية .

ولفظ العقاقير الطبية يفيد معنى الأدوية بمفهومها الآن ، وهو يتصل اتصالا وثيقا باقتصاديات المدن في العصور الوسطى وكانت القاهرة سوقا رائجة لتجارة الأعشاب الطبية وصناعة الأدوية من الأعشاب الواردة من الشرق وكانت معروفة لأهالي القاهرة وللعرب كافة وان غابت عن أفهام الأوروبيين في ذلك الوقت . وقد مهر المصريون منذ القدم في معرفة جواهر العقاقير الطبية والتوابل الشرقية وبيع من هذه الأعشاب مالا يقل عن ٦٠٠ قنطار تبلغ قيمتها حوالى ٣٠٠٠ جنيه تضاعفت الى خمسة أمثالها في النصف الثانى من القرن الخامس عشر بعضها للاستهلاك المحلى ، والبعض الآخر للتصدير لأوروبا بعد أن بدأ الأوروبيون يقدرون قيمتها العلاجية . هذه الأعشاب الطبية هى التى طورت طب العصور الوسطى الى الطب الحديث القائم على العلاج بالعقاقير حتى انه يقال « ان علم الكيمياء الحديث قد قضى على تجارة مصر وراثتها فى الأعشاب والعقاقير الطبية » (٣) .

ومن بين مئات السلع التى استخدمت كعقار طبي القرفة — القرنفل — الخلنجان — الزنجبيل — الهند شعيرق — وخيار شمر أو شنبّر — والراوند — والحفص — والمن والبلسم — والكافور وعرق الكافور — والعود الهندى — والحبهان — وجوزة الطيب — والزعفران — والتوتيا .

والقرفة أو الدارصينى من بين السلع التى دخلت فى صناعة العقاقير الطبية ولم تعرف فى أوروبا الا منذ القرن الثامن الميلادى ، وبخاصة فى فرنسا ، اذ كانت تصل مع العطور والبخور كهدايا للملوك والأمراء ، ثم عرفت عن العرب كمادة طبية تستخدم فى صناعة

— Clerget, Op. Cit. pp. 349, 350 & 356.

العقاقير (٢٤) . والقرفة اسم يطلق على لحاء شجرة القرفة ويعرفها العرب منذ العصور الأولى ، وتستخدم مطحونة في حفظ الأطعمة والنيذ كما كانت معروفة في موانئ شرق البحر المتوسط . وتأتي القرفة من ملقا وتصل القاهرة عن طريق البحر الأحمر . وفي فارس تعرف باسم « خشب الصين » نسبة إلى مصدرها القديم حيث كانت تتوافر في جنوب الصين كما أنها تنمو في الهند الصينية وعرفها الغربيون باسم أوراق الهند وقد نقل البرتغاليون منها كميات ضخمة أواخر القرن الخامس عشر حيث اتخذت عنصرا هاما من عناصر الدواء (٢٥) . ولم تذكر المصادر العربية أهمية سيلان في زراعة هذا التابل ، وإن ذكرته الكتب الغربية ورحلات الغرب منذ القرن الرابع عشر ، وهو في حوائث العطار في مصر سلعة من الهند وسيلان ، ويبادل أهالي ساحل كروماندل ومالابار القرفة بالملابس أحيانا (٢٦) . وهناك نوع آخر ينمو في اليمن (٢٧) . وشجرة القرفة تشبه شجرة الصفصاف إلا أنها تفوقها ارتفاعا وتنمو أفقيا لا عموديا ، وأجود ما فيها لحاؤها وأغصانها . ولحاء الساق سميك ، أما الأوراق فأكبر من أوراق شجرة الغار وإن كانت

(٢٤) تذكر مصادر العصور الوسطى شجرة القرفة باسم Cinamonan وأحيانا تختصر إلى Cinnam Or Cinamum والاسم الحديث هو Canella وهو أقل جودة من النوع المسمى Cynamome

- Heyd, Op. Cit. II. pp. 595-596.
 — Clerget, Op. Cit. p. 343.

(٢٥) يذكر ابن البيطار في الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ج ١ ص ٨٣ و ٨٤ . ١٠٤ « أن أصله من الصين لذا عرف باسم الدار صيني وأقل أنواعه يعرف باسم دار صوص ويسمى قرفة القزفل أما الدارصيني الحقيقي فهو أضخم وفيه حمرة ، وطعمه حريف قابض مع حلاوة ثم مرارة والنوع الرديء رقيق وصلب يميل للسواد يفيد المعدة ويجلو البصر وينهب البرد ويستخرج منه دهن يصلح كملين » .

الكوزى : المصدر السابق ورقة ٤١٤ .

- Heyd, Op. Cit. T. II. p. 598. (٢٦)
 — Sonia, Op. Cit. pp. 18-19. (٢٧)

تشبهها ، وثمرتها مثل ثمرة حبة الغار ويستخرج منها زيت قوى يستعمله الهنود مرهما للجروح والحروق ومتى جردت الشجرة من لحائها وثمرتها استعملت وقودا (٢٨) . وقد أدرك البرتغاليون منذ دخولهم الهند أهمية القرفة فى التجارة ، كما أدركوا أن قرفة قاليقوط أقل جودة من قرفة سيلان ، لأن سيلان تعنى بزراعتها وتوليها أهمية خاصة وتعنى باقتناء وغرس الأشجار الممتازة . لذا كانت أسعارها فى سيلان قدر أسعارها فى قاليقوط حوالى أربع مرات تقريبا (٢٩) . وأجود أنواع القرفة ذات اللون الأحمر الخفيف والطعم القوى الحريف (٣٠) .

ومن بين الأفاويه التى كثر استعمالها فى الأغراض الطبية فى العصور الوسطى القرنفل وقد ورد ذكره بكثرة كذلك فى الكتب التى تتحدث عن حفظ الأطعمة وبخاصة الأسماك فى طعام المسيحيين فى أوروبا خلال صيامهم الطويل كما تستخدمه الطبقات البرجوازية فى تبيل اللحوم أكثر من طبقات الأمراء . ومنذ الحروب الصليبية كثر استعماله بعد أن جلبت كميات كبيرة منه لأوروبا عن طريق موانئ شرق البحر

(٢٨) لا تستعمل القرفة فقط للحائنها ولكن كذلك لزهورها وتحتوى أوراقها على زيت طيب طيار ذو رائحة عطرية يغيد فى أمراض الأمعاء كملين وممرهم .

ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ١٠٤

- Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 599-600.
- Sonia, Op. Cit. p. 72.

(٢٩) كان غرض البرتغاليين من حملتهم الأولى على سيلان هو التحكم والاستحواذ على تابل القرفة (الدارصينى) المزروع بالجزيرة والذى بدا لهم أنه أفضل من المزروع على ساحل مالابار وأغلى منه ثمنا . ومع ذلك لم تكن سيلان معروفة بزراعتها ، وكان يظن أنه يأتى من الصين . وقتئذ القرفة فى سيلان يساوى ما قيمته ضعف ونصف مثيله وأحيانا يصل الى أربعة أمثال ثمنه فى مدن ساحل مالابار . وشجرة القرفة متوسطة الحجم والطول والبرتغاليون هم الذين ، اكتشفوا أن بسيلان أفضل أنواع القرفة .

- Darnes, Op. Cit. Vol. II. pp. 113-114.

(٣٠) وثيقة رقم ١٧٥ ص ٣٤٨ من راجوزا عام ١٤٥٨ عن فحص السلع ونصائح للمشتريين .

- Lopez, Op. Cit. p. 349.

المتوسط ، وكان ثمنه ضعف ثمن الفلفل حتى أوائل القرن السادس عشر لا سيما بعد أن دخل الصينيون كتجار له بالأسواق ، ثم انخفض السعر بعد ورود كميات ضخمة منه على يد البرتغاليين بعد أن داروا حول افريقية ولا تكاد تخلو صيدلية في العصور الوسطى من القرنفل (٣١) . وأواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر بلغ ثمن حمل القرنفل الذي يزن ٧١٥ رطلا بموازين البندقية ٢٥ دوكا تسليم ملقا وجاوة للتجار الوطنيين وما بين ١٠/١٢ دوكا للأجانب ، أما في قاليقوت فلم يقل سعره عن ٥٠/٦٠ قطعة ذهبية . ومن هنا عرف سيب ثراء تجار هذا التابل من الوطنيين والأجانب على السواء (٣٢) . وقد ظل مصدر تصدير القرفة الى أوروبا مجهولا فترة طويلة ولم يعرف الا أن الصين مصدره ومنها أخذ الاسم وإن العرب هم وسطاء نقله من الشرق عبر الخليج الفارسي أو البحر الأحمر ، ولكن ذكر مؤرخو الغرب أنه من زراعات الهند والأرخبيل الهندي وجزر ملوك وجاوة وسيلان (٣٣) . ولكن هذه الجزر في الواقع لم تكن أكثر من محطات تجارية على الطريق لغرب آسيا (٣٤) . وفي عام ١٥٠٤ كان الرحالة فارثيما أول أوروبي يضع أقدامه في جزر ملوك وشاهد بنفسه قرون القرنفل على أشجارها ووصفها والقرنفل المعروف الآن هو براعم الشجر (٣٥) . وينحني هذا البرعم بساقه وجزئه الأعلى المستدير

(٣١) Heyd, Op. Cit. II. pp. 603-604.

(٣٢) ابن البيطار : المصدر السابق ج ٤ ص ٨/٧ .

— Depping, Op. Cit. I. p. 44.

— Sonia, Op. Cit. pp. 18-19.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 655.

(٣٣) ابن البيطار : المصدر السابق ونفس الصفحات .

الجزري : المصدر السابق ورقة رقم ٥٢ .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 605. (٣٤)

(٣٥) اسم نبات القرنفل العلمي Bugenia Caryophyllata.

وبعد جمعه يعرض للشمس ويجفف ويعرض للبيع، ويشترط أن يحتفظ بلونه الأحمر القاني دليل نقاوته ويحق للتجار رفضه إذا كان على درجة من الاحمرار أقل من ذلك . أما أوراقه ففيها عطر طيار مثل الموجود فعلا في قرون القرنفل (٣٦) .

أما تابل الخلنجان فهو من المواد كثيرة الاستعمال في الطب وشجرته تعرف باسم « خسرودار » ولها عروق متشعبة ذات عقد لونها بين السواد والحمرة وترد من الهند وقد استعمله الغرب الأوربي في العصور الوسطى في الطب والطهي ويستورد من موانئ بيروت والاسكندرية وعكا . وفي الطب يميزون بين نوعيه الكبير وهو الأحمر القاني ويرد من الهند والصغير البني الخفيف ويرد من الصين (٣٧) .

واعتبر الزنجبيل في العصور الوسطى من أكثر التوابل شيوعا وتداولها ولا يقل في استعماله عن الفلفل والبهار وهو يطرح في الأسواق على صورتين إما أخضر وإما مخلوطا بالسكر ويدخل في صناعة العقاقير الطبية والطهي وحفظ وتحضير الخمور ويزرع بكميات كبيرة في الهند والصين وسمرقند وبعض البلاد العربية .

وزنجبيل بلاد العرب والهند هو الذي يصل الى أوروبا . والنوع الهندي ثلاثة أنواع الجبلى والبلدى والدلى ، ويزرع الأول والثاني

(٣٦) ابن بطوطة : المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٥ .

بذكر ابن بطوطة « ان ما يجلب لبلادنا هو نور القرنفل وهو الذي يسقط من زهرة ويشبه زهر النارنج وثمر القرنفل هو « جوزبوا » المعروف في بلادنا باسم جوزة الطيب أما الزهر المتكون منها فهو « البسباسة » .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 607.
— Lepez, Op. Cit. p. 349, DOC. 175.
— Ferrand, Instructions Nautique

(٣٧) الجزري : المصدر السابق ورقة ٤١٥ .

ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ٨٠/٧٩ .

يفيد الخلنجان في علاج أمراض الكلى والمعدة والقعدة الهوائية .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 617.

على الجبال وان كان الأول أفضل من البلدى ويكثر زراعتهما فى
قاليقوط حين يزرع الصنف الثالث على ساحل كانانور (٣٨) .

وهناك نوع آخر ينسب الى مدينة كولام (٣٩) ، والرطل منه
يساوى اذ ذاك مايوازي الآن عشرة فرائكات لكل ١١ أوقية صافى
ويرد لأسواق مكة زنجبيل مدغشقر وزنجبار ، ويباع بضعف سعر
الزنجبيل فى كولام (٤٠) .

ومن العقاقير الطبية الشرقية التى نالت شهرة عظيمة فى العصور
الوسطى فى الشرق والغرب على السواء « البلسم » انتاج شجرة
البلسان . وتكثر زراعة أشجاره فى حدائق المطرية بالقرب من القاهرة.
ولهذه المنطقة شهرة روحية عميقة فى مصر ، ومنذ العصور الوسطى
المبكرة وهى موضع احترام الناس على اختلاف أديانهم من مسيحيين
ومسلمين . وتقول القصة الدينية أن السيدة مريم فى هربها بالطفل
يسوع المسيح من طغيان هيرودس الحاكم الرومانى لبيت المقدس ،
نزلت والطفل ، ويوسف النجار ، هذه الناحية وجلست لتستريح على
الأرض والطفل فى حجرها بعد أن نال منهم التعب والعطش وهنا
حدثت المعجزة ، فقد أخذ الطفل المقدس يحرك رجليه كما تفعل الأطفال
عادة ، ولامس كعباه الأرض فتفجرت عين ماء فى ذلك الموضع وروت

(٣٨) — Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 619-620-622, 623. (٣٨)
— Sonia, Op. Cit. p. 19.

(٣٩) هناك نوع يحمل من بلاد المغرب وأرض عمان ويشبه فى طعمه طعم الفلفل ويحمل
ال ايطاليا فى أواني خزفية ويستعمل فى العلاج الطبى لأمراض ، القسبة الهوائية .
انظر :

ابن البيطار : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٧ .

— زنجبيل كولام يعرف باسم زنجبيل كولمبينو وهى غير عاصمة سيلان .

(٤٠) يذكر الجزرى نفس المصدر والورقة ان أجوده الصينى المائل للصفرة ويشبه
الفلفل فى منالمة .

أمه عطشها وغسلت له ثيابه. وحدث أن سقطت بعض البذور من شجرة
البلسان حيث الماء المتفجر ونمت أشجاره وازدهرت وأصبحت مزارا
للمسيحيين من جميع الأقطار بعد عودتهم من بيت المقدس للتبرك
بالشجرة المقدسة كجزء مكمل لحجهم . وقد نالت المنطقة وأشجار البلسم
بها رعاية حكام مصر على اختلاف طوائفهم (٤١) .

وتذهب الروايات الى أنه البلسم المذكور معجزة من المعجزات وأن
أفضله لا ينبت بمكان ما على الأرض الا بالمطرية . وفي رأيهم أن هذا
قد يكون لقداسة المكان أو لطيب أرضه وصلاحيته لنمو هذا النوع
من الشجر . وتجري عصارة الشجرة في موسم بعينه من السنة فتتضخم
الشجرة وفروعها بشكل ظاهر ويعمد عمال الحديقة الى احداث الشقوق
في لحائها متفادين خشب الشجرة نفسه وأحيانا ينزعون الورق فيسيل
السائل السحري ويجمعونه في أوان وقدور خاصة ويلاحظ ضرورة
سد الشقوق بعد فترة مناسبة حتى لا تموت الشجرة لكثرة ما قد ينزف
منها من عصارة ، والسعيد من نال قطرة على قطعة قطن مندوفة
والعصارة المجموعة توضع في قدور في وهج الشمس ويطفو الزيت
وتهبط الشوائب ثم يؤخذ ويغلى على النار فيكتسب لونا أحمر جذابا
ويعتبر هذا من أرقى الأنواع . ومحصول العام الواحد يزيد على ٦٠
رطلا في أو في الأعوام (٤٢) .

(٤١) « نالت الاشجار والمنطقة المزروعة بها شهرة عالمية ودينية كما أن طريق الحج
عبر سيناء يمر بهذه القرية التي تبعد عن القاهرة مسافة ٤ فراسخ » .

- Harff, Op. Cit. p. 127 & R. I.
- Heyd, Op. Cit. T. II. p. 575.
- Clerget, Op. Cit. p. 530.
- Sonia, Op. Cit. p. 15.
- Depping, Op. Cit. T. I. p. 73.

ابن اياس : نقش الازهار ورقة ٣١ و ٣٢ .

(٤٢) يذكر ناصر خسرو في رحلته « أن حب البلسان لا ينبت حيثما يزرع واذا نبت
في غير مكانه فلا يخرج زيتا ، وشجرته مثل شجرة الآس ويشذبون غصونها بالتصل حين
تكبر ويربطون زجاجة عند موضع كل قطع فيخرج منه الدهن ، كالصمغ وحين ينفذ ما فيها =

والبلسان احتكار سلطان مصر وتراقب عملية جمعه مراقبة شديدة لقلة الناتج وكثرة الطلب عليه وغلاء سعره . ويبيع المحصول لحساب السلطان فهو صاحب المزرعة ، لذا سورت منطقة أشجاره ووضع عليها الحرس ليلا ونهارا ويحضر السلطان بنفسه جمع المحصول وتقطيره ويضعه في كئوس من الفضة (٤٣) . ويتولى اهداء هبات وهدايا الى ملوك وأمراء ورؤساء جمهوريات الدول المسيحية في أوروبا التي تتعامل معه وملك الحبشة ، كما كان يمنح منه هدايا للشخصيات الدينية الكبيرة المارة ببلاده ويذهب جزء آخر الى المستشفيات لعلاج المرضى . وما يتبقى منه يباع لحساب السلطان بأسعار عالية . وكانت بعض

من دهن تجف ويحمل البستانيون غصونها الى المدينة ويبيعونها . ولحاؤها ثخين وطعمه كاللوز حين يقشر وينبت في جذعها الأغصان في السنة التالية فيعملون بها كما عملوا في السنة الغابرة . (لم يلحق ناصر خسرو عصر المماليك الذين احتكروا نتاج الأشجار المذكورة وفي القرن ١٥ أصبحت المزرعة ملكا لسلطينهم) انظر زكى حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى - رحلة ناصر خسرو ص ٥٦

— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 575.

— Sonia, Op. Cit. p. 15.

(٤٣) البغدادي : الافادة والاعتبار ص ١٠/٩ . « ان أشجار البلسان في عين شمس محاطة في مساحة سبعة أفدنة ، وارتفاع شجرة البلسم نحو ذراع أو أكثر من ذلك وعليها قشران : الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين ، وإذا مضغ ظهر في الفم منه مادة دهنية ورائحة عطرة وورقه يشبه ورق السذاب ويجتنى دهنه منذ طلوع الشمرى ، بأن يشدخ الساق بعد ما تجث عنها كل أوراقها وشدها يكون بحذر بحجر بحيث يقطع القشر الأعلى ويشق الأسفل شقا لا ينفذ للخشب . فإذا نفذ للخشب لم يخرج منه شيء . وإذا شدخ كما أسلفنا أمهل ريشا يسيل لثاء على العود فيجمع بأصبع في قناني زجاجية ويجمع منه سنويا ٢٠ رطلا . (يقول هايد ص ٦٠) وتؤخذ القناني فتدفن في القيقظ والحر الشديد ثم تعاد الى الشمس وتفتقد كل يوم ويطلق الدهن ويقطف ثم تعاد ثانيا للشمس ولا يزال كذلك حتى لا يبقى فيها دهن ثم يؤخذ الدهن يطبخ ولا يطلع أحد على طبخه ثم يرفع الى خزانة الملك ويصل جملة المجموع النقي عشر الكمية) .

أما الجزري : المصدر السابق ورقة ٤٨٤ فيذكر « أن شجرة البلسان أو البلسم تشبه الآس ، ويقال ان السيد المسيح عليه السلام اغتسل في هذا البئر ، وهو يقلم في الثاني والعشرين من طوبة ويسقى الى آخر هاتور - ويستخرج دهنه بأن تشرط الأغصان بشرط من حجر وكذلك الجذع ويجمع ما يخرج منها بالظفر في الأصناف والقوارير وتدفع الى رجل نصراني يعرف طبخه ولا يعلمه الا لولده ، وهو آمن دهن في الدنيا » .

— Sonia, Op. Cit. p. 16.

الشخصيات التي تحصل عليه هبة تباع ما يهدى اليها للأجانب للحصول على حاجتهم من هذا الزيت المقدس عند المسيحيين ، اذ أن ملوك الفرنج كانت تتغالى في شراء هذا البلسم بثقله ذهباً لأنه لا يتم عندهم التنصر الا بعد وضع شيء من دهن البلسان في ماء المعمودية وينغمسون فيه، ويستخرج الدهن من الشجر في شهر برمهاث من كل عام (٤٤) « وما يصرف منه باذن السلطان يكون بمرسوم عال ويرسل كذلك لمسلوك الحبشة (٤٥) » . ولكثرة حاجة المسيحيين لهذا الزيت يعتمد بعض التجار الى تزيفه ، فكان السلطان يعاقب بشدة كل من يثبت أنه باع بلسماً مهدى للأجانب أو بلسماً مغشوشاً ، وعمال الحديقة هم الذين يتولون عملية الغش اذ تترك لهم فروع هذه الأشجار فينالون بقاياها ويتولون بيعها لحسابهم الخاص بعد عصرها ، والدهن المستخرج نوع ردىء غير نقي مختلط بعصارات أخرى من أشجار مختلفة (٤٦) ومع ذلك كان يباع

(٤٤) ابن اياس : بدائع الزهور (طبعة كالة) ج ٤ ص ١٤٩ حوادث ذى الحجة

٩١٤ هـ .

— Harff, Op. Cit. pp. 127, 128 & R. I. p. 127.

يذكر هارف « أنهم يقطعون أطراف الشجرة في شهر مايو من كل عام ، ويتركون السائل الذي هو عصارتها ليسيل في أوان معدة لذلك ، وهذه هي نقط البلسم ويفعلون ذلك ثلاث مرات ، وثالث قطعة أفضل من الثانية وهذه أفضل من الأولى (أخطأ هارف في هذا والعكس هو الصحيح) ويرسل السلطان أجود الأنواع هدية كل عام الى بابوات أوروبا وملوكها ولسلطان تركيا وخان الصين وامبراطور الحبشة (وكان يظن أنه القس يوحنا) بملك الهند » .

في وثائق تنازل السلطان قايتباي اداريا عن قبرص للبنداقية رسالة من السفير البندقي للدوج عن احوال مصر عام ١٤٨٩ م وموجودة بالملحق رقم (٤) عن منح السلطان للمبعوث البابوي كمية من البلسم هدية فقرة (١) وهي ترجمة الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر .

— Senato, Secreta xxxiv fo 30-33.

(٤٥) ابن اياس : نشق الازهار (مخطوطة) ورقة ٣٢ .

— Breydenbach, Les Saints Peregrination, p. 39 & N. 2 p. 45. (٤٦)

يذكر برايدنياخ « أن البلسم الممتاز لا يوجد الا في مطرية مصر ، وله مركز ممتاز على العالم المسيحي ، ويدير سواقي الحديقة أربع ثيران لكي تروى بصفة دائمة ، وغش البلسم يكون بماء الورد » .

— Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 575-580.

بأسعار خيالية . ولما كان المستخرج لا يكفى عمد التجار الى خلطه بأنواع رديئة مستوردة لتقليل الثمن وسد حاجة السوق مما قلل قيمته الشفائية للأمراض (٤٧) .

ولم تكن المطرية بمصر هي التى تحتكر وحدها زراعة البلسان ، وان كانت تحتكر بالفعل أفضل أنواعه فقد وجدت أنواع أخرى أقل قيمة كانت تختلط بالنوع النقى لسد حاجة السوق ووجدت فى الشام وفلسطين واليمن (٤٨) . وان كان قد قل انتاجه فى القرنين ١٣ و ١٤ واقتصر على ما تنتجه مصر وحدها . وعلى أى حال فان البلاد العربية تنصدر انتاج هذا الزيت بدليل أنه لما أهملت فى مصر فى أواخر القرن الخامس عشر، صار تجديدها بعد ذلك بأشجار من البلاد العربية . فمنذ وفاة السلطان قايتباى ومنطقة المطرية لا تحوز اهتمام الحكومة، وأهملت العناية بالشجرة وانهار محصوله وتجارته ثم دمرت خلال الصراع على السلطنة بين الناصر محمد بن قايتباى وقانصوه خمسمائة ١٤٩٧ م (٤٩) . وانقطعت زريعته من أرض المطرية حتى ولى السلطنة

— Depping, Op. Cit. I. pp. 73-74.

(٤٧)

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 576-577.

— Sonia, Op. Cit. p. 15.

(٤٨)

(٤٩) يعزى تدمير منطقة زراعة البلسم بالمطرية الى قانصوه خمسمائة الذى عزل السلطان محمد بن قايتباى وتولى السلطنة بدله ولكنه لم يثبت عليها سوى ثلاثة أيام دعى بعدها السلطان المعزول مرة ثانية . والرحالة هارف عاصر هذه الأحداث ورأى بنفسه الصراع على السلطة ، فأعلن قانصوه نفسه سلطانا على مصر بعد أن عزل السلطان محمد ابن قايتباى على أنه من المماليك المشتراء وليس من أولاد الناس الذين لا يحق لهم اعتلاء العرش مثل ابن قايتباى وكانت المادة أن يعتلى الحكم ابن السلطان المتوفى ويبقى به حتى يستقر الأمر على سلطان من المماليك المشتراء . ولاحظ هارف أن هذا الأمر لا يهم الوطنيين بل يهم المماليك وحدهم وان كان الخراب والدمار يصيبان الأهالى . وبعد ثلاثة أيام استطاع محمد بن قايتباى أن يسترد السلطة وفر قانصوه ليلا وتسلسل وأعوانه الى المطرية حيث مزعة السلطان من أشجار البلسم ورثها عن أبيه فاقتلع أعوانه الشجر الصغير ودمروا السواقي وذبحوا الثيران وسبوا الأرض فى المنطقة المقدسة ، وشاهدوا

قانسوه الغورى « وتكدر السلطان لذلك ولا يزال يفحص أمره حتى أحضر اليه بلسان برى من بعض أماكن الحجاز وهو فى طينه فزرعه بالمطرية فى المكان المشهور به فنتج وطلع لما سقى من ماء تلك البئر التى بالمطرية وطلع ما كان قد بطل أمره من مصر فعد ذلك من محاسن الملك الأشرف الغورى (٥٠) . ثم حدث بعد ذلك أن بعض المخربين جردوا الحديقة من أشجارها مرة أخرى ونسبوا ذلك لبعض الأجانب، وبدأ الناس يقطعون أشجارها ويستعملوها للحريق حتى استولى الأتراك على مصر فاعتنوا بها وبدأ ظهورها مرة أخرى ، ولو أن لونه أصبح أشهب ، ويعرف الجديد باسم بلسم مكة لأن شتلاته منها (٥١) . ومصر وحدها هى التى كان ينمو بها شجر البلسان الأثنى ، أما الشجر الذكر فينمو فى إيران وبلاد العرب ونتاجه أقل من الأثنى ولونه أشهب (٥٢) وكان الكيميائيون فى أسبانيا والصيدالة فى القرن الخامس

هاتف بنفسه على هذا الوضع المؤثر وحمل أحداها معه ويقول ان الأهالى أخبروه بأنه لن ينمو بلسم منذ الآن الى عشر سنوات قادمة »

— Harff, Op. Cit. pp. 104, 105-127, 128.

— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 578.

— Dopp, Op. Cit. p. 30.

(٥٠) ابن اياس : المصدر السابق : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٤٩ حوادث ذى الحجة

١١٤ هـ

— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 578.

— Dopp, Op. Cit. pp. 29, 30.

(٥١) من الرحالة الأجانب الذين شاهدوا آثار التخریب مارتن دى باوم جارتن.

Martin De Baum Garten وبيير مارتير دا انجلييرا Pierre Martir D'Angliera

— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 579.

— Clerget, Op. Cit. p. 352.

(٥٢) البلسم النقى بلون الذهب واذا وضع فى الماء غاص للقاع والانواع الاخرى.

شهباء بالملحق رقم (٦٤) فقرة (٢) .

— Lopez, Op. Cit. p. 349. DOC. 175.

— Day, Op. Cit. p. 79.

عشر يعرفونه باسم «حب البلسان» وعرفت هذه الأنواع فيما بعد فى منتصف القرن السادس عشر (٥٣) .

ومن أنواع السلع التى كثر استخدامها فى صناعة العقاقير الطبية فى العصور الوسطى الكافور وعرق الكافور ، وترجع معرفة العرب له الى أيام فتوحاتهم الأولى فى فارس ويرد إليها من الهند وجزر الهند الشرقية ويحصلون عليه بعد أحداث شق فى الشجرة فيسيل السائل فى أوانى وأحيانا يحصلون عليه من قلب الشجرة نفسها ، ويرد للتجار العرب خاما أو نقيا وله أنواع وألوان وخواص شتى حسب مصادره . وأفضل أنواعه مايرد من سومطرة والصين وجزر بورنيو ، ولم ينتبه الأوروبيون لكافور هذه الجزيرة الا بعد وصول البرتغاليين إليها وكان كافورها يصل قبلا للهند عن طريق ملقا (٥٤) . ويذكر المؤرخون العرب ورحالتهم أن تجارتهم بالهند ضخمة حتى أن الواحدة منها تظلل مائة رجل وأكثر ولا يوجد بها السائل الكافورى الا فى أوقات معينة من السنة حيث يثقب وسط الشجرة وتملأ منه الأوانى ثم تسد، وأجود أنواعه ما يسمى باسم المقاصيرى (٥٥) وهناك نوع آخر فى سيلان وجزر الهند الشرقية والصين وسوقاله يعرف باسم الرياحى الأبيض (٥٦) . أما الغرب الأوروبى فكان يحصل على الكافور فى

(٥٣) استقصى الرحالة بيلون Belon عام ١٥٤٩ عن نوع حب البلسان Grain de Baum
لعرف أنها زراعة من نصف قرن تقريبا مضى من أصول من مكة والمدينة .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 579.

— Heyd, Ibid, II. pp. 592-593. (٥٤)

(٥٥) الجزى : المصدر السابق ورقة ٤١٧ و ٤١٨ « يذكر انه يفيد فى تقوية الاعصاب والقلب والكبد ويذهب الرطوبة » .

(٥٦) ابن البيطار : المصدر السابق ج ٤ ص ٤٢ و ٤٣ . ويعرف نوع منه باسم الرياحى نسبة الى أول من عرفه .

— Ferrand, Op. Cit. II. p. 112.

العصور الوسطى من اليابان وجزر فرموزا ويستعمل العرب كافور بورنيو ، وقد قلت كمية الكافور في العصور الوسطى بسبب سوء استعمال الأهالي للشجرة وترك السائل ينزف منها دون سد ثقبها . وتستخدم الهند كميات كبيرة منه في تحنيط الجثث وتعطير ، المعابد والتماثيل ، كما كان يصدر بعضه للبلاد العربية وأوروبا وسعر الكافور يتضاعف عند نقله خارج موطنه لمصاريف النقل والجمارك وبخاصة في القرنين ١٥ ، ١٦ م حيث كثر الطلب وقل المعروض ، وعمد تجاراه الى غشه ، وأصبح النوع المتداول لا ينفى بالأغراض الطبية المطلوبة (٥٧) ويشترط في الكافور أن يكون أيضا نظيفا غليظ القوام (٥٨) . ويذكر مع الكافور عرق الكافور ويرد للغرب من شرق البحر المتوسط ويباع على أنه الكافور الوارد من الشرق الأقصى والهند ومصدره كذلك سنغافورة وجاوة (٥٩) .

ومن هذه السلع أيضا ثمرة ذات نواة من نوع فواكه الخوخ والبرقوق وهي الهند شعيرة المعروفة باسم الاهليلج وتمثل في العصور الوسطى إحدى السلع التجارية كثيرة الاستخدام في الطب ، ويذكر الرحالة الشرقيون والغربيون خمسة أنواع لها (٦٠) . ومصدرها الهند

(٥٧) كثر استعمال هذا النوع في الطب وكثر وجوده في حوائث الصيدلة في العصور الوسطى « العطارين » في مصر وأوروبا وعرف الغرب خواصه عن العرب والبونان فاكثروا استعماله في عياداتهم .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 594 & ff ;

— Sonia, Op. Cit. p. 17.

— Depping, Op. Cit. I. p. 143.

(٥٨)

— Day, Op. Cit. p. 80.

— Lopez, Op. Cit. p. 349, DOC. 175.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 676.

(٥٩)

(٦٠) يذكر الجزري : المصدر السابق ورقة ٤١٧ « ان المعروف منه أربعة فقط : الاصغر وهو الفج ، والاسود وهو البالغ ، والكابل الاكبر ، والصيني الرقيق ، واحسن الانواع الشديد الصفرة الضارب للفضة ، وهو يفيد في علاج امراض المعدة والأمعاء والبصر ، ولتحضيره كعلاج طبي يمزجون ٣ أنواع منه يطلق عليها اسم Triphala .

وأفغانستان وخراسان وأكثر أماكن نموها ، ساحل الملابار بالهند وخاصة منطقة كولام . وفي الشمال تمتد مناطق زراعته حتى كابول في أفغانستان ، ويحصل الغرب الأوربي على حاجته من هذه المادة من أسواق الاسكندرية التي يصلها من قاليقوط ومنجالور . ويجب الهنود هذا التابل لمقدرته على الهضم وشفاء أمراض المعدة والأمعاء . وظل الأهليلج هذا لفترة طويلة على رأس قائمة عقاقيرهم الطبية (٦١) ولما كثر استعماله ارتفع ثمنه حتى أمكن الاستغناء عنه بعقاقير أخرى أكثر استجابة من هذا النوع في شفاء الأمراض . وفيما بعد اقتصر استخدامه على الصبغات (٦٢) .

وهناك سلعة عقاقيرية أخرى اقتصر استعمالها في الشرق هي « خيار شنبر أو خيار شمبر » . وقد أتيح لتجار الغرب المارين بالاسكندرية أن يروا هذا النبات مزروعا في حدائق الاسكندرية وحول المدينة ، وهو نبات غريب عنهم وتستعمل الأجزاء العليا من ساقه حتى البراعم وتدخل في صناعة العقاقير الطبية (٦٣) . وتباع في أسواق القاهرة والاسكندرية ودمياط كما تجود زراعته في جميع أراضي مصر (٦٤) . ويذكر رحالة العصور الوسطى هذا النبات كأحد أشجار

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 640-641.

(٦١)

— Heyd, Ibid, II. p. 643.

(٦٢)

(٦٣) يستعمل في الطب كمدر للصفراء وتسكين آلام الأورام وضيق الصدر كما يفيد في آلام المفاصل .

الجزري : المصدر السابق ورقة ٤١٦ .

ابن البيطار : المصدر السابق ص ٨٢ .

(٦٤) يذكر ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ٨١ أن هذا الشجر مألوف ويعرف في الاسكندرية ويحمل الى الشام والبصرة .

ويذكر الجزري : المصدر السابق ورقة ٤١٦ انه لا ينبت الا بأرض مصر وأجوده ساقه البراق الأملس القشرة .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 602.

الهند ، وبخاصة في كانانور وقاليقوت وجاوة . ويساورنا الشك الكثير في وصول (خيار شمير) الى أوروبا عن طريق مصر من الهند لتوافره في مصر والواقع أن وصوله للغرب من الهند كان بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح وأنهيار الطريق البحري من البحر الأحمر ومصر (٦٥) . وحجم شجرته قدر حجم شجرة الجوز وورقه كورقته الا أنه أصغر قليلا وزهره يظهر في شهر سبتمبر (٦٦) .

ويمثل الراوند أحد السلع الرئيسية في صناعة العقاقير (٦٧) . ويعرفه العرب من قديم الزمان ويرد بكثرة من الصين كما يوجد كذلك في جبال أورال وتزخر به مناطق واسعة من وسط آسيا ويصل منه لأوروبا أنواع عدة منها الروسى والتركى والصينى وأنواع من خراسان والتبت والهمالايا ، وطريق البحر الأحمر هو طريقه الطبيعى وهم يفضلون في أوروبا النوع الصينى ويجمعه الصينيون من صحراء بلاد التتار . وكانت البندقية تتلقى كميات كبيرة منه من البحر الأسود (٦٨) .

وهناك نوعان آخران من السلع التى تستخدم فى صناعة العقاقير الطبية وكثر الطلب عليها فى الشرق والغرب وهى العفص والمن .

(٦٥) يذكر البغدادي : المصدر السابق ص ١٧ « أنه يشبه شجر الخروب ، الشامى وزهره أصفر كبير ذو رائحة نهجة فاذا عقد تدل ثمرة كالمقراع ، وأفضل أنواعه الفليظ والثقيل ولا تحدث بذرتة صوتا عند دحكها ويجب أن يكون ساقها كاملا والا يتقشر لحاؤها » .

- Heyd, Ibid, II. p. 603.
- Lopez, Op. Cit., p. 349, DOG. 175.

(٦٦) ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ٨١ .

(٦٧) الجزري : المصدر السابق ورقة ٤٦٢ يذكر أن « من أنواعه الصينى والخرسانى ويفيد فى أمراض المعدة والكبد والكلى ولونه أخضر كالزبرجد لين المجس ويتكون من معدن النحاس ومن عجيب أمره انه يصفو بصفاء الجو ويتكدر بكدرته » .
ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ١٣٠ .

- Day, Op. Cit. p. 80.
- Heyd, Op. Cit. II. pp. 666-667.
- Depping, Op. Cit. I. p. 145.

(٦٨)

ويتكون الأول عندما تثقب حشرة فرع شجرة القرو أو أى شجرة أخرى من أشجار الصبغة من نفس العائلة ولونه أخضر غامق نوعاً وأسوأ أنواعه الأشهب ويأتى به من اليونان وآسيا الصغرى كما يصل الى الاسكندرية من بلاثيا Palatia وجاليوبولى وسبالاتيا وكاندالور (٦٩) . أما المن فمن حاصلات بلاد العرب وما جاورها وهو أجود الأنواع المعروفة ، ويفضلون النوع الذى يسقط على الحجر ومركز تجمعهم فى مكة وتنسب وثائق الغرب الحديثة تسميته الى مكة لذا يعرف باسم ماكينا Machina كما أثبتت البحوث الحديثة الطبية أن أجود أنواعه هو المكى ومن شبه جزيرة سيناء حيث يجمعه الأهالى ويصدرونه للقاهرة والاسكندرية وأوربا . وهو يعتبر سلعة عابرة لأوربا من القسطنطينية وفاماجوستا ومصر والشام . ولما كان يرد معظم كمياته من الشام فقد ساد الاعتقاد أنه احدى حاصلاتها . وعلى أى حال فإن صيادلة وأطباء الغرب الأوربي ألحوا فى طلب المن العربى . وفى فترة انقطاع الصلة مع العرب ، كان الغرب يحصل على حاجته منه من جزيرة صقلية (٧٠) .

ومن بين الغلات الطبيعية الشرقية التى كثر تداولها فى الغرب وبخاصة للأغراض الطبية « العود الهندى » المعروف بالصبر الكبدى وأحياناً يطلق عليه اسم العود فقط أو الصبر فقط . وهو ينمو طبيعياً فى جزيرة سقطرى على مشارف الطريق من الهند الى شرق أفريقيا والبحر الأحمر ، وهو ثلاثة أنواع ، كل نوع له لون يتميز به وبخاصة فى الطب تختلف عن الأخرى ، فمنه نوع يميل لونه الى الأصفر الليمونى المشوب بالحمرة ، والنوع الثانى لونه أصفر غامق ، والثالث لونه أصفر

— Heyd, Op. Cit. II. p. 644.

(٦٩)

— Clerget, Op. Cit. p. 353.

— Heyd, Op. Cit. II ; p. 633

(٧٠)

كالح . وأعطيت الأولوية في التجارة العالمية للعود الليموني الأصفر المشوب بالحمرة، ويعرف في كتب الطب القديمة ولدى الصيادلة بالعود الرقيق . أما النوع الثاني الغامق فيرد ذكره بكثرة في كتب العصور الوسطى المختصة بالتجارة والرحلات ، ويرد ذكره كذلك في الاتفاقيات والمعاهدات الخاصة بالجمارك ورسومها مع الكثير من السلع المحددة. رسومها لأهميتها التجارية ، وأحيانا يؤخذ اسمها من لونه فيقال له « العود الكبدي » تمييزا للونه عن غيره . أما النوع الثالث ذو اللون الباهت فيندر ذكره لقله قيمته وندرة استعماله (٧١) . وأشهر مناطق انتاجه علاوة على جزيرة سقطرى وحضرموت في بلاد العرب ، وفي كمباي والبنجال بالهند . أما في الغرب الأوربي فقد وجدت أنواع منه في أسبانيا وجزر اليونان وجنوب إيطاليا وإن كانت أقل جودة من النوع السقطري . وهذا النوع يرد ذكره بكثرة في كتب رحالة وجغرافيين العصور الوسطى العرب والأجانب ، وامتاز عن سائر الأنواع بالجودة ورخص السعر . وقبل وصول البرتغاليين إلى الهند كان يصل لأوروبا عن طريق مصر وسوريا وقبرص وعرف باسم عود سقطرى (٧٢) .

(٧١) يذكر هايدي « أن النوع الأصفر الليموني أحسن الأنواع وأشهرها وأكثرها استعمالا » .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 563-564.

حين أن لوبيز يذكر أن (العود الكبدي) وهو النوع الثاني من حيث اللون والصنف أجود الأنواع وخاصة إذا كان خاليا من الشوائب الجلدية وهو غامق لون الكبدي ، وأحيانا يكون كلون القار الأسود لامعا ، كما أن اللون البنفسجي دليل الجودة » .

— Lopez, Op. Cit. p. 348, DOC. 175.

(٧٢) يذكر الجزري : المصدر السابق ورقة ٣٣٢ و ٤٦٥ « أن الصبر السقطري مأخوذ من الزعفران وراثته كالمزج والنوع الهندي منه يفيد طبيا في أمراض الصدر وسقوط الشعر » .

ويذكر ابن بطوطة : المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٥ « أنه يشبه شجرة البلوط وأوراقه كأوراقها ولا ثمر له وقشرته رقيقة وعيدانه وورقه غير عطري » .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 560-561.

— Ferrand, Op. Cit. II. p. 447.

ومن السلع التي استخدمت كثيرا في الطب والطعام الجبهان وجوز الطيب والأول من المواد المتداولة بكثرة في العصور الوسطى في أوروبا كدواء وعرفت فوائده عن العرب ، والفرس كما أضيفت الى الأطعمة كتابل لحفظها ، وخاصة في الغرب المسيحي لطول الصوم عندهم . ويصل لأوروبا عن طريق الاسكندرية . وفي التجارة يفرقون بين ثمرة الجبهان الخشبية ، وتلك التي تجلب من الحدائق ، ولا تزال هذه الميزة موجودة حتى الآن . ويرد الجبهان من الهند الصينية وكانانور وقالقوت وأجوارهما (٧٣) .

أما جوزة الطيب فتابل معروف من قديم الزمان في التجارة الشرقية ومصدرة الهند وجزر الساحل الشرقي ، وثمرته لها قرون مثل قرون القرنفل وأحسن أنواعه ما يرد من جاوة وسومطرة وبورنيو وجزر الهند الشرقية . ويرد لبغداد من أسواق سلطانية وسمرقند ويصل لأوروبا من الهند بطريق البحر الأحمر وعدن ويستخدم في الأغراض الطبية والطهي وتحضير الخمور ، وزادت أسعاره أواخر القرن الخامس عشر لقلّة المعروض منه في مصر وأسواقها حيث بلغت أثمانه عامي ١٥١٠ و ١٥١١ ضعف ثمنها قبل ذلك . وفي سجلات البلاط الفرنسي في ذلك الوقت أن نصف الرطل من جوزة الطيب يساوي ١٢ دينارا (٧٤) .

ولا تذكر الجواهر الطبية في العصور الوسطى دون الإشارة الى مادتي التوتيا والزعفران . فالتوتيا حجر له ألوان عدة منها الأخضر والاصفر والايض ويجلب من الهند ، وأجود أنواعه الابيض ثم الأصفر ثم الفستقي وهي معروفة عند العرب ، وعنهم عرفها الغرب ، ويذكر حجر التوتيا دائما مقرونا بالاسكندرية ، وان كان مصدره ايران

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 601, 602.

(٧٣)

— Day, Op. Cit. p. 80.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 644-645-646-648.

(٧٤)

وخاصة كرمان وأصفهان ، كما يوجد كذلك في الهند والصين . ففي أجوار أصفهان توجد مناجم الزنك وهي التوتيا الطبيعية ، وشبه جزيرة ملقا غنية بهذا الحجر بصورته الطبيعية وبها مصانع لتنقيته واستخلاصه ، ويصل لأسواق فارس نوع معين منه يعرف باسم « حجر الصين الحديدي » وفي الهند أمام كمباي توجد جزيرة بها حجر التوتيا ، ويرسل بكميات كبيرة لمختلف الأقطار الإسلامية . وتستخدم التوتيا بعد تنقيتها في تحضير سوائل العلاج لأمراض العييون كما أنه نافع للقروح السرطانية (٧٥) .

أما الزعفران أو الكركم فقد عرف في أوروبا من مصادر في شرق البحر المتوسط وإيران . ويزرع منه نوع في أسبانيا جلب بذوره العرب بعد فتح الأندلس ، وبذلك توفر في أسواق أوروبا دون الحاجة إلى جلبه من الشرق وكانت مصر وقبرص أحيانا تستوردانه من أوروبا . وزعفران أسبانيا يفضل عن غيره ، وإن كان زعفران إيران أميز منه ، ويعرف في أسواق أوروبا باسم زعفران أصفهان ، وزعفران همدان وزعفران حلوان . وأطباء العرب يعرفون الزعفران من قديم الزمان ويستخدمونه في العلاج الطبي ، كما أنه أطباء العصور الوسطى كانوا يصفونه كثيرا كعقار طبي (٧٦) . واستخدم كذلك في الطهي والعطور . وألوان الرسم لتعدد ألوانه بعد خلطه بغيرها (٧٧) . وتشير وثائق

(٧٥) الجزري : المصدر السابق . ورقة ٧٨٤ . . .

ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ١٤٣ - ١٤٥ .

بزرگ : عجائب الهند بره وبحره ص ١٧٦ .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 674-675.

— Ferrand, Op. Cit. p. 586.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 668-669.

— Clerget, Op. Cit. p. 343.

— Clive, Op. Cit. p. 82.

(٧٦)

(٧٧) « يستعمل الزعفران الأصفر النقي والزعفران العربي المسمى « الورد » في التلوين ، وهو يشبه السمسم ويكثر باليمن ، وكانت جمال اليمن تحمل الزعفران إلى الشمال فيصفر لونها بتأثير لون أحمالها من الكركم » .

العصور الوسطى المتأخرة الى كثرة غش الزعفران (٧٨) .

ومن السلع - ان صح أن تسمى سلعة - التي كانت تلقى رواجاً في شرق البحر المتوسط وخاصة في دولة السلاطين المماليك - الرقيق - الأبيض والأسود . ويصل للقاهرة من أسواق آسيا الصغرى وأوروبا وأفريقية ، وقد لجأ المماليك الى شراء الرقيق الأبيض من مواطنه في الشمال منذ منتصف القرن الثالث عشر لتكوين جيوش محاربة منهم بالإضافة الى رغبتهم في تزويد قصور الحريم عندهم بالعنصر النسائي وتجديدهن من حين لآخر . ويرد ميعوثو المماليك كل الأماكن التي يستطيعون الحصول منها على الرقيق من الجنسين حتى من البلاد المسيحية ، ثم يعتنقون الاسلام ، وان كانوا أحياناً كثيرة يفضلون الرقيق من الأقطار الاسلامية في وسط آسيا (٧٩) . على أن أهم مصادر هذا النوع من المتاجر ، ان حق أن يقال انه سلعة تباع وتشترى ، فهو بلاد الانغريق (٨٠) ، وحول بحر قزوين ، وأرمينيا ، ومناطق البحر الأسود ، وفارس ، وآسيا الصغرى ، وبلاد ما بين النهرين وبلاد التتار ، وبلاد القوقاز والجرس . ومن عادة قبائل هذه البلاد بيع الآباء لفلذة أكبادهم وخاصة الفتيات اذا أعوزهم الجوع وثقلت

متر : المصدر السابق (مترجم) ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٧٨) كثرت الشكاوى أواخر العصور الوسطى من غش الكرم وقد فحص مفتشو مجلس مونتبييه رسالة كركم واردة من قطلونيا وقرروا انها منشوشة وغير صالحة للبيع » انظر :

— Lopez, Op. Cit. pp. 270-271. DOC. 141. Chap. 17.

(٧٩) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر المماليك ص ١١ وما بعدها .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 555.

— Clive, Op. Cit. pp. 78.

(٨٠) وصل منهم الى السلطنة خشمقدم الرومي ٨٦٥/٨٧٢ هـ ١٤٦٧/١٤٦٠ وتعرفه

في جماد أول - رجب ٨٧٢ هـ - ١٤٦٨ م .

— Depping, Op. Cit. II. p. 298.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 556.

عليهم الضرائب . ولم يلق رواجاً منهم سوى سلمي البنية أو جميلي
القسمات (٨١) ، وتركزت تجارة الرقيق في ميناءى « كافا وتانا » على
البحر الأسود ويخضعان للجمهوريات الايطالية التجارية، لذا كان اتجاه
وكلاء سلاطين مصر الى هذين الميناءين وخاصة الأول منهما حيث
خصصه الجنويون المسيطرون عليه لتجارة الرقيق وحده . ومارس
الجنويون هذا النوع من التجارة لحساب السلاطين المماليك منذ
القرن الرابع عشر وحصلوا على الرقيق من الشركس والقوقاز والروس
والأمم الأخرى المجاورة وباعوهم بأسعار مرتفعة (٨٢) ولما بدأت تجارة
جنوة تنهار بعد ضمها لفرنسا وانتقلت تجارة الرقيق الى البندقية
تولى تجارها شراء العبيد بأسعار رخيصة وباعوهم للسلاطين بأسعار
مرتفعة وربح مجز وكان هذا النوع من التجارة من عوامل ثراء البندقية
وخاصة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر حين ازداد الطلب من
السلاطين المماليك للعبيد لتزويد فرقههم وجيوشهم بهم (٨٣) . وكثيرا
ما هدد السلاطين المماليك البنادقة والجنويين بتدمير تجارتهم اذا
امتنعوا أو تلاعبوا فى توريد الرقيق (٨٤) . وبعد عودة العثمانيين من

— Depping, Op. Cit. II. p. 298

(٨١)

— Heyd, Op. Cit. II. p. 556.

(٨٢) نصت المعاهدات بين السلطان برسباى والجنويين عام ١٤٢١ على ان تقوم جنوة
بجزويد السلطان بالعبيد وتنقلهم على سفنها الخاصة ، وقد وصل الى كافا شخصية جنوية
كبيرة ، وكان مقيما بالقاهرة ليقوم بصفة رسمية بتسهيل جمع ونقل العبيد لمصر .
— Dopp. L'Egypte Au Commencement Du 15ème Siècle Fo. 39
pp. 64-65.

— Depping, Op. Cit. II. p. 208.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 557-558.

(٨٣)

— Depping, Op. Cit. I. p. 56.

(٨٤) حدث خلال حكم السلطان برسباى ان حاول الجنويون التحكم فى هذه التجارة
لصالحهم مما رأى قومه برسباى حدوث اضرار بالنسبة للمنطقة فقرض غرامات ضخمة
وهدد بتدمير وكالاتهم فى بلاده وبلغت الغرامات خوالى ١٦٠٠٠٠ ذوك .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 558.

أوروبا عام ١٤٦١ الى آسيا الصغرى على عهد السلطان محمد الثانى العثمانى ، واستيلائهم على الولايات والامارات التركمانية فى شمال العراق وأرمينيا ، وما نتج عن ذلك من سد الطرق والمنافذ للتجارة — ولا سيما بعد سقوط إمبراطورية طرايزون وموانئ التجارة على البحر الأسود فى يدهم حيث مراكز تجمع الرقيق ثم سقوط ولايات كرمان ودلفنادر ومرعش وغيرها على عهد السلطان بايزيد الثانى العثمانى وبسليم الأول العثمانى ، وهى طريق مرور العبيد الى الشام — قل ورودهم الى مصر . وكان هذا على رأس أسباب الجفوة بين المماليك والعثمانيين ^(٨٥) . ولما سيطر العثمانيون على هذه المناطق والطرق المؤدية الى مراكز جلب العبيد ، تجكموا فى تجارتها واشترطوا ألا تحمل السفن رقيقا من المسلمين ، ورفضت جنوة من جانبها نقل العبيد من المسيحيين ووافقت على نقل المسلمين منهم على سفن مؤجرة لحساب سلطان مصر وعلى مسئوليته ويقتصر عملهم هنا على الشراء فقط . وبالرغم من ذلك وصل الى القاهرة أعداد كبيرة أحيانا من الرقيق المسيحيين والمسلمين على السواء ^(٨٦) .

على أن المتاجرة فى الرقيق عامة والمسيحيين منهم بصفة خاصة كان مشار سخط ومعارضة البابوية فى روما واتهم البابا يوحنا الثانى

(٨٥) عمل العثمانيون منذ استيلائهم على إمبراطورية طرايزون عام ١٤٦١ على منع توريد الرقيق للمماليك حتى لا يقوى جانبهم ، كما أنهم كانوا يعملون فى الوقت نفسه على تزويد جيوشهم بحاجتهم من الانكشارية من هذا المصدر وعلم المماليك بما فعله العثمانيون الذين تعللوا كذلك بحجج واهية لمنع بيع الرقيق من المسلمين مما أدى الى مشاكل بينهما على عهد السلطان بايزيد الثانى وسليم الأول اللذين وضعا نصب أعينهما حرمان المماليك من هذا المصدر الذى يقرون به أنفسهم .

— Varthema, Les Voyages De..., pp. 17-18 & R. x.

(٨٦) كان الجنويون يمتدّون كثيرا الى الخديعة والتحايل فيحملون على سفنهم رقيقا من الطائفتين ولكن يؤجرون هذه السفن للمصريين حتى يتفادوا سخط المارة فى موانئهم أو فى طرقهم البرية ، وسخط حكومتهم التى حرمت المتاجرة فى الرقيق المسلمين . وكان للبنادقة أسطول خاص بالرقيق المصرى به والمهرب . وذكر قس جنوى عام ١٤٥٥ وهو Parthelemi Parete أن جنوة أجرت سفنا للمصريين تحمل رقيقا مسلمين ومسيحيين .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 558.

— Depping, Op. Cit. I. p. 208.

والعشرون تجار جنوة وحكومتها بأنهم بهذا النوع من التجارة يعززون قوة العرب العسكرية ضد المسيحيين الغربيين (٨٧) . وأدلى اليهود بدلوهم في هذه التجارة فكانوا يشترون العبيد الروس والمغوليين والشركس من كافا ويبيعونهم بسعر يبلغ عشرة أمثال ثمن الشراء للمسلمين في أسبانيا ، واضطر هؤلاء الرقيق الى ترك دينهم مما جعل البابا يعلن حرمان من يقوم بهذه التجارة الشائنة من رحمة الكنيسة ، وأمر بترقيم ملابس اليهود المتهمين بممارسة هذه التجارة (٨٨) .

ومن مراكز تجارة العبيد البيض أيضا تركيا نفسها وبخاصة في جاليوبولى ومنهم الألبان والسلاف والصربيون (٨٩) . وشملت هذه التجارة كذلك رقيقا من افريقية ، ولصلة البرتغال الوثيقة بافريقيا فانه منذ عهد الأمير هنرى الملاح وتجارة الرقيق العبيد تأخذ طريقها الى أوروبا برغم التحريمات البابوية ، وبرر ملوك البرتغال هذا العمل منهم بأن الرقيق وثنيون ، وانهم يعملون على تحويلهم الى المسيحية (٩٠) . واذا كانت هذه التجارة قد قامت على أكتاف البنادقة والجنويين فاننا قليلا ما نجد هذه السلعة ضمن قوائم تجارة بيزا وفلورنسا لشدة تعلقهم باليابوية ، واتباعهم نصوص تحريماتها . وفي البندقية كثر عدد الرقيق ، حتى أنهم مارسوا التجارة والصناعة المحلية في البندقية ذاتها ، ومنهم الشركس الذين اتخذوا صناعة الحلوى مصدر رزقهم وبلغوا أقصى أعدادهم عام ١٤٦٣ م (٩١) .

(٨٧) وما قالته البابوية في هذا المجال « ان المتاجرة في الناس حذر لادميتهم وتقوية لاعداء المسيحية » .

— Pernaud, Op. Cit. p. 30.

— Depping, Op. Cit. I. p. 179.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 558.

— Dopp, Op. Cit. pp. 14-15.

— Day, Op. Cit. p. 79.

— Sonia, Op. Cit. p. 68.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 562.

(٨٨)

(٨٩)

(٩٠)

(٩١)

والقاهرة والاسكندرية من أكبر مراكز تجمع الرقيق ، فيُصلون عن طريق دمياط والاسكندرية في أعداد ضخمة ، وتختلف أسعار العبد تبعاً لحالته الصحية أو سنه أو مصدر جليه أو وسامته اذا كانت فتاة، وكان أخيرهم وأعلاهم سعرا التتري حيث كان يصل سعره ما بين ١٣٠ و ١٤٠ دوكا ، ويليه الشركسي من ١١٠ و ١٢٠ دوكا ، ثم الاغريقى ابتداء من ٩٠ دوكا ، والألبان والسلاف ما بين ٧٠ و ٨٠ دوكا — والعبد الأسود يصل سعره ما بين ١٥٠ و ٢٠٠ درهم . وقد يصل الى ١٠٠ دينار أحيانا ومن له مؤهلات أخرى كالجمال أو القوة أو الغناء أو المهارة بأنواعها فيصل ثمنه الى ٤٠٠ دينار . والشبان أكثر طلبا من الرجال والفتيات أكثر طلبا من النساء . وفي القرن الخامس عشر كان يصل للقاهرة سنويا ما لا يقل عن ٢٠٠٠ عبد (٩٢) . أما العبيد الخصيان فنكثر انتشارهم في العالم الاسلامي ، وفي دولة سلاطين المماليك ، ومعظم من كان يصل منهم من السودان والوجه القبلي كان يخصى (٩٣) . وبالقاهرة وكالة خاصة باسم الجلابة . وهي مركز تجمع الرقيق حيث يستطيع أى فرد أن يشتري ما يشاء من الرقيق الأسود . وخانهم بالقرب من جامع قايتباي ، أما البيض فكان سوقهم في وكالة كشك وخان جعفر ، وكانت أسواق القاهرة عامرة بهم ، ويتولى المجتنب مراقبة حركة البيع والشراء وكذلك استخدامهم (٩٤) . ويحصل التجار المصريون على عمولة شحن عن نقل الرقيق وخاصة السود منهم ، وبالإضافة الى أسواق القاهرة كانت هناك أسواق رئيسية في الشام

— Clerget, Le Caire, pp. 340-341, 342.

(٩٢)

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 558-562.

— Ency. Of Islam, Art. «Abd».

— Hakhyt Society, Vol. V. pp. 274 & Vol. VI. pp. 26.

— Clerget, Op. Cit. p. 242.

(٩٣)

— Journal Asiatique, T. xvii pp. 30-37.

(٩٤)

وفلسطين وآسيا الصغرى (٩٥) . وكان المسيحيون يمنعون من شراء العبيد من المسلمين أو استخدامهم (٩٦) ومنذ أن تشدد العثمانيون في مرور شحنات العبيد عبر بلادهم الى ممالك مصر ، وهذه السلعة تقل في أسواق مصر والشام ، كما أنها أصبحت تجارة محلية وتحت إشراف الممالك مباشرة ، فكان للسلطان المماليكى أمراء طبلخانات مختصون بشراء الممالك بأنفسهم ، ومنهم جاز بردى التاجر على عهد السلطان الغورى ، وقد غضب عليه السلطان لتآمره مع غيره من الأمراء للتخلص من السلطان الغورى وقبض عليه ونفى الى الواح ثم عين « الأمير نوروز أغا أزدمر الدوادار » وأقره بدل الأمير المغضوب عليه (٩٧) . ويبدو من هذا الخبر الذى أورده ابن اياس أن كل شئ فى مصر المماليكية فى أواخر سنيها قد أصبح احتكارا حتى العبيد الذين تزود منهم السلاطين . ولجأ الممالك لهذا الاحتكار بسبب حجز العثمانيين للرقى . ويقال ان من أسباب الحجز اضعاف الممالك ورغبة السلاطين

(٩٥) يمتد التتار فى فندقهم بالاسكندرية سوقا دائمة حيث يباع الرقيق من الرجال والسيدات والأطفال وتختلف أسعارهم حسب قيمة العبد وصحته ومصدره فى حدود ١٥ - ٢٠ - ٣٠ دوكات . وقبل شراء الرقيق يفحصون جيدا من أطرافهم للتأكد من سلامة بنيتهم ثم يزايدون على أثمانهم ، وهذا بمثابة بورصة أسعار دائمة طول العام فى فندق التتار - وزار ، حارف خلال وجوده بالاسكندرية سوق العبيد بها ، وسجل ما شاهده فى جلسات المزايدة .

- Clerget, Op. Cit. p. 343.
- Hakluyt Society, Op. Cit. Vol. V. pp. 275, 276 & Vol. VI. p. 27.
- Von Harff, Op. Cit. p. xxiii.

(٩٦) حاول أحد رفاق الرحالة فابرى الذى زار الاسكندر وسوق العبيد بها وفندق التتار وهو الكونت سولز Solms أن يشتري عبدا مسلما من الاسكندرية وحاول مثل هذه المحاولة فى زيارتهما للقاهرة حيث كان يتوفر العبيد المسلمون والمسيحيون من الجنسين ولكن ادارة السوق رفضت لأن الشريعة والقانون هنا يحزمان بيع العبد المسلم للمسيحيين وان كان العكس مقبولا مباحا .

- Fabri, Op. Cit. III. pp. 164-165.
- Harff, Op. Cit. p. 95, R. 5.

(٩٧) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٩٧ و ٩٨ حوادث ربيع آخر ٩١٢ هـ .

- Hsyd, Op. Cit. II. p. 562.

طرق التجارة الدولية - ٢٢٥

من آل عثمان في الحصول على حاجاتهم من الانكشارية لتقوية جيوشهم لمواجهة أعدائهم المسيحيين في أوروبا ، والصفويين في إيران والمماليك في مصر والشام (٩٨) .

ولم تقتصر التجارة على التوابل والعقاقير فقط انما شملت كذلك العطور والبخور ومن أنواعها : عود الند ، والمسك ، وخشب الصندل ، والعنبر ، والبخور ، واللادن ، والمصطكى ، والبان الجاوى ، وقد ورد معظمها من أسواق الشرق الأقصى ، وفارس ، وبلاد ما بين النهرين في العراق ، وتصل للقاهرة عن طريق البحر الأحمر والشام ، وسوقها رائجة في القاهرة ويرث تجارتها المصريون أبا عن جد (٩٩) . وعلى رأس قائمة الأخشاب العطرية الشرقية « عود الند » ويرد ذكره أحيانا كثيرة في سجلات تجارة الشرق والغرب في العصور الوسطى ويصل منه للغرب قليل لكثرة استهلاك الشرق له . وأشهر أسواقه ميناء زيتون بالصين اذ كان الصينيون يكثرون حرقه في معابدهم أمام الآلهة . وفي الهند يستعمل لنفس الغرض ، كما أن بعضه يذهب لخزائن الأمراء ، والبعض الآخر للأسواق ، ورغم أن الغربيين لم يقبلوا على عود الند ، كعطر من العطور ، مثل ما فعل الشرقيون في العصور

(٩٨) يبدو أن منح العثمانيين للرقيق عن المماليك كان عمدا لضعافهم كمقدمة لغزو مصر وكذلك لسد حاجة جيوشهم من الانكشارية وقد وضع هذا من خلال رسالة السلطان سليم الأول العثماني للسلطان المماليكي الغورى الذى تسلمها عن طريق خاير بك . وفيها يقول للغورى « انت والذى وأسالك الدعاء ... وانى ما زحفت على بلاد علاء الدولة الا باذنك ... أما التجار الذين يجلبون المماليك والجراكسة فانى ما منعتهم انما هم تضرروا من معاملتكم فى الذهب والفضة فامتنعوا عن جلب المماليك اليكم وان البلاد التى اخذتها من علاء الدولة أعيد لها اليكم ، وجميع ما تروثه فعلناه » .

— ابن اياس : المصدر السابق ج ٥ ص ٥٨ — ٥٩ حوادث ٩٢٢ هـ .

عل أن الحوادث دلت عل أن هذا الكلام خدعة من سليم الأول وخيانة من خاير بك قصد بها التعمية .

زيادة : نهاية دولة سلاطين المماليك ص ٢١٦ .

— Clerget, Op. Cit. pp. 355-356.

(٩٩)

الوسطى حتى المتأخرة منها ، فإن الند كان يدخل كذلك فى القوائم ضمن المواد المطلوبة للعقاقير الطبية ، كما كان يدخل فى صناعة الأثاث الفخم ، وكانت أهم أسواقه فى القسطنطينية البيزنطية والعثمانية ، وفى القاهرة ، ودمشق ، والاسكندرية ، وبيروت ، وفاماجوستا بقبرص ، حيث توافر فيها بكثرة حتى ان أحد الرحالة لاحظ وجوده فى دكان عطار بكمية تزيد على حمولة « خمس عربات كبيرة » (١٠٠) . أما مصادر هذا العطر الفخم فيذكر رحالة العرب وجغرافيوهم أنه من اقليم « كمرونى Kamrony بين الهند والصين ، ولعلها مملكة الهند القديمة . وهذا النوع هو أجود الأنواع على الإطلاق ، وذكر أن مصادره من آسام الغربية وهى لا تزال ليومنا هذا تنتج هذا العطر ، كما أن جزيرة سيلان تنتج أنواعا منه لا تقل أهمية وجودة عن عود نده آسام . وند جاوة أفخر الأنواع على الإطلاق ، ويحمل على ظهر الأفيال لمراكز التصدير ، وعرف هناك باسم خشب كاكولا Bois De Kakoula وهى وعلى كل حال فقد نقله العرب من مصادر انتاجه فى جزر الهند الشرقية وسيلان والهند الصينية الى مصر والشام والغرب الأوروبى ، وشاهده البرتغاليون فى نفس هذه الأماكن وأطلقوا عليه اسم Kalam Bouk وهى إحدى مناطق الهند الصينية (١٠١) .

ومن العطور النفاذة الزكية الرائحة : المسك وهو انتاج حيوانى يؤخذ من الحيوان المعروف باسم قط الزباد « (١٠٢) . ويوجد المسك

— Heyd, Op. Cit. II. p. 581.

(١٠٠)

(١٠١) من فوائده علاوة على استعماله كمطر زكى الرائحة ، اضافته للبيد فيفيد فى تهدئة الانفعالات النفسية والازمات القلبية .

— Heyd, Op. Cit. II p. 588.

— Sonia, Op. Cit. p. 15.

(١٠٢) هذا الحيوان نوع من الظباء ويعيش فى التبت والصين ويرعى الحشائش وله نابان معقوفان كانياب الليل ويعرف باسم .

Moschferus — Musculus — Musc Male.

فى غدة فى بطن هذا الحيوان عند سرته ، فاذا ما حكها فى الحجر انفجرت وأفرغت ما بها ويخرج التجار يجمعونه من رائحته العبة الزكية . وأحيانا تصاد غزلان المسك بعد أن تنصب لها الشباك حيث توجد فى المنطقة الممتدة بين التبت والصين . ومسك التبت يفضل مسك الصين لغنى مرعى التبت ، كما أن مسك الصين كثيرا ما يغش . وتوجد أنواع أخرى فى سيلان وجاوة وجزر اليابان . ويرد كثير من تجار العرب الى الجزء الشرقى من الهند سعيا وراء أفضل الأنواع النقية وينقلونه الى أوروبا سواء أكان نقياً أم مغشوشاً (١٠٣) . والعرب والفرس يكثر من استعمال المسك ، ويصل مسك الصين لغرب أوروبا وآسيا برا وبحرا ، ولطول المسافة يفقد جودته أحيانا . أما مسك التبت فيصل بطريق البر وأحيانا بطريق البحر - وعدن سوقه الطبيعى . والمسك الذى يصل لفارس يمر أولا بالتركستان ويفرغ حمولته فى الخليج الفارسى فى ميناء دارين Darin بالقرب من البحرين ، لذا كان يحمل اسم المسك الدارينى Musc Dariny (١٠٤) . وكميات المسك التى تصل لغرب أوروبا عن طريق غرب آسيا تسلك سبيل القوافل والطرق البرية والبحرية التجارية وقد امتلأت أسواق المدن على هذا الطريق بالمسك الزكى الرائحة (١٠٥) . ومع وجود البرتغاليين فى الهند الا أنه كان يصل عن طريق موانئ مصر ويروت كذلك ، فينقل أولا الى ملقا ومنها يعاد تصديره الى عدن ، فالاسكندرية أو الخليج

(١٠٣) الجزرى : المصدر السابق ورقة ٢٤١ .

ابن البيطار : المصدر السابق ج ٤ ص ١٥٥ (يذكر فوائد الطبية) رينود - سلسلة التواريخ ص ١١٠ - ١١١ .

— Ferrand, Op. Cit. II. pp. 463-464.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 637.

— Depping, Op. Cit. I. pp. 41, 42.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 638.

(١٠٤)

(١٠٥) ابن البيطار : المصدر السابق ج ٤ ص ١٥٥ .

الفارسي وبيروت . ومناطق أخرى كانت تتبع الطريق البري.
الى هرمز (١٠٦) .

ويحمل العرب خلال رحلاتهم الطويلة - تجارا أو رحالة - قطعاً من مادة صلبة ذات لون رمادي تشبه الشمع لها رائحة زكية عطرية نفاذة. اذا ما احترقت وهي التي تعرف باسم العنبر ، وتحتل مكان الصدارة بين أنواع العطور الممتازة . وقد اختلفت الآراء حول مصدرها : فكثيراً ما كان يعثر عليها بين أمواج البحر وعلى الشواطئ ووسط الصخور والأعشاب وفي أجسام الأسماك (١٠٧) . ويذكر بعض الرحالة العرب أنه يوجد في قاع البحر وتلفظه الأمواج على شواطئ عدن ، ويذكر آخرون أنه ينمو في قاع البحر كالاسفنج ويلقيه الموج على الشاطئ ، ويكتفى البعض بالقول بأن العنبر من مستخرجات السمك . ويذكر آخرون أنه موجود أصلاً في الأسماك (١٠٨) . والعنبر لدى العرب صنفان : أحدهما جيد والآخر رديء ، وتقاس درجة الجودة والرداءة بالنسبة لجزء الجسم الذي وجد فيه العنبر في الحيوانات البحرية ، ويؤكد سكان جزر الملديف واللاكديف من مجموعة جزر أندمان ونيكوبار أن العنبر هو افراز طائر ضخيم وأنه رائحته ترجع لنوع الأعشاب التي يلتهمها هذا الطائر ، ويظل جزء منه في هذه الجزر وهو الجزء الأفضل والباقي تحمله الرياح والأمواج الى الشواطئ الأخرى ، وجزء ثالث تبتلعه الأسماك فتحدث لها عسر هضم وتقيؤه ،

— Heyd, Ibid, II. pp. 639-640.

(١٠٦)

(١٠٧) الجزري : المصدر السابق ورقة ٣٢٥ - يذكر الجزري « انه ينبت في بحر الهند ويأكله السمك ثم يطفو فيصطاده الصيادون بالكلايب الى الساحل ويأخذون العنبر من جوفه . انظر كذلك :

رينود : سلسلة التواريخ ص ١٢ .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 571.

(١٠٨)

وهو أردأ الأنواع (١٠٩) . ويذكر مؤرخو العرب قائمة طويلة للبلاد التي تنتج العنبر وتتاجر فيه ومعظمها في المحيط الهندي على خط طول يبدأ من الشاطئ الشرقي لافريقية عند بربرة والزنج وينتهي في الصين وتشتهر جزر الساحل الافريقي بأشهر وأفخم أنواعه . أما مناطق انتاجه الغنية في اقليم سوهار على شاطئ بلاد العرب الجنوبي حيث كان الأهالي يستعينون بالجمال وضوء القمر على اكتشافه ثم جزر كوريا موريا والملاياف واللاكديف وجزر نيكوبار على شاطئ كروماندل شرقي الهند (١١٠) . وهناك نوع آخر يرد من سيلان يعرف باسم Verzin ويعرفه العرب باسم برسيلا (١١١) . ويصل العنبر لأوروبا بطريقتين : أحدهما البحر الأحمر من المحيط الهندي ، ومركزه في عدن وجدة ، والثاني الخليج الفارسي حيث كانت تزخر به أسواق بغداد والبصرة . ويحصلون على أنواعه الفاخرة كذلك من أسواق الاسكندرية وقاماجوستا وبيروت والقسطنطينية (١١٢) . ولا يقتصر وجوده على البحار الشرقية ، انما يوجد كذلك في البحار الغربية في أسماك المحيط الأطلسي وشواطئ البرتغال واسبانيا وبحر البلطيق وان كانت أنواعه غير ممتازة ، ويصدر لجميع البلاد حتى مصر نفسها (١١٣) . ويجهز العنبر في صورته التجارية على هيئة قطع

(١٠٩) ابن البيطار : المصدر السابق ج ٣ ص ١٣٤ - يقول ابن البيطار « ان العنبر روث دابة بحرية ، وينبت في قاع البحر وتأكله بعض دواب البحر ، فاذا امتلأت منه قذفته رجيما عطر الرائحة . وأجود أنواعه الأشهب القوي السلايطي ، ثم الأزرق ، ثم الأصفر وهو أردؤه » وذكر مثل ذلك ابن الأثير الجزري ٧٨٢ هـ ولكن ابن البيطار يسبقه ٦٤٦ هـ .

— Depping, Op. Cit. I. p. 141.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 572.

— Depping, Op. Cit. I. p. 141.

— Dopp, Op. Cit. p. 63.

— Depping, Op. Cit. II. pp. 311, 312

— Heyd, Op. Cit. II. p. 573.

— Dopp, Op. Cit. p. 63.

(١١٠)

(١١١)

(١١٢)

(١١٣)

صغيرة منتظمة الشكل وعلى هيئة المسبحة ، وهو يستخدم فى الطب ،
اذ أنه عطر الرائحة مقو للقلب (١١٤) . كما استخدم فى شتى الأغراض
بكثرة فى العصور الوسطى فى الشرق . أما صنعه كعطر فكان هواية
كبار الشخصيات فى أوربا ويوضع فى جفان خاصة أو أكياس أو
صناديق ، وفى الشرق تصنع منه العقود والمسابيح والأزرار والتماثيل
كما كان يطعم به الخشب المحفور فى بيوت الأمراء (١١٥) .

ومن أخشاب العطور التى شاع استعمالها بكثرة فى العصور
الوسطى وخاصة فى الشرق الأدنى ، خشب الصندل الذى يحتوى على
عطر طبيعى نفاذ . وتذكر المصادر من العصور الوسطى ثلاثة أنواع له:
منه الخشب الأحمر والأبيض والليمونى ، والنوع الأخير هو العطرى ،
لذا كثر استعماله فى الشرق وخاصة فى البلاد التى تتبع طريقة حرق
جثث موتاها ، فكانت تحرق بالخشب المعطر فى أثناء الاحتفال الدينى
وتعطر بها الأجسام ضمن ما يوضع بها من عطور وروائح ، ولذا غلا
ثمنه وقل غشه ، وخاصة المصدر منه للغرب اذ كان على رأس قائمة
العطور الواردة من الشرق . وتزخر به أسواق سيراف بالخليج الفارسى
وكالة بالهند وخاصة أنواعه الممتازة . ويذكر تجار ورحالة العرب أن
أصله من جزر المحيط الهندى ، وبعد وصولهم للملايو وجدوا جزر
تيمور تزدهو بهذا النوع من الأشجار العطرية كما وجدت أماكن أخرى
ينمو بها مثل جاوة وسومطرة وملقا والهند الصينية . وأنواع خشب
الصندل الثلاثة من أصل واحد ، ويفضل الأوروبيون النوع الأحمر حين
يفضل الشرقيون النوع الليمونى (١١٦) .

(١١٤) ابن البيطار : المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٤ .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 573. (١١٥)

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 585-586-587. (١١٦)

— Clerget, Op. Cit. p. 362.

ومن أنواع العطور كذلك البخور ، وهو العصير الأبيض الذى يسيل عند احداث شقوق فى لحاء أنواع معينة من الأشجار ، وتقدر جودته بدرجة نقائه وبياضه ، لذا يميز الرديء بخلطه بلحاء الشجر والتراب ، وأحسن أنواعه من بغداد وآسيا الصغرى أما بخور الاسكندرية فمن نوع رديء وليس معنى ذلك أنه من انتاجها ، ولكنه يرد لها ويغمر أسواقها ، وتصل أحسن أنواعه الى الغرب عن طريق ميناء لاجاسو وقبرس . ويقترن اسم البخور دائما بجنوب بلاد العرب والصومال فى المنطقة المواجهة لبلاد العرب ، وأحسن مناطق زراعته المهرة وشبير جنوب بلاد العرب ، وكان لارتباط هذه البلاد بالعراق بقوافل التجارة أثره فى غمر أسواقه بهذه الأنواع من البخور . وفى اليونان كانوا يخلطونه ببعض أنواع أخرى ويبيع تحت اسم البخور اليونانى (١١٧) .

واللادن أحد أنواع البخور ولا توجد هذه السلعة فى الشرق الأقصى ، كما أنها غير معروفة فى شرق البحر المتوسط ، ويكثر نموها فى جنوب أوربا وسواحل آسيا الصغرى وكان يظن أنها من قبرس ولكن ذكر التجار الوافدون لشرق البحر المتوسط أنها من محصولات كريت Candie وهو أفضل أنواعه وكذلك من بلدة أكبرا Akbara فى آسيا الصغرى ، وتعطى شجرته عصارة لونها بنى داكن وهو اللادن ثم ينقى ويجفف ويستخدم فى الطب وفى تعطير جثث الموتى (١١٨) .

ومن أنواعه كذلك المصطكى ويحصل عليها من جذع شجرة يكثر زراعتها فى بعض جزر البحر المتوسط وأهمها جزيرة خيو ، لذا يعرف

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 615, 616.

(١١٧)

— Day, Op. Cit. p. 80.

(١١٨) بلدة أكبرا المذكورة بآسيا الصغرى هى بلدة Bali Kersi على الطريق

البرجام فى بروسة (ملاحظة ص ٦٢١ من هايد)

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 630, 631, 632.

هذا النوع باسم المصطكى الخيوسى نسبة اليها . ويعرفها الرحالة العرب باسم جزيرة المصطكى ، ويكثر نمو هذه الأشجار فى جنوب الجزيرة عند رأس Cape Nastice (١١٩) . كما يوجد فى هذه الجزيرة كذلك عشب له نفس الرائحة والطعم يعرف باسم Pistacia Lintiscua وتؤخذ مادة المصطكى بعد أحداث شقوق فى لحاء الشجرة الا أن المادة المتجمدة على الشجرة نفسها أحسن وأفضل من النوع الذى يسقط على الأرض . ويصدر منها كميات وفيرة لبلاد شرق البحر المتوسط نفسها أحسن وأفضل من النوع الذى يسقط على الأرض ، وكذلك الى الشرق الأقصى للأغراض الدينية والطبية (١٢٠) . وله أسواق رئيسية فى القاهرة ودمشق والاسكندرية وقيرس ورودس وأرمينية واليونان ولا يمر سائح أو رحالة بهذه الجزيرة الا ويحمل معه بعض المصطكى ذى الرائحة الزكية العطرة (١٢١) .

ويميزون من بين أفضل أنواع البخور « اللبى الجاوى أو عسل اللبى » وتكلم عنه مؤرخو ورحالة العرب كما ورد ذكره فى سجلات الجمارك والمؤلفات التجارية فى العصور الوسطى ، ويرد ذكره فى تعريفه جمارك بيزا عام ١٥٠٣ حيث كانوا يحصلون عليه ضرائب كثيرة . وحمل البرتغاليون كميات كبيرة منه الى أوروبا من الهند ، وكان قبلا يصل لأوروبا عن طريق الاسكندرية ، ولقيته العالية استعمل فاسكودى جاما عن أسعاره بالاسكندرية ثم أغرق أسواق أوروبا منه . واللبان الجاوى ضمن منتجات سومطرة والهند الصينية ويوجد فى

(١١٩) — Heyd, Ibid, II, pp. 633-634.

(١٢٠) ابن البيطار : المصدر السابق ج ٤ ص ١٥٨ - ١٥٩ .
الجزرى : المصدر السابق (ورقة ٤١٦) .

(١٢١) — Poston, Op. Cit. II, pp. 93-94.
— Dopp, Op. Cit. pp. 71, 72.

أسواق كلكتا وهرمز . وفي مصر يهدى للأمراء والملوك (١٢٢) .
ويستخدم فى العقاقير الطبية ويؤخذ من الشجرة بعد شق جذعها فيسيل
منها ويحمل فى أوان نظيفة (١٢٣) .

ومن السلع التجارية التى استخدمت فى الأغراض الصناعية وفى
الطب كذلك الصمغ ، ومنها الصمغ وصمغ اللك . والصمغ نوع من
العصارة تخرج من بعض النباتات عند أحداث شقوق فى لحائها ، أو اذا
انشق لحاؤها طبيعيا ويتجمد عند تعرضه للهواء وتكثر أشجاره فى
اليونان ، وتركيا كما تشتهر شبه جزيرة المورة بنوع يعرف باسمها
ويكثر وجوده فى أسواق أوروبا ، ولكن أفضل الأنواع على العموم
هو النوع الذى يرد من آسيا الصغرى الى أوروبا عن الطريق المار بمدينة
سميرنا . وفى القرن الخامس عشر كانت أهم مراكز تجارته فى آسيا
الصغرى ، كما اشتهرت به أسواق قبرس والاسكندرية . وأفضل
أنواعه تصل من السودان ، ويصدر عن طريق مصر الى آسيا الصغرى
وأوروبا ، ويصل للقاهرة فى الربيع وهو من أنقى الأنواع ، ويزرع فى
کردفان ويستخرج من شجر الأكاكيا . ويصل مصر كذلك أنواع من
آسيا الصغرى والهند الصينية وفارس . وصمغ بلاد فارس يصل لمصر
عن طريق البحر الأحمر وموانئه ، وعن طريق سينا وموانئ الشام
ويصلها فى الخريف ، وهو أقل جودة من صمغ السودان والصمغ على
وجه العموم يستخدم فى بعض العقاقير الطبية كعلاج كما يستخدم فى

(١٢٢) كان من شملتهم هدايا السلطان من هذا العطر : ملكة قبرص ١٤٩٠ م .
كاترين كورنارو . ومن قبلها دوق باسكوالى مالبيرو عام ١٤٦٠ ثم دوق بارباريجو عام
١٤٧٦ .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 580, 581.

— Day, Op. Cit. p. 80.

(١٢٣) بزرك بن شهریار الراهرمزى : كتاب عجائب الهند بره وبحره . ص ١٧٠ .

تحضير مواد الصبغة وخاصة فى حالات تثبيت الألوان (١٢٤) .

أما صمغ اللك فهو من انتاج الهند والهند الصينية ويخرج من الشجر عندما تحدث فيه حشرة المن ثقبوا . ولونه أحمر ، ويتجمد حول الفروع مغطيا حشرة المن ذاتها ، وكان معروفا فى الماضى كنوع من أنواع الصبغة ، ومشهور الاستعمال فى العصور الوسطى وله ثلاثة أنواع ، ويصل للأسواق فى صورته الطبيعية ومختلطا بفروع الأشجار أو مسحوقا بعد تنقيته من الشوائب بالتسخين وأنواعه هى : الصمغ الأخضر والصمغ الأحمر الغامق ، والنوع الثالث وسط بين الأخضر والأحمر . ومصدر هذا النوع من الصمغ ، قاليقوت ، وكمباى بالهند ، وساحل كروماندل ، وحوض الجانج ، ولكن أعظم مناطق انتاجه هى منطقة الهند الصينية ، وبورما ، وسيام ، وسومطرة ، ومعظم جزر الهند الشرقية ، وما يرد منه لأوروبا من الهند يصل عن طريق عدن والبحر الأحمر والاسكندرية ويكثر استخدامه فى الطب والصبغة والأغراض الصناعية (١٢٥) .

ومن المواد التى كثر استخدامها فى الأغراض الصناعية عامة على اختلاف مراحلها وأنواعها مواد الصبغة . ومن أشهر المواد التى استخدمت فى الصبغة فى الشرق والغرب الفر ، والنيلة ، ودودة القرمز ، والشب والتوتيا ، والقطران الطبيعى . وتزرع الفر فى أوروبا كما تصل بعض أنواعها لأوروبا من الاسكندرية وقيرس وبلاد العرب . وفى أواخر العصور الوسطى كان يصل لأوروبا أنواع من جنوب شبه الجزيرة العربية وعدن ، وتصدر للهند وفارس كذلك ، ويصدر من

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 623-624.

(١٢٤)

— Clerget, Op. Cit. p. 357.

(١٢٥) راجع ما ذكر عن حشرة المن فى هذا الفصل .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 626.

أقليم جورجيا أنواع أخرى الى الهند حيث يؤلفون منها لونا أحمر للصباغة لا يختلف كثيرا عن اللون القرمزي الذي للفرقة (١٢٦) .

ومن مواد الصباغة كذلك النيلة ، وتكثر بأسواق بغداد ، وتعطى لونا أزرق غامقا والنيلة الواردة من الهند لها لون فاتح عن تلك التي ترد من فارس ، وتصل للغرب الأوربي عن طريق البحر الأحمر ومدن وموانئ شرق البحر المتوسط ، وقد لاحظ التجار العرب وجود النيلة بكثرة في كولام ، وجوجيرات ، وكامباي ، وكابول ، وجنوب شرق إيران ، حيث يقوم أهالي كرمان بزراعته . كما يزرع في هرمز بكميات ضخمة تصدر عن طريق الخليج الفارسي ولونها قاتم ويمائل نوع كرمان . وتصدر النيلة الواردة من الهند وكابل برا عن طريق بغداد وموانئ الشام الى أوروبا . وفي قبرس يزرعون نوعا من النيلة أقل جودة من الأنواع الشرقية ، كما يزرع في واحات مصر ، وإن كانت أنواعه أقل من السابقة (١٢٧) .

وبذكر الصبغات لا يفوتنا ذكر أهمية الشب كعنصر رئيسي في الصباغة في العصور الوسطى ، وغير صحيح أنه لم يعرف في أوروبا إلا في أواخر العصور الوسطى ، والواقع أنه عرف منذ زمن بعيد ، وكان يصدر لأوروبا من مراكش والجزائر منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر ولما استولت جنوة على جزيرة خيو من القرن الرابع عشر

— Heyd, Ibid, II. p. 618.

(١٢٦)

(١٢٧) يباع في مدينة كابل وما حولها من هذه المادة ما يبلغ ألفي دينار سنويا كما يزرع بفلسطين في بلدتي زعر وبيسان بالقرب من البحر الميت . ومن أنواعه الطيبة ما ينمو بمصر ويبقى في الأرض ثلاث سنوات ، وفي السنة الأولى يسقى كل عشرة أيام ، وفي السنة الثانية ثلاث دفعات ، وفي السنة الثالثة أربع دفعات . راجع متر : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

— Heyd. Op. Cit. II. pp. 627-629.

حتى عام ١٤٥٥ ، اتخذها الجنويون أكبر مراكزهم لاحتكار تجارة الشب وأقاموا في شمال الجزيرة مدينة بنفس اسم الجزيرة وصاروا من أهم مصدري الشب لأوروبا نظرا لشدة الطلب عليه في صبغة الصوف ، وكذلك في شرق البحر المتوسط وشمال افريقية (١٢٨) . وفي إيطاليا ظهر هذا النوع من مواد الصبغة في تولفا Tolfa واستغل مناجمه البابا بولس الثاني لحسابه وبواسطة اخصائيين جنوبيين لخبرتهم فيه ويصدر بكميات ضخمة للبندقية وفلورنسا والفنلدرز . وقد سمح البابا للتجار بالاتصال بالشرق للتجارة فيه مستثيا اياها من قانون التحريم الكنسي البابوي مع المسلمين . وفي عام ١٥٠٦ أصدر البابا يوليوس الثاني قرارا بتجديد الاستثناء مع الترخيص للتجار بالاتصال بمراكز انتاجه في بلاد السلطان العثماني . وكان الأتراك العثمانيون في توسعهم بأوروبا بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ قد سيطروا على مناجم الشب في فوكيا Phocce وأجوار سمرنا ومناطق أخرى على البحر الأسود وفي كوتاهية بآسيا الصغرى . وقد سهل التجارة في هذه المناطق، قرب مناجم الشب من موانئ التصدير ، وكانت السفن الايطالية ترد مناجمه في فوكيا ويحمل تجار جنوة منه سنويا مالا يقل عن ١٤ مليون كيلو . ومن أفضل أنواعه كذلك المستخرج من مناجم « قره حصار » التي استولى عليها العثمانيون في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، والانتاج هنا لا يقل عن عشرة ملايين كيلو سنويا . وفي كوتاهية حوالي ١٢ مليون كيلو ويصدر عبر بحر ايجه (١٢٩) . أما الشب المستخرج من أشباه الجزر والجزر الاغريقية فهو من النوع الطيب ويكثر تداوله في أسواق الاسكندرية

— Pernaud, Op. Cit. pp. 57-58.

(١٢٨)

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 665-666.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 505.

(١٢٩)

— Depping, Op. Cit. II. pp. 221 & N.P. 342.

واستامبول وبيروت . وكان بالاسكندرية مخازن للشب الوارد لها من الوجه القبلى ومن بلاد العرب واليمن وباب المندب وجزيرة سقطرى ومنتجات هذه الأقاليم معروفة فى أوربا منذ أوائل العصور الوسطى حتى ظهر شب أوربا بكميات كبيرة واستعيض به عن شب الشرق . وفى حلب عرف نوع آخر جيد مصدره الرها (١٣٠) . وفى السودان استخرج نوع من الشب حول بحيرة تشاد وهو رأسمال هذه البلاد ويتجول به السودانيون حتى ينتهوا الى مصر والمغرب الأقصى (١٣١) . وفى مصر كان الشب احتكارا للدولة ويستخرج من أسوان والواحات ويحمل الى قوص وأخميم والبهنسا لينقل الى الاسكندرية حيث يصدر للخارج (١٣٢) . ويتدرج الشب فى أنواعه من النوع الممتاز الذى يشبه الثلج فى لونه وان شابهة أحيانا بعض الألوان الباهتة كالأحمر والأخضر . أما شب الدرجة الثانية فيختلط به بعض الصخور ، والنوع الثالث هو شب الحفر الذى بعد تنقيته يصير شبه بلورات صافية ويوجد فى شمال افريقية وهو نوع غير نقى مختلط به بعض الصخور بنسبة ٢ - ٥ (١٣٣) . وفى بعض الأغراض الطبية يستخدمون نوعا من الشب السكرى وهو نقى مصهور مع ماء الورد وبياض البيض . وكثر ذكره فى سجلات العصور الوسطى (١٣٤) . ويستخدم كذلك فى تثبيت الألوان والصبغات على الثياب ، فيكسبها لمعانا شديدا كما كان يستخدم فى الرسم والتذهيب والصبغة ، والدباغة فى العصور

— Day, Op. Cit. p. 82.

(١٣٠)

— Heyd, Op. Cit. II. p. 567.

(١٣١) متر : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

(١٣٢) القلقشندي : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٨٨ و ٤٥٩ .

— Blochet, Hist. de L'Egypte De Makrisi, p. 143. N. 1.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 568-569.

(١٣٣)

— Lopez, Op. Cit. p. 353. Doc. 176.

— Heyd ; Ibid, p. 570.

(١٣٤)

الوسطى . وزادت أزمة الشب خلال حروب البيزنطيين والعثمانيين وان
انفجرت بعد ذلك ، حتى انه السلطان العثماني كان يدخل خزائنه
سنويا مالا يقل عن ١٠٠٠٠٠ قطعة ذهبية من بيع الشب الذي كان
يشرف على انتاجه الايطاليون (١٣٥) .

ومن أنواع الصبغات كذلك خشب البرازيل ذو اللون الأحمر
ويرد من جزر الهند الشرقية ويعرف باسم شجر البقم وموطنه الأصلي
الملايو ولونه يشبه لون الفحم المتوهج وعثر عليه فيما بعد بغابات
البرازيل بأمريكا الجنوبية ومنه حصل على اسمه الحالي . وقد عرفه
الايطاليون باسم Berzi أو Barzi وأحيانا Verzi (١٣٦) . وخشب
البرازيل على أنواع عدة حسب نوع الشجر الطبيعي أو المزروع منه
— كما أنه يختلف حسب البلاد التي يزرع بها . وهو على ثلاثة أنواع:
الأحمر الفاتح — والأحمر الفاقع ، والأحمر المشوب باللون الأصفر،
وهو يقسم هكذا لتمييزه عن خشب الصندل الأحمر. أما مناطقه فهي في
كولام بالهند ، كما يوجد كذلك في غابات كلكتا وساحل ملابار .
وهناك نوع منه ينسب الى جبل العمري في جنوب الهند في مواجهة
جزيرة سيلان وكان ينمو بكثرة مدهشة ، كما يوجد بجزيرة سومطرة
وخاصة في غربها في مواجهة الهند وأفضل أنواعه يرد من الهند

— Heyd, Ibid, p. 571.

(١٣٥)

(١٣٦) يذكر ابن البيطار أن خشب البقم (أو خشب البرازيل) شجر عظيم وورقه
مثل ورق اللوز الأخضر وساقه وأفئافه حمراء ، ونهايته بأرض الهند والزنج . يوقف الدم
المنبعث من أى عضو ويجفف الجروح .

ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ١٠٣ .

— Ferrand, Op. Cit. T. I. p. 246.

وأطلق عليه الايطاليون اسم Verzine أخذا من كلمة « ورس » العربية التي كانت
تطلق على الزعفران اليمنى الذي يشبه السمسم كما استخدم في الصبغات والدهانات
« راجع ما كتب عن الزعفران » متر : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

— Clive, Op. Cit. p. 81 ;

الصينية ، وملقا ، كما أنه ينمو بالصين وخاصة في منطقة تناسيرين Tenasserin ، ويستخدم هذا الخشب في الصباغة ويصل للأسواق العرب على هيئة كرات صلبة ثقيلة ، وبعد نزع قشرتها يؤخذ قلبها وتستخرج منه الصبغة بعدة وسائل . وهي تستخدم في صبغ الملابس والرسم الدقيق وخاصة الرسوم التي تزين المخطوطات في العصور الوسطى ويكثر الطلب على النوع الأحمر الوردي كما يدخل في صناعة الأثاث (١٣٧) .

ومن مواد الصباغة كذلك دودة القرمز ، وهي حشرة ذات لون بنفسجي تعيش في جماعات وتجمع وتقتل ثم تصدر أو تباع لمادة الصباغة . وهي معروفة في العصور الوسطى وإن كانت مجهولة المصدر الحيواني ، وعرفت في أوروبا في لانجدوك بفرنسا واسبانيا والبرتغال وكانت تصدر إلى الشرق . وفي شرق البحر المتوسط وجدت أنواع من دودة القرمز تصل عن طريق البندقية لأوروبا ولها سوق رائجة في اليونان واسبانيا والبرتغال ونالت جزيرة كريت بعض شهرتها من تجارة دودة القرمز في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وبالجزيرة لجنة من الخبراء لفحص السلعة واستبعاد الفاسد منها ، كما كان يجمع من أجوار كورون باليونان أجود أنواعه . وتذكر وثائق فلورنسا من القرن الخامس عشر أن أفضل أنواعه يرد من المغرب واسبانيا والبرتغال ، وسعره مرتفع كما تذكر الوثائق نوع آخر رديء ، وإن لم تقطع بمصدره ، كما أنها نفت أنه من شرق البحر المتوسط . ومن أرمينيا يخرج نوع ممتاز يصدر للهند وشرق البحر المتوسط ويجمعونه من سفح جبل أرارات بأرمينيا بكميات ضخمة ، وتستخدم عندهم في

— Quatremere, Mommeire Sur L'Egypte.... p. 285.

(١٣٧)

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 587-590.

الصباغة ، وتصل هذه الأنسجة المصبوغة لأوروبا عن طريق بغداد ويعرف باسم الحرير القرمزى (١٣٨) .

ومن السلع التي كان يصدرها الشرق للغرب فى العصور الوسطى العاج وقد تضاربت الأقوال فيما يختص بمصدره ، فمن قائل انه من افريقية ، ومن قائل: انه من الهند وكتب العصور الوسطى التي تذكر العاج ومصنوعاته أغفلت ذكر مصادره . وقد حفلت به أسواق شرق البحر المتوسط فى الاسكندرية وفاما جوستا ويروت ودمشق ويرد لعدن من افريقيا والهند والمواصلات بين عدن وشرق افريقية سهلة وميسرة وقصيرة كما ورد من افريقيا كذلك لسيراف ، وان كان هذا الميناء أقرب الى الهند . على أن مصادر العاج فى العصور الوسطى المتأخرة كانت من افريقيا وبالذات من اثيوبيا اذ أن عاجها يفوق عاج الهند ، فهو أطول وأثقل ، ومع كثرته فى الهند الا أنهم يستوردون أجود الأنواع من أثيوبيا . ويقل صيد الأفيال فى الهند لأن بعض الطوائف تقدسه . ويشتد الاقبال على العاج فى الصين وخاصة الهندى ، لذا بدأ يقل فى أسواق مصر وبالتالي فى أسواق أوروبا ، حتى أصبح مصدره الوحيد افريقية . وقد استخدم الممالك العاج الوارد لهم من الحبشة والهند فى التطعيم والترصيع ، وخاصة فى حشوات المنابر فى المساجد، وصنع قطع الأثاث الفخم ، كما صدرت ايران تحفا منحوتة من عاج منسوبة الى مدينة الرى وبها تحفة عبارة عن حشوتين من العاج محفوظتين بالمتحف البريطانى ، عليهما رسوم آدمية فوق أرضية نباتية . والمصنوعات العاجية الدقيقة ترد من أسواق الشرق العربى ومن الهند

(١٣٨) من كلمة قرمز العربية عرفت الكلمة الأوربية «Karmoisin or Crimson»

متر : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

— Clive, Op. Cit. p. 81.

— Heyd, Op. Cit. pp. 608- 609.

والصين ومنه تصنع تحف المعابد والكنائس والتماثيل وأيدى المقاعد والعصى ويقال : انه يطحن ويدخل فى بعض العلاجات الطبية (١٣٩) .

ويذكر السكر كأحد محاصيل الشرق التى تصدر للغرب ،
والتي نقل العرب زراعتها خلال وجودهم فى اسبانيا وهو من حاصلات
الهند والهند الصينية ، وقبل أن تنتشر زراعته فى الغرب كان عصيره
يجفف على النار ، لأن صناعته لم تكن قد عرفت بعد على الوجه الحالى
فى العصور الوسطى. وعرفت صناعته بطريقة بدائية فى مدن وجزر
الخليج الفارسي بعد أن كان يزرع فى خورستان كما كانت له مصانع
فى الأهواز وبغداد . ويرجع الفضل فى تصنيعه أصلا للعرب وعنهم
انتقل للشرق والغرب ويصدر الانتاج هنا للغرب الأوربي . وان كان
استهلاك الغرب من السكر الهندي والصيني فى النصف الثانى من
القرن الخامس عشر قد قل لأن الغرب أصبح يحصل على حاجته منه من
مصر وسوريا وقبرس وشمال افريقية والأندلس التى يرجع الفضل
للغرب فى ادخال زراعته الى هذه المناطق وكذلك زراعته . ومصر أكثر
الدول فى انتاجه وأفضل أنواعه منها وخاصة سكر الصعيد ، ويكثر
الطلب عليه فى أوربا حيث يعرف باسم السكر المصرى الأبيض (١٤٠).
وهناك نوع آخر من السكر الغير نقى ولونه وردي أو بنفسجي ويرد
من بغداد ويطلق عليه اسم « البغدادي » ويرد ذكره بكثرة فى سجلات
الجمرك (١٤١) . ويباع السكر على أشكال مختلفة منه البلورى
والمسحوق ، وهو فى إحدى مراحل قبل التنقية يعرف باسم العسل

(١٣٩) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٣ ص ٨ .

متز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٩ .

زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٥٠٤ - ٥٠٥ .

— Poston, Op. Cit. II. pp. 93-94.

— Depping, Op. Cit. I. p. 140.

(١٤٠)

— Clive, Op. Cit. p. 80.

(١٤١)

الأسود ، وينصح أطباء العصور الوسطى مرضاهم باستخدامه لأمراض الصدر ، وهو بين المواد العقاقيرية لدى صيادلة العصور الوسطى وإن كان ثمنه اذ ذاك ، مرتفعا (١٤٣) . وتنتشر زراعته وصناعته على نطاق واسع في قبرس ويعمل به ما لا يقل عن ٤٠٠٠ عامل ويصدر الانتاج كله الى أوروبا بواسطة تجار البندقية (١٤٣) . وفي آسيا الصغرى أنتج الأهالي نوعا من السكر الفاخر توافر في أسواق ستاليا ولاجاسور وزرعت أنواع منه في رودس وكريت ويحصل الغرب على حاجته منه خلال فترات الانقطاع عن أسواق شرق البحر المتوسط (١٤٤) .

ومن السلع التي اشترك الشرق والغرب في انتاجها الخزف والبورسلين ، والاختلاف هنا يرجع أساسا في نوع الطينة التي يصنع منها . وأفضل أنواعها ما يرد من الصين ، ويحمل نفس الاسم وهو على درجات من الجودة والشفافية واللون والوضوح ، ويلقى الانتاج الصينى رواجاً في أسواق الشرق والغرب على السواء . وتحفل به أسواق دمشق وحلب وبيروت والاسكندرية ورغم ارتفاع أسعاره فإن الطلب يكثر عليه في أوروبا ويحملة اليها تجار البندقية وجنوة ، ويهدى سلاطين مصر أنواعا ممتازة منه لملوك وحكام أوروبا . وقد أنتجت مصر في العصر الاسلامى أنواعا ممتازة من الخزف لا يقل روعة عن ما أخرجته الصين وإيران من هذه الأنواع وإن كان يقل جودة في نوع العجينة . وينسب للعصر المماليكى أنواعا منه ذات ألوان بيضاء وزرقاء وعليها رسومات زهور وطيور تقليدا للأنواع الواردة من الصين . ومن

— Heyd, Op. Cit. II, p. 690. (١٤٢)

(١٤٣) جورج يعقوب : أثر الشرق في الغرب (مترجم) ص ٩٧ .

— Dopp, Op. Cit. folio 39, pp. 66-67. (١٤٤)

— Poston, Op. Cit. II, p. 281.

— Heyd, Op. Cit. II, p. 281.

أشهر خزافي العصر غيبي التوريزي ، وغزال ، والمصرى ، وابن الملك وغيرهم . إلا أنه في النصف الثاني من القرن الخامس عشر غزت أسواق مصر أنواع ممتازة من الخزف الصيني البديع الصنع والرسم ، ولغلاء أسعاره لم يعد سلعة شعبية ، وحل محله أنواع محلية من فناجين وسكريات وصحون أقل جودة من المستورد من الصين ، وفقد الخزافون المصريون سوقا رائجة لصناعاتهم ، فقلل اتقانهم وابتكارهم وعمدوا الى التقليد غير المتقن مما يشهد بتدهور هذه السلعة وضياع أسواقها في الداخل والخارج . وقد عرف المصريون كذلك صناعة القاشاني لكسوة جدران المنازل من الداخل ، وماذن المساجد ، ومعظمها من لون موحد ، وعليه كتابات بيضاء على أرضية زرقاء ، وعجينة هشة ورسوم غير متقنة . وتنتج أوروبا أنواعا ممتازة وإن اختلفت في عجنتها عن الانتاج الصيني ، وكثر تداولها في القرنين ١٥ و ١٦ م . ومعظم الانتاج الشرقى والغربى يتواجد في أسواق شرق البحر المتوسط (١٤٥) .

وشملت قوائم السلع المتبادلة بين الشرق والغرب المنسوجات على اختلاف أنواعها ، فاستورد الغرب من الشرق المنسوجات القطنية والحريرية والكتانية والمطرزة بخيوط من الذهب والفضة ، أما الشرق فقد استورد من الغرب المنسوجات الصوفية من ألمانيا وإنجلترا عن طريق فلورنسا وجنوة والبندقية ، وكذلك المنسوجات الكتانية وإن كانت أقل قيمة مما يصنع في مصر . وقد لقيت صناعة النسيج وتجارته في الأقاليم الاسلامية المختلفة تشجيعا ورواجا عظيمين . وفي فترة النشاط التجارى الذى عم العالم الاسلامى فى العصور الوسطى وخاصة المتأخرة منها كانت المنسوجات القطنية والتيلية والحريرية

(١٤٥) زكى محمد حسن : فنون الاسلام من ٣٢٢ الى ٣٢٥ - ٣٢٧ .

— Clerget, Op. Cit. p. 370-371.

— Depping, Op. Cit. I. p. 59.

— Poston, Op. Cit. II. pp. 93-94.

تصدر من مصر والشام وإيران إلى سائر الأقطار الإسلامية وأوروبا والشرق الأقصى ، والهند . وقد أنشأ المسلمون عديدا من مصانع النسيج وخاصة مصانع الحرير ، وبعض انتاجه يحمل أسماء أماكنها فمنها الحرير الدمشقي Damaskas « الدمشقي » والموسلين Muslin من الموصل . ونوع آخر يعرف باسم جرينادين Grenadines من غرناطة بالأندلس . ومعظم دور النسيج كانت حكومية وتعرف باسم « دور الطراز » والدور الخاصة تعمل للخليفة ورجال بلاطه والأمراء ، وتعطى منه هدايا للأمراء والملوك الأجانب - أما الدور العامة فتنتج لأفراد الشعب . ويصنع بالدور الخاصة كذلك كسوة الكعبة الشريفة واشتهرت بذلك تنيس والاسكندرية ودمياط وديق وأخميم وأسيوط والفيوم . وأمراء الممالك يفضلون الأصواف والأجواخ الواردة من أوروبا على المصنوعة محليا ، كما أن البندقية وردت لأسواق شرق البحر المتوسط وخاصة في مصر وسوريا أنواعا فخمة من الحرير والتيل والأنسجة المطرزة . ولما زاد ثراء الممالك في النصف الثاني من القرن الخامس عشر بعد سقوط القسطنطينية وتحول التجارة اليهم من البحر الأحمر ، لم يعودوا يهتمون بالانتاج المحلي ، واقتصر استخدامهم للأثواب المستوردة التي ترد بكثرة وانتاجها ممتاز . وترد من الفلاندر وشمال أوروبا ملابس جند الممالك . ومن الهند يرد أنواع فخمة من المناديل والقطنيات والحرير ، والشيلاز الكشمير ، وترد كلها بطريق البحر الأحمر . وقد برع الأوروبيون في نسج الصوف والكتان وتصديره للخارج ، وخاصة إلى أقطار آسيا وإن كان انتاجهم من المنسوجات القطنية والكتانية قليل ، برغم ازدياد الطلب عليه لحاجة رجال الدين ويرد القطن والكتان الخام لأوروبا من شرق البحر المتوسط . وقبل نهاية العصور الوسطى تمت صناعة الأنسجة الحريرية بكثرة في إيطاليا ، وصدرت منها كميات كبيرة إلى الشرق العربي ، والشرق

الأقصى ، كما صدرت أوروبا الى الشرق عامة الصوف والأنسجة
الكتانية الرائعة المنسوجة في إنجلترا والفلاندرز (١٤٦) .

وفي القرون الأولى للعصور الوسطى كانت الكنيسة تحرم التزين
ولبس الحرير وتدعو للتقشف والحرمان ، ولكن بمرور القرون أصبح
هذا التحريم حبرا على ورق ، وكان رجال الدين هم البادئين ، فارتدوا
الحرير وتزينوا بالجواهر . وامتلأت حوانيت ومتاجر غرب أوروبا
بواردات الشرق من هذه السلع ، وعليها رسوم غزلان وسباع وزرافات
ووحوش وأشخاص ، ومعظمها كان يرد من الهند والصين وليس من
أقطار مسيحية أو اسلامية ، اذ أنهم لا يميلون الى هذا اللون من
الرسوم على الملابس (١٤٧) . على أن المنسوجات الحريرية كانت ترد
الى أسواق أوروبا عن طريق الشرق المسيحي وان لم تكن مصنوعة فيه
فوردت من القسطنطينية البيزنطية ، وان كان هذا لم يمنع وصولها من
القسطنطينية العثمانية ومن الاسكندرية كذلك ، مع ازدهار صناعته
بالأندلس بعد حكم العرب فيها أواخر القرن الخامس عشر . وكثر
الطلب في أوروبا على حرير الشرق المعروف باسم البروكار ، والذي كان
يجلب من الاسكندرية وطرابلس ودمشق وأنطاكية وقبرس وآسيا
الصغرى والصين وإيران وان كان الاتصال بين الأسواق الأخيرة وأوروبا
قليلا لبعد المسافة . وعن الصين عرف الغرب تربية دودة القز وكذلك
صناعة نسج الحرير ، واشتهر بها أهل صقلية والأندلس ، ومع ذلك
ظل الشرق هو المورد الأساسى لهذه السلعة التى لم يكن يضارعه

(١٤٦) زكى محمد حسن : فنون الاسلام من ٣٤٧ - ٣٥٠ - ٣٦٦ - ٣٦٧ .

— Clerget, Op. Cit. pp. 538-539.

— Clive, Op. Cit. p. 82.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 694,

(١٤٧)

فيها أى نسيج آخر (١٤٨) . ومن مصادر الحرير كذلك حول بحر قزوين ، وطبرستان ، ومحمود أباد ، وجورجيا ، ووصل الجنويون فى بحثهم عن حرير الشرق الى شيروان فى القرن الخامس عشر قبل الغزو العثمانى ، وخلفهم فيها البنادقة بعد انهيار تجارة جنوة الشرقية (١٤٩) . ووصل لأوربا من بغداد أنواع من الحرير المطرز ، وحاول الأوربيون تقليده ، ولكن أفضل الأنواع كان يصل دائما من موانئ شرق البحر المتوسط . وحتى النصف الثانى من القرن الخامس عشر لم ينقطع تبادل المنسوجات الحريرية بين الشرق والغرب وان قل استيراد الغرب لأنواعه الشرقية نظرا لوفرتة واتقان صناعته فى مدن أوربا . ووصل للشرق مناديل حريرية وأثواب فخمة مطرزة من البندقية ، كما صدرت فلورنسا كميات منه الى تركيا العثمانية ومصر . ولدى وصول البرتغاليين للهند لاحظوا وفرة الأنسجة الحريرية الفخمة الواردة اليها من دمشق وسوريا عامة ومن أوربا كذلك ، ومنذ بداية القرن السادس عشر أخرجت المصانع فى أوربا أنواعا فخمة من الحرير أجود من الشرق ما لبثت أن غزت أسواق الشرق (١٥٠) .

(١٤٨) عرف العرب وسكان جزيرة قبرس عنهم صناعة المنسوجات المعروفة فى المصور الوسطى باسم « البروكار » وتصنع من خيوط رفيعة من الكتان ومحاولة بطيخة رقيقة من أعاء الخراف (والعنازير فى قبرس) ومغطاء بقشرة من الذهب وتطرز بها الملابس العربية ، وعرفت كذلك فى جنوة حيث أنتجت مصانمها أنواعا ممتازة مرتفعة الأسعار مما جعل الحكومة تضعها تحت الحراسة الشديدة حتى لا يضار بسببها الطبقات المتوسطة والفقيرة نتيجة لكثرة الطلب وبالتالي التناقص فى أسعارها كما أن بعض المصانع لجأت الى تقليدها وتزييف بعض الأنواع المشابهة . وللبندقية وسيلان نسيجهما المشابهة .

— Heyd, Ibid, II. pp. 694-695, 677-678.

— Depping, Op. Cit. I. p. 58.

(١٤٩)

— Clerget, Op. Cit. p. 356.

— Poston, Op. Cit. II. pp. 351, 352.

— Day, Op. Cit. p. 82.

(١٥٠) ذكرى حسن : فنون الاسلام من ٢٦٩ الى ٣٧٨ .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 709-710.

— Poston, Op. Cit. II. p. 94.

واتنتاج أوروبا من الكتاب يسد حاجتها من هذه السلعة ولكنها لم تستطع الاستغناء عن كتان مصر لأنه كان على درجة عالية من الجودة ، والكتان المصرى ينمو على ضفاف النيل وداخل الدلتا والجانب الكبيرة منه يستهلك محليا كما يصدر الى شمال افريقية وقبرس ، والملابس الكتانية أكثر الملابس شيوعا فى مصر بين الطبقات الوسطى والفقيرة ، ويتقنه النساجون فى مصر حتى يبدو وكأنه من الحرير ، ويبيع بأسعار مرتفعة (١٥١) .

وكان البابوات المتعاقبون فى العصور الوسطى وخاصة بعد سقوط القسطنطينية وعكا قد وضعوا القطن من بين المواد المحرم التعامل بها مع العرب ، ووجهوا نظر التجار الى وجوده فى أماكن أخرى كاسبانيا وجنوب ايطاليا وصقلية وكريت وأرمينيا ومالطة ، وقبرس . وهذه الأنواع من القطن الغربى كانت منخفضة السعر وخاصة قطن صقلية وأقل جودة من الأنواع التى تزرع فى شرق البحر المتوسط فى الشام ومصر (١٥٢) . ويليها أنواع أخرى تزرع فى أرمينيا ونوع ثالث فى قبرص وعكا واللاذقية . وفى القرن الخامس عشر وخاصة بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ عادت التجارة لتزدهر مرة أخرى بين الشرق والغرب بطريق عدن وموانئ البحر المتوسط وكانت معالم هزيمة عكا ١٢٩١ قد بعدت عن أذهان الأوربيين فخفف البابوات من شدة القوانين التى تحرم التعامل مع المسلمين ، وبدأ ينقل لأوروبا الأنواع الممتازة من قطن مصر والشام . وفى القرن الخامس عشر انتشرت زراعته ، وخاصة الأنواع الممتازة فى مصر وإن كانت لم تذكر من قبل

— Clerget, Op. Cit. p. 358.

(١٥١)

— Clive, Op. Cit. p. 82.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 696.

(١٥٢) جورج يعقوب : أثر الشرق فى الغرب وخاصة فى العصور الوسطى - ترجمة

فؤاد حسنين على ص ١٤ .

لقلة ما كان يزرع منها وللبندقية سفن خاصة لنقل القطن ترد كل عام لموانئ صور وصيدا ، ولهم بها وكلاء لتسهيل شحنه (١٥٣) .

وفى العصور الوسطى استخدم الشرق أنواعا من الخشب المحلى فى صناعة السفن وفى المباني والأثاث ، ويصل منه الى مصر كميات كبيرة بالإضافة الى أخشاب الغرب وله وكالة قرب النحاسين حيث يباع بالميزان بالإضافة لأنواع أخرى ممتازة ترد لصنع أثاث المنازل . أما خشب السفن فتصنع منه ألواح هياكلها وأفضل الأنواع هو خشب الساج أو جوز الهند وأحيانا يعرف باسم خشب النارجيل ، وهو من نفس الأنواع من الأخشاب الشرقية وأمتنها ، « ومتى تم اعداده فلا ينشق ولا يتقلص ولا يتغير شكله ويزيده الحديد متانة » . ومناطق نموه غابات فى جنوب الهند وبورما وسيام وجزر الهند الشرقية ، ويصدر كذلك الى مدن الخليج الفارسي لعمل السفن وبناء المنازل وخاصة أسقفها (١٥٤) . ومن أنواع الأخشاب الفخمة الأبنوس ، وأفضل أنواعه الحبشى وهو أسود وليس فيه طبقات أو كسر وهو كثيف ويلدغ اللسان . ويرد من الهند أنواع أخرى فيها عروق ما بين أبيض وياقوتى . ولكن الحبشى أفضله ، ويستعمل فى صناعة التحف والأثاث الفخم

(١٥٣) تزخر أسواق مصر بأنواع ممتازة من النسيج الإيراني وخاصة فى العصر الصفوى تنسب الى مدن تبريز وسلطانية وهرات ويزد وقاشان واصفهان وشروان كما أنتجت مصانع الطراز فى الأندلس النسجة بها رسوم نجمية الشكل وأشرطة متداخلة كأنها بلاء قشاني - ويرد من تركيا وكذلك من إيران أنواعا ممتازة من السجاد ذى الألوان المتناسقة أصوافها من أغنام معتنى بتربيتها ونظافة أصوافها ويدخل فيها خيوط من الذهب والحرير والفضة .

زكى حسن : فنون الإسلام من ٣٧٨ - ٣٨٤ - ٣٩٢ - ٣٩٣ - ٣٩٩ - ٤٠١ .

— Poston, Op. Cit. II. pp. 93-94.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 611-614.

— Day, Op. Cit. p. 82.

(١٥٤) حوراني : العرب والملاحة والمحيط الهندى من ٢٤٤ - ٢٤٧ .

— Clerget, Op. Cit. p. 632.

— Ency. Brittanica, Art. TEAK.

حيث يطعم به ويقال ان مسحوقه يدخل فى بعض العقاقير الطبية لعلاج القروح وأمراض العيون (١٥٥) .

تقول الأمثلة العامة فى العصور الوسطى « عظيمة هى فضائل التوابل ولكن أعظم منها الأحجار الكريمة » وفى ذكر الأحجار الكريمة لا يعطى الاعتبار هنا لمصادرها من قاع البحر أو من بين حصى الأنهار أو من باطن الأرض والصخور ولكن قيمتها كما كانوا يعتقدون « أنه اذا شرف جوهرها حلت فيه بركة الخالق العظيم ، وبالتالي عظم قدرها وقيمتها » . وطغى هذا الاعتقاد فى العصور الوسطى على عقول الناس، حتى فهم أنه بعض أنواعها يطرد الأرواح الشريرة وأن البعض الآخر يضمنى على الفرد سلامة الجسم والعقل (١٥٦) . وآسيا مصدر الأحجار الكريمة فى العصور الوسطى واشتغلت مناجمها بصورة أوسع منذ وصول الأوربيين الى الشرق الأقصى فى مطلع القرن السادس عشر حيث تم استغلال مناجمها وخاصة مناجم جبال أورال . وفى مصر اشتهر صعيدها بوفرة مناجم الزمرد وصدر الى أوروبا وآسيا والحبشة . وتقع مناجمه على الحدود بين مصر والنوبة فى منطقة توازى الجبال بين النيل والبحر الأحمر ، وكان انتاج هذه المناجم ملكا للسلاطين المماليك حتى سقوط دولتهم ونضب معينها من كثرة ما استغلت (١٥٧)

(١٥٥) ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ٨ .

(١٥٦) — Sonia, Op. Cit. pp. 16-17.

(١٥٧) ابن الوردي : المصدر السابق ص ١٣١ يذكر « أن الزمرد أخضر شفاف يدخل فى علاج من سقى السم وأفضل أنواعه الذبابى » أما القلقشندى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٦ فيذكر أن أصله ياقوت تعرض للسواد ولعوامل أخرى فاصبح أخضر وهو على أربع أنواع الذبابى شديد الخضرة والريحاني نسبة الى لون الريحان والسلقى نسبة الى نبات السلق فى اللون والرابع الصابونى نسبة الى الصابون الأخضر وأفضل أنواعه الذبابى ويرد من صعيد مصر . فى جيل بين أسوان والسودان - راجع كذلك : ابن البيطار : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 651-652.

— Darnes, Op. Cit. II. pp. 225-226.

وهناك أنواع أخرى تأتي من ساحل افريقية الشرقى والجبشة ويباع في أسواق الهند وخاصة قاليقوت ، والمزيف منه تظهر فيه فقاعات هوائية ، أما النوع الممتاز فهو مضى مرتفع الأسعار (١٥٨) . ويتكون من معدن الزمرد جوهر آخر هو الزبرجد ويعتقد كثيرون أنه نوع منه ولكنه في الواقع أقل جودة ويستخرج من الآثار القديمة بالاسكندرية ، والجيد منه يمتاز بصفاء لونه وخضرته والنوع الأقل هو الأصفر ويوجد في سيلان (١٥٩) .

ومن هذه الجواهر كذلك الفيروز ، ويرد من كرمان وخراسان ونيسابور (١٦٠) . واللازورد من بلوختان ، والهند الصينية (١٦١) . أما الياقوت فيرد من مصادره في بلوختان والهند ، وأثمانه مرتفعة جدا وأجود أنواعه الأحمر الذي لا يتكلس بالنار بعكس الأصفر والأخضر ، ويفحص النقي منه بوضعه في الشمس فلا تظهر فيه أي شوائب ، ويرسل من الهند وسيلان خاما الى مصانع شطفه وتهذيبه في قاليقوت ، ويكثر عليه الطلب في أسواق الشرق والغرب على السواء. وأفضل أنواعه ما يرد من سيلان (١٦٢) .

أما العقيق فمصادره الهند في جندهار وبشاور وليمادورا ، ولونه أحمر بأحجام مختلفة ويزداد مضاء وجلاء باحاطته بالنار ويشكله الصانع المهرة حسب الطلب ويرصع به السيوف والخناجر والعقود

(١٥٨) متر : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٣ .

(١٥٩) القلقشندي : المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٧ و ٣٤٨ .

(١٦٠) متر : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٣ .

(١٦١) — Heyd, Op. Cit. II. pp. 653-654.

(١٦٢) الجزري : المصدر السابق ورقة ٣١٨ .

ابن الوردى : المصدر السابق ص ١٢٩ .

القلقشندي المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

— Darnes, Op. Cit. II. pp. 217-218-219-220.

وينقل الى أسواق مصر والاسكندرية ليبيع للأوربيين. ونقل البرتغاليون
 كيمايات كبيرة منه الى البرتغال بعد وصولهم للهند (١٦٣). وتوجد
 أنواع منه في أفغانستان وصنعاء باليمن (١٦٤). وتذكر مراجع
 العصور الوسطى أنواعا أخرى ممتازة مصادرها من الشرق الأقصى
 والأدنى ويكثر عليها الطلب في الشرق والغرب على السواء. وتجد
 طريقها بسهولة للطبقات الغنية، وينظر الأوروبيون لمصر وآسيا كمصدر
 من مصادرها. ومنها الفيروزج والسافير، والرميات، والفيروز،
 والماس، واللؤلؤ، والمرجان، وعين الهر، والذهب (١٦٥). ومن
 أظهرها اللؤلؤ، ومصايد في المضيق الذي يفصل الهند عن سيلان
 وفي الخليج الفارسي، كما يوجد مغاص له في بحر عمان، والبحر
 الأحمر. وأفضل أنواعه العماني والفارسي، وأقله الهندي
 والقلزمي (١٦٦) وتدخل المراكب لصيده في مواسم معينة ويصدر
 معظمه للخارج. وكان ملوك وأمراء الهند يعتبرون مغاص اللؤلؤ في
 قاع المحيط من أملاكهم، ولما وصل البرتغاليون للهند كانت سفنهم
 تصل مرتين كل عام الى مضيق سيلان والهند لحمل اللؤلؤ ويقال ان
 حصيلة كل ثلاث سنوات لا تقل عن حمولة ٤٠٠٠ قارب. أما لؤلؤ

(١٦٣) — Darnes, Ibid, pp. 136-142-143, & N. I. p. 137. T.L.

(١٦٤) من أنواعه ما يستخرج من أفغانستان واليمن « وكان من أراد العقيق يشتري
 قطعة أرض بصنعاء فربما خرج له شبه صخرة أو أقل وربما لم يخرج له شيء » .

الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ١٥ .

متز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٥ .

(١٦٥) متز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

— Day, Op. Cit. p. 80.

— Ferrand, Op. Cit. II. p. 562.

— Darnes, Op. Cit. II. p. 224.

(١٦٦) الجاحظ : المصدر السابق ص ١٢ .

متز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٥ .

القلقشندی : المصدر السابق ج ١ ص ٣٤١ - ٣٤٢ « يذكر أن أفضل أنواعه

ما يستخرج من الخليج الفارسي عند جزيرة حرك بين قيس والبحرين » .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 648.

منطقة كولا ، فيصاد لحساب التجار العرب ويرسلون أحسنه لأمرء الهند ويصدر الآخر للخارج (١٦٧) . أما المرجان فمصاده غربى البحر المتوسط على طول الساحل الأفريقى وهو من السلع التى يصدرها الغرب للشرق وأفضل مناطق صيده سبتة بالمغرب ومرسى الخرز قرب رأس بون فى تونس ، ومسايد شمال افريقية مشهورة منذ القدم ولا تقل جودتها عن مسايد سردينيا ، وكورسيكا ، وصقلية ، وتصدر أحيانا الى أوربا لتكمل أجزاء من المجوهرات ، وأكثرها يصدر للهند والهند الصينية فى مقابل غلاتهم للغرب . ويهوى أهالى كشمير المرجان ويذكر اليرتغاليون شدة ولع الهنود به . وتحمله الى مصر سفن قطلونيا وفلورنسا والبندقية ومنها يصدر للشرق (١٦٨) .

وفى ذكر المعادن النفيسة لا يمكن اغفال ذكر الذهب والماس . فالذهب أكثر المعادن الثمينة شيوعا بين الناس غنيهم ، متوسطهم وفقيرهم ، وفى مصر توجد مناجمه بالصحراء بين أسوان وعيذاب . وأكبر مدن انتاجه العلاقى ، ويتجول العمال ليلا فى الليالى غير القمرية ويعلمون المواضع التى يرون فيها شيئا مضيئا ، فاذا ما أصبحوا حملوا أكوام الرمل الى الآبار لغسلها واستخراج التبر منها ، وتحمله قوافل السودان فى طريقها الى مصر (١٦٩) . أما الماس الطبيعى فمصادره فى العصور الوسطى الشرق الأقصى ووسط الهند ، وهو نوعان : البلورى وهو أفضله ، والديتى الذى يخالط بياضه صفرة ، ومن خواصه

(١٦٧) متز المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٩ .

ابن الوردي : المصدر السابق ص ١٢٩ .

— Depping, Op. Cit. I. pp. 146-147.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 649-650.

(١٦٨) متز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٥ .

— Heyd, Ibid, II. pp. 668-669.

(١٦٩) متز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

أنه يقطع غيره من الجواهر ولا ينكسر . ويشطف لاستعماله في
التزين (١٧٠) .

واستخدم النحاس الوارد في سك العملة وتغطية أبواب المساجد
وقصور الخلفاء والسلاطين وصناعة التحف ، كما عرفت صناعة التكفيت
بالبرونز والنحاس والذهب والفضة . وأكثر الممالك من صنع الأواني
والحلى من الذهب والفضة وزينوها بالكثير من النقوش والكتابات
واستوردت مصر من أوروبا أدوات حديدية وذهباً خاماً للسك والحلى .
ونقل الأوربيون عن المصريين الأواني المعروفة باسم « أكوامانيل »
وهي أباريق كثر استعمالها في الكنائس والمنازل - كما اشتهرت بلاد
القوقاز بالصناعات الدقيقة من البرنز والذهب والفضة وتصدر كلها
لأسواق شرق البحر المتوسط وأوروبا (١٧١) .

وبلغت صناعة الزجاج والبلور أوج عظمتها في مصر والشام في
العصر المماليكى، وامتلات أسواقها بالتحف البلورية والزجاجية المموهة
بالذهب والميناء والبريق المعدنى وإذا كانت الزعامة في هذه الصناعة
للشام ومصر ، إلا أنها عرفت من قبل في العراق . ومن أبرز ما وصل
إلينا منها المشكاوات المموهة بالميناء، وكانت تعلق في المساجد والمنازل،
وعليها كتابات تاريخية ومنسوخة بخط من العصر المماليكى . ويرجع
أن صناعتها قامت في مصر اقتصاداً للنفقات وتجنباً لخطر الكسر عند
نقلها (١٧٢) .

(١٧٠) متز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٣ .

القلقشندي : المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(١٧١) زكى حسن : فتون الاسلام ص ٥١٥ - ٥١٨ و ٥٥٢ - ٥٥٦ .

سعيد عاشور : مصر في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ص ٢٠٥ .

(١٧٢) زكى حسن : المصدر السابق ص ٦٠٧ .

الفصل الخامس

النظم التجارية

سبق الشرق فى نظم التجارة ونقل الغرب عنه :

اتخذت النظم التجارية فى العصور الوسطى صفة المحافظة على القديم واستمراره جنباً الى جنب مع ما يستحدث من نظم ، فالقوانين التى نظمت التجارة فى القرن الثانى عشر مثلاً ، استمرت سائدة وسارية حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، الى جانب ما استحدث من النظم اذ ذاك . واذا أشارت الوثائق الى تعديل ما ، فهى تذكر القديم ومعه ما استجد من تعديلات ، وعلى هذا فان الحياة الاقتصادية فى القرن الخامس عشر استمرت على نفس النظم والقواعد السابقة (١) .

ويجب ألا يغرب عن البال ونحن نورد هنا بعض الوثائق الخاصة بالنظم التجارية أواخر العصور الوسطى أننا نتكلم عن عصر جامد تسوده التقاليد والمحافظة على القديم وعن فترة من التاريخ لم تتطور الا بعد جهود جبارة ، فقانون الملاحة البحرية التجارية مثلاً ظل كما هو دون تغيير منذ القرن الثانى عشر حتى أواخر القرن الخامس عشر،

(١) — Vaillet, J., Histoire Des Faits Economiques Des Origines Au XXe siècle, p. 147.

وقد ذكر صاحب هذا المؤلف النص الآتى ص ١٤٧ :

— « La Vie Economique Continue au XVème siècle sur les bases antérieures. »

فى حين أضيفت اليه تعديلات جديدة لم تفقده أصوله بقدر ما تعدلت لتلائم حركة الكشف الجغرافى التى اشتد ساعدها منذ منتصف القرن الخامس عشر بدخول رواد البحر الأوربيين بحار ومحيطات جديدة بالنسبة لهم ، بل ان بعضها لا يزال سائدا الى اليوم ، والقياس هنا مع الفارق بالنسبة لطبيعة الملاحة فى القرن الخامس عشر وفى القرن العشرين (٢) .

وقام بالنشاط التجارى بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى تجار شرق البحر المتوسط وغربه ، اذ نقلها تجار شرقه من مصادرها فى الشرقين الأدنى والأقصى ووزعها تجار غربه فى أوربا . لذا كانت معظم القوانين والنظم التجارية من وضع حكومات وهيئات التجارة فى المنطقتين ، كما طبق كلاهما نفس الأنظمة الى حد كبير وان اختلفت أحيانا فى مظهرها الا أنها تشابهت فى جوهرها ، ومظاهر الاختلاف هنا تعود الى تباين الحياة الاجتماعية فى كليهما . (٣) ولتجار مصر والشام وكلامونديون فى الشرق الأدنى والأقصى ولتجار الغرب مثل ذلك فى شرق البحر المتوسط وبلغ النظام درجة راقية على يد القناصل التجاريين الغربيين فى مصر والشام حيث طبقوا فى وكالاتهم وفى فنادقهم وعلى سفنهم فى عرض البحر النظام السائد فى أوطانهم مع عدم الاخلال بالنظم المحلية . ويبدو أن تجار الغرب قد عرفوا معظم النظم المالية والتجارية من الشرق ابان اتصالهم به للمتاجرة وتأكد ذلك

— Mailliet Ibid, p. 138.

(٢)

— Horn, Paul V., International Trade, Principales & Practices, p. 82.

(٣) مفهوم كلمة الشرق والغرب فى هذا البحث وفى هذا الفصل بالذات هو شرق البحر المتوسط وغربه . وفى هذا المعنى انظر :

بداية الفصل الثانى والملاحظة بالهامش وكذلك توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى (مترجم) البحث الخامس ، لروبرت لوبيز ص ١٤٢ ملاحظة (١)

خلال الحروب الصليبية ، فدمشق مثلا كمركز من أكبر مراكز تجارة شرق البحر المتوسط في العصور الوسطى .. « ارتقى أهلها بالصناعة البحرية فوضعوا قوانين الملاحة ، وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر كما شرحوا الكفالة المالية وأنشئوا المصارف ووضعوا السفاتج المألوفة بل هم باعثو روح الحركة المالية في مصارف الشام الحديثة ، كما مهدوا الطرق وأنشئوا المدن ومراكز التجارة والفنادق والرباطات .. » (٤) وقد أدى هذا كله الى استحداث نظم جديدة نابعة من متطلبات الحياة التجارية في شرق البحر المتوسط وغربه (٥) .

بعض المشكلات التي واجهت تجار العصور الوسطى :

ولم يكن الطريق أمام تاجر العصور الوسطى ممهدا سهلا ، بل كان محفوقا بالكثير من المخاطر والمتاعب ، أكثر بالطبع مما يلاقيه تاجر العصور الحديثة ، فوسائل النقل اذ ذاك بطيئة وقليلة ، وكثيرا ما آذاه أتباعه وعملاؤه ومنافسوه بالخيانة أحيانا والمعاملة السيئة أحيانا أخرى،

(٤) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٤ ص ٢٦١ .

— Archer, The Crusades, pp. 438-439.

— Lopez, R. Ned. Trade in the Mediterranean World pp. 221, 222
CHP. 12 DOC. III.

— Depping, G.B., Hist. Du Commerce Entre Le Levant et L'Europe,
T. 1. pp. 81, 82, 83.

(٥) « اذا كان التفوق الاقتصادي للغرب على الشرق لا يزيد عمره على ١٠٠٠ سنة

فان تفوق أهل الشرق يرجع الى أربعة آلاف سنة ق.م. ان لم يكن قبل ذلك » .

توفيق اسكندر : المرجع السابق ، البحث الخامس ص ١٤٢ .

« ولما كان الشرق هو رائد التجارة منذ العصور الوسطى المبكرة فانه يمكن ان يقال

ان الشرق هو الذي مهد لاحداث التطور الذي شمل النظم التجارية التي سادت العالم منذ

انتهاء العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة » .

— Maillet, Op. Cit. p. 136.

— Wiet, G., Précis de L'Histoire, T. II. pp. 274-275.

— Clerget, Le Caire, Etude De Géographie... p ; 309.

بل انه فى كثير من الأحيان كان يلقى معاملة تتسم بالقسوة والخشونة من الحكومات والشعوب الأجنبية . وقد بذل جهودا جارية دون أى ملل أو كلل ولكنه كان ينتهى أحيانا بالفشل السريع المفاجئ ، وكثيرا ما كانت تصفى تجارته تبعا لقوانين التفاليس الصارمة ، ومع ذلك استطاع تاجر العصور الوسطى أن يتغلب على كثير من العقبات ويعوض خسائره بإبرام عقود التأمين ودافع عن نفسه وتجارته باستخدام نفوذ حكومته فى التخفيف من أثر قوانين البلاد الأجنبية على تجارته وأرباحه (٦) . وتنشأ المنازعات عادة بين التجار الأجانب والوطنيين والسلطات المحلية لأسباب كثيرة قد تتعلق بوجود السلعة ، أو سعرها أو العملة ، أو نحو ذلك . وفى مصر كان القضاء المحلى هو المسئول عن فض المنازعات بين التاجر الوطنى والأجنبى ، ويفصل بينهما القاضى أو أمير المدينة أيا كان نوع النزاع . والقرار هنا بمثابة حكم محكمة الدرجة الأولى الابتدائية ، وللمتنازعين أن يستأنفوا الحكم وفى هذه المرة يكون الاستئناف أمام السلطان نفسه بالقاهرة أو من ينيبه عنه ويسافر اليه الطرفان المتنازعان . وإذا كان النزاع بين أجنبيين ففصلهما مختصان بفض هذا النزاع ولكن يحق لهما الاستئناف أمام السلطات المحلية وأمام السلطان نفسه . وقد نص على ذلك فى المعاهدات المبرمة

(٦) موضوع العلاقات بين التجار الأوربيين والسلطات المحلية فى مصر والشام قديم قدم الاتصال التجارى بينهما - ولا يمر عام دون وصول بعثة دبلوماسية للتفاوض فى شأن تخفيف القيود على التجار الأجانب وحل مشاكلهم مع الهيئات المشرفة على التجارة بالجمارك أو بخصوص الضرائب ومختلف الرسوم المفروضة ، وفى كل الحالات تقريبا كانت تستجيب السلطات الحاكمة فى مصر مما نشط التجارة وخفف العبء فعلا على التاجر الأجنبى .

انظر الفصل الثانى « العلاقات التجارية الخارجية » . Lopes op. cit. p. 238

بين السلطات المالية وحكومات التجار الأجانب (٧) . واختص

(٧) المقرري : السلوك لمرفة دول الملوك ج ٢ ص ٤١٥ « تعتبر المحكمة العليا في عصر الماليك محكمة الاستئناف وتعقد برئاسة السلطان يومي الاثنين والخميس في دار العدل أو في الديوان ومن أعضائها ناظر الحسبة في القاهرة أو في الثغر حسب موضوع القضية . وأعضاء المحكمة هم : عن يمين السلطان يجلس قاضي الشافعية والمالكية وعن يساره قاضي الحنفية والحنبلية ثم الوزير وكاتب السر - أما قضاة العسكر الثلاثة فيجلسون عن يمين المالكية وهم الشافعي ، فالحنفي ، فالمالكي ، ووكيل بيت المال ، ثم المحتسب - وللاسكندرية محتسب خاص بها » .

وقد تضمنت المعاهدات نصوصا بخصوص التقاضي كالآتي :

(١) معاهدة بين سلطان مصر وملك أراغون برسبای ١٤٢٢/١٤٣٨ الفونسو الخامس ١٤١٦/١٤٥٨ في رمضان ٨٣٣ - ٨٦٣ هـ .

(أ) إذا كانت الخصومة أو النزاع بين تاجر أراجوني وآخر مصري ، وارتضى الخصمان أن يوفق بينهما القنصل ، كان لهما ذلك . ويمكن القنصل من أداء هذه المهمة القضائية ، وإذا لم يرض أحدهما بذلك « أصبح الأمر من اختصاص ملك الأمراء أو ناظر الديوان » (راجع المعاهدة فصل ٢٦) .

(ب) الجرائم والمنازعات التي تقع بين أفراد الجالية الواحدة الأجنبية والمرجع فيها لقنصلهم وحده دون تدخل من السلطان أو من أمير الأمراء (راجع . . المعاهدة فصل ٢٦) .

(ج) يفصل بين الأراغونيين والمصريين السلطان نفسه ، أو أمير الأمراء أو الناظر في الديوان . ومن حق التاجر الأراغوني أن يصل إلى السلطان إذا لم يرض بحكم الحاكم أو القاضي المحلي فيرفع دعواه إلى السلطان نفسه أو أمام قاضيه ، على ألا يؤدي ذلك إلى الانتقام منه أو التعصب عليه أو تعقبه . انظر المعاهدة فصل ١١ .

المعاهدة منشورة بحد المجلة ٤٥ السنة الرابعة سبتمبر ١٩٦٠ ص ٤٨ وعدد ٤٩ :: يناير ١٩٦١ السنة الخامسة ص ٨٣ .

٢ - بالملحق نص لاتفاقية تريفيزاتي/الفوري ١٥١١ - ١٥١٢ من
M. Reinaud, Journal Asiatique, TOM. IV.

بخصوص التقاضي في بلاد السلطان ، وخاصة في دمشق ، وموافقة نائب السلطان عليها في دمشق (فقرة ٤) لا يحق لأي حاكم أن يعاقب البنادقة أي عقاب على الأقل بعد أخذ إذن من السلطان نفسه) .

٣ - بالملحق نص بمعاهدة البنادقة مع السلطان سليم الأول بالقاهرة ١٤ من فبراير ١٥١٧/٢٢ من المحرم ٩٢٣ هـ المادة ٥ - القنصل دون سواء هو الذي يباشر الشئون القانونية والقضائية لمواطنيه ويبت في الأمور لصالحهم .

(أ) أما من يرفض الانصياع لحكم القنصل ويلجأ إلى القضاء الوطني لينقض قانونا، أو حكما أصدره القنصل فلا يسمح له ولا يحق للقاضي استقباله . .

— Wiet, Précis De L'Histoire D'Egypte T. III. pp. 96 ff.

القضاء كذلك بنظر الدعاوى بين طوائف التجار الأجانب بصفة عامة شرقيين أو أجانب ، فقد حدث عندما انضمت ييزا الى فلورنسا أن طالبت الأخيرة بفندق البيزين في الاسكندرية ، ولكن السلطات كانت قد منحتة لطائفة التجار الأتراك ، ولما عرض النزاع على قاضى الاسكندرية حكم بعدم شرعية اعطاء الفندق للفلورنسيين بعد أن سكنه الأتراك المسلمون .

ومثل هذا الحكم كان نهائيا لا يقبل الاستئناف (٨) . ومعظم القضايا أمام المحاكم الابتدائية والمستأنفة بين الأجانب شرقيين وغربيين، أو بينهم وبين الوطنيين كانت قضايا تجارية عن الخلاف فى بيع التوابل أو السلع الشرقية والغربية وما قد يحدث خلال ذلك من خلاف على السعر أو النوع أو العمليات المالية والمعاملات المصرفية أو المقايضة أو بين التجار وهيئة الجمارك نفسها (٩) .

== بالملحق معاهدة بين السلطان قايتباى ولورنزوميدتشى حاكم فلورنسا ١٤٨٨ من Amari, I Diplomi Arabi XLV pp. 363-369.

المادة (٥) اذا حدث خلاف بين تاجر من الفرنتيين وتاجر مسلم وأراد كلاهما الاستئناف أمام السلطان فيجب أن ييسر لهما الأمر وفى حالة غيابنا يتوب عنا الحاكم أو نائبه أو الكاتب (كاتب الديوان) . . . والا يمنع أى شخص من المثل أمام السلطان للمقاضاة وخاصة من التجار الفرنتيين .

٥ - وكذلك المعاهدة الشاملة بالملحق بين فلورنسا والسلطان قايتباى ٢٢ من فبراير ١٨/١٤٩٦ من ذو القعدة ٩٠١ هـ فصل ٣٢ و ٣٣ ، وكذلك فصل ٥ وفصل ١٠ بنفس المعاهدة . ويشير كذلك الى حق الاستئناف الممنوح كذلك للبنادقة أمام السلطان « ان كنا بالأبواب الشريفة أو النايب ، أو الحاجب أو المباشرين بالثغر »

— Amari, Ibid, XL. pp. 184-209.

(٨) انظر الفصل الثانى فى جزء العلاقات بين السلطان اينال والفلورنسيين «العلاقات التجارية الخارجية»

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 488-489.

(٩) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ص ٩٨ : يذكر فى حوادث شهر ربيع الآخر ٩١٢ هـ . . . وفيه وقع أن شخصا من الأتراك يسمى ماماي الداودى - ابن الأمير أبا يزيد أحد المقدمين - ضرب شخصا من تجار الأروام بسبب مشترى بقل ، فلما ضربه سال دمه وتطلع التاجر وشكا الى السلطان فرسم لنقيب الجيش بالقبض عليه ، فلما قبض عليه نقيب الجيش هرب من عنده فحل على النقيب مالا خير فيه . . . =

نظام النقل البحرى فى التجارة :

ومن أهم ما كانت تهتم به الحكومات والهيئات الموكلة اليها الشؤون التجارية الخارجية هى « عمليات النقل البحرى التجارى » . وقد نظمت هذه الهيئات والحكومات فى شرق البحر المتوسط موضوع النقل البحرى ، فعدلت القوانين القديمة ووضعت القوانين الجديدة الثابتة لتتلاءم مع روح العصر . ويرجع قانون النقل البحرى التجارى فى العصور الوسطى الى أيام الحروب الصليبية حين بدأ واضحا مدى الحاجة الى قوانين تنظم نقل الحملات الصليبية ورحلات السفن التجارية للشرق . وظلت هذه القوانين بعد تعديلها سائدة حتى أوائل العصور الحديثة ، بل انها كانت « قاعدة للكشوف الجغرافية والتي احتضنها الأمير هنرى الملاح فى القرن الخامس عشر وآت ثمارها أواخره وأوائل القرن السادس عشر ، وعندما اتخذت التجارة مظهرها الجديد بعد « داجاما وكولمبس » انتهى أثر الحروب الصليبية بمعناها العام المعروف وهو « المعنى الدينى » الى معناها الحقيقى وهو الاستعمار الذى شمل القرون من السابع عشر الى التاسع عشر (١) . وقد اتبعت الدولة البيزنطية ومن بعدها الدولة العثمانية والجمهوريات الإيطالية والهيئات التجارية البحرية التى لها مصالح فى بلاد السلطان المالىكى ، وخاصة فى موانئ مصر والشام قانونا بحريا لم يتغير كثيرا منذ القرن

= ويستطرد ابن اياس بأن السلطان لم يقبل الشفاعة فى الهارب ولا فى النقيب وعاقبهما ورد الحق لصاحبه .

ويذكر المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٦٠ « ان بعض تجار المعجم استأنفوا وتظلموا للسلطان الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون بدار العدل عام ٧٥٣ هـ من حكم القاضى الحنفى جمال الدين عبد الله التركمانى فى خلافهم مع بعض تجار القاهرة ، ولما حقق السلطان فى القضية أمر بالانراج عنهم ورد أموالهم » .

الثالث عشر مأخوذاً من قانون بحرى لجزيرة رودس (١١) التى كانت تمتلك اذ ذاك أسطولا ضخماً له نظمه وتقاليده وقوانينه ، ومن أهم بنوده : -

١ - قوانين خاصة بملكية السفينة وطاقمها .

٢ - مسئولية قائد السفينة (القبطان) عن سلامة السفينة والركاب وودائعهم .

٣ - فى حالة غرق المركب فعلى صاحبها أن يدفع تعويضات لأصحاب السلع بما يوازى خمس القيمة من البضائع المحمولة اذا كان التعويض فضة ، والعشر اذا كان التعويض ذهباً ، والحمولات العادية البسيطة لا تعوض .

٤ - الاذن باستثمار الأموال بطريقة عملية فى شحنات النقل البحرى عن طريق القروض البحرية التجارية . وبخصوص هذا البند نلاحظ أن الهيئات المختصة بالتجارة فى الحكومات فى العصور الوسطى فى البحر المتوسط كانت تسمح بهذه القروض البحرية ، وبهذا

(١١) وهو معروف باسم «The Rhodisian Law»

— Thénau, Voyage D'Outre Mer. p. 116.

- بخصوص رعاية السفن وقت العواصف فإنها ذكرت فى رسائل وبعاهدات العصور الوسطى .

— Senato Secreta, Rag XLIV. f. 92 V.

— Instructions à Dominico Trevisan Ambassadeur Au Sultan 31-12-1511.

يذكر فى فقرة (٩) طلبنا فى عدة مرات فى حالة مفاجأة الزواجر لنا ليلاً أن يؤذن للسفن بأن تلجأ للميناء وبدون استئذان وهو مطلب عادل ويمكن الحصول عليه الملحق برقم (٨) وبخصوص السلع الفارقة السلع التى تتعرض للغرق يصير انقاذها وترد لأصحابها البنادقة - أما السلع التى تقلدها الأمواج للشاطئ بعد غرق السفينة فهى ترد لأصحابها ٢٠٠ الملحق رقم (١٥) مادة (١٠)

— Wiet, Op. Cit. II. pp. 274-275.

— Poston, H., Camb. Med. Trade, Vol. II. pp. 96-97.

النوع من النقل البحري مع فائدة تصل الى حوالي ١٦٦٦٪ من رأس مالها وهو سعر أكبر مما كان يتبع في غرب أوروبا (١٢) .

وبخصوص القروض البحرية التجارية كاحدى النظم السائدة فى عمليات النقل البحري فان تاريخها كالقروض العادية يرجع فى نظامه الى العصور الوسطى المبكرة ، وربما الى عهد الرومان والافريق . وتنص عقودها على تعهد المقرض هنا فى التجارة البحرية بسداد القرض فى حالة عودة السفينة الحاملة للمبلغ المقرض أو البضائع المشتركة به سالمة ، والقرض البحري اما أن يكون لرحلة الذهاب فقط ، أو لرحلة الاياب ، أو لهما معا . « ولما كان القرض البحري يتضمن مخاطرة من جانب المقرض فانه فى العصور الوسطى حتى المتأخرة منها أقرت السلطات الدينية فى بعض الحالات شرعية الحصول على نسبة معلومة من الربح على القرض ، وهو ليس كفائدة بقدر ما اعتبر تعويضا عن المخاطرة والمغامرة ولتفادى تحريمات الكنيسة تقرر عدم ذكر أى ربح أو نسبة تعويض صراحة ، بل نسبة لضمان تعويض المقرض بحيث لا يمكن الاعتراض عليه ولو ذكر مقدما » (١٣) .

(١٢) عن نظام تاجر السفن الدائمة للشرق أنظر أيضا

— Lopez, Op. Cit. pp. 239-244. DOC. 123.

وبخصوص السفن الفارقة الوارد ذكرها فى القانون فانه كان ينص فى المعاهدات والاتفاقيات من العصور الوسطى على أن السلطات تنقل السفن التى تفرق للتجار فى مياهها وترد أموالها لأصحابها أو للتقنصل التابع له ، وقد نص على ذلك فى المعاهدات مع السلاطين المماليك . وأصل ذلك انه كان يطلق عليه اسم Jus Naufragii ، أى طرح البحر ، أو ما يلقيه البحر للشاطئ . ولم يكن فى البداية قانونا بل هى عادة متبعة ، الا اذا غرقت سفينة فى بحر أو نهر فان سلعها المنقذة هى ملك السكان المحليين فى المياه الاقليمية للدولة التى أنقذت السفينة كذلك البحارة والتجار يفقدون حريتهم . ولكن منذ القرن التاسع اتفق دوق نابلى وحاكم سالرنو على ملافاة هذا ، وأيدهم فى ذلك البابوية لحماية السلع والسفن وكل ما يتعلق بالسفن الفارقة .

— Lopez, Op. Cit. p. 304 & R. 3.

(١٣) فى هذا يذكر لوبيز أن نسبة الربح صراحة برغم تحريمات الكنيسة موجودة =

ومن الأسباب التي دعت التجار الى استخدام عقود القرض البحري في التجارة ما كانت تتعرض له السفن التجارية والعمليات التجارية البحرية من أخطار كثيرة وخاصة في القرن الخامس عشر بعد دخول العثمانيين البحر المتوسط منذ سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ واشتداد الصراع بينهم وبين الجمهوريات التجارية الايطالية وفرسان رودس ، وكذلك منذ نمو القوى الوطنية في قشتالة وأراجونا والصراع بين هذه القوى وعرب الأندلس ، بالإضافة الى العواصف والأنواء والقرصنة والمصادرة في موانئ الأعداء ، لذا لجأ التجار الى نظام القرض البحري كوسيلة لنقل أموالهم التي تتعرض لهذه الخسارة والأخطار الى شخص آخر مسئول عن ضمانها في صورة قرض ، ثم حل محله بالتدريج منذ القرن الرابع عشر حتى العصور الوسطى المتأخرة عقد التأمين البحري ، وفيه يتعهد صاحب السفينة بنقل سلع لأحد التجار ، وثمان السلع قرضا للتاجر وعند وصول البضائع سالمة يرد التاجر القرض ، وإذا حدث أي ضرر جزئي ، يلتزم بالتعويض مع عدم ذكر أي اشارة عن ربح تفاديا لتحريمات الكنيسة ، وان كانت هناك أنواع مستترة من الربح تدفع في صورة مكافآت (١٤) .

== ويعتبر بعض المؤرخين أن نسبة التعويض هذه ان هي الا شكل بدائي للتأمين ، لأنها اتخذت فيما بعد أساسا للتعويض وخاصة في حالات التأمين البحري ، بالرغم من أن التأمين البحري لم يظهر الا في وقت متأخر من العصور الوسطى . وينص أحيانا على اعتبار جزء من البضائع المحملة بالسفينة والتي اشترت بالقرض ضامنة لسداد هذا القرض .
— Lopez, Op. Cit. pp. 168-169. DOC. 78, p. 169.

(١٤) كان ينص في عقود تأجير السفن على عدد بحارتها المسلحين للدفاع ضد القرصنة ، وينص على حقوق وواجبات كافة البحارة وما يجب على أصحاب السفن من أسلاك دفاتر بشأنهم كما يضم لهذه الأوراق بوالص الشحن ويذكر فيها أنواع السلع المحملة على السفينة وخطابات للجهة المتوجهة اليها . وبخصوص عقود التأمين فانها حتى ذلك الوقت المتأخر من العصور الوسطى الذي لم تتضح فيه الافكار بعد بخصوص أساليب وقوانين النقل البحري ، فان التأمين كان يعتبر نوعا من المفامرة والمقامرة . وقد لجأ أصحاب شركات التأمين الى اشراك الكثيرين في التوقيع على الصفقات لضمان توزيع خسائر المخاطر .

— Lopez, Op. Cit. pp. 239-247.

نظام سفن المدة فى النقل البحرى التجارى :

ويتصل بموضوع النقل البحرى التجارى فى البحر المتوسط نظام قوافل السفن الموسمية ، ولا تكاد تخلو معاهدة من معاهدات العصور الوسطى من الاشارة اليها فى مجال عددها ومواعيدها ونظمها وهى المعروفة فى تاريخ البندقية التجارى البحرى باسم نظام « المدة » ، وهو يقابل كلمة (قافلة) بحرية تجارية . ويؤدى التعبير الكثير الوارد فى الوثائق والمعاهدات باسم « مراكب المدة » معنى « القافلة الدورية » أو قافلة الموسم ، ومن ثم اختفت كلمة « مراكب » وصارت كلمة « مدة » تعنى « القافلة الدورية » أو مدة القافلة ، وتطورت بعد ذلك لتؤدى معنى أوقات وصولها ورحيلها، فمدة سبتمبر مثلا تعنى القافلة التى ترحل من البندقية فى هذا الشهر بحرا ومحدد لها مواعيد وصول للشرق ومواعيد عودة للغرب . وتطور التعبير فيما بعد ليشمل أنواعا من « السلع » التى تشحن فى تاريخ محدد وتصل كذلك فى تاريخ محدد أى من تاريخ شحنها حتى تاريخ وصولها ميناء التسليم . ومن ذلك قطن الاسكندرية الذى كان مسموحا بتصديره فى مدة موحدة تبدأ من سبتمبر من كل عام وتنتهى فى مارس من العام التالى وقد تمتد حتى ١٥ من أبريل . ومثل ذلك بالنسبة لقطن الشام ، فتبدأ سفن مدته فى الوصول فى شهر أغسطس الى ميناء بيروت لحمل القطن ومواعيدها محددة وان توافقت فى كثير مع مواعيد هبوب الرياح السائدة فى المنطقة . ويحتفظ أرشيف البندقية بتفاصيل وافية عن نظام المدة فى

== عن ترك السلع لصاحب السفينة دون مصاحبة أو حراسة انظر :
Lopez, op. Cit. — DOC. 125 p. 245.

عن (حراسة مسلحة للسفينة) انظر :
Lopez, op. cit. — Doc. 126 p. 240

عن الغاء اجر الشحن بسبب تحطيم السفينة انظر :
Lopez. Op. Cit. — DOC. 127 p. 247.

عن استخدام أساليب الف والدوران فى ذكر الربح انظر :
Lopez, Op. Cit. — DOC. 136 p. 256-260. 261.
— Mailliet, Op. Cit. p. 139.

تجارة العصور الوسطى ، وكان من أهم النظم التجارية البحرية
فى تاريخ البندقية ، وبالأخص فى تجارتها مع شرق البحر المتوسط.
ولما تشعبت مجالات تجارة البندقية استعيرت كلمة «المدة» لتعنى الطرق
البحرية التى تبدأ منها وتنتهى عندها طرق الملاحة والتجارة بين البندقية
ومناطق نشاطها التجارى . وهذه الطرق كانت مأمونة بفضل الأسطول
الحربى البندقى ، ففى بداية الربيع تنزل سفن المدة محملة بالسلع
الغربية و متجهة الى شرق البحر المتوسط حيث موانئ مصر والشام
والسفن خلال هذه الفترة تؤجر لشركات تجارية . وللبنادقة فى كل عام
سته أساطيل تتكون من : -

١ - أسطول قفالونيا ويسافر إليها فى الفترة من ١٥ الى ٢٠
من يناير .

٢ - أسطول انجلترا والفلاندرز ويسافر اليهما فى الفترة من
٨ الى ٢٥ من أبريل .

٣ و ٤ - أسطولا اليونان والبحر الأسود ويسافران اليهما فى
الفترة من ٨ الى ٢٠ من يوليو .

٥ - أسطول الشام عامة وميناء بيروت خاصة ويسافر اليهما فى
الفترة من ٨ الى ٢٥ من أغسطس .

٦ - أسطول الاسكندرية خاصة ومصر عامة وكذلك بلاد المغرب
ويسافر إليها فى الفترة من ٨ الى ٢٥ من سبتمبر .

وكان بإمكان أسطول الشام وبيروت أن يمر على الاسكندرية .
كما أن أسطول الاسكندرية يستطيع السفر الى بيروت . وتحدد
الحكومة عدد ملاحى كل سفينة وحجم الهلب ونوع الشراع والحبال

وكانت تحدد دائما خطا معيناً للسفر ووقتا محددا للشحن (١٥) .
 ووصول سفن المدة لشرق البحر المتوسط يتبع أحيانا مواقيت هبوب
 الرياح فى البحر المتوسط . وقد سجل ذلك الرحالة ابن جبير فى
 رحلته (١٦) . وقد رتبت البندقية مواعيد سفر سفنها التجارية الى مصر
 والشام بما يتفق الى حد كبير مع أوقات هبوب الرياح ومع ترتيب عقد
 الأسواق ، الموسمية فيها . وانتظمت رحلات سفنها فى أربع مراحل ،
 ففى الرحلة الأولى تخرج السفن من البندقية فى شهر يناير لتصل الى
 موانئ شرق البحر المتوسط فى شهر مارس ، ثم تقوم من هذه الموانئ
 بعد توسيق سفنها فى شهر إبريل لتصل للبندقية فى شهر يونيو ولدى
 عودتها للبندقية تتجهز للرحلة الثالثة التى تبدأ فى شهر يوليو وتصل
 لمقصدها فى شهر سبتمبر ، وتعود فى شهر أكتوبر لتصل البندقية فى
 شهر ديسمبر ، وتتجهز للرحلة فى شهر يناير ، وهكذا . أما وصول
 التوابل للاسكندرية فكان لا يتغير أبدا ، فهى تصل فى شهر سبتمبر
 من كل عام حيث يسمح فيضان النيل بدفع السفن من القاهرة

(١٥) كلمة « مدة » العربية انتقلت الى البندقية بلفظها Muda OR Muddah
 لتؤدى معنى الفترة أو المقصود من السفن التجارية والسلع ومواعيد سفرها وعودتها وطرقها
 . وخلافه واقرن هذا النظام بالبندقية بالذات فى العصور الوسطى وستتخذها مثالا لذلك .
 — Nuovo Archivie, Veneto XXXII. 1906. p. 106.

من الدكتور توفيق اسكندر . انظر كذلك :

— Cioli, Hist. Economique. pp. 115-116.
 — Camb. Med. Hist., Vol. I. p. 277.
 — Depping ; Op. Cit. I. p. 158 & T. II. p. 319.

(١٦) يقول ابن جبير فى كتاب الرحلة « ان الريح الشرقية لا تهب الا فى
 فصل الربيع والخريف والسفر لا يكون الا فيهما ، والتجار لا ينزلون فى البلاد العربية
 الا فى هذين الفصلين ، والسفر فى الفصل الربيعى من نصف إبريل وفيه تتحرك الرياح
 الشرقية وتطول مدتها الى آخر مايو ، والسفر فى الفصل الخريفى من نصف أكتوبر ومدته
 قصيرة . والمسافرون للمغرب وصقلية وبلاد الروم ينتظرون الرياح الشرقية فى هذين
 الفصلين .

ابن جبير : الرحلة من ٢٥٨/٢٥٩ .

ابن معاتى : قوانين الدواوين ص ٢٤٧ - ٢٤٨ (نشر عزيز سوريال عطية) .

للاسكندرية فى فرع رشيد وقنا فوة (١٧) . و ينتظر أهالى وتجار
البندقية وأوربا عودة قوافل المدة من الشرق بفارغ الصبر ، ويتفق هذا
مع موسم الأسواق الكبرى التى تعقد فى عيد الميلاد فى أواخر ديسمبر
وفى عيد الفصح فى شهر أبريل . وأحيانا تتغير هذه الرجلات فتبدأ
فى فبراير بدلا من يناير وتتأخر تبعا لذلك باقى المراحل شهرا ، وفى
هذه الحالة تقصر مدة بقاء السفن فى موانئ الشرق . وتقدر مدة
الرحلة من البندقية الى موانئ مصر والشام بحوالى مائة يوم ضمنها
فترة البقاء فى الاسكندرية أو بيروت التى قد تستمر ثلاثة أسابيع .
والسفن التى تصل قبل المدة الى الاسكندرية لا تجد مطلبها من السلع
الشرقية وعليها الانتظار لوصول التوابل من القاهرة والمواعيد هنا
لا تتغير أبدا . وكثيرا ما كانت سفن البندقية تعود محملة بالبضائع
من الاسكندرية وبيروت تاركة ما يزيد على حمولتها ووجدت أخيرا حلا
لهذه المشكلة دون أن تترك هذا الفائض للمدة التالية ، ودون أن تخل
بحقوق أصحاب السفن وحقوق الدولة ، فكانت ترسل مراكب خاصة
مع مراكب المدة لحمل هذا الفائض تعرف باسم مراكب فائض المدة ،
وهذه السفن بحمولتها تخضع لضرائب خاصة ، وقصدت البندقية من
ذلك اخراج هذا الفائض من مخازن الاسكندرية حتى لا يفسد
أو يصادر لحساب السلطات المحلية اذا حدث أى نزاع ، وكذلك
حتى لا يدفع عليه أرضية ضخمة وسفن الفائض تؤجر لفترة محدودة
لترافق سفن المدة (١٨) .

(١٧) انظر الفصل الثالث - الطرق والمراكز التجارية - وكذلك :

- Poston, Op. Cit. II. p. 332.
- Heyd, Op. Cit. II. p. 447 .
- Depping, Op. Cit. I. p. 160.

(١٨) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية (مترجم) ص ٢٨ و ٢٩

- Heyd, Op. Cit. II. p. 447.

انظر مراكب فائض المدة فى الفصل الثانى .

وموضوع الاعتداءات على سفن التجارة فى البحر المتوسط كان مما أولته المدن التجارية فى العصور الوسطى اهتماما خاصا ولا سيما البندقية لدرء خطر تهجم القراصنة واعتداءاتهم على الركاب ونهب السفينة وما عليها من سلع لذا لم تخرج سفن التجارة ، دون حراسة ويقوم بالحراسة الأسطول الحربى ، كما لجأت أحيانا الى تزويد السفن بأساليب الدفاع عن نفسها ضد أى اعتداء ، ومن ثم أصبحت مسألة حماية المدة اجراء عادى تمارسه الحكومات وتجهز حملة الحراسة مع كل مدة ، فلكل أسطول تجارى أسطول حربى وسفنها تختص بكل بحر وتحتاط لكل نوع من العواصف المعروفة أو الرياح السائدة . والأساطيل التجارية الأهلية غير الحكومية كانت تدفع للسلطات ضريبة خاصة بالحماية أنفقت فى بناء السفن الحربية والترسانات والأبراج والحصون . وفى حالة الحرب أو تهديد الحرب يصير نقل السلع على سفن الحكومة وحدها التى تحرسها الأساطيل الحربية ، أما الأفراد فيدفعون ٥٪ ، وأحيانا ٧٪ رسم حماية ودفاع . ولشدة مراس الأسطول البندقى كان يمنع القراصنة من دخول مياه قبرص للتموين قبل أن تبشر البندقية على الجزيرة اداريا ، وظل هذا قائما بعد اشرافها عليها منذ عهد السلطان قايتباي (١٩) .

ولم تقتصر وظيفة الحكومة هنا على تنظيم وحراسة سفن المدة بل عينت لكل أسطول تجارى قنصلا بحريا يرافقه ، من وظائفه فض المنازعات التى قد تنشأ على ظهر السفن كما كان بعض هؤلاء القناصل يقوم بعمليات مسك الدفاتر وعمل حسابات السفن وحسابات السلع وحسابات التاجر بدلا من أصحاب السفن لامكان تقدير الضرائب

(١٩) عن جواز نهب السفن الجانحة انظر سعيد عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى

ج ٢ ص ١١٥ - ١١٦

— Poston, Op. Cit. II, p. 332.

— Depping, Op. Cit. I, p. 156, 160; 163; & II, pp. 314-315.

انظر كذلك ملاحظة رقم ٢١٣ بتمه ووثيقة رقم ١٠٩ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ من لوبيز

المطلوبة ، وعهدت اليهم الحكومات والهيئات المشرفة على التجارة ملاحظة المخالفات على ظهر السفن وتوقيع الجزاءات والغرامات التي تبلغ أحيانا ربع أو ثلث الحمولة ، كما أن القنصل وأعوانه يكونون ما يشبه البوليس الحربى البحرى على ظهر السفن . ويبدو أن وظيفة القناصل البحرين كانت معروفة لدى شعوب البحر المتوسط منذ القرن الرابع عشر ، وزاد الاهتمام بها فى القرن الخامس عشر لاتساع نطاق التجارة وخاصة فى مصر والشام (٢٠) .

نظام النقل التجارى البرى :

ولم تكن النظم التى وضعت لكى تختص بالتجارة البحرية فقط بل وضعت نظم أخرى تختص بالتجارة والنقل التجارى على الطرق البرية . ولم يقدر لهذا النوع من النقل الازدهار الذى حازه النقل البحرى فى القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، نظرا لما ساد منطقة آسيا الصغرى ، وشرق البحر المتوسط فى الشام من اضطرابات بسبب الحروب والصراع بين البيزنطيين والعثمانيين . ثم بين هؤلاء والمغول والتركمان والصفويين ثم المماليك ، وإذا أضفنا الى ذلك انتشار قطاع الطرق ، فإن كل هذا انطبع على الطرق والتجارة ولم تعط الحكومات وخاصة العثمانية اهتماما بالتجارة لانصرافها الى الفتح والتوسع وتأمين أطرافها . على أن بعض هذه الطرق كان يقع تحت سيطرة حكومات قوية ، وكان محروسا بالجند المحليين أو الجند المرافقين للقوافل التجارية منها طريق القاهرة/السويس ، والطور أو القلزم ، وطريق قنا/القصير أو عيذاب . كما أن التنافس الشديد

— Lopez, Op. Cit. p. 246 & DOC. 126.

(٢٠)

— Depping, Op. Cit. II. pp. 335-336.

بين الأسواق دفع الحكومات الى تحسين وسائل المواصلات البرية وطرقها ، وعملت بالتالى على تخفيض الجمارك والمكوس المختلفة وتشديد الحراسة تشجيعا لارتياحها وبالتالى ازدهار تجارتها (٢١) .

وازاء كل هذا فضل تجار الطرق البرية اتباع نظام المشاركة فى التجارة ، والدخول فى الشركات التجارية ، كنوع من أنواع الحماية وتقادى الأخطار ، وكذلك لما امتازت به الطرق البرية بعمرانها بالمدن والأسواق مما يزيد فرصة المتاجرة والربح ووجود وكلاء للشركات والتجار على طول الطريق لتسهيل العمليات التجارية والمالية ويشارك التجار معا فى تمويل التجارة برءوس أموالهم ، كما يشتركون فى الادارة والسفر والاقامة ، ويتحمل كل شريك نصيبه فى الخسارة والتضحية ، أو ينال نصيبه فى الربح مثل باقى الشركاء (٢٢) .

ونظام الشركات الذى ساد مصر فى العصور الوسطى المتأخرة امتد اليها من القرون السابقة ، والقاعدة هنا أن النظم لا تبطل انما تستمر مع ما استحدث عليها فقد عرف مبدأ المشاركة لأكثر من واحد فى التجارة ، وعرف الشركاء باسم « المضاربين » والمضاربة أو القراض أو القراضة نوع من أنواع الشركات ، وفيها يدفع الشخص مالا لآخر ليتاجر فيه ، ويتضمن عقد الشركة نصا على أن يكون الربح بينهما حسب العقد والخسارة على صاحب رأس المال . وقد يكون الربح النصف أو الثلث أو الربع للتاجر ويعتبر رأس المال هنا أمانة لدى التاجر الذى هو فى نفس الوقت وكيل صاحب رأس المال وعقد الوكالة بينهما غير ملزم ، فيستطيع أحدهما أن ينسحب من الشركة بعد حصوله على حقوقه . وأحيانا ينص فى العقد على أن يكون الربح أو الخسارة

— Poston, Op. Cit. II. p. 333.

(٢١)

— Jacob, Legacy of Middle Ages, p. 444.

(٢٢)

— Poston, Op. Cit. pp. 334.

كلها لصاحب رأس المال ، والوكيل أو التاجر هنا ليس سوى أجير بالراتب والعمولة . وقد استمر هذا النظام قائما في مصر حتى نهاية العصور الوسطى (٢٣) .

ولم تكن العمليات التجارية بالشركات والعقود مقصورة على الوطنيين فيما بينهم ، بل شملت كذلك الوطنيين والأجانب ، بل ان تجار الكاريم أنفسهم كانوا في وضعهم التجاري أحيانا وكلاء لشركات ووكلاء بالعمولة والمشاركة في الأرباح ومن أمثلة هذا عقد شركة بين تاجر كارمي وتاجر فرنجي ، ونص في العقد على أن يكون ثلاثة أرباع رأس المال للتاجر الكارمي والربع للفرنجي وتشغيل المال للفرنجي والربح بنسبة رأس المال مع عمولة للفرنجي (٢٤) .

وكان لهذا النظام مثيل في أوروبا عرف باسم العقود الشخصية والعقود الشئائية، وأساس هذا النظام التجاري وجود شريكين أو أكثر أحيانا ، أحدهما متجول والآخر مستقر . والغرض من هذا النوع من النظم التجارية هو تسهيل العمل على التاجر الذي قد تمنعه ظروف

(٢٣) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠٣ يذكر عن ابن الأثير ... خرجت سفن من مصر والشام فأخذ الفرنج في اللاقية مركبين مملوءين بالامعة ، وكان لوالدي في المركب تجارة مع شخصين فلما أعادوا للناس أموالهم لم يصل الى كل انسان الا اليسير ، وكان يحمل المتاع ، فكلف من كان اسمه عليه أو على ثوبه أخذه وكان في الناس من يأخذ ما ليس له وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة ، وكان نصرانيا فلم يأخذ الا ما عليه اسمه وعلامته .

الجزيري : تاريخ الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ٤٣ .

— Lopez, Op. Cit. p. 215. DOC 105. & p. 216. DOC. 106.

(٢٤) دأين التاجر الأفرنجي السلطان بستة عشر ألف دينار ودفعها له الكارمي « ويستردها فيما بعد من السلطان » ثم دفع الأفرنجي أربعة آلاف ليصير رأس المال للشركة ٢٠ ألف ونص في العقد على أن ثلاثة أرباع رأس المال للكارمي والربع للأفرنجي مع حق تشغيل واستثمار المبالغ والربح بنفس النسب .

المقريزي : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ و ١٠٤ .

ابن حجر : الدرر الكامنة ص ٢٠٤ .

مختلفة من القيام بالرحلة بنفسه ، ثم تطور الى نظام يتضمن استثمار الأموال بدلا من تركها عاطلة في التجارة الخارجية ، ولدى عودة الشريك أو الشركاء ببضاعة قومت وبيعت لتقسم الأرباح بينهما حسب نصوص الاتفاق . ويحدد في هذا النوع من الشركات مدة « مضاربة » أو استغلال رأس المال في مدى عامين أو ثلاثة أعوام . وكمن العقد يعيد الشريك رأس المال مع نصيب الأرباح ويبلغ عادة النصف ، ويتحمل المستثمر الخسارة التي تنقص من رأس المال ، والتاجر المتنقل يخسر أتعابه أو المكافأة اذا لم تنتج التجارة ربحا . وفي بعض عقود الشركة المذكورة في هذا النظام ينص على أن رأس المال يكون مشتركا والمسئولية بالتضامن بين الشركاء وهذا النوع من الشركات عرف باسم الشركات التجارية البرية *Societas Terrea* (٢٥) وقد اشتق من النظام المعروف في الشرق .

ومن أنواع الشركات أيضا « الشركات الأخوية *Fraterna Compania* » والتعاقد هنا يضم أعضاء الأسرة الواحدة الراغبين في الاشتراك برءوس أموالهم في التجارة كما ضمت في بعض الأحيان من لهم علاقة بالأسرة عن طريق النسب والزواج وقد استخدمت المدن الإيطالية هذا النوع من الشركات في تجارتها في البحر المتوسط في الملاحة البحرية بعد أن نجح في نظام التجارة البرية (٢٦) . وتطورت بعد ذلك لنجاحها لتضم أغرابا عن الأسرة في شركة تعرف باسم « شركة التوصية المساهمة *Commenda Compania* » وينقسم أفرادها الى قسمين قسم يشترك برءوس الأموال وهو *Commendator* ، والقسم الثاني يشترك بجهده وهو *Tractator* . أي الفئة العاملة وينص في

— Lopez, Op. Cit. p. 16. DOC. 93. p. 189. (٢٥)

— Lopez, Ibid, pp. 185-186. DOC. 91. pp. 187-188. (٢٦)

— Poston, Op. Cit. II. pp. 324.

— Jacob, Op. Cit. p. 443.

العقد بأن يكون ربع الربح للعاملين وثلاثة أرباع الربح لأصحاب رءوس الأموال (هذا النوع هو الذى تحدث عنه المقرضى) . وتطور بمرور الوقت الى أن الشريك العامل يستطيع أن يبقى نصيبه من الربح ليتجمد ويصير مبلغا ضخما يضيفه لرأس المال فيصبح حينئذ مشتركا فى الشركة برأس مال وتصير له وظيفتان وربحان . وكذلك حرية أكثر فى توجيه رأس المال . ويستطيع أصحاب رءوس الأموال أحيانا أن يشتركوا فى عدة شركات ويوزعوا أموالهم على هذه الشركات ، لأنه فى اعتقادهم أن وضع رأس المال كله فى صفقة واحدة وعلى سفينة واحدة يعرضه للضياع اذا ما أصيبت السفينة بكارثة أو اذا أفلست التجارة ، ولذا نرى صاحب رأس المال يوزعه على عدة شركات لضمان عدم ضياعها كلها (٢٧) .

وتطورت الفترة المتأخرة من العصور الوسطى تطورا فى أنواع الشركات يهدف الى تكوين اتحاد من مجموعة شركات متجانسة تتاجر فى نوع واحد من السلع تفاديا للمضاربات الضارة بين الشركات المتفرقة ، وقد عرف اذ ذاك باسم « اتحاد الشركات » وظهرت أهميتها فى تطور التجارة بازدياد حجمها وتنظيم المنافسة بين الشركات المتجانسة لنوع واحد من المتاجر . وكان من مصلحة هذه الاتحادات أن ترسل سفنها بمتجمعة فى أسطول واحد وفى حراسة واحدة ليسهل الدفاع عنها ضد القراصنة ، ويتفقون على المنافع والفوائد ولهم مقاييس ونظم لضمان حقوق الأفراد المساهمين ، كما أن الاتحاد مسئول عن أعضائه وهم بدورهم يخضعون لنظامه فيضحون بجهودهم وأحيانا بحريتهم على مذبح المصلحة العامة للاتحاد (٢٨) . وكلما زادت

— Clive, Op. Cit. pp. 116-117.

(٢٧)

(٢٨) * كان من قوانين هذه الاتحادات أن افرادها لا يبقون كلهم فى مكان واحد ولا يسافرون كلهم الى مكان واحد ، وخاصة فى التجارة البرية . ويلغز الاتحاد أحد الأعضاء العاملين بالسفر ويصاحبه محاسب واتب مثل ذلك فى التجارة البحرية القصيرة =

رءوس الأموال فى الشركات المتحدة زادت فرص المتاجرة وبالتالى فرص الربح . وقد صاحب ظهور هذا النوع من الاتحادات التجارية تطور المصارف (٢٩) .

نظام تجارة العبور فى مصر والشام :

وحتى نهاية العصور الوسطى ظلت مصر والشام منطقتى عبور للتجارة الشرقية والغربية وعرف هذا النظام باسم « تجارة العبور أو الترانسيت » فتصل السفن الأوربية لموانئ شرق البحر المتوسط المالكية حيث تجد تجار المنطقة وقد جلبوا المتاجر الشرقية من الهند والشرق الأقصى ووسط آسيا وأفريقية فيتولون نقلها الى أوربا . والقناصل التجاريون ووكلاء الهيئات التجارية يقومون بعملية تسهيل تجارة العبور وتجبى السلطات المالكية والتجار الأوربيون من هذا النظام أموالا طائلة كل عام (٣٠) . هذا بالإضافة الى أرباح التجار الوطنيين .

= أما فى التجارة البحرية البعيدة فكان خروج الأعضاء جماعات لضمان الحراسة من مجبات القراصنة .

— Pirenne, Hist. of Europe, p. 383.

— Clive, Op. Cit. p. 115.

(٢٩) تطور بنك سان جورج فى جنوة وفروعه فى آسيا الصغرى وعلى البحر الأسود وفى الشام والقسطنطينية ومختلف مراكز التجارة بالبحر المتوسط - نتيجة لهذا النوع من الاتحادات والشركات - بصورة واضحة للتوسع المالى والتجارى المصرفى فى العصور الوسطى المتأخرة ، وإن كان تكوينه نتيجة لأعمال مالية ضرائبية أخرى - (وهذا النوع من الاتحادات لا يقارن بما حدث بعد ذلك فى القرن السابع عشر وما بعده من قيام شركات التجارة المتحدة الهولندية فى أندونيسيا والانجليزية فى الهند فهو فى العصور الوسطى كان نظاما محدودا على نطاق ضيق وإن كان قاعدة لظهور الاتحادات المذكورة فيما بعد) .

— Jacob, Op. Cit. pp. 444 & 449, 450.

(٣٠) ليس أدل على هذا المعنى من أن هيئة التجار الأجانب فى مصر وعلى رأسهم قنصل البندقية ، استطاعوا بفنائهم الفاحش من تجارة الترانسيت أن يدفعوا ١٠٠٠٠٠٠ جنيه فدية لجانوس ملك قبرس عندما أسره الماليك . =

ولم تكن موانئ شرق البحر المتوسط هي وحدها التي تقوم بعمليات التجارة العابرة ، بل ان موانئ مصر على البحر الأحمر كانت تقوم بهذه العملية كذلك فتنافست موانئ ومدن الطور والسويس والقلزم والقصر وعيذاب ودهلك وسواكن وجدة في جذب البضائع اليها ، وان كان محرما على الأجانب ورود هذه الموانئ ، ولكن كان مسموحا بذلك العرب والمصريين . ويقوم بعمليات تجارة العبور تجار الكارمية منذ العصر الفاطمي حتى نهاية عصر السلطان قايتباي ، وتحصل جمارك الموانئ على ذلك رسوما عالية ، يضاف اليها عشر قيمة البضائع أحيانا (٣١) . ولأهمية هذه التجارة بذل السلطان الغورى منذ توليه السلطنة جهودا جبارة ضد البرتغاليين في بحر الهند ومدخل البحر الأحمر الجنوبي عندما أدرك خطورتهم على التجارة عامة والعابرة خاصة ، اذا أنها كانت تمثل برسومها مصدرا رئيسيا من مصادر ثروة البلاد (٣٢) .

على أن جميع جمارك الدول التي تمر بها التجارة الشرقية الى

== سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١١٤ - ١١٥ .

ابن حجر : انباء القمر ج ٢ (مخطوطة) ورقة ١١٢ .

— Maurice Schemell, Le Caire, p. 185.

— Atiya, The Crucades, Op. Cit. p. 115.

(٣١) لين بول : سيرة القاهرة (مترجم) ص ٢١٦ .

« لم تكن الجمارك وحدها هي مصدر ثروة مصر في العصر المالكي ، بل كانت رسوم تجارة المرور ، وخاصة لسلع الغرب الذاهبة للشرق الأقصى أو للتصريف في بلاد المالكي » .
— Ziada, Foreign Relation, p. 209.

(٣٢) « نالت فلورنسا على عهد السلطان خشقدم عام ١٤٦٥ امتيازاً لم يعط لغيرها من المدن التجارية بموجباً أعفيت سفنها من التفتيش ومن رسوم العبور اذا حملت سلعاً لبلاد أخرى ولم تفرغها في موانئ السلطان وكانت السلطات المالكية تفرض رسم عبور في مثل هذه الحالات » راجع الفصل الثاني وكذلك :

— Ziada, Ibid, p. 245.

— Clive, Op. Cit. p. 99.

انظر كذلك معاهدة السلطان قايتباي وفلورنسا ١٤٨٨ عن عدم دفع رسوم للسلح المارة ولا تفرغ في موانئ السلطان .

الغرب أو العكس كانت تستفيد من تجارة المرور فيها ، وتشمل هذه الفائدة تاجر الجملة والوسيط ، وتاجر التجزئة اذ تزداد الأسعار بعد كل رسم ترانسييت (٣٣) . وكانت القسطنطينية من أكبر مراكز المرور لسلع الشرق الأقصى والبحر الأسود وبلاد الروس ، والضغالية الى غرب أوروبا ، وكذلك سلع غرب أوروبا وشرقها والبحر المتوسط للشرق الأقصى وفي فترة انكماش الامبراطورية البيزنطية بسبب اندفاع العثمانيين نحو الغرب نقلت السلطات مهمة الاشراف على تجارة العبور للوكالات التجارية الايطالية كالبندقية وجنوة نظير رسوم اضافية . وقد توقفت تجارة العبور خلال الحروب التي انتهت بسقوط القسطنطينية ١٤٥٣ م ، ثم استؤنفت مرة أخرى ، وان كان عن طريق أرمينيا وموانئ الاسكندرونة وإياس في قليقية الشرقية . ومنذ عام ١٤٦١ بعد أن اتجه العثمانيون لاختضاع الجيوب الباقية على البحر الأسود والتجار يتجهون بأعداد كبيرة الى مصر والشام لتتركز «تجارة العبور» فيهما حتى نهاية دولة سلاطين المماليك (٣٤) .

(٣٣) « فرضت حكومة المماليك ضرائب عدة على التوابل التي تمر بالحجاز في طريقها للشمال ، ومنها ضرائب العبور وتجبى في بدر وحنين والمقبة وجسر الحسى » . ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ١٠٨ .

وإذا وصلت الى موانئ عيذاب أو الطور أو السويس أو القلزم أو القصير جبت عليها الحكومة مكوساً أخرى للعبور غير ضرائب الجمارك وتقدر قيمتها على ما كانت عليه في العصر الأيوبي .

القلقيشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

المقريزي : الخطط ج ١ ص ١٠٣ - ١٠٩ .

وقد حدد المماليك قوانين الضرائب في دولتهم على أساس تجارة المرور التي كانت ترتفع بالتدريج تبعاً لاحتياجات الدولة من المال وعلى قدر طلب الغرب للتوابل ومقدار ما يرد منها لأسواق مصر والشام .

المقريزي : المصدر السابق ج ١ ص ١٠٩ .

— George Dunbar, A Hist. of India, Vol. I, p. 151.

(٣٤) « فرض السلطان برسيباي ١٤٢٨ م على تجار الشام أن يدفعوا قيمة المكوس على بهارهم العابر من مكة الى الشام ٣/٤ دينار عن كل حمل ، واعفاء ما يحملونه لمصر =

المنشآت والمرافق التجارية :

ويخدم التجارة مجموعة من المنشآت والمرافق الحكومية والأهلية منها الأسواق والوكالات والقساريات والخانات والفنادق .

الأسواق :

ونظام الأسواق في شرق البحر المتوسط خضع الى حد كبير لتطورات السياسة والحرب والتقلبات الاقتصادية في المنطقة . فمنذ أن أغلقت القوات العثمانية الطريق التجارى البرى من وسط آسيا عبر آسيا الصغرى الى أوروبا والشام ، والأسواق على هذا الطريق ينضب معينها من السلع الشرقية شيئا فشيئا نتيجة الأعمال العسكرية المتصاعدة ، كما قل مرور قوافل التجارة على مدنه وموانيه لتزايد أخطار الحرب . وظل الأمر كذلك فترة بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ حتى هدأت الأحوال لتفتح الأسواق أبوابها من جديد ولكن لم تدم هذه الفترة أكثر من سبع سنوات ، اذ ما لبث القتال أن تجدد مرة أخرى حين عملت القوات العثمانية على اخضاع الجيوب التركمانية والرومانية الباقية في شرق آسيا الصغرى وعلى البحر الأسود . ومنذ ذلك الحين والأسواق تهجر ويتجه تجارها بأعداد هائلة الى مدن ومناطق أخرى أكثر أمنا واستقرارا ، وهى أسواق الشام ومصر . والواقع أن الصراع فى أسواق القسطنطينية ومدن طرابيزون وأماستري وبروسة وأطنة وغيرها من مراكز التجارة فى آسيا الصغرى وعلى البحر الأسود كان صراعا بين استمرار التجارة من ناحية ونجاح الجحافل

== بالذات ، وإن كان يتحصل منهم مكس آخر فى دمشق إنما مكس مكة هو رسم عبور »

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦٢٨ (طبعة كاليغورنيا)

— Poston, Op. Cit. II. p. 95.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 384.

— Lane Poole, Hist. Of Egypt in The Middle Ages, CHP. IV. p. 158.

التركية المتقدمة نحو الغرب حتى عام ١٤٥٣ ونحو الشرق عام ١٤٦١ من ناحية أخرى . ولم ينته الصراع الا بعد أن تم للأتراك العثمانيين النصر وخضعت المنطقة كلها لهم ، وبدأوا يستقبلون الأعضاء القدامى للأسواق من جديد ولكن فى ظل سيد جديد .

وفى مصر والشام ركز الممالك جهودهم على ازدهار أسواقهم واستعدوا فعلا لنتائج الحدث الذى شل حركة الأسواق فى مدن وموانئ العثمانيين عام ١٤٥٣ فدعموا الأمن والاستقرار والحراسة فى الأسواق وعملوا على توسيع نطاق التجارة فيها لامكان استقبال أكبر عدد ممكن من التجار الأجانب ومنح طوائفهم الامتيازات ، كما أبقوا على ما كان فيها من نظم تجارية اعتاد عليها التجار ، وأجازوا النظم المستحدثة فى نطاق مصالحهم التجارية والعسكرية . ونتيجة لذلك امتلأت أسواق مصر والشام بهؤلاء التجار الأجانب الذين تاجروا فى ظل حكومة قوية وأسواق منظمة وموانئ آمنة . وأعطيت التعليمات لعمال الموانئ والجمارك بحماية الأسواق ورعاية التجارة والتجار الأجانب خاصة ومنع الغش أو نهب التجار . وكان العقاب الشديد يقع على الوطنى الذى يثبت أنه استغل الأجنبى استغلالا سيئا ، ويلحق بالمباشرين للأسواق عقاب مماثل ، ونص على هذه التعليمات فى كل المعاهدات (٣٥) .

والواقع أن الأسواق هى أقدم أشكال النظم التجارية ، وهى ثلاثة أنواع : أسواق محلية وموسمية ، وسنوية ، ومعظم أسواق الشرق الداخلية محلية ودائمة ، ولها أيام معينة فى الأسبوع ، وان

— Gayet, Le Cours, Hist., Du Commerce, T. II. p. 310. (٣٥)

الفلقشى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٤٢١ وج ١٢ ص ٤٠١ وما بعدها . راجع ما كتب عن هذا الموضوع فى الفصل الثانى .

— Thenaud, Voyage D'Outre Nor, p. 122.

كانت في وقت مبكر من العصور الوسطى قد اتخذت صفة التخصص ببيع أنواع معينة من السلع ، فهذا سوق البزازين ، وذلك سوق العطارين ، وسوق الفرائيين ، وسوق الحريريين ، وسوق العنبريين. ولكن لما اشتدت حركة التجارة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر لم يعد هذا التخصص يحترم وان كان سوق العطارين بالاسكندرية اقتصر على التوابل وحدها ، وشمل كل سوق أنواعا مختلفة من السلع . وتجار هذا النوع من الأسواق اما مستقرون لهم حوانيتهم ومخازنهم ، واما متنقلون يبقون بالسوق لفترة متأخرة من النهار ثم يبارحونه ليعودوا اليه ثاني يوم . ومراقبا السوق المحتسب والجهد ينهيان عملهما برحيل هذه الطائفة من التجار عن الأسواق (٣٦) وللاهمية الفائقة للسوق في نظم التجارة كآخر مكان تستقر فيه البضائع والسلع الشرقية المصدرة للغرب أو العكس ، كان لابد من نظام ضبط وربط دقيقين للأسواق منعا للتلاعب في الموازين أو الأسعار أو جباية الرسوم أو غش السلع ، وقد أوكل هذا العمل للمحتسب وعماله . ويسير نظام الحسبة والقائمين عليه في الأسواق وفق قوانين عامة وثابتة وقوانين متطورة حسب ما يستجد . والمحتسب

(٣٦) المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ١٠٣ و ج ٣ ص ٤٩ - ٥١ و ٥٢ .

المقرئى : الخطط ج ٣ ص ١٥٩ - ١٦٦ و ١٦٧ و ١٦٨ .

سعيد عاشور : العصر المالكي ص ٢٩٦ و ٢٩٧ .

سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر الماليك ص ٨٦ .

متز : الحضارة الاسلامية (مترجم) ج ٢ ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

— Clerget. Op. Cit. pp. 307-317, 318.

« ولعل التخصص هذا كان من أبرز عيوب الأسواق فالمشتري الذى يريد عدة أصناف كان عليه أن يقطع المدينة كلها طولا وعرضا حتى يقضى حاجته ، لأنه لن يجد في السوق الواحدة سوى نوع واحد من السلع ، وفى نفس الوقت كان لهذا النوع من التخصص محاسنه فلا يستطيع التاجر أن يرفع سعر السلعة حتى لا يشد بذلك عن أسعار التجار لأن منافسيه على مقربة منه ، كما أن المشتري اذا لم يعجبه سعر السلعة وصنفها استطاع أن يجد ما يريده بسهولة عند غيره » .

وأعوانه يشرفون على عمليات البيع والشراء والصفقات الكبيرة بأنفسهم ، وبالإضافة الى باقى مهامهم فهم يقومون بجمع ضريبة « المشاهرة والمجاعة » من الأسواق (٣٧) . ويراعى المحتسب كذلك التسعير الجبرى والأسعار التى تختص بأنواع معينة من السلع لا يحق التعالى فيها - والتفتيش هنا يكون ليلا ونهارا . ويختار المحتسب من ذوى الرأى والمهارة ورعاية شئون الناس والا يقع عليه العقاب (٣٨) .

أما الأسواق الموسمية فكانت تعقد فى مواسم ورود التوابل من الهند والصين لأسواق مصر والشام وجدة ومكة ، وتخضع فى ذلك لمواعيد هبوب الرياح الموسمية ، وتصل فى مواعيد سنوية لا تتغير ، وفى نفس الوقت تصل السفن الأوربية من الغرب لحملها فى مواعيد ثابتة وتعقد فى ذلك الوقت المزادات . وفى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ترددت شكوى التجار الأجانب من اجبار عمال الجمر ك لهم على الرحيل قبل شراء كل ما يلزمهم وطالبوا بتمدد فترة المدة الموسمية ، وقد أجيبوا الى طلبهم ، ونص على ذلك فى كل المعاهدات من العصور الوسطى والمتأخرة (٣٩) .

(٣٧) المشاهرة والمجاعة ضريبة غير ثابتة وعندما تفرض وتجمع يترك المحتسب ورجاله الرقابة على الاسواق فيرفع التاجر الأسعار لامكان التعويض عما يدفعونه ، وإذا الفيت قلت الرقابة ثانية وبلغ ما جمع منها على عهد السلطان قايتباى حوالى ١٠٠٠ دينار شهريا وعلى عهد السلطان الغورى حوالى ٢٧٠٠ دينار شهريا .

أبو المحاسن : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٢ و ١٣ و ٥٩ و ٩٣ .

عن المحتسب انظر - المقرئى : الخطوط ج ١ ص ٤٦٣ و ٤٦٤ .

ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢٤ - ١٢٥ .

سميد عاشور : العصر المالئكى ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٣٨) «كما حدث للمحتسب «بدر الدين مزهر» الذى وقع عليه السلطان قايتباى العقاب لفصله فى نظام التسمية الذى فرض على بعض السلع ولم يقبله الناس وارتفعت الأسعار .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٩ (بولاق) .

(٣٩) انظر بعده عن اجراءات الموائى بشأن التجارة .

والنوع الثالث من نظام الأسواق هو الأسواق السنوية وقد كانت محلية وعالمية واشتهرت بها مدن وموانئ العصور الوسطى عامة في الشرق والغرب ، وتعقد في مناسبات معينة . ففي مكة وجدة كانت تعقد في مواسم الحج حيث يصلها أعداد كبيرة من تجار الشرق والغرب العربى . ووقت تجار أوروبا في البداية مواسم ورودهم لشرق البحر المتوسط بمواعيد هذه الأسواق في الأعياد الإسلامية ، ولكن لما زاد الطلب حددوا وقت ورودهم بنظام السنة ، لأن نظام الأسواق السنوية في الأعياد كان يختلف تبعا لمدار السنين ، وهو ما لا يتفق مع مواعيد أوبتهم ورحيلهم ومواعيد أسواقهم في أوروبا عامة وإيطاليا خاصة . وقد تطورت هذه الأسواق لتصير نصف سنوية وربع سنوية ، وتعقد في هذه الأسواق صفقات البيع والشراء والمبادلة بالنقد والمقايضة والحساب الجارى والبيع المؤجل الدفع ، وتخضع حركة المتاجرة وتفاذى ما قد ينجم من مشاكل من التعامل المالى ، وكذلك لا مكان حساب مطلوب الحكومة من العوائد وضرائب تجارة المرور (٤٠) .

= وبخصوص الأسواق الموسمية كانت تعقد بها مزادات علنية ، في العصر المماليكى كان ورود التوابل بكميات هائلة سببا في اتساع نطاق البيع بالمزاد العلنى وهو نوع من أنواع المعاملات التجارية . ومن أهم مراكز المزاد العلنى سوق خان الخليل وتعقد مزاداته يومى الخميس والاثنين من كل أسبوع منذ الصباح الباكر وينقضى السوق بعد الظهر ويقود البيع الدلال نظير عمولة تحصيل من صاحب المزاد وهو مكلف بالإعلان عن السلع وإرشاد من يريد الشراء الى مكان البيع .

— Horn, Op. Cit. p. 79.

— Clerget, Op. Cit. p. 39.

(٤٠) بخصوص البيع المؤجل الدفع ، انظر أبو المحاسن : حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور (مخطوطة) بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٩٧ تاريخ المجلد الأول الجزء الأول حيث يقول «اعتاد تجار مصر التعامل بالاجل مع تجار الشام وهم يسمون هذا النوع من التعامل التجارى باسم «الجديدة» وقد أدى هذا الى غلاء أسعار بعض الاقمشة كالقماش البعلبكي والزموط . وشكا بعض المماليك السلطانية من ذلك الى السلطان فكلم هذا الشيخ على المعجم والمحتسب وأغلظ عليه مما جعل المحتسب يتشاور ، فقلقت التجار حوائثهم أياما وكتب =

وأسواق مدينة القسطنطينية في العصر العثماني منذ عام ١٤٥٣ كانت على نسق أسواق مصر والشام في كثير من مميزاتهما ، وهى أسواق واسعة ورائجة منذ أن كانت للبيزنطيين ، ومن أشهرها سوق « البازستان » ، وهو مبنى بالحجارة وتفتح أبوابه فى ساعات معينة من النهار وفيه أقدم تجار المسلمين وأغناهم ، وتباع به جميع البضائع الشرقية والغربية ، كما أن لكل سلعة ركنا خاصا . والسوق منظم ليسهل مراقبة حركة البيع والشراء فيه ، وقد وصل هذا النظام للعثمانيين من البيزنطيين وبقي كما كان عليه من الدقة والنظام بعد أن آلت المدينة للعثمانيين . وتزدحم السوق طول العام وإن كان يقل التعامل فى فصل الشتاء بسبب سئد الجليد للطريق من تراقيا لآسيا الصغرى (٤١) . وبقيت كذلك الأسواق فى سالونيك عامرة بعد الفتح العثماني لها حتى أن سوقها كان من أكثر أسواق شرق البحر المتوسط ازدهارا وعمرانا طوال القرن الخامس عشر وفترة من القرن السادس عشر وأسواقها موسمية بالنسبة للمتاجر الشرقية وسنوية للسلع الغربية والدائمة ويحضرها طوال العام التجار المسلمون لبيع الحرير الدمشقي والقطن المصري ، ويحضرها كذلك الايطاليون للشراء (٤٢).

واشتهر كذلك من بين الأسواق السنوية سوق مدينة ليون بفرنسا ، وكان لويس الثانى عشر قد أعلن فى سوق المدينة فى عيد الفصح من عام ١٥١١ عن وصول رسالة السلطان الغورى له بفتح أسواق بلاده فى مصر والشام للتجار الفرنسيين ومنحهم تسهيلات

= عليهم المحتسب قسائم أنهم لا يشترون البعلبكي من تجار الشام بالجديدة (يعنى بالأجل لم الدفع) فأمر ذلك بحال التجار قاطبة ، ورقة رقم ٣٣٢

- Lionelle Cioli, *Hist. Economique*, p. 102.
— Horn, *Op. Cit.* p. 80.

(٤١) سليمان خليل بن جاريش التحفة السنية لى تاريخ القسطنطينية ص ٤١ - ٤٢

- Poston ; *Op. Cit.* II. pp. 97-98.

(٤٢)

واعفاءات جديدة وتسهيل وصول حجاجهم لبيت المقدس (٤٣) .

ولا تقل أسواق الهند وقاليقوت خاصة ، وأسواق الصين، وعلى الأخص خانقو عن هذه الأسواق ، وإن كانت تفوقها في بيع السلع الموسمية في نطاق واسع ونظام الأسواق هنا أدق وأحكم نظرا لضخامة ما كان يباع كل عام من التوابل وغيرها (٤٤) .

ويؤدي مهمة الأسواق كذلك الوكالات والقيساريات والخانات والرباع التي فوقها ، ثم الفنادق والأحياء التي تحمل اسم المستعمرات. وترجع أهمية الوكالات في التنظيم التجاري الذي ساد العصور الوسطى بشرق البحر المتوسط الى طبيعة عمل القاطنين فيها سواء في التجارة المحلية أو الدولية . ومعظم العاملين في هذه الوكالات من الشباب الذي هجر وطنه بحثا عن الثروة من التجارة واكتساب الخبرات (٤٥) . ومعظم مؤرخي العصور الوسطى من العرب لم يفرقوا كثيرا بين الوكالة والخان والقيسارية والفندق ، إذ لم يجدوا بينها فروقا واضحة ، ولا حظوا أنها تتشابه في وجود حوش في وسطها وخول الحوش ممر يصل الى المخازن ، وقد تكون دورين ، كما أن بها دكاكين ومساكن لكل مفتاح خاص . وبحث المقرئ في هذا الموضوع وخرج بنتيجة أنه لا فرق يذكر بين الوكالات والخانات

(٤٣) انظر الفصل الثاني وكذلك

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 539-540.

(٤٤) انظر الفصل الثالث عن الطرق والمراكز التجارية .

(٤٥) « كان البنادقة يلحقون أبناءهم بالتجار الرحل الى شرق البحر المتوسط فاذا عادوا كانت الثروة والشهرة في ركايبهم ولطول ترددهم على الأسواق والوكالات لم يعد هناك مبرر للفرقة بينهم وبين الوطنيين في مصر والاسكندرية ، فهم يختلطون بهم كتجار يعملون لصالحهم ومسالح غيرهم بالمقود وخطابات التوصية .

— Poston, Op. Cit. II. p. 308.

و كما أن تجار الكارمية كانوا يلحقون أبناءهم بتجارهم المتنقلة والمستقرة ، لاكتساب الخبرة حتى أصبحت تجارتهم تجارة أسرية » (انظر بعده عن الكارمية) .

والفنادق والقيساريات ، وانها جميعا : مساحات ومؤسسات تقوم بجانب مهمة البيع والشراء ، بمهمة النزل ومحل الإقامة والخازن للواردين من التجار وحفظ أموالهم ، كما أنها تؤدي مهمة البيع بالجملة بجانب البيع بالتجزئة ، فتوزع ما يرد إليها من الأسواق . وقد جرت العادة أن يبنى فوق هذه المؤسسات ربيع تؤجر لطوائف معينة من التجار اقتصرت على المسلمين فقط (٤٦) . ومن الوكالات الوطنية وكالة قوصون حيث يخزن التجار السوريون الزيت والسمسم والصابون واللوز والجوز والحلويات وكل أنواع السلع ، وبها محال تجارية وفوقها حجرات وهي التي جعلت المقرريزي لا يفرق بينها وبين الخان والفندق لتشابه نظامها . ووكالات القرن الخامس عشر شغلت قصور الممالك القديمة والمهجورة وبقي منها حتى أواخر القرن الخامس عشر وكالة بشتاك ووكالة قايتباي ووكالة الأمير ماماي والحجرات فوق الوكالات هي « الرباع » وبلغت حجرات وكالة قوصون حوالى ٣٥٠ حجرة (٤٧) .

وقد تطورت الوكالات من مراكز للتخزين والبيع والشراء الى مجموعة أبنية تؤدي معنى الحى أو المستعمرة وخاصة بالنسبة للتجار الأجانب الغربيين ، وفي بداية ظهورها كان عدد القاطنين بها قليلين . ولما زاد عددهم وكثرت تجارتهم ، وأقاموا فى الفنادق وأصبح للجالية

(٤٦) المقرريزي : المخطوط ج ٣ ص ١٥١ وما بعدها .

— Clerget, Le Caire, p. 309.

(٤٧) يذكر المقرريزي أن عدد سكان ربيع وكالة قوصون كان حوالى ٤٠٠٠ نفس بين رجل وامرأة وصغير وكبير .

المقرريزي : المصدر السابق ج ٣ ص ١٥١ وما بعدها ويقول ده ساسى فى تعليقه على رحلة البندادى « انه يفضل وضع كلمة لوكالدة هنا لاسم الربيع ، كما يمكن أن نعتبره فندقا مفروشا Hotel Garni ويستدرك ليقول الا انه ليس هناك أى مجال للمقارنة بين فنادقنا المفروشة الحالية ومثيلاتها فى العصور الوسطى ، وان الربيع يمثل الحى الرومانى القديم المعروف باسم :

— De Sacy, Silvestre, Relations De L'Egypte. pp. 303-401. 402.

الواحدة حتى خاص بها وأشهر الجاليات التي كان لها هذا البنادقة ولهم حتى في الاسكندرية يضم وكالتهم وفندقين وحماما ومخبزا وكنيسة وهي في مجموعها تعرف باسم المستعمرة . ويحتفظ فيها التجار بسلعهم ويدفعون عنها رسوما للحكومة ويمارسون حياتهم فيها بحرية أوسع . وانتشر هذا النظام في مصر والشام وأسبانيا الاسلامية وآسيا الصغرى وإيطاليا (٤٨) .

والفندق كمنشأة تجارية ومؤسسة لخدمة التجار هو قمة ما وصلت اليه طاقة المشروعات التجارية في مصر والشام في العصور الوسطى حتى نهايتها وفترة من العصر العثماني . كما أنه ذروة ما وصل اليه اجتهد القوامين على التجارة حكومة وتجارا، وطنيين وأجانب (٤٩) والفنادق في مصر المماليكية والشام هبة من الحكومة للتجار الأجانب، وينص على ذلك في المعاهدات ، وتستطيع الدولة أن تستردها وقتما

(٤٨) يطلق على مجموع المباني اسم المستعمرة من معنى الاعمار والتعمير وليس بمفهومها الدارج الآن - وربما تؤدي كذلك نفس ما يمنح الآن للسفارات الأجنبية من وجهة النظر الدولية اذ تعتبر هذه السفارات جزءا من وطن السفارة يمارسون فيها حريتهم وكان للايطاليين هذه المستعمرات في الشام والاسكندرية وعلى البحر الاسود ، وكذلك في القسطنطينية حتى سقوطها واستمرت بعد ذلك تعمل على نفس النظام ، ولكن تحت الرقابة وفي ظل قيود الدولة العثمانية .

— Poston, Op. Cit. II. pp. 307.

(٤٩) اسم الفندق مأخوذ من الكلمة اليونانية Pandokeion ونقلت الى اللغة الايطالية لتدل على المبنى الذي أسفله مخازن وأغلاء حجرات نوم لسكنى الأجانب : - متر : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

وفي أسبانيا والبرتغال عرف باسم Fondach or Alhondigaje وتطلق الآن على مخازن الغلال ولا تزال مستعملة حتى اليوم في ريف المغرب .

انظر : المجلة عدد يناير ١٩٦٦ ص ٩٠/٨٩ .

كما ذكر الاسم في مخطوطة سورية قديمة .

— Wiet, Précis, II. p. 274.

- صبحي لبیب : التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى ص ١٢ .

المجلة التاريخية المصرية - مايو ١٩٥٢ - وتعرف في مصر باسم فندق وفي بعض الأحيان

وكالة وفي سوريا باسم الخان وكذلك في تركيا .

— Thénard, Voyage, p. 22 R. I.

تشاء (٥٠) . وتتبع هذه الفنادق ادارة الجمارك بالموانى ، ويشرف على الفندق موظف يعرف باسم « الفندقى » وقنصل الدولة مسئول عن الفندق وعن تسديد رسوم التجار للسلطان يرصد جزء منها للاصلاحات والصيانة للمبنى ونص على ذلك أيضا فى المعاهدات (٥١) . وفى الاسكندرية كانت توزع الفنادق كالاتى : اثنان للبنادقة ، وواحد لكل من الجنويين والبيزين ، وفيما بعد سمح للفلورنسيين بالحصول على فندق آخر ، وآخر لتجار أنكونا ولبارمو ونابلى بالاشتراك مع تجار جايتا .

أما الفرنسيون فكان لكل من مرسيليا وناربون وراجوزا ومعهم قطالونيا فندق خاص بهم وفندق لتجار كريت رغم أنها كانت مستعمرة للبنادقة . وقبل سقوط القسطنطينية كان لافريقيا فندق بالاسكندرية ، وآخر للقبارصة ، وثالث للألمان سكان السواحل ، كما كان للأتراك فندق ، وكذلك للمغاربة ، ثم التتار ، اذ كانوا يتاجرون فى العبيد ويعقدون صفقات يبعه فى فندقهم (٥٢) . واتصفت فنادق الاسكندرية بمبانيها المربعة ، ولبعضها أكثر من طابق ، كما أن لكل فندق حوشا داخليا سماويا ويفتح عليه الطابق الأرضى حيث توجد المخازن ، ويستخدم فى حزم وتفرغ السلع. أما الدكاكين به فهى مقبية وتستخدم كمخازن كذلك . وفى الحجرات العليا حجرات متعددة لاقامة التجار ، ويحيط بالفندق حديقة يزرع بها التجار أشجارا من أوطانهم تعطى

(٥٠) المجلة : مقال طاهر أحمد مكي ص ٩٠/٨٩ عدد يناير ١٩٦١ .

نص فى كافة المعاهدات بمنح الجاليات الاجنبية فنادق وأعطى لهم حق صيانتها -واعمارها ، ومن حق الحكومة استرداد الفندق فى أى وقت كما حدث لفندق بيزا الذى -منح للأتراك ورفض قاضى الاسكندرية منحه للفلورنسيين .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 341.

(٥١)

— Ziada, Op. Cit. p. 213.

(٥٢)

— Heyd, Op. Cit. II. p. 433.

منظرا فريدا ألفوه فى بلادهم ، لذا كان المبني كله يعتبر قطعة من الوطن الأم يجدون فيه الحرية والأمن والحماية لهم ولسلمهم . ويحرم عليهم شرب الخمر جهارا وان سمح لهم بذلك فى الفندق (٥٣) .

والفندق ملك للسلطات المحلية ولكن يسمح لبعض الفنادق أحيانا بايواء الأجانب المارين بمصر أو الاسكندرية أو الشام أو الحجاج لبيت المقدس وسيناء لبعض لياالى نظير أجر معلوم يدفعون جزءا منه الحكومة ويسرى على هؤلاء ما يسرى على القاطنين فيه (٥٤) . وعلى عهد سلاطين المماليك كان يحرم على الأجانب داخل الفندق مبارحته ليلا أو يوم الجمعة وقت الصلاة ، واذا جن الليل أغلق الفندق من الخارج ببوابات ضخمة فتقطع الصلة تماما بين سكانه وبين المدينة ، ويحذر الأجانب من التأخر أو الوصول بعد غلق البوابات . وتلجأ السلطات الى هذا الاجراء خشية حدوث أى تصرف من الأجانب قد

— Pernaud, Les Villes Marchands Aux XIVE — XVe (٥٣) Siecles, p. 46.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 433-434.

— Thénau, Op. Cit. II. pp. 22 N. 1.

كان يسمح لهم بادخال الخمر واستعمالها فى فنادقهم فقط ، واذا ضبط احدهم خارج الفندق يحتمى الخمر أهين وعوقب ، ومن ذلك ما انه فى شعبان من عام ٨٢٢ هـ (١٤١٩م) اجتمع العوام بالاسكندرية وهاجموا اماكن الفرنج وكسروا لهم ٣٠٠ بنية خمر ثمنها عندهم ٤٠٠٠ دينار ، ثم أراقوا ما وجدوه من الخمر فى اماكن الفرنج الأخرى . ابن حجر : انباء الغمر (مخطوطة) ورقة ٢٥٥ ج ٢ .

وفى عام ٨٣٠ هـ (١٤٢٦ م) صدر قرار بمنع الفرنج من حمل الخمر من بلادهم ثم بعد مدة عادوا به الى البلاد الشامية والمصرية فصدر أمر السلطان بإزالة الخمر وشدد فى ذلك ، وكتب به الى البلاد الشامية وغيرها ، وكتب الى الاسكندرية بالزام الفرنج باعادة ما يجلبوه من الخمر الى بلادهم .

ابن حجر انباء الغمر (مخطوطة) ج ٢ ورقة ٤٤٧ و ٤٥٣ .

(٥٤) كان فندق ناربون أول من قدم خدمة ايواء الحجاج لبيت المقدس والتجار .

المارين بتصريح من السلطات المحلية نظير رسم معين .

— Harff, The Pilgrimage Of ... p. 93.

— Sonia, Op. Cit. p. 99.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 431-433-434.

يتنافى مع عادات وتقاليد الوطنيين أو يؤذى شعورهم وقت الصلاة مما قد يؤول فى غير صالح الأمن بالمدينة ، كما أن حجزهم داخل الفندق منذ الغروب كان لامنهم من جانب ، وخوفا من تعديهم حدود المتاجرة من جانب آخر (٥٥) . وعندما ازداد نطاق التجارة بشرق البحر المتوسط أواخر العصور الوسطى ، واعتبر الفندق قطعة من الوطن الأصلى حيث يجتمع مواطنو كل بلد على حدة ، مارس التجار وسكان الفندق حياتهم بحرية ، وامتلا الفندق بالتجار الغربية والشرقية ومنها أصواف وأجواخ الفلاندرز وإيطاليا والحرير من شامبين بفرنسا ، والفراء من أقصى شمال أوربا والبلطيق والقرم والبحر الأسود ، والعنبر من شواطئ روسيا (٥٦) . أما السلع الشرقية المشتراة من أسواق الاسكندرية والقاهرة فيسير حزمها فى أفنية الفندق ثم تنقل الى الميناء لتقدير رسوم الجمارك وتشحن بعدها الى السفن استعدادا للرحيل (٥٧) وبالفندق قاعة عامة تستخدم كديوان لعقد الاتفاقيات الخاصة بالتجارة مع الوطنيين والأجانب كذلك ، والصفقات التى تعقد بهذه القاعة تتخذ الصفة الرسمية اذا ما أبرمت داخل القاعة باعتبار أن الفندق قطعة من الوطن الأم للأجانب المتفاوض مع الوطنى أو الأجنبى مثله . ولذا كان الفندق يعتبر بمثابة بورصة تجارية فى مواسم التجار (٥٨) . وتذكر وثائق العصور الوسطى وخاصة الغربية منها أن سلاطين المماليك سمحوا باقامة يوم فى الفنادق للصلاة رعاية من السلطان للشئون الدينية والروحية للتجار ، وان لم يمنع هذا وجود

— Pernaud, Op. Cit. p. 47.

(٥٥)

— Poston, Op. Cit. II. p. 307.

— Pernaud, Op. Cit. pp. 48-49.

(٥٦)

— Sonia, Op. Cit. p. 99.

(٥٧)

Harff, Arnold von, The Pilgrimage Of... Syria, .

(٥٨)

Egypt... 1495-1499 p. 96.

— Pernaud, Op. Cit. p. 47.

كنائس فى الشام مثل كنيسة القديس نيقولا للبيزنتين وكنيسة القديسة ماريا للجنوبيين وكنيسة القديس ميشيل للبنادقة ، ويعين البابا كاهنين يرافقان القنصل الذاهب الى الشرق وينص على ذلك فى المعاهدات، كما كان للبنادقة كذلك كنيسة بالاسكندرية وجبانة لدفن موتاهم وسمح لهم بالدفن فى جبانات اليعاقبة الوطنيين (٥٩) .

ولم يكن للأجانب فنادق بالقاهرة ، والحالة الوحيدة التى سمح فيها باقامة فندق كان لتجار بيزا عام ١١٥٤ ، كما كان للسياح والحجاج المسيحيين المارين بالقاهرة وكذلك التجار خان خاص لمبيتهم ، وليس فندقا بالمعنى المعروف بالاسكندرية ، وبه مكان لامتعتهم وسلعهم . وقلة هذه الأبنية للأجانب بالقاهرة ترجع الى أن السلاطين كانوا يحرمون عليهم شراء التوابل والسلع الشرقية من أسواق القاهرة ، لذا لم يكن هناك داع لوجودهم فترة طويلة بالقاهرة ، وان كان مبعوثوهم السياسيون يمكثون فترات تتفاوت طولا وقصرا حسب مدة البعثة . ومبيتهم فى الخان المذكور أو فندق بيزا (٦٠) . أما الأجانب من العرب والشرقيين فكافت لهم فنادق فى القاهرة ، وهى أجزاء من وكالات أو خانات ، وأهمها : فندق الملك السعيد بدار الرمان وتعلوه

(٥٩) يذكر «هايد» أن القنصل كان يقوم أحيانا بمراسيم الصلاة ولكن هذا أمر مشكوك فيه لأن صلاة القدامس مقصورة على الكاهن فقط .

«Le Consul pourra faire officier à l'église ou dans sa maison»

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 462-463.

كان الكاهن ان وجد يقيم بصفة دائمة فى الفندق ويذكر «برايدنباخ» أن قسا من رهبان برشبر «Lordre des Freres Prech» اقام قداسا بفندق البنادقة فى ٢٥ من اكتوبر ١٤٨٣ م أثناء وجوده بالاسكندرية .

— Breydenbach, Les Saintes Peregrinations De... pp. 67-69 & pp. 73-75. & N. I.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 340-341-344

— Depping, Op. Cit. II. pp. 47-49.

— Ziada, Op. Cit. pp. 212-213. 215. R. I. p. 214.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 435.

رباع واسعة ، وفندق عمارة حيث ينزل تجار الشام ، وفندق دار التفاح لتجارة التجزئة فى سلع الفاكة الواردة من الشام والتى تصله من وكالة قوصون . وحوائت الفنادق مسقوفة (١١) . وكذلك فندق سرور وظل باقيا حتى أواخر العصور الوسطى (١٢) . وللتجار الكارمية فندق بالقاهرة على شاطئ النيل تجاه القسطة حيث ترسو مراكبهم المحملة بسلع الشرق ، وقد أوقف الفندق لسكنائهم ، وكان عاملا من عوامل انتظام نشاطهم التجارى بمصر (١٣) .

ومن المنشآت أيضا « الخان » وهو مبنى ضخيم يحتوى على مجموعة من الحوائت الكبيرة والصغيرة ومستودعات للبضائع ، ويتوسط الخان فناء ضخم فى هيئة رواق مغطى حيث يحفظ التجار بضائعهم ، ويجدون فى الخان المأوى لهم ولدوابهم خلال رحلتهم . وحتى القرن الخامس عشر تعددت هذه الخانات وكثرت . وأصبحت من أهم مؤسسات التجارة الداخلية والخارجية . وكان كبار رجال الأعمال والتجار وأمراء الممالك يتبارون فى بناء المنازل والقصور الفخمة الضخمة يحولونها الى خانات ووكالات وقياسر ويؤجرونها للهيئات أو للتجار بالحجرة بأسعار خيالية وبداخل الخانات مساجد صغيرة ، وخزينة عامة . ويؤدى الخان وظيفة حى قائم بذاته وتزدهم طرقاته وحاراته الضيقة بالناس خلال مزادات التجارة ، ويتكون الخان.

(٦١) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ١٥٢ .

ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ج ٤ ص ٤٠ .

محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ٣٢٦ .

(٦٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٣ (طبعة القاهرة) .

(٦٣) يرجع أصل فندق الكارمية هنا الى عهد تقي الدين عمر بن آخ صلاح الدين الأيوبي الذى تول حكم مصر بالنيابة عن أخيه ٥٧٩هـ / ١١٨٣م وهو الذى بناء للكارمية . . . أبو شامة : الروافضين ج ٢ ص ٥١ .

ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ، المصدر السابق ج ٤ ص ٣٥ - ٤٠ .

أحيانا من ثلاث طباق (٦٤) . أما « التجار العابرون » ، فقد كانت لهم منشآتهم من فنادق وخانات خارج المدن على الطرق التجارية ، وهى الخانات الأصلية التى أخذت عنها الخانات الداخلية وانتشرت بكثرة فى القرن الخامس عشر وازدهرت فى القرن السادس عشر فى العصر التركى العثمانى . وهى فى مظهرها ليست أكثر من خان وفندق معا ، والفرق الوحيد أنها خارج المدن لكى تلائم الغرض من بنائها وهو إيواء التجار بسلعهم ودوابهم وعرفت فى العصور الوسطى فى الشرق باسم « فنادق مييت القوافل Caravanserais » حيث يستريح التجار ودوابهم . ومن هذا النوع خان يلاصق جامع برقوق وآخر عند بركة الحاج على طريق السويس القاهرة ، وكذلك خان البريد وبه مسجد صغير وبوسطه نافورة وأحواض للمياه وسوق صغيرة يوجد فيها للمسافر ما يحتاج إليه ، فضلا عما يلزم عماله من غذاء (٦٥) .

وإذا كانت فنادق الاسكندرية قد شملت قاعات واسعة لعقد الصفقات التجارية والمعاهدات والاتفاقيات فانه فى القاهرة كانت الخانات تؤدى هذا العمل . وأصبح الخان فى القرن الخامس عشر محط رجال الأعمال الوطنيين والأجانب الشرقيين الوافدين فى تجارات

(٦٤) الخان كلمة فى الأصل فارسية استعملت بكثرة فى مصر والشام وذكرها المؤرخون العرب فى عصر الفاطميين والايوبيين والمماليك - وكان السلاجقة أسبق الى بناء نوعين من المباني على جانبي الطرق فى آسيا الصغرى : نوع يسمى الرباط وهو فندق المسافرين - والثانى يسمى الخان وبنى على أطراف المدن وعلى الطرق الرئيسية للبريد أو لاستراحة التجار ثم استعملت لتؤدى ما تؤديه الفنادق فى الموانئ بالنسبة للأجانب الغربيين .

المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٤٩ - ١٥٢ .

قيبت : مصر الإسلامية ص ٤٤ وما بعدها .

— Wiet, Precis, II. p. 275.

(٦٥) ابن دقاق : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٠ .

— Clerget, Op. Cit. pp. 315-316.

— Wiet, Précis, II. pp. 270-271.

— Wiet, Ibid, II. pp. 275.

العيور والاستيراد . كما أن الخانات أدت أعمال المصارف في القاهرة .
فأودع التجار ما يملكونه من ذهب وفضة لدى أمين الخان ومن .
أشهر الخانات التي قامت بهذه العمليات التجارية والمصرفية « خان .
بلال وخان مسرور وخان الخليلي » (٦٦) .

وفي الشام ، وجدت خانات في معظم مدنه وموانيه ، وأشهرها .
خان البندقية بدمشق ، وهو — علاوة على استقباله التجار بسلعهم —
كان يستقبل الحجاج ، وهو مثل فنادق الاسكندرية ، وله مفتاح .
وباب يعلق على سكانه ليلا وأوقات الصلاة يوم الجمعة (٦٧) .

وفي القسطنطينية كانت خانات التجار الوافدين والمارين مجانية .
وشجعت الحكومة وصول التجار لتنشيط التجارة ، وهي مبنية من .
الحجارة ، ولها أبواب حديدية (٦٨) .

ومن الأبنية التي شاع استعمالها في مصر للأغراض التجارية .
كذلك القيساريات ، وهي في العصر الماليكي من المنشآت التي يبنها
الأمراء المماليك وقياسر التجار للكسب واستثمار الأموال ، وتعلوها
الرباع للتجار والصناع ، كما أنها مستقوفة ، وهي غير السوق الذي .

(٦٦) فييت : مصر الاسلامية ص ٤٦ .

في خان مسرور الصغير كانت تقام مزادات لبيع العبيد .

— Maurice, Op. Cit. pp. 187-188.

وفي خان الخليلي وجدت مكاتب لوكالات التجار الأجانب ووجودهم كان مؤقتا ويتركون .
وكلاء عنهم من الوطنيين . وبهذا الخان مكان خاص للتجار المسيحيين الوافدين ، ومكاتب
لوكلائهم الدائمين بالقاهرة والوكلاء من الوطنيين لقلّة التصاريح للأجانب بالوصول
للقاهرة ، لذا كان خان الخليلي بمثابة بورصة العصور الوسطى . المقریزی : الخليلي ج ٣
ص ١٥٠ وما بعدها .

— Dopp, P.H., L'Egypte Au Commencement Du XVe Siecle p. 98.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 465. (٦٧)

— De Sacy, Op. Cit. p. 303.

(٦٨) سليمان خليل بن جاويش : المصدر السابق ص ٤١ .

لا يشترط فيه أن يكون مسقوفا (٦٩) . وفي القياس تنتشر المصانع الصغيرة ، وإن كانت كذلك تعرض السلع للبيع بالجملة ، ولكل فئة من التجار أو الصناع مكان معين وقد ظهرت في الشام قبل مصر ، ولعلها مأخوذة من كلمة قيسرية Cesarie (٧٠) ومن أشهر القيساريات ، حتى ذلك الوقت المتأخر من العصور الوسطى : قيسارية الشرب ، وقيسارية الفاضل ، وقيسارية بيبرس ، وقيسارية بكتمر (٧١) .

طوائف التجار :

وفي القرن الخامس عشر تطورت النظم التجارية تطورا كبيرا في مختلف فروع التجارة ، وكانت هذه التطورات قد بدأت منذ الثورة التجارية الكبرى في القرن الثاني عشر . ومن بين من تناولهم التطور ، طوائف التجار . وفي مصر كانوا يؤلفون طبقة مقربة الى سلاطين الممالك الذين أحسوا بأن التجارة أضحت المصدر الأساسي الذي يمدهم بالأموال . وتدل جميع الشواهد على أن التجار تمتعوا في عصر الممالك بثروات ضخمة ، وهذا أمر طبيعي في عصر كانت مصر فيه حلقة الاتصال بين الشرق والغرب ، ومركزا للنشاط التجاري ، وإن كان الشراء قد جعلهم دائما مطمع سلاطين الممالك الذين طالما صادروا ثرواتهم فضلا عن ائقالتهم بالرسوم والضرائب منذ أواخر القرن الخامس عشر ، لذلك لم يطمئن التجار في عصر الممالك أحيانا على أموالهم

(٦٩) المقریزی : الخطط ج ٢ ص ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ .

(٧٠) — De Sacy, Ibid, pp. 303-304.

— Wiet, Precis, II. p. 274 & pp. 269-270.

يذكر فبيت أن حوش القيسارية سماوى غير مغطى بعكس السوق الذى يشترط أن يكون مغطى . وده ساسى يذكر نقلا عن البغدادى أن القيساريات لابد أن تكون مسقوفة أما التى لا يبنى فوقها مساكن فتكون مكشوفة ورأى البغدادى أصوب ويؤيد ذلك المقریزی في الخطط ج ٢ ص ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ ويؤكد أنها مسقوفة .

(٧١) المقریزی : الخطط ج ٣ ص ١٤٠ - ١٤٤ - ١٤٧ .

وتجارتهم وكثيرا ما كانوا يطلبون « أن يغرقهم الله حتى يستريحوا^{٧٢} مما هم فيه من الغرامات والخسارات » (٧٣) .

وبالرغم من وجود طوائف عديدة من التجار الا أن التاجر المتجول كان عماد التجارة . وظل كما كان يمارس عمله متجولا في الأرض أو في البحر في رحلات طويلة أو قصيرة قد تستغرق أحيانا سنوات عديدة . ثم ما لبثت هذا النوع من التجار أن اقتصر عمله على ورود أسواق شرق البحر المتوسط لجلب السلع الواردة من الشرق الأقصى ونقلها الى الغرب الأوربي ، بمعنى أن حياته أصبحت أكثر استقرارا عن ذي قبل بعد أن كان يصل بنفسه الى وسط آسيا عن طريق آسيا الصغرى ، وقد أثرى من ذلك ثراء عظيما (٧٤) . ثم ما لبث هذا النوع من التجار أن استقر بوطنه ليقوم غيره بعمله السابق . وباستقراره ظهرت طبقة جديدة من التجارة هي طبقة البرجوازيين وهذه الطائفة من التجار هي عماد عصر النهضة الأوروبية التي ازدهرت بصورة واضحة في القرن الخامس عشر وخاصة في نصفه الثاني ، والتي أسهمت بنصيب وافر في نقل العالم من العصور الوسطى الى العصور الحديثة (٧٥) .

(٧٢) ابن حجر : انباء الفمر ج ١ ص ٣٦٥ و ٥٢٩ .

المقريزي : السلوك ج ٤ ص ٤٤٤ .

سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٣٦ .

سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣١٢ .

(٧٣) ابن خلدون : المقدمة ج ١ ص ٣٩٦ .

— Clive, Op. Cit. pp. 113-114.

(٧٤) تخصص هؤلاء التجار في أنواع معينة من السلع فمنهم : تجار البهار ، وتجار

الفراء ، وتجار الخشب ، وتجار الصوف ، وتجار الاحجار الكريمة .

ابن خلدون : المصدر السابق ص ٣٩٤ و ٣٩٥ و ٣٩٦ .

— Clive, Op. Cit. pp. 114-115.

— Maillot, Op. Cit. p. 153.

والواقع أن فرص الكسب والربح انما تكون فى صف التاجر المتنقل ، لأن كل جهده له أكثر من التاجر المستقر الذى قد ينقص ربحه بقدر راحته . والتاجر المتنقل يدير بنفسه مشروع تجارته وكل من يكمل له بعض ماله لتشغيله أن يوافق على قراراته دون مناقشة وهو يتمتع بمفرده بمكاسب أمواله التى لا تقل عن ٢٥٪ ، وكذلك أرباح المشاركة فى المشروعات الأخرى (٧٥) . أما التاجر المستقر فى بلده فيدير تجارة خارجية واسعة عن طريق فروع شركته ووكلائه ويستعمل العقود والتسهيلات المصرفية ويوفر على نفسه المال الذى يتقاضاه التاجر المتنقل من ربح وعمولة ومن هؤلاء التجار التاجر الفرنسى « جاك كير » الذى كان لشركته فروع فى كافة موانئ ومدن شرق البحر المتوسط وغربه (٧٦) .

على أن ظهور طبقة البرجوازيين من التجار المستقرين المتخصصين أتت معه بفئة جديدة من التجار الذين عرفوا بالتجار الدوليين والذين تاجروا برءوس أموال غيرهم ورءوس أموالهم ورءوس أموال الشركات ، ونقلوا مختلف السلع بين الشرق والغرب وأدى ذلك الى ظهور أنواع جديدة من النظم التجارية والمعاملات المالية لتسهيل المتاجرة ونقل الأموال وتحويلها . ولما ازداد نفوذ التجار الدوليين وسيطروا على تجارة الشرق والغرب تنبعت الحكومات المحلية الى خطورتهم على التجار المحليين ، وصار من واجب الحكومات حماية التجار الوطنيين ،

(٧٥) يقول ابن خلدون فى المقدمة ج ١ ص ٣٩٦ وما بعدها وكذلك فان نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو فى شدة الخطر فى الطرق ٠٠ يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم ربحا ٠٠ لأن السلعة المنقولة تكون قليلة معوزة لبعدها مكانها لذا نجد المسافرين من بلادنا الى الشرق لبعده المسافة أيضا يشرون بسرعة ، نلاحظ أن تاجر الكارمية كان فى بداية عمله تاجرا متنقلا بين مصر واليمن والهند انظر بعده عن التجار الكارمية .

— Pernaud, Les Villes, p. 27.

— Poston, Op. Cit. pp. 335.

(٧٦) انظر ما كتب عن التاجر « جاك كير » فى الفصل الثانى وكذلك .

— Poston, Ibid, II. p. 335.

وخاصة من لا رأس مال له ، وصدرت القوانين التي تمنع التجار الدوليين من المتاجرة في القطاعي وترك ذلك للوطنيين (٧٧) . وفي مصر تنبّهت حكومة سلاطين المماليك لهذا الخطر ، فقصرت ورود التجار الأجانب من هذه الفئة على الموانئ والمدن الساحلية الشمالية دون دخولهم القاهرة وغيرها من المدن الداخلية ، وكذلك مدن وموانئ البحر الأحمر لهذا السبب ولأسباب أخرى تتعلق بالأمن وبالنواحي الدينية وخاصة منذ الحروب الصليبية ، وذلك حماية للتجارة وللتجار الوطنيين ، وإن كان يسمح للقلة منهم دخول القاهرة بتصاريح مؤقتة لعدة ساعات أو أيام قليلة وتحت المراقبة (٧٨) . وكان على التاجر أن يحمل تجارته لمواطنيه ولا يبيعها في الطريق وإن أباحت الدولة أحيانا بيع الجملة لبعض السلع . والتاجر الدولي كالتاجر المتنقل كان يستطيع أحيانا الاستقرار في الاسكندرية أو موانئ الشام مدة قصيرة قد تصل لثلاثة شهور لتصرف ما معه من سلع أو تسويق ما يريده من سلع الشرق وفي البداية لم يكن بإمكان التاجر الأوربي التعامل مع المصري إلا إذا كان له رصيد من المال في مصر وخاصة في حالة شراء « التوابل الشريفة » ولكن بتوالي السنين ومن كثرة تردد التجار الأجانب على مصر أصبحوا معروفين للمصريين ، حتى أن التاجر المصري كان يقبل أي ضمانات تضمن له أمواله عن سلعه المباعة وزادت الثقة بينهما لطول التعامل (٧٩) .

(٧٧) انظر كذلك الملحق برقم (١٤ ج ١٠) عن ترك بيع القطاعي للمواطنين.

دون كبار التجار والأجانب .

— Maillet, Op. Cit. pp. 129-135-136.

— Harff, Op. Cit. pp. 102-103.

(٧٨)

(٧٩) من مظاهر هذه الثقة قيام شركة مقارضة بين التاجر الكارمي والتاجر الفرنسي.

في حدود ٢٠ ألف دينار ، انظر - المقرريزي : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٠٢ .

بخصوص المعاملات المالية للتجار الأجانب في مصر ، أنه أواخر القرن الخامس عشر فرض =

وفى بعض دول أوروبا ومدنها التجارية لم يكن يسمح لبعض طوائف التجار بممارسة العمليات التجارية المختلفة الا بعد دراسة ومراعاة كافيين ، بل ان أهالى جنوة والبندقية كانوا يرسلون أبناءهم فى صحبة التجار المتنقلين ليتعلموا منهم أصول الحرفة وأسرارها حتى اذا ما شبوا كانوا فى عداد التجار اليارعين . وتطلبت العمليات التجارية التى مارسوها أنواعا من المكاتبات والمراسلات فكان التاجر فى القرن الخامس عشر يرسل تعليماته الى وكلائه فى الخارج كتابة ويمسك عليهم سجلا ، وفى امكانه كذلك أن يستخدم خطابات تحويل مالية قابلة للصرف من أوروبا الى موانئ ومدن البحر الأسود وآسيا الصغرى وشرق البحر المتوسط وقبرس ، ولتجارته علامات مميزة ، كما اتسع نطاق التعامل فى البنوك والبيوتات المالية (٨٠) .

وفى القسطنطينية اختلف نظام فئات التجار بها عنه فى شرق البحر المتوسط وفى القسطنطينية كانت المتاجر تصل برا بطريق البر يحرسها تجار من مواطنى الدولة صاحبة المتاجر ، وهناك فئة أخرى تذهب بنفسها لشراء ونقل هذه المتاجر ومنهم تجار الشام وطائفة من البلقان وجد تجارها - فى مدينة سالونيك وفى القسطنطينية كذلك - مجالا طيبا لبيع سلعهم ومنتجات بلادهم ، وخاصة «للمنظمات النقاية» *The Guild Organization* «الموجودة هناك . ويدفع للتجار الأجانب

= السلاطين على تجار البندقية شراء قدر معين من توابل الذخيرة الشريفة بنسبة معينة الى السلع الأخرى (حمل من التوابل عن كل ألف دوكة من السلع الأخرى) . وقد أدى هذا الاجراء الى قيام نوع من الحساب الجارى بين الخزينة السلطانية وهيئة التجار البنادقة التى كانت مدينة باستمرار عن عدة سنوات خلت . وظلت على هذه الحال حتى عام ١٥٠٦ م .

انظر : توفيق اسكندر : نظام المقايضة - المجلة التاريخية مجلد ١٩٥٧/٦ م
ص ٤٤ م ١٠ .

(٨٠) انظر قبله ملاحظة ٤٥ فى هذا الفصل بخصوص تمرين التجار لابنائهم على التجارة .

- Pernaud, Op. Cit. pp. 27-28.
- Poston, Op. Cit. p. 308.

الرسوم الجمركية ، ويعفى منها التجار المحليون الوافدون للجمارك للشراء أو البيع . واستمر هذا النظام معمولاً به في العصر العثماني منذ عام ١٤٥٣ م ، ولقى طائفة التجار الروس معاملة خاصة لأهمية تجارتهم وتمتعوا بالسكن والمأوى المجاني والحمام - وإن كان سكنهم في حي خاص بالمدن - وبقوا كغيرهم من التجار الأجانب تحت رقابة الدولة (٨١) .

أما فئات التجار الشرقيين فيرى المؤرخون أن انتشار الاسلام من شرق البحر المتوسط الى الشرق الأقصى ثم الى جنوب وجنوب غرب أوروبا ، كان عاملاً من عوامل زيادة التجارة ، فقد عمل الفرس والعرب وسطاء تجاريين بين أوروبا وأفريقية وآسيا ، قبل الاسلام وبعده ، وهذه الصلة بين الشرق والغرب التي قامت على أكتاف المسلمين أوجدت نوعاً من الوحدة أنقذت التجارة العالمية من الانهيار . فكان بإمكان التجار المسلمين السفر من الأندلس الى الهند دون أن يشعروا بأنهم يخترقون بلاداً غريبة عنهم ، كما أن الحاجة الملحة للتوابل والعطور والبحار كانت مدعاة لنمو التجارة حتى أواخر العصور الوسطى على يد هؤلاء الوسطاء غير مباينين بالمخاطر والصعوبات التي قد يتعرضون لها في الطرق الخارجية أو في البحار ، وهذه الصعوبات في نظر بعض المؤرخين المحدثين كانت جديرة بأن تدمر التجارة في أوروبا الكاثوليكية ولكن كانت تزيد من تصميم العربي في مخاطراته التجارية (٨٢) . ومن بين الطوائف الشرقية المذكورة :

١ - فئة التجار المصريين ومنهم تجار الكارمية الذين اعتبروا من

— Poston, Op. Cit. II. p. 96.

(٨١)

(٨٢) يبدو أن كلمة Risk المخاطرة في اللغة الانجليزية مشتقة من الكلمة العربية رزق Risk والتي تدل على السعي في طلب العيش والرزق بالإضافة الى ما كان يقابله من المخاطر في البحر أو قطاع الطرق أو عداء بعض الحكومات . انظر :

— Clerget, Op. Cit. p. 320.

— Poston, Op. Cit. II. pp. 284-285.

أمهر وأكثر التجار دراية بعملهم ، ويسافرون للشرق الأقصى والهند ،
ولهم وكلاء فى اليمن وموانئ الهند ، أما التجار المحليون فلا يسافرون ،
بل يتاجرون فى السلع الاستهلاكية محليا ، وإن كان لهم عملاء فى
الخارج ويبيعون بالجملة والتجزئة (٨٣) . وقد أتىح لمصر بوساطة
التجار الكارمية أن تحتل مركز الزعامة والصدارة فى العالم الإسلامى
فى العصرين الأيوبى والمماليكى ، فقد كانت طائفتهم التى أطلق عليها
المؤرخون اسم المصريين هم دعامة البناء الاقتصادى فى مصر فى
العصور الوسطى ، كما لا يمكن اغفال دورهم الدولى القيادى فى
التجارة بين الشرق والغرب وخاصة فى جلب المتاجر الشرقية من الهند
والصين الى اليمن ومصر فأوربا . وكان مجال اتصالهم فى البداية من
قوص للقاهرة عن طريق ميناء عيذاب والقصير على البحر الأحمر ،
ولهم مستودعات ضخمة وفنادق وخانات فى موانئ البحر الأحمر ،
وعدن والهند ، ولم يثبت وجود صلة مباشرة لهم بالهند الصينية إلا عن
طريق الوكلاء ، وخط ملاحظتهم الرئيسى من ساحل الملابار وكروماندل
الى الخليج العربى والبحر الأحمر ، وهم الذين جلبوا اليها البهار
والعنبر والبخور والتوابل والعقاقير والأصباغ والجواهر وجوز الهند
وخلقه . من الشرقيين الأدنى والأقصى ، حتى إن كلمة تجار الفلفل
والبهار والتوابل كانت لا تطلق إلا عليهم . ويبدو أنهم فى القرن
الخامس عشر لم يعودوا يذهبون بأنفسهم الى الهند ، إنما كانت
تصلهم المتاجر على سفن الهنود والصينيين عن طريق وكلائهم (٨٤) .

— Mopp, Op. Cit. p. 98.

(٨٣)

(٨٤) الفلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٤١ و ٤٦١ و ج ٤ ص ٣٢ - ١٨٧ .

المقرئزى : السلوك ج ١ ص ١٣٢ و ١٣٣ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١١٧ - ١٢١ و ٥٧١ (كاليغورنيا)

— Walter, Journal Of Economic and Social History of the Orient, Vol. XI.
p. 161-162.

ووصلت رحلاتهم التجارية كذلك الى شاطئ افريقية الشرقى حتى موزمبيق ، ولهم بموانيه وكلاء ومندوبون محليون ، وليس هناك دليل على أن هؤلاء التجار الكارمية كانوا ينافسون بعضهم بعضا بل الواضح أنهم كانوا يكونون رابطة وطائفة تحتكر التجارة الشرقية المجزية لتوريدها عبر بلاد شرق البحر المتوسط الى غرب أوروبا (٨٥). وحتى القرن الخامس عشر كانت التجارة الشرقية احتكارا لهم ، حتى ان البحر الأحمر كان يعتبر بالنسبة لهم بحيرة اسلامية بعد أن منع التجار الأجانب عن الوصول اليه . وكان هذا من عوامل نمو واتساع تجارتهم ، وكان كذلك بإمكانهم ممارسة التجارة تحت حماية الممالك أنفسهم مع اليمن ودمشق مما جعلهم يبلغون القمة حتى الربع الأول من القرن الخامس عشر مما أتاح لهم فرصة التدخل في الشؤون السياسية والمالية لدولة سلاطين الممالك (٨٦) . ومن مراكزهم في اليمن كانوا ينطلقون بالسلع الواردة من الهند الى البحر الأحمر ، ولهم مواعيد منتظمة معينة تنفق مع مواعيد الرياح وكذلك مواعيد

— Goiten, S. D., New Lightes On The Begining of The Karim (٨٥) Merchants, Journal of the Economic.... Vol. I. p. 179. R. 4.

لم تكن هيئة تجار الكارمية في البداية شركة تقوم بعملية مبادلة التجارة ولكنها نوع من الهيئات البحرية أو البحارة التي تتولى نقل سلع خاصة بالتجار تحت رعاية من اصحاب الماجر أو وكلائهم كما كان يحدث تماما في سفن الناجزاء التي لا يمتلكها الكارم ثم مارسوا العمل التجاري بأنفسهم .

— Moreland, M. Indian Shipping, p. 74.

يذكرهم مورلند بالعرب مرة والمصريين مرة أخرى وهو يقصد الكارمية ، ويقول ان لهم وكلاء في الهند على ساحل افريقية الشرقى ويكونون وحدة في شركة بأنصبة متساوية وهو نوع من الشركات المساهمة في المصور الوسطى .

(٨٦) عنت حكومة سلاطين الممالك عناية خاصة بتجار الكارمية لكثرة مصالحهم معهم ، وإنشأت من أجلهم وظيفة « نظر البحر الكارمي » انظر بعده في هذا الفصل عن الهيئات التي اشرفت على التجارة في المصور الوسطى وكذلك —

القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢ - ٦٤ وما بعدها .

المقريزي : السلوك ج ١ ص ٢٣٩ ملاحظة (١) نشر زيادة .

— Fischel, Walter, Journal, Op. Cit. T. II. pp. 160, 161.

وصول السفن الأوربية للاسكندرية ، الا أنه منذ الربع الثانى من القرن الخامس عشر انتقلت أهمية ميناء عدن الى جدة ، وكان هذا مقدمة لنقل احتكار التجارة من الكارمية الى سلاطين الممالك (٨٧).

وكان للكارمية أسطول بحرى ونهرى خاص بهم ، وذكر فى مؤلفات العصور الوسطى عبارة « مراكب الكارمية » وذكر كذلك قيام السلطات المحلية فى مصر بحماية سفنهم وتجارتهم من القراصنة (٨٨) . وهذه الحماية كانت لقاء رسوم يدفعها الكارمية للحكومة عن طيب خاطر ، وهذا يفسر لنا نمو تجارتهم فى البحر الأحمر (٨٩) . وكانوا يدفعون الزكاة وكل ما يطلب منهم عن طيب خاطر مما يدل على عظم ثرائهم وتقديرهم لرعاية السلطان لهم ولمصالحهم التجارية ، بل انهم كانوا يقرضون الملوك والسلاطين فى اليمن ومصر كلما طلبوا منهم ذلك (٩٠) .

وقد حرص الكارمية كطائفة تجارية ترتبط مصالحها ارتباطا تاما بمراكزها فى الهند واليمن ومصر على أن يكونوا على علاقة طيبة مع حكام هذه المناطق ، وكانوا يتحاشون الدخول بالتأييد لأى الطرفين فى النزاع الذى طالما نشب بين أمراء اليمن وسلاطين الممالك بل على العكس شاركوا فى حل الأزمات السياسية والاقتصادية ، وكان سلاطين مصر يختارون سفراءهم لليمن من بين كبار تجار الكارمية الذين رحبوا

(٨٧) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨ - ٤٧٠

— Heyd. Op. Cit. I. P. pp. 67-68.

(٨٨) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٥ و ج ٤ ص ٣٢ ;

— Fischel, W., Op. Cit. II. pp. 162-163. Vol. I.

(٨٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ ج ٧ ص ٤٥٦ .

— Goiten, (Journal) Op. Cit. II. p. 102. (Vol. I.)

(٩٠) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٣ و ٧٤ و ج ٢ ص ١٠٣ .

فبيت : مصر الاسلامية ص ٣٦ .

بهذا التكاليف حماية لتجارتهم (٩١) . وأكثر الكارمية غنى ومقاما كان يتولى رئاسة طائفتهم ويخضع له كل تجار الكارمية حتى أكابرهم وكان له فى بلاط الملوك والسلاطين مركز مرموق ويلى رئيس الكارمية وظيفته على قدر ما يقدمه من خدمات للسلطان وللدولة (٩٢) .

أما التجار المحليون المصريون فهم عدة فئات ، وكل فئة تتاجر فى سلعة بعينها ، ومن بينهم فئة بائعى البخور والعطور وفئة تجار الشمع والصابون ، ولكل منهم سوق معينة . وتراقب الحكومة أسواقهم وموازينهم ومكاييلهم بوساطة المحتسب وأعوانه ، ثم تجار خيوط الغزل والتوابل وكل أنواع السلع الشرقية والغربية . وفى عصر المماليك كان تجار التوابل والنسيج من الطبقات الثرية التى تماثل الطبقات البرجوازية المستقرة فى أوروبا وإن كانوا قبلا تجارا متنقلين (٩٣) .

٢ - والفئة الثانية هى فئة التجار المغاربة من سكان شمال افريقية ومسلمى الأندلس حتى عام ١٤٩٢ م ، وكانوا من أكثر الفئات اتصالا بمصر ، ومونوا أسواقها بسلع شمال وغرب ووسط افريقية ، وأحيانا من أوروبا ويجلبون كذلك الذهب وبه يدفعون أثمن سلعهم (٩٤) .

(٩١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٨ ص ٧٢ - ٧٦ .

المقريزى : المصدر السابق - السلوك ج ٢ ص ٧ .

(٩٢) ابن حجر : انباء النمر ج ١ ص ٢١١ و الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٨٢ .

سميد عاشور : العصر الممالكي ص ٢٩١ .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 59.

(٩٣) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٠٣ .

المقريزى : المخطوط ج ٣ ص ١٥٩ - ١٦٦ .

سميد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر المماليك ص ٨٦ .

محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ٣٢٦ (انظر بعده عن الذهب

والسياسة النقدية)

— Poston, Op. Cit. pp. 109-385.

— Noppe, Op. Cit. p. 98.

(٩٤)

٣ - والفئة الثالثة تشمل تجار أوروبا المسيحيين وعلى رأسهم البنادقة والجنويون والفلورنسيون ، وتاريخهم مع شرق البحر المتوسط قديم ولهم قناصل ونواب قناصل لتسهيل أعمالهم ويمارسون وظائفهم بموافقة السلطات المالية بموجب معاهدات واتفاقيات وينتظرون وصول السلع الشرقية لينقلوها الى أوروبا ، ووصولهم كان مشروطا ومقيدا بالمدن الساحلية فقط ولهم وكالات وفنادق وأحيانا كنائس خارج الفنادق غير كنائس الفنادق. وكان للشئون السياسية والعسكرية دخل كبير لما يلاقونه أحيانا من معاملة (٩٥) .

٤ - والفئة الرابعة هي فئة المسلمين الشرقيين من الأتراك والفرس وعرب شبه الجزيرة والسوريين والعراقيين والسودانيين وكلهم فئات كانت القاهرة معتادة رؤيتهم والتعامل معهم ولا يحظر عليهم ما كان يحظر على الأوروبيين ، كما أن لهم خانات وقياسر ، ومدة بقائهم بالقاهرة مفتوحة ، بل ان بعضهم آثر الاستقرار فى القاهرة وأصبح من فئات التجار المستقرين البرجوازيين واتسعت تجارته . ومنهم أيضا اليمنيون والهنود (٩٦) . ويتبع هذه الطائفة التجار العرب الذين سافروا الى الشرق الأدنى ، وكان لانتشار الاسلام فى الهند والصين أثره فى تنشيط المشروعات العربية فيها ، وقد تبلورت الجهود العربية فى المياه الشرقية لأقصى طاقاتها حتى نهاية القرن الخامس عشر وجذب هذا النجاح أعدادا كبيرة من الشعوب الأخرى من غير العرب كالأغريق والترک والجراكسة وبعض فئات من شرق البحر المتوسط ، ثم الأوروبيين حين تم لهم الوصول للهند بحرا فى أواخر القرن الخامس

(٩٥) الفلقشندي : صبح الاعشى ج ١١ ص ٤٢١ وج ١٣ ص ٣٤٠ .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 411.

— Clerget, Op. Cit. pp. 323-324.

(٩٦) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٥ .

— Clerget, Op. Cit. p. 322.

— Nopp, Op. Cit. p. 91.

عشر وعرف الأجانب في الشرقين الأدنى والأقصى باسم الروم . لذا فإن المنافسين للبرتغاليين في الهند لم يكونوا جميعا من العرب الخالص من شبه الجزيرة العربية انما بعضهم ممن عرفوا باسم الروم . وان كان البرتغاليون يطلقون عليهم جميعا بلا تمييز اسم المغاربة Moors وهؤلاء بالاضافة الى الهنود والمصريين هم الذين قاوموا الغزو البحري للهند أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، وان خضعوا لهم في النهاية (٩٧) . ولم يكتف العرب بالمتاجرة فقط بالشرق الأقصى ، بل ان فئات منهم استقرت بجزر الهند الشرقية وفئات أخرى استقرت بالصين حيث قوبلوا فيها بالترحاب وسمح لهم بأباطرة الصين بإقامة مراكز تجارية لهم وأحياء لطوائفهم وسيدا منهم يفصل في المنازعات بينهم ويدير شئونهم وهو بمثابة القنصل في شرق البحر المتوسط . وظلت تجارة هذه المنطقة حتى القرن الخامس عشر وفترة من القرن السادس عشر احتكارا لفئات من التجار العرب . ولدى وصول البرتغاليين الى قاليقوط هجرها معظم تجارها من العرب والأفارقة متجهين الى ملقا التي أصبحت سوقا للسلع الشرقية المصدرة للغرب ، ولم يلبث البرتغاليون أن غزوها هي وسيلان ليخرج منها العرب نهائيا (٩٨) .

هـ — والفئة الخامسة هي فئة تجار الأرمن والاغريق والقبط ، وهم مسيحيون شرقيون ، وعملوا في التجارة ، ومنهم مهرة الصناعات ، وقوافلهم تجوب البلاد العربية من حلب ودمشق وعمان وبيروت كما

— Camb. Med. Hist. I. p. 27.

(٩٧)

(٩٨) ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك ص ٧١ .

المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٤٨ .

ابن بطوطة : عجائب الآثار ج ٢ ص ١١٦ .

منز : الحضارة العربية في القرن ٤ هـ (مترجم) ج ٢ ص ٣٠٥ - ٣٧٦ و ٣٧٧ .

— Camb. Med. Hist. I. p. 28.

— Steiger, Hist. Of The Orient, pp. 215-216-217.

تاجروا فى سلع أرمينيا وجورجيا وفارس ، وكان لهم دور كبير فى
تجارة الهند قبل وصول البرتغاليين . ولكثرة ورود التجار الاغريق
لمصر منحوا حق وجود قنصل لهم بالاسكندرية لرعاية شئون
التجار (٩٩) .

٦ - والفئة السادسة هم مجموعة التجار اليهود الذين أسهموا
بنصيب كبير فى تجارة مصر والتجارة الدولية فى العصور الوسطى
المبكرة ، وكان بمصر منهم عدد كبير من المعروفين «بالطائفة الرذانية»
وبدأوا تجارتهم مع ظهور الاسلام وانتشاره فى فارس ، وكان طريقهم
التجارى من دمشق للقاهرة والقيروان وطنجة وتاجروا فى الأسلحة
والتوابل والفراء والحرير والعبيد ، كما وصلوا الى البحر الأسود ،
بل يقال انهم تاجروا مع مدن الخليج الفارسى حتى ان ميناء سيراف
كان يحكمه فى وقت ما يهودى (١٠٠) . كما اعتنق كثير منهم الاسلام.
وما لبث السوريون والمصريون - بعد قيام الدول المستقلة فى مصر
والشام - أن سيطروا على التجارة التى تحكم فيها اليهود فترة ،
كما أنه فى الغرب الأوروبى قل عمل اليهود بعد أن أتقن المسيحيون
الغربيون العملية التجارية ، وكانت البابوية قد أصدرت تعليمات
متجددة مع كل بابا يلى كرسى روما الدينى ، يتحدد فيها أنواع التجارة

(٩٩) ابن حجر : انباء الفجر ج ١ ورقة ٢٢٣ (انظر قبله ملاحظة رقم ٩٧) .

— Mopp, Op. Cit. p. 99.

(١٠٠) ابن خرداذبه : ص ١٥٣ و ١٥٤ و ١٥٥ ويذكر انهم فى العصور الوسطى
المتقدمة كانوا يركبون البحر الشرقى (البحر الاحمر) من القلزم الى الجار وجدة ثم يمضون
الى السند والهند - انظر كذلك (سعيد عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ج ٢ ص ٩٤
ويذكر أن تاجرا كان يؤدى معنى يهودى (Judes — Mercator)

— Poston, Op. Cit. II. p. 287.

— Clerget, Op. Cit. p. 320-321.

ويسمى ابن خرداذبه كذلك باسم الرذانية من بلاد الفرنج الغربى . ويذكر كلرجه
انهم ينتسبون لمدينة الرى Rai = Ragha بالقرب من طهران (المصدر السابق نفس
الصفحات) .

لخاصة التي يمكن لليهود أن يمارسوا العمل فيها ، إلا أن اليهود ما لبثوا أن اتجهوا نحو التوسع في أرباح السلف ، بعد أن حرمت الكنيسة الكاثوليكية هذا النوع من التعامل المالى ، وأصبحوا مقرضى أموال بأرباح عالية . ومع هذا كانوا فى مركز مزعزع ، لأن القانون لا يمنحهم الحماية ، كما أنهم كانوا معرضين للنهب من الأمراء الاقطاعيين (١٠١) . وقد شاع بين بعض الكتاب المحدثين أن فئة التجار الكارمية من اليهود (١٠٢) ، ولكن حقيقة الأمر أن طائفة الكارمية كانت هيئة متماسكة جعلت الاسلام أساس وحدتها وعصبيتها فلم يوجد بين الكارمية أى يهودى ، وإن لم يمنع قبولهم للتاجر اليهودى الذى يعتنق الاسلام ويتوارثه عنه أبناؤه كما يتوارثون التجارة . وليس أدل على ذلك من أن فنادقهم كان بها مساجد تحمل أسماءهم وينفقون عليها من جهدهم الخاص (١٠٣) .

وقبل أن ننهى موضوع الفئات المشتغلة بالتجارة فى العصور الوسطى ، وخاصة المتأخرة منها ، يبدو أن من المفيد عقد مقارنة بين جهود التاجر الكارمى عماد التجارة فى الشرق والتاجر الايطالى عماد التجارة الأوربية فى البحر المتوسط فى العصور الوسطى ، فكما كان الايطالى مفخرة الحركة التجارية الوسيطة فى البحر المتوسط ، فإن التاجر الكارمى فى البحر الأحمر ، وفى المحيط الهندى كان أكثر فخارا واجتهادا . ولقد شق كلاهما طريقه فى عصر امتلأ بالكثير من

— Clive, Op. Cit. pp. 117-118. (١٠١)

— Clerget, Op. Cit. pp. 317-321-322. (١٠٢)

(١٠٣) القرىزى : السلوك ج ٢ ص ١٢١ .

ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

التويرى : نهاية الأرب ج ٤ ص ٦٢ مخطوطة برقم ٥٩٢ معارف عامة بدار الكتب .

أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٥٦٤ (كاليفورنيا) .

— Fischel, F., Op. Cit. (Journal) p. 163, 166.

المصاعب، فمن تحمس دينى ملاء العصور الوسطى شرقا وغربا، وطرق تهديدها الأخطار برا وبحرا، الى حكومات يتزايد جشعها للمكوس والضرائب، ومع ذلك فقد وصل التاجر الايطالى الى شمال أوروبا بحرا وبرا ووصل بعضهم الى الصين (ماركوبولو). والتاجر الكارمى كذلك سيطر بتجارته على البحر الأحمر والمحيط الهندى ووصل الى الصين وتعمق فى افريقية حتى بلاد التكرور ومع ذلك ظلت نقط ارتكاز الايطالى فى البحر المتوسط والكارمى فى البحر الأحمر. ولا نعدو الحقيقة كثيرا اذا قلنا ان الايطالى والكارمى سواء أكانا متنقلين أو مستقرين أو دوليين - فهما دعامة تجارة العصور الوسطى بين الشرق والغرب (١٠٤).

نظام الهيئات المشرفة على التجارة :

ومنذ تطور مركز مصر الدولى فى التجارة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى حتى أواخرها، تطلب هذا التطور ظهور نظم جديدة فى التجارة أظهرها نظام « المراسد » التى هى قوائم الأسعار والضرائب على الصادرات والواردات. وقد سادت هذه النظم مدن مصر والشام وموانئهما فى البحرين الأحمر والمتوسط، وأنشئت لذلك الجمارك فى موانئ جدة والقلم والسويس والطور وعيذاب والقصير، وقوص وبولاق على النيل، ودمياط والبرلس والاسكندرية، على ساحل البحر المتوسط المصرى وفى بيروت وصور وصيدا وعكا وطرابلس على ساحل البحر المتوسط الشرقى (١٠٥).

(١٠٤) صبحى لييب : المصدر السابق من ٢٨ و ٢٩ .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 429-430.

(١٠٥) ابن جبير : الرحلة من ٢٥٠ - ٢٥١ .

ابن مباتى : قوانين الدولة من ٣٤٩ .

— Cierget, Op. Cit., p. 330.

على هذه الموانئ أهم الهيئات المشرفة على التجارة الخارجية ، وحصيلة أمواله من التجارة المارة والمصدرة والمستوردة ، ولما زادت الأعباء المالية في العصر المماليكي ، واحتاج السلاطين الى المزيد من المال لمواجهة الأخطار للحرب مع المغول ثم العثمانيين ، والتوسع الاقتصادي والعمراني الذي شمل مصر والشام في عهدهم والنقص المالي الذي نتج من افلاس النظام الاقطاعي في القرن الخامس عشر ، كانت رسوم الجمارك واحتكار توزيع السلع الشرقية هما المصدران اللذان اعتمدوا عليها . ورفع المماليك الرسوم الجمركية على هذه السلع ، فكان رسم الجمارك بالاسكندرية على توابل الهند يساوي خمسة أمثاله في قاليقوط ، ثم ان سعر النقل زاد ثلاث مرات قدر ما كان عليه سابقا ، ودفع مرافقو قوافل مكة رسوما عالية عن أنفسهم وعن كل جمل رسما يتراوح ما بين درهم ، وثلاثة دنانير . ورسوم جمارك جدة من التجارة الهندية ١٠٪ زيدت على عهد السلطان برسباي فتحوّلت المتاجر عنها الى عدن فاضطر للقنوع بالعشر ولكن كانت تتضاعف رسوم الجمارك اذا ثبت أن السفن مرت قبل دخولها جدة بعدن وأطلق على جمارك جدة اسم « شاد جدة » وزادت هذه الضرائب على بعض السلع الى ١٥٪ من أثمانها وفي أواخر العصور الوسطى بلغت حوالي ٣٥٪ من أثمان السلع (١٠٦) .

وجمرك الاسكندرية أكبر جمارك مصر على البحر المتوسط (١٠٧) .

(١٠٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٦٠ .

— Thenaud, Op. Cit., p ; 27.

— Clerget, Op. Cit., pp. 332-333.

— Dopp, Op. Cit. pp. 45-46.

(١٠٧) تزعمت قوس وعيذاب وجماركهما النشاط التجاري الاسيوي والافريقي ، على حين ان دمياط والاسكندرية وجماركهما تزعمتا استقبال السفن الاوربية وجزر البحر المتوسط ، وخوفا من قدوم حملة صليبية على مصر من دمياط فقد تم ردم مخرج النيل عند قم بحر دمياط ، واصبحت السفن ترسو بعيدا ، وتتولى السفن النيلية الصغيرة نقل =

ويقع خلف بابها الشمالى الذى يفتح للميناء فى أكبر أحياء المدينة ، وهو مهبط التجار من وطنيين وأجانب وبه فنادقهم . وللمدينة ميناءان ، وبالتالي جمركان : والميناء الأول هو مرسى البرج ، وأخذ اسمه من برج على صخرة للمراقبة ، وترسو فيه سفن التجارة الأوربية ، كما تدخله سفن تركيا وجزر البحر المتوسط للمتاجرة وللإحتماء من الأنواء ، أما الثانى فهو مرسى السلسلة ، وتدخل اليه سفن بلاد المغرب وخاصة تونس وجزر البحر المتوسط (١٠٨) . ورسمت ادارة الجمارك بالاسكندرية رسوما معينة فى كل جمرك ، فهى فى جمرك البرج الخاص بالأوروبيين المسيحيين ١٠٪ ، وفى جمرك السلسلة الخاص بالمغاربة المسلمين ٥٪ (١٠٩) . ويفيد الوطنيون بالاسكندرية من التجارة الأجنبية المسيحية والاسلامية ، ولكن معظم أموال جماركها يذهب لخزائن السلطان ، وكان القنصل يذهب بنفسه للقاهرة لحمل رسوم الجمارك للسلطان (١١٠) .

= البضائع ، ومن ثم اختبرت الاسكندرية لتحل محل دمياط ، وأصبحت منذ ذلك الحين - أكبر موانئ البحر المتوسط .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤ .

سميد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٠ .

— Leo Africanus, The History and Description of Africa, (١٠٨) Vo.1 III. pp. 861, 862 & R. II. p. 908 R. 10. pp. 907-908.

(١٠٩) كان المغاربة يدفعون ثلث سلمهم مكوسا على حين ان الفرنج يدفعون العشر ولما شكوا المغاربة للسلطان ناصر فرج ١٤١١ م أمر بالا يؤخذ من المغاربة الا العشر .

ابن حجر : انباء الغر ج ٢ ورقة ٢٨ .

ويذكر Thanaud ان السلطان كان يحصل سنويا على حوالى ٢٥٠.٠٠٠ اشرفى رسوم جمارك على السلع التجارية فى جمارك الاسكندرية وتصل رسوم الجمارك أحيانا الى ١٠٠ ٪ من مشتروات الأجانب مما حدا ببعضهم الى الرجوع دون شراء أى شئ .

— Thanaud, Op. Cit. p. 27.

— Depping, Op. Cit. I. p. 62-63 & I. p.p. 160-161. (١١٠)

الاجراءات الجمركية التجارية فى ميناء الاسكندرية

وخضعت السفن التجارية لنظام تفتيش دقيق فى جمرك الاسكندرية واجراءات حكومية عدة ، ومنحت ادارة الجمارك لجمهوريات ايطاليا التجارية مخازن كبيرة بالاسكندرية ، وهى مخازن مسقوفة يحمل القنصل مفاتيحها وتتولى هيئة الجمارك حراسة السلع الموجودة بها نظير رسم معين يدفعه التجار للحكومة ، وللتاجر الحرية فى أن يترك بضاعته أو يحملها معه الى الفندق . أما تجارة المرور عبر مصر فكان رسم الجمارك عليها يتراوح ما بين ٢ - ٢/٢١٪ (١١١) . ولدى وصول السفن الغربية الى الموانئ المصرية يصعد اليها عمال السلطان ويبدءون فى مباشرة أعمالهم وهى على ثلاث مراحل :

الاجراء الأول : (١) معرفة جنسية السفينة (٢) احصاء بعدد المسافرين عليها (٣) كتابة قائمة بأسمائهم والسلع التى يحملونها (٤) . تبليغ كل هذه المعلومات لأمير الاسكندرية الذى يتولى بدوره تبليغها للسلطان فى القاهرة بواسطة الحمام الزاجل (١١٢) .

الاجراء الثانى : بعد أن تدخل السفينة الميناء ترفع عنها أشرعتها ودفتها وتحفظ لدى السلطات المحلية لحين التحقق من بياناتها ودفع ما عليها من رسوم ثم السماح للقبطان والركاب بالنزول للميناء بعد

— Heyd, Op. Cit. II. p. 451

(١١١)

(١١٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩١ - ٣٩٢ .

المريزى : الخطوط ج ٢ ص ٢١١ - ٢٣١ .

ابن شاهين : زبدة كشف المالك ص ١١٦ .

سعيد عاشور : العصر المالىكى ص ٣٦٣ .

غيبيت : مصر الاسلامية ص ٤٤ - ٥٤ .

— Harff, Op. Cit. p. XXIII.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 429.

أخذ اذن أمير المدينة . وفي حالة العداء بين الفرنج والمماليك يتشدد عمال السلطان في التفتيش خوفا من وجود الأسلحة (١١٣) .

الاجراء الثالث : تبدأ جباية الرسوم المقررة وهي (١) جزية الرأس دوكتان لكل فرد وخمسة اذا كان من الحجاج . (٢) رسم دخول يساوى ٢٪ من قيمة السلع المحمولة ومحاولة المزاوغة هنا من الأجانب كان مصيرها العقاب الصارم (٣) ١٠٪ للجمر من قيمة السلع (١١٤) . وبالجمر موزع موظف سلطاني يقوم بتحديد ما تريد الحكومة شراءه من سلع غريبة كالخشب والقطران وغير ذلك للمتجر السلطاني في القاهرة (١١٥) . وموظف آخر يتولى استجواب التجار أو الوافدين والعابرين عن الحالة العامة في أوروبا والظروف السياسية التي تمر بها كما يسألهم عن وظائفهم ، فان كانت له صفة دبلوماسية استجوب عن مقاصده وعن أمراء وملوك أوروبا وعن حملات صليبية جديدة (١١٦) . فاذا تمت كل هذه الاجراءات سمح لهم بدخول المدينة للمبيت في فنادقهم وفرز سلعهم ، وكانت السلطات المماليكية لا تسمح الا لقنصل

— Harff, Op. Cit. p. 84-92.

(١١٣)

— Heyd, Op. Cit. II. p. 430.

» يذكر هارف أن الاشرعة والدفة لا تسلم الا بعد استيفاء رسوم الجمارك ثم يصرح للسفينة بالرحيل . ويقول كذلك أمرا غريبا آخر وهو «ان تجار الاسكندرية يترصدون الحمام الزاجل ويفحصون ما به من رسائل لكي يعرفوا نوع وكمية السلع الواردة للاسكندرية وعدد السفن حتى ينظموا عملية الشراء ثم يعيدوا اطلاق سراح الحمام ليكمل رحلته للقاهرة» .

— Harff, Op. Cit. p. 181.

(١١٤) فيبت : مصر الاسلامية ص ٤٠ .

— Ziada, Op. Cit. p. 211.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 428, 430.

— Depping, Op. Cit. II. pp. 303-306-307.

— Harff, Op. Cit. p. 92.

— Sonia, Op. Cit. pp. 97-98.

(١١٥) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٢٧ نشر عزيز سوريال عطية .

— Harff, Op. Cit. p. XXIII.

(١١٦)

— Sonia, Op. Cit. p. 98.

فرنسا بمرافقة عمال السلطان فى عمليات التفتيش (١١٣) .

أما ميناء السلسلة فيمر منه تجار ومسافرو المغرب والفئات الأخرى الشرقية من أتراك أحيانا ويمنين وهنود وفرس وتجري معهم الاجراءات الآتية :

- ١ - يصعد عمال السلطان للسفن لقيد كميات وأنواع السلع .
- ٢ - استحضار جميع من بالسفينة من المسلمين واحدا واحدا وكتابة أسمائهم وصفاتهم وأسماء بلادهم .
- ٣ - سؤال كل فرد عن حيازته من سلع أخرى ليؤدى عن الجميع زكاة دون أن يسأل هل حال عليها حول أم لا (١١٨) .
- ٤ - من كان منهم ذا صفة سياسية طيف به على المسئولين تحت الحراسة للقاضى وأهل الديوان وحاشية السلطان وفى كل مرة يستجوب ثم يطلق سراحه .
- ٥ - انزال السلع للديوان وتفتيشها لتقدير الجمارك عليها .

(١١٧) فييت : مصر الاسلامية ص ٤٠ .

(١١٨) « هذا فى الواقع ليس زكاة بل هى شرائب وتأخذ صفة الزكاة الواجبة على كل مسلم والدليل على ذلك عدم اهتمام السلطات بمرور حول على الزكاة السابقة أم لا انظر : ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

مثل هذه الأموال كانت تعتبر مكوسا غير شرعية لا سند قانونى لها ، لم تكن من ابتكار المالك بقدر ما كانت موروثة عن عصور سالفة ، ومنها مقرر المراكب ، وهو ما يؤخذ عن كل مركب وزكاة الدولة وهو ما يؤخذ عن الرجل من زكاة ماله ولو عدم ، وإذا مات يؤخذ من ورثته : انظر - المقرئى : المراعطة ج ١ ص ١٠٦ طبع بولاق وكذلك -

سميد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

كما تحصل الحكومة من متجر الكارمية فى أى مدينة زكاة معلومة كلما حال عليه الحول ولم يحدد المؤرخون الماصرون قيمة هذه الزكاة ومنهم القلقشندى الذى ذكر « أنها تجرى مجرى سائر متحصل الاسكندرية المباشرة وغيرها » .

القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦١ وكذلك :

المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٥١٠ و ٥١١ حاشية رقم (٤) للدكتور زيادة .

٦ - أحيانا بدل (اقرارات الحياة) يصير استحقاقهم بالقسم
المعظم هل عندهم غير ما وجد .

وفى كل موانئ وجمارك مدن مصر والشام تتم الاجراءات
هذه (١١٩) .

الا أن هناك بعض اجراءات اضافية كانت تتبع منها :

١ - عند تقييم حمولة السفينة لمعرفة قيمة الضرائب المقررة عليها
تدفع السفينة رسما اضافيا للفندق .

٢ - تتعدد الضرائب بتعدد السلع وتزيد احداها على الأخرى،
حسب أهميتها ، كما أن الضرائب تتفاوت تبعا للعلاقة مع دولة
التجار .

٣ - فى الجمرک يوجد موظف أجنبى بمثابة قنصل تجارى
تعيّنه حكومته بموافقة السلطان ويقتصر نشاطه على دائرة الجمرک
ويراعى أن مواطنيه التجار لا يدفعون فى السلعة أكثر من ثمنها ومرة
واحدة ، ويمسك سجلا للمبيعات والمشتريات لمواطنيه لمقارنته بسجل
السلطات المحلية ويعمل أحيانا كضامن للتاجر من مواطنيه الذى قد
يترك المدينة وعليه ديون للجمرک أو له أو عليه أموال للتجار الوطنيين..

٤ - تحديد حمولة السفينة وأماكن الفراغات بها لتحديد كميات
السلع التى يمكن أن تحملها فى حدود امكانياتها حتى لا تتعرض
للغرق . والتاجر الغربى هنا لا يجبر على شراء أو بيع أية سلع اذا لم

(١١٩) تصل الضرائب أحيانا ٢٠ و ٣٥ ٪ وتقل عن ذلك بالنسبة للمسلمين من المغاربة
والاندلس . انظر ابن مباتى : المصدر السابق ص ٣٣٦ - ٣٤٩ .

القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٦٤ .

ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

— Sonia, Op. Cit. p. 98.

ان اجراءات التفتيش كانت تسرى على الأجانب والوطنيين الوافدين للتجارة الخارجية
وكذلك من المغاربة المسلمين وهى من حقوق السيادة للدولة .

يعجبه السعر وان كان يجبر في أواخر العصور الوسطى على شراء « توابل الذخيرة الشريفة » (١٢٠) .

٥ - في أغلب صفقات البيع كان يوجد سمسار ومترجم . ويتقاضى السمسار عمولة معقولة يحددها القانون حسب نوع السلعة وجنسية البائع ، كما كان للسمسرة نقابة تتولى شؤونهم ونظام السمسرة كان معروفا في وكالات القاهرة .

٦ - لم يكن الجمرك هو المنطقة الوحيدة التي تتم فيها عمليات البيع والشراء في قاعاته التي تشبه الى حد كبير بورصات العصر الحاضر، ولكن كان يحدث التعامل أحيانا على ظهر السفينة وفي الفنادق في قاعات خاصة بذلك . وفي كل هذه الحالات كانت القوانين الوضعية هي القوانين السائدة .

٧ - اذا تم البيع خارج دائرة الجمرك على غير ما يوافق البائع حق له أن يلجأ للقضاء الوطنى ، وكثيرا ما لجأ التجار الأجانب للقضاء الوطنى اذا ما أهينوا أو أضرروا بسبب تأثير ذوى النفوذ من رجال الادارة والجمارك . وتعتمد ادارة الجمرك أحيانا الى شراء السلع لحسابها ثم اعادة توزيعها على التجار مع ربح معقول (١٢١) .

— Ziada, Op. Cit. p. 213.

(١٢٠)

— Pernaud, Op. Cit. pp. 48-49.

(١٢١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٣٧ .

المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤١٥ .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٩ .

— Pernaud, Op. Cit. p. 47.

— Harff, Op. Cit. p. 95.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 451, 452.

انظر كذلك الملحق عن اتفاقية التجارة بالامسكندرية فقرة ٣ و ٤ (يتحصل من الضرائب ١٠٪ مسسرة و ١١٪ اذا حدث تغيير . في السوق الحر ١٠٪ منافسة بين السمسار والترجمان . في المبيعات الصغيرة ٤٪ لكل ١٠٠ دوكلات للسمسار ، ومثلها للترجمان بشرط الانتهاء من البيع نهائيا .

٨ - فيما يختص بسلع الشرق الأقصى جعل الممالك جمارك مينائي جدة والطور لها ، أما الاسكندرية فقد اختص جمرکہا بسلع أوروبا والمغرب الواردة والمصدرة لها وفي دمياط اختص جمرکہا بضرائب الصادر من السكر الوارد من الخشب من أوروبا وآسيا الصغرى والشام . وقيمة الضرائب على الخشب وصلت الى حوالي ربع الثمن (١٣) .

٩ - سمع للقنصل بالاسكندرية بتحصيل ٤٥٪ من الرسوم المتحصلة لصالح القنصلية و ٢٪ على الوارد ومثلها على الصادر للقنصلية أيضاً و ١٪/٢ لصالح القنصل نفسه . وفي القرن الخامس عشر بلغ جملة ما يحصله القناصل لأنفسهم ١٪ في الاسكندرية وفي دمشق ٣٪ بحيث لا يزيد على ١٠ دنانير ، أى فلس لكل ١٠٠ دوكات تقريباً (١٣) .

وفي موانئ النيل النهرية اتبع في بولاق بالقاهرة نفس النظام من حيث التفطيش وتحصيل الرسوم على التجار ورسوم الحجاج (١٢٤) . وفي جمرکہ ميناء منية بن خصيب كانوا « يقسمون الايمان الحرجة » على ما بأيديهم وما عندهم وهى بديل « الاقرارات الجمركية » الحالية وان اتبعوا معهم وسائل قاسية أحياناً (١٢٥) . وفي عدن أظهر حكامها

(١٢٢) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ١٠٣ - ١٠٩ .

القلندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٩ - ٤٧٠ .

ابن شاهين : زبدة كشف المالك ص ١٠٨ .

ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٨٤ .

— Depping, Op. Cit. II, p. 77.

— Depping, Op. Cit. II, p. 54.

(١٢٣)

(١٢٤) انظر الفصل الثالث - بخصوص ميناء بولاق النهرى وجمرکہ ، فيتواجد به رجال الحكومة بصفة دائمة لتحصيل الرسوم المستحقة على التجار ولجمرکہا باب خاص ، بالمسافرين لفحص حقائبهم ويدفعون ١٠٪ مما بها ، ودوقتان للمسافر العادى ، وخمسة للحاج :

— Thénau, Op. Cit. p. 121.

— Clorget, Op. Cit. p. 169-170.

(١٢٥) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ١٠٨ - ١٠٩ يصعد عمال الجمرکہ السفن ويفتشون =

تعسفا مع التجار فى الجمارك ، ففرضوا عليهم الضرائب المتعددة ، وينزع عمال الجمر كقلاع ودقة السفن حتى يتم دفع الرسوم ، ويتم التفيش بدقة حتى النساء وجدت عجوز تتولى تفيشهن ، ولا يبارح التجار المرفأ الا بعد التأكد من تصفية كل عملياته (١٢٦) . وقد تأرجحت رسوم الجمارك فى ميناء عدن وجدة تبعا للتطورات السياسية والاقتصادية ، فرفعت فى جمر ك ميناء جدة الرسوم على السفن التى ثبت أنها مرت بعدن فى طريقها لجدة كما يدفع الحجاج اليمينون لدى عودتهم من مكة رسوما عالية فى عدن لديوان الجمر ك على ما يحملونه من الحجاز (١٢٧) .

وجمر ك القسطنطينية به جهاز ضخيم يعمل على التأكد من جنسية كل سفينة ويقدر ما تستحقه من ضرائب ، وكان على السفن أن تدفع مجموعة من الضرائب منها ضريبة على مساحتها وحمولتها ونوع السلع التى تحملها . ويذكر عن هذا الجهاز من الموظفين أنه لم يسمع عنهم أنهم أساءوا أو ارتشوا نظرا للرقابة الشديدة عليهم ، وان كانت بعض الجاليات تحاول التهرب أحيانا من دفع بعض الرسوم الجمر كية ، ويحصل فى جمر ك القسطنطينية ٢٪ رسوم مرور و ١٪ للقنصل . وبقي هذا النظام قائما فى العصر العثمانى بلا تغيير ، وان كان قد اتخذ شكلا أكثر حزما نظرا للظروف العسكرية التى أحاطت بالمنطقة منذ عام ١٤٥٣ م (١٢٨) .

= الركاب وسلمهم حتى النساء بطريقة وصفها الميرزى (بطريقة قبيحة وشنيعة) كما يجسبون بمسالهم جميع ما يحملون من غنائم ويحل بالمسافرين والتجار والحجاج من العنف وسوء المعاملة مالا يوصف .

(١٢٦) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ٥٨ .

(١٢٧) الظاهرى : المصدر السابق ص ١٣ - ١٤ .

ابن اياس : نشيق الأزهار (مخطوطة) ورقة ٨٣ .

— Lane Poole, Hist. of Egypt. p. 340.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 445-446 & 500, 504.

(١٢٨) بعد أن أصبح العثمانيون سادة القسطنطينية ثم سوريا ومصر وقبرس =

ومن الجمارك التي كان لها اتصال بتجارة شرق البحر المتوسط :
جمارك الصين والهند ففي جمارك الصين وخاصة في جمرک ميناء
خانفو (كاتون) كانت أسماء ربانة السفن الأجانب تقيده في ديوان
التجارة البحرية ، ويطلب الديوان بحق تفتيش المراكب قبل السماح
لها بانزال ما تحمله الى البر ، ويحصلون رسوم تصدير وتحميل .
وصار من المحظور تصدير الأشياء النادرة ، وكل من يعمد الى
التهرب يسجن وربما تكون قد أنشئت في العصور الوسطى مكاتب
تجارية ، داخل دائرة الجمرک لتسهيل أعمال التجار المسلمين وتسهيل
تحصيل رسوم الجمارك للسلطات الحاكمة والرسوم تقدر بنسبة ثلاثة
أعشار القيمة للسلعة . ويستطيع السلطان أن يشتري ما يشاء بثمان
مجز (١٢٩) .

وفي الهند فانه لدى وصول السفن الى موانئها يصعد اليها
مندوبو الملك لكي يلقوا نظرة على البضائع الموجودة بها ويشمنون
حمولتها . وفي ميناء قاليقوت يعين الملك من رجال الجمرک ثلاثة
موظفين لحراستها ، وعمل حساباتها في الجمرک ، وتنظيم عمليات
البيع والشراء والضرائب والموجبات ورسوم الدخول والخروج ،
وثالث سمسار لتسويق ما يطلبه التجار من سلع محلية أو بيع مالهيم

= والحجاز وضعوا وحدوا الرسوم بنسبة ٢٪ في قبرس والقسطنطينية و ٣٪ على البحر
الاسود ودمشق و ١٪ في بيروت للصادر و ١٪ للوارد وما بين ٤ - ٦٪ في حلب ثم
رفعت رسوم الاسكندرية لتوازي جمارك الشام حتى يمكن انتعاشها .

- Depping, Op. Cit. II. pp. 54 & 167.
— Poston, Op. Cit. II. pp. 102-103.

(١٢٩) متر : الحضارة الاسلامية (مترجم) ج ٢ ص ٣٧٤ - ٣٧٥ - ٣٧٦ .

يذكر ابن بطوطة : الرحلة ، عجائب الأخبار ج ٣ ص ١٦١ : ان الجنوك الصينية
اذا ما بارحت الميناء يكتب القبطان اقرارا منه بعدد ركابها وخدمها وبخايرتها وسلمها ،
فاذا ما عاد يقدم اقرارا بمن تغلف ، سالما أو ميتا - والا يؤخذ فيه - ثم يقدم اقرارا بالسلع
التي في حوزته . وبعد انزالها اذا ظهر أى اختلاف صار الجنك وما فيه من مال وبيع ملكا
للسلطات المحلية .

من سلع نظرا لمعرفة السمسار بلغة وطباع أهلها وأسعار السوق حتى يطمئن التاجر تماما لعدالة وصحة الاجراءات . ويدفع التاجر أو أصحاب السفن — ان كانوا هم التجار — مرتبات هؤلاء الموظفين بسخاء ، ولهم عمولة شراء وبيع تبلغ حوالى ١٦٪ من مجموع المشتريات (١٣٠) . وتتغير الرسوم الجمركية بتغير الحكام . ويحصل رسم حراسة قدره ربع قيمة المبيعات والمشتريات ولا تحصل عوائد اذا عادت السفينة دون مشتريات (١٣١) .

أما فى جمارك غرب البحر المتوسط ، ففى الهندية كان التاجر الأجنبى يراقب مراقبة شديدة ودقيقة ، ولا تترك له حرية اختيار مسكنه ، بل يوضع فى فندق خاص بالأجانب ، وفيه يصير تخزين سلعته . وبالجمرك مركز ادارة الأجانب الوافدين . وتنزع كذلك منه أسلحته وتعمل قائمة بما فى حوزته من سلع حتى يمكن تقدير الضرائب الجمركية المطلوبة منه ، ويقوم بهذا العمل مفتش أو كشاف ، وهو يعاون التاجر فى شراء لوازمه ويرافقه كظله لكى يتأكد من أنه لا يخالف القوانين ولا يتهرب من الرسوم الجمركية . ولا بد للتاجر أن يبيع ماله فيه ، لأن السلطات تحصل الرسوم على البضائع بيعت أم لم تباع (١٣٢) .

جملة القول أنه حتى نهاية العصور الوسطى لم يسمع عن جمارك مصر والشام ما يشين القائمين عليها ، وظلت الجمارك مثالا للدقة

— Darnes, The Book of Duarte Barbosa, Vol. II. p. 77-75. (١٣٠)

» يذكر بربوزا أن عمولة هؤلاء الموظفين هى أربعة أرباع زنجبيل لكل ٢٥ رطلا مشتراة ، أى حوالى ١٦٪ من قيمة المشتريات .

— Camb. Mod. Hist., Vol. I. pp. 25-26.

— Moreland, Indian Shipping, p. 198. (١٣١)

— Clive, Op. Cit. pp. 94-95-96. (١٣٢)

والأمانة ويلقى فيها الأجانب الأمن والرعاية . وليس أدل على ذلك مما ذكر عن قصة البرتغاليين الفونسو بايفا وكوفلهام مبعوثي ملك البرتغال لملك الحبشة في أواخر القرن الخامس عشر ، وكيف أن سلعهما ردت إليهما كاملة ، في الوقت الذي ظن فيه البعض أنها سرقت بفعل عمال الجمر ك حين مرضا وبدا أنهما فارقا الحياة ولما انجلت غمتهما ردت إليهما بضاعتهم . وشهدا هما بذلك ، ولقيا كذلك مثل هذه الرعاية والأمان في موانئ الهند « حتى ان التجار الأجانب يتركون بضائعهم في السوق دون أن يكلفوا أنفسهم عناء اعلان قيمتها المادية ، لأن حرس وموظفي الجمر ك مسئولون عن حمايتها (١٣٣) .

على أن مسألة الرعاية في الجمارك تعدت كذلك الى تخفيض الرسوم على بعض الجاليات دون غيرها لعوامل اقتصادية أو سياسية؛ وخاصة اذا كانت الحاجة ماسة لأدوات الحرب (١٣٤) . الا أن هناك رسوما اضافية لا ينالها التخفيض ، تدفع لصالح الجمالين والسماسة والمترجمين ولديوان القبان ، وهذه الرسوم سادت جمارك مصر والشام والهند والصين وبلاد المغرب (١٣٥) . ومنذ أوائل القرن السادس عشر وجمارك مصر تتدهور بشكل ملحوظ وخاصة في مينائي جدة والاسكندرية ، ويعلل ابن اياس ذلك « لأن السفن الأوروبية (يقصد البرتغاليين) بدأت تتوغل في البحر الأحمر وتجاوز عددها العشرين . وكانت تطارد سفن الهند المحملة بالسلع الشرقية وتصادر

(١٣٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٩ .

سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر الماليك ص ٧٨ .

سعيد عاشور : العصر المالكي في مصر والشام ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

— Sonia, Op. Cit. pp. 97-98.

— Heyd, Op. Cit. I. pp. 391-392.

(١٣٤)

(١٣٥) ابن ماتي : قوانين الدولة ص ٣٢٧ (نشر عزيز سوريال عطية) .

— Mas Latrie, Traites De Paix Et de Commerce, pp. 106-107.

ما تستولى عليه منها » (١٣٦) . وإذا كان قد نسب لعمال الجمارك
اذ ذاك التشدد فى جمع الرسوم وتحصيلها ، أو دقة التفتيش ،
أو التحقق من شخصية الوافدين ، فهذا يرجع لحالة الحرب بين مصر
والبرتغاليين فى المياه الهندية ، وليس هذا الا حرصا من الحكومة على
مصلحتها وأمنها (١٣٧) .

القناصل التجاريون :

ومن الهيئات المشرفة على التجارة الخارجية كذلك هيئة القناصل
التجاريين ، وقد ظهرت الحاجة الى هذه الوظيفة فى تجارة شرق البحر
المتوسط عندما اتسع مجالها شرقا وغربا وتركز القناصل فى مصر
والشام والقسطنطينية لتغطية تسويق وعبور المتاجر الشرقية والغربية .
ولما كانت ظروف التجار فى كثير من الأحيان تحتم عليهم الإقامة فى
المدن والموانئ التجارية العربية لفترة طويلة وممارسة التجارة فى ظل
القوانين المحلية ، لذا أصبح من الضرورى وجود هيئة تتولى الاتصال
بين هؤلاء التجار ، والسلطات المحلية . هذه الهيئات وأفرادها هم
« القناصل التجاريون » وأطلق عليهم أحيانا اسم « المندوبون
التجاريون » . وفى الاسكندرية كان يطلق عليهم اسم « مدير
المبيعات » أو « المندوب التجارى » . ولكل مجموعة تجارية بالمدينة
مندوب من هذا النوع يمارس مهام منصبه بعد موافقة السلطات
المصرية (١٣٨) . وقد عرف شرق البحر المتوسط نظام القناصل التجاريين

(١٣٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٠٥ .

فييت : مصر الاسلامية ص ٤١ .

— Poston, Op. Cit. II. p. 334. (١٣٧)

(١٣٨) ابن حجر : انباء القمر : ج ١ ورقة ٢٢٣ (مخطوطة) .

ابن شاهين : زبدة كشف المالك ص ٤١ .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 454.

— Depping, Op. Cit. II. pp. 20-21.

قبل الحروب الصليبية ، واستمر هذا النظام قائما حتى نهاية العصور الوسطى ، وإن كان من الصعب أن نجزم أى الموانئ الشرقية استقبلت قبل غيرها قناصل التجارة ومتى استقبلتهم . إلا أنهم كانوا فى القرن الرابع عشر هيئة رسمية تعترف بها الدولة وتمارس أعمالها الاشرافية على التجارة (١٣٩) . وقد عرف العرب هذا النظام فى الصين منذ انتشار الاسلام وازدياد التجارة بين شرق آسيا وغربها ، ولما زادت الجالية العربية فى « كانفو » عين امبراطور الصين هيئة من قنصل - حسب الاسم الذى عرف به فيما بعد - وقاض وكتبة ، لرعاية شئون هذه الجالية التجارية والمدنية والدينية (١٤٠) .

ويعاون القنصل فى مهام وظيفته هيئة تتكون من موثق العقود وترجمان بمرتبة سنوى ، وقد يكون من الوطنيين الذين يتقنون لغة الأجانب ، أو أجنبيا أتقن لغة الدولة التى يعمل بها ، ووكيلا للقنصل . ويحرم على القنصل الاشتغال بالتجارة لحسابه أو لحساب غيره أو يعمل مندوبا لدولة أخرى إلا باذن خاص من السلطات المحلية . ويرشح لوظيفة القنصل أفراد من الأسر الكريمة ، ولو أن هذه العادة تعدلتهم للتجار وخاصة من كان له صلات قوية بالعرب أو من بقى بين ظهرانيهم سنوات عدة . وتجدد المدن التجارية قناصلها فى شرق البحر

(١٣٩) يبدو أن نظام القناصل كان سابقا للحروب الصليبية بوقت قصير فى مصر والشام ، ولا سيما فى حالة النزاع بين أوروبيين وكان لا يجوز للقضاء الوطنى الفصل فى مثل هذا النزاع حسب الشرع ، لذا يرجع وجود مندوب من الجاليات الأوربية يتولى هذه العملية وعملية الاشراف التجارى على مواطنيه عرف فيما بعد باسم القنصل . ويبدو كذلك أن السلطات رحبت بمثل هذه الوظيفة لتسهيل عملية الاشراف على التجارة .
— Depping, Op. Cit. II. pp. 20-21.

(١٤٠) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٦٩ - ٧٠ .
سلمان الفارسي : أبازيد السيرافى : سلسلة التواريخ ، الكتاب الاول رحلة الى الصين ص ١٣ .
ابن اياس : نقش الازهار (مخطوطة) ورقة ١٢٨ .
— Pirenne, Mod. Cities, p. 188.

المتوسط عاماً بعد عام ، وقد يستقر القنصل في وظيفته ثلاث سنوات ، اذا زكاه مواطنوه التجار . وكانت بعض الجمهوريات التجارية الايطالية وخاصة جنوة والبندقية ، ترسل لمراكز نشاطها التجارى ثلاثة قناصل ، بحيث يحل كل واحد مكان الذى تنتهى مدة خدمته ، وتهدف من هذا الى تفادى اشكالات الموت المفاجيء ، أو صعوبة المواصلات أحيانا ، وكذلك لزيادة مران القنصل في وظيفته (١٤١) . وفي العصور الوسطى المتأخرة صار القنصل ممثلاً لدولته سياسياً وتجارياً ، وسمح لهم بتحصيل رسوم اضافية على التجار لصالح القنصلية ولصالح القنصل نفسه (١٤٢) . ولدى وصول القنصل يقدم نفسه ومعاونيه للسلطان الذى يحدد لكل منهم عمله حسب خطاب الاعتماد ويتلقى تعليمات السلطات المحلية ، وعليه أن يطبقها بدقة (١٤٣) . ومنذ سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ م ، تعين قنصل عام للشام وآخر لمصر ، والأول مركزه بيروت ، والثانى مركزه الاسكندرية ولهما نواب فى المدن والموانئ كافة ، وهو مسئول عن مواطنيه وعن رسم الجمارك (١٤٤) . المطلوبة للسلطات المحلية . ويختص القنصل ومعاونوه كذلك بفض المنازعات التى قد تنشأ بين بعض الأجانب وبعضهم ، بل ان من بين هيئة القنصلية موظفاً يقوم بعملية الدفاع عن مواطنيه أمام القضاء المحلى ، كما يمثل القنصل مواطنيه أمام السلطان أو نائبه فى قضايا

(١٤١) — Depping, Op. Cit. pp. 94 & pp. 39, 40-43

(١٤٢) انظر قبله عن رسوم الجمارك لصالح القنصليات وكذلك .

المجلة : عدد يناير ٤٩ لسنة ١٩٦٠ ص ٩١/٩٠ .

— Ziada, Op. Cit. pp. 213-314.

(١٤٣) ابن شاهين : زبدة كشف المالك ص ٤١ .

المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٩٤ .

ابن حجر : ابناء الفهر ج ٢ (مخطوطة) ورقة ٢٥٥ وورقة ٤٤٧ وورقة ٤٥٣

(١٤٤) — Depping, Op. Cit. II. p. 43.

الاستئناف (١٤٥) . ويرفع طلبات مواطنيه ودولته للسلطان . وقناصل جنوة والبندقية وفلورنسا كانوا أكثر القناصل اتصالا بالسلطان في مصر ويتمتعون بميزة « أكثر الدول رعاية » (١٤٦) . وتحدد الوثائق ظهور قنصليات جنوة في شرق البحر المتوسط في القرن الثاني عشر في نفس الفترة التي ظهر فيها هذا النظام للبنادقة في الشام (١٤٧) . ولأهل بيزا في الاسكندرية وفي القاهرة (١٤٨) . وبدأت جنوة قنصلياتها التجارية في الاسكندرية في القرن الثالث عشر ، الا أن قنصلياتها على البحر الأسود سبقت ذلك بقرون عدة (١٤٩) . وقناصل البنادقة في الاسكندرية من أبرز الشخصيات الأجنبية في بلاد السلطان المماليكي ، وبقيت قنصلياتهم حتى عهد السلطان العثماني سليم الأول ونالوا منه امتيازات جديدة في معاهدة تجارية (١٥٠) . ولم يكن للبنادقة أو لغيرهم من الجاليات الأوربية قنصليات في القاهرة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر (١٥١) . وتمتع قناصل فلورنسا في الدولة المماليكية بمركز ممتاز لهم ولمواطنيهم التجار ، ويعقد القناصل معاهدة تجارية كلما ولي السلطنة في القاهرة

(١٤٥) انظر قبله عن القضايا التجارية بين الوطنيين والاجانب بعضهم بين بعض ، والقضايا الاستئنافية في القاهرة .

— Heyd, Op. Cit. I. p. 391-392 & 411, 412 & II. p. 454. (١٤٦)

— Dopp, Op. Cit. p. 76.

— Depping, Op. Cit. II. pp. 21-22.

— Sonia, Op. Cit. p. 99.

(١٤٧) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٤ ص ٣٦٧ «ان أول ما ورد اسم القنصل في جملة الفزالة الجنوبية التي كانت في عكا ، كان في أواسط القرن ١٢ م ومنها انتشرت في سائر الأماكن وعرفوا بالقناصل » .

— Heyd, Op. Cit. I. pp. 392-393. (١٤٨)

— Beazley, Dawn Of Modern Geog., II. p. 431.

— Depping, Op. Cit. II. pp. 33-36-37-40. (١٤٩)

(١٥٠) انظر الملحق ومعاهدة البنادقة مع السلطان سليم الأول العثماني - راجع الفصل الثاني العلاقات التجارية الخارجية .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 436. (١٥١)

حاكم جديد (١٥٢). وفي القسطنطينية شجع السلاطين العثمانيون وصول التجار الفلورنسيين وقنصلهم لبلاده ، بل ان معاونى ومستشارى السلطان كانوا منهم . ويتولى القنصل رعاية مواطنيه التجار ، والضرب على أيدي العابثين منهم ، ويساعده فى عمله مسجل العقود ونائبه (١٥٣) .

ولما كانت معظم المشاحنات الدولية فى شرق البحر المتوسط تتعلق بالتجارة أو هجوم السفن الأجنبية وسفن القراصنة على بلاد السلطان الممالىكى واغتصابها الأموال والأنفس — فان الاجراء الذى كانت تتخذه السلطات اذ ذاك هو حبس كل التجار الأجانب ومصادرة أموالهم وحجز القناصل ، لحين عودة المأسورين ، أورد ما اغتصب ، أو تعويضهم عما لحقهم من أضرار . ومن هذا ما حدث على عهد السلطان قايتباى من غارة قراصنة البروفانساليين على ميناء الاسكندرية ١٤٧٦ وأسر تجار السلطان ومنهم ابن عليية ، ولم يطلق سراحهم الا بعد عودة ابن عليية الذى اقتدى نفسه وزملاءه بأموال عدة (١٥٤) . وامتلا عهد الغورى بمثل هذه الحوادث ، وفى كل مرة كان يلقي القبض على التجار والقناصل حتى تنتهى الأزمة ويطلق سراحهم (١٥٥) وأحيانا كان السلطان يرسل بعثات دبلوماسية من كبار رجال الدين المسيحيين ، للتفاوض بالطرق الدبلوماسية على حل الأزمات (١٥٦) .

(١٥٢) بالملحق برقم (١٨) حتى رقم (٣٠) عدد من المعاهدات خاصة بتجارة فلورنسا وامتيازات تجارهم .

— Heyd, Op. Cit. p. 344.

(١٥٣)

— Depping, Op. Cit. II. p. 40.

(١٥٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٠ - ١١٥ (طبعة كالة) انظر كذلك .

ابو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٢٢ (طبعة بوير) .

(١٥٥) ابن اياس : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٠٥/١٩٩/١٩١/١٤٦/٩٨ .

— Depping, Op. Cit. II. p. 196. & T. I. pp. 79-80. (١٥٦)

بخصوص هذا الموضوع انظر : ابن فضل الله النمرى : الرسالة ص ١٠/٩ . =

والواقع أن المماليك والأجانب كان يحدوهم أمل واحد هو المصلحة الخاصة لكل منهم ، فلا يكاد السلطان يحبس تجارهم وقنصلهم حتى يسارعوا بإرسال البعثات الدبلوماسية ، ولا يمر العام الا ويشاهد ديوان القلعة بالقاهرة وفود الدول الأجنبية ومبعوثيهم جاءوا ينشدون ود السلطان لحل المنازعات ويطلب معاهدة جديدة . والملاحظ أن أى عداء بين السلطان وطائفة من طوائف التجار الأجانب كان يقمع عبؤه على كل الأجانب وقنصلهم دون استثناء .

ومن الوظائف الاشرافية الأخرى على التجارة وظيفة « مباشرى الختم » ، وقد استحدث المماليك هذه الوظيفة لضمان استيفاء الضرائب النوعية على السلع الصادرة والواردة ورسوم الجمارك وغير ذلك ، ولمنع غش السلع . وعامل الوظيفة يتولى ختم الحمولات من البضائع ، والختم دليل على استيفائها الرسوم المطلوبة ، وأختام أخرى دليل على نقاوتها وأنها مرت على رقيب فحصها . وجماعة مباشرى الختم يوجدون فى الجمارك والأسواق العامة (١٥٧) . ومنها أيضا وظيفة ناظر الخاص وهى وظيفة قديمة ترجع لأيام الفاطميين وأن متوليها لم يبلغ من جلال القدر ما بلغ اليه فى دولة المماليك الأتراك (الجراكسة) . (١٥٨) وقد اتخذت هذه الوظيفة صفة هامة خلال حكم سلاطين المماليك المتأخرين، وصاحب الوظيفة هو الوزير المقرب للسلطان، وفى الشئون التجارية الخارجية كان يوكل اليه السلطان أمر مراعاة مطالب التجار

٢٠ خليل ابن شاهين الظاهري : المصدر السابق ص ٤١ .

ابن حجر : أنباء الفهر ج ٢ ورقة ٤٦٦ (مخطوطة) .

— Ziada, Op. Cit. pp. 213-214.

(١٥٧) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٤٣٩ .

(١٥٨) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٧٠ - ٦٧١ .

المقرئى : الخطوط ج ٣ ص ٣٦٩ .

الأجانب وقناصلهم فيعطى تعليمات على لسان السلطان بمنع الأضرار بهم وتمكينهم من البيع والشراء بحرية والتخفيف من شدة القيود المفروضة عليهم وهو وعماله يجوبون الأسواق لمراعاة تنفيذ هذا. ويتبع نظر الخاص وظيفة « نظر البحار الكارمي » وقد ارتبطت هذه الوظيفة بالكارمية لكثرة مصالحهم مع دولة سلاطين المماليك وترتبط ارتباطا وثيقا بتنظيمهم الإداري وتجارتهم في البحر الأحمر ومصر . ولأهمية هذه الوظيفة فقد أضيفت لأشراف ناظر الخاص وأحيانا أخرى تنفرد عنها وذلك حسب ما يراه السلطان (١٥٩) . ومن اختصاص هذه الوظيفة كذلك متحصلات مقايضات البهار ورسم البهار الوارد للطور من ميناء جدة (١٦٠) . ويقابل هذه الوظيفة في غرب البحر المتوسط وظيفة « هيئة قناصلة البحر في قطلونيا وفلورنسا والبندقية » وغيرها من الدول التجارية ، وتختص برعاية مصالح التجار العاملين في المجال الخارجى بحرا ، وهى صلتهم بالحكومات ، وكان لهيئة تجار قطلونيا صفة رسمية ويعود اليها الفضل فى إعادة العلاقات التجارية بين قطلونيا ومصر على عهد الملك الفونسو الخامس ١٤١٦ - ١٤٥٨ والسلطان الأشرف اينال المماليكى ، بعد أن انقطعت هذه العلاقات منذ عهد السلطان برسباى بسبب تهجم القراصنة على السفن والسواحل المصرية (١٦١) .

وعلى رأس الإدارات التى كانت تشرف على تجارة الكارمية إدارة عرف صاحبها باسم « مستوفى البهار والكاريم » . وقد وضع المماليك هذه الوظيفة لتتناسب مع توسع الكارمية التجارى ولتنظيم جباية الضرائب منهم ورعاية مصالحهم ، فمن واجبات صاحبها مراقبة واردات

(١٥٩) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢ .

(١٦٠) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٩ .

(١٦١) المجلة : العدد ٤٥ . سبتمبر ١٩٦٠ ص ٤٨ - ٤٩ ، العدد ٤٩ ، يناير ١٩٦١

ص ٨٨ وما بعدها .

متاجر الكاريم من مستودعاتهم باليمن وعدن وجدة ، وكذلك الاشراف على فنادقهم وتسهيل تعاملهم مع الوطنيين والأجانب (١٦٢) . وقد وجدت ادارات أخرى تختص بالاشراف التجارى على الكارمية ، منها وظيفة المراقب ، ووظيفة المفتش ثم موظف ثالث يختص بالزكاة من الكارمية والمراقب هو الاستادار المالىكى ويتولى هذه الوظيفة بجانب اشرافه على شئون بيت السلطان ومطابخه وغلمانه ، وهو أو من ينوب عنه يقوم بعملية مراقبة تحصيل الضرائب والعوائد على الكارمية ، ومقابل ذلك يرعى السلطان مصالحهم فى البر والبحر (١٦٣) . ويبدو أن وظيفة المتحدث هى همزة الوصل بين الكارمية وبين السلطان وهو مسئول عن كل ما له صلة بتجارهم أيضا .

ومن الوظائف الاشرافية على التجارة وظيفة المحتسب فى الأسواق المحلية والأسواق الموسمية ، ويعمل المحتسب ورجاله على منع التلاعب فى الأسعار والموازين ، أو غش السلع . ويراعى فى اختيار المحتسب أن يكون ذا صرامة وخشونة فى الدين ، إذ أن سمعة دولة الممالك فى الخارج تتركز الى حد كبير على سلامة التعامل فى الأسواق . لذا حرصت الدولة المالكية على ألا تتعارض مهام وظيفة

(١٦٢) لكل ديوان من الدواوين ناظر ومستوف ، والمستوفى من كتاب الاموال ويعاون الناظر وهو هنا يتولى استيفاء متحصلات الضرائب على البهار والضرائب الأخرى المختصة بجماعة الكارمية . بخصوص الدواوين المالكية عامة - انظر القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦ وبخصوص وظيفة مستوفى البهار والكاريم انظر :

— Fischel, W., Journal, Vol. I. Part IX. p. 167.

— Fischel, Journal, p. 168.

(١٦٣)

وظيفة الاستادار أساسا من وظائف أرباب السيوف ويتولى صاحبها الاشراف على بيت السلطان ومطابخه وغلمانه ، ويبدو أنه قد عهد اليه عملية الاشراف على تحصيل ضرائب الكارمية وقد ضمن الاستادار محمود على عهد السلطان برقوق وفاء ما استداناه السلطان من الكارمية لتجهيز حملة ملاقاته تيمورلنك .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ و ج ٥ ص ٤٥٧ .

ابو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٢٣٢ دار الكتب .

ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

الحسبة ونظامها مع القوانين والأصول التجارية المرعية ، وخاصة مع الأجانب الوافدين على أساس أن إيرادات الأسواق من التجارة الخارجية أصبحت مصدرا رئيسيا لمالية الدولة منذ افلاس النظام الاقطاعي المعتمد على الزراعة . وجرت العادة عند المماليك أن يولوا للوظيفة الرئيسية في هذا الجهاز التفتيشي أحد العلماء من رجال القلم وأحيانا يجمع بين الحسبة والقضاء . ولو أنه في أواخر العصر المماليكي ولى عليها أمير منهم هو « منكلى بغا الشمسى » على عهد السلطان المؤيد شيخ « وجان بردى الغزالى » زمن « الغورى » « ومامى المماليكى » خلال سلطنة « طومانباى الثانى » القصيرة (١٦١) .

نقابات التجار :

أما الهيئات الأهلية المشرفة على التجارة ، فهي هيئات مهنية تجارية على رأسها هيئة « نقابة التجار » ، وقد عرفت هذه النقابات فى الشرق والغرب ، ففي غرب البحر المتوسط كانت « نقابة تجار القطن » لها الكلمة الأولى المسموعة فى التجارة الخارجية ، وهى التى دفعت الملك الفونسو الخامس لاستعادة علاقاتهم التجارية مع مصر على عهد السلطان اينال (١٦٥) . وفى جنوة والبندقية وفلورنسا وجدت هذه النقابات ، ولعل أشهر نقابات أوروبا نقابة هيئة تجار الهانسا فى

(١٦٤) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٦٨ - القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤

ص ٣٧

المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤١٥ - المقريزى : الخطوط ج ١ ص ٤٦٤ .

« عدد المحتسبين فى الدولة ثلاثة واحد للقاهرة والوجه البحرى وواحد للفسطاط والوجه القبلى والثالث خاص بقرى الاسكندرية ومحتسب القاهرة أعظمهم وله حق حضور جلسات الاستئناف العليا فى دار العدل والديوان » .

(١٦٥) المجلة عدد سبتمبر ١٩٦٠ ص ٤٨ - ٥٩ عدد يناير ص ٨٨

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 482-483.

— Depping, Op. Cit. I. p. 26.

شمال وغرب أوروبا ودورها الهام فى نقل التوابل من الهندية ثم من لشبونة أوائل القرن السادس عشر . وأعضاء نقابات التجار هم التجار المحليون والخارجيون واقتصرت فى بداية الأمر على تجار المدينة الواحدة ثم توسعت لتشمل تجارا خارجها . وأصبحت حتى أواخر العصور الوسطى الصلة بين الحكومة وهيئات التجار ، وتطورت لتصبح صورة من صور الغرف التجارية الحالية بمعناها المهنى ، وكذلك نواد تجارية واتحادات قومية تجارية . وقد بدأ ظهورها منذ القرن الحادى عشر وبتوالى القرون تطورت لتشمل خدماتها التجار والشركات وأصحاب رؤوس الأموال والحكومة نفسها (١٦٦) . كما أنها تسدد عن التجار أموال الحكومة من ضرائب ورسوم جمارك . ويخضع تجار الهيئة النقابية لقوانين الدولة التى يتعاملون معها بيعا وشراء ، كما أنهم أحيانا يقصرون أعمالهم مع التجار المهنيين مثلهم ولا يتعاملون الا فى تجارة الجملة تاركين القطاعى لصغار التجار غير المهنيين لهيئات مماثلة (١٦٧) . ويذهب البعض الى أن نمو المدن وظهور طوائف الحرف المهنيين التجاريين صنوان . بل يؤكدون أن نقابات التجار هى وطوائف الحرف الأخرى كانت القاعدة فى التنظيم الإدارى والسياسى فى الدولة، وان لم تؤيد الوثائق بالدليل القاطع وجود علاقة بين طوائف الحرف

— Jacob, Op. Cit. pp. 444-445.

(١٦٦)

(١٦٧) «Merchants Guilds» أو نقابات التجار كلمة Guilds الانجلوسكسونية التى تمنى الدفع To pay استعملت فى العصور الوسطى لتدل على الهيئة التى يقوم أفرادها بعمل معين فى التجارة أو الصناعة وانتشرت فى الشرق والغرب على السواء لتصبح الآن ما يعرف باسم « الغرف التجارية » ، وكانت قبلا هيئات مغلقة لايسمح لأفرادها بالانضمام لهيئات أخرى - كما خضع التاجر المهنى المنظم للهيئة لرقابة الحكومة حتى لا يتهرب من الضرائب وحفزهم للانضمام للهيئة ما كانوا يحصلون عليه من امتيازات مالية والتصريح بالعمل فى الخارج اذ لا تمنح التصاريح الا لأعضاء النقابة .

— Webster, Hist. of Civilization, Ancient & Mod. p. 498-500.

توفيق اسكندر/بحوث فى التاريخ الاقتصادى - مقال لوبيز عن طوائف الحرف

ص ١٦٠ .

التجارية والمجالس النيابية (١٦٨) . وفي مصر جمعت أحيانا طائفة التجار والصناع نقابة واحدة ، اذ كان الصانع يبيع ما يصنعه بنفسه ، مما أدى الى أن تمارس نقابة الحرف التجارية مهمة التفتيش لصالح الحكومة على الصناع . وعلى أية حال فإن هذه الطوائف اندمجت في اتحادات عامة ولم يبق للطوائف القديمة سوى ظل من الأثر وهذا الانتقال لم يأت فجأة ولكن تدرج تلقائيا ما بين القرنين ١٤ ، ١٥ م . ونقابة تجار الكارمية في مصر في العصور الوسطى مثال واضح لهذه الهيئات الأهلية المشرفة على تجارة الشرق ، وهم يكونون اتحادا طائفا مغلقا يجمع أفرادهم ولا يقبل غيرهم . وسعوا الى تكوين هذا الاتحاد ، لأن فردا واحدا مهما بلغت قدرته لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل بمفرده . كما أنها كانت تنظيما عائليا يعبر من الأب الى الابن وهم يدرّبون أبناءهم على هذا العمل من صغرهم (١٦٩) .

ومن هذه الهيئات الأهلية كذلك « نقابة المنتجين » ، وهي تمثل اتفاقية بين بعض التجار لغرض التحكم في الأسعار العامة ، بالدفع أو التثبيت لتحقيق أعلى ربح ممكن للهيئة ولأعضائها ، ولو على حساب البلاد المنتجة والشعب المستهلك ، وهي التي عرفت باسم « هيئة الكارتل » ، وهي في الواقع نوع من الاحتكارات تتحد فيها عدة شركات لمصالح أفرادها . وظهرت هذه « الكارتلات » الانتاجية في فلورنسا وبين هيئة تجار « الهانسا » وشملت عملياتها التجارية الملح والشب وقد أصاب هذه الهيئات التدهور في فترة الازدهار الذي نتج عن وصول السلع الشرقية بكميات وفيرة ، بأسعار رخيصة لأوروبا

— Webster, Op. Cit. p. 498.

(١٦٨)

— Henry, Higgs, Dictionary of Political Economy.
Vol. II. : Matter : «Gild & gild Merchants»

(١٦٩) الميرزى : السلوك ج ٢ ص ١٣٢ - ١٣٣ - ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤

ص ٢٠٤ - ٢٠٧ .

Fischel, Op. Cit. (Journal) p. 164-165.

أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر بعد وصول البرتغاليين للهند بحرا (١٧٠) .

نظام الاحتكار التجارى :

لعل من أهم الأسباب التى أضرت بتجارة مصر الخارجية ما لجأ اليه السلاطين الجراكسة فى القرن الخامس عشر منذ عهد السلطان برسباى الى سياسة احتكار التجارة الخارجية بعد أن كانوا قد احتكروا بعض السلع فى التجارة الداخلية ، ويفسر هذا الاتجاه فى الاحتكار التجارى الى حاجة السلاطين الماسة الى المال لكثرة الحملات الحربية من جانب ولتعويض الخسائر المادية التى حلت بهم بسبب اختلال النظام الاقطاعى من جانب آخر . وكان على الدولة أن تعمل جهدها لتوازن ضعف انتاجها الزراعى الذى كانت تعتمد عليه كعمول لماليتها ، فاتجه السلاطين المماليك الى الاشتغال بالتجارة واتبعوا سياسة الاحتكار التجارى لتعويض هذه الخسائر . وبلغت سياسة الاحتكار أشدها منذ عهد السلطان برسباى ، اذ احتكر صناعة السكر وتجارته الداخلية ثم تجارة الخشب والمصنوعات المعدنية (١٧١) . ثم ما لجأ اليه السلاطين من المتاجرة الشخصية فيما عرف باسم «المتجر السلطانى» وفيه تنافس السلاطين بتجارتهم أرباب الأعمال وتحكموا فى أرزاقهم وعملوا لهذه التجارة ديوانا عرف « بديوان المتجر » (١٧٢) . على أن أخطر اتجاه اتجهته الدولة وأدى بها الى نهايتها المحتومة هو احتكارها للتجارة الشرقية مع عدم وجود الخبرة الكافية فى هذا المجال ، فاشتغل السلطان وأمراؤه بالتجارة مع علمه بما قد يجره هذا من مخاطر على

— Jacob, Op. Cit. p. 449. (١٧٠)

(١٧١) ابن اياس : بدائع الزهور ج٢ ص ٢٤٣ .

(١٧٢) المقرئى : السلوك ج٢ ص ٤٤٤ .

الدولة . وكان السلطان الأشرف برسباي قد أغرته المكاسب فتوسع في احتكار التجارة الشرقية ، ففي عام ٨٣٢هـ / ١٤٢٩ م « أمر السلطان بتجهيز مال الى جدة ليشتري به ، وحجز على الفلفل أنه يشتري لغيره ، وألزم جميع التجار ألا يتوجه أحد ببضاعته الى الشام ، ولا غيرها ، بل الى القاهرة ، ولا يباع الا بالاسكندرية بعد أن يكتفى السلطان.. وألزم الفرنج بشراء الفلفل بزيادة ٥٠ دينارا على السعر الواقع . فاشترى الفرنج شيئا ورجعوا بأكثر بضاعتهم وما معهم من النقد الى بلادهم ، فلم يحصل للسلطان مقصوده ، وحصل على التجار من الغلاء ما لا يوصف ، وتمادى الأمر على ذلك ، وظل يزداد في كل سنة شدة (١٧٣) » . ولم يلبث برسباي أن حذر الكارمية من بيع توابعهم الا له ، بعد أن لاحظ التجاوب بينهم وبين التجار الفرنج ، وهو ما يمكن أن يفسر بتجاوب بين البرجوازية الكارمية والبرجوازية الغربية الممثلة في هؤلاء التجار ، وهو بهذا الحظر يجبر تجار الفرنج على شراء التوابل من متجره وبالسعر الذي يحدده (١٧٤) . ثم ما لبث أن أصدر مرسوما أعلن في أسواقه الكبرى في الشام والحجاز والاسكندرية ، أن يبيعها لا يكون الا في متاجر السلطان ، وعاد الى التهديد باجبار الكارمية بشراء التوابل فيما عرف باسم « الطرح » أو « التوابل الشريفة » (على عهد السلطان قايتباي) بسعر يزيد ثلاثين دينارا للحمل من الفلفل عما اشتراه به منهم (١٧٥) .

(١٧٣) ينتقد ابن خلدون هذا العمل من السلاطين ... لانه في هذا مضايقة للتجار وتفسير ذلك أن الرعايا متكاثرون في اليسار ومقاربون في مزاحمة بعضهم بعضا ، وإذا رافقهم السلطان في ذلك وماله عظيم .. فلا يكاد واحد منهم أن يحصل على غرضه في شيء من حاجاته . ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد . ويستطيع السلطان أن يسيطر على السوق بماله ، ولا يوجد من ينافسه في شرائه ، فيبخر ثمن ما يشتريه ويرفع ثمن ما يبيعه » .

ابن خلدون : المقدمة ج ١ ص ٢٨١ (طبعة بيروت) .

(١٧٤) صبحي لبيب : المصدر السابق ص ٤٥ .

(١٧٥) ابن حجر : انباء الفهر ج ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ١ .

على أن سياسة الاحتكار التي وضع السلطان برسباى أساسها، أضحت نظاما اقتصاديا سار عليه خلفاؤه من سلاطين المماليك ، حتى الغورى . وبلغ سعر الحمل من « التوابل الشريفة » السلطانية احتكار السلطان ما بين ١٢٠ - ١٣٠ دينارا ، بعد أن كانت تباع بالقاهرة بسعر ٥٠ دينارا وفي الاسكندرية بثمانين ، مما ضج معه تجار الغرب، واحتجت حكوماتهم ، وعادت سفنهم عدة مرات دون شراء ما يلزمها ، اذ أن عمال السلطان كانوا يجبرونهم على شراء « التوابل الشريفة » قبل حصولهم على حاجتهم من السوق الحر وهو أرخص (١٧٦) . وكثيرا ما كان يؤدي سوء العلاقات بسبب سياسة الاحتكار الى القبض على تجار الفرنج وقناصلهم وحجزهم فى فنادقهم ، أو جرهم الى ديوان الجمرک واجبارهم على شراء « التوابل الشريفة » أولا بالسعر الذى يحدده السلطان ، ويضطر القنصل وهيئة التجار الى الانصياع لرغبات السلطان ، ثم تتوالى البعثات الدبلوماسية والمفاوضات ، وفى عام ١٤٩١ م استقر الرأى على أن يباع قنطار الفلفل بثمانين دوكت، ونص على ذلك فى كل المعاهدات (١٧٧) .

والواقع أن سياسة الاحتكار التى اتبعها المماليك لم تكن فى صالحهم ، ولا صالح الاقتصاد الوطنى ، فقد عجز المماليك عن تقدير الضرورة اللازمة لبقاء طبقة الكارمية فى مكانها ووظيفتها كوسيلة

= شارل ديل : البندقية ص ١٤٥

— Dunbar, Op. Cit. p. 151.

— Wiet, Histoire De La Nation Egyptienne, T. IV. pp. 574-575 576.

— Mauris Op. Cit. p. 185.

(١٧٦) أبو المحاسن منتخبات من محاسن الدهور ج ٢ ص ٢٤٧ .

توفيق اسكندر : نظام المقايضة ص ٤٢ - ٤٤ وملاحظة ص ٤٤ (انظر الفصل الثانى) .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 491-493 & pp. 525-526.

(١٧٧) انظر الفصل الثانى والعلاقات التجارية الخارجية وكذلك بالملحق معاهدات

تريفيزانى الغورى وملاحقها برقم ١٣ وما بعدها .

ضرورة للحفاظ على مكانتهم واستقرار الاقتصاد المصرى . ولم تسيء هذه السياسة الى الكارمية فقط بعد أن أبعدوا نهائيا عن هذه التجارة ليتولواها تجار السلاطين ، بل انها أساءت كذلك الى العلاقات بين التجار الأجانب والدولة الممالىكية ، مما حدا بهؤلاء التجار الى البحث عن طريق آخر للتجارة الشرقية وتم ذلك عام ١٤٩٧م ، وان لم يكن الاحتكار هو السبب الوحيد لاتجاه الأوربيين لطريق آخر غير مصر (١٧٨) .

الراسمالية فى النظام التجارى :

يرجع المؤرخون ظهور النظام الرأسمالى فى تجارة العصور الوسطى الشرقية والغربية الى القرن الثالث عشر ، ورائده فى مصر التاجر الكارمى ، وفى أوروبا التاجر الايطالى ، ويؤيد هذا الرأى غنى تجار الكارمية الفاحش ، ومعوتتهم للسلاطين فى تجريد الحملات الحربية

(١٧٨) سعيد عاشور : العصر الممالىكى ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

سبحى لبيب : المصدر السابق ص ٤٣ .

منذ عام ١٤٥٥ والتجار الكارمية لا يظهرون بكثرة فى الأسواق حتى أنهم عام ١٤٨٤ لم تذكر المصادر عنهم شيئا وان ذكر بدلهم بعض تجار السلطان ، مثل دابن عليهه الذى أسره الفرنج مع بعض التجار عام ٨٨١ هـ / ١٤٧٦ م .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٥ (طبعة كالة) وكذلك ص ٢٠٢ - والواقع أن الكارمية منذ ذلك الوقت وهم مجرد موظفين لدى السلطان أو مندوبين له بالأسواق يكسبون عيشهم فى ركابه بعد التحكم فى مصيرهم ، واختار السلطان بدلهم بعض أفراد من العائلات الكبيرة ، الا أن جهدهم اقتصر على حدود وظيفتهم لقللة خبرتهم ثم داهم مصر وصول البرتغاليين للهند ومنع جلب الرقيق بسبب حجز العثمانيين لهم والنزاع المسلح على الأطراف الشمالية . واقتصر عمل التجار للسلطان على الأسواق المحلية ويبرز هذا ابن اياس فى وصف مصر قبل الفتح العثمانى من أن التجار أحد اثنين أما تاجر لحوم يسمى لجلبها من البلاد المختلفة وأما بائع لها يوفرها لسكان القاهرة مما يدل منه على انهيار مكانة التاجر المصرى .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٢٠ و ٣٣٩ و ٤٨٠ (طبعة كالة) .

واقراضهم بهم الأموال أحيانا (١٧٩) . وكانت فترة الحروب الصليبية بالنسبة للأوربيين أفضل فترات ثرائهم وظهور الرأسمالية البرجوازية بينهم ، وعاصرت ظهورها في مصر على يد الكارمية الذين بجهودهم حملوا متاجر الشرق ، والايطاليون ببراعتهم نقلوها للغرب وكون كلاهما من البيع والشراء ثروات ضخمة. والرأسمالية البرجوازية الغربية الممثلة في التاجر الايطالي كافحت سياسيا ودينيا عداء البابوية لها ، وأعلن البنادقة صراحة أنهم تجار قبل أن يكونوا مسيحيين ، وفشلت جهود البابوية في أثنائهم عن التعامل مع مصر ، كما فشلت في أغراضها من الحروب الصليبية ، مما أكد لها أن قوة مصر دعامة لتجارتها ، وان هذه التجارة تعتمد الى حد كبير على جهود الرأسمالية الكارمية . لذا استمرت سياسة أوربا التجارية حتى أواخر العصور الوسطى قائمة على اجتلاب ود الممالك لاستمرار التجارة واستمرار الحصول على المزيد من الاعفاءات والامتيازات التجارية . ومن ناحية سلاطين الممالك فهم يستجيبون لهذا بالقدر الذي تبديه هذه الدول من حسن النية والرغبة في المتاجرة ، بل أكثر من هذا ظلت العلاقات ودية كذلك بين الكارمية كتجار والأوربيين وهيئاتهم التجارية ، بل قامت بينهما شركات مقارضة رأس المال فيها للكارمي والجهد للأوربي (١٨٠) . وقد صاحب ظهور

(١٧٩) «تذكر المراجع العربية أسماء عشرات التجار الكارمية واسمى الثراء ، منهم ناصر الدين محمد بن مسلم الذي بلغ رأس ماله عشرة ملايين دينار ومات وهو لا يعرف قدره» .

ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٥٠ .
 ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٠٥ - ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤١
 ابن اياس : بدائع الزهور ج ١٠ ص ٣٠٢ - ٢٢٩ - ٢٣٠ .
 أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٢٧١ - ٢٧٢ .
 المقرئ : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ .

(١٨٠) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ - ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٠٢ .
 أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

الرأسمالية فى الشرق والغرب ونموها حتى نهاية العصور الوسطى
أمران : الأول تكديس رؤوس الأموال على شكل نقد وبيع ثم قيام
جهود مطردة للتنافس وتحسين أساليب التعامل المالى فى الأسواق .
والثانى قيام حركات مضادة للرأسمالية البرجوازية التجارية فى أوروبا
ومصر (١٨١) . ففى أوروبا وقتت البابوية موقف العداء الصريح
للرأسمالية ، اذ طبقت الكنيسة تعاليم المسيحية بصورة دقيقة وحازمة
ضد الرأسمالية ، فالبرجوازيون عندها يمثلون طبقة بغيضة
قد لا تقل بغضا عن طبقة الكتبة والفريسيين فى عصر المسيح عليه السلام
والذين طردهم من الهيكل قائلا : بيتى بيت صلاة يدعى وأنتم جعلتموه
مغارة لصوف . وهى فى نظر الكنيسة تمثل طبقة عباد المال بكل
مساوئها ، كما أنهم طبقة نامية خطيرة بالنسبة لمركز رجال الدين
السياسى الذين خشوا منهم على مركزهم السامى بين أفراد الشعب .
أما فى الشرق فقد وقتت السلطات المماليكية موقف الغيرة من تجار
الكارمية الذين يمثلون الرأسمالية البرجوازية ، ثم موقف المصالح
الخاصة بعد أن انهار النظام الاقطاعى الذى قام عليه النظام المالىكى .
وتطلع المماليك الى تجارة الكارمية واحتكارها مما أدى الى فقدانهم
مراكزهم وصفتهم ليندثروا فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر .
ويؤرخ هذا أيضا بداية الانهيار فى التجارة المماليكية الذى أدى فى
النهاية الى انهيار الدولة نفسها بعد أن وصل البرتغاليون الى الهند
بحرا . الا أن ظهور البرتغاليين فى الهند والذى أنهى دولة المماليك فى
مصر والشام والتى أنهت بدورها برجوازية العصور الوسطى قائلها
غير ذلك فى أوروبا . فان النهضة الايطالية وما صاحبها من ظهور
القوميات فى أوروبا وحركات الاصلاح الدينى أواخر القرن الخامس
عشر وأوائل القرن السادس عشر ، قد حد من سلطة البابوية الكبيرة

— Poston, Op. Cit. II. pp. 320, 321, 322 324.

فى الشئون الدينية والسياسية وأوقف محاولاتها للقضاء على الطبقة البرجوازية الأوروبية النشطة التى لم تندثر بل ازدهرت لتبلغ أوجها فى عصر الثورة الصناعية (١٨٢) .

المعاملات المالية فى التجارة :

النظام المصرفى :

وقد اقتضى تطور الأعمال المالية والتجارية فى العصور الوسطى ، تأكيد أهمية وجود المصارف فى المعاملات المالية وكان لمعظم الجمهوريات الإيطالية التجارية فى القرن الثانى عشر بنوك ضخمة لها فروع فى كل أنحاء مراكز نشاطهم التجارى فى الشرق والغرب ، عملت على تسهيل التعامل المالى والتجارى النقدي وغير النقدي بالسندات وخطابات الاعتماد بالشيكات والاستبدال النقدي ، ومارست البنديقية وجنوة هذه العمليات منذ أواخر القرن الثانى عشر (١٨٣) . كما أسهمت أشهر عائلات البنديقية البرجوازية بنصيب وافر فى نمو الحركة

(١٨٢) الحقيقة ان البرجوازية المصرية المثلثة فى التجار الكارمية فى العصور الوسطى عجزت عن الدفاع عن نفسها أو الوقوف فى وجه انتزاع التجارة منها بعكس البرجوازية الأوروبية ويرجع ذلك لعدة عوامل أبرزها قوة المالك وتحكمهم فى البلاد ونجاحهم الرائع فى القضاء على مغول الشرق وصليبي الغرب ، وهم وإن كانوا فى الحقيقة يدافعون عن كياناتهم وحياتهم ومصالحهم الخاصة ، فإنهم ضحوا بها بهذه الطريقة عندما أفسدوا الحياة الزراعية بعكس ما حدث فى أوروبا التى استطاع برجوازيوها الدفاع عن أنفسهم ومصالحهم ضد الامبراطورية والبابوية وساعدهم فى ذلك تطور الأحداث ونمو القوميات فى أسبانيا والبرتغال التى بدأت تنفوق بحريا لتكفل هذا التفوق بالوصول للهند بحرا وتحويل تيار التجارة من البحر المتوسط للمحيط الأطلسى .

انظر : صبحى لبيب : المصدر السابق ص ٥٠ و ٥١ و ٥٢ .

(١٨٣) من ذلك أيضا أن البابا انوسنت الرابع عهد الى بنك البنديقية عام ١٢٦٤ فى تحويل مبلغ ٢٥٠٠ مارك فضة لاحد رجال الطبقة الوسطى البرجوازية فى فرانكفورت .

— Depping, Op. Cit. II. pp. 175.

— Mailet, Op. Cit. p. 138.

الاقتصادية التي شملت العالم في القرنين الأخيرين من العصور الوسطى من بينها ييوت الأخوة مورسينى أكبر ييوتات التجارة في البندقية ، وعمت بنشاط فروعها في الشرق على تطوير عمليات المصارف والتعامل المالى ، فكان لها فروع في قبرص وبيروت وحلب ودمشق (١٨٤) .

وأسهم الجنويون واللومبارديون، وكذلك الفلورنسيون في مصر والشام والدولة البيزنطية والدولة العثمانية في هذه العمليات المصرفية، وفي الوظيفة المصرفية بنشاط وافر ، فكانوا يستبدلون العملات ، ويتاجرون في التوابل والسلع الأوربية بالنقد والأجل ، ويتقبلون الودائع وصكوك «شيكات» الدفع ويتساهلون في منح القروض ، للعملاء (١٨٥) . واعتبرت عمليات الصياغة واستبدال النقد كذلك بداية الأعمال المصرفية ، حتى انه أواخر العصور الوسطى عرفت أنواع من الشيكات والحوالات المالية تسحب مقابل ودائع معينة من المعادن الثمينة (١٨٦) .

ولم تكن الأعمال المصرفية حدثا جديدا بشرق البحر المتوسط ، فقد عرفت منذ أن كان للمسلمين دول ، وفي الشام والعراق ومصر . فكان لبلاط الخليفة أو السلطان صرافان رسميان ، في حين أن النظام المصرفي في أوروبا لم يتطور الا خلال الحروب الصليبية بعد أن نقله الأوروبيون عن الشرق العربي (١٨٧) . وقد لاحظ الرحالة ناصر خسرو

(١٨٤) شارل ديل : البندقية ص ٦٥ .

— Jacob, Op. Cit. p. 443.

(١٨٥)

— Allan, Op. Cit. p. 279.

« من أشهر هذه المصارف في فلورنسا Bardi & Peruzzi وفي البندقية Tiepolo وفي جنوة بنك St. George الذي كان أعظم بنوك العصور الوسطى قاطبة وخاصة بفروعه على البحر الأسود . »

— Horn, Op. Cit. p. 82, 83.

(١٨٦)

— Fischel, Jews in the Economic p. 12.

(١٨٧)

فى القرن الثانى عشر حين أشاد بمدينة أصفهان أن بها ما لا يقل عن مائتى صراف رآهم فى سوق لهم يسمى سوق الصرافين (١٨٨) . وكان التعامل المالى بها يجرى على يد الصيارف ، فيعطى التاجر المال للصراف ، ويحصل منه على صك بما دفعه ، وكلما اشترى بضائع سدد ثمنها بهذه الصكوك محولة على الصراف ، وهى ما تعرف الآن باسم الشيكات المحولة . ويبدو أنها كانت أرقى ما وصلت اليه المعاملات المالية فى الدول والولايات الاسلامية (١٨٩) . وقد نقل الأوريسون هذا النظام ليتطور الى نوع من التعامل المالى الأرقى ، وفيها يضمن المتعامل وصاحب رأس المال حقوقه بلا عناء ، ومن هذه الأنواع السفتجات المتطورة وخطابات الضمان والسندات وأذون الدفع (١٩٠) . كما أنهم كانوا يسجلون هذه الأوراق المالية لدى الموثقين العموميين فى سجلات التوثيق ، والوثائق التى وصلت اليها من العصور الوسطى تعطينا فكرة عن نظامها ، فهى تارة بخط أصحابها، وتارة بخط الموثقين. وقد لجأ أصحاب العمليات المالية الى الموثقين الرسميين لكتابة سنداتهم، برغم معرفتهم الكتابة ، حتى تكون الصيغ القانونية خالية من الأخطاء، وغير قابلة للطعن أو النقص (١٩١) . وقد عرف الشرق منذ وقت بعيد نظام دفاتر أو سجلات الحسابات ، بل ان القضاء الاسلامى اعتبر دفاتر المالىين حججا على أصحابها من تجار وصيارف لاتقبل النقص (١٩٢)

(١٨٨) ناصر خسرو : الرحلة ص ١٢٨ .

(١٨٩) منز : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٢١ .

(١٩٠) — Lopez, Op. Cit.

عن الكمبيالات وثيقة ١١٨ ص ٢٣٢ و ٢٣٣ عن خطابات الضمان الائتمانية وثيقة ١١٩ ص ٢٣٣ و ٢٣٤ وعن السندات وثيقة برقم ١٢٠ ص ٢٣٤ وعن أذون الدفع وثيقة برقم ١٢١ ص ٢٣٤ و ٢٣٥ وثيقة ١١٧ ص ٢٣٠/٢٢٩ .

(١٩١) ص ٢٣١ وثيقة ١١٥ ، وثيقة ١١٧ ص ٢٢٩ و ٢٣٠ .

— Lopez, Op. Cit. pp. 229, 230, 231

(١٩٢) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ١٣٢ .

وقد ساد شرق البحر المتوسط التعامل بالسندات المالية والقراطيس، بعد أن بدا للناس أنها أفضل الوسائل لحماية أموالهم التي جنوها من التجارة وخاصة الشرقية. وكانوا يخشون في كثير من الأحيان مصادرات الولاة لهذه الأموال فيما عرف في العصور الوسطى باسم « مصادرة الربيع الخاص » وانتشر هذا النوع من المصادرة في مصر المالكية، وخاصة في القرن الخامس عشر، لحاجة السلاطين الى الأموال للحرب أو لتقويم النظام الاقطاعي. فعمد الناس الى ايداع أموالهم لدى كبار التجار للمتاجرة فيها، وهؤلاء التجار هم في نفس الوقت القائمون بالعمليات المصرفية، ولهم مباد خاصة بهم هي المصارف. ويمسك المصرفيون دفاتر خاصة بالحسابات الرسمية للحكومة وغير الرسمية للعملاء (١٩٣) ومن أشهر صرافى العصور الوسطى فى الشرق الاسلامى : اليهوديان يوسف بن فنياس وهارون بن عمران (١٩٤). ومن هذه الأنواع أيضا نظام «السندات المالية المحولة للغير» التي اقترن ظهورها بزيادة النشاط التجارى، وكان المسلمون أسبق من الغربيين فى استخدامها وسندات هذا النوع قد تكون مؤجلة الدفع ولكن ترد دفعة واحدة. وقد تكون مقسطة وهنا تدخل ضمن نظام «خطابات الاعتماد الائتمانية» وردها مقسطة يتطلب استخدام الشيكات المصرفية المعروفة باسم السفتجات. وهذه الطريقة المالية - بالإضافة الى صفتها المصرفية - فهي أضمن طريقة لحفظ المال من الضياع أو المصادرة، ويتولى هذه العمليات المصرفيون. وأصبح بإمكان التجار ايداع مالهم لدى صيارف البنوك ويحصلون على سندات بقيمتها واجبة الدفع، للمكان القاصدين اليه. ولعب اليهود فى هذا المجال دورا هاما، بل انها كانت فى غالب الأحيان من أهم اختصاصاتهم

(١٩٣) ابن حجر : نفس المصدر والورقة ، وكذلك انظر

— Lopez, Op. Cit. p. 213. DOC. 103.

— Fischel, Op. Cit. pp. 12-13-14.

(١٩٤)

لمعرفتهم باللغات الشرقية والغربية ، ثم مارسها عنهم العرب حتى أواخر العصور الوسطى . وتعدت هذه العمليات النواحي التجارية الى المعاملات المالية الشخصية (١٩٥) . وفي مصر استخدم تجار الكارمية هذه الوسيلة فى المعاملات المالية والتجارية ، وعرفوا التعامل بالنقد والائتمان المصرفى فى نقل الأموال ، وعقد القروض للسلاطين فى مصر ، والملوك فى اليمن ، وفى بلاد التكرور (١٩٦) . واستلزمت عملياتهم المالية والتجارية ايجاد « مصرف عام » لهم (١٩٧) . وفندقهم بالقاهرة يقوم بهذه العمليات المالية ، كما كان فندق بلال يؤدى هذه الوظيفة فى حدود معينة (١٩٨) . كما كانت بنوك الكارمية تمنح القروض للسلاطين (١٩٩) والأفراد (٢٠٠) . لقاء خطابات الضمان ،

— Fischel, Ibid, p. 17.

(١٩٥)

(١٩٦) أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٢٧١ و ٢٧٢ (دار الكتب) .

ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٠٥ .

— Fischel, Journal, Op. Cit. p. 170.

— Fischel, Op. Cit. Journal, pp. 169, 170 & Ency. Of Islam, 11, Art. Egypt. (١٩٧)

(١٩٨) المقرئى : الخطوط ج ٣ ص ١٥٠ وما بعدها «بخصوص فندق بلال يذكر المقرئى أن إرباب الأموال كانوا يودعون فيه سلمهم وأموالهم ويقول «كنت أدخل فيه فإذا بداه صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير ولا يفصل عنها من الفندق سوى ساحة صغيرة بوسطه تشتمل على صناديق من الذهب والفضة ما يجلب وصفه » .

(١٩٩) اقترض الكارمية « برهان الدين المحلى » و «شهاب الدين مسلم» و «نور الدين الخروبي» السلطان برقوق مليون درهم لدفعه تيمورلنك ١٣٩٤ واستلموا من بيت المال صكوك ضمان بالمبالغ على خزانة الدولة على هيئة صكوك أو مساطير كتبها بخطه وبضمانة الاستادار محمود بن على .

أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٧٧/٢٨٦ (طبعة بوبر (كاليفورنيا) .

المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

ابن حجر : انباء الفجر ج ١ ص ٣٦٥/٣٦٦ .

(٢٠٠) حجز السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ١٢٨٧/٦٨٧ م بعض أثرياء ، دمشق الى القاهرة وألزمهم بدفع غرامات ضخمة ورفض اطلاق سراحهم الا بعد الدفع ولما كانوا لا يملكون المال المطلوب وخوفا من أن يعودوا الى دمشق ويتهربوا من الدفع حث السلطان تجار الكارمية على منح قروض ضمان بالمبلغ لهؤلاء التجار على أن يردوها لهم لدى =

كما تضمن هذه البنوك عمليات المقارضة بين الكارمية والأجانب (٢٠١) وعرفت كذلك عمليات التمويل التجارى بالسندات المالية « المؤجلة الدفع » على آجال طويلة أو قصيرة ، فقد لجأ التجار المصريون والشاميون الى هذه العمليات ، لاماكان استغلال جزء كبير من رؤوس أموالهم فى التجارة ، ويتم التسديد فى معظم الأحيان بعد البيع ، وقد اقتبسوا هذا النظام من تجار الغرب الوافدين الى مصر والشام ، ويرد التاجر أصل المال وربحه بعد البيع وضمانا لصاحب رأس المال المقرض ، فانه يسحب شيكات أو سفتجات على المقرض ، ويقوم بعملية تحصيل المبالغ المطلوبة الصيارف لقاء مرتبات أو عمولة (٢٠٢) وهذا النوع من الشؤون المصرفية لم يقتصر على أفراد الشعب ، بل انتفع به رجال الدولة الذين لجئوا الى المصارف والتجار للاقتراض بآجال طويلة وبالقسط مع فائدة معينة ، وصاحب رأس المال هنا أيضا يعطى الصراف الأذونات ليقوم بتحصيلها لحسابه

= عودتهم لبلادهم • ودفع الكارمية المبلغ بعد أن حصلوا على صكوك بمديونية لصالحهم من هؤلاء التجار والزمهم القاضى بكتابة هذه المساطر بالمبالغ المقرضة خوفا من الا يؤدون ما أخذوه بعد عودتهم •

(٢٠١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ •

(٢٠٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور (مخطوطة) ص ٣٣٢ انظر ما قبله ملاحظة ٤٠ •
— Maillat, Op. Cit. p. 142.
— Maurice, Op. Cit. p. 187.

المصرفى هو فى الشرق الاسلامى الجهيد وجمعها جهابذة وهو خير المال ، والتجارة مما وهو يكتب الشيكات والسفتجات ويتقاضى على قيامه بالعمل المصرفى عمولة بمعدل درهم لكل دينار ونسبتها حوالى ٦٦٪ ويرجع أن السفتجات التى يكتبها الجهيد ، وتختص بالدفع المؤجل ، هى التى تعرف الآن باسم (الشكك Shukuk) ومنها كلمة شيكات Cheques
— Poston, Op. Cit. II, p. 285.
— Fischel, Jews pp. 24-25.

يذكر الدكتور عبد الرحمن فهمى : «النفود العربية ، ماضيها وحاضرها ص ٨٣» ان الظروف المالية استدعت تداولاً أسرع وأعظم للعملة فابتكرت الأوراق المالية الخاصة بقيد ما للتعامل من حساب فى المصارف credit وصار للهيئات مصارف للايداع والتسليف واستعملوا لذلك الصكوك : الصك كلمة عربية من أصل فارسى أخذها الأوربيون عن العرب فأصبحت فى الانجليزية باسم Check •

نظير جعل معين ويستفيد من هذه العملية المقرض والمقرض
والمصرفي (٢٠٣) .

وعرف كذلك في العصور الوسطى نظام بنوك الودائع للتسليف
على ودائع عينية وبضامنها ويلجأ إليها التجار إذا احتاجوا الى أموال
اضافية لتجارتهم . ووجدت أمثلة منها في برشلونة وجنوة وفيرونا
بايطاليا (٢٠٤) . وفي مصر كان فندق بلال يقوم بهذه العملية الى
جانب وظائفه المالية الأخرى ، ووظائفه التجارية والاسكانية (٢٠٥) .

وبخصوص الفوائد على المبالغ المقرضة للاستثمار التجاري
أو القرض بصفة عامة فإن قوانين الكنيسة كانت تحرمها في أوروبا في
العصور الوسطى ، الا أن المتعاملين كانوا يتحايلون لتفادي قرارات
التحريم فضمنوا عقود الصرف أرباحا مستترة ضمن المال الواجب دفعه
كأنه أصل الدين ، وبهذه الوسيلة لا يمكن معرفة قيمة الفوائد . وزيادة
في الحرص كان يذكر في العقد المبلغ الواجب دفعه خارج الوطن والمبلغ

(٢٠٣) «استدان الوزير العباسي علي بن عيسى مبلغا من المال من بعض التجار على هيئة
قرض قيمته ١٠٠٠٠٠ دينار ، وكان الضمان هو خطابات أو أذونات تحويل «سفتجات»
تدفع في مواعيد محددة من كل شهر بفائدة ١٪ من الغضة لكل دينار بحيث تصل الفوائد
شهريا الى ٢٥٠٠ درهم وقد تم الاتفاق على ذلك بحضور اليهوديان المصرفيان الجهبذان
يوسف بن فنياس وهارون بن عمران صرافى القصر ووكلاهما ومدة القرض ١٦ سنة في
حياتهما وبعد موتهما» .

— Fischel, Jews, Ibid, pp. 21-24-25-26.

— Poston, Op. Cit. II. p. 287.

(٢٠٤) بلغت أرباح القروض في فيرونا عام ١٢٢٨ م ١٢٪ وفي مودينا ١٢٧٠ م ٢٠٪

— Allen, Hist. of Civilisation, p. 379.

وكذلك انظر عقد ايداع وثيقة رقم ١٠٣ من لوبيتز ص ٢١٣ .

(٢٠٥) يذكر المقرري أن فندق بلال كان مصرفا للودائع كذلك - انظر قبله وكذلك

المقرري : الخطط ج ٣ ص ١٥٠ وما بعدها .

انذى يستحق داخل الوطن لتفادى ما يحدث عند تغيير العملة ، وفى كلتا الحالتين يستتر الربح أو الفوائد ضمن أصل المبلغ المطلوب رده (٢٠٦) . وفى الشرق الاسلامى تحرم الشريعة الحصول على فوائد للأموال المقرضة ، وان كانت تجيز الربح المشترك فى الأموال المستثمرة فى التجارة ، وتحرم العقيدة تحريما قاطعا أرباح الربا مهما تكن أو التى يشتمل فيها رائحة الربا المستتر . وقد ورد فى كتب بعض الفقهاء فى الدولة العربية الاسلامية أنه ليس عيبا أو محرما أن يدفع أحد الأفراد اضافة المال عليه بشرط أن يكون ذلك بمحض اختياره ، ولا يفرض عليه أى كتابة . ومع ذلك ظلت الاضافات قائمة على فوائد الأموال المقرضة ، وتشدد البعض ليشمل التحريم كذلك فوائد القرض المستثمر فى التجارة ، وان كان الغرب المسيحى اعتبر أن ربح رأس المال المقرض للاستثمار التجارى أمر لا غبار عليه ، ونال التجار فوائد لأموالهم ، فى حين أن اليهود لم يقيموا هذه الاعتراضات على المبالغ المقرضة سواء أكانت للأغراض الشخصية أم للاستثمار التجارى (٢٠٧) . وذكر مثلا أن أحد الأثرياء يعطى للتاجر مبلغا من المال ليتاجر به ، أو يعهد اليه بتجارته لتسهيل تسويقها ، ويكتب عليه الصك أمام الكاتب العمومى الرسمى (وهو يقابل الموثق فى الغرب) - وله صفة رسمية ، ويبدأ التاجر فى المتاجرة أو توزيع السلع المعهود اليه بها ، ويمر عليه صاحب المال يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، أو أى وقت

— Lopez, Op. Cit. pp. 162-163 & 169.

(٢٠٦)

وثيقة ٧٥ ص ١٦٥ ووثيقة ٧٦ ص ١٦٦ ووثيقة ٧٧ ص ١٦٦ ووثيقة ٨٠ ص ١٧١ وكذلك وثيقة ٧٢ ص ١٦٢ وكذلك وثيقة ٧٣ ص ١٦٤
منز : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

— Poston, Op. Cit. II. p. 286.

(٢٠٧)

عند العرب يباح ربح المتاجرة فى عقود المضاربة أو القراض والتى فيها يدفع احدهما مالا يتجر به الثانى والربح بينهما بالنصف أو الثلث أو الربع ويسجلون هذا فى عقود توصية ، أما اذا كان الربح كله لصاحب رأس المال والخسارة عليه فالشريك بالجهد أجير ، ولا تعتبر مقارضة ولا مضاربة ، بل هو وكيل لصاحب رأس المال بالأجر .
الجزرى : تاريخ الفقه على المذاهب الأربعة . ج ٣ ص ٤٣ .

يحدد فى الصك ليحصل على نسبة من الأرباح ، وكانت تتراوح أحيانا ما بين ١٢ر٧٪ من أصل رأس المال ، وعند توافر المبلغ يرد لصاحبه نقداً أو مؤجلاً بأقساط السفتجات (٢٠٨) .

وبخصوص الأموال المقرضة للاستثمار التجارى ، فقد انتشر نظامها فى شرق البحر المتوسط وغربه فى العصور الوسطى وهو ثمرة التطور البطيء فى النظم التجارية والمصرفية الوسيطة وعرف نظامها باسم نظام « عقود التوصية » وعقد التوصية يحمل فى طياته معنى « الشركة » ، وإن كان أقرب ما يكون للقروض العادية ، والعلاقة بين الطرفين تشبه العلاقة بين « المقرض والمقرض » ويحدد العقد لمدة رحلة واحدة وينتهى بعد إعادة المبلغ ، وتقسم الأرباح والخسائر بنسب حسب ما يتفقان عليه . وعقود التوصية فى العصور الوسطى شرقا وغربا ، كان الشريك الأول فيها يشترك برأس المال كنه ، والشريك الثانى يشترك بالجهد ، وسادت نسب الربح فى فترة ما ٢ - ٣ ، والأكثر للتاجر الشريك المتنقل وكفى الآخر رأس ماله وربح معقول (٢٠٩) .

(٢٠٨) منز المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ - وصل الربح فى بعض المناطق حوالى ٢٠٪ ومارسه اليهود والمسيحيون وبعض المسلمين .

وبخصوص التاجر الذى يمهّد بتجارته لسماسرة لتسويقه قصة الشاب الذى نزل قيصرية جركس وقابله شيخ السماسرة ونصحه بأن يمهّد بتجارته للسمسار ويستخدم كاتباً وشاعداً وطوافاً ويحصل على أرباح تجارته يومى الخميس والاثنين من كل أسبوع نظير عمولة لكل مستخدم منهم ويحصل هو بعد ذلك على رأس ماله وربح بنسبة قطعتين من الفضة لكل قطعة ٠ - لين بول : سيرة القاهرة ص ٢١٩ .

— Clerget, Op. Cit. p. 307.

— Maurice, Op. Cit. p. 187.

— Lopez, Op. Cit. p. 174.

— Maillet, Op. Cit. pp. 136-137.

(٢٠٩)

يذكر الجزيرى : تاريخ الفقه على المذاهب الأربعة ج ٣ ص ٤٣ « أن المضاربة أو القرض تعنى أن يدفع شخص مالا لآخر ليتجر فيه على أن يكون الربح بينهما على ما شرط ، والخسارة على صاحب رأس المال ١٠٠ » وعند الغناء « عقد بين اثنين يتضمن أن يدفع =

ويرجع انتشار النظم المالية هذه في التجارة بشرق البحر المتوسط - الى أن السلطات كانت لا تسمح للأجانب بالبقاء في ولاياتها مددا طويلة ، واتبعت الدولة البيزنطية مثل هذا أحيانا بالنسبة للمسيحيين الغربيين الكاثوليك ، لذا لجأ أصحاب رءوس الأموال وكبار التجار الى وسيلة « المقارضة » في شكل عقود توصية كوسيلة لاستثمار الأموال ، وظلت هذه الوسيلة قائمة طوال العصور الوسطى ، وفي أواخرها لم يعد يسمح للتاجر الا برحلة واحدة كل عام تقريبا . خشية ضياع أمواله ، وكذلك للاقلال من الخسائر التي تتعرض لها السفن أو التجارة بالطريق ، لهذا لم يكن بوسع التجار انشاء علاقات تجارية دائمة بهذه العقود (٢١٠) . ومن أنواع هذه العقود . عقد التوصية ذي الجانب الواحد « ويعرف « بعقد التوصية الأصلي » والشركاء فيه اثنان : صاحب رأس المال والتاجر المستثمر ونسبة الربح ٣ - ٤ لهما واستخدم البنادقة هذه العقود بكثرة في تجارتهم مع شرق البحر المتوسط (٢١١) . والنوع الثاني يشترك فيه التاجر المتجول بثلاث

= أحدهما للآخر مالا يملكه فيتجر فيه بجزء شائع معلوم من الربح كالنصف ، أو الثلث ، أو الربع ، أو نحوهما ، بشرائط مخصوصة .

انظر قبله ملاحظة ٢٤ وعقد الشركة بين الكارمي والغرنجي عقد مقارضة .

المقریزی : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

وهو نوع من أنواع عقود التوصية باسم Commanda Contracts

— Poston, Op. Cit. II. pp. 324. (٢١٠)

— Lopez, Op. Cit. pp. 175-176.

— Lopez, Ibid, pp. 175-176. (٢١١)

وثيقة (٨٥) ص ١٧٩ عن عقد توصية ذي جانب واحد) .

وثيقة (٨٩) ص ١٨٢ وفي الشرق العربي اصطلح عند الشافعية امكان استقلال الشريك الوكيل بالتصرف في العمل حسب المصلحة وان عقد المقارضة لا يوقت بمدة معلومة بعكس الغرب حيث كانت العقود لرحلة واحدة والحكومات لا تصرح بأكثر منها خشية مخاطر الطريق . انظر

الجزري : المصدر السابق ج ٣ ص ٤٣ .

ومعروف في الغرب الأوربي في الرحلات البرية باسم Societas Terrea والرحلات البحرية باسم Societas Maris ولكل منها عقود معينة وفيها يبقى صاحب رأس المال في بلدته ويقوم بالجهد برا وبحرا الشريك المتنقل « انظر قبله ملاحظة ٢٥ » .

رأس المال المستثمر وصاحب رأس المال بالثلثين ، والأرباح هنا بنسبة رأس المال لكل منهما أو مناصفة ، كما يتحمل كلاهما الخسائر ، ويعرف هذا النوع باسم « عقد التوصية » ذى (الجانبين) واستخدمه بكثرة تجار جنوة فى تجارتهم مع شرق البحر المتوسط (٢١٢) . ويعمد أصحاب رؤوس الأموال الى استغلال أموالهم بالعقود الفرعية والعقود المزدوجة لأكثر من تاجر فى أكثر من مكان (٢١٣) .

وبخصوص تحويل الوحدات النقدية اشغل الجهابذة فى الشرق ومراقبو النقود المحترفون فى الغرب باستبدال هذه الوحدات بما يعادلها من وحدات نقد أخرى . ويتقاضون فى ذلك عمولة درهما لكل دينار ، أى بنسبة ٦٦٪/ وهم بذلك يقومون بأعمال المصارف فى حدود معينة (٢١٤) .

(٢١٢) — Lopez, Op. Cit. pp. 174-170.

وثيقة رقم ٨٥ ص ١٧٩ — عقد التوصية ذو الجانب الواحد يعرف باسم Collegentia Societas . وثيقة رقم ٨٤ ص ١٧٩ .

(٢١٣) — Lopez, Op. Cit. p. 176 & p. 182 DOC. 89.

ظهرت بعض أنواع غريبة من العقود شاعت فى تجارة البحر المتوسط ، وتبدو غرابتها فى حد ذاتها ، أما لصفاتها القانونية الغريبة وأما لنواحي النشاط التى استخدمت فيها . ومن هذا النوع من العقود والاتفاقيات اتفاق بشأن حروب خاصة كأحد أنواع النشاط الاقتصادى ، فكان يجوز للأفراد امتلاك سفن حربية خاصة بترخيص من الحكومة لغرض شن الحرب بها على العدو وسلب تجارته وسفنه التجارية كما يفعل القراصنة . والواقع أن القرصنة فى العصور الوسطى — كأحدى وسائل اغتصاب ما يملكه الغير — هى فى كثير من الأحيان نوع من أنواع النشاط الاقتصادى ، فكان يجوز للأفراد امتلاك سفن حربية لهذا الغرض . إن حياة المغامرة التى كان يحياها القراصنة كانت فى الواقع لونا من ألوان المشروعات الاقتصادية ، بل إن أعرق القراصنة كانوا رجال أعمال ومن المحاربين فى نفس الوقت ، وكان أغلبهم ينتقل بين القرصنة والتجارة المشروعة ولدينا وثيقة من القرن ١٣ تدل على أنه كيف كان تحول حملة من القرصنة وكيف كان الممولون يتألون أرباحهم عنها .

— Lopez, Op. Cit. p. 221 & DOC 109. pp. 222, 223.

(٢١٤) عملية الاستبدال النقدى لا تحتاج لعقود طالما أنها تستبدل من يد ليد وفى مكان واحد — وقد تحول الصراف فى بعض الأحيان الى مقرض نقود وبضمان الودائع ، وهو يقوم بأعمال البنوك فى نطاق ضيق ولذا كان فى حيازته دائما مبالغ ضخمة لمواجهة طلبات =

تنظيم طرق المحاسبة فى التجارة :

واستلزم التوسع التجارى فى العصور الوسطى وازدياد حجم التجارة بين الشرق والغرب الى ايجاد نظام دقيق للمحاسبات التجارية . وقد عرف هذا النظام بطريقة مبسطة فى الشرق ، الا أنها كانت أساسا لما عرف فيما بعد باسم « دفاتر الأستاذ » ، فعرف الكارمية هذه الدفاتر لتنظيم حسابات تجارتهم ، وذلك قبل الحملات الصليبية ، واعتبر القضاء الاسلامى دفاتر المالىين حججا على أصحابها من تجار وصيارفة وسماسرة . كما كان للخلفاء والسلطين كتاب يمسون لهم حساباتهم ، وكذلك للأفراد التجار العاديين (٢١٥) . ومنذ أواخر القرن الرابع عشر وتنظيم المحاسبة يشمل حساب الدائن والمدين ، ويقيد حساب كل منهما منفصلا عن الآخر فى دفاتر الأستاذ ويخصص لكل عميل من عملاء التجار حساب خاص فى الدفتر ، ثم أضيفت فيما بعد بيانات عن الحسابات غير الشخصية ورءوس الأموال واعتبر بداية لظهور هذه المحاسبات المزدوجة . وفى الغرب يقال ان بداية ظهور هذا النظام الحسابى كان فى جنوة وتسكانيا منذ أوائل القرن الرابع عشر ، وكان بمدن ايطاليا الأخرى دفاتر حساب أستاذ مشابهة ترجع الى ما قبل هذا القرن ، وان كانت الممالك الأخرى أبداً فى استعماله . وهذا السجل فى حد ذاته وثيقة متماسكة الأجزاء كوحدة واحدة .

= الصرف المتزايدة وخاصة فى المدن التجارية والوكالات وأصبح الصراف يعرف بحكم مهنته باسم Banker أو Bankerarius من الكلمة اللاتينية . Bancum وكذلك Trapezita من الكلمة الاغريقية وهي التى كان الصراف يضع عليها نقوده وفى الشرق قام الجهابذة بهذا العمل والأقراض ، بالأرباح والودائع والمتاجرة بالمقود والشيكات وربحه هنا درهم لكل دينار بنسبة ٦٦٪ .

وثيقة ٧٣ ص ١٦٤ من Lopez وكذلك

— Poston, Op. Cit. II. pp. 286.

(٢١٥) ابن حجر : أنباء الغر ج ٢ ص ١٨٢ .

— Ahurice, Op. Cit. p. 187.

وكانت الشركات والبنوك الكبرى من أوائل القرن الرابع عشر تعمل على استخدامه وتحسين وسائل استعماله (٢١٦) .

الضرائب التجارية :

وتعددت الضرائب المفروضة على عصر المماليك الذين قسموا موارد بيت المال الى موارد شرعية وأخرى غير شرعية ، والضرائب على التجارة الداخلية والخارجية ، وخاصة ضرائب الثغور على التجار الواصلين للبلاد ، وضرائب دار سك النقود على العملة الخام الواردة للسك والمواريث البحرية ، وخاصة لمن يقضى من التجار الأجانب في مصر بلا وريث واعتبرت من الموارد الشرعية للدولة ، كما كانت الإيرادات الشرعية تشمل كذلك ما يتحصل من احتكار معادن البلاد وما يتأتى من المتجر السلطاني .

ويتصل بالتجارة في هذا النوع من الضرائب ما يدفعه التجار على ما يدخلونه الى البلد من ذهب وفضة والضريبة هنا حوالي ٢٪ أو ٣٪ في بعض الأحيان وقد نص في المعاهدات مع طوائف التجار الأجانب على وصول كميات معلومة من الذهب والفضة والنحاس لدار سك النقود ، وخصت الحكومة هذه الكمية من المعدن بـضرائب جمركية قليلة « تقل عن الضريبة المفروضة على السلع الأخرى » ، كما فرضت ضرائب نوعية على سبائك الذهب اذا أعطاها أصحابها

Clive, Op. Cit., p. 93.

(٢١٦)

Jacob, Legacy, pp. 442-443.

Lopez, Op. Cit., pp. 359-360 and pp. 47-377.

« ألف بنيدتوكورتوجلي مؤلفا يشرح فيه عملية القيد بدفتر الأستاذ واليومية وتدل
تصوّر القيد بالدفتر على نوع من السجلات الراقية التنظيم والدقيقة والتي كانت أساسا
للنظم الحديثة في المحاسبة . وقد ألف عام ١٤٥٨ وطبع عام ١٥٧٣ - انظر لوبيز : السابق
٣٧٧/٣٧٦ . »

لدار سك العملة لتضرب دنانير عربية لحسابهم بعد ضبط عيارها (٢١٧) .

ومن المصادر الثابتة : الأموال التي تدفع للسلطات على هيئة زكاة واجية ، ودفعها تجار الكارمية دون تدمير أو ملل لتقديرهم السليم لرعاية السلطات المالية لهم ولتجارتهم في البر والبحر ، وضرائب أخرى على أهل برقة الواردين للبلاد بالأغنام والابل عند وصولهم الى البحيرة للرعى (٢١٨) . ثم ضرائب على السلع الواردة الى جمرک الاسكندرية الخاص بالمغاربة ، بالاضافة الى زكاة يدفعونها دون أن يسأل صاحب السلعة هل حال عليه حول أم لا (٢١٩) .

ومن الأبواب الثابتة في إيرادات الدولة ضرائب جمارك الاسكندرية ودمياط والقاهرة وعيذاب وجدة ، وكلها تتراوح ما بين ١٠ - ٢٥٪ من قيمة البضائع الواردة ، وبلغ ما جبي من بعض السفن حوالى أربعين ألف دينار (٢٢٠) . وتخفيض الضريبة الى النصف على تجار المسلمين والمغاربة . وترفع نهائيا اذا وجد أن بلاد المسلمين في حاجة الى نوع معين من السلع المستوردة (٢٢١) .

(٢١٧) توفيق اسكندر : نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية - مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٧ ص ٢٨ .
سميد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٤ - ٢١٥ .
المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٤٤٤ .

(٢١٨) حصل صلاح الدين الأيوبي من تجار الكارمية على زكاة أربع سنين مقدما .
المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٣ ، ٧٤ - أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين .
ج ٢ ص ٥١ - القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٩ وما بعدها .
Fischel, Journal, p. 168

(٢١٦) ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٠ - ٢٥١ انظر قبله في نظام الجمارك وضرائبها .
القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦١ - المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٥١٠ - ٥١١ .
(٢٢٠) المقريزي : ج ١ ص ١٠٩ .
القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٩ - ٤٦٠ .
(٢٢١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٣ .

طرق التجارة الدولية - ٣٥٣

أما مال من يورث وليس له وارث من الوطنيين والأجانب فيحمل
ارثه الى بيت المال . وقد نص في جميع المعاهدات على أن تنفذ وصية
التاجر الأجنبي الذي يموت بالبلاد فتتول تركته الى قنصله ،
والا فتصادر لحساب الدولة . وقد عرف باسم « الموارث الحشرية » ،
ولها ديوان وناظر يولى من قبل السلطان (٣٣٣) .

ويتصل بالضرائب على التجارة موارد غير شرعية ، ويقصد بها
المكوس ، وهى ليست لها سند شرعى ، انما ورثوا فرضها من عصور
سابقة ، وتعرف فى المراجع المعاصرة العربية بهذا الاسم . وتحصل
لديوان السلطان ، أو لأصحاب الاقطاعات ، ومنها ما يؤخذ فى الثغور
البحرية والعربية على التجارة الواردة من الخارج . ومنها كذلك مكس
القوافل التجارية ومكس البهار ، ومكس الفنادق وخاصة فندق القطن ،
وكانت زمن المقرئى تبلغ حوالى سبعين ألف دينار ، كما كانت
تحصل ضرائب على التجارة العابرة (٣٣٣) وقيل فى وقت ما ان الحكومة
كانت تجبى ما يعادل شحنة سفينة عن كل أربع سفن ، وتفرض رسوما
كذلك على التجارة المارة بالحجاز ، ومنها مقايضات البهار ورسم
البهار الوارد للطور من جدة (٣٣٤) . وقد ظلت الضرائب هذه حتى نهاية
عصر المماليك (٣٣٥) .

-
- (٢٢٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٣ .
 - ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٩ .
 - (٢٢٣) سفر نامه : ناصر خسرو ص ٧٢ ترجمة يحيى الخشاب .
 - القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨ - ٤٧١ .
 - المقرئى : المواعظ ج ١ ص ٨٨ و ١٠٣ و ١٠٥ و ١٠٦ .
 - سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٠١ - ٢٠٢ .
 - وانظر قبله ملاحظة ١١٨ .
 - (٢٢٤) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٨ .
 - (٢٢٥) ابن ممتى : قوانين الدولة ص ٣٢٧ (نشر عزيز بسوريل عطية) .
 - القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٩ و ٤٧٠ .
 - المقرئى : الخطوط ج ١ ص ١٠٣ و ١٠٩ .

وقد تحددت السياسة الضرائبية في مصر على أساس أن التجارة هي المصدر الرئيسي لموارد البلاد المالية بعد فساد النظام الاقطاعي المعتمد على الزراعة ولكن مع ذلك لم تذكر المراجع العربية بوضوح قيمة هذه الضرائب وأنواعها الكاملة ، وخاصة المفروض منها على الكارمية في البحر الأحمر باعتبارها المصدر الأكبر ليرادات الدولة . وذكر أن مكس ما أحضره أحد تجار الكارم في سنة واحدة بلغ أربعين ألف دينار (٣٦) .

ويدفع التجار ضرائب على السلع القاصدة اليمن ، مثل الحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون وزيت الحار والزيتون والملح والنقل وعسل النحل ، هي مما تحتاج اليه اليمن ، تدفع هذه الضرائب في القاهرة (٣٧) .

وعلى أي حال فالملاحظ أن السلاطين لم يسيروا على سياسة ضرائبية ثابتة لكي يطمئن التاجر على أمواله وتجارته ، بل خضعت في أحيان كثيرة لتطورات الأمور العسكرية أو المشاكل المالية (٣٨) .

(٢٢٦) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ٨٤ . يذكر المقرئى أن هذه الضرائب وصلت إلى المالك من أيام الأيوبيين .

ابن حجر : الدرر الكامنة ص ٣٨٤ .

Fischel, Journal : pp. 167-168.

(٢٢٧) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ١٠٨ و ١٠٩ .

(٢٢٨) اتجه برسباي عام ١٤٢٧ إلى التشدد في فرض الضرائب على التجار بسبب حملته إلى قبرص. وحصل على مكوس في القاهرة وفي الشام بلغت في مكة حوالى ٣٪ . مع عدم مرور السلع على القاهرة ، وتوجه مباشرة للشام حيث يدفعون عليها مكسا آخر . وإذا مرت على القاهرة حصل عليها على رسوم أخرى .

ابن تفرى بردى : النجوم ج ٤ ص ٦٢٨ (كاليفورنيا) .

نظام الدفع فى المعاملات التجارية :

لما اشتد الطلب فى أوروبا على السلع التجارية الواردة من الشرق الأقصى ، وكثر ورود التجار الأجانب لموانئ ومدن مصر والشام ، وصار لزاما أن ينص فى المعاهدات والاتفاقيات التجارية على تنظيم حسابات الدفع والتعامل المالى ، وقام الأجانب بتنفيذ نصوص الاتفاقيات بدقة لا تقل عما تفعله السلطات المالية الحاكمة . ومع أن الذهب كان قاعدة التعامل المالى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، إلا أنه فى القرن الخامس عشر عادت المقايضة تحتل مكانا بارزا فى المعاملات التجارية بين الوطنيين والأجانب ، ونص عليها كذلك فى المعاهدات باشتراطات معينة .

ولأهمية الذهب فى المعاملات التجارية فى العصور الوسطى ، كانت تقوم به بقية النقود من فضة ونحاس . وفى العصر الممالكى تعرضت العملة الذهبية للتلاعب فى عيارها ، وتغيير وزنها ، وتعديل حجمها ، مما جعلها لا تحوز ثقة المتعاملين من التجار وغير التجار (٢٢٩) . ويعزى الاضطراب الذى ساد العملة الذهبية الممالكية منذ القرن الخامس عشر الى مسئولية بعض السلاطين ، ومنهم السلطان برسباى ، فبعد أن احتكر بعض أنواع المتاجر الداخلية والتوابل الشريفة عمدا الى انقاص معدل العملة ، سواء من الذهب أو الفضة أو النحاس ، مع الاحتفاظ بقيمتها الاسمية ، كما استبعد العملات الأجنبية المتداولة فى السوق ، والتى يجلبها تجار البنادقة وجنوة وفلورنسا ، ثم جمعها

(٢٢٩) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١ يذكر القلقشندى تفسيراً لذلك بقوله « وأنهم جعلوا نقصها نظير كلفة ضربها » .
وبخصوص ظهور نظام المقايضة فى معاهدات أواخر القرن الخامس عشر انظر معاهدة فلورنسا مع قايتباى ١٤٨٨/١٤٨٩ بالملحق برقم (٢٥) من أمارى XLV. وكذلك توفيق اسكندر : المقايضة ص ٣٩ .

بالثمن المخفض ، وأعاد سكها ذهباً بالنقص ، مما ألحق الخسائر المادية بالتجار الأجانب والوطنيين على السواء ، وإن كان قد أضاف إلى الحكومة إيرادات جديدة لمواجهة الظروف الحربية التي ظهرت على عهده (٢٣٠) . وكان بإمكان السلاطين المتعاقبين أن يحجموا عن عمليات انقاص وزن العملة وتغيير عيارها إلا أنهم اتبعوا أساليب السلطان برسباي حتى نهاية عصر الدولة المماليكية . وقد ثبتت قيمة العملة إذ ذاك على ٣٣٨ حبة (٢٣١) . بما يوازي ٣٤٧ من الجرام ، أي حوائى نصف جنيه تقريبا . وعرفت العملة الجديدة « بالدينار الأشرفى » واشتهرت بهذا الاسم حتى عام ١٥١٧ م .

وقد شجعت عمليات التغيير ، نشاط مزيفى النقود المعروفين « بالزغلية » ، ففي عهد السلطان الأشرف اينال عام ١٤٥٣ ثبت سعر الذهب الأشرفى على ٣٣٥ درهماً فى الصرف و ٣٤٠ درهماً فى المعاملة ، والمنصورى ٢٩٥ درهماً و ٣٠٠ درهم فى المعاملة ، وهو الدينار الذى كان قد ضربه السلطان المنصور جقمق (٢٣٢) . ولكن بعد ذلك يومين قبضت السلطات على عشرة من الزغلية لجئوا إلى انقاص وتغيير العملة وتزييفها . وفى محاولة لوقف هذه العملة التى أضرت بالتجار تقرر جمع النقود من الدولة من عهد المؤيد شيخ إلى عهد جقمق ، ثم إعادة سكها ، وتم ذلك عام ١٤٥٨ . ومع أن هذه العملية أطاحت بثروات مزيفى النقود وكشفت طائفتهم ، إلا أن الناس شكوا من سوء سك

(٢٣٠) ابن حجر : أنباء الغرر ورقة ٤٥٤ ج ٢ .

فبيبت : مصر الإسلامية ص ١٠١/١٠٢ (ديفونشير) .

Lane Poole, Egypt in the Middle Ages, pp. 332-342

Clive, Op Cit., pp. 118, 119

(٢٣١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٢ (بولان) .

(٢٣٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور ص ٢٧٨ .

العملة الجديدة ، وفساد عيارها وأساءوا الى ناظر الخاص ظنا منهم أنه المسئول عن ذلك ، وخاصة فى الفضة (٢٣٣) .

وعلى عهد السلطان قايتباى نودى بتشيت سعر الذهب والفضة ، وضرب السلطان فضة جديدة وسعر الدينار الذهب بثلاثمائة والفضة الجديدة كل أشرفى بخمسة وعشرين نصفاً عددية جيدة من خالص الفضة وأبطل سائر المعاملات من الفضة المغشوشة التى كان قد وصل الدينار منها الى ٤٦٠ درهما ، فخر الناس من هذا ثلث أموالهم . وكان السلطان قاسياً مع الزغلية ، فكان يوسط ويقطع كل من يقع فى يد السلطان منهم ، فوقع الرعب فى قلوبهم ، وكان ذلك من أسباب انصلاح حال العملة حتى عهد الغورى (٢٣٤) . وكان ناظر الخاص على عهد السلطان قايتباى قد ضرب فلوساً جديدة ، وقصد أن يخرجها بأعلى من الفلوس العتيقة فثار العامة واستقر رأى على أن تكون الفلوس العتيقة والجديدة بالميزان بستة وثلاثين ، الرطل (٢٣٥) .

وكان عهد الغورى وما صاحبه من اضطراب التجارة الخارجية مجالاً صالحاً للزغلية وفساد العملة ، بل إن دار السك نفسها أخرجت عملة مزيفة لتوفى ما عليها من التزامات . وساد كل أنواع العملة الزغل والفساد « ولم يعد يحل بها بيع ولا شراء ولا معاملة » (٢٣٦) .

(٢٣٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج٢ ص ٥٦ - ٥٧ - ٦١ .
Poliak, Les Révoltes Populaires, p. 252

(٢٣٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج٢ ص ٦١ حوادث عام ٨٦٢ هـ (بولاى) .
(٢٣٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج٢ ص ٢١٠ يذكر الرحالة حارث أنه خلال زيارته للاسكندرية دفع (واحد مدين) Maidine رسم دخول مغارة القديسة كاترين والعملة المذكورة فضية تختلف قيمة ما بها من فضة باختلاف الزمان والمكان - ولدى المواطنين عملات من الذهب . وهى الأشرفى العملة الرسمية وتزن ٥٣ قمحة وتساوى دوقات أو ١٢٠ Aspers والدين المذكور يساوى ٣ من الأشرفى ويسك بالقاهرة .

Harff, Op. Cit.; p. 94 R. 5

(٢٣٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج٢ ص ٥٩ .

ومنذ الوقت الذى اعترى فيه الخلل العملة الممالىكية ، وخاصة الذهب والفضة ، وتعرضت لتلاعب السلاطين والأمراء ثم الرغلية ، بغية الربح ، أو موازنة نفقات الدولة ، استخدمت فى مصر عملة البنادقة المعروفة بالدوقات ، وكانت البندقية تستعمل قبلها الافرتى ، ثم سكت العملة الذهبية خاصة منذ عام ١٢٩٤ ، وتمتاز بوزنها الثابت الصحيح ، وعيارها غير المتغير ، وسمكها المحدد ، مما جعلها تحوز ثقة المتعاملين (٢٣٧) . وتضمنت الأوامر السلطانية والمعاهدات بين الافرنج والممالك فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر اعتبار الدوقات البندقى عملة رسمية ثم الفلورنسية بعد أن زاد تعاملهم مع مصر والشام وكانوا يعلنون عن عملتهم المسكوكة بالقاهرة «أنها على زنة الدنانير الافرتية» بمعنى أن يكون وزنها ثابتا وبزنة مثقال تماما (٢٣٨) . ومع ذلك كانت العملة المصرية تنقص فى أحيان كثيرة عن العملة الأجنبية حسب مقتضيات الظروف ولم تعد تقوى على منافسة الدوقات البندقى فانحطت قيمتها فى الأسواق الحرة عن قيمة البندقى مما حدا ببعض

(٢٣٧) صبيح الأعشى : القلقشندى ج٣ ص ٤٤١ يصف القلقشندى هذه العملية بأنها «معلومة الوزن وكل دينار منها بتسعة عشر قيراطا ونصف قيراط ٠٠ وعلى أحد وجهيها صورة الملك وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس حواريي السيد المسيح عليه السلام ٠ ويمبر عنهما كذلك بالافرتى وأصله افرتى ٠٠ ويمبر عنهما كذلك بالدوقات ٠ وهذا الاسم فى الحقيقة لا يطلق عليه الا اذا ضرب فى البندقية لأن ملكهم اسمه الدوك ، وكان البنادقة قد استعملوا العملة الفلورنسية الذهبية ، وهى الفلورين أو الفرنتى أو الافرنطى ، حتى سكوا عملتهم الدوقات عام ١٢٩٤ ٠

دليل : البندقية ص ٦٦ - توفيق اسكندر : المقايضة ص ٣٨ ٠

(٢٣٨) المثقال هو الدرهم وذائتين ونصف ويساوى ٢٤ قيراطا وهو خمس وثمانون حبة أما الدرهم الشامى فهو ستون حبة النظر - البغدادي : عبد الرحمن نصر بن محمد : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ورقة (٧) مخطوطة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٥٣ ، والملاحظ أن الدوقات البندقى كانت العملة التى يقبلها السلاطين ، ويقال له حتى الآن فى مصر بندقى ، وذاع بجانب الدوقات استعمال العملة الفلورنسية نظرا للعلاقات الطيبة بين مصر وفلورنسا ، ثم صممت الدنانير الممالىكية على مقياس البندقى ، وحملت اسم الدينار المؤيدى ، وسادت على عهد السلطان قايتباى ٠

Dopp, Op. Cit., p. 49

السلطين الى جمعها واعادة سكها بالنقص للارتفاع بفرق كمية الذهب
فزاد التذمر منها (٢٣٩) .

وقد نص فى المعاهدات على تخفيض ضرائب الجمارك على كميات
الذهب الواردة لدار السك ومثل ذلك بالنسبة للسبائك التى تعطى
لدار السك ، ويؤرخ القرن الخامس عشر استخدام السبائك والمعادن
الخام والمجوهرات عملة متداولة وخاصة فى التجارة الخارجية لمواجهة
ازدياد الطلب على السلع الخارجية (٢٤٠) .

أما العملة الفضية وهى الدراهم فكان المفروض فيها أن يكون
ثلاثاها من الفضة والثالث من النحاس ولكن هذا أيضا لم يخل من الغش
منذ أواخر القرن الرابع عشر وطوال القرن الخامس عشر ، وزادت
نسبة النحاس لتصل الى الثلثين والثالث أو أقل من ذلك بالنسبة للفضة،
وفضل الناس استعمال الفلوس النحاسية بدلا منها (٢٤١) . والفلوس
النحاسية هى أقل أنواع العملات مع ذلك لم تسلم من الغش ، وتناولها
السلطين بالنقص والتبديل وأرغموا الأهالى على التعامل بها وفق
القيمة التى تحددها السلطات وكان هذا من عوامل الاضطراب فى
الأسواق (٢٤٢) .

(٢٣٩) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٤٢ - عبد الرحمن فهمى : النقود
العريقة ص ٩٨ .

(٢٤٠) توفيق اسكندر : المقايضة ص ٣٨ .

Heyd, Op. Cit. II, p. 453

Pernaud, Op. Cit., p. 34.

Maillet, Op. Cit., pp. 139-144.

يذكر هارف أن كمية الفضة المسكوكة التى ترسلها أوروبا كل عام لمصر تبلغ حوالى
٣٠٠.٠٠٠ دوقاات سنويا ، وهى تلقى رواجاً عجبياً فى أسواق مصر والشرق عامة .

Harff, Op. Cit., p. XXIV

(٢٤١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٤٣ .

(٢٤٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٤٤ .

المقريزى : اغائة الأمة ص ٤٧ (نشر زيادة) .

المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٧ ، ج ٣ ص ٨٢ - ٨٣ .

نظام المقايضة فى التجارة :

ومنذ أواخر القرن الرابع عشر والعملات الذهبية تشح من المدن الإيطالية ، وتأثرت تبعاً لذلك أسواق مصر والشام ، إذ أن المدن الإيطالية كانت تدفع بها مشترواتها من السلع الشرقية ، وذلك وفقاً لما اشترطته السلطات المالية من أن يكون نصف المدفوع ذهباً ، واستخدم البنادقة فى ذلك الدوكات كما استخدم الفلورنسيون الفلورين ، هذا بالإضافة إلى ما كانوا يجلبونه من الذهب والفضة الخام لسكها بدار السكة بالاسكندرية والقاهرة (٢٤٣) .

وترجع أزمة الذهب التى ظهرت فى مصر والشام منذ القرن الخامس عشر إلى قلة ما يصل من هذا المعدل إلى شمال افريقية من السودان . ففي القرن الثالث عشر تفكك المغرب إلى مدن تجارية مستقلة ودويلات تشبه الجمهوريات الإيطالية ، وأخذ التجار المسيحيون والمغامرون يفدون إليها . وحتى القرن الخامس عشر كانت المغرب هى الممول الرئيسى لذهب الغرب مما أنعش فيه التجارة ، وأدى هذا إلى أن تدفع هذه الجمهوريات أثمان سلع الشرق بالدوكات البندقية وبالأفرتى كما ترد كميات معلومة لدور سك العملة . إلا أنه منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر وتبر السودان يقل ورودها إلى أوروبا من مدن شمال افريقية بعد أن وصل البرتغاليون إلى ساحل غانا عام ١٤٦٠ وبدءوا فى مقايضة الأهالى بسلعهم على ذهب السودان ، وبدأ هذا الذهب يتجه منذ ذلك الوقت إلى المحيط الأطلسى ، وليس إلى البحر المتوسط ، فشحت العملات الذهبية من مدن إيطاليا ، وبالتالى من مصر ، وأدى ذلك إلى حدوث أزمة فى عملة مصر الذهبية (٢٤٤) .

(٢٤٣) توفيق اسكندر : المقايضة (المصدر السابق) ص ٤٣ .

(٢٤٤) توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى (مترجم) المقدمة ص (و) ثم

ص ٨٤ و ٨٥ و ٨٦ .

ولكى يوازن السلاطين بين قلة ورود الذهب وحاجتهم الى المال عمدوا الى تغيير وزن العملة مع الاحتفاظ بقيمتها الاسمية ، كما عمدوا الى الحصول على كميات معلومة من ذهب البندقية الذى لم يتأثر كثيرا لهذا الحادث وظلت على ما هى عليه « ملكة الذهب فى العالم » ، ففرضوا قدرا معيناً من التوابل باسم « توابل الذخيرة الشريفة » ، أو التوابل السلطانية ، ليشتريها البنادقة بعملتهم الذهبية الثابتة العيار والوزن والحجم مع بقاء معاملاتهم مع الأفراد حرة . كما فرضوا عليهم قدرا معيناً من الفضة يوردونه لدار السكة كل سنة ، وفى دمشق كان هذا ٤٠٠ درهم سنويا حتى عام ١٤٧٥ وغرامة ٣ دوكات لكل درهم ينقص عن الكمية (٢٤٥) .

وبخصوص الفضة ، ففي عام ١٤٠٧ سكت البندقية عملة فضية خاصة بتجارة الشام الا أن السلطات الحاكمة والتجار رفضوا قبولها عملة للمتاجرة ، وأصرروا على التعامل بالذهب مما أدى الى تكديس العملة ثم جمعتها البندقية وسحبها من الأسواق ، حتى كان الربع الأخير من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر حين شحت العملة الذهبية والفضية بصورة واضحة ، واضطر السلطان الغورى الى مفاوضة البنادقة وخاصة بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، لدفع ثمن التوابل نخاسا وقد اضطر السلطان الى ذلك لحاجته الى العملة ، واشتداد الأزمة النقدية ، ووضوح الخطر العثماني (٢٤٦) .

أما من ناحية البندقية ومدن جمهوريات ايطاليا فقد عالجت نقص الذهب والعملة الذهبية باستخدام طريقة التعامل التجارى بالمقايضة حتى تتفادى ما يترتب على نقص العملة الذهبية من قلة ما يحصلون

(٢٤٥) توفيق اسكندر : المقايضة (المصدر السابق) ص ٤٥ .

(٢٤٦) توفيق اسكندر : المقايضة ص ٤٥ .

Horn, Op. Cit., pp. 78-81.

عليه من التوابل والسلع الشرقية ، وفي معاهدات القرن الخامس عشر ذكرت بنود تنظيم عملية المقايضة ، وكانت قبلا تصدر على شكل أوامر سلطانية فردية ، حتى اذا ازدادت الأزمة في أواخر القرن الخامس عشر، نص في المعاهدات على اعتبارها إحدى نظم عمليات الدفع في التجارة (٢٤٧) .

والواقع أن نظام المقايضة في التجارة كان غرما لا غنم فيه، وقد لجأ اليه المصري لقصور العملة الذهبية والفضية عن الوفاء بأثمان السلع وخاصة البسيطة ، بدلا من تكديسها لدى التاجر العربي والبندقي على السواء . وقد وجد كلاهما أن المقايضة خير وسيلة للتعامل التجاري ، وهي في الحقيقة نتيجة من نتائج ظهور الأزمة المالية في القرن الخامس عشر . وقد اتبع البنادقة هذه الوسيلة بعد أن سنت الحكومة قانونا يمنع فيه التجار من الاستدانة أو الاقراض أو الشراء بالعقود المؤجلة الدفع ، ولما كانت لهم رغبة في الربح والكسب فقد لجئوا الى المقايضة (٢٤٨) .

ومن المبادئ القانونية التجارية التي نظمت عملية المقايضة النص بالتزام وتعهد السلطات المالية بعدم قبول الرجوع في صفقة تمت بالمقايضة تبعا لارتفاع أو انخفاض السعر رغم ما ينال التاجر المصري من أضرار ، اذ أنه مما يشجع على الرجوع صفقات التوابل بالمقايضة أن ثمن التوابل نقدا أقل من ثمنها في حالة المقايضة ، فكان التاجر الأجنبي يحاول الرجوع في المقايضة الى النقد لأنه المشتري ، كما كان زميله المصري يحاول الرجوع عن سعر المقايضة لأعلى منه بسبب تذبذب الأسعار . لذا نص في المعاهدات مع فلورنسا على عهد السلطان قايتباي ١٤٤٨ « على تمييز سعر الأصناف في المقايضة عن

(٢٤٧) توفيق اسكندر : المقايضة ص ٣٩

(٢٤٨) توفيق اسكندر : المقايضة ص ٤٠

النقد » ، أى الزيادة فى أسعار السلع بالمقايضة عن النقد . وكانت التوابل كذلك تقايض بالعسل وزيت الزيتون والصابون والبندق واللوز (٢٤٩) .

والى جانب نظام المقايضة وجد نظام نصف المقايضة ، وفيه تدفع ثمن السلع نصفها نقدا والنصف الآخر سلعا . ولعل من المفيد - أن نقول انه أثر فعلا فى ارتفاع الأسعار ارتفاعا مصطنعا ، فسر سلع المقايضة يزيد على سعرها النقدى ، كما أنه خلال نصف قرن تضاعف سعر التوابل بالمقايضة لضعفين ، وكذلك سعرها النقدى أصبح ثمانين بدلا من أربعين ، وثمن الثلاث سفن عام ١٤٥٠ بقدر حمولتها آخر هذا القرن بثمن ست سفن (٢٥٠) .

ومما هو جدير بالذكر أن البرتغاليين الذين نقلوا ذهب السودان الى بلادهم استخدموه فى تمويل حركة الكشف الجغرافية وخاصة للهند . فلدى وصولهم للهند كانوا فى السنوات الأولى يترصدون السفن العربية ويصادرون حمولتها من التوابل . ولكن بعد ذلك بدأ الذهب يتدفق بين أيديهم بكميات كبيرة ، فاشتروا به التوابل وطلع الهند والهند الصينية والصين ولم يعودوا يترصدون سفن العرب ، بل انه بالرغم من أن سفن البندقية لم تحمل عام ١٥٠٤ أى حمل من الفلفل فانه قبل سقوط دولة المماليك شوهدت مرة أخرى كميات من الفلفل والتوابل فى ميناء طرابلس وفى الاسكندرية ، ولعل هذا راجع الى استحالة اغلاق المحيط الهندى أمام السفن العربية ، وان كان يرجع أساسا الى أن الطريق عبر البحر الأحمر أقصر ولا يتعرض فيه الفلفل المباع فى البندقية الى رحلة طويلة قد تفسده ، كما كان يحدث بالنسبة

(٢٤٩) انظر الملحق معاهدة فلورنسا وقايتباى عام ١٤٨٨ برقم (٢٥) .

(٢٥٠) توفيق اسكندر : المقايضة ص ٤٢ و ٤٣ .

للفلل الوارد من طريق رأس الرجاء الصالح فى رحلة طويلة الى لشبونة،
بالاضافة الى خبرة العرب فى فرز الأصناف الجيدة من هذه التوابل
من الرديئة مما لا يتوافر للبرتغاليين ، ثم لجوء البرتغال الى سياسة
رفع الأسعار بعد تحكمهم فى تجارة الشرق واحتكارهم لها بلا منافس.
وعلى أى حال فإن هذا التحول فى سياسة رفع الأسعار كان انقاذا
للموقف السيئ الذى تعرضت له تجارة الشرق منذ وصول البرتغاليين
للهند بحرا عام ١٤٩٨ م (٢٥١) .

(٢٥١) توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ص ٨٨ ، ٨٩ .

الفصل السادس

خاتمة

كشف طريق راس الرجاء الصالح ونهاية دولة سلاطين المماليك

كانت الأحداث التي أدت الى غلق الطرق التجارية القديمة ، من شرق آسيا ووسطها الى غربها ، قد ساعدت على ازدهار الطريق التجارى البحرى من الصين والهند الى البحر الأحمر ومصر والشام ، ولكن لم يلبث أن انهار هذا الطريق أيضا أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، منذ نجاح البرتغاليين فى الدوران حول افريقية والوصول الى الهند . وكان هذا الانهيار ايذانا بسقوط دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام والحجاز فى يد الدولة العثمانية عامى ١٥١٦ ، ١٥١٧ ، ولم يعد الطريق والدولة بعد ذلك سوى ذكرى فى أخيلة المؤرخين .

على أنه لم تكن الحروب ، ولا دخول البرتغاليين الى الهند ، وحدهما هما اللذان أضاعا الطرق التجارية التقليدية . وخاصة طريق البحر الأحمر عبر مصر والشام ، ولكن الضعف الذى سرى فى دولة سلاطين المماليك كان المعول الذى هدم الدولة وأضاع الطرق ، ويرجع هذا الضعف الى جذور عميقة ، على رأسها :

أولا : فساد النظام الاقطاعى الذى قام على أساسه الحكم المماليكى ، وعجز هذا الحكم عن الوفاء بالمطالب الأساسية لبقائه : فالدولة المماليكية دولة اقطاعية بيروقراطية يسند وجودها اقتصاد متين

وجيش قوى ، وأرض مصر التى هى ملك للسلطان توزع اقطاعيات على جنده ، وأى هزة زراعية معناها انهيار النظام ، وبالتالي الدولة . لذا حرصت الدولة ، عندما عجزت الأرض التى أهملوها عن الإيفاء بمطالبهم ، على البحث عن موارد مالية جديدة تتمثل فى رفع الضرائب وتحصيلها مقدما (١) ، ثم تنشيط التجارة عبر بلادهم تعويضا عن هذا النقص البادى . وقد ساعدتهم على هذا تحول التجارة نحو مصر والشام وتدفق الأموال على خزائهم . وكلما زادت احتياجاتهم زاد تعلقهم بالتجارة واحتكارهم لكل مصادرها ، فأقصوا عنها الكارمية ، وتسلموها على غير مران وأجبروا التجار الأجانب على شراء التوابل الشرقية قسرا وبالسعر الذى يحدونه ، والويل والعقاب للممتنع عن الشراء ، مما أدى الى تدمير الأجانب وعزوفهم عن الحضور لمصر والشام وتكدس المتاجر وبوارها (٢) . فكان هذا ، بالإضافة الى فساد نظام الاحتكار وانهيار النظام الاقطاعى الزراعى ، وجهل الممالك بالنظام التجارى ايذانا بالانهيار القريب للاقتصاد وللدولة ، ولم يبق الا وضع النقط على الحروف وعلان الانهيار ، وتم هذا فعلا فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بالحدثين الخطيرين : تحول التجارة ، وسقوط دولة سلاطين الممالك (٣) .

ثانيا : العوامل الداخلية التى تكمن فى طبيعة تكوين الدولة نفسها والصراع بين أمرائها على السلطة والنفوذ ، فقد اختل نظامهم الاجتماعى والحربى ، لاهمالهم الأسس التى قامت عليها تربيتهم ونشأتهم الأولى ، ولم يعودوا يصلون لمصر صغارا يتعلمون الطاعة

(١) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، المصدر السابق ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٤٤٦ .

(٣) صبحى لبيب : المصدر السابق ص ٤٣ - انظر كذلك الفصل الثانى « العلاقات الخارجية » وكذلك الملحق برقم ١٣ عن التوابل الشرقية .

ويتحلون بالدين والأخلاق ، ويتدربون على الحرب وفنونها ، بل وصلوا شبانا تتنازعهم أهواء واتجاهات وتعليم متضارب، ففقدوا روح النظام والطاعة ، وحل محلها العصيان والتمرد ، وفشا بينهم التنازل عن الاقطاعات والمقايسة بها من الباطن ، وخربت الأراضي والذمم ، وانقسم الماليك شيعا وأحزابا ، يتجسسون بعضهم على بعض ، ويعمدون الى حوادث النهب والسلب ، ويتنازعون السلطة والحكم . وظهر ذلك بوضوح منذ وفاة السلطان قايتباي ١٤٩٦ حتى تولى الغورى السلطة عام ١٥٠١ ، وتأرجح الحكم بين عدد كبير من السلاطين يحكم كل منهم شهورا وأياما ، مما يعطى انطباعا صادقا بمدى الفوضى وعدم الاستقرار التى سادت البلاد فى الدور الأخير من حياة هذه الدولة ، حتى ان كبار الأفراد كانوا يعزفون عن تولى السلطة خوفا من القتل ، كما فعل قنصوة الغورى الذى اشترط لقبوله الحكم ألا يقتلوه اذا أرادوا عزله ، ولكن كانت الأحداث السياسية والاقتصادية أقوى من آمانياته، حتى ان مماليكه الجلبان كثيرا ما عصوه بسبب النفقة (٤).

ثالثا : العوامل الخارجية: التى تضافرت جميعها لهدفين أساسيين:

أولهما القضاء على مصدر ثراء الدولة المدعم لقوتها العسكرية ، وهو التجارة فى المياه الشرقية والتحكم فيها بين الشرق والغرب . وثانيهما القضاء على الدولة ذاتها ، ووقع الهدف الأول على عاتق القطلانة والبرتغاليين ، فى حين وقع الثانى على عاتق العثمانيين ، مع ما بين الطرفين من تباعد وتناقض وان اتحدت الأهداف . ويقرن العمل الأول كذلك بنمو القوميات فى أوروبا ، وخاصة فى البرتغال واسبانيا، ونجاح الأخيرة فى انتهاء الحكم العربى فى الأندلس عام ١٤٩٢ . أما محاولة

(٤) المقرئى (- السلوك ج٣ ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ - ابن اياس : بدائع الزهور ج٢

ص ٥٩ (بولاق) أبو المحاسن = النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ ، سعيد عاشور :

المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٢٥ - ٢٧ .

تعقب العرب فى عقر دارهم ، فقد وقع عبوه على البرتغاليين الذين حاولوا الاتصال بملك الحبشة المسيحى لتطويق الممالك ، وفى سبيل ذلك داروا حول افريقيا، ووصلوا للهند، وأوقعوا بالأسطول المماليكى فى وقعة ديو البحرية ١٥٠٩ ، وأنهوا السيطرة المماليكية على المياه والتجارة الشرقية منذ مطلع القرن السادس عشر (٥) . أما الهدف الثانى فقد وقع على عاتق العثمانيين الذين ما لبثوا - بعد أن أوقفوا التوسع الشيعى الصفوى ، فى وقعة جالديران ١٥١٤ - اتجهوا لهدفهم الأسمى ، وهو السيطرة على الأراضى الاسلامية المقدسة بمكة والمدينة والقدس ليصبح السلطان العثمانى حامى حسمى الدين ومقدم ملوك الاسلام ، وتم هذا على يد السلطان سليم الأول فى وقعتى مرج دابق ١٥١٦ ، والريدانية ١٥١٧ (٦) .

وأخيرا فانه كان على العثمانيين - وقد دخلوا مصر والشام والحجاز - أن يرثوا عن الممالك مدافعة البرتغاليين عن المياه الشرقية لاستعادة السيطرة على التجارة الشرقية ، ولهم من قواتهم العسكرية وأساطيلهم خير معين ، الا أنهم حرصوا على تأكيد سيظرتهم على مابقى خارج سيظرتهم من العالم العربى ، فضموا العراق وشمال افريقية ماعدا مراكش ، تاركين الفرصة للبرتغاليين ومن بعدهم الانجليز للتهجم على البلاد العربية ، ثم احتلالها منذ القرن ١٩ م مما لازلنا نعانى آثاره للآن .

(٥) ابن اياس = بدائع الزهور ج٢ ص ٢٣٧/٢٤٦ (بولاى) . عبد الله عنان . مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ١٤٠/١٤٦ - شارل ديل = البندقية جمهورية أرمستقراطية ص ١٤٨/١٤٩ بن بول = العرب فى اسبانيا (ترجمة على الجارم) ص ٢١٣/٢٠٩ .

(٦) ابن اياس = بدائع الزهور ج٤ ص ٣٩٦ الى ٤٠٠ (كاله) ، ج ٥ ص ٧٠/٧١ ابن زنبيل الرمال = آخره الممالك (مخطوطة) ورقة ٤ ، ورقة ١٤ . حسن عثمان = تاريخ مصر العام (بالاشتراك) ص ٢٤٤/٢٤٧ . سعيد عاشور العصر المماليكى ص ١٨٠/١٧٩ .

ملحق رقم (١)

اتفاقية التوابل الشريفة بين البنادقة والسلطان أحمد

ابن السلطان الأشرف اينال عام ١٤٦١ م

DEPPING, HISTOIRE DU COMMERCE

T. II, p. 218 and ff.

أرسل السلطان الملك المؤيد أحمد بن السلطان الأشرف اينال علم ١٤٦١ م . خطابا الى دوق البندقية فى أعقاب الاتفاقية بين البندقية والسلطان تتعلق بتحديد تعريف الجمارك فى ميناء الاسكندرية . وموانئ الشام . وقد أكد السلطان فى الخطاب مراعاة السلطات المالية لرعايا البندقية فى بلادها مراعاة تامة ، سواء المقيمون اقامة دائمة أو الوافدون للتجارة وتأمين المنح الممنوحة لهم من قبل ، وزاد من اصفاءات الجمارك ، ثم استقبل سفير البندقية الفخرى وهو Moffeii Michiel وصرح له السلطان بأنه يسره دائما وصول سفراء من قبل الدوج لبلاده ، وقد تفاوض السفير مع السلطان فى شأن اعادة بعض الحقوق التى اغتصبت من البنادقة فى فترة تداير الأمن الداخلى التى أعقبت سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ . وطالب منحهم تعويضات مجزية واعفاءات جمركية لبعض السلع . ورغم طول المفاوضات فانها لم تنجح فيما يتعلق بتنزيل أسعار التوابل والبهار ، فبقيت أسعار عود اللند ، وخشب البرازيل الأحمر ، والبورسلين ، والسجاد ، والبلسم ، كما هى . وتصر السلطات المالية على ابقاء سعر التوابل الشريفة ١٠٠ دوكات للحمل الواحد دون تنزيل ، تسليم الاسكندرية .

وعند رحيل السفير أرسل السلطان معه رسالة الى دوق البندقية ضمنها تحياته واعترازه بالتعامل مع تجار البندقية ، وأنه « أهدي وقلد السفير البندقى وشاحا من صنع مصر ومبطن بالقرو ، كما أهدي

وشاحا آخر لسكرتيره من ألوان متعددة ، وأكرمنا وبجلنا سفيركم المذكور ... ولما كانت صداقتنا لكم قديمة فاننا نعلن أنه يسرنا تأكيد الاعفاءات السابقة والمعاهدات المعقودة بيننا وبينكم ، وكذلك وجود قنصلكم بيننا مع ما له ولتجاركم من امتيازات أقرها السلاطين السابقون ، كما أن لهم حق الابحار الى بلادنا والتمتع فيها بالحرية والأمان .. وسنرسل لكم سفراء من قبلنا وتقبل سفراءكم بترحاب ونوصى براحتهم في بلادنا وتجوالهم دون العوائق وبحرية ودون دفع رسوم أو عوائد ، لأننا سنراعى مصالحهم وراحتهم وسيكونون في عدالتنا المقدسة ..

ملحق رقم (٢)

خطاب من السلطان الأشرف قايتباي الى دوق البندقية

بتاريخ ١٠ شعبان ٨٧٧ هـ / ١٤٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الموقر المحتشم الخطير الباسل المفخم الضرغام السמידع الهمام مجد الملة المسيحية جمال الطائفة الصليبية دوق البندقية والماسين دوق كراك دين بنى المعمودية صديق الملوك والسلاطين، أدام الله تعالى بهجته، وجدد مسرته ، على أبوابنا الشريفة على يد المحتشم قاصده ، وأحطنا علما بها ، وتقدم مثالنا الشريف الى حضرة الدوج أعلمناه فيه بوصول القاصد المذكور وبما عاملناه به من الاحسان بأعظم من جميع قصاد ملوك الفرنج الواردين على أبوابنا الشريفة ، لما نتحققه من اخلاص حضرة الدوج في محبتنا ، ودعائه للمقامنا الشريف، وأن مراسيمنا الشريفة برزت بقضاء جميع أشغاله لوضرواته على حكم ما سأل فيه صداقتنا الشريفة ، ورسمننا بكتابة مراسيم شريفة الى الممالك الاسلامية بالوصية

لجميع تجار البندقية وأحوالهم عندنا مشددة ورسمنا أيضا بأن فلفل
ذخيرتنا الشريفة الذى يعطى لكم يكون سالما من التراب والبلل
والخلط ، كل ذلك لأجل خاطر (الآتى مكرر بالوثيقة) .
من التراب والبلل كل ذلك لأجل خاطر حضرة الدوج وغير ذلك
مما نعرف به حضرة الدوج أن الذهب والفضة التى صارت تصل فى
القطايح وغيرها الى الثغر السكندرى وغيره يوجد فيها الغش ، بحيث
ان الماية درهم من الفضة اذا أضيفت لم تقارب ستين درهما ، وغالبها
نحاس ، وأما القماش الذى يصل الى أبوابنا الشريفة من المخمل فغالبه
مغشوش كالنحاس ، أما الجوخ فجرت العادة أن يكون ذراع كل خرقة
خمسة وخمسين ذراعا ، وقد صار الجوخ الآن كل خرقة منه لا تبلغ
ثلاثين ذراعا ، وفيه وهو مقطوع من الوسط وتضرر تجار المسلمين
بواسطة ذلك ، وتعجبا كل العجب من هذه الأمور وكونه يتفق من
تجار حضرة الدوج اعلمناكم بذلك ليصير على خاطرهم ومما نعرفه أن
المركبين اللتين حضرة تصحية المحتشم قاصده تعرض من فيهما من الفرنج
لجماعة من المسلمين بالمسير الاسلامية وأخذوا منهم وأسروا .. (ناقص
بالأصل) ألا يحضروا ذهبا وفضة مغشوشة ، ولا يجهزوا جوخا ولا
قماشا الا كاملا على ما جرت به العادة القديمة ، وأنهم لا يعتمدون قطع
شئ من الخرق الجوخ ولا غيره ، ويؤكد عليهم فى ذلك ويعرفهم أنهم
متى حصل منهم شئ من ذلك من الآن يقابلهم على ذلك ويصغى حضرة
الدوج لما يطالعه به من المشافهة الصادرة هنا ، ويطلب حضرة الدوج
البنادقة الذين كانوا بالمركبين المذكورتين على ما اعتمدوه مع المسلمين
ويلزمهم باعادة ماأخذوه بتمامه وكماله، فانه هو الذى تحدى وفعل ذلك
وأقدم عليه ، ولا يقبل ولا لمن كان معه فى ذلك عذر ولا حجة ، وان
حصل منهم تهاون فى ذلك فيجهزهم الى أبوابنا الشريفة لنقابلهم على
ذلك بالمعدلة الشريفة وقد أعدنا قاصد حضرة الدوج اليه بهذا الجواب
الشريف بعد أن أنعمت صداقتنا الشريفة عليه وعلى جماعته بخلع

شريفة ونفقة وجهزنا على يده لحضرة الدوج وعلى سبيل الهدية ،
ما تضمنته القائمة المجهزة على هذا المقال الشريف . فحضرة الدوج
بتسلم هذا ويطيب خاطره وخاطر تجار البنادقة ويعلمهم أنهم مشمولون
بنظرنا الشريف وعنايتنا الشاملة - فنحيط علما بذلك والله الموفق
بمدرك ان شاء الله تعالى .

فى عاشر من شعبان الكريم سنة سبع وسبعين وثمانمائة حسب
المرسوم الشريف .

الحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم (٢) .

ملحق رقم (٣)

٢٥ من أكتوبر ١٥٠٢ - البندقية .

تعليمات الى السفير بنديتو سانودو - سفير البندقية الى السلطان
الأشرف قانصوه الغورى .

١ - نحن ليوناردوس ليوناردو - بفضل الله دوق البندقية .

٢ - أمرنا باتتدابك أيها الأمير المواطن المحبوب سفيرا من لدنا الى
سيادة سلطان مصر .

٣ - وعليك باسم الروح القدس « أن تعتلى السفينة المخصصة لك
وأنه تنتبه وتثابر وتجتهد وتسرع فى سفرك » .

٤ - اتصل أولا بالقبطان قائد أساطيلنا الذى أمرناه أن يعطيك سفينة
موسمية مجهزة لتواصل عليها سفرك لمقصدك ...

٥ - اذا وصلت بخطاب اعتمادنا لك سفيرا فعليك بزيارة نائب السلطان

(٢) وثيقة رقم ٢ منقولة من نسخة مصورة من أرشيف الوثائق بالبندقية باللغة
العربية ، (من مجموعة الدكتور توفيق اسكندر) .

بالاسكندرية وقدم له حسب المعتاد التحيات ، واتبع التعليمات
المعطاة لك بدقة ، واستخدم فى ذلك كل ما لديك من عبارات
مناسبة مستعينا بحكمتك وثاقب فكرك ...

٦ - وعليك أن تحصل من قنصلنا وتجارنا بالاسكندرية على كافة
المعلومات العامة والخاصة اللازمة لك خلال سفرك وأثناء وجودك
بحضرة السلطان ...

٧ - وإذا سمح لك بالسفر الى القاهرة لمقابلة السلطان فعليك إبراز
خطاب الاعتماد بسفارتك لكل من له صفة رسمية حتى تصل
للسلطان نفسه وتحييه باسمنا بالعبارات المناسبة الجديرة بمقامه
العالى والجديرة بمقام دولتنا ثم تهنه بارتقاء عرشه وتعيينه
سلطانا على مصر . وتذكر له أنه بمجرد سماع دولتنا بارتقائه
العرش حصل لنا السرور والغبطة ...

٨ - ثم أيها السفير بما لديك من حصافة وشجاعة وعزة وقوة شخصية
ستطلب من سيادة السلطان العطف على مواطنى البندقية من
التجار الموجودين فى بلاده الذين ترددوا منذ مئات السنين
للمتاجرة فى بلاده ثم تعطيه الهدايا المناسبة المقدمة له من
دولتنا ...

٩ - ثم تذكر سيادة السلطان بالغرض من هذه الزيارة وهى طلب رعاية
تجارنا فى دمشق مما يتعرضون له من مظالم من نواب وأمراء
الشام ومن ذلك فرض الجمرک على تجارنا وشراء ٥٣٠ حملا من
الفلفل بسعر مرتفع علاوة على حمولتنا العادية وهذا اجراء
لا يمكن احتماله لأنه سبب لنا خسارة فادحة ولتجارنا .

١٠ - وبما أنك عليم بتفاصيل هذا الموضوع ، لأنك تجهر باستمرار

مجالسنا العلنية والسرية فأنت تعلم مدى الأضرار التي تلحق
بتجارتنا في دمشق من جراء تحول الطريق بوساطة البرتغاليين ،
فعليك أن توجه نظر السلطان الى الأضرار التي تحيق بنا وبه
من جراء تحول التجارة هكذا ، ثم تذكر سيادة السلطان بحرصنا
على مصالحه ومصالحنا ، وعليك أن تعالج هذا الموضوع بمنتهى
السرية ، وألا يعلم تغرى بردي الترجمان بأى طرف منها لأنك
تعلم عداؤه لنا .

١١ - كما أننا واثقون من شجاعتك وفضائك وأنت ترضى رغباتنا
وأمانينا لدى السلطان ، ولا نكرر لك مسألة عداوة الترجمان
تغرى بردي لنا وعليك بمجرد نزولك بالاسكندرية أن تتصل
بقنصلنا في الثغر وتتحدث معه في هذا الشأن للاتفاق على
خطة موحدة ...

١٢ - وقد يحدث أن السلطان أو بعض نوابه أو غيرهم يتكلمون
معك في شأن الحوادث الجارية في قبرس وموقف حاكمنا في
هذه الجزيرة فعليك أن تطلع السلطان أو نوابه أن حكومتنا
لا علاقة لها بما حدث أو يحدث في قبرس ، وتخلص بلباقة بأن
تذكر بأنك ستكتب اليها بشكوى السلطان في ذلك ، وأنت
سترد في الوقت المناسب الرد الذي يرتاح اليه السلطان ...

١٣ - ولا نذكرك أن موضوع مهمتك لدى السلطان خاص بدمشق ،
ولك مطلق الحرية في أن تثير أى موضوع يتعلق بمتاجرنا
وتجارنا في الاسكندرية ، إنما الموضوع الأساسى هو دمشق .
وعلى أى حال فيحسن عدم إثارة شىء خاص بالاسكندرية قبل
الانتهاء من موضوع دمشق ...

١٤ - من أهم ما يجب أن تلفت اليه نظر المسئولين أنك علمت أن

السلطات فى العام الماضى حجرت سفننا فى الميناء دون مبرر
مما أثار ضيقنا ، ونأمل أن تنجح فى عدم تكرارها مرة أخرى ،
وعليك أن تسلك سبيل الملاينة ولا تلجأ الى إثارة النزاع مع
السلطان أو رجاله ، وأن تجنب نفسك مغبة ما قد يحدث لأى
خطأ فى ألفاظك ..

١٥ - عليك أن تظهر أن هذه الأعمال التى تضايقنا لا شك أنها لا تصدر
من السلطان ولا من نوابه ولا من عماله ، إنما هى مسائل فردية
من بعض الحمالين والعمال وأن حكومتنا تشنى على همة السلطان
ورجال حكومته وتأمل التشديد على العمال والحمالين لعدم
تكرار هذا التأخير ، فى رحلات سفننا التى ترتبط بمواعيد
المدة السنوية ...

١٦ - بلباقتك تستطيع أن تذكر للسلطان أن مثل هذا التأخير يصيب
تجارنا بالخسارة مما يجعل التجار يحجمون عن الحضور
للاسكندرية ، ومما لا شك فيه أن هذا يصيب تجارتنا وتجارة
السلطان بأضرار كثيرة ، وهو ما لا ترجوه البندقية .

١٧ - وفى رأينا أن تذكر السلطان أن تاجره بابكر هو السبب فى هذه
المشكلة . وهنا يجب أن تظهر لباقتك ومقدرتك السياسية بحيث
تجعل السلطان يفكر فى الأمر ويعمل على تغيير هذا التاجر بغيره
ممن يحسن التعامل معنا . وإذا وجدت أن الأمور تسير ضدنا
فى هذا الشأن ، وأن المسألة ستأخذ طريق التحقيق والدفاع ،
فعليك أن تتخذ كل الوسائل لتبرئتنا وتقرير وجهة نظرنا ...

١٨ - وحسب العادة فى ميناء الاسكندرية تمنع السفن من الدخول
ليلا حتى ولو كانت تواجه عاصفة مدمرة قد لا قدر الله -
تهلك السفينة ومن عليها وعليك أن تحاول الحصول على تصريح

السلطان بدخول هذه السفن بصفة خاصة للاهتمام من العاصفة ...

١٩ - وتمنح السلطات سفننا أربعة أيام بعد انتهاء الموسم لشحن وتسويق السفن ، وهذه المدة غير كافية وتضطر أحيانا الى ترك معظم السلع للمدة التالية فتنفسد وتبور ويلحق بتجارتنا خسارة فادحة ، فحاول أن تحصل من السلطان على تصريح بمد هذه المهلة لأمكان شحن كل مشترياتنا حتى لا يحجم التجار من ورود أسواق مصر والاسكندرية ، وأن يكون بقاء السفن فترة أطول بدون الحاجة للحصول على ترخيص سابق من السلطات المعنية بالأمر فى الميناء .

٢٠ - عليك أن تصر على عدم تغيير عمال ديوان القبان وأن يبقى بدون أى اجراء آخر قد يضر بمصالحنا ..

٢١ - كل ما تحصل عليه من امتيازات أو اعفاءات أو تصريحات من السلطان ورجاله فاكتبه فى وثيقة مربعة ، لا طويلة .

٢٢ - لا نوصيك بأن تتصل فى كل ما يعن لك بتجارنا وقنصلنا لخبرتهم الطويلة فى التعامل مع السلطان ورجاله ، ونحن واثقون من أنك ستقوم بكل ما يفيد بلادك ..

٢٣ - أما عن فترة بقاءك فى بلاد السلطان فنحن لا نحدد لك فترة معينة ، بل يترك ذلك لتقديرك والانتهاء من أعمالك ، ومع ذلك فانا واثقون من أنك ستقوم بالمهمة خير قيام وفى أسرع وقت ، وأنه تعطى أمرا بأن تنتظر السفينة التى أقلتك لتعود بك ...

٢٤ - ومعك أمر ادارى بأن تحصل على جميع نفقاتك من هيئة التجار

والقناصل فى دمشق ، لأن المهمة التى ستقوم بها خاصة بهم
كما هو المعتاد مع غيرك ، وأن يكون المبلغ فى حدود
٤٠ دوكة ، ومعك أمر آخر بأن يعاونك فى مهمتك جميع
قناصلنا والهيئات التى تشاركهم عملهم لأنهم مطلعون على بواطن
الأمر ، بحكم بقائهم مدة طويلة فى بلاد السلطان ..

الموافقون ١٢٤ - المعارضون ٣ - الممتنعون .. (١)

ملحق رقم (٤)

٢٤ مايو ١٥٠٤ - البندقية

تعليمات مجلس العشرة فى البندقية للسفير البندقي « فرانسوا
تالدى » تكلفه بالتوجه للقاهرة للتفاوض مع السلطان المماليكى
« الغورى » سرا فى الوسائل الممكن اتباعها لمنع توسع البرتغاليين
التجارى فى مياه الهند .

١ - بعثة فرنسيسكو تالدى الى سلطان مصر . تقبل هذه التعليمات
باسم الأمير . نحن نضع فيك يا سيد فرنسيسكو الثقة الكاملة .
لذلك نرسلك الى سلطان مصر باعتبارك مواطنا صالحا . ولهذا
نكلفك بأن تسافر بأول سفينة الى جزيرة كريت ومنها الى ميناء
دمياط . وعليك أن تخفى عن الجميع صفتك الرسمية .

٢ - من دمياط تذهب الى القاهرة وتعمل بكل ما أوتيت من مهارة
وسرية أن تسمع صوتك للسلطان شخصيا ، وتمثل أمامه عن

Instruction a Pieredetto Sunudo, Ambassadeur di Sultan El-Ghoury. (٢)
Senato Secreto XXXIX fe 45.

من الدكتور توفيق اسكندر وترجمته .

طريق أمير الاسكندرية ، أو الدوا دار أو كاتب السر ، أو من يبدو لك أنه الأصلح . وفي غياب الأمير لك أن تلجأ الى المهندار (المندوب السفري) الذي يجب أن تكلمه سرا ، ولا تنس أن يكون حديثك مع السلطان نفسه سرا .

٣ - لما تسنح لك الفرصة للانفراد بالسلطان قدم له خطاب اعتمادك سفيرا لنا بعد التحيات الواجبة باسمنا وباسم دولتنا لفخامته تهنته بالصحة والسلامة بألفاظ مناسبة ، وتنفاهم معه سرا فيما كان يتحدث به النبيل « بنديتو سانودو » في العام الماضي عن الملاحة في المحيط الهندي ، والتي أصبحت في يد البرتغاليين ، وأن تفهم فخامته أنه يترتب على ذلك خسائر للجميع له ولنا ولتجاره وتجارنا . وبالنسبة للعلاقات القديمة التي بيننا وبينه ، والتي قامت على المصلحة المشتركة ، فائنا وضعنا مشاوراته معك ومع السفير سانودو موضع الاهتمام الكامل لا مكان معالجة الأمر في بدايته .

٤ - ولكي تكون على علم تام بكل ما يستجد في هذا الموضوع نبلك بأنا أثناء بحثنا هذا الموضوع في السنا تو مع مستشارينا وصل الى بلادنا الميعوث السلطاني مطران أورشليم الأخ المحترم « ماوروجوارديان » من جبل صهيون ، ومعه رسالة من سلطان مصر مملوءة بعبارات الود والاحترام والركة التي يديها السلطان نحو دولتنا في كل مناسبة . فعليك أنه تتولى نيابة عنا شكر السلطان الأفخم بعبارات ود واحترام مبادلتنا شعوره الطيب ، وأتينا بتأكدون جدا من أننا أكثر الجاليات رعاية في بلاده وان تجارنا سيجدون كل عطف وعونة ومودة من السلطان ورجاله مما يجعلهم يتلهفون على الذهاب للمتاجرة في بلاده ولا يفكرون في هجرته الى لشبونة مثلا ، لأنه من المعروف ألا يبقى أي فرد

فى مكان ما الا اذا كان يعامل معاملة طيبة ويحصل على فائدة
كاملة .

٥ - ويجب أن تعلم فضلا عن ذلك أن الأخ المحترم السيد
ماوروجوارديان مطران أورشليم ومبعوث السلطان الينا قد تحدث
معنا شخصيا ، علاوة على ما جاء بخطابات السلطان فى أن نكتب
الى الحبر الأعظم البابا ، وملك اسبانيا ، وملك البرتغال ليعملوا
على وقف ملاحه البرتغاليين فى الهند وتركها لهم ، كما طالبوا
بأن يصدر مجلس السناتو قرارات يشيرون فيها الى ذلك ، فعليك
أن تقول للسلطان : « ائنا بكل صراحة وأمانة قد وجهنا الأخ
المحترم ماوروجوارديان لرحلة الى اسبانيا والبرتغال وزودناه
بكل المعلومات التى لدينا لكى ينهى الموضوع حسب رغبة
السلطان التى هى رغبتنا ، ولم نعط خطابات توصية الى البابا
فى هذا الموضوع ، ولا الى ملك اسبانيا ، ولا الى ملك البرتغال »
حتى لا تحدث نتيجة عكسية ، ولكى لا تتهم بأننا متواطئون مع
المسلمين ضد المسيحيين ، لأن مثل هذه الخطابات ستحدث ضجة
شديدة ضدنا فى العالم المسيحى ، . لأن الجميع يعرفون أن مجىء
السيد / ماوروجوارديان بناء على رغبة السلطان وبناء على طلبه ،
فلو أننا أرسلناه من طرفنا بخطابات توصية لفقدنا كل سمعة طيبة
فى العالم المسيحى .

٦ - يجب أن تبلغ السلطان أن منع الملاحه فى المحيط الهندى لا يمكن
أن تأتى من جانبنا للأسباب السابق ذكرها ، لأن المسافة من بلدنا
للبرتغال طويلة لا تقل عن ٤٠٠٠ ميل ، فضلا عن المسافة من
البرتغال الى الهند ثم ان اسبانيا وملكها القوى المحالف للبرتغال
يقع فى الطريق بيننا وبين البرتغال ، علاوة على أنه استولى
حديثا على مملكة نابلى من لويس ١٢ ، وله حدود مع مملكتنا

فى أماكن عدة من البحر والبر . وقد ذكرنا هذا للسيد
ماوروجوارديان ، وزودناه بنفقات الرحلة الى روما واسبانيا
والبرتغال . وسنحاول أن نبليح السلطان أولا بأول بخط سير وأخبار
مبعوثه الى اسبانيا والبرتغال البابوية .

٧ - يهنا أن تذكر لسيادة السلطان أنه قد وصل الى البرتغال
١٤ مركبا من الهند محملة بالتوابل من بين ما تحمله ٥٠٠٠٠٠ حمل
من الفلفل وقد أرسلت بوساطة ملك البرتغال الى انجلترا
أو الفلاندرز وفرنسا وإيطاليا ، ولكل العالم تقريبا . لفائدته
وربحه بحيث أنه أصبح ملكا غنيا جدا . ويرجع ذلك الى أنه
وجد أن سعر التوابل بالاسكندرية مرتفع جدا ، وكذلك فى
دمشق أكثر من المعتاد ، وأنه لما كانت التوابل منخفضة الأسعار
فى الهند ولشبونة ، لذلك لجأ عملاء نابلى الى أسواق البرتغال ،
وهذا بالطبع أدى الى ثرائه - فضلا عن أن هناك فى ميناء
لشبونة أسطولا مكونا من ١٢ سفينة مستعدة للرحيل فورا الى
الهند و ١٦ سفينة أخرى مستعدة للذهاب فعلا بعد عودة السابقة
لاحضار المزيد من التوابل .

٨ - عليك أن تلفت نظر السلطان الى أنه ابتداء من الآن ستكون
الرحلة سهلة بالنسبة للبرتغاليين ولا نعرف طريقة نستطيع بها
منع ملاحتهم الى المياه الهندية والتي نرى أنه ينشأ عنها ضرر
لا يمكن احتماله ولا قبل للسلطان به . واننا فضلا عن مصالح
تجارنا التي بدأت تنهار فائنا تحملنا خسائر فى جماركنا وضرائبنا
تبعاً لذلك .

٩ - واحقا للواقع كان قد اقترح علينا الاشتراك فى الرحلات
لفائدتنا ، ودعينا فعلا من قبل ملك البرتغال لارسال تجارنا الى
أسواق لشبونة لطلب التوابل . وكثير من تجارنا ورعايانا يرغب

فى ذلك ، لأن تجارنا لا يدفعون فى لشبونة ضرائب جمركية ، ومع ذلك فهم أحرار . الا أننا لما كنا نقدر عظمة السلطان ، وأنا لم نرغم أبدا على ترك التجارة معه والتي كانت على اتصال معه منذ قرون علة والتجارة هى مصدر حياتنا وربحنا ، كما أننا لم ننظر أبدا للدعوة التى وجهها إلينا ملك البرتغال والتى لا يزال حتى الآن يعرضها علينا ، ومصادقا لذلك أرسلنا سفننا هذا العام الى الاسكندرية لاعتقادنا أن السلطان المعظم هو الذى يستطيع وحده أن يضع حدا لتهجمات البرتغاليين فى مياه الهند ووقف تجارتهم حتى تعود تجارة التوابل الى ما كانت عليه من قبل .

١٠ - وعليك يا سيد فرنسيسكو أن تضع أمام أعين السلطان النقاط الآتية ، يبدو أنها على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للسلطان ليتخذها ضد البرتغاليين فى الهند :

أ - العمل بأى وسيلة على وصول أكبر كمية ممكنة من التوابل الى بلاد السلطان لكى تقاوم بها اغراق البرتغاليين لأسواق أوروبا بالتوابل ، لأن هذا سيمنع عن البرتغاليين المكاسب الضخمة ، وبالتالي يمنع سفنهم من الوصول للهند لجلب التوابل .

ب - يرسل السلطان من طرفه سفراء الى ملك كوشين بالهند وكانانور والأماكن الأخرى التى يتعامل معها البرتغاليون ، وأن يطلب منهم باسم الدين والجوار والتعامل القديم الامتناع عن معاملة ومد يد العون الى البرتغاليين وأن يضعوا العقوبات باستمرار أمام البرتغاليين ، ويبينوا لهم الأضرار التى سوف تترتب على استمرارهم فى التعامل مع البرتغاليين ويستطيع فخامة السلطان بحكمته أن يبينها لهم ويفسر لهم أن كثرة وصول البرتغاليين لبلادهم ستكون لها آثار سيئة ، وربما استولوا على بلادهم نفسها ويصبحون أسياد هذه الجزر وبلاد كوشين وكانانور .

ونحن نؤمن بقدره السلطان المعظم على عمل ذلك وامكانه الوصول الى اتفاق مع هؤلاء القوم .

ج - ومن الممكن أن يسارع فخامة السلطان بإرسال سفراء من لدنه الى قاليقوط وكامباي وأمراء هذه البلاد رفضوا قبول التعامل مع البرتغاليين ، وهؤلاء الأمراء بإمكانهم التأثير على اخوانهم ومواطنيهم بعدم التعامل مع البرتغاليين ووجوب مرور التوابل كالمعتاد بمصر وسوريا ، ويذكرونهم بمدى الأضرار التي تحقيق بهم من التعامل مع البرتغاليين ، وما يجره هذا كذلك على السلطان من أضرار .

د - يجب أن يرسل السلطان من لدنه قوات عسكرية قوية لمعاونة قوات الهند التي تحتاج لمزيد من الرجال والسفن والسلاح . وقد فهمنا أن السلطان أرسل فعلا السفن والسلاح والجنود ، وهذا ما نمدحه عليه - لأنه اذا لم يجد البرتغاليون من يقبل التعامل معهم واعطاءهم التوابل ، وانهم رجعوا أكثر من مرة فارغين من غير هذه التوابل ، فانهم لن يفكروا أبدا في العودة لهذه الرحلة الطويلة بعد أن يفقدوا السمعة والوقت . ولذلك فانه يلزم من الآن القيام باجراءات سريعة قوية لملاقاة هذا الخطر . وبيت القصيدة هنا هو ارسال سفراء للهند وحث أمراء الهند على عدم التعامل مع البرتغاليين ، وارسال الأسلحة والسفن للهند للمعاونة في حرب البرتغاليين - وهي الوسيلة لاستعادة نفوذ السلطان وبالتالي نفوذنا .

١١ - هذه هي كل الأشياء التي نراها ذات أهمية بالغة وضرورية وتلفتون نظر فخامة السلطان اليها ليتخذ بشأنها اجراءات سريعة، واننا متأكدون - كما سبق أن ذكرنا لسيادة السلطان - أن

مصالحه العديدة فى الهند والتجارة الهندية ستجعله يقوم بأكثر مما أشرنا به عليه .

١٢ - ولكن نظرا لأن السيد المحترم ماوروجوارديان قد أبلغنا أن السلطان الأعظم فى حالة رفض البرتغاليين الاستجابة لطلباته فانه سيمنع الزيارة للأماكن المقدسة المسيحية ببلاده ، ويغلق كنيسة القبر المقدس ودير سانت كاترين فى سيناء ، وكنائس المسيحيين فى مصر وسوريا .. ونحن نوجه نظرك الى أن تنصح فخامة السلطان الى أن هذا الاجراء سيكون ضد مصالح السلطان نفسه ، وعلى حساب سمعته ، وأن فتح هذه الأماكن فيه فائدة مادية له ولبلاده ، وغلقها - علاوة على الأضرار المادية التى قد تصيبه - فانها لن تجعل أى مسيحى يعطف عليه أو يوقف حملات البرتغاليين الى الهند بهذا السبب ، لذلك يجب أن تنصحه بأن هذا العمل غير مجد وأن الأماكن المسيحية المقدسة يجب أن تظل مفتوحة ليعلم الغرب مدى سوء تصرف البرتغاليين ، واعتدائهم على حقوق ومصالح السلطان ، وعليك استخدام منتهى اللباقة والكياسة والدبلوماسية فى هذا المجال ... (٤)

موافقون ١٧ الرافضون ٥ المشكوك فيهم ٢

1504/24 Mai, Le Venise.

(٤)

Instructions du Conseil des Dix à Francis Taldi, chargé de se rendre au Caire pour concorder secretement avec le Sultan, les moyens d'empêcher le développement du commerce des Portugais dans les Indes.

Venise: Archives Générales, conseil des Dix, Misti. Reg. XXX, fol. 49. Publié en 1856 par H. Eamuel Bomanian.

MD IIII, die XX IIII ; In Concilio X, Cum additōne.

De Mas Latrie.

Traites du Commerce, pp. 259-263.

من الدكتور توفيق اسكندر وترجمته

ملحق رقم (٥)

البندقية ٢٦ أكتوبر ١٥٠٦

مناقشات السناتو بشأن سفارة تغرى بردى الى البندقية ١٥٠٦ .
حيث ان المجلس قد استمع للتقرير المعروض عليه الآن والذي اشتمل
على كل المحادثات والأحداث التى تناولها البحث بين مندوبينا والمندوب
السلطاني تغرى بردى الموجود هنا ، فائنا نلخص هذه المناقشات فى
مسألتين فقط :

المادة الأولى :

هى أن يسارع السفير تغرى بردى بالرحيل من هنا الى القاهرة
ومعه ردنا على ما جاء بصددده ، واذا أراد الانتظار فعليه أن يرسل أحد
وكلائه ليحمل الينا بعودته رد السلطان . فاذا أقر السلطان طلباتنا ،
نستأنف ارسال سفننا الى ميناء الاسكندرية كما كان سابقا ، والا فائنا
سنضطر الى ارسال سفن عادية صغيرة مثلنا فى ذلك مثل أى طائفة
أخرى من الأجانب التى تتعامل فى موانئ السلطان وحيث ان هذا
السفير كما علمنا يود البقاء هنا وارسال أحد وكلائه الى سيده فى
القاهرة فائنا نرحب بهذا الاجراء ولا سيما وأن هذا الوكيل رجل بارع
وعملى ويمكن أن يحصل على طلباتنا بسهولة من السلطان . كما أن هذا
السفير يعتمد تماما على هذا الوكيل ويعتقد أن عودته الى القاهرة دون
أن يحصل على طلبات السلطان سيعرض حياته للخطر ..

المادة الثانية :

وهى المشكلة الخاصة بالملاحة فى موانئ السلطان فان السفير يؤكده
أن ارسال السفن الصغيرة Les Navires أمر لا يقبله السلطان
بل سيثير غضبه وهو فى الواقع أمر لم نألفه منذ أن تاجرنا مع مصر

وانشام - وتوضيحا للأمر فإن السفير تغرى بردى بعد أن كتب لسيده بكل طلباتنا ، لم يرد أن يذكر له أمر السفن ولم يرد كذلك أن يسمع منا أى اعتراض أو تنويه بما قد نلاقه فى موانئ السلطان فى ابى قير والاسكندرية « بل هو يؤكد أن الأمان والسلام والطمأنينة لا تزال كما كانت منذ أن تاجرنا مع السلطان . بل أكد السفير أنه لدى عودته الى القاهرة سيعمل على تدعيم هذه المسألة كذلك وهو هنا يؤكد ذلك على لسان سيده السلطان .

رأى السناتو :

بعد الاطلاع على المقدمات السابقة وكلام السفير وما حدث مع مندوبنا فاننا نوافق على الرد على السفير لكى يرسله بدوره للسلطان بعد تقديم الكلمات الطيبة والتحيات المناسبة لمقام مولاه الرفيع ، كما أننا نترك أمر تدبير هذا وذاك لحصافة السفير ومندوبيه وان يعمل ما يبدو له لتنفيذ الرغبات المطلوبة . أما فيما يختص بالسفن فان رغبتنا هى أن تقوم فعلا بالملاحة الى بلاد السلطان على النوعين المعروفين من السفن : القطائع Les Galères والمراكب Les Navires فقط نود الأمان والحرص من الاخطار سواء على طول الطريق أو فى الموانئ وأن تدخل الطمأنينة الى قلوب تجارنا حتى لا يمتنعوا عن السفر لموانئ السلطان لذلك يرجى من السلطان أن يساعد التجار على الرحيل فى الوقت المناسب بعد تسويق بضائعهم وحسب رغبته وظروف قباطنة السفن بدون الحاجة الى تصريح سابق . وكل ما عدا ذلك سيكون من السهل تدبيره .

وفى ما يختص بانتخاب قنصل جديد فسيجرى هذا العمل فوراً ،

فور اجابة مطالبنا ، لأن الصداقة الجديدة تتطلب هذا العمل لكى نستأنف علاقاتنا الطيبة مع السلطان كما كانت وحسب عادتنا فى السنوات السابقة ولمصلحة كلينا .

قرار

الآن يتقرر كتابة خطاب بهذا للسلطان ويرسل مع رسول الى القاهرة كما يجب الاجابة على خطاب السلطان وأن يكون كالآتى :
(أنظر بعده رقم ٩) .

ملاحظات : هذه الوثيقة عن محادثات السناتور عبارة عن :

١ - اتفاقيات ومباحثات تغرى بردى سفير السلطان الغورى مع مندوبى اليندقية .

٢ - اتفق الطرفان على المسألتين المسجلتين بهذه الوثيقة الا أن السفير تغرى بردى أحجم عن تسجيلها وتوقيعها قبل أخذ رأى السلطان نفسه .

٣ - رأى السناتو مسجل بهذه الوثيقة بالموافقة على أن يرسل نسخة منه مع مندوب خاص للقاهرة لعرضه على السلطان ومعها خطاب من السناتو الى السلطان ، برجاء الموافقة . (الخطاب بعده رقم ٥ بنفس التاريخ ٢٦ أكتوبر ١٥٠٦) .

خطاب ملحق لرقم (٥)

٢٦ أكتوبر ١٥٠٦

خطاب السناتو الى السلطان الغورى بشأن المباحثات بين سفيره تغرى بردى ومندوبى حكومة الجمهورية على ما اتفق عليه الطرفان فى الوثيقة السابقة برجاء الرد بالموافقة .

(٥)

26 Oct. 1506, : Delibération du Sénat au Sujet de la Mission de Tanghribardi
Ambassadeur Egyptien à Venise. (Senato Secreta Reg. XLF. 192.)

من الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر وترجمته

السيد السلطان الأفخم

حضر الى دولتنا الفخيمة « تغرى بردى الفخيم سفير عظمتكم »
وقد أكرمناه اكراما لكم واستمعنا له ، وفهمنا ما عرضه علينا باسم
عظمتكم ، طبقا للخطاب المرسل بعد الينا ، لأجل مناقشة المسائل
المتعلقة بالتجارة والتجار وانه طلب منا أن نناقش الموضوعين . وأن
نعين له مندوبين عن حكومتنا للتفاوض معه ، حتى يستطيع توضيح
موضوع سفارته لنا وتوضيح ما يريده لفائدة وراحة كل من
الطرفين .

وقد اجتمع الطرفان أكثر من جلسة وفحصوا بعناية المصاعب
والخلافات ، ثم وجهوا الينا بكامل هيئتهم متفقين على شروط خاصة
وضرورية نرجو من سموكم الأعظم الموافقة عليها ، لأنه بدون هذه
الشروط سيصبح من العسير على التجار أن يستمروا فى الوصول
الى بلادكم لأن تجارتهم ستعرض للخسارة .

وقد قال السفير تغرى بردى خلال المحادثات انه ليس لديه
تعليمات أخرى . ونحن نتعجب كيف ترسلون سموكم شخصا مسؤولا
مثل هذا السفير دون أن تكون لديه الصلاحيات الكافية لعمل
شئ مهم أو الاتفاق على شئ مهم ، ولأنه لا يملك ابرام الاتفاقيات
فهو مضطر لارسال خاصكى من لدنه لسموكم لطلب الموافقة على
المفاوضات معنا ... ان أزمة عدم الثقة هذه لا تسمح اطلاقا بالاتفاق
اذ كيف يقتنع التجار بهذه الشروط ومفاوضهم لا يملك الصلاحية
لابرامها ... ؟

ولكى يكون سفيركم ملما بالموضوع ، فانا نخبره بما اتفق عليه
أولا بأول لكى يكون على علم بالتفاصيل ليسردها لسموكم . ونحن
منتظرون رد سموكم ، كما أنكم ستقدرون تماما وبكل حكمة حالة

البندقية التي أظهرناها مرارا وتكرارا لسموكم مع اخلاصنا لكم . هذه الروح لم تتغير اطلاقا ، وحيث اننا نشاء أن يكون السلطان بنفس هذه الروح وكذلك السفير فاننا لا نشك في أن هذا السفير سيوضح لكم تفاصيل الموضوع حيث انه رجل عاقل وحكيم .. والله القادر على كل شيء يتعطف علينا بالخير والبركات .. وانا تأمل أن تجزوا الجزء الأوفى لمن كان السبب في هذه الغلطة التي أدت الى هذه الاضطرابات والتي قضت على المعاملات الطيبة التي ظلت بيننا قرونا طويلة ، ونتج عن ذلك خسارة فادحة لدولتنا . ان هذا اذا تم سيكون له أبعد الأثر في اصلاح الحال وسيرضينا .. ويقضى على الأشرار .

ونرجو الله أن يطيل في سنى حياتكم يا عظمة السلطان باذن الله ، ومن الآن ليكن مقررا أنه اذا لم يتم الاتفاق على ما وضعناه بقرارنا وبعد المفاوضة مع سفيركم فانه لن يحق لأي مواطن منا أن يرسل الى الاسكندرية أو أى جزء من بلادكم سفنا أو سلعا ولا يتعاقد مع أى فرد بأى سلعة لمدة عشر سنوات على الأقل (٥) .

ملحق رقم (٦)

١٦ ديسمبر ١٥١٠ - البندقية

خطاب من جمهورية البندقية الى السلطان تشكو فيه من أن عمال السلطان يعملون على ترحيل سفن المدة قبل انتهاء المدة أحيانا وبعد انتهاء المدة بوقت .

تابع (٥٥) Lettre au Sptan au Sujet de la mission de Tangri Bardí son Ambassadeur à Venise.

من الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر وترجمته

١ - برجع السفن من رحلتها لاسكندرية كالمتعاد ، عرض علينا التجار والقباطنة أن موظفى فخامتكم بالاسكندرية حاولوا تعقيد المعاملات فى بداية الموسم « المدة » وتقصيرها لدرجة كبيرة لا لبضع أيام ولكن لساعات قليلة ، وهذا بالطبع عمل لا يلائم مصالحنا ولذلك يعودون بدون تسويق كل سلعهم وفى ذلك منتهى الخسارة لهم ولنا . وقد بدا لنا أن نكتب اليكم هذه الرسالة لتوضيح الأمر لفخامتكم .

٢ - كما أن عمالكم قد عطلوا علينا أعمال ديوان الوزان وديوان القبان على غير ما تعودناه سابقا اذ يعطون لتجارنا توابل بالقصر غير المتفق عليها وتكون النتيجة خسارة لنا وللتاجر كما أنهم يجبرون على أخذ كمية كبيرة من التراب مع التوابل عنوة . ونظرا لأن المغربلين قد صمغوا الغرايل لكى لا ينزل التراب من ثقوب الغرابل ففى هذا خسارة كبيرة لنا وهو عمل غير أمين اطلاقا ، وكذلك أنقصوا المعيار حوالى ٧٪ أكثر من المعتاد وكل شئ لفائدتهم ولكن لخسارتنا مما لم نتعوده من قبل .

٣ - سمعنا بكل أسف عن الضرر الذى ارتكبه الفرنسيون ضد مصالح فخامتكم فى الأيام السابقة ، وان هذا يعتبر غدرا كما فعلوا لعدم انضمامنا اليهم لكى نحافظ على ايماننا وعهدنا كما جرت عادة دولتنا .

٤ - ونظرا لأن تجارنا راغبون فى زيادة وتوسيع تجارتنا على عهد حكومتكم الرشيدة ونظرا لأن تصرفات عمالكم تقلل من هذه المعاملات ضد رغبتكم فائنا طمنا تجارنا وشجعناهم حسب ما نعرفه من رغبة فخامتكم فى توسيع نطاق التجارة وقد وعدنا

تجارنا بأننا سنسمع السلطان كل ما يتعلق بهذا الأمر لأمكان الاستمرار في المتاجرة معه وإن صدقتنا لكم ستعاوننا تماما في معالجة الأمور بالعدل كما نرجو معالجة أمر عمال السلطان في موانئ مصر وسوريا ويسرنا أن نسمع هذا من فخامتكم وإن الأخطار السابقة لن تتكرر وإن تجارنا لن يفقدوا العدالة بين موظفيكم حتى يستطيعوا المتاجرة بأمان لذلك نرجو من فخامتكم عدم نسيان الاجراءات اللازمة لذلك ، ولعل هذا سيعود بالفائدة لفخامتكم ودولتكم ودولتنا .

٥ - وقد أرسلنا سفننا الى الاسكندرية وبيروت ، في المدة من ١٥ من أبريل القادم حيث ان تجارنا يمكنهم عرض سلعهم وكذلك شراء سلعكم لذا نرجو فخامتكم أن تأمروا عاملكم بالاسكندرية وبيروت بارسال وتشهيل السفن المذكورة مباشرة بعد تحميلها بعد فترة المدة بحيث انهم في الوقت المناسب يستطيعون أن يتموا رحلتهم .

٦ - ولكي لا ننسى الصداقة التي بيننا فاننا نبلغ فخامتكم أنه بفضل الله تعالى القادر على كل شيء. اننا قد استرددنا بواسطة قواتنا العسكرية جزءا كبيرا من الأرض والقلاع التي كانت قد احتلت بواسطة أعدائنا الذين جاءوا مرتين لحصار مدينتنا « بادوا Padua » بحوالي ١٠٠٠٠٠ شخص وهزمناهم وهم يتراجعون الى مدينة « Verona فيرونا » - ونأمل أن تعاوننا العدالة السماوية في استرداد باقى ولاياتنا بواسطة جيشنا القوي الموجود بالريف الآن ونحن حاصلون الآن على رضا البابا المعظم وانضمت جيوشنا لجيوشه بقصد طرد الفرنسيين أعدائنا الذين هم أيضا أعداء فخامتكم كما ثبت من تجارب عديدة تعرفونها فخامتكم . وقد تعاطفت الشعوب معنا للدفاع عنا بسبب العدالة التي كنا

ولا نزال ندافع عنها ، وخاصة أنهم عرفوا الآن الغدر والخيانة
التي يمارسها الفرنسيون وبقي جزء كبير من أسطولنا في بحر
جنوة لمعاونة البابا ضد الفرنسيين . ونظرا لأن هذه الشواطئ
خطيرة فأننا وضعنا الأسطول في جزيرة كورفو لكي يقضى بها
الشتاء وفخامتكم ستسرون لسماع هذه الأنباء الطيبة التي أردنا
أن نبلغكم إياها كما هو مطلوب منا رعاية للود والثقة بيننا .
حاشية : بعد كتابة هذا كله نأسف أن نبلغكم أن عمالكم حجزوا
سفننا وتجارتنا بعد فترة المدة بوقت طويل في موانئكم ، وهو
شيء لا ينتظر منكم ولا سيما للصدقة التي بيننا والتي
جربتموها مرارا وتكرارا (٦) .

ملحق رقم (٧)

البندقية ٢٠ يناير ١٥١١

خطاب من جمهورية البندقية الى السلطان تشكو فيه من
الاجراءات الانتقامية التي اتخذت ضد مواطنيها بسبب مراسلتهم
واستقبالهم مبعوث الشاه الصفوي .

السيد السلطان الأعظم الأفخم .

١ - في الأيام السابقة سمعنا أن سيادتكم قد استدعيتكم الى القاهرة.
القنصل في دمشق والاسكندرية وتجارتنا وأخذتنا الدهشة . وفي
نفس الوقت تضايقنا مما حدث للقناصل وخاصة قنصل دمشق.

Venise, Senato Secreta, Reg. XLIIIIF 172 V.

(٦)

Lettre au Sultan où Venise se plaint des ses agents qui font partir les galères avant ou après la « Muda » :

من الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر وترجمته

ونوابه وتجارنا .، وقد رأينا أنه من حيث صداقتنا الطيبة التي اتخذناها دعامة صلتنا بكم ، واحتفظنا بها معكم ومع أسلافكم العظام ، قد تكون شفيعة في أن يكون تجارنا معززين في دولتكم .

٢ - وقد رأينا أن تجارنا ومواطنينا في دولتكم قد وضعوا موضع الأعداء الذين هم أعداء لنا ولكم سرا وعلنا ، وبدون أى رعاية أو احترام .. وهذا سبب لنا الخسارة ولا شك أنه سبب لكم أيضا الخسارة .

٣ - ان هذه المعاملة قد أزعجتنا ولا سيما أننا نعرف أن التحريض آت من أولئك الذين يريدون أن يضرروا بمصالحنا ومصالحكم .. ونحن موقنون تماما أنكم لما تتسلمون خطابنا هذا وتعرفون وتتأكدون من الحقيقة سيعود تجارنا الى مراكزهم وسابق عملهم مع تلافي الخسارة والضرر لكلينا .. ولا شك أنكم ستعاقبون الأعداء ويتبع هذا طبعاً عودة الرحلتين السابقتين بدون أى تردد .

٤ - وقد علمنا الآن أن سموكم مستمرون في حبس القناصل والتجار وان غضبكم منصب عليهم لتسهيلهم وصول رسل الصوفى الينا بدون أن نعطيك خبراً عنه . ونحن نعتز بأننا لم نعطك خبراً، وان كنا بطرق أخرى قد بينا لكم مصير وغرض هذه الزيارة .

٥ - ويسرنا أن نذكر لسموكم أن السفن المذكورة أى سفن المدة المحملة بالبضائع ستصل في مواعيدها وأن ما حدث ما يمنع اطلاقاً من وصولها وذلك نفياً لأى فكرة عدائية تكون قد تسربت الى نفوسكم منا .

٦ - ونحب أن نذكر أنه كل بلاد العالم قد شاركت في تجارة التوابل

من البرتغال ما عدا تجارنا وكنا قد أصدرنا أوامرنا صريحة
لتجارنا وشددنا في ضرورة تنفيذها .

٧ - وإذا كان رسل الصوفى قد وصلوا الى بلدنا فانه لم يكن
باستطاعتنا منعهم من الوصول لأننا اعتدنا صداقة الجميع
والترحيب بالجميع وان كنا قد أغفلنا اعلامكم بهذه البعثة في
حينها فذلك لأن المحادثات بيننا وبينهم لم تكن لها قيمة أو أى
وزن دولى كما أننا لم نسمع منهم أى عرض له وزنه . ونفيدكم
أنه بعد التحيات المعتادة أخبرنا رسل الصوفى أن سيدهم ينشد
صداقتنا وانه مستعد للمحافظة وتجديد الصداقة التى كانت بيننا
وبين أسلافه . وقد أجبنا عن هذا الكلام اجابات عامة - وكنا
لا نريد أن نضايق أسماع سموكم بأمور لا وزن لها ولا قيمة
عن هؤلاء الرسل لذا بدا لنا أن نغفل هذا الأمر البسيط ولا سيما
أننا قد علمنا أن هؤلاء الرسل كانوا بفرنسا قبل وصولهم إلينا
ولم يكن وصولهم إلينا الا مرورا فقط ببلادنا فى طريق عودتهم
الى بلادهم أى أن مقصدهم الأساسى كان فرنسا وليس البندقية
التى مروا بها مر الكرام والتحية . فاذا كان الأمر قد سبب ازعاجا
لكم أو أنه سيسبب قطع العلاقات بيننا وبينكم التى ظلت مئات
السنين فان هذا تتركه لحكمتمكم ونرجو سموكم الا تستمعوا
لترهات الأشرار وألفاظهم ولا سيما الأعداء المفروض علينا أنهم
أعداء لكم ولنا ويجب أن نضع نصب أعيننا فقط التجارب
السابقة والنتائج التى تربت على ذلك .

٨ - ونستطيع أن نؤكد لسموكم أن أى حادث يحدث فى الخارج
لا بد أن نوافيكم به فورا ولا يمكن أن يقال اننا قد خنا العهد
فاننا لا نذيع سرا اذا قلنا ان صداقتنا مع سموكم قد سببت لنا
أضرارا كثيرة ومتاعب فى السنوات الأخيرة ولا سيما فى التجارة

التي أصبحت أسعارها رخيصة بعد وصول التوابل الى لشبونة
ثم موقف البابوية وملوك أوروبا بسبب العداء القديم بين الشرق
والغرب .

٩ - ان حكومة الجمهورية واثقة من أن أعداء الطرفين لا بد سيلاقون
جزاءهم ونأمل أن نكون قد وصلنا الى حد ازالة ما يكون قد
علق بأذهانكم من نحونا ... ونعود نؤكد لسموكم ولعظمتكم
أن أى خبر يحدث لابد من أن يصلكم نبأه عن طريق رجالنا .
١٠ - ونفيد سيادتكم وفخامتكم أننا سوف لا نقدم أى اعتذار
آخر الا اذا أطلق سراح تجارنا وممثلينا وهم واقعون تحت
العقاب الشديد .

١١ - ونفيد فخامتكم كذلك أن جمهوريتنا لا تساعد القراصنة
وخصوصا أننا نتكبد نفقات ضخمة فى اعداد السفن المسلحة
للقضاء على القراصنة كطائفة وعلى الحرفة نفسها كعملية
مرذولة ومكروهة من الجميع فاذا وصل الى سمعنا أن أى تاجر
من تجارنا قد خالف هذه الأوامر ولم يحترم أمرنا فى عدم
مساعدة القراصنة ، فسنوقع عليه عقوبات شديدة ليكون عبرة
لكل واحد ويمكن لسموكم أن تتقو فى كلامنا هذا ...

١٢ - ولا نريد أن نؤكد لفخامتكم مراعاة قناصلنا وتجارنا ومعاملتهم
معاملة طيبة كما نؤكد لسيادتكم أن السفن سترسل فى
مواعيدها ولا تحجز ، ونفيدكم أنه بمجرد علمنا بإبغارها من
طرفكم فى طريق عودتها الينا سترسل السفن الأخرى ، « سفن
المدة التالية » التى ستحمل أموالا وسلعا كثيرة لأن التجار
يرغبون فى المتاجرة بدون انتظار .

١٣ - كما نفيد سيادتكم أننا بسبب ضيق الوقت لم نستطع ارسال
سفيرنا الكبير اليكم السيد « تريفيزاني » وهو سيصلكم فى

ميعاد قريب دليل على حسن نيتنا نحوكم وتوكيدا للصدقة
الطيبة بيننا وبينكم التي كانت منذ مئات السنين وندعو
لسموكم بسنين طويلة سعيدة (٧) .

ملحق رقم (٨)

٣١ ديسمبر ١٥١١

تعليمات للسفير دومنكو ترينفزانى - سفير جمهورية البندقية الى
السلطان .

١ - نحن ليوراندس لاوريدانس بعون الله دوق البندقية .. نأمرك
ونعنيك مندوبا عنا أيها الشريف دومنجو ترينفزانى فارس سان
مارك العظيم من السناتو الى السلطان المعظم ...
انك باسم الروح القدس يجب أن تركب على السفينة المعطاة لك
بقيادة كونتارين وأن تثابر على السير حتى تصل الى جزيرة
كريت ، ربما تجد جواز المرور الى بلاد السلطان فى انتظارك
لتأخذه معك ليسمح لك بدخول الاسكندرية والقاهرة ، واذا
كان جواز المرور لم يصل بعد الى كريت فلا تنتظر وصوله بل
استمر لأنه قد يقابلك بالطريق ، والا فواصل الرحلة حتى تصل
الى ميناء أبى قير ، ثم ارسل أحد أتباعك الى الاسكندرية لتحصل
على هذا الجواز ، واذا حصلت عليه فادخل الى المدينة واعرض
خطابات الاعتماد على أمير الاسكندرية واستخدم معه ألفاظا لينة
ومقبولة وتعطيه الهدية المرسلة له منا لكي يعرف سيادته أننا نقدر
شخصه . ثم تزور السادة الآخرين والعظماء الذين ترى أن من

Venise, 20 Jan. 1511,

Lettre au Sultan où Venise se plaint des représailles contre sa reception
des envoyés du Shah Safouï.
Senato Secreta, Reg. XLIV F. 31.

(٧)

من الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر وترجمته

الواجب زيارتهم ثم تسافر للقاهرة وتصل الى بلاط سمو السلطان
الأفخم بالطريق المعتاد مع الحاشية والحرس حسب التقاليد المرعية
والتعليمات المتبعة والتي تؤمر بها ، ولما يتقرر لك يوم التشریف
تذهب رسميا فى موكب فخم يليق بك وبنا ، وتقدم خطاباتنا
وتحييه تحية طيبة وتمدحه بالفاظ عذبة باسم دولتنا وتهنئه بصحته
ورخاء بلاده وعزتها وترسل له الهدايا الخاصة به فوراً باحتفال
عظيم وبحضور مواطنينا فى بلاد السلطان ، واننا متأكدون أنك
ستعمل هذه العملية بهمة ونشاط . وسوف لا يتم بحث أى
موضوع بطريق جدى فى أول جلسة ، ولذلك عليك قبل أن
تبارح المكان أن تحدد مع رجال السلطان مقابلة أخرى مع سموه
لعرض ما سنذكره لك الآن .: وخلال المقابلة الأولى عليك أن
تجتهد وتحاول بالمهارة المطلوبة منك أن تجعل نفسية السلطان
فى حالة طيبة بالنسبة لنا وخاصة مع حاشيته ، والذي لا يستطيع
التحدث فيه بتوسع عليك بتأجيله فيما بعد للوقت المناسب ...
ثم تطلب التصريح لك بزيارة عظمة السلطنة لكى تهديها هدايانا
كذلك ، ثم تزور كبار الأمراء وتعطى لكل هدية ...

٢ - وفى مقابلتك الثانية مع السلطان عليك بتحيته أحسن التحيات
وبكلمات مناسبة ثم تضع أمام عينيه المبادئ ورءوس الموضوعات
التي ستتحدث عنها فتبدأ أولا : بإيضاح وجهة نظرنا وتلتمس
الأعذار لدولتنا بشكل واضح عن تأخير ارسال السفارة الى
بلاط جلالته وتنسب التأخير الى الأحداث العظيمة التي صادفتنا
منذ ثلاث سنوات بسبب خيانة ملك فرنسا الذي ظل فى حلف
معنا قرابة عشر سنوات وأفاد منا افادة عظيمة ثم امتلأ بالاثم
والشهوة وحب السيادة والسيطرة فلم يتورع عن الحث بالعهد
المعطى لنا منه كما حث بكل التزاماته وتحالف مع أعدائنا ضدنا

وكان يطمع فى أن يتغلب علينا ويوسع دولته على حسابنا ، وبالرغم من أننا قد تحملنا خسائر كثيرة فأننا بالمساعدة الآلهية دافعنا كثيرا حتى عادت الأحوال الى ما كانت عليه ونأمل أن تتحسن أحوالنا كذلك ، وأن أى فرد يحاول إيذاءنا سينال عقابا صارما من العناية الآلهية . وقد عقدنا حلفا فى أكتوبر الماضى فى روما مع فخامة البابا المعظم وأصحاب الجلالة ملك اسبانيا . وانجلترا ، وقد أخبرنا سيادتكم به فى حينه ، ويوجد فى الميدان الآن جيوش تابعة للبابا ولنا ولاسبانيا وسيعمل ملك انجلترا مثلنا . وعليك أن تخبر عظمة السلطان أن سكان Sguisari المتوحشين والقاطنين بجوار ميلانو ، قد خرجوا واتفقوا مع ملك فرنسا حتى أصبح اسمه مكروها من الجميع لسبب رغبتهم وطمعهم فى السيطرة على العالم . وتستطيع أن تؤكد أن أمره سينتهى بالمصير الذى يستحقه هو وأمثاله نتيجة لاطماع غير محدودة .. وهذا هو السبب الرئيسى فى تأخير ارسال السفير ، وهذا التأخير أردنا الآن أن نعوضه بأن نرسل الى عظمة السلطان سفيرا عظيما هو أنت (تريفزاني) وانك من أعظم رجال السناتو فى بلدنا .. لكى تؤكد لسيادة السلطان مائكنه له من حب وتقدير ورغبة دائمة فى الاحتفاظ بالعلاقات الطيبة معه . كما أننا نحب أن يكون مواطنونا فى بلاد السلطان مستمرين فى علاقتهم الطيبة مع سيادته ، وأن تتحسن على مر الأيام وتزايد كما هو معتاد من مئات السنين وعلى هدى ما ورثناه عن أجدادنا وما سنتركه لذريتنا ليستمر كما استمر من قبل . ولا شك أن طيبة السلطان والمودة التى يغمرنا بها من آن لآخر ستمحو كل أثر تركه أعداؤنا فى نفسه ، على أن استمرار غضب السلطان علينا سيجعل التجار يهجرون أسواقه الى بلاد أخرى ، كما أن السفن التى اعتادت أن ترد له كل عام وتحمل الذهب والفضة والنحاس والقصدير

والحرير والكتان والزيت والفواكه ستتحول عن بلاده ولن تحصل من بلاد السلطان على التوابل وكل المتاجر التي يحصل من ورائها على فائدة عظيمة وفي كل مرة يحدث هذا لا يمكن تعويض الوقت الضائع ..

٣ - ويجب أن تنبه عظمة السلطان الى أعدائنا وأعدائه فهم يعادونه منذ ٥٠ سنة كما أن أعمالهم ضده ، ولا يحضرون بانتظام لبلاده، ويصلون مرة كل ٣ سنوات ، بعكس تجارنا الذين يأتون لبلاد السلطان بانتظام (البندقية هنا توصى سفيرها باثارة أحقاد السلطان وتحويلها عنهم الى الفرنسيين) وكثيرا ما يقومون بأعمال القرصنة أمام الاسكندرية بعكسنا تماما . وقوات قراصنتهم تختمى برودس مقابل ٣٠ أو ٤٠ ألف دوكات من الحكومة الفرنسية . وسيادة السلطان يعرف جيدا هجومهم الأخير على سفنه وأنهم حاولوا بالدس والوقية والحيل أن يتسببوا في الاضرار بنا وبه . ونحن لا نريد أن نتعب فخامة السلطان في العمليات الأخرى الواسعة المؤسسة التي يقومون بها لأننا واثقون من أنكم تعرفون هذا فعلا وانكم حازمون وتدركون الأمور على حقيقتها وأنكم تسرون في نفس الطريقة التي سار فيها أسلافكم العظام . وما نقول هذا الا لمصلحتكم ومصلحتنا ..

٤ - واذا كان فخامة السلطان قد غضب لأن بعض رجال الصوفى قد وفدوا الى بلادنا منذ ٣ سنوات بالرغم من أننا قد برأنا أنفسنا من ذلك في خطابات وسفارات سابقة ، فعليك أيها السفير أن تعيد تبرئتنا مرة أخرى وتؤكد أنه وجودهم لم يكن لأسباب ضارة بالسلطان وليس في الموضوع أكثر من أن الشاه بادلنا العواطف والمودة فبادلناه بها وهو ما تفعله مع الجميع . واتنا على استعداد

لإثبات حسن نيتنا نحو فخامة السلطان ، هذه النية الطيبة التي كانت ولا تزال قائمة لم تتغير كما أننا نبادله عواطف صادقة مخلصة ونرجو أن تستمر . ولكي نثبت له حسن نيتنا فإننا نترك في بلاده تجارنا وسفراءنا وكميات كبيرة من الذهب والفضة كما يشاء السلطان . وعليك أيها السفير أن تلفت نظر السلطان الى أن تجارنا لم يحصلوا على فلفل من بلاده لأن أثمانه القديمة سببت لنا الخسارة بسبب انخفاض الأسعار في أسواق البرتغال كما أن تجار أوروبا أصبحوا الآن يتجهون الى أسواق لشبونة لطلب التوابل . وقد دعينا لمشاركة البرتغال في الأرباح العظيمة وأن نقوم بنفس العمل وبأرباحه ولم نستمتع لهذا الكلام بل منعنا تجارنا من الذهاب الى لشبونة وداومنا الوصول الى أسواق السلطان كالمعتاد حتى لا يشك سيادته في اخلاصنا أو في أننا نميل الى الشاه ضده أو الى البرتغال أو الى ملك فرنسا ، ان مودتنا لا تنفصل عن مودة السلطان وتستمر الى مالا نهاية ..

٥ - عند وصولك الى الاسكندرية تكون السفن الموسمية قد حملت وانتهى الموسم فعليك بالتنبيه بسرعة الرحيل بدون تأخير ولا سيما سفن بيروت التي أرسلت منذ أيام الى ساحل سوريا ..

٦ - اذا كان تجارنا وقناصلنا محبوسين في القاهرة فعليك أيها السفير أن تعمل على اطلاق سراحهم ومباشرتهم أعمالهم ، وهو أمر سهل بالنسبة لك ، وبما أن السلطان يعرف اخلاصنا وسابق تجارتنا معه فانه سيسهل لك الأمر .

٧ - وأرفقنا بهذا الخطاب نص المفاوضات والاتفاقيات التي عقدت عام ١٥٠٧ مع مندوب السلطان تغرى بردى ، وبما أن نيتنا قد استراحت لهذه الاتفاقية فان شروطها لا بد من مراعاتها ، وقد أقسم الترجمان تغرى بردى باسم مولاه على احترام نصوصها ،

فاذا عرض لك أو سمعت من أحد تجارنا أنها لم تحترم ، ولم تراع ، فعليك بكل قوة وشدة أن تطلب احترامها وتنفيذ بنودها ..

٨ - واذا اضطررت الى المناقشة والجدال فيما يختص بالهدايا المرسلة للسلطان المعظم بواسطة نائبنا فى قبرس وانها لم تنتخب كما يجب وحسب مشيئته فعليك باعتذار عن ذلك وبأنك لا علم لك به وانك ستكتب الى قبرس لمراعاة ذلك ارضاء لفخامة السلطان ..

٩ - طلبنا عدة مرات أنه فى حالة مفاجأة الزوابع لنا ليلا يجب أن يؤذن للسفن بأن تلجأ للميناء وبدون استئذان وهو مطلب عادل ويمكن الحصول عليه وأن السفن يمكن أن تغلق بعد أربعة أيام من انتهاء «المدة» دون الحصول على أمر أو اذن بذلك آخر ..

١٠ - ديوان القبان - كما ستعلم من قناصلنا - هو بصفة خاصة من الأهمية بالنسبة لنا بحيث اننا لا نود عمل تغييرات فى هيئته لخدمة مصالحنا ونأمرك بعد أن تحصل على معلومات فى هذا الشأن أن تحصل على تأكيد بعدم تغيير هذه الهيئة على وجه الاطلاق وان يراعى ما هو واجب وعدل .

١١ - ويجب أن تجتهد فى الحصول على ذلك فى أمر مربع وليس أمر طويل الذى يكلف كثيرا ، ولأن الأمر المربع واجب الاحترام والتنفيذ بعكس الطويل .

١٢ - كل ما سيذكره لك قناصلنا وتجارنا وهيئة التجار بالاسكندرية ويبروت ودمشق هو لفائدة تجارنا وتجارنا ، فيجب أن تنصت لهم وتطيعهم وتجتهد فى الحصول على طلباتهم وان تهتم تماما بالنفع والفائدة لطائفتنا وتجارنا حسب مصلحتنا .

١٣ - لا تحدد لك وقتا لبقائك لهذه السفارة بل ان لديك من الوقت ما تحتاج له ، فقط عليك استخدام لباقتك فى الحصول على ما طلبناه بأسرع ما يمكن حسب قصدنا . وفى الوقت الذى ستمكث فيه فى القاهرة تجعل السفينة المذكورة تنتظرك فى المكان المناسب حتى تكون مستعدة للرحيل فى أى وقت .

١٤ - من حيث انك قد تحتاج الى الأموال فى بعثتك هذه ، قرر مجلس السناتو أن يعطيك قنصل الاسكندرية وقنصل دمشق حسب طلبك كل ما تريد اتفاقه بالكامل .

١٥ - لما تصل الى كورفو وكريت شرقا عليك أن تحصل على مركب آخر ضمانا للأمانة، مركب آخر من مراكبنا من أسطولنا المنتشرة فى البحر المتوسط أفخم من هذه وتصل بها للاسكندرية . وبعد وصولك تسرح هذه السفينة لترجع لوحدها بالأسطول .

١٦ - بالنظر لأنه فى مثل هذه السفارة لا يمكن اعطاء كل البيانات والتفصيلات المطلوبة والتي يمكن أن تحدث فائنا لسنا فى موقف ننتظر فيه خطابات منك بشأن كل صعوبة ستقابلها ولا يمكن الاجابة عليها بسرعة لأن المسافة والوقت والرحلة لا تسمح بذلك . نقول لك اننا واثقون من براعتك وانك ستدلل كل عقبة وكل صعوبة تتعلق بالتجارة أو أى شىء يحدث هناك بجانب الصعوبات التى عيناها فى أمرنا هذا لك ، فان لك مطلق الحرية

31 Décembre, 1511.

(٨)

Instructions à Domenico Trevisan ambassadeur au Sultan
Senato Secreta, Reg. XLIV F. 92 V.

1511 — Die Ultimo Decembris

١٥١١ نهاية شهر ديسمبر

(Commissir Viri Nobilis Dominini Travia ani Equitis Procuratoris S. ti
Marci, designati Oratoris ad Serenissimum D.m Sultanum etc...)

من الأستاذ الدكتور توفيق امكندر وترجمته

في التصرف بأي شكل وبأي كيفية تبدو لك أنها أفضل وأسرع من غيرها .

١٧ - يمكن أن تحمل معك نقودا بقيمة ٥٠٠ دوكات على حساب تجارنا بالاسكندرية ودمشق حسب ما هو معتاد حسابه في جمهوريتنا ...

نص اتفاقية السفير البندقي « تريفزاني » والسلطان

« الغوري » ١٥١١/١٥١٢

الاتفاقية التالية بين البندقية والسلطان الغوري من أهم الاتفاقيات التي عقدت بين جمهورية البندقية وسلاطين المماليك وتعرف « بالاتفاقية الشاملة » - وقد حوت العديد من التفاصيل والنظم التجارية التي كانت متبعة في تلك الفترة المتأخرة من العصور الوسطى كما تعطينا فكرة عن حالة التجارة أواخر العصور الوسطى وبعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، وقد أثر ذلك على تجارة مصر وسوريا مما مهد فعلا لسقوطهما في يد العثمانيين ١٥١٦/١٥١٧ .

وقد لوحظ في هذه الاتفاقية أن السلطان كثير القلق والضيق بسبب النقص البادي في إيرادات جمارك الاسكندرية من تجارة البهار والتوابل والسلع الشرقية عامة . وكان يحاول محاولات جدية استعادة مركزه الممتاز في هذه التجارة ، المركز الذي كان له من قبل تحول الطريق الى الهند بحرا حول افريقيا ، ومحاولاته هذه في الواقع كانت فردية وان عاونه بعض أمراء الهند ...

والسلطان بصفته رأس الحكومة هو المسئول الأول والأخير عن رفع أو تخفيض ضرائب الجمارك على السلع الشرقية ، كما أنه بنفسه كان يحتكر التجارة في التوابل .

أما البنادقة فقد ساءهم ما وصلت اليه الحال بعد تحول طريق التجارة الى رأس الرجاء الصالح وأثارهم تباطؤ السلطان واضطروا

أن يتحولوا الى أسواق لشبونة يعبون منها التوابل ، ولم يرسلوا كل عام للاسكندرية الا القليل الأقل من السفن .

وقد صحب تريفزاني الى القاهرة المترجمون والمختصون في الشؤون الشرقية بمجلس السناتو البندقي ، كما كان يصحبه في أمثال هذه البعثات بعض رجال الدين ، وقد يكون ذلك للصلاة أو للطقوس الدينية في حالات الوفاة المفاجئة .

والاتفاقيات الآتية ليست معاهدات بالمعنى المعروف بل هي مجموعة أسئلة يقدمها السلطان وتلقى عليها الاجابات من تريفزاني وبعثته ثم تجمع كلها ليعمل بها الطرفان وكانت تكتب باللغة العربية والايطالية القديمة ، والاتفاقية الواردة هنا مترجمة من الايطالية القديمة الى الفرنسية وهي مترجمة من كتاب

Reinaud, M.

Journal Asiatique. t. IV.

القاهرة في ٥ يونيو ١٥١٢

السؤال الأول (من السلطان) :

اننا اعتدنا بمجرد وصول السفن الموسمية البندقية الى الاسكندرية ، فانها كانت تمارس عملياتها في البيع والشراء بطريق المقايضة (التبادل) لجزء كبير من السلع ويختار القنصل أربعا من التجار البنادقة مواطنيه لتثمين وتحديد سعر التوابل الخاصة بالسلطان (توابل الذخيرة الشريفة) ، ثم تحديد سعر التوابل المشتراة من السوق بالأسعار الحرة ، ويصحب الأربعة المذكورين والقنصل مندوب السلطان الخاص لحضور تقدير أثمان التوابل والبهار . هذه الهيئة هي الموكل اليها تقدير أثمان التوابل السلطانية والتوابل الحرة ، وهذه الهيئة المذكورة لا تنتهي مهمتها في مصر قبل أن تصل الى اتفاق مرض

للطرفين .. السلطان والتجار البنادقة .. وهى فى الغالب تصل الى ما يريح الأطراف المعنية ... هذا ما كان يتم قبلا ، أما منذ عودة سفيرنا « تغرى بردى » من طرفكم فان هذا النظام تغير ولم يعد معمولاً به بنفس الدقة والنظام القديم ..

الاجابة من (تريفزانى) :

ردا على هذا السؤال نقول اننا اعتدنا أن نحدد ثمن ال ٢١٠ أحمال من البهار الذى نشتره كل عام بواسطة الهيئة المذكورة، أما الآن لما أصبح ثمن الحمل الواحد لا يتعدى ٨٠ دوكات فان وجود الهيئة على النحو السابق أصبح غير ذى موضوع ويقال مثل ذلك عن الأنواع الأخرى الحرة من التوابل والبهار .. ومن الآن يكون لنا ولكم مطلق الحرية فى وضع السعر المناسب وتحديد وتأمين التوابل .

السؤال الثانى (من السلطان) :

فى السنوات الماضية كان يصل لميناء الاسكندرية ثلاث سفن موسمية وفى فترة اعداد حمولتها تذهب الى بلاد المغرب وتعود محملة بالبضائع للاسكندرية ، فلما لم تواصل هذه السفن هذا النوع من النشاط التجارى منذ عودة بعثة « تغرى بردى » الى القاهرة من أوروبا ... ؟

الاجابة :

ان جمهورية البندقية لم تحاول أن تقلل من عدد السفن بل هى تحاول أن تجعلها مثلما كانت من قبل .. واذا كان عدد السفن قد قل لسبب خارج عن ارادتنا ، لأن السلام فى البحر المتوسط أصبح متقلبا، وهدوء الملاحة فى هذا البحر هام جدا لتجارتنا فنحن لا نستطيع العمل الا فى بحر مفتوح غير مغلق بالحروب لا سيما وأن ملك أسبانيا فى حالة حرب رسمية مع الولايات البربرية (يقصد البربر) فى شمال

افريقيا فى المغرب وفى الأندلس من قبل، والملاحة مهددة فى كل وقت..
ولكننا نعدكم أنه بمجرد ايقاف الحروب وبمجرد أن تستطيع سفننا
المرور بدون خسائر فانتا سنواصل عملنا المعتاد كسابق عهدنا بكم ...

السؤال الثالث :

ان سفن البندقية كانت تأتى إلينا كل عام محملة بالبندق واللوز
والجوز والزبيب والعنب ويعطى جزء منه هدايا لدار الذخيرة الشريفة
وللناظر والمفتش والقبان ولكل من له صلة بالنقل ، كل هذا! لم نعد
نراه هنا منذ عودة سفيرنا تغرى بردى من أوروبا .

الاجابة :

فيما يتعلق بتوزيع الفاكهة المذكورة نعلن أننا فى غاية الأسف
لسهونا عن هذه العادة القديمة ، وتفسيرا لذلك فاننا قد وجدنا أن
توزيع هذه الفاكهة بكميات كبيرة يؤدى الى خفض سعرها فى الأسواق
المصرية مما قد يؤدى الى الاضرار بتجارة السلطان فتوقفنا عن توزيعه
هبات لان جزءا كبيرا من هذه الفاكهة يباع فعلا بأسعار منخفضة
جدا .. ولا يخفى عليكم أن مكسب هذه السلع قليل ولا يعرى تجارنا
على حملة اليكم ، وهم لا يربحون منه الا الضئيل القليل فى الوقت
الذى نود فيه أن نزيد من عدد تجارنا الوافدين اليكم .

السؤال الرابع :

ان تجاركم كانوا كل عام ملزمون بشراء ٢١٠ أحمال من التوابل
لحساب دار الذخيرة الشريفة ويدفعون لها الثمن نقدا بدون مساومة ...
أما الآن ومنذ وصول سفيرنا تغرى بردى من أوروبا لم نلاحظ اهتمامكم
لتنفيذ هذا القانون بدقة .

الاجابة :

اذا لم يصر السلطان على رفع ثمن الحمل من التوابل الشريفة عن ٨٠ دوكات يصبح بإمكاننا اغراء تجارنا بشراء الكميات المذكورة. آتفا .. واذا رأى سموكم ألا يتنازل عن أسعاره بحجة أن التوابل ليست كسابق العهد وغير مريحة فان الطرفين حينئذ ليسا ملزمين بتنفيذ الاتفاقية .. وعلى أى حال فان سعر الحمل الآن حوالى ٤٠ دوكات ، ولكننا حسب الاتفاقية السابقة نعد السلطان بأن نشتريها بحوالى ٨٠ دوكات على ألا تزيد على ذلك اطلاقا ، وحتى على فرض اذا زاد الثمن فلن ندفع أكثر من ٨٠ دوكات وهو السعر المتفق عليه أما المشتري من السوق الحر فللسلطان أن يتصرف فيه كيفما شاء .. اننا نعدل فى معاملتنا مع الجميع ونحب كذلك أن نعامل بالعدل .

السؤال الخامس :

ان تجار البندقية فى أوبتهم للاسكندرية كل عام كانوا يحملون معهم من السلع : الزيوت والنحاس والرصاص والأنسجة الصوفية والجلود ووبر الجمال والقطيفة ، وحوالى نهاية العام تحمل السفن حاملة هذه السلع ومن يوم وصولها حتى انتهاء « المدة » أو « السوق السنوى » لا يتوانى البنادقة عن البيع والشراء والتعامل مع المصريين سواء بالمقايضة أو بالمقنوعة المتفق عليها بالنقد الذهبى ؟ .. أما الآن فلا يصل الا عدد قليل من السفن بل ان كل سنة لا تصل الا سفينة أو سفينتان موسميتان ، ولا تبسح ولا تشتري كسابق عهدها . وفى النهاية لا تصل أرباحنا حتى نهاية المدة المذكورة لأكثر من مبيعات يوم واحد من السنوات الماضية .

الإجابة :

حقيقة أن سفننا كانت تأتي في بحر السنة وهي محملة بالسلع المختلفة وكان هذا للحرية الكاملة التي كنا تتمتع بها في التجارة في البيع والشراء . شكرا لكم للتسهيلات التي كنا نحصل عليها فإن هذا يعطينا الفرصة مقدما لاحتضار كميات من هذه السلع . أما الآن فإن الحكومة قد رسمت بأن السلع التي تصل لا تباع إلا بسعر مقرر مثل أسعار المدة السابقة عليها ، أو بالسعر الذي يقرر « للمدة » التالية وعلى هذا فإن التجار الذين لا تمكنهم ظروفهم من الوصول خلال «المدة» إلى السوق السنوية فإنهم لا يستطيعون البقاء للمدة التالية وهذا بالطبع يؤدي إلى الاضطراب والانهيار في الحركات التجارية .. ويستطيع السلطان أن يصدر أمره بأن تسرى أسعار المدة على أسعار العام كله حتى « المدة » التالية ليستطيع تجارنا ممارسة البيع والشراء في أي فترة من السنة دون تحديد ضار ..

السؤال السادس :

تصل إلى الإسكندرية كل عام خمس سفن موسمية ، هذا علما السفينتين اللتين تتجهان إلى ساحل المغرب وبلاده ، والسفينة التي نحجزها لخدمتنا الخاصة وبمجرد الانتهاء من البيع والشراء بانتهاء « المدة » تبقى بالإسكندرية كميات كبيرة من المتاجر من الزيوت والنحاس والرصاص والصوف وكلها لا تقل في قيمتها عن ٣٠٠٠٠٠٠ دوكات ، ويصير البيع والشراء والمتاجرة فيها على مدار السنة هي في الواقع تحدث ما يسمى باسم « السوق الدائم في بلادنا » أما الآن فبعد انتهاء المدة لاحظنا أنه لا يبقى من البضائع إلا في حدود ٢٠٠٠٠٠٠ دوكات كما أننا نلاحظ أنه لا يصل أكثر من ثلاث سفن موسمية بمفردها ومعها قليل من المراكب وقليل من السلع .

الاجابة :

فيما يتعلق بعدد السفن القليلة التي تصل وقلة ما تحصله من التوابل ومن السلع الأخرى وهو مالا يملأ أكثر من سفينتين أو ثلاث فردا على ذلك نفيد أنه اذا كانت هذه السفن قليلة فان حمولة الثلاث منها بالتوابل ليس بالقليل فى هذا الوقت ، فخلال القرن الماضى كانت التوابل غير مرتفعة الأسعار : فمثلا أجود أنواع الزنجبيل الذى يساوى ما بين ٨ - ١٠ دوكات للقنطار الواحد فى القرن الماضى أصبح يساوى الآن ٤٥ دوكات ، وأسعار باقى التوابل ارتفعت بهذه النسبة بمعنى أن قيمة حمولة الثلاث سفن الآن تساوى ما قيمته ستة أمثال حمولة سفن العصر الفائت ، وهذا تفسير لقلة وصول السفن وقلة حمولتها فى القرن الماضى .

السؤال السابع :

بعد رحيل السفن الموسمية تبقى السلع طول العام بالاسكندرية وكان يتواجد باستمرار ما لا يقل عن ١٥ تاجرا للمتاجرة بيعا وشراء أما الآن فلا نرى أكثر من ثلاثة أو أربعة تجار على الأكثر وهم ليسوا سوى ممثلى الشركات طرفكم . ونريد تفسيراً لعدم وصول أعداد كبيرة وبقاء أعداد كبيرة منكم هنا للبيع والشراء .

الاجابة :

كان هذا يحدث كلما أحب التجار السكن والبقاء بالاسكندرية وكلما منحت لهم الفرصة للعمل التجارى بحرية كاملة ، أما الآن فلأسباب التى ذكرناها فى الاجابات السابقة لا يبقى الا الرؤساء . فى الوقت الذى سيجد فيه التجار فائدة من بقاءهم سيقفون بل وأكثر مما كانت أعدادهم فى الزمن السابق .

السؤال الثامن :

تجاركم كانوا يبيعون ويشترون طول العام ويملاون مخازنهم بالتوابل فى انتظار عودة سفنهم من رحلتها الفرعية الى بلاد المغرب . وكانوا يشترون فى المعتاد حوالى ٦٠٠ طرد من التوابل أو على الأقل ٥٠٠ لا يدخل ضمنها حساب ما يشترونه من المغرب ، ولدى عودة السفن يقومون بتحميل التوابل بهذه السفن ودفع القيمة المطلوبة لعامل السلطان ثم يشحنونها ويبقون باقى المدة يتاجرون بيعا وشراء حتى نهايتها ، أما الآن فلا نجد بين أيديهم أكثر من ٢٠٠ طرد من التوابل بسبب قلة ما يحملونه الى بلادكم والركود الذى شمل معظم الأعمال .

الاجابة :

نعيد القول بأن حرية التجارة هى التى بإمكانها وضع الأعمال فى حالة طيبة واذا كان بقاء التجار فيه فائدة للسلطان فهو خسارة لتجارنا والسلطان لا يستطيع أن يمن عليهم بشيء من المنفعة لقاء بقائهم بدون عمل حتى « المدة » القادمة .

السؤال التاسع :

يصلنا كل عام ٤٠٠ قنطار من صفائح النحاس وأحيانا ٣٠٠٠ قنطار دون حساب باقى الأنواع الأخرى من النحاس أما فى العام الماضى فلم يصلنا أكثر من ٨٠٠ قنطار من الصفائح النحاسية وليس أكثر من ذلك .

الاجابة :

اجابتنا على هذا أن ما يمنع تصدير نفس الكمية من النحاس كالعهد السابق هو أن الكمية التى كنا نحصل عليها ونصدرها لكم كانت تؤخذ بدون رضانا أو رضا أصحابها ودون موافقتهم فى معظم الأحيان،

وفى مقابل ذلك كنا نعطيهـم مواد ثمينة كالتوابل - أما الآن فإن التجار لا يطمئنون فى معاملة طيبة أو فى الحصول على ما يطلبون مقابل نحاسهم ولا يطمئنون الى أنهم سيبيعون بالأسعار التى يطلبونها لذا لا يتاجرون فى النحاس بعد . وعلينا كذلك أن نضع فى اعتبارنا مسألة السلام والعلاقات الطيبة مع الألمان وحرية التجارة معهم .

السؤال العاشر :

كان يصلنا كل عام من ٣٠٠٠ - ٤٠٠٠ طن من الزيوت وأكثر ، وهذا العام لم يصلنا أكثر من ٥٠٠ طن .

الاجابة :

ان ما يمنع تصدير الكمية المذكورة هو تذبذب الانتاج ، فالزيوت مثلها مثل منتجات الأرض الأخرى ويسرى عليها ما يسرى على غيرها فقد يتجمع فى سنة ما كميات كبيرة وقد يقل فى سنوات أخرى . ان قاعدة نجاح وثناء التجارة هو البيع بحرية سواء كانت الحرية فى الأسعار أو فى نوع البضائع واذا لم يتبع الفرد هذه القاعدة ولم تتح له فرصة البيع بحرية فلا كانت تجارة ولا كان ربح ..

السؤال الحادى عشر :

كان يصل كل عام على السفن الموسمية والمراكب الاحتياطية أكثر من ٣٠٠.٠٠٠ من النقد متعددة الأنواع .. أما الآن فلا يصل بالأكثر الا ٢٤.٠٠٠ دوكات من النقد فى عامين ...

الاجابة :

ان ما كان يجذب رءوس الأموال هنا هو حرية التجارة والبيع والشراء فى التوابل على مدار السنة فى مصر بأسعار ملائمة لكل من المشتري والبائع ولكن الآن بعدما أصبح التاجر مرتبطا بالأسعار فى « المدة التالية » بالسعر الذى يحدده السلطان قبل انتهاء « المدة » القائمة فان أى تاجر أصبح لايجازف بإرسال أمواله وتجارته الى مصر اذ ليس بإمكانه بذلك أن ينظم أعماله التالية وفق ارادته . وعلى أى حال فان البهار الذى يكون الموارد الرئيسية فى تجارتنا معكم والذى يجذب الكثير من التجار ورءوس الأموال لم يعد بإمكاننا شراء كميات كبيرة منه بسبب المبالغة الشديدة فى الأسعار فى مصر .

السؤال الثانى عشر :

اعتاد البحارة لدى وصولهم طرفنا بسفنهم الموسمية عرض مختلف أنواع السلع التى يملكونها كالأصواف والشمع وكلها لا يقل ثمنها عن ٥٠٠٠ر ٥٠٠ دوكات ومبيعاتهم لنا بالنقد وبهذه القلوس يشترون حتى نهاية « المدة » توابل دار الذخيرة الشريفة ومتاجر المغرب .. ونحن كنا نمنحهم مطلق الحرية فى هذا الخصوص ، أما الآن فلا يمكن الشراء طالما أن « المدة » انتهت وهذا مما يزيد فى استيائنا وتذمرنا .

الاجابة :

انه لنفس الأسباب السابق ذكرها لا يمكن اخضاع أو اجبار البحارة لأن يعملوا الا بنفس الأساليب التى يعامل بها التجار ، وفى الواقع ان كثيرين منهم يشترون ليس فقط لحسابهم الخاص بل كذلك لحساب آخرين من التجار الذين لا يتمكنون من المتاجرة بأنفسهم حسب القوانين الموضوعة وليس هناك من الأسباب ما يجعلنا نفرق

بغير العدل بين الجميع فى التجارة . ان القانون والقاعدة العادلة
يجب أن تسود بين كل المواطنين .

السؤال الثالث عشر :

كنا نرى من قبل فى المعتاد أربع سفن موسمية لليندية تتخذ
مركزها باستمرار على ساحل جزيرة قبرص وسوريا بقصد تعقب وطرده
سفن القراصنة ولكن نلاحظ أن القراصنة الآن يتمنون بالماء من هذه
الجزيرة ، بل انها تعتبر وكرا للقراصنة البحرين ونقطة ارتكاز لهم فى
اغارتهم علينا .. بل ان الأهالى بالجزيرة يمونونهم بالماء والميرة وكثيرا
ما هاجموا موانينا عند دمياط ورشيد ويحملون ما يعثرون عليه
وما ينهبونه كما يأسرون الأهالى .

الاجابة :

فيما يختص بجزيرة قبرص فاننا لم نهمل أى مادة تعهدنا بها فى
أى وقت فى أى اتفاق معكم . ومنذ عامين لو لم نستخدم الحزم
والشدة فى سياستنا فى الجزيرة لأصيب الجميع بأضرار جسيمة . فيما
يتعلق بباقي الشكوى فان حكومة الجمهورية سترسل لنائبها فى
الجزيرة ونأمل ألا يحمل السلطان هما لذلك بعد الآن .

السؤال الرابع عشر :

كل الذهب والفضة الذى يصل للاسكندرية سيائك أو عملة
لا تباع الا لدار الذخيرة الشريفة وبسعر السوق الجارى . واذا أراد
بائع هذه المعادن رفع أثمانها فهو فى ذلك السيد المطلق على الأقل
اذا لم يرد استبدالها بتوابل من تجار الاسكندرية وفى هذه الحالة
يؤذن للتجار بترك ما لهم فى دار الذخيرة بدون أى خوف من أن
يختلس منه شيء حتى يتم لهم الشراء ضمانا لأموالهم وضمانا لتجارة
وأموال التجار بالاسكندرية ، وليكن معلوما أنه اذا حدث أن أى

بندقى حاول بيع الفضة لغير دار الذخيرة الشريفة الخاصة بها - فان هذه الكمية تصدر لصالح دار الذخيرة الشريفة .

الاجابة :

اذا كان هناك أى شىء يجب أن تترك حرية تجارته وان تسهل عمليات تداوله والتعامل معه وبه فهو لا شك الذهب والفضة . واذا أجبر أولئك الذين يقومون ببيعه على خطة معينة ولفرد دون فرد فمعنى هذا أن الحرية متعمدة تماما ، وهذا يجعل التجار يحجبون عن الحضور ... ولذا فانه من الأفضل أن يتركوا أحرارا فى عرض سلعهم حسب رغبتهم وبيع فضتهم حسب السوق الجارية . ويهمنى هنا فى ذلك الاهتمام بالموازن كما هو متبع فى البندقية والمدن الايطالية الأخرى .. أما السبب فى نقص الفضة عما كانت عليه من قبل فهو لأن الحرب قد وضعت أوزارها بعد أن وضعت عراقيل ازاء اخراجها من المناجم ، وأما لأن الكمية كبيرة منها قد مرت الى لشبونة لاستخدامها فى شراء توابل الهند وبهارها بأسعار رخيصة ، ونأمل ألا يفهم أى فرد من العامة أن السلطان له اعتراض على هذا الأمر .

ملحق رقم (٨)

الاتفاقيات بين السلطان « قانصوه الغورى » والبندقية عن طريق السفير البندقى « تريفزانى » فيما يتعلق ببيع ال ٢١٠ أحمال من التوابل احتكار خاص السلطان .

ان تجار البندقية المتفاوضين مع رجال السلطان ، بناء على حث السلطان لهم لاتمام المهمة قد انتهوا فيما بينهم على اعطاء السلطان

مبلغ ٦٠٠٠ أشرفى ثمنا لبهار « ثلاث سنوات » مقدما بمعنى أن قيمة توابل السلطان لكل سنة هي ٢٠٠٠ أشرفى . ولما كان السلطان يبدو غير موافق فان هيئة المفاوضين بعد أن حاولت واستخدمت عدة طرق وافقت بعد جهد جهيد على الشروط أدناه ، وذلك بحضور القنصل والتجار الذين يتاجرون بالاسكندرية .

الاتفاقية

١ - فيما يختص بالمائتين والعشرة أحمال من البهار : اذا جعل السلطان ثمن الحمل الواحد ٨٠ دوكات طبقا لاتفاقيتنا وطبقا لأوامر الجمهور فانتا نجد أنفسنا مضطرين لأن نقوم بالتنفيذ .

٢ - اذا كان سمو السلطان لا يريد التعامل معنا على أساس هذا السعر اما لأن تجارة البهار لم تعد مربحة واما لأنه يستطيع أن يفعل ما يشاء : فان البهار لا يساوى فعلا الا ٤٠ دوكات للحمل الواحد ونحن لا ندفع الزيادة الا لخاطر السلطان .

٣ - أما باقى الشروط فانتا تترك الحرية الكاملة للسلطان لوضع ما يلائمه من شروط مع عدم الاضرار بنا وعلينا الموافقة والتنفيذ على أنه اذا وافق السلطان على طلبنا ولم يعمل على رفع السعر عن ٨٠ دوكات للحمل الواحد ، فان الجمهورية توافق على المتاجرة بما قيمته ٥٠٠٠ أشرفى لكل مدة سنويا ، من السفن الموسمية التى تصل من البندقية الى الاسكندرية وتدفع مقدما قيمة ثلاث سنوات وهو ١٥٠٠٠ دوكات أشرفى .

٤ - وقبل أوبتنا لوطننا فانتا تأمل فى سمو السلطان الأفخم بأن يسمح وهو العادل بأن يأمر رعاياه وموظفيه بعدم اجبار تجار

البندقية على شراء البهار رغما عنهم لا . بطريق المقايضة ولا بالنقد
والا يجبر على أن يشتري بسعر حدد من قبل سوى سعر البهار
الخاص بالسلطان عن طريق الذخيرة عامل دار الذخيرة الشريفة
أى ١١ ٢١٠ أحمال السابق تحديد سعرها . وبعد الانقضاء للثلاث
سنوات المذكورة أو الثلاث مدد المذكورة سنقوم بعمل ترتيب
جديد ان شاء الله ، وكما نود أن يكون التحسين كاملا فى الأمور
كلها ، فان كل شئ سيسير حسب راحة وسرور السلطان .

هـ - اذا حدث بطريق المصادفة أنه بعد هذه الثلاث مدد أن السلطان
لم يوافق على الاستمرار بالعمل على أساس سعر الحمل ٨٠
أشرفيا سلطانيا فان حكومة الجمهورية فى هذه الحالة لا تكون
ملزمة بأن تحمل المبلغ الذى تدفعه فى كل مدة ٥٠٠٠ أشرفى
كسابق العهد لكل مدة وبنفس الشروط المعمول بها الآن .

ملحق (٨ ب)

ان التجارة فى هذا الوقت المبكر من القرن ١٦ وأواخر الحكم
الممالكى بدأت تتدهور حتى ان الدخل السلطانى قل بدرجة كبيرة ،
وساء السلطان برغم الاتفاقية السابقة أن تصل تجارته لهذه الدرجة
وأخذ يسترجع العظمة والدخل العظيم اللذين كانا لتجارته من قبل ،
وجأ بالشكوى واتخذ تدابير جديدة فقدم طلبات للسفير البندقى
تريفزانى على شكل أسئلة ويرد السفير باجابات .

السؤال الأول أو الطلب الأول :

اعتاد البنادقة بعد وصول سفنهم الموسمية البيع والشراء بطريق
المقايضة لأهم أجزاء حمولتهم بعد أن يوافق القنصل على ثمن توابل
الذخيرة الشريفة ولكن هذا لم يتم فى السنوات الأخيرة .

الاجابة :

اجابتنا على ذلك أننا سنعمل جهدنا على انتهاء كل المسائل الخاصة بالسلطان مع مدير أعماله على أن تكون هي في المقدمة على كل الشئون .

السؤال الثانى :

فى كل عام يظهر للبندقية ثلاث سفن موسمية وهى بعد أن تبحر جيئة وذهابا عدة مرات على طول الساحل الافريقى ، تحمل التوابل من الاسكندرية الى بلاد المغرب لحساب تجار الاسكندرية وكذلك للجزر القريبة فان هذا كان يؤدى لمنفعة كبيرة لدار الذخيرة الشريفة والجمرك وتجار الاقليم .

الاجابة :

سنعمل على ارسال السفن التى ذكرتموها طالما أن ليس هناك أى خطورة فى الطريق .

السؤال الثالث :

ان البنادقة لدى وصولهم الى الاسكندرية بالفواكه كان من عادتهم ترك جزء منها لمن هم فى خدمتهم بموجب عملهم ...

الاجابة :

سنعمل على ابقاء هذا طبقا للعادات القديمة .

السؤال الرابع :

كانت العادة أنهم يحملون كل عام ما حمولته ٢١٠ أحمال من البهار بمعنى أنهم يحصلون على ٢٠٠ حمل من توابل السلطان وعشرة أحمال من عامل الخزينة هذا هو التقرير الذى رفعه اليينا القاضى علاء الدين وكيل دار الذخيرة الشريفة . هذا لا يتم الآن .

الاجابة :

ان مبلغ ال ٥٠٠٠ أشرفى تدفع فى كل مدة لصالح ال ٢١٠ أحمال
من البهار دون تجزئة .

السؤال الخامس :

ان السفن الخاصة بالبناقة تحمل كل أنواع المتاجر من نحاس
وفضة وهى غفل والزئبق والزنجفر والجوخ والقصدير والقطيفة
والزيوت والغراء .. وتصل السفن الخاصة بكم حوالى نهاية العام لكل
أنواع السلع فيسير البيع والشراء بطريق التبادل فيما يختص بالتجار
الذين يشترون نقدا ويتم الموافقة على دفع الثمن قبل انقضاء فترة
المدة .. والآن لا يصلنا الا عدد محدود من السفن .

الاجابة :

أشرنا الى هذا سابقا ، وفيما يختص بهذا الموضوع فقد
وافقنا عليه .

السؤال السادس :

تصل كل عام فى المعتاد خمس سفن موسمية للبندقية مع اثنتين
أخرين وبعض السفن الصغيرة ، وبعده انتهاء المدة ورحيل السفن
الموسمية تبقى بالاسكندرية سفن الزيوت والسلع الأخرى ، ومعها
الفضة وتبلغ قيمة السلع على وجه العموم ٣٠٠٠٠٠ أشرفى ويواصلون
بعدئذ البيع والشراء حتى عودة السفن الموسمية ، والآن لا تبقى على
أكثر تقدير من السلع ما قيمته ٢٠٠٠٠ أشرفى ولا يصل أكثر من
٣ سفن موسمية ومعها بعض السفن الصغيرة .

الاجابة :

لعل العجز البادى هنا يرجع الى الحروب .. وهذا خارج عن
ارادتنا .

ملحق رقم (٨ ج)

تعليمات

- ١ - لا يستطيع أى فرد من الفرنجة أن يبقى بالقاهرة أكثر من ثلاثة شهور وألا يشتري من التوابل ما يشاء باسم غيره « يهودى أو مغربى » انما له أن يشتري ما يشاء باسمه الخاص .
- ٢ - فى حالة مخالفة هذا القانون ، فإن السلع المشتراة تصدر لحساب « دار الذخيرة الشريفة » ، وعلى الفرنجى المخالف أن يتحمل القصاص الذى يفرضه عليه السلطان ، وليس من المصرح لآى فرنجى أن يتزوج من القاهرة أو يبقى بها كجاسوس ، وعلى الجميع أن يعرفوا التعليمات لدى وصولهم بلادنا .
- ٣ - ان الأقمشة التى تحمل الى مصر كانت فيما سبق متساوية الأطوال جميلة المنظر أما الآن فهذا النظام يسرى على الثلاث أذرع الأولى فقط من الثوب أما الباقى فيدعو للرثاء حقا .
- ٤ - يبدو أنكم تلفون الثوب دون تنديته حتى يبدو أطول ومرنا ، ولكن بعد أن يفصله المصرى ويفسله ينكمش وينقص ، ونقصه هنا نقص مزر - نرجو مراعاة ذلك فى المستقبل .
- ٥ - للعربى الحق فى رد الثوب الذى يباع له دون أن يتل واذا قبل شراؤه على حاله دون بله فلا دخل لنا فى ذلك .

ملحق رقم (٨ د)

بعض النظم التجارية الخاصة بتجارة البندقية فى الاسكندرية بناء على طلب القنصل وتجاره بالمدينة .

يجب مراعاة الآتى :

- ١ - بعد وصول سفن البنادقة الموسمية الى ميناء الاسكندرية تتم

أعمال البيع والشراء حسب الاتفاقيات السابقة ، ثم يبقى تجار البندقية مدة ثمانية أيام لدفع أموال دار الذخيرة الشريفة ووسق السلع التي اشتروها ، وبعد ذلك يتصل حاكم الاسكندرية مع مدير أعمال السلطان ، ويكتبون لبلاط السلطان بانتهاء الأعمال المطلوبة ويطلبون تحديد موعد الرحيل فاذا جاء التصريح يطلق للبنادقة حرية السفر ، هذا اذا لم يكن هناك ما يعترض عليه أو اذا رغبوا هم فى البقاء .

٢ - كل المعادن الثمينة (النقدية) سواء كانت عملة أو خام التي يحضرها البنادقة لابد من دفع الرسوم الجمركية المفروضة عليها للسلطان لامكان ادخالها الى البلاد ثم بعدها يمكن البيع والشراء لمن يريد من البنادقة بمنتهى الحرية ويحظر على البنادقة بيع هذه السلع المالية على ظهر السفن الموسمية أو على أى سفينة أخرى عادية .

٣ - كل الأعمال التجارية التي تتم نقدا تكون قيمة السمسة المستحقة عليها هي ١٠٪ واذا حدث أى تغيير تصير ١١٪ فيما يختص بالتوابل التي لم تحدد أثمانها (الحرة غير ال ٢١٠ أحمال توابل شريفة) يسرى عليها سعر السمسة الجارى تداوله .

٤ - لا يجبر أى بندقى على بيع تجارته بالدفع المؤجل سواء كانت سلعة أو عملة أو معدنا ، كما أن العامل المختص لا يبالغ فى عمليات السمسة الصغيرة بأكثر من ٤ مدين لكل ١٠٠ دوكات أما حق الترجمان فلا يدفع الا بعد شراء التوابل وانهاء فترة المدة وحقه لا يزيد على ٤ مدين لكل ١٠٠ دوكات (Medins)

٥ - للتاجر البندقى حق البيع والشراء بحرية - أما من يصير منهم تسجله لدى القبان (ديوان القبان : Gaban) فلا يمكن ابطاله

أو شبطيه أو منعه من المتاجرة ، أما من لم يسجل فمن حقه أن يطالب بتسجيل اسمه .

٦ - للقنصل البندقي الحق في البيع لحسابه الخاص نقدا في حدود ألف دوكات سنويا بالنقد .

٧ - ما يدفع للقنصل يخضع للقانون والنسبة التي يحصلها القنصل لحسابه تعرف باسم Honoraris (وتعرف بالعريضة باسم « العلوفة - الذخيرة » وأيام الممالك كانت تقابل « جامكية » وكانت بدايتها في معاهدة بين جمهورية بيزا وأمير تونس وفيها يدفع التجار جعلا معيناً لصالح القنصل) (في مرسيليا كانت الغرف التجارية تحصل رسماً كهذا لصالح القنصل وينص عليه في المعاهدات التجارية) .

٨ - يحق للقنصل انزال النبيذ الخاص باستعماله واستعمال مواطنيه الخاص .

٩ - لا يجبر على تأجير مراكبنا أو شحنها أو تفريغها بالقوة وبدون ارادتنا وإذا واجهت سفننا متاعب وتأخير من جانب تجار المغاربة خلال الرحلات الاحتياطية التي نجبر على القيام بها خلال المدة فإن جمهوريتنا ليست مسئولة عن هذا .

١٠ - إذا أساء أحد الفرنجة لأحد الممالك أو لمغربى أو لأمى عربى أو لأمى كائن ما كان فلا تسأل أفراد جاليتنا عن هذا اطلاقاً .

١١ - للتجار البنادقة مطلق الحرية في اجراء ما يرونه لازماً لهم من اصلاحات خاصة في فندقهم بدون واسطة أحد لأن التكاليف حينئذ تكون قليلة وكذلك يحق لهم اصلاح مخازن الجمارك الخاصة بسلمهم .

١٢ - النبيذ الذى يصل الى الاسكندرية هو لصالح مواطنينا ، واذا صدر للقاهرة تدفع رسوم قدرها سبع دوكات لكل طن لصالح الوالى والوزير على أساس أننا سيكون بإمكاننا أو مستمكن من بيعه بالقاهرة وأجوارها بدون مضايقات .

١٣ - النبيذ الذى يدخل الاسكندرية تدفع عنه الرسوم المطلوبة (للبيع العام) واذا أوصلناه الى القاهرة بواسطة النيل ففى هذه الحالة لا يدفع عنه أى رسم لا فى القوارب ولا فى السفن ولا جمرك القاهرة حتى وصوله للقاهرة .

١٤ - كل العمليات التجارية التى تتم بين بندقى وعربى وتسجل فى جمرك القبان لا يحق لأى فرد ابطالها أو اعاقه سير اجراءاتها بأى حجة من الحجج .

ملحق (١٩)

اتفاقية خاصة بتجارة البندقية فى ميناء طرابلس بالشام .

١ - لا نجبر على شراء السلع بالقوة حتى ولا القطن ما عدا بالطبع ما يخص السلطان والحاجب أو من يحل محلها .

٢ - نعطي مطلق الحرية لشراء الموجود من المواد حسب حاجتنا .

٣ - ليس بإمكاننا اعطاء الحاجب أكثر من بالة من الجوخ كل سنة هدية ، ومثلها لكل بيت تجارى . سنراعى أننا اذا تمكنا من احضار كمية أكبر من النسيج للاستهلاك الخاص والبيع فسنزيد من نصيب الحاجب ولو أن فيه امتهانا لنا .

ملحق رقم (٩ ب)

عريضة مقدمة للسلطان من قنصل وتجار دمشق

ووافق عليها الأمير نائب السلطان في دمشق

١ - لا يسمح لليهود بالحضور الى سواحل الليفنت الشرقى بقصد شراء التوابل أو أى سلعة أخرى بالمقايضة أو بالنقد . وإذا رغبوا فليكن ذلك في دمشق حتى لا تضيع على السلطان رسوم الجمارك وغيرها .

٢ - لتجار البندقية الحق في التجول في البلاد بحرية للبيع والشراء بدون أن يعترضهم أحد أو يتدخل أى فرد في أعمالهم كما أنهم لا يدفعون من الرسوم الا المفروض ولا يجبرون على دفع مالا عن غيرهم من التجار .

٣ - لنائب السلطان أو لناظر الخاص فقط الحق في المساءلة والتدخل في شئون الفرنجة واعطائهم الأوامر .

٤ - لا يحق لأى حاكم أن يعاقب البنادقة أى عقاب كان ، على الأقل بعد أخذ اذن من السلطان نفسه .

(تحدث البنادقة كذلك عن الفضة التى يحملها تجارهم لدار السك ، مما يوحى بوجود هذه الدار في دمشق) .

ملحق رقم (٩ ج)

اتفاقية خاصة بالتجار البنادقة المقيمين في حلب

١ - القاضى كاتب السر في حلب ألزمتنا في الرسوم الأولى المطلوبة منا بما قيمته ٢٥٠٠ دوكات وأجبرنا على دفعها بالقوة .. ولكن لا نقبل بعد الآن أن ندفع أموالا من هذا النوع وبهذه الطريقة .

٢ - يجب أن يقف دائنونا أمام القاضى أو الحاكم بلا استثناء لأى فرد مهما كان مركزه .

٣ - يحق لنا توزيع سكر قبرص فى سوريا دون اعتراض مع مراعاة القوانين المحلية .

٤ - ترد للسيد زينو القنصل (زانون Zanon) والذى كان قد اتهم فى حادث التجسس لصالح الشاه اسماعيل الصفوى ، ٣٠ بالة قطن التى أخذت منه لضمانه أحد الفرنجة الذى مات ، ولا يدفع على هذا القطن أى رسوم لأنه من العدل ألا يدان فرد بسبب خطأ غيره . وفى بلادنا لا يسأل الأب عن خطأ ابنه ولا يؤخذ الابن بجريمة الأب .

٥ - تبقى لنا حسب المعتاد حرية وأمان كاملين داخل فندقنا طالما أننا لا نقلق ولا نثير غيرنا .

٦ - قد يحدث أحيانا أن يفلس بعض المدينين لنا ويعلن الافلاس أمام القاضى الوطنى فيلزم من الآن أن يتم ذلك بحضور صاحب المال البندقى والا فان هذا الاعلان يصير لا قيمة له بالنسبة لنا ، ويصبح مالنا لا يزال فى عنق المدين .

٧ - منذ عامين فقد أحد تجارنا مبلغ ٢٠٠٠ دوكات وبما أن الحكام ملزمون بحماية وسلامة الأقطار التى يحكمونها ومسئولون عن الأمن فيها فاننا نطالب برد هذا المبلغ من الحاكم المتصرف فى مقاطعتنا والا فجميع السكان فى المنطقة مسئولون عن سداد هذا الدين .

٨ - الدارصينى - القرفة - لا نشتره الا مغريلا ، أما غير المغربل فلا ندفع عنه الا ٥٠ أشرفيا لكل عبوة فى كميات احتكار

السلطان ، أما الباقي من السوق الحر فالبائع مسئول عن غربلته
أولا .

٩ - نصف عوائد الدلالة أو السمسة للسمسار والنصف الآخر
لترجمان السلطان .

١٠ - لا يسمح للأجانب من العرب أو المغاربة أو الفرنج المسموح لهم
بإقامة دائمة في البلاد أن يحوزوا محلات لبيع الجوح .

١١ - لا يمكننا أن نزيد من عوائد الخضر أكثر من ٤ دراهم للفرد
الواحد .

١٢ - لا يحق لأي فرد وطني أو يهودي أن يقوم ببيع التوابل إلا إذا
كان مصرحا له بذلك من قبل .

١٣ - إذا أدين أحد الفرنجة لأمر من الأمور فلا القنصل ولا باقى
البنادقة مسئول عن أخطائه أو عقابه .

١٤ - إذا أدين أحد الفرنجة لأمر فالقضاء المحلى هو المسئول عن
محاكمته .

١٥ - يصرح للبنادقة بإقامة الصلاة في منزل القنصل على أساس أنها
عادتهم من قبل .

١٦ - لا تجبر سفننا على حمل السلع لتجار آخرين أو أقطار أخرى
كما يسمح لنا بالسفر وقتما نشاء .

١٧ - إذا حدث أن غرقت إحدى السفن للبنادقة أو السفن التابعة
لأحدى الدول التى تعتمد فى تجارتها على البندقية فيصير
انقاذها وانقاذ حمولتها وردها لأصحابها . (منذ وقت طويل
وغنائم الفرق ملك للأمير التى تحدث الحادثة فى حدوده) .

١٨ - لا يؤخذ الوالد بجريرة الابن ولا الابن بجريرة الوالد الا اذا كانت هناك صلة بين جريمتها .

١٩ - يحق لتجارنا أن يبيعوا السكر كسابق عهدهم .

ملحق رقم (١٠)

المعاهدة بين السلطان سليم الأول العثماني وطائفة البنادقة في
نهر الاسكندرية بعد فتح العثمانيين لمصر . بتاريخ ٢٢ من المحرم .
٩٢٣ هـ / ٤١ من فبراير ١٥١٧ م .

ملاحظة : التعليمات في المعاهدة موجهة الى حاكم المدينة - مدينة
الاسكندرية وموظفيها العموميين ومفتشى وضباط الشرطة كى يحاطوا
علما بما تم الاتفاق عليه بين المتعاقدين على الامتيازات السابق منحها
لهم من أيام المماليك بعد موافقة السلطان سليم عليها .

المادة الأولى : جميع البراءات الممنوحة للبنادقة من قبل صار
الموافقة والتصديق عليها . رعايا البندقية يعاملون بالعدل ويقابلون
بترحاب من الجميع . لا يحق لأى فرد كان أن يهينهم أو يتكبر عليهم
فى الموانى المصرية عامة . من حقهم البيع والشراء والأخذ والعطاء
ولا يدانوا لخطأ ارتكبه غيرهم من أبناء الأمم الأخرى بالمدن المصرية
ولا يدانوا لخطأ ارتكبه غيرهم من أبناء الأمم الأخرى بالمدن المصرية .
يعلن هذا لجميع القضاة والهيئات المسؤولة وليس من حق أى فرد
الخروج على هذه القوانين كما يجب معاملتهم حسب الأصول والعادات
المرعية بدون أى تغيير أو تعديل .

المادة الثانية : عدم تكدير البنادقة أو الاستيلاء على ممتلكاتهم
أو متاجرهم بالقوة أو على مراكبهم أو ما فى داخل مخازنهم ، كما

لا يحق لأى فرد أن يجبرهم على البيع اذا لم يوافقوهم على ذلك ،
كما لا يجبرون على دفع عوائد غير عادية أو لا لزوم لها .

المادة الثالثة : بإمكان القنصل أن يبيع ويشترى بالنقد بدون

حدود .

المادة الرابعة : يحصل القنصل على مرتبه مجدا كل أربعة

شهور .

المادة الخامسة : القنصل دون سواه هو الذى يباشر الشئون القانونية

والقضائية لمواطنيه ويبت فى الأمور لصالحهم . أما من يرفض الانصياع
لحكم القنصل ويلجأ الى القضاء الوطنى الاسلامى لينقض قانونا
أو حكما أصدره القنصل ، فلا يستمع له ولا يحق للقاضى استقباله
أو نظر شكواه وعليه أن يعيده الى قنصله ، واذا رغب القنصل فى طرد
أحد البنادقة فعلى القاضى أن يعينه فى ذلك . كما منح القنصل حق
إبداء الرأى فى سفر الأفراد على سفن بلاده ، ولا يحق لأى فرد كان
أن يغادر الاسكندرية على ظهر احدى سفن البندقية ليعود لوطنه
أو ييارحها لأى قطر شاء الا بعد الحصول على تأشيرة خروج من
القنصل نفسه .

المادة السادسة : اذا وصلت أى سفينة من البندقية للإسكندرية

أو باسم البنادقة فلا يحق لأى موظف أن يرتقيها ويحصل منها على
ما يريد من معلومات أو بيانات ولا أن يحتك بأى فرد من أفرادها
ويسمح لهم بصعود السفينة فى حالة الشراء فقط ، ويدخل ضمن السلع
المشتراة « السلع التى تحملها السفن » العسل ، والفاكهة .

المادة السابعة : ممنوع على أى فرد سواء كان حاكم المدينة أو عين

من أعيانها أو تجارها أو أى فرد من أفراد الشعب أو لقبطانها على سفن

الميناء أن يستولوا على أى سفينة للبنادقة تصل للميناء ، أو على حمولتها أو قلعوها أو مجاديفها لأى سبب سواء كان قرضاً أو شراء .

المادة الثامنة : يصير تنفيذ كل التجديدات أو المباني اللازمة أو الأعمال الضرورية فى فندق البنادقة وإذا رغب القنصل فى بناء مبنى جميل خاص به فله ما يشاء وممنوع منعا باتاً التعرض له أو رفع أجور العمال أو أسعار المواد اللازمة للبناء ، وممنوع على أى فرد مضايقتهم أو التعرض لهم إذا رغبوا فى استخدام صناع من البندقية أو من الأجانب دون الوطنيين .

المادة التاسعة : إذا رغب القنصل فى مقابلة أى فرد من الحكومة فى دواوينهم وامتطى سهوة جواده أو رغب فى الخروج للحدائق العامة أو أى مكان من أطراف المدينة فله أن يفعل ما يشاء وليس لأى فرد أن يعترضه .

المادة العاشرة : السلع التى تتعرض للغرق يصير انقاذها وترد لأصحابها البنادقة أما السلع التى تقذفها الأمواج الى الشاطئ نتيجة الفرق لاحدى السفن فهى ترد لأصحابها ان عرفوا أو أثبتوا شخصياتهم وملكياتهم لهذه السلع أو ترد للقنصل . والسفن التى تصل الشاطئ سليمة بعد انقاذها يجب صيانتها .

المادة الحادية عشرة : السفن التى تلجأ للميناء لسوء الأحوال الجوية ولا ترغب فى تفريغ حمولتها لها أن تتم رحلتها إذا لم يكن عليها سلع للاسكندرية .. وإذا كان عليها سلع خاصة بالاسكندرية فلا يحق لها أن تفرغها فى أى ميناء الا فى الاسكندرية نفسها . وإذا كانت تحمل سلعا لم ينص عليها فى المعاهدات ولا يتاجر فيها فى الاسكندرية فتمنع من التعامل أو الملاحة على طول السواحل المصرية .

المادة الثانية عشرة : العلاقات السياسية .

إذا حدث أى حادث لأحد رعايا السلطان فى البندقية أو الجزر التى تقع تحت سيطرتها فلا يسأل القنصل عن هذا .. كما أنه لا يتحمل النتائج المترتبة على الحادث . أما من يكون مديونا لأحد رعايا السلطان فانه يحجز حتى يوفى الدين ويسرى ذلك على الضامن ، ويجب أن يكون جميع رعايا السلطان فى أمان تام فى موانئ البندقية والبلاد الخاضعة لها .

المادة الثالثة عشرة : يعفى القنصل البندقى من دفع ضريبة الايراد أو ضرائب أخرى ما عدا فى حالات صدور أوامر خاصة بذلك من السلطان أو من القضاء .

المادة الرابعة عشرة : إذا أصر القراصنة على أسر سفن للبنادقة ثم جاءوا لبيعها فى موانئ السلطان فمحظور على أى فرد شراؤها أو التعامل مع القراصنة ويجب تحرير السفينة وما عليها من متاجر وردها للتجار ..

المادة الخامسة عشرة : إذا حدث خلاف بين عربى وأجنبى سواء كان من البنادقة أو من غيرهم أو القنصل أو تاجر أو أى مواطن عادى أو عضو فى وكالتهم فلا يحق لأى فرد اهاتته أو الحاق الضرر به .

المادة السادسة عشرة : كل هذه المنح والشروط والامتيازات الممنوحة للبنادقة تسجل فى سجل خاص ويتعرف عليها كل مسئول بالولاية وكل من له علاقة بالأجانب أو بالحكم فى مصر .

المادة السابعة عشرة : للقنصل السلطة التامة اذا رغب فى أن يقيم نائبا عنه «قنصل بالنيابة» أو نائب قنصل Vice-Consul فى البرلس وله أن يفعل ذلك كلما شاء دون استئذان السلطان .

المادة الثامنة عشرة : عرض قنصل البنادقة ، أنه حسب المعتاد، كانت تصل بعض السفن من كريت أو أقطار تابعة للبندقية تجلب كميات من زيت البترول اللازم للسفن وكان المعتاد بيعها على السفن ولكن السلطات المصرية ترفض هذا البيع لكى تباع ما لديها فى مستودعاتها هذا الأمر يجب أن يتدارك ، فسفن البندقية تستطيع من الآن فصاعدا بيع هذا الزيت دون انزاله للساحل ولا يعترضها أى فرد ، وفى حالة وصول هذه السفن الى بولاق تتبع القواعد المرسومة فى هذا الميناء .

المادة التاسعة عشرة : أشار القنصل الى العبيد والفقراء الأجانب الذين يعيشون فى الاسكندرية واعتادوا الورود الى فندق البنادقة لكى يأكلوا .. وكان اذا مات أحد العبيد بالفندق، والقنصل مطالب بدفع ثمنه ، وكان الثمن الذى يفرض مرتفعا . هذا يصير ممنوعا من الآن فصاعدا .

المادة العشرون : محظور على موظفى الجمرى والجمالين والكشافين مضايقة البنادقة فى حالة اعادة تسليمهم الفواكه أو سلع أخرى تحملها سفنهم .

المادة الحادية والعشرون : فيما يتعلق برسوم وأجور الجمالين والكشافين فيدفع دينار واحد من كل سلة توابل مملوءة ويحملها الكشاف البحرى ويحصل الجمال على دينار عن كل سلة يحملها .

المادة الثانية والعشرون : انقاص وتخفيض الضرائب التى تدفع عن يموت من الأجانب فى بلاد السلطان .

المادة الثالثة والعشرون : الافرنجى الذى يرد للقاهرة من الاسكندرية أو رشيد أو دمياط لا تحصل منه ضرائب لا فى حله ولا ترحاله

المادة الرابعة والعشرون : السماسرة الذين يعملون لدى الوسطاء

التجارين لهم حق استخدام تراجمة ولا يمنع عنهم معاونة التراجمة الرسميين لقاء رسوم معينة .

المادة الخامسة والعشرون : فى حالة نقل البضائع المستوردة أو المصدرة من الجمرى للسفن وبالعكس لا يطالب القنصل ولا التاجر بشئ ما كما لا يحق منع التجار من توزيع وبيع الفواكه المحفوظة والمسكرة والطازجة للمسافرين .

المادة السادسة والعشرون : لا يجوز اطلاقا مضايقة القنصل أو التجار أثناء تجوالهم وتنزههم فى حدائق الاسكندرية وعلى ضفاف القناة أو فى أى مكان آخر

المادة السابعة والعشرون : من حق التجار البنادقة ممارسة التجارة البحرية وتنفيذ التعليمات والعمليات التجارية مع جميع الفئات من مسلمين ويهود ومسيحيين بلا أدنى شرط أو قيد ، ولا يجوز منع أى ترجمان من مباشرة أعماله أو تسجيل أى عقد أمام القاضى والقنصل وتجاره ووكالته التجارية وكل من يأوى الى فندقه تجرى عليه واجبات الحماية من السلطان .

المادة الثامنة والعشرون : للبنادقة حق شحن وتوزيع وتفرغ سلعهم فى قواربهم وسفنهم الخاصة .

المادة التاسعة والعشرون : قيام الكشافين بعملهم فى حالات الشحن والتفريغ يكون بموافقة ومرافقة البنادقة . وما يفسده أو يستهلكه الحمالون يجب أن يعرض عنه البنادقة .

المادة الثلاثون : لا يتصدى أى فرد للقنصل أو لتجار البنادقة الا عن طريق القضاء وأمام المحاكم ويراعى ألا يؤخذ الابن بجريرة الأب ولا الأب بجريرة الابن الا اذا كان أحدهما ضامنا للآخر شخصيا وماليا .. أما الديون فاستعادتها تكون حسب الشريعة .

المادة الحادية والثلاثون : جميع التجار ومرافقوهم الذين يصلون للموانئ المصرية يعاملون بكل احترام واعتبار من الجميع .

المادة الثانية والثلاثون : قدم قنصل البنادقة فى الاسكندرية تقريراً ذكر فيه أن تجاره كانوا يعفون سابقاً من ضريبة البهار ، ولكن حكومة الغورى وضعت رسوماً جديدة بلغت حوالى ٥٠٠٠ دينار سنوياً تحصل من التجار ، والقنصل يطالب بإعادة هذه المنحة منحة الاعفاء .. (شملت ملاحق عن ارجاع واعادة ما كان لهم من أيام الممالك من باقى الامتيازات والاعفاءات والاحترام والمعاملة الطيبة والحماية والرعاية فى كل مكان يحملون فيه) (١٠) .

ملحق رقم (١١)

اتفاقية بين جنوة والسلطان محمد الثانى العثمانى بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣ والاتفاقية بتاريخ ١١ مارس ١٤٥٤ م

شملت على اتفاقيات سياسية وتجارية واجتماعية وفى المقدمة قامت جنوة :

- ١ - بتهنئة السلطان محمد الثانى العثمانى بفتح القسطنطينية والامل فى ازدهارها فى العهد الجديد .
- ٢ - تذكر السلطان بالعلاقات الطيبة التى كانت بين الجنوين وأسرة السلطان منذ القرن الرابع عشر الميلادى والرغبة فى استمرارها .
- ٣ - بحث حالة مدينة بيزا وما تتعرض له تجارتها من أخطار واقترح وضعها ضمن مجال جنوة التجارى .
- ٤ - لفت نظر السلطان الى أنه بإمكان تجار جنوة أن يمدوه بما يطلبه

Combe, B., *Precis de l'Histoire d'Egypte*. T. III. p. 6 ff. (Wiet, G.) (١٠)
La Traité : Veneto-Turc. De 1517.

من السلع التجارية والشرقية كالأحجار الكريمة والأنسجة وخلافه
بسرعة وبأسعار معتدلة .

٥ - يدفع الجنويون الجزية بشرط أن يضعوا يدهم على خاصية
Pera - صيانة لمصالح الطرفين وان يبقى أحد المبعوثين
فى المدينة ليقوم مقام الحاكم المحلى بالمدينة ورئيسا للجالية .

٦ - حرية التجارة لرعايا جنوة برا وبحرا فى بلاد السلطان بنفس
الشروط التى كانت لهم على عهد البيزنطيين وسلاطين آل عثمان
الأول كما تترك لهم موانئ ومضايق البحر الأسود مفتوحة طول
العام .

٧ - السماح لجنوة بالحصول على كمية معقولة من القمح من بلاد
السلطان .

٨ - مطالبة السلطان بأن يمنح الجنويين بعض الممتلكات فى بيزا
لاستخدامها ، مراكز رسمية لهم مع تعويض مناسب لتدمير
أموالهم وتجارتهم خلال الغزو العثمانى .

٩ - هدم أسوار خاصية غلاطية .

١٠ - تأكيد امتلاك الجنويين لمنازلهم ومخازنهم وكرومهم ومطاحنهم .

١١ - للجنويين الحق فى التجوال وبيع سلعهم فى بلاد السلطان
بشرط دفع الضرائب الجمركية المعلومة .

١٢ - منحهم حق ممارسة قوانينهم فيما بينهم .

١٣ - لهم أن يختاروا من بينهم من يشرف عليهم ويفض المنازعات
وينظر القضايا .

١٤ - وعذ من السلطان بعدم أسر أبنائهم والحاقهم بالانكشارية .

- ١٥ - لهم كنائسهم الخاصة بهم ولكن يشترط عدم قرع الأجراس .
١٦ - وعد من السلطان بعدم اجبارهم على دخول الاسلام قسرا (١١)
-

ملحق رقم (١٢)

اولى المعاهدات التجارية بين البنادقة والعثمانيين

بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣ بتاريخ ١٨ ابريل ١٩٥٤

نجحت بعثة البندقية يرأسها Barthelomeo Marallo
فى عقد اتفاقية تجارية مع السلطات العثمانية فى القسطنطينية بتاريخ
١٨ من ابريل ١٩٥٤ .

١ - فك أسر البنادقة المحجوزين لدى السلطات العثمانية منذ سقوط
القسطنطينية واطلاق سراح نسائهم اللواتى ألحقن بالحريم
السلطانى .

٢ - تعيين قنصل بندقى ورئيس لجاليتهم Bayle ويعمل كمستشار
وقائم بالأعمال فى كل ما يتعلق بمواطنيه فى الشؤون العامة
والتجارية وآخر خاص بالشؤون القضائية ويكون مركزهم
القسطنطينية .

٣ - يعطى السلطان تعليمات لمحافظ القسطنطينية لكى يذلل للبنادقة
ومعتمدتهم كل الصعوبات التى تعترضهم .

٤ - منح البنادقة حرية التنقل فى بلاد السلطان العثمانى حرية

Depping, Histoire de Commerce, T. II. pp. 214, 215.
227-228. N. 8 p. 341.

الدخول الى الموانئ ولا سيما ميناء القسطنطينية دون أى صعوبة .

٥ - تقرير دفع الجزية المعينة للسلطان لقاء دخول سفن البندقية البحر الأسود وقدرت هذه الجزية بصفة مبدئية بحوالى ١٠٠٠٠٠ دوكه سنويا .

٦ - فى حالة حدوث حالات الفرق تتولى السلطات المحلية مهمة الانقاذ نظير رسوم معينة .

٧ - يدفع البنادقة رسوما جمركية على مشترياتهم ومثلها على مبيعاتهم وقدرت بحوالى ٢٪ .

٨ - لم تعترض السلطات العثمانية على تجار البندقية فى الرقيق الأبيض من منطقة البحر الأسود وتصديره للخارج وخاصة لمصر ولكن نص فى الاتفاقية على أنه اذا تم البيع داخل نطاق بلاد السلطان يصير تحصيل جزية لا تقل عن ٢٪ من المباع وقد راعى البنادقة الناحية العاطفية والدينية فلم يتمسكوا بشراء الرقيق من المسلمين وبالتالي فانهم كانوا يطلقون سراح من يقع فى أيديهم من الأسرى المسلمين دون ابطاء .

٩ - يمنح البنادقة نفس الامتيازات لرعايا السلطان العثمانى فى البندقية وأملاكها الأخرى والبلاد التى تشرف عليها كما سمحوا للأتراك بالتعامل مع أسواق البندقية نفسها أملا فى أن يعامل البنادقة وتجارهم بالمثل .

١٠ - حمل البنادقة على حرية تصدير القمح من بلاد السلطان العثمانى لقاء جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكه (١٢) .

Hammer, Histoire de l'Empire Ottomane, T. III. pp. 30-36-46 (١٢)
& p. 240.

Depping, Histoire du Commerce, T. II, pp. 227-228.

Heyd, Histoire Du Commerce, T. II, pp. 316-319, 320

ملحق رقم (١٣)

نسخة من الشروط بين فلورنسا والسلطان قايتباي

بشأن التجارة الفلورنسية في مصر ودمشق وبيروت ١٤٨٨ م
السلطان الأعظم سلطان مصر :

مرسوم بشأن الامتيازات التجارية الممنوحة لطائفة الفرثيين في
مصر وسوريا بناء على طلب جمهورية فلورنسا ورؤيسها الأفخم
لورنزو ديميدتش والمقدمة بواسطة التجار لمنحهم امتيازات مثل
ما للبنادقة في بلادنا ...

بوصول التجار الفلورنسيين (الفرثيين) الى بابنا بخطابات
من دولتهم الفخيمة ومن رؤيسهم لورنزو الفخم علمنا من هذه الخطابات
رغبة طائفة الفرثيين العودة للمتاجرة في بلادنا ، ومعنا وخاصة
بالاسكندرية ودمشق وكافة موانينا وبلادنا كما كانوا من قبل بسعنى
اعادة قنصلهم وتجارهم للبيع والشراء ويرغبون في أن يكونوا تحت
رعايتنا ، وأعطينا أوامرنا لارضائهم كما أننا نكتب لهم هذه الشروط
بنفس الأسلوب والشكل الذى كتب للبنادقة وان يكتب الى الدولة
الفخيمة ولورنزو الفخم بارسال قنصلهم وتجارهم الذين سينالون
ويعاملون معاملة حسنة ويكرموا كأي طائفة أخرى .

فصل (١) لا يتعرض أحد لأى تاجر فلورنسى ولا لتجارته
ولا لحاجاته ولا لممتلكاته ولا لسفنهم ولا لأشخاصهم ولا لقنصلهم بأى
شئ ضد العدل كما لا يطالبون بدفع ضرائب أزيد من المطلوب على
متاجرهم الا حسب العرف القديم كما يظهر للديوان وكما يدفع
البنادقة حاليا دون اتخاذ أى اجراء مضاد مخالف للعدل والنظام .
ولذلك نأمرك أيها الأمير الحاكم حاكم الاسكندرية أنه يجب أن تعمل
وتلاحظ تنفيذ هذه الأوامر مع عدم القيام بأى اجراء مضاد .

فصل (٢) اذا حدث بيع أو شراء بين تجارنا والتجار الفرنتيين فان
هذا البيع والشراء يجب أن يحدث أمام شهود وإذا حدث أن تحلل
أحد الطرفين من الاتفاق على البيع أو الشراء دون موافقة أو رغبة
الطرف الآخر فانه فى هذه الحالة يجب عليك أيها السيد أمير
الاسكندرية أن تراعى القانون فى حل هذه المشكلة وأن يكون الشراء
والبيع منذ ذلك الوقت بأشراف القانون أمام شهود لا مكان تحديد
المسؤولية .

فصل (٣) يقول التجار الفرنتيون ان بعض تجارنا يشترون من
هؤلاء التجار الفرنتيين أثوابا وأقمشة وكماليات وحريراً وأنواعاً أخرى
كثيرة من المتاجر ، ويتاجرون بها فى أماكن كثيرة ، ولكنهم أحيانا
لا يجدون من يشتريها منهم ، وجنبذ يعودون بها الى التجار الفرنتيين
مرة أخرى لاسترداد أموالهم ورد السلع ، ولما كان هذا ضد العدل
والحق وليس فيه أى حرية لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى
عدم حدوث مثل هذه الأمور وأن تستمر فى المعاملة كما كان سابقا
وينال كل فرد حقه بالعدل .

فصل (٤) يقول التجار الفرنتيون أن بعض تجارنا يعاملوهم بطريق
المقايضة وقد جرى العرف أنه فى حالة المقايضة يكون سعر السلعة
المقايض عليها لأى الطرفين أكبر قليلا من السعر فى حالة الدفع نقدا
لهذه السلعة، ولكن يحدث أحيانا أن يرفض التاجر المسلم استلام السلعة
المقايض عليها ويطلب الثمن على أساس السعر المرتفع (عن سعر
المقايضة) للارتفاع بفرق السعر . ولما يرفض التاجر المسيحي تصير
خناقة ضخمة يحاول فيها التاجر المسلم استغلال وجوده فى بلده والمطالبة
بالسعر المرتفع لسلعته دون السلعة الأخرى موضوع المقايضة ولما كان فى
هذا ظلم صارخ للتاجر الفرنتي لذلك نأمرك أيها السيد أمير

الاسكندرية بالألا يحدث مثل ذلك ، واذا حدث أى اتفاق فسيكون أمام الشهود ويلزم الطرفين بالعدل .

فصل (٥) اذا حدث خلاف بين تاجر من الفرقتين وتاجر مسلم وأراد كلاهما الاستئناف أمام السلطان فيجب أن يسر لهما الأمر ، وفى حالة غيابنا ينوب عنا الحاكم أو نائبه أو الكاتب (كاتب الديوان) لذلك نأمرك أيها السيد أمير الاسكندرية بأن يراعى ما جاء بهذا الأمر وينفذ بكل دقة والا يمنع أى شخص من المثول أمام السلطان للمقاضاة وخاصة من التجار الفرقتين ...

فصل (١) يقول التجار المذكورون ان الحمالين والمكارين الذين كانوا يحملون التوابل من مكان لآخر ، يعمدون الى سرقة التوابل ثم غشها بوضع مواد غريبة أخرى بدل المأخوذ وهذه الطريقة تضر التجار المذكورين لذلك نأمرك أيها السيد أمير الاسكندرية أن تراقب هذه الأشياء وتجلد الحمالين والمكارين المذكورين وتحل محلهم غيرهم ويعطى التجار تعويضا لذلك من الجزء المزيف - ونأمرك أيها السيد أن تراعى ما جاء بأمرنا هذا وتنفذه ..

فصل (٧) يقول التجار الفرقتيون انهم بعد وصولهم الى الاسكندرية وموانى سوريا والمدن الأخرى فى بلادنا بمتاجرهم ، ويدفعون الضرائب المطلوبة ويحاولون بعد ذلك اخراج متاجرهم للسوق فيمنع ذلك عمال الجمرک وعمال الميناء وموظفو السلطان ويريدون أن يتم البيع بالجمرك قبل اخراج المتاجر الى الأسواق - وأن الموظفين لا يعطون للتجار انثمن الذى تساويه السلع ، وأنه عند دفع ضرائب الجمرک ، يجبرون على دفع رسوم أكثر مما يعود على هؤلاء التجار بضرر كبير ، لذلك نأمرك أيها الأمير أنه بمجرد دفع التاجر الفرقتى الضرائب الجمركية يمكنه أن يخرج الى أى مكان يريد أو يخزنها أو يبيعها كما يشاء ، ولا يجبر أحد على أن يشتري أو يبيع غير ما يريد كما يجب أن يكون تقدير

ثمن السلعة المذكورة ودفع الضريبة المطلوبة عنها بما تساويه فعلا عند وصولها لبلادنا ونأمرك أيها السيد الأمير بمراعاة ذلك عند وصول هؤلاء التجار ...

فصل (٨) كما كان يجرى العرف سابقا أنه يُجبّ الا يدفع التاجر الفرتى رسوم المتاجر والسلع الا حين تكون فى ديوان الجمرك ، واذا كان للتاجر الفرتى نقود من مدة سابقة فانه بعد بيعه سلعة ويريد خصم الرسوم المطلوبة من الحساب الذى له لدى الجمرك فيجب أن يسر له هذا الأمر ، لأن التجار يشتكون من أن الجمرك لا يريد خصم الرسوم مما يستحقه التجار لديه من أموال كما لا يريدون اعطاءهم الباقي . اذلك نأمرك أيها الأمير أن تلاحظ العرف القديم وأن التجار الفرتيين لا يجب أن يدفعوا الرسوم الا اذا كانت السلع فى الجمرك (أى لا يدفع مقدما ويدفع الرسوم حين وصول السلع الى الجمرك) ويجب أن تعمل له تسوية حساب للمطلوب والخصم مثلما تفعل تماما مع التجار البنادقة لذلك نأمرك أيها الأمير أن تراعى ذلك وألا تفعل غير ما نأمرك به كما نفعل نحن مع البنادقة .

فصل (٩) جرى العرف القديم أنه اذا مات تاجر مسيحي ، فان قنصل دولته وحده هو المختص بالاشراف على سلع هذا التاجر المتوفى ، أو من ينبيه القنصل سواء كان وكيله أو أحد تجار طائفته ، لذلك نأمرك يا حضرة الأمير أنه بالنسبة للتجار الفرتيين يسرى العرف السابق .

فصل (١٠) يحدث أحيانا بعد وصول مراكب الجالير (القطائع) للفرتيين وعليها تجارهم أن تحجز السفن والتجار بواسطة الجمرك أو كبار تجارنا الوطنيين فلا يستطيع الفرتيون البيع والشراء الا اذا قررت أسعار التوابل لهذه المدة ، وهذا يسبب تعطيل التجار ويسبب لهم خسائر كثيرة - لذلك نأمرك أيها الأمير أن تكون الموافقة وتحديد

السفر جاهزة قبل وصول هؤلاء التجار بسفنهم والا توضع أية عقبة في سبيل البيع والشراء كما هو الحال بالنسبة لتجار البندقية .

فصل (١١) يقول تجار الفرثيين ان بعض التجار المسلمين كثيرا ما يشكوهم للسلطان في دعاوى لا أصل لها مما يسبب لهم خسائر جسيمة ، لذلك نأمرك أيها الأمير أنه اذا حدث مثل هذا فان التاجر المسلم لا يحق له أن يستعدي التاجر المسيحي الا اذا أعلنت الشهادة الواجبة بما حدث ، وحينئذ اذا لم يدفع التاجر المسيحي المطلوب منه ، فيجب أن يمثل أمام القاضي أو السلطان في حالة الاستئناف، والقضاء هو وحده المختص بذلك .

فصل (١٢) توجد مراكب لبعض القراصنة المسلمين ، وهم ينتظرون في الموانئ أو بالقرب منها ويتعرضون لسفن التجار المسيحيين ، لذلك نأمرك أيها الأمير ، أنه في حالة وجود هؤلاء الأشخاص أن تصدر سفنهم وترسلهم لحضرتنا لينالوا جزاءهم .

فصل (١٣) جرى العرف أن قنصل البنادقة في دمشق يشرف على جمرك مواطنيه وسلعهم به كما أن قنصلهم بالاسكندرية يراقب حركة تجارة مواطنيه، ولذلك نأمرك أيها الأمير أن تعطى قنصل الفرثيين في الاسكندرية ودمشق نفس الوظيفة التي لقناصل البندقية في بلادنا .

فصل (١٤) اذا دفع التاجر الفرثي رسوم الجمارك على سلعة في بيروت فلا يلزم بدفع رسوم أخرى على سلع دمشق الا اذا أوصلت هذه السلع الى دمشق فعلا فتحصل عليها الرسوم ، لذلك نأمرك أيها الأمير نائينا على دمشق وبيروت أن تراعى ذلك مع التجار الفرثيين حسب ما هو متبع مع تجار البندقية .

فصل (١٥) كما جرى العرف السابق ألا يؤخذ تاجر بجزيرة أو ذنب تاجر آخر الا اذا كان التاجر الأول ضامنا شخصا ملزما للثاني،

لذلك نأمرك أيها الأمير بالنسبة لتجار الفرنتين أن تراعى ما هو متعارف عليه وما هو متبع بالنسبة لتجار البندقية .

فصل (١٦) جرى العرف أنه إذا نهب قراصنة المسيحيين سفن المسلمين في البحر ثم جاءت سفن الفرنتين الى موانينا فان تجارنا وعمالنا يجبرونهم على دفع تعويض عما لحق بالمسلمين من أضرار بواسطة قراصنة المسيحيين - فنأمرك أيها الأمير أن تبطل هذا ، وألا يجبر هؤلاء التجار على دفع تعويض أيا كان ، ولا يؤخذوا بجريرة القراصنة المسيحيين ويوضع هذا الأمر موضع التنفيذ مثل ما هو متبع مع البنادقة تماما .

فصل (١٧) حيث أنه من الضروري لهؤلاء التجار أن ينتقلوا من ميناء لآخر ومن بلد لآخر لجمع المتاجر المطلوبة فهم يحتاجون للميرة لمعيشتهم ، لذلك نأمرك أيها الأمير نأبنا أنه بالنسبة للتجار الفرنتين لا يمنع عنهم ما يحتاجون اليه من الميرة - في رحلاتهم ويلبسون الملابس الماليةكية ويتجولون آمنين اذا أرادوا في أى مكان يشاءون، فعليهم أيها الأمير نأبنا مراعاة ألا يتعرض لهم أى أحد في الطريق كما يراعى ألا يغلق باب فندقهم الا ليلا ويظل مفتوحا طول اليوم .

فصل (١٨) اذا جاءت سفن فلورنسية بمتاجرها فلا تجبر على دفع الجمارك الا بعد التفريغ ، واذا لم يوجد من يشتري هذه السلع ويريد أصحابها اعادتها مرة أخرى الى السفينة فلهم الحرية في ذلك على ألا يدفعوا رسوما لا قبل ولا بعد الانزال مادام البيع لم يتم ، ونأمرك أيها الأمير أن تراعى ذلك بالنسبة لطائفة الفرنتين على ما هو جار بالنسبة لتجار البندقية .

فصل (١٩) اذا وجدت سفن قطائع (جالير) أو مراكب أخرى في الميناء أو أى موان خاصة بنا واحتاجت الى اصلاح فعليكم

مساعدتها ومنح الامتيازات الخاصة بذلك لها ولأصحابها ولتجارها وتقديم الخدمات لهم بنقودهم . ونأمرك أيها السيد الأمير باتباع ذلك مع طائفة الفرقتين المذكورة مثل ما يتبع مع البنادقة .

فصل (٢٠) اذا وجدت سفن لطائفة الفرقتين فى أى مكان تابع للسلطان وهاجمتها سفن القراصنة فعليكم مد يد المعونة لها ومساعدتها فى كل ما تطلبه بنقودهم لذلك نأمرك أيها السيد الأمير اتباع ذلك مع طائفة الفرقتين مثل ما هو متبع مع طائفة البنادقة .

فصل (٢١) المتبع مع طائفة البنادقة أنهم عندما يحضرون معهم خرافا بيضاء وسوداء لطعامهم الخاص فى فندقهم ، فان موظفينا يحصلون على بعض منها ، بدون مقابل فنحذرهم أيها الأمير الا تفعلوا مثل ذلك مع طائفة الفرقتين ، كما لا تمنعوهم من البيع بالأسعار المناسبة ولا تجبروهم على بيع خرافهم بأسعار منخفضة بل بحرية كاملة ولقائدتهم ولا يذهبون كما هو متبع مع البنادقة .

فصل (٢٢) جرى العرف أن طائفة البنادقة تصل للميناء ومعها بعض المئونة الخاصة بهم مثل الجبنة وغيرها ، ولا يدفعون عنها رسوما الا على المتاجر فقط ، فى حين أن جماركنا تحصل من الفرقتين ما قيمته ٣٠٠ ، لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى عدم الزام الرعايا الفرقتين بدفع مثل هذه الضريبة ، كما هو متبع فعلا مع البنادقة .

فصل (٢٣) جرى العرف فى ميناء بيروت أنه اذا حملت سفينة للبندقية ٥٠ طردا من التوابل فانها تلزم بدفع خمسة دوكات رسوما اضافيا لنائب بيروت واذا نقصت الحمولة عن ٥٠ طردا ، فلا تجبر على دفع شئ لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى ذلك بالنسبة لطائفة الفرقتين ، كما هو متبع مع البنادقة .

فصل (٢٤) جرى العرف أنه اذا حملت سفينة رفاتا أو رمادا
لموتى فان صاحب السفينة يدفع لنائب بيروت ٥ دوكات ، كما أن سفن
القطائع (الجالير) تدفع ٣ دوكات عن كل واحدة لنائب بيروت ولا تدفع
أكثر من ذلك . وقد اعتاد البنادقة أن يفعلوا ذلك ، فيراعى أيها السيد
الأمير أن يتبع مثل ذلك مع طائفة الفرقتين . ويراعى كذلك ألا يؤخذ
تاجر باهانة وجهها بحار لأي عربي مسلم ، انما يؤخذ بالعقاب من قام
بالاهانة فعلا لا غيره . لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى تنفيذ
ذلك مثل ما هو متبع مع طائفة البنادقة .

فصل (٢٥) جرت العادة أنهم يدفعون عن كل جوال قطن خام
رسما قدره ٨ دراهم فضة وعن كل جوال قطن خيوط ١٥ درهم فضة،
ويوجد من يريد سرا أن يدفع أكثر من هذا لأكثر من سبب ، لذلك
نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى ذلك بالنسبة لتجار جميع الطوائف
ولطائفة الفرقتين خاصة وألا يجبروا على دفع أكثر من المعتاد من
الرسوم كما يفعل البنادقة . واذا حدث أى ظلم لأي تاجر وأراد المثل
أمامنا ومعه القنصل فلا يمنع من ذلك .

فصل (٢٦) جرى العرف أنه لدى وصول السفن الى بيروت اعتاد
العرب نهب الخطابات المرسلة للتجار الأجانب ولا ترد لهم الا بعد دفع
أتاوات بعلم بضعة أيام، وكذلك بالنسبة للخطابات المرسلة لجهات أخرى
طريق موافقنا ، وقد رجا البنادقة مراعاة عدم فقدانهم شيء من خطاباتهم
فى السفن أو على البر الا اذا وجدت خطابات تخص دولتنا فهى تحجز
لنا ، لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى هذا بالنسبة لتجار
الفرقتين وألا يضايقهم أى فرد فى الميناء أو البر كما هو متبع الآن مع
البنادقة .

فصل (٢٧) اذا أذان تاجر مسيحي آخر مسلما ولم يستطع الحصول
على باقى أمواله وأراد الحضور لحضرتنا فلا يمنع من ذلك ، ونأمرك
أيها السيد الأمير أن تراعى ذلك مثل ما هو متبع مع البنادقة .

فصل (٢٨) اذا اشترى تاجر مسيحي توابل أو سلعا من تاجر عربى ودفع الثمن وأودعها عند التاجر العربى على الذمة ، ثم حاول صاحبها العربى استردادها بعد بيعها للمسيحي فلا يحق له ذلك ، الا اذا كان المسيحي قد دفع عربونا فقط عنده . وعليك أيها الأمير أن تراعى هذا الأمر كما أن السلع لمن اشتراها مهما كانت الظروف ويحق للتاجر المسيحي صاحب السلع أن يقاضى التاجر المسلم الذى يعيد بيع السلع وهى فى ذمته ولا يلتزم التاجر المسيحي بشيء سواء أكان رد البضاعة أم رد الثمن .

فصل (٢٩) اذا أراد القنصل أن يصل إلينا للشكوى بسبب ظلم وقع عليه أو بسبب خطابات وصلته من دولته لنا ، أو لأى سبب آخر فيكون له مطلق الحرية فى الحضور بدون أى عقبة ، وكذلك عند وصول السفن التجارية ومتاجر التجار فهم يحضرون معهم ، دوكلات منقوشة بندقية لنقائها وجودة ذهبها وضبط وزنها ونأمرك أيها السيد الأمير أنه بالنسبة للتجار الفرثيين أن يراعى ما جاء بهذا النص ولا يعمل عمل مخالف لذلك وأن توجه اليهم عناية ورعاية كاملة (١٣) .

ملحق رقم (١٤)

ملحق لمعاهدة الامتيازات الممنوحة لطائفة الفرثيين ببلاد
السلطان المماليكى عام ١٤٨٨ - بامتيازات جديدة غير ما
منح للبنادقة

فصل (١) اذا باع مسلم توابل لمسيحي مقابل سلع أخرى فقدأ
أو بالمقايضة ثم رفض التاجر المسلم تسلمها بعد الاتفاق على البيع

Amari, I Diplomi Arabi, XLV. p. 363-369.

(١٣)

Il Sultano (d'Egitto)

Editto intorne I privilegi commerciali accordatii ai Fiorentini in Egitto
e in Egitto e in Siria a dimanda della Signora di pirenze e del magnifico
Lorenzo (de medica presentata per mezzo di alcuni mercantanti. 1488. 7).

بسبب الخوف من ضياعها قبل نقلها الى مخازنه أو لأي سبب آخر وانها تبقى تحت مسؤولية التاجر المسيحي لفترة أخرى، فاننا نأمرك أيها السيد الأمير أنه بمجرد حدوث اتفاق البيع يتم الاتفاق على التسليم في مدة محدودة وعند حدوث التسليم يتخذ التاجر المسلم شاهدين ويتسلم السلع وكذلك التاجر المسيحي يسلم السلع أمام شاهدين في جمرک القبان . ثم بعد الاتفاق تخرج السلع خارج الجمرک وخارج المخازن وتبقى تحت مسؤولية التاجر المسلم ولا يلزم التاجر المسيحي بشيء بعد ذلك . ويلاحظ هذا خاصة بالنسبة للتجار الفرثيين .

فصل (٢) اذا دفع التاجر المسيحي رسوم الجمارك ثم تغير بعدها ناظر الخواص والموظفين الذين تسلموا الرسوم ، ولا تزال السلع بالجمرک ، فانه لا يحق للناظر الجديد أو الموظفين الجدد أن يحصلوا رسوما جديدة — لذلك نأمرك أيها السيد الأمير بمراعاة عدم الدفع الا مرة واحدة سواء تغير الناظر أو الموظفون أو بقوا . ويلاحظ هذا خاصة بالنسبة للتجار الفرثيين .

فصل (٣) اذا دفع التاجر المسيحي السمسة الخاصة بالتوابل ، ثم تغير الناظر والموظفون وحاول الجدد الحصول على سمسة جديدة قبل أن يحمل التاجر المسيحي سلعه فيجب ألا يحدث ذلك ، ويجب أنه تراعى أيها الأمير أن السمسة لا تدفع الا مرة واحدة فقط ، ويلاحظ كذلك أن يسرى هذا خاصة على التجار الفرثيين .

فصل (٤) فضلا عن هذا ، كما هو متبع مع تجار البنادقة أنهم يبيعون سلعهم على السفن وعلى البر ، نأمرك أيها الأمير بمراعاة منح هذا الامتياز للتجار الفرثيين ، وأن يمارسوا هذا في البر والبحر كالمعتاد .

فصل (٥) جرت العادة أن التجار عندما يرحلون بالراكب لا يدفعون

رسومًا جديدة ، لذلك نأمرك أيها الأمير أن تراعى هذا بالنسبة للتجار
الفرنتين كما هو متبع مع الطوائف الأخرى .

فصل (٦) جرت العادة أن التجار ينقلون توابلهم الى الخارج من
الاسكندرية لنقلها الى السفن حسب ما يترأى لهم ، لذلك نأمرك
أيها الأمير ألا يعوق أحد لهم هذه الرغبة ولا تحصل منهم رسوم
جديدة .

فصل (٧) طلب التجار الفرنتين أن يراعى موظفو الجمرك تقدير
أثمان السلع حسب تسعيرة اليوم نفسه فى السوق (يوازى الآن سعر
البورصة) يوم وصول السلع - وأن يكون لكل سلعة رسم الجمرك
المحدد لها - لذلك نأمرك أيها السيد الأمير مراعاة عدم رفع الأسعار
بالنسبة لهؤلاء التجار وحساب السعر حسب سعر السوق .

.. فصل (٨) طلب التجار المذكورون مراعاة أنه اذا باع تاجر منهم
سلعة لتاجر مسلم أو اشترى تاجر مسيحي سلعة من تاجر مسلم ، ثم
رجع أحدهما فى كلامه ثم بعد ذلك تصرف التاجر المسيحي أو المسلم
فى السلعة بالبيع لثالث - وحاول استردادها بحجة أنها كانت على
الذمة - لذلك يراعى عدم حدوث شيء من هذا ولا يلزم التاجر المشتري
الجديد (الطرف الثالث) برد البضاعة مادام البيع تم حسب القوانين
أمام الشهود وأن يراعى ذلك بالنسبة للتجار الفرنتين خاصة .

فصل (٩) يطلب التجار المذكورون أنه بعد وصول سفنهم والانتهاء
من البيع والشراء لا يعوق رحيلهم بأى حال من الأحوال كما يسمح
لهم بالتعامل بالفرنتى الخاص بهم مثل الدوكات الذهبى البندقى ..
ولا سيما أن عملتهم نقية وسليمة الوزن (الفلورين = الفرنتى) ،

لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى هذا بالنسبة لطائفة
الفرقتين .

فصل (١٠) يطلب التجار المذكورون أنه بمجرد مجيئهم ومعهم
قنصلهم أن يمنحوا فندقا للإقامة وتخزين سلعهم وان يكونوا فى
رعايتنا الخاصة ولا يضار أحدهم لأى سبب ونأمرك أيها الأمير أن
تسلم صورة من هذه الشروط والمنح لهؤلاء التجار وقنصلهم وللسلطات
المسئولة للتنفيذ وحدوث الأمان لهم .

ملحق رقم (١٥)

تعليمات للسفير لويجى دلاستوفا سفير فلورنسا لسلطان مصر
بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٤٨٨ .

تعليمات فلورنسا لسفيرها لويجى ديلا ستوفا الى سلطان مصر
١٠ نوفمبر ١٤٨٨ .

١ - ستذهب الى سيادة السلطان بأسرع ما يمكن - وبعد الوصول
تقابل فخامته وتشكره على انسانيته نحونا ونحو مدينتنا وكذلك
للهدايا المرسلة لنا منه ذاكرنا أن شعبنا لم ير مودة مثل هذه
ولا روحا طيبة مثل ذلك ، وان كرم سفيره كان له أثر طيب علينا .
بحيث أننا نبقى فقط مدينين لعظمته بهذا الفضل ولكن كذلك
لما أعطيناها إياه بصفة خاصة من شروط المعاهدة التى حملتها إلينا
والتي يمنح فيها تجارنا الحرية فى استخدام موانئ بلاده وما يتبع
ذلك من امتيازات .

٢ - وانت أيها السفير الأفخم سيكون لديك وثيقة رسمية موافق عليها منا ، كما جرت العادة ويمكن أن تترك هذه الوثيقة في أيدي قنصلنا ليتهدى بها التجار في التعامل مع السلطات المحلية وسيكون لديك أيضا مع هذه الوثيقة مذكرة موضحة بها المداولات التي تحدث هنا بشأن هذه المعاهدة وغيرها ، لتكون على علم ببواطن الأمور أولا بأول فعليك أن تحاول الحصول على شروط وامتيازات عديدة من فخامة المعظم ، أكثر مما هو عندنا . وستجد هنا نسخة من هذه الشروط مع الشروط الجديدة التي أضيفت لكى تطالب بها ومصدقا عليها منا . وستجد نسخة أخرى لدى القنصل بطلبات جديدة . وفي الوقت والمكان المناسب لك . قدم لسيادة السلطان هدايانا وبين لسيادته أننا نعلم جيدا عظمة السلطان وأننا نطمح في قبول سيادته لهذه الهدايا . تعظما منه وتكرما واظهارا لشعورنا الطيب نحوه .

٣ - وبعد أن تنتهى من المهمة الخاصة بالمعاهدة وكذلك تقديم الهدايا لسيادته فلا داعى لبقائك أكثر من ذلك وحاول أن تعود تاركا أثرا طيبا في نفس السلطان من ناحيتنا ومن ناحية طائفتنا في بلاده .

٤ - وبمرورك على روما في العودة تزور قداسة البابا المعظم ومعك خطاب الاعتماد الذى تحصل عليه كسفير لنا عند البابا وتعلن قداسته برحلتك الى بلاد السلطان وتعرض عليه خدماتك ، وفي نابلى تزور فخامة الملك بخطاب اعتماد آخر منا وتحية بنفس الكلمات الطيبة ثم تسرع إلينا بلا إبطاء .

La Signoria di Firenze

(١٥)

Istruzioni a Luigi di Mosser Angolo della Stufa Ambasciatore al Sultano d'Egitto (Ital.).

Amari, I diplomi Arabi XLV, 1488-10-Novembre. No. 73, p. 372-373.

Nell'Archivio Fiorentino Niformagioni, classe X, distinz 1 No. 75 fog. 78 Verso.

ملحق رقم (١٦)

اتفاقية بين السلطان الأشرف قايتباي ، سلطان مصر والمعظم الأفخم لوزوديميدتشي حاكم فلورنسا بوساطة سفيره المعظم لويجي ديللاستوفا .

باللغة الايطالية عام ١٤٨٨ م

ملاحظة :

استطاع الفلورنسيون أن يحوزوا ثقة السلطان محمد الثاني العثماني وأصبحت لهم تجارة واسعة في بلاد العثمانيين بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣ وأضمروا الشر للبنادقة فنكل السلطان بهؤلاء وأصبح للفلورنسيين الخطوة لدى السلطان كما استطاع تجارها أن يدسوا مندوبا عنهم في خدمة السلطان وهو الفلورنسي .

Laurant de Medici

وفي نفس الوقت لم يهملوا صلاتهم الطيبة مع سلطان مصر وأرسلوا سفارة يرأسها السفير Louis de la Stuffa ومعه هدايا للسلطان المصري وطلب عقد معاهدة بامتيازات لها ولتجارها وفي ديباجة الاتفاقية ذكر الآتي: «الطلب مقدم الى عظمة سلطان مصر من السفير لويجي ده مسيو ديللاستوفا سفير عظمة السيد حاكم فلورنسا وباسم فخامته ، بالموافقة على مواد معاهدة مكتوبة لصالح كل رعايانا وتجارنا الفرنتيين الوافدين لبلاد سيادة السلطان سواء كانوا باقين أو متجولين أو مؤقتين للحصول على الرعاية والحماية في جميع أملاكنا في حلهم وترحالهم وهذه الطلبات قدمت الى عظمة السلطان بواسطة حاكمنا المعظم سنيور فلورنسا لوزوديميدتشي » ..

والملاحظ أنها في مضمونها لا تخرج عن المعاهدة السابقة لذا سنذكر هنا ما يجد من طلبات دون ذكر التفاصيل :

- ١ - فى أى ميناء أو مكان تابع للسلطان ، تأتى سفينة فلورنسية أو سفينة عليها فلورنسيون أو أموال فلورنسية ، تستطيع هذه السفينة أن تبقى أو تذهب بحرية دون أن يطلب منها دفع أى شىء سواء بالنقد أو عينا - باسم ضرائب واجبة للجمارك أو ضرائب ملح أو ضرائب ادارية أو أى ضريبة أخرى .
- ٢ - حرية البيع والشراء دون قيد وحرية وتسهيل الشحن والتفريغ فى جميع الموانى (برقم ٢٥ بالأصل) .
- ٣ - السفن المحملة بالزاد والطعام لاتدفع الا ثلثا فى المائة من الرسوم المفروضة .
- ٤ - لا يفصل فى منازعاتنا الخاصة سوى القنصل الا اذا طلب أحد الطرفين اللجوء للقضاء الوطنى .
- ٥ - يحق للفلورنسيين أن يرتدوا الزى العربى حتى لا يتقابلوا بجفاء من الوطنيين .
- ٦ - اذا أحضر تاجر فلورنسى الى الاسكندرية عسلا أسود فلا يدفع عن ذلك الا دوكة عن كل كركر (برميل) .
- ٧ - قنصل الفلورنسيين يعطى كل الامتيازات التى يحصل عليها قنصل البنادقة فى جميع مدن وموانى السلطان مع مرتب وأسبقيه وخلافه .
- ٨ - لا يدفع الفلورنسيون فى بيروت ضرائب الا مثل البنادقة واذا أخذوا من بيروت أو دمشق رمادا لأحد المتوفين فلا يدفعون الا مثل البنادقة .
- ٩ - يسمح للفلورنسى أن يشحن سلعة على أى سفينة دون تعويق وبدون دفع ضرائب غير المفروضة ومثل ذلك بالنسبة للمسافرين (برقم ٢٦ بالأصل) .

١٠ - (برقم ٢٨ فى المعاهدة) اذا حدث أن اعتدت سفن مهما كانت جنسيتها أو نوعها فى البحر على سفن فلورنسية أو على سفن أخرى تنقل بضاعة فلورنسية بالنولون (بالأجرة) فإن التجار الفلورنسيين يطلبون اجراء العدالة من السلطان ويطلبون منه أن يعرضهم عن بضائعهم وسفنهم التى أصابها الغدر من جراء الاعتداء ، وأن يعرضهم عن ذلك من التجار ومن بضائع التجار الذين من نفس جنسية السفن المعتدية ، والذين يوجدون فى بلاد السلطان . واذا اعتدى بالمثل فلورنسى على أى شخص فى البحر فإن للسلطان الحق فى تعويض المعتدى عليه من المعتدى الفلورنسى أو من الفلورنسيين الموجودين فى بلاد السلطان .

١١ - طالما أن الفرقتى جيد الوزن والذهب ، يجب أن يكون جاريا مثل البندقى .

١٢ - اذا احتاج الفلورنسيون الى فندق أو منزل بالاسكندرية ينزل فيه القنصل والتجار الفلورنسيون فينبغى على السلطان أن يجهز لهم فندقا ويعطيه للقنصل حسب الأصول المرعية مع باقى طوائف التجار الأجانب فى بلاد السلطان . (برقم ٣٢ بالأصل) وقد راعى المندوب الفلورنسى أن يذكر للسلطان ما يلاقىه مواطنوه من اهانات فى الشام وموانى بيروت وطرابلس وغيرها . لبعدهما عن مقر السلطنة بالقاهرة وأبلغ ذلك للسلطان الذى وعد بمراعاة مصالحهم ونص فى الملاحق على :

١ - أمر من السلطان لعمال الموانى فى الشام وجماركه بعدم مضايقة أو تعطيل سفن وتجار فلورنسا أو مضايقتهم فى تخزين سلعهم وتوصيلها من والى دمشق .

٢ - رسم جوال القطن الخام ٨ دراهم والقطن المندوف ١٥ درهما .

٣ - يحق للقنصل مقابلة السلطان فى أى وقت بدون تعويق مثل ما يمنح للقنصل البندقى أو مقابلة من ينوب عن السلطان لعرض مشاكلهم ومشاكل مواطنيه وإبلاغ رسائل للسلطان .

٤ - ملحق آخر بالمعاهدة خاص بمطالب جماعة تجار التوسكانيين التابعين لفلورنسا ومفاده شكوى هؤلاء التجار من أن الحمالين الذين يحملون التوابل من مكان لآخر لتوصيله يعمدون الى فتح الجوالات وغش ما بها من توابل أو وضع تراب بدل التوابل وقد وعد السلطان بمعاقبتهم عقابا شديدا وتغيير السلع المزيفة بغيرها .

ملحق رقم (١٧)

خطاب السلطان قايتباى لأمير فلورنسا بشأن تأكيد امتيازات طائفة التجار الفلورنسيين ببلاد السلطان . بتاريخ ٢٤ من ذى الحجة ٨٩٤ هـ / ١٨ من نوفمبر ١٤٨٩ م

السلطان الأعظم المالك الملك ، الأشرف السيد الأجل العالم العادل ، محيى العدل فى العالمين ، منصف المظلومين ، قامع الخوارج والمتمردين ، اسكندر الزمان مولى الاحسان ، جامع كلمة الايمان ، مملك أصحاب المنابر واليخوت والتيجان فاتح الأقطار ، مانح الممالك والأقاليم والأمصار ، بيد الطغاة والبغاة ، وارث الملك ، حامى القبلتين ظل الله فى أرضه ، القائم بسنته وغرضه ، سلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة ، سيد الملوك والسلطين قسيم أمير المؤمنين أبو النصر

Luigi di Messer Angiolo della Stufa.

(١٦)

Domande fatte al Sultano d'Egitto a nome della Signoria de Firenze e del Magnifico Lorenzo de'Medici (Italiano)
Amari, I Diplomi Arabi. 74. XLVIII. pp. 374-381.

قايتباى خلد الله تعالى سلطانه ونصر جيوشه وأعوانه وأعلى على هام
الجوزاء مكانه .

بسم الله الرحمن الرحيم

صدرت هذه المكاتبة الى حضرة الملك المبجل الموقر السميع
الهمام الضرغام البطل الباسل ، مجد أهل ملته العادل فى رعيته ،
عظيم أهل مملكته ، صديق الملوك والسلطين ، وفقه الله تعالى وحدد
مشرفه . موضحة تعلم أن قاصده حضر الى أبوابنا الشريفة وتمثل
بموافقنا المعظمة وأحطنا علما بما على يده ، وشمله نظيرة الرب ،
وعاملناه بمزيد الرعاية وأجبناه بما سأل عنه من كتابة الفصول المتعلقة
بجماعة الفرثيين وتجارهم ليكون العمل بما رسمنا به والنبا تشريفا
شريفاً لحضرتنا الشريفة، وعاد من أبوابنا الشريفة مجبور الحاطر على أحسن
الوجوه وسيطا ليعلمكم بذلك ، فالحضرة يطالعنا بأخباره ويتابع تجهيز
قصاده وتجار أهل مملكته الى ثغر الاسكندرية المحروس وغيره من
الموانى الاسلامية الداخلة فى حوزتنا الشريفة بما صحتهم من
البضائع والمتاجر للبيع والشراء والقياض وترسم بمعاملتهم بالمعدلة
الشريفة فيعلم بذلك ويعتمده والله تعالى الموفق الأكرم .

ان شاء الله تعالى .. فى رابع عشرين ذى الحجة سنة أربع
وتسعين وثمان مائة حسب المرسوم الشريف ، الحمد لله وحده وصلى
الله على من لا نبى بعده حسبنا الله ركن - تم .

حضرة الملك المبجل الموقر السميع الهمام الضرغام البطل الباسل
مجد أهل ملته ، العادل فى رعيته ، عظيم أهل مملكته ، صديق الملوك
والسلطين وفقه الله تعالى حاكم الافرتيين (١٧) .

ملحق رقم (١٨)

المعاهدة الشاملة : وهى امتيازات منحها السلطان قايتباى لطائفة
الفرتين بيلاده وهى باللغة العربية بتاريخ ٢٢ من فبراير ١٤٩٦/١٨
ذو القعدة الحرام عام ٩٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ضاعف الله تعالى نعمه

الجناب العالى الملك قايتباى

الأميرى الكبيرى ، العالمى العادل ، المؤيدى العونى ، الذخيرى
الغياثى المهدي المنيرى ، الزعيمى المقدمى ، الظهيرى السيفى عن الاسلام
والمسلمين سند الايمان فى العالمين ، نصره الغزاة والمجاهدين ، زعيم
الجيش ، مقدم العساكر مهده الدول ، مشير الممالك عون الأمة كهف
الملة ، ظهير الملوك والسلطين سيف أمير المؤمنين وما زال مشكور
الاهتمام موصوف المحاسن بين الأنام .

صدرت هذه المكاتبة الى جناب العالى يهدى اليه السلام والثناء
العام وتوضح بعلمه المتباز أنه جماعة مشايخ الفرنتين ودوهم جهزوا
قاصدا الى أبوابنا الشريفة ، وعلى يده قصة لمواقفنا المعظمة ، وأنهوا
فيها أنه كان فى أيام الملوك السالفين كانت قناصلهم وتجارهم يترددون
الى الثغور الاسلامية لأجل البيع والشراء كمثلى طائفة البنادقة وأنهم
اختاروا العود الى الثغور الاسلامية كما كانوا عليه ، وسألوا صداقتنا
الشريفة فى الاذن لهم فى ذلك وكتابة شروط لهم على جارى العادة
ليكونوا تحت النظر الشريف والذمام المنيف ، فأجابتهم صداقتنا الشريفة
الى ما سألوه من ذلك وبرزت مراسمتنا الشريفة بالاذن لهم فى تجهيز

قناصلهم وتجارهم ومراكبهم الى الثغور الاسلامية المحروسة، ورسمنا بكتابة شروط لهم على حكم شروط طائفة البنادقة الآتى ذكرها فيه .

فصل (١) ان تجرى طائفة الفرقتين المذكورة على حكم شروط البنادقة القديمة وأن يمنع من يتعرض اليهم فى بضائعهم ومتاجرهم وأموالهم ومراكبهم وبحريتهم باليد العادية ، وألا يلزموا بموجب عن بضائعهم الا على حكم ما تشهد به الضرائب الديوانية المخلدة بالدواوين المعمورة السلطانية من أيام الملوك السابقين سقى الله تعالى عهدهم من أحداث حادث ولا تجديد مظلمة فالجناب العالى يتقدم بمنع من يتعرض لطائفة الفرقتين المذكورين فى بضائعهم وأموالهم ومتاجرهم ومراكبهم وبحريتهم باليد العادية ولا يلزموا بموجب عن بضائعهم مكرر ...

فصل (٢) ذكر من شروط البنادقة أنه اذا وقعت مبايعة من تجار المسلمين فى أصناف البهار لطائفة البنادقة يكون المعاقدة بينهم بالعدول فان بعض المذكورين يمتنع عن التسليم لليهار بعد المعاقدة وقبض العربون فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرقتين المذكورين على حكم الشروط المذكورة ومنع من يقصد ذلك ، وأن يكتب بين المتابعين من المسلمين والفرقتين معاهدة شرعية بالعدول عند صدور البيع وقبض العربون عملا بما تقتضيه الشريعة المطهرة .

فصل (٣) ذكر فى شروط البنادقة ان تجار المسلمين يتعاون من تجار البنادقة أصنافا من متاجرهم من جوخ وأصواف وغير ذلك ويتسلم المشتري الأصناف ويخزنها تحت يده ومنهم من يسافر بها شرقا وغربا لا يجد من يشتريها منه فيرجع ويردها على الذى اشتراها منه بغير مستند شرعى ويلزمه بالثمن ، فبرزت المراسيم الشريفة من الملوك السالفين بانه اذا أوقعت مبايعة بين المسلمين والبنادقة فليشهد فيها بالعدول ومنع من يقصد الرد الشرعى فالجناب العالى يتقدم

باجراء طائفة الفرقتين المذكورين فى ذلك على حكم الشروط المذكورة ومنع من يقصد الرد بغير طريق شرعى .

فصل (٤) ان من تجار المسلمين من يقع بينه وبين تجار البنادقة مقايضة فى صنف البهار وان العادة تميز سعر الأصناف فى المقايضة عن النقد ، فعندما تقع المقايضة بما يقع عليه الاتفاق ولا يبقى الا التسليم يتمتع المسلم عن التسليم ويقصد فقد ثمن البهار بالنقد على حكم ما يميز السعر فى القياض فبرزت المراسيم الشريفة من الملوك السالفة بمنع من ينكث منهما على الآخر وان يشهد بينهما بالعدول عند حدود المقايضة وعقد البيع على الوجه الشرعى وان كلا منهما قاعد على ذلك ورضى به فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرقتين المذكورين على ذلك كله .

فصل (٥) ان من شروط البنادقة أنه اذا وقعت محاكمة أو مخاصمة أو دعوى بمال أو غيره من مسلم على بندقى أو على مسلم من بندقى تكون المحاكمة مرفوعة الى الأبواب الشريفة ان كنا بالأبواب الشريفة أو الى النائب والحاجب أو المباشرين بالشعر وألا يحكم بينهما غير المشار اليهم فرسم لهم باجرائهم فى ذلك على العادة والشروط القديمة ومنع من يقصد الحكم بينهم غير المشار اليهم الا بمقتضى الشرع الشريف .

فصل (٦) ان من شروط البنادقة انهم لما يحضرون الى الشعر المحروس وغيره من الممالك الاسلامية وقيمون بما يتعين عليهم من الموجب والعشر السلطانى فيقصدون خروج بضائعهم وقماشهم فلم يمكنوا من ذلك ويحصل لهم بذلك الضرر وتؤخذ بضائعهم وقماشهم باليد العادية ولا يصرف لهم الثمن عنها وتقوم البضائع بالعشر والخمس بأزيد من القيمة وتؤخذ منهم الموجب على حكم الزيادة ويحصل لهم بذلك الضرر فرسم لهم بذلك ألا يؤخذ شيء الا برضاهم وان

يعتمد الحق فى التقويم وغيره واذا ما خافوا على بضائعهم من الموجب والشرف فلا يعوق عليهم ولا يلزموا بالبيع قبل خروج البضاعة ومنع من يتعرض اليهم بغير مستند عملا على ما جرت به العوائد وما تضمنته الشروط المشار اليها فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين فى ذلك على جارى عادة شروط البنادقة المذكورة .

فصل (٧) ان العادة فى الشروط القديمة من الملوك السالفين
ألا يؤخذ من البنادقة الموجب على البضائع الا عند وصولها الى الثغر المحروس ، وأنهم لم يعاملوا بذلك ويؤخذ منهم الموجب قبل وصول البضائع واذا كان للتاجر منهم قرض على الديوان لا يحاسبونه بقرضه من الموجب فرسم لهم باجرائهم فى ذلك على العادة وما تضمنته الشروط القديمة ولا يؤخذ منهم موجب قبل وصول البضائع حملا على العادة وما تضمنته الشروط المشار اليها ، واذا كان لأحد منهم قرض على الديوان الشريف فليحاسب بما له من القرض من عرض وما يتوجب عليه فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين المذكورين فى ذلك كله عملا بالشروط المذكورة .

فصل (٨) ذكر أن من العادة فى الشروط القديمة من الملوك
السابقين أنه اذا هلك أحد من طائفة البنادقة لا يتعرض أحد من المسلمين الى موجوده ، بل يكون جميع ما يخلفه تحت يد القنصل أو رفقة من التجار ، وأنه ثم من يتعرض لموجود من يهلك منهم فرسم له يمنع من يتعرض لموجود من يهلك منهم ، وأن يتولى أمر الهالك القنصل أو رفقة حملا على جارى العادة وما تضمنته الشروط المشار اليها فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين فى ذلك على جارى العادة عملا على ما تضمنته شروط البنادقة المذكورين ، ومن هلك من طائفة الفرنتين المذكورين يتولى أمره القنصل أو رفقة ومنع التعرض لموجود الهالك على جارى العادة فى ذلك .

فصل (٩) ذكر أن من شروط البنادقة أن ثم من يلزمهم عند حضورهم الى الممالك الاسلامية بالشعر المحروس والمملكة الشامية المحروسة وغيرها بالقطايع ألا يبيعوا ولا يشتروا الى أن يقطعوا السعر فى البهار ويرمى عليه بالغضب فيحصل لهم فى الضرر والعمالة عن مصالحهم وسفرهم . فرسم لهم بألا يلزموا بما فيه ضرر عليهم من ذلك ولا غيره وان يحمل الأمر فى ذلك على ما جرت به العوائد وما تضمنته الشروط القديمة ، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين المذكورين فيما هو ضرر عليهم حملا فى ذلك على جارى العادة والشروط المذكورة .

فصل (١٠) ذكر فى شروط البنادقة ان لهم معاملات ويحصل بينهم وبين تجار المسلمين اختلاف، ثم من يشكوهم من الأبواب الشريفة ومن ولاية فيلزموا بالحضور فيحصل لهم الغرامة والمشقة ولا يحضروا غرماءهم ، فرسم لهم بأنه اذا وقعت شكوى على أحد منهم لا يحمل الا بعد ثبوت الحق وامتنع عن القيام به، أما الجناب العالى فيتقدم باجراء طائفة الفرنتين المذكورين فى ذلك على جارى العادة المذكورة وأنه اذا وقعت شكوى على أحد من الفرنتين لا يحمل الا بعد ثبوت الحق وامتنع عن القيام به على حكم الشروط المذكورة .

فصل (١١) ذكر فى شروط البنادقة أن ثمة أغربة تراكيمين وغير تراكيمين يتقصدون لقطع الطريق ويخرجون من الثغور ويقطعون عليهم الطريق فى البحر وينهبون ما مع البنادقة من المال والقماش وغير ذلك فرسم لهم بمنع المذكورين للتعرض لتجار البنادقة وطائفتهم ومن وجد من التركمان المذكورين وغيرهم ممن يتعمد ذلك فليمسك وليحضر الى الأبواب الشريفة ليقابل بما يستحقه من بين يدي المواقف الشريفة فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين المذكورين على جارى العادة فى ذلك ومنع من يتعرض لهم من التركمان وغيرهم من التعرض

للتجار الفرقتين المذكورين ومن وجد من التركمان المذكورين ممن يعتمد على ذلك فليمسك وليحضر الى الأبواب الشريفة ليقابل بما يستحقه لدى المواقف الشريفة .

فصل (١٢) ذكر أن من الجارى فى شروط البنادقة من أيام الملوك السالفين ألا يؤخذ تاجر عن تاجر ولا يلزم بشيء ما لم يكن ضامنا أو كفيلا وأنه من يتعرض للتجار المذكورين يلزم بعضهم ببعض عن غير ضمان ولا كفالة ، فرسم لهم ألا يؤخذ تاجر بتاجر ولا يلزم عنه بشيء الا اذا كان ضامنا له أو كافلا عملا بما تضمنته الشروط المشار اليها، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرقتين المذكورين فى ذلك على جارى عادة البنادقة المذكورين بالألا يلزم تاجر عن تاجر ما لم يكن ضامنا أو كفيلا عملا بشروط البنادقة المذكورين .

فصل (١٣) ذكر أن ثم من طوائف الفرنج من يكون معه فى الغراب ممن يتحرم أو يقطع الطريق أو يحر ويأسر المسلمين ويحضرهم الى الثغور والسواحل ويقصدون بيعهم فيتعرض المسلمون لتجار البنادقة بابتياح الأسرى وان لم يكن الحرامية من جنسهم فرسم لهم بأنهم اذا كان المعتدى من طوائف البنادقة فيلزمهم به حملا على ما تضمنته الشروط القديمة المذكورة ويحرم التعرض لتجار الفرقتين فى أمر مشترى الأسرى ما لم يكن الحرامية من جنسهم حملا على ما تضمنته شروط البنادقة المشار اليها .

فصل (١٤) سأل قاصد الفرقتين المذكورين أنه اذا كان لهم حقوق شرعية فى جهة أقوام تعلقت فى خلاصها ممن يتعين فى جهة ، فالجناب العالى يتقدم انه اذا كان لأحد من تجار الفرقتين حقوق شرعية يخلص ذلك ممن يتعين به فى جهة على ما تقتضيه الشريعة المطهرة والعدل الشريف .

فصل (١٥) ذكر أن تجار البنادقة لا يبرحون مسافرين من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان ومن مملكة الى مملكة ولا بد لهم من زاد ومطعم ومشروب وانهم ثم أول من يتعرض لهم ويقطع مصانعهم ويمنعهم من ذلك فرسم لهم بتمكينهم من ذلك ومن زادهم ومأكولهم ومشروبهم بحسب ما يكون معهم ومنع من يتعرض اليهم في ذلك أو يقطع مصانعهم حملاً على ما جرت به العادة وما تضمنته الشروط القديمة من الملوك السالفين الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد والناصر حسن واخوته والأشراف شعيان سقى الله تعالى عهدهم صوب الرحمة والرضوان ، فالجناب العالي يتقدم بأجراء طائفة الفرثيين في الزاد والمشروب والمأكول على جارى العادة المذكورة ومنع من يتعرض لهم في ذلك وتمكينهم من ذلك على حكم الشروط المشار اليها .

فصل (١٦) ذكر أن في شروط البنادقة ان جماعة السماسرة بشعر الاسكندرية المحروس أدال منهم جماعة من المعلمين كبار ضمان جهة السمسرة وفيهم جماعة فرادية وان المعلمين الكبار أدال يتعرضون الى السماسرة الفرادية ويمنعونهم من البيع والشراء وحصل لهم ذلك للضرر فرسم لهم بأنه من كان سمساراً لا يمنع من البيع والشراء وان المعلمين يأخذون في معلومهم على ما جرت به العادة فالجناب العالي يتقدم بأجراء في ذلك على جارى العادة المذكورة .

فصل (١٧) ذكر أن من شروط البنادقة أنه اذا صدرت معاهدة بيع بين المسلمين والبنادقة في ديوان القبان ويشهد فيها بشهود عدول ولا تفسخ البيعة الا برضا المتاعين واذا اشترى التاجر المسلم شيئاً من البنادقة فليؤمر بالتقليب والمعاينة الشرعية قبل خروج البضاعة من مخازنهم وفندقهم وكذلك الفرنج اذا اشترؤا شيئاً من البضاعة من المسلمين فليقلبوا ويعاينوا المعاينة الشرعية قبل اخراجها من مخزن التاجر المسلم أو فندقه بحيث لا يقع في ذلك خلف ولا نكس ، فرسم لهم

آن يعتمد ذلك ويعمل به ، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين فى ذلك على جارى العادة المذكورة مع طائفة البنادقة .

فصل (١٨) ذكر أن من شروط البنادقة ان العادة أن المغربلين اذا

غربلوا لأحد بهارا يأخذون أجرتهم بالكامل، واذا لم يغربلوا ووقع الغبار فباتفاق من غير أن يعتمد ذلك يعمل به فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين على جارى العادة المذكورة ويعمل به .

فصل (١٩) ذكر أن من شروط البنادقة انه اذا دخلوا بأصنافهم

الى الثغر المحروس وخرجوا بالأصناف التى يتتاعوها تحضر اليهم ضمان الجمال ويأخذون منهم الأجرة بالكامل ثم يحضرون حمارة (مكارين) وغيرهم يحملون ما معهم من الأصناف فى الدخول والخروج ، ويقول لهم أصحاب الجمال أعطوا الحمارة أجرتهم وهاتوا أجرة الجمال فستصير الأجرة مثلين ويحصل لهم بذلك الضرر فرسم لهم أن الجمالة لا يأخذون من الفرنج شيئا الا ان شالوا لهم فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين المذكورين فى ذلك على العادة المذكورة أو لا يؤخذوا الجمالة من الفرنج الفرنتين المذكورين الا ان شالوا لهم .

فصل (٢٠) ذكر فى شرط البنادقة أن مرشدى البحر عند حضور

القطائع يشوشون على الفرنج البنادقة وعلى جميع من بمراكبهم ويعوقوهم من غير سبب ولا دين شرعى ولا أمر النائب ، وأنه يحصل لهم بذلك الضرر فرسم بأن أحدا لا يشوش عليهم ولا يعوقهم ولا يقف فى طريقهم الا اذا كان عليهم دين شرعى أو بأمر النائب فى ذلك فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين المذكورين على عادة الشروط المذكورة بأن أحدا لا يشوش عليهم ولا يعوقهم ولا على من بمراكبهم ولا يقف فى طريقهم الا ان كان عليهم دين شرعى أو بأمر الجناب العالى عملا بشروط البنادقة فى ذلك .

فصل (٢١) ان مما جرت به عادة البنادقة انه اذا وصل شختور

أو مركب فيه مشروب للبنادقة الجارى به عادتهم يكون للناظر رسم على كل خمسين بنية وما فوقها بنية واحدة وانه جدد الناظر عليهم عادة وهو انه اذا حضر اليهم شخوور فيها عشر بناني أو خمس عشرة بنية يؤخذ من ذلك بنية نظير ما كان يؤخذ على الخمسين فرسم لهم أن الناظر لا يأخذ منهم بنية الا من خمسين فما فوقها على جارى العادة وان كان دون الخمسين فلا يأخذ شيئا ، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرقتين على جارى العادة المذكورة ولا يأخذ منهم الناظر الا على كل خمسين بنية واحدة وان كان دون الخمسين فلا يأخذ شيئا على جارى عادة البنادقة .

فصل (٢٢) ذكر أن من شروط البنادقة أن ثم من الخاصكية والمماليك السلطانية والبريدية الذين يحضرون الى ثغر الاسكندرية ومن يشوش على طائفة البنادقة ويسجنهم ويهينهم ويضربهم قصدا لقطع مصانعتهم بغير مستند ولا طريق فرسم لهم بمنع المذكورين من التعرض اليهم الا بطريق أو مرسوم شريف وكذلك لا يسجنهم النائب ولا يضربهم ولا يمكن أحدا من التشويش عليهم ولا من معارضتهم الا بمستند شرعى أو بمرسوم شريف واذا طلب أحد من البنادقة الحضور الى الأبواب الشريفة لا يمنع ولا يعوق عليهم الأبواب بل يمكن من ذلك بدون تعويق فالجناب العالى يتقدم باجراء جماعة الفرقتين المذكورين الا بمستند شرعى أو بمرسوم شريف ومن طلب منهم الحضور الى الأبواب الشريفة يمكن ولا يعوق على حكم شروط البنادقة المذكورين .

فصل (٢٣) ذكر فى شروط البنادقة أنهم سألوا أن يمكنوا من ركوب الحمير بالثغر المحروس فرسم لهم بذلك بحكم أن يكون لهم عادة بذلك فالجناب العالى يتقدم فيمكن طائفة الفرقتين المذكورين من ركوب الحمير بالثغر المحروس على جارى عادة البنادقة ان كان لهم عادة بذلك .

فصل (٢٤) ذكر أن من شروط البنادقة انه اذا تسلم التاجر الفرنجى بهارا ليبيعه فيتسلم التاجر المسلم بضاعته بعد الاتفاق بينهما على أيام معلومة يكتب به ديوان القبان وهى من زيوت طيب وعسل نحل وصابون وبندق وقلب لوز وغير ذلك من سائر البضائع والأصناف فاذا امتنع التاجر المسلم عن تسليم بضاعته بعد وزن البهار العوض ومضت أيام الاتفاق بينهما فتوزن بضاعة التاجر المسلم بحضور شاهدى عدل وتخرج من الديوان أو من المخازن وتصير على ذمة التاجر المسلم فرسم لهم بذلك ، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين المذكورين على حكم الشروط التى للبنادقة المذكورة .

فصل (٢٥) ذكر أن من شروط البنادقة أن البضائع التى يقومون بعشورها فهى بالخمس ، واذا انفصل ناظر الخواص الشريفة وفوض نظر الخاص بغيره فلا يقومون الا بعشورها ولا يطالبون بذلك ثانيا — فرسم لهم بذلك فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين المذكورين على حكم الشروط المذكورة فى ذلك .

فصل (٢٦) ذكر أن من شروط البنادقة أنهم اذا أقاموا بالترجمة لمن هو مستقر فى الترجمة فلا يطالبون بترجمة ثانية ولو كانت البضاعة المبيعة مقيمة بالشعر ولو أخرج التاجر الفرنجى بهار العوض فلا يطالب بترجمة ثانية فرسم لهم بذلك حيث ان التاجر الفرنجى أقام بالترجمة أولا للترجمان المنفصل من الترجمة ، فالجناب العالى يتقدم باجراء تجار الفرنتين المذكورين على حكم شروط البنادقة المذكورين فى ذلك .

فصل (٢٧) إن عادة تجار البنادقة أن يبيعوا بضائعهم بظاهر الشعر المحروس وداخل الشعر المحروس وسألوا تجار البنادقة ان يجروا فى ذلك على جارى عادتهم فرسم لهم بذلك فالجناب العالى يتقدم باجراء تجار الفرنتين فى ذلك على عادة البنادقة المذكورين واجابتهم لذلك .

فصل (٢٨) ذكر من شروط البنادقة ان التاجر الفرنجى اذا خرج من باب البحر بالشغل المحروس الاسكندرى بقصد السفر وصحبته فرسه وهديته مثل أرز وبيض وسكر وشراب وغير ذلك مما هو للأكل فلا يوزن على ذلك الدرهم الفرد ، فرسم لهم بذلك فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة جماعة الفرنتين المذكورين على حكم شروط البنادقة فى ذلك .

فصل (٢٩) ذكر أن من شروط البنادقة أن الناظر بالشغل المحروس لا يأخذ على المكررات الداخلة اليهم الى الشغل المحروس الا على كل خمسين مكررا - مكررة واحدة من غير زيادة على ذلك على حكم ما بأيديهم من الأمثلة الشريفة ، فرسم لهم باجرائهم على جارى عادتهم المستمرة الحكم فى آخر وقت من غير احداث حادث ، فالجناب العالى يتقدم باجراء جماعة تجار الفرنتين المذكورين على جارى عادة لبنادقة فى ذلك المستمرة الحكم الى آخر وقت من غير أحداث حادث .

فصل (٣٠) ذكر أن من شروط البنادقة ان جرت عادتهم أن

يخرجوا بهارهم من داخل الشغل المحروس الى ظاهر الشغل من جهة البحر المالح فى وسط السنة ولا يعوق عليهم بهارهم المذكور ، وسألوا البنادقة ان يمكنوا من اخراج بهارهم الى ظاهر الشغل المحروس فى وسط السنة لا يعوق عليهم أجراء على جارى عادتهم فرسم لهم بذلك اجراء على عادتهم المستمرة الحكم الى آخر وقت فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين المذكورين على جارى عادة البنادقة المذكورة من اخراج بهارهم من جهة البحر المالح فى وسط السنة على جارى العادة .

فصل (٣١) سأل القاصد المذكور انه اذا أورد أحد طائفتهم من التجار الى الشغل الاسكندرى وغيره بالمملكة الشريفة ببضائع وأقام بما على البضاعة من الموجب واختار تحويلها الى حاصله يمكن من ذلك

ولا يعارض أحد في ذلك ويبيع لمن يختار وانه اذا ثمنوا البضاعة لا تثمن الا بسعر ذلك الوقت في البندر ، واذا قصدوا أخذ موجب زائد لا يمكنوا من ذلك وأن يؤخذ الموجب من كل صنف بقدره فرسم لهم بذلك ، فالجناب العالي يتقدم باعتماد ما رسمنا من ذلك .
فصل (٣٢) سأل قاصد الفرنتين المذكور للصدقات الشريفة انه اذا باع تاجر فرنجي الى تاجر مسلم وكان التاجر المسلم قد أخذ البضاعة بالدين الى القاهرة وقصد الفرنجي ومعه البضاعة فحضر صاحب البضاعة الأول وادعى أنها بضاعته لا تسمع دعواه عليه بذلك، لأن الملك لمن هو بيده وان أحدا لا يعارض تاجرا افرنجيا من المذكورين ولا يشوش عليه ولا يبلغه لا من خاصكى ولا من بربرى ولا من شوكة من غير حق الا بمرسوم شريف واذا حصل لهم مظلمة بغير حق وبغير مرسوم شريف وقصد الحضور الى الأبواب الشريفة يمكن من ذلك ولا يعوق لخلاص حقه فرسم لهم بذلك فالجناب العالي يتقدم باعتماد ما رسمناه من ذلك .

فصل (٣٣) سأل القاصد المذكور للصدقات الشريفة انه اذا قصد قنصلهم الحضور الى الأبواب الشريفة لظلم حصل عليه في البندر أو لأحد من تجاره أو وردت عليه كتب من بلاده لعمل مصالحهم يمكن من الحضور الى الأبواب الشريفة فرسم لهم بذلك فالجناب العالي يتقدم باعتماد ما رسمناه به من ذلك .

فصل (٣٤) سأل القاصد المذكور انه اذا أحضرت مراكبهم وقطائعهم وأحضر معهم ذهباً نقداً لأجل الشراء والمصروف وقصدوا اخراجه في معاملة مقامنا الشريف يخرج كمثل ذهب البنادقة على أوزانه وعياره الطيب فان التاجر ما يقدر يحمل ضرب ذهب البنادقة ولا لهم حيلة غير ضرب بلدهم وان الذهب المذكور يكون طيب العيار والوزن فرسم لهم بذلك فالجناب العالي يتقدم باعتماد ما يكون الذهب طيباً وازناً كامل العيار .

فصل (٣٥) سأل القاصد المذكور للصدقات الشريفة أنه اذا حضر قنصلهم وتجارهم الى الثغر المحروس يعين لهم فندق ينزلون فيه على العادة فى ذلك فرسم لهم بذلك الجنب العالى يتقدم بأنه اذا حضر القنصل المذكور وتجارهم يعين لهم الجنب العالى فندقا ينزلون فيه على العادة فى ذلك مع الوصية بهم وكف أسباب الأذى والضرر عنهم وسط المعدلة الشريفة فيهم والاحسان اليهم ويستمر هذا المرسوم الشريف بيدهم بعد العمل به قولاً واحداً وأمرأ حازماً والمراسيم الشريفة تؤكد عليه فى ذلك غاية التأكيد تحيط علمه بذلك والله الموفق الأكرم .

ان شاء الله تعالى

فى سابع عشر من جمادى الآخرة احدى وتسعمائة

حسب المرسوم الاصلى

وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد النبى (١٨) .

(22 feb. 1496)

ملحق رقم (١٩)

خطاب السلطان قايتباى الى حاكم فلورنسا بمنح رعاياه وتجاره فى بلاده امتيازات خاصة بالتجارة ، وصورة الخطاب لنائب الاسكندرية والشام لمراعاة هذه الطائفة

السلطان الأعظم المالك الملك الأشرف السيد الأجل العالم العادل المجاهد المناجر الم رابط المظفر ، سيف الدولة والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، محيى العدل فى العالمين ، منصف المظلومين من الظالمين، قانع الحوارج والتمردين ، اسكندر الزمان ، مولى الاحسان جامع

كلمة الايمان ، مملك أصحاب المناير والتخوت والتيجان ، فاتح الأقطار
مانح الممالك والأقاليم والأمصار ، مبيد الطغاة والبغاة الكفار ، وارث
المملك سلطان العرب والعجم والترك ، خادم الحرمين الشريفين مسلك
سبل القبليين ظل الله في أرضه القايم بسنته وفرضه ، سلطان البسيطة
مؤمن الأرض المحيطة ، سيد الملوك والسلاطين قسيم أمير المؤمنين
أبو النصر قايتباي خلد الله تعالى سلطانه ونصر جيوشه وأحزابه
وخدمته وأعوانه .

بسم الله الرحمن الرحيم

لعلم حضرة المشايخ المبجلين

الموقرين العارفين الأبطال، مجد أهل ملتهم كبراء طائفتهم اختيار
الملوك والسلاطين وفقهم الله تعالى، أن قصادهم حضروا الى أبوابنا
الشريفة وأحطنا لهم علما وأجبناهم الى ما سألوا فيه كتابة مراسم
شريفة تتضمن شروط انه تجهزوا قنصلا من طائفتهم يقيم بالثغر
الاسكندري المحروس وان تحضر تجارهم الى الثغر الاسكندري
المحروس بمتاجرهم وبضائعهم للبيع والشراء على عادة البنادقة ورسمنا
بالكتابة الى الثغر الاسكندري والى الشام المحروس أعلمنا بذلك
ورسمنا باعادة قصادهم فعادوا على أحسن الوجوه ورسمنا بتجهيز
المجلس السامى الخواصكى الشمسى بن محفوظ أحد أعيان التجار
وصحبتهم بما جهز معهم على سبيل الهدية من خدمة مقامنا الشريف
وكتبنا الى حضرة المحتشم دوق الفرنتين بأعلاه مينة فيتقدموا بالاقبال
على الخواجا بن محفوظ ومعاملته بالاكرام والاحترام وتجهزوا قنصلا
من الفرنتين الى الثغر الاسكندري المحروس يقيم به على عادة قنصل
البندقية ويطيئوا خواطر تجارهم ويأمروهم بالخضوع الى الثغر
الاسكندري ببضائعهم ومتاجرهم للبيع والشراء والقياض على عادة

الينادة ويكنونوا آمنين مطمئنين فتعلموا بذلك تعلموا به والله تعالى
الموفق الأكرم .

ان شاء الله تعالى .

فى عاشر من جمادى الآخرة سنة احدى وتسعمائة
حسب المرسوم الشريف والحمد لله وحده وصلى الله على من لانبى
بعده حسبنا الله ركن - تم .
حضرة المشايخ الموقرين والمبجلين العارفين الأبطال المحترمين مجد
أهل ملتهم كبراء طائفتهم اختيار الملوك والسلطين وفقهم الله تعالى .
مشايخ طائفة الفرنج الفرنتين (١٩) .

ملحق رقم (٢٠)

مرسوم سلطانى صادر من السلطان قنصوة الغورى لجميع عماله
ونوابه وموظفى الدولة فى الاسكندرية وجميع بلاد السلطان بتنفيذ
ما تضمنه هذا المرسوم لطائفة الفرنتين الوافدين لبلاد السلطان وتأيد
ما منح لهم من امتيازات سابقة وهو بتاريخ ١٨ من ذو القعدة ٩١١/١٢
من ابريل ١٥٠٦ م .

مرسوم شريف .

الى كل واقف عليه وناظر اليه من الجنابات العالية والمجالس
السامية النواب والحجاب والمباشرين والنظار والمتكلمين وأرباب
الادراك وأصحاب الوظائف بالشعر الاسكندرى المحروس وغيره من

(26 feb. 1496)

Amari, I Diplomi Arabi. XLI, pp. 210, 213 & p. 443.

(١٩)

مكتوبة باللغة العربية

الثغور الاسلامية والسواحل بممالكنا الشريفة ضاعف الله تعالى نعمة
الجنابات العالية وأعز المجالس السامية يتضمن اعلامهم .

١ - قد برزت مراسمنا الشريفة لطائفة الفرقتين من الافرنج
بالأمان والاطمئنان والأخذ والعطاء والبيع والشراء وأن يحضروا
الى الثغر الاسكندري المحروس والى غيره من الثغور الاسلامية والى
السواحل بممالكنا الشريفة ببضائع متجر ولهم الأمان والاطمئنان
والبيع والشراء والأخذ والعطاء وعليهم أمان الله تعالى وأماننا الشريف
فيتقدم كل واقف عليه من الجنابات والمجالس بالوصية التامة لهم
اكرامهم واحترامهم ومعاملتهم بالعدل ومنع من يتعرض لهم بسوء
أو ضرر ولهم عادة التجار من الافرنج وأن يحضروا الى ثغر
الاسكندرية ولهم الأمان والاطمئنان فى البيع والشراء والأخذ والعطاء
وأنهم يحضرون طيبى القلب منشرحى الصدر آمين على أنفسهم
وأموالهم ومراكبهم واذا حضروا من غير المراكب لطائفتهم يكون لهم
الأمان فى البر والبحر وان يعاملوا بالعدل الشريف ولا يحدث حادث
ولا مظلم وألا يوزنوا الا أسوة بالتجار البنادقة وغيرهم من تجار
الافرنج الذين يحضرون الى الثغر الاسكندري فى البحر وذلك على
حكم ما بيدهم من المراسيم الشريفة فى أيام الملك الأشرف العبد
الشهيد قايتباى سقى الله هذه صوب الرحمة والرضوان على يد
قاصدهم الوزير « دالستوفا » مع الوصية لهم ومنع من يتعرض لهم
بسوء أو ضرر .

٢ - من هلك منهم عن وصية فليعمل بها من غير أن يتعرض
أحد لوصيته .

٣ - اذا انكسر مركب من مراكب الفرقتين بممالكنا الشريفة
فلا أحد يتعرض الى البضاعة ولا الى أى شىء منهم سوى السلاح
على ما جرت به العادة من تقادم السنين .

٤ - اذا حضر بلادهم قنصل فلا أحد يحكم بين طائفة الفرقتين
الا القنصل يتعامل قولاً واحداً وأمرأ حازماً ومراسمنا الشريفة تؤكد
عليهم فى ذلك غاية التأكيد فيحيط علمهم بذلك والله تعالى الموفق
بمنه وكرمه .

ان شاء الله تعالى .

فى ثامن عشر فى القعدة الحرام سنة احدى عشر وتسعمائة .

حسب المرسوم الشريف والحمد لله تعالى وصلى الله على سيدنا
محمد وآله وسلم (٢٠) .

ملحق رقم (٢١)

هذا الخطاب موجه من حاكم فلورنسا الى السلطان الأفخم
قانسوه الغورى بشأن الهدايا المرسله مع سفيره تغرى بردى عام
١٥٠٧ وهو فى طريقه الى أوربا وتقديمه مقترحات جديدة من سيده
السلطان بامتيازات أخرى لتجار الفرقتين فى بلاد السلطان .

السيد السلطان الأفخم .

حيث ان الأفخم سفيركم تغرى بردى ترجمانكم الموجود بالبندقية
الآن قد أظهر عواطفه الطيبة نحونا وعرض من جانبه الأمان والمعاملة
الحسنة لكل تجارنا الذين يذهبون للمتاجرة ببلاد عظمتكم فاننا نقدم
الشكر لهذا الكرم العظيم وان كل ما يمكن أن يخطر على البال من
عبارات الشكر تفى بالواقع ونظن أن فخامتكم تقدرون أننا نشعر به
وبأماته . وقد قبلنا الهدية التى أرسلت لنا على يد سفيركم تغرى

بردى وحملناه الشكر العظيم لكم وامتناننا لكم ولعمالكم الذين
سيمنحون الأمان والتسهيل والثقة ولا نشك أننا حصلنا على امتيازات
مثل هذه فى أى وقت مضى لمواطنينا فى بلدكم (٢١) .

ملحق رقم (٢٢)

مرسوم موجه لجماعة الفرقتين ولتجارهم فى بلاد السلطان
باعفاءات وامتيازات جديدة وصورة المرسوم لعمال ونواب السلطان
لمراعاة تجار هذه الطائفة فى بلاده بتاريخ ٢٢ جمادى الآخرة ٩١٣ هـ
٢٩ أكتوبر ١٥٠٧ م .

مرسوم شريف أن يتقدم كل واقف عليه من جماعة الفرقتين
وفقهم الله تعالى باعتماد ما تضمنه هذا المرسوم الشريف والعمل به
على ما شرح فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

رسم بالأمر الشريف العالى المولوى قانصوه الغورى السلطان
الملكى الأشرفى السيفى أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه ان
يسطر هذا المرسوم الشريف الى كل واقف عليه من جماعة الفرقتين
وفقهم الله تعالى بعلمهم أن المجلس السامى الأميرى الترجمان الكبير
المقصدى الذخيرى الأوحدى الأكمل السيفى تغرى بردى الترجمان
القاصد أدام الله سعده حضر الى خدمة أبوابنا الشريفة وذكر لنا أنه
جهز اليكم امانا شريفا لا يحصل معه تشويش على أحد فقد أحاطت

Amari, I Diplomi Arabi, XLIX (1507).

(٢١)

80 La Signoria di Firenze, al Sultano d'Egitto Ningranziamento pei, fa-
vori commerciali promenai d'all'ambasciatore Tangaberdi (Italiano 1507 —
15 April).
(Nell'archivio Fiorentino, Signori Carteggio, missine, registro I, Cancel-
leria(No. 54 fog 181 recto.)

مكتوبة باللغة العربية

علومنا الشريفة بذلك وهو ناشئ عن مقامنا الشريف ورسمننا لكم أن
 تحضروا الى موانينا الشريفة بالشعر الاسكندري وثمر دمياط وبرلس
 ورشيد وسائر الموانى الداخلة فى حوزتنا الشريفة وتبيعوا وتشترىوا
 أسوة ببقية التجار وعليكم الأمان من الله تعالى وأمان رسوله صلى الله
 عليه وسلم وأماننا الشريف ورسمننا بمنع من يتعرض لكم بأذية أو ضرر
 أو تشويش وألا يطالب الأب عن ابنه ولا الأخ عن أخيه الا بمستند فى
 الشعر الاسكندري أو فى ثغر من ثغور الاسلام بمستند شرعى - فيقدموا
 باعتماد ما رسمننا به من ذلك على الحكم المشروح أعلاه ويحضروا
 الى ثغور مملكتنا الشريفة طيبى القلب منشرحى الصدر آمنين على
 أنفسكم وأموالكم لا يمسهم ضرر ولا سوء فيتعلموا ذلك ويعتمدوه
 والله الموفق بمنه وكرمه ان شاء الله تعالى - فى ثانى عشرين
 من شهر جمادى الآخرة المبارك سنة ثلاث عشرة وتسعمائة (٢٢ . جمادى
 الآخرة ٩١٣ هـ) .

حسب المرسوم للشريف الحمد لله رب العالمين وصلى الله على
 سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم نعم الوكيل حسبنا الله تعالى . تم
 (٢٢ أكتوبر ١٥٠٧) (٢٢) .

ملحق رقم (٢٣)

أمر من السلطان قانصوه الغورى لتسهيل الأمر على تجار
 الفرثيين فى موانئ مصر . الملك الأشرف قانصوه الغورى سلطان
 مصر .

أمر بمرسوم بخصوص نفس موضوع موانئ الاسكندرية

Amari, I Diplomi Arabi, XVII, pp. 218 - 219 - 220.

(٢٢)

مكتوبة باللغة العربية

ودمياط والبرلس ورشيد نوفمبر ١٥٠٨ - ٩١٤ هـ . أمر من فخامة
السلطان بوجوب عمل كل ما هو مذكور بعلم لطائفة الفلورنسيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أمر به السلطان الملك الأشرف السيفى الذى رفعه الله ..
والحمد لله أنه يجب أن تكون أوامر السلطان مطاعة فى كل بلاده
- ان الأمير الترجمان « تغرى بردى » عرض علينا كما طلبتم أيها
الفلورنسيون باسمنا الأمان والطمأنينة ولما سمعنا كلماته وما قاله لنا
- أمر بالأمان واطمأن لهم فى موانينا بالاسكندرية ودمياط ورشيد
والبرلس وكل الموانى التابعة لنا ، للبيع والشراء حسب العادة المتبعة من
التجار - وقد ارتضينا أن تكونوا أيها الفلورنسيون تحت حماية الله
وحمايتنا الشخصية بهذا المرسوم ونأمل ألا أحد يعترض عليكم
أو يزعجكم أو يضايقكم ولا يؤخذ الابن بجريرة الأب ولا القريب
بالقريب ولا يطالبوكم بأى شئ لأى سبب فى الحال والاستقبال .
نريد منكم أن تشعروا بالعدل فى أراضينا وفى أى بلد توجدوا فيه
- واذا رغبتهم أن يحضروا فى بلادنا فائنا نرضى أن يحضروا تحت
مرسومنا وأماننا السابق وبكل أمان وثقة وأن تكونوا آمنين على
أموالكم وأشخاصكم ولا تخشوا من أى ازعاج أو مضايقة والله هو
الذى يعطى الخير لكل انسان ..

سنة النبى ٩١٤ هـ - ١٥٠٨ م .

(منشور السلطان الى الفلورنسيين والى عماله بمراعاة
مصالحهم فى بلاده وهو الذى أصدره السلطان بعد عودة تغرى بردى
الى القاهرة بناء على طلب حاكم فلورنسا) (٢٣) .

(٢٣) مكتوب باللغة العربية

Amari, 1 Diplomi Arabi, L. p. 388.

82 Nell Archivio, fiorentino atti pubblici Tom X., Tuniai, No. 10.
Novembre 1508. DCCCCXIII 91411.

ملحق رقم (٢٤)

مرسوم من السلطان قانصوه الغورى بشأن منح وامتيازات جديدة لطائفة الفرنتيين لدى وصولهم لبلاده . وذلك بناء على طلب سفيرهم الى السلطان وهو السيد برنالدين يروشوا Bernardo Baruzzi ومنحهم موسما لتجارتهم ومركزا لقنصلهم على مثل ما لغيرهم من الفرنجة فى بلاد وموانى السلطان . (١٠ ربيع أول ٩١٥ هـ - ٥ يوليو ١٥٠٩ م) .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله ووليه السلطان الأعظم المالك الملك الأشرف السيد الأجل العالم العادل والمجاهد المؤيد الرابط والمثاغر المظفر والمنصور سيف الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين محيى العدل فى العالمين منصف المظلومين من الظالمين وارث الملك ملك العرب والعجم والترك ظل الله فى أرضه القائم بسنته وفرضه فاتح الأقطار فاتح الممالك والأمصار اسكندر الزمان مولى الاحسان مملك أصحاب المنابر والأسرة والتخوت ملك البحرين ملك سبيل القبلتين خادم الحرمين الشريفين سلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة جامع كلمة الايمان فاشر لواء العدل والاحسان سيد ملوك الزمان أمام المتقين قسيم أمير المؤمنين أبى النصر قانصوه الغورى خلد الله سلطانه ونصر جيوشه وأعوانه وأعلى على همام الجوزاء مكانه ...

صدرت هذه المكاتبه الى حضرة الملك الجليل البطل الباسل الهمام السמידع الغضنفر فخر الملة المسيحية وذخر الأمة النصرانية عماد بنى المعمودية صديق الملوك والسلطين وفقه الله تعالى وبقه مصارع سوء ويجرى له بالسلام فى النفس والمال احكامها يتضمن الأعلام أن علومنا الشريفة أحاطت بمضمون قصته الواردة الى خدمة أبوابنا

الشريفة على يد قاصده برنالدين يروشوا فى معنى ما قصده حضرة الملك من عمل موسم بثمر الاسكندرية المحروس كعادة غيره من تجار الفرنج وانه تجهز تجارا وقنصلا يقيم بالثمر بالاسكندرية من الجمالية وما سأل فيه من بروز أمرنا الشريف يكتب مرسوم شريف بتأمين القنصل والتجار عند حضورهم ومضاعفة الوصية لهم ومعاملتهم بالعدل الشريف والنداء لهم بالأمان الطمان والبيع والشراء والأخذ والعطاء على عادة أمثالهم بحيث يكونوا آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم وألا يطلب أحد ما لم يكن ضامنا أو كفيلا وإذا باعوا واشتروا وقاموا بما يجب عليهم للدواوين الشريفة وقصدوا وسعروا ما يبتاعونه فى مراكبهم أو فى مراكب يختارونها وقصدوا العود من حيث أتوا فيمكنوا من ذلك ولا يعوق عليهم ولا يؤخذ منهم بضاعة غصبا الا برضاهم وإذا انصاح (انصلح - أو انصاخ) لهم مركب من ربح عرضت فيمكنوا من رجالهم وبضائعهم أسوة أمثالهم ويساعدهم المتكلمون عن مقامنا الشريف فى ذلك اذا هلك واحد منهم عن وصية فيعمل بمضمون وصيته وان هلك عن غير وصية وترك موجودا فيسلم الموجود للقنصل على الصون الشريفة وعلمنا ذلك مفصلا وصار ذلك على خواطرننا . وأجبنا حضرة الملك الى ما سأل فيه من ذلك وبرز أمرنا الشريف بكتاب أمان شريف للقنصل والتجار وما سأل فيه حضرة الملك وجهز ذلك اليه ورسمنا للمجلس العالى الأميرى الكبيرى المجاهدى المؤيدى الذخيرى النصرى الأوحدى الأكملى الأعزى السيفى عمدة الملوك والسلاطين تغرى بردى أحد أعيان أمراء العشرات بالديار المصرية والترجمان بأبوابنا الشريفة ادام الله تعالى سعده بأن يكتب الى حضرة الملك بما فيه اطابة خواطري التجار بما سيعلم حضرة الملك بأمر تجاره وجماعته بالحضور الى ثغر الاسكندرية المحروس للبيع والشراء والأخذ والعطاء ولهم الأمان والاطمان على جارى العادة من ذلك ومستقر القاعدة من غير ضرر ولا تشويش ، وقد اعدنا اليه

فاصده بهذا الجواب الشريف فنعلمه باعتماده والله تعالى الموفق
سبحانه .

ان شاء الله تعالى

فى رابع عشر ربيع الأول المبارك سنة خمس عشرة وتسعمائة
حسب المرسوم الشريف .

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد النبى وآله وسلم
حسبنا الله ونعم الوكيل . تم . (خطاب السلطان لحاكم فلورنسا) .
حضرة الملك الجليل البطل الباسل الهمام السميع الغضنفر فخر
الملة المسيحية ذكر الأمة النصرانية عماد بنى المعمودية صديق الملوك
والسلاطين وفقه الله تعالى صاحب القرنيتين (٢٤) .

ملحق رقم (٢٥)

مرسوم صادر من السلطان قانصوه الغورى الى جميع نوابه
وموظفيه وعماله لمراعاة مصالح القرنيتين فى بلاده .

الاسم الشريف

مرسوم شريف أن يتقدم كل واقف عليه من النواب والنظار
والحكام والمباشرين والمتكلمين وتجار الذخيرة الشريفة وولاية الأمور
بشعر الاسكندرية المحروس أميرهم الله تعالى اعتماد ما تضمنه هذا
المرسوم الشريف والعمل على ما شرح فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

رسم بالأمر الشريف العالى المولوى قانصوه

السلطانى الملكى الأشرف السيفى أعلاه الله تعالى وشرفه
وأنقذه وصرفه أن يسطر هذا المرسوم الشريف الى كل واقف عليه

Amari, I Diplomi Arabi. LI - XLIV.
(Ital.) pp. 389 - 390.

(٢٤)

(مكتوب باللغة العربية) عربى من ٢٢١ - ٢٢٣ .

من النواب والنظار والحكام والمباشرين والمتكلمين وتجار الذخيرة الشريفة وولاية الأمور بشعر الاسكندرية المحروس أيدهم الله تعالى بعلمهم أنه حضر الى خدمة أبوابنا الشريفة قاصد حضرة الملك الجليل الهمام الضرغام صاحب فرتتين هو المحتشم المبجل برنالدين يروشوا بما على يده من كتاب مرسله المذكور ذكر فيه أنه يقصد أن يعمل موسما بشعر الاسكندرية المحروس على ما يترتب له من الجامكية أسوة بغيره من القناصلة وسأل صداقتنا الشريفة في أنه يبرز مراسمنا الشريفة بكتب هذا المرسوم الشريف بتأمين القنصل والتجار عند وصولهم الى الشعر المحروس للبيع والشراء والأخذ والعطاء ومعاملتهم بمعدلتنا الشريفة ومضاعفة الوصية بهم والنداء اليهم بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء والأخذ والعطاء على عادة أمثالهم بحيث يكونوا آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم وألا يطالب أحد منهم عن أحد ما لم يكن ضامنا أو كفيلا واذا باعوا واشتروا وقاموا بما يجب عليهم للدواوين الشريفة وقصدوا وسق ما يتاعونه من مراكبهم أو بمراكب اختاروا وقصدوا العود من حيث أتوا فيمكنوا من ذلك وألا يؤخذ منهم بضاعة غصبا الا برضاهم ، واذا انصاح لهم مركب من ربح عرضت لهم فيمكنوا من رجالهم وبضائعهم أسوة أمثالهم . واذا هلك واحد منهم عن وصية فيعمل بمضمون وصيته واذا هلك من غير وصية وترك موجودا فيسلم موجوده الى قنصلهم ما لم يكن وارثه حاضرا على جارى العادة في ذلك فأجبناه الى ما سأل فيه من ذلك ورسومنا بكتب هذا المرسوم الشريف للبيع والشراء والأخذ والعطاء على جارى العادة في ذلك ومستقر القاعدة واجهار النداء اليهم بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء والأخذ والعطاء على جارى العادة في ذلك ومستقر القاعدة قولا واحدا وأمرنا حازما ومراسمنا الشريفة تؤكد في ذلك غاية التأكيد فيحيط ان شاء الله تعالى .

فى رابع عشر من ربيع الأول المبارك سنة خمس عشرة وتسعمائة
حسب المرسوم الشريف فالحمد لله وحده وصلى الله على نبيه محمد
وسلم .. تم (٩ يوليو ١٥٠٩) (٢٥) .

(٢٥) مكتوبة باللغة العربية

Amari, I Diplomi Arabi, XLV - LII.

84 Lo Stesso : Editto Comunicato ai luogotementi ad altri ufficiali d'Ale-
xandria sul Commercio do Fiorentini (Arabice p. 226. Ital. p. 391, 392)
pp. 226-229. 9 luglio 1509.

طرق التجارة الدولية - ٤٨١

أولا : المراجع العربية

١ - المخطوطات

- ١ - الأسدي محمد بن محمد ٩ هـ / ١٥ م -
كتاب التيسير والاعتبار والتحرير والاختصار فيما يجب من
حسن التدبير والنصيحة والتصرف .
مخطوطة بدار الكتب برقم ٥٤٨٢ تاريخ ج ١ مصورة .
- ٢ - ابن الأثير الجزري : أبو المحاسن علي بن أبي الكرم بن عبد الواحد
٨٧٢ هـ .
تحفة العجائب وطرفة الغرائب -
مخطوطة بدار الكتب برقم ط ١٣٤٤ .
- ٣ - ابن اياس : محمد بن أحمد ١٥٢٤ م / ٩٣٣ هـ . -
نشق الأزهار في عجيب الأقطار وهو كتاب خريدة العجائب
وفريدة الطالب - .
مخطوطة بدار الكتب برقم ٤٣٩ جغرافيا و ٣٣٢٠ أدب .
- ٤ - أبو المحاسن : ابن تغرى بردى - حوادث الدهور في مدى الأيام
والشهور . نسخة مصورة بدار الكتب عن الأصل المخطوط
بإستانبول المجلد الأول من الجزء الأول ٢٠٠ ورقة -
مخطوطة برقم ٢٣٩٧ تاريخ .
- ٥ - ابن زنبيل الرمال : أحمد بن زنبيل الرمال المحلي - قرن ١٠ هـ . -
آخرة الممالك أو وقعة السلطان سليم خان في فتوح مصر مع
السلطان الفوري وطومانباي .
مخطوطة بدار الكتب برقم ٤٤ م - ١٢٤ م - ١٢٩ م .
- ٦ - الخالدي :
كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادي لصناعة الإنشا .
مخطوطة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٤٥ .

- ٧ - السخاوى ، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد ١٤٢٧/١٤٩٧ م .
 ٩٠٢/٨٣١ هـ . -
 كتاب التبرك المسبوك فى سير السلوك .
 منقولة عن نسخة مخطوطة برقم ٤٠ تاريخ بدار الكتب .
- ٨ - العسقلانى : ابن حجر ٨٥٢ هـ - ١٤٤٨ م .
 انباء الفمر بانباء العمر .
 مخطوطة بدار الكتب فى جزئين برقم ٢٤٧٦ تاريخ .
- ٩ - النبراوى : عبد الرحمن نصر بن محمد -
 نهاية الرتبة فى طلب الحسبة .
 مخطوطة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٥٠٣ .
- ١٠ - محمد بن سباهى : ٩٩٦ هـ -
 اوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك .
 مخطوطة بدار الكتب برقم ١ جغرافيا .

٢ - كتب مطبوعة

- ١ - ابن البيطار : الشيخ ضياء الدين أبى محمد الملقى الأندلسى
٦٤٦ هـ . الجامع لمفردات الأدوية والأغذية - أربعة أجزاء .
القاهرة ١٢٩١ هـ
- ٢ - ابن الفقيه : أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني .
كتاب البلدان .
ليدن ١٣٠٢ هـ
- ٣ - ابن الوردي : سراج الدين أبى حفص عمر .
خريدة العجائب وفريدة الغرائب (جزآن) .
القاهرة ١١٣٦ هـ
- ٤ - ابن أيوب : السلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل
كتاب تقويم البلدان ، نشر رينود وماك كوكين .
باريس ١٨٤٠ م
- ٥ - ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله .
تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (جزآن) .
القاهرة ١٩٢٨ م
- ٦ - ابن تيمية :
الحسبة فى الاسلام .
القاهرة ١٣١٨ م
- ٧ - ابن جبير : محمد بن أحمد -
رحلة ابن جبير أو تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار .
القاهرة ١٩٥٥ م

- ٨ - ابن حجر :
الدور الكامنة فى أعيان المائة الثامنة (٤ أجزاء) ،
القاهرة ١٢٨٧ هـ
- ٩ - ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد .
(١) مقدمة ابن خلدون .
القاهرة ١٩٠٩ هـ
(ب) العبر وديوان المبتدأ والخبر (٧ أجزاء) .
القاهرة ١٢٤٨ هـ
- ١٠ - ابن حوقل : أبو القاسم :
كتاب المسالك والممالك .
ليدن ١٨٧٢ م
- ١١ - ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله
كتاب المسالك والممالك - شرح وطبع جوجيه .
ليدن ١٣٠٩ هـ
ليدن ١٨٨٩ م
- ١٢ - ابن دقماق المصرى : صارم الدين إبراهيم بن محمد .
كتاب الانتصار لواسطة عقد الامصار ج ٤ وج ٥ .
بولاى ١٨٩٣ م
- ١٣ - ابن شاهين الظاهرى ١٤٩٧ م
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .
باريس ١٨٩٤ م
- ١٤ - ابن فضل الله العمرى :
رسالة لابن فضل الله العمرى .
روما ١٨٨٣ م
- ١٥ - ابن فضل الله العمرى :
التعريف بالمصطلح الشريف .
القاهرة ١٣١٢ هـ
- ١٦ - ابن مياتى : الاسعد ٦٠٦ هـ - ١٢٠٩ م
قوانين الدواوين (نشر عزيز سوريال عطية)
القاهرة ١٩٤٢ م

- ١٧ - أبو شامة ! عبد الرحمن بن اسماعيل ،
كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين - جزءان .
القاهرة ١٢٨٧ هـ
- ١٨ - أبو محمد عبد الله بامخرمة :
تاريخ ثغر عدن - جزءان .
لندن ١٩٣٦ م
- ١٩ - أبو المحاسن :
النجوم الزاهرة فى تاريخ ملوك مصر
والقاهرة - ١٢ جزءا بدار الكتب وطبعة أخرى بكاليفورنيا .
القاهرة ١٩٥٦ م
- ٢٠ - ابن اياس :
بدائع الزهور فى وقائع الدهور - ٣ أجزاء طبع بولاق ١٣١٢ هـ
وج ٤ ، ج ٥ طبعة محمد مصطفى .
استنبول ١٩٣٢ م
- ٢١ - أحمد دراج :
الماليك والفرنج .
القاهرة ١٩٦١ م
- ٢٢ - آدم متز :
الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ - ج ٢
ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده .
القاهرة ١٩٤١ م
- ٢٣ - البغدادى ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م :
كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة
بأرض مصر .
(نشره وعلق عليه ده ساسى)
- ٢٤ - الجاحظ : أبو عثمان عمر بن بحر ٨٦٩ هـ
كتاب التبصر بالتجارة .
القاهرة ١٩٣٥ م
- ٢٥ - الجزيرى :
كتاب الفقه على المذاهب الأربعة - ٤ أجزاء .
القاهرة ١٩٣٥ م

- ٢٦ - السيوطى : جلال الدين بن أحمد : حسن المحاضرة
فى أخبار مصر والقاهرة ج ٢
القاهرة ١٩٤٩ م
- ٢٧ - الفقيه الشيخ زين الدين ١٥٧٩/٩٨٥ :
تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين .
لندن ١٨٢٨ م
- ٢٨ - القرمانى : أبو العباس بن أحمد الدمشقى :
أخبارا الدول وآثار الأول .
بولاى ١٢٩٠ هـ
- ٢٩ - القلقشندى : أحمد بن على ١٤١٨/٨٢١
صبح الأعشى فى صناعة الانشا - ١٤ جزءا .
القاهرة ١٩١٩ م
- ٣٠ - المسعودى :
مروج الذهب ومعادن الجوهر - جزءان .
باريس ١٨٦١ م
باريس ١٨٧٧ م
- ٣١ - المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله الشامى
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم .
ليدن ١٩٠٩ م
- ٣٢ - المقرئى : تقى الدين بن أحمد ١٤٤١ م :
المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - جزءان طبعة بولاى .
١٢٧٠ - ٤ أجزاء طبعة النيل .
١٩٠٧ م
- ٣٣ - المقرئى : تقى الدين بن أحمد :
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ قسم أول وثان صححه
ونشره وعلق عليه دكتور زيادة .
١٩٣٤ م
- ٣٤ - النجدى : أحمد بن ماجد -
أرجوزة العرب فى خليج فارس أو حاوية الأخبار فى أصول علم
البحار ، نشره وعلق عليه فراند .
١٢٩١ م

- ٣٥ - بزرك بن شهریار الناخذاه الرامهرمزی :
عجایب الهند بره وبحره *
لیدن : ١٨٨٣/١٨٨٦ م
- ٣٦ - توفیق اسکندر :
(١) نظام المقایضة فی تجارة مصر الخارجية فی العهد الوسیط *
بحث مستخرج من المجلد السادس من مجلة الجمعية المصرية
للمدراسات التاريخية *
١٩٥٧ م
- (ب) بحوث فی التاريخ الاقتصادي (مترجم) الجمعية المصرية
للمدراسات التاريخية *
١٩٦١ م
- ٣٧ - جاستون فییت :
مصر الاسلامية *
القاهرة ١٩٤٠ م
- ٣٨ - جورج فاضلو حورانی :
العرب والملاحه فی المحيط الهندی (مترجم) *
القاهرة ١٩٥٨ م
- ٣٩ - جورج یعقوب :
اثر الشرق فی الغرب وخاصة فی العصور الوسطی * ترجمه
فؤاد حسنین علی *
القاهرة ١٩٤٦ م
- ٤٠ - حسن عثمان :
تاریخ مصر العام (بالاشتراك) مصر العثمانیه نشره قسم التاريخ
بآداب القاهرة *
القاهرة ١٩٤٢ م
- ٤١ - زکی محمد حسن :
(١) الرحالة المسلمون فی العصور الوسطی *
القاهرة ١٩٤٥ م
- (ب) فنون الاسلام *
القاهرة ١٩٤٨ م

٤٢ - ستانلى لين بول

(أ) سيرة القاهرة (مترجم) حسن ابراهيم وزميله .
القاهرة ١٩٥٠ م

(ب) العرب فى اسبانيا (مترجم) على الجارم .
القاهرة ١٩٤٤ م

٤٣ - سعيد عاشور

(أ) قبرس والحروب الصليبية .

القاهرة ١٩٥٧ م

(ب) المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك .
القاهرة ١٩٦٢ م

(ج) مصر فى عصر دولة المماليك البحرية .
القاهرة ١٩٥٩ م

(د) العصر المماليكى فى مصر والشام .
القاهرة ١٩٦٥ م

(هـ) أوروبا فى العصور الوسطى ج ١ و ج ٢ .
القاهرة ١٩٦٤ م

٤٤ - السخاوى : كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك - طبع دار الكتب
(عن نسخة مخطوطة برقم ٤٠ بدار الكتب) .

القاهرة ١٨٩٦ م

٤٥ - سليمان الفارسى - وأبو زيد حسن السيرافى .

سلسلة التواريخ - رحلة الى الصين والهند .

باريس ١٨٨١ م

٤٦ - سليمان خليل بن جاويش :

كتاب التحفة السنية فى تاريخ القسطنطينية .

بيروت ١٨٧٣ م

٤٧ - شارل ديبل :

البندقية جمهورية الارستقراطية تعريب أحمد عزت عبد الكريم
وتوفيق اسكندر .

القاهرة ١٩٤٨ م

٤٨ - صبحى لبيب :
التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى - المجلة
التاريخية المصرية مجلد ٤ عدد ٢ .

القاهرة ١٩٥٢ م

٤٩ - طاهر مكى :

(أ) المجلة - عدد سبتمبر ١٩٦٠ .

القاهرة ١٩٦٠ م

(ب) المجلة - عدد يناير ١٩٦١ .

القاهرة ١٩٦١ م

٥٠ - عبد الرحمن فهمى :

النقود العربية : ماضيها وحاضرها .

القاهرة ١٩٦٤ م

٥١ - فيشر :

تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ج ٢

نقله الى العربية زيادة والعينى والعدوى .

القاهرة ١٩٥٧ م

٥٢ - محمد جمال الدين سرور :

دولة بنى قلاوون فى مصر .

القاهرة ١٩٤٧ م

٥٣ - محمد جمال الدين الشيبان :

الاطلس التاريخى لمدينة الاسكندرية من أقدم العصور الى الوقت

الحاضر المجلة التاريخية المصرية - المجلد الثانى - القاهرة .

أكتوبر ١٩٤٩ م

٥٤ - محمد عبد الله عنان :

(أ) مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية .

القاهرة ١٩٣١

(ب) تراجم اسلامية شرقية واندلسية .

القاهرة ١٩٣٦ م

- ٥٥ - محمد مصطفى زيادة :
(١) نهاية سلاطين المماليك .
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
القاهرة ١٩٥١ م
- (ب) المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس .
مجلة الجيش .
القاهرة ١٩٤٦ م
- (ج) الاطلس الاسلامي : هـ ج . هازارد ترجمة زيادة .
القاهرة ١٩٥٧ م
- ٥٦ - محمد كرد علي :
خطط الشام ج ٤ .
بيروت ١٩٢٦ م
- ٥٧ - مصطفى الحفناوى :
قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ج ١ و ج ٢ .
القاهرة ١٩٥٢ م
- ٥٨ - ناصر خسرو :
سفرنامه : ما كتبه بالفارسية ناصر خسرو على ونقله للعربية
يحيى الخشاب .
القاهرة ١٩٤٥ م
- ٥٩ - وطسن (اليزابث ج . بوح) وح اليزابث كراثرو :
قصص الرحالة والكشافين - ترجمة أحمد خاكي وادوارد رياض .
لندن ١٩٤٩ م

ثانيا : المراجع الأوربية

1. Allen, J., The Cambridge Shorter History of India.
London. Camb. Univ. Press, 1924
2. Allan, E.A., History of Civilization. Vol. VI. The Medieval World.
U.S.A. 1909.
3. Amari, N., I Diplomi Arabi, Del Archivio Fierentino.
In Firenze MDCCCLXIII.
4. Anchieri, Ettore, Sues, Il Endo D'oggi. Rome 1950.
5. Archer, T.A. & Charles Lethbridge Kingsford, The Crusades, The Story of The Latin Kingdom of Jerusalem.
London 1919.
6. Atia, Aziz Suryal, The Crusade in the Latter Middle Ages,
London 1936.
7. Baker, Ernest, The Crusades. London 1925.
8. Peazley, C. Raymond, Prince Henry The Navigator.
London 1923.
9. Peazley, C. Raymond, The Dawn of Modern Geography.
2 Vols. London 1895.
10. Bernard, Alexander, Cypris. Chronique de l'Ile au Moyen Age.
Paris 1902.
11. Breydenbach, E. DE., Les Saints Peregrinations.
Le Caire 1904.
12. The Camb. Mod. History. (8 Vols.) Camb. 1936,

13. The Camb. Mod. History. Vol. 1. The Renaissance.
Camb. 1907.
14. Cattaul, Joseph, Coup d'oeil sur la Chronologie de la Nation Egyptienne.
Paris 1931.
15. Charles, Roux, J., L'isthme et le Canal de Suez. T. 1-2.
Paris 1901.
16. Cioli, Lionello, Histoire Economique, Depuis l'Antiquité Jusqu'à Nos Jours.
Paris 1939.
17. Clerget, Marcel, Le Caire, Etude de Geographie Urbaine, et d'Histoire Economique. T. II. Le Caire 1934.
18. Colbeck, C. Historical Atlas. London 1923.
19. Combe, M. Et. Alexandrie Musulmane. Le Caire 1933.
20. Combe, M. Et. Precis de l'Histoire d'Egypte. T. III. « L'Egypte Ottomane de la Conquête par Selim I, 1517 à l'Arrivée de Bonaparte 1798 ».
21. Darnes, M. Longworth, The Book of Dunrfe Barbosa 1518 A.D., 2 Vols. London 1921.
22. Day Clive, A History of Commerce. London 1950.
23. De Mas Latrie, M.L., Traités de Paix et de Commerce.
Paris 1865.
24. Depping, G.B. Histoire du Commerce Entre le Levant et l'Europe, Depuis les Croisades Jusqu'à la Fondation des Colonies d'Amérique. T. I & II. Paris 1830.
25. De Sacy, M. Silvestre, Relations de l'Egypte par Abd Al-Latif, Medecin Arabe de Baghdad. 1231 A.D.
26. Devonchire, R.L. L'Egypte Musulmane et les Fondateurs de ses Monuments. Paris 1926.
27. Doppe, P.H., L'Egypte au Commencement du 15ème Siècle. (D'après le Traité d'Emmanuel Pileyi de Grete. Inscrip. 1420),
Le Caire 1950.

28. Dunbar, George. A History of India from the Earliest Times to Nineteen Thirthy-Nine. 2 Vols. (Vol. 1 ancient and mod.). London 1929.
29. Encyclopaedia Britannica. London 1929.
30. Felix Fabri, The Wanderings of... 2 Vols. (1480-1483). London 1897.
31. Ferrand, O. Relations de Voyages. (2 Vols.). Paris 1913-1914
32. Ferrand, G. Instructions Nautiques et coutiers Arabes et Portugais des XV et XVI Siècles. T. 1-5. Texte Arabe, par Ibn Magid.
33. Fischel, W.J., Jews in the Economic and Political Life of the Medieval Islam. London 1958.
34. Fischel W.J., The Spice Trade in Mamluk Egypt, a Contribution to the Economic History of Medieval Islam. Vols. 1, 2, 3. Leiden 1958.
35. Encyclopedie d'Islam.
36. Gayet, Le Cours. Histoire de Commerce. T. II. Paris 1923.
37. Goiten, E.P., New Lights on the Beginning of the Orient. Journal of the Economic and Social History of the Orient. Vol. I. 1958.
38. Hakluyt Society, India in the 15th Century. IV.
39. Hammer, Histoire de l'Empire Ottomane, 18 Vol. Paris 1835-1943.
40. Henry Higga, A Dictionary of Political Economy. Vol. II. London 1935.
41. Heyd, W., Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, T. I & II. Leipzig 1925.
42. Horn, Paul, International Trade, Principles & Practices. New York 1953.
43. Howe, Sonia, E., In Quest of Spices, London 1946.

44. Hyzayyin, S.A., Arabia and the Far East. Cairo 1942.
45. Jacob, E.F., & Crump, P.P. C.C. The Legacy of the Middle Ages. London 1927.
46. Johnson, A.H., Europe in the 16th Century. (1434-1598). London 1924.
47. Journal Asiatique, Traités de Commerce entre la République de Venise et les derniers Sultans Mameluks d'Égypte, par M. Reinaud. T. IV, Paris 1829. (Nouveau Journal Asiatique, 2ème Série).
48. Kammerer, La Mer Rouge, L'Abyssinie et l'Arabie Depuis l'Antiquité Jusqu'a XVe Siècle. 4 Vols., T. II, Part I. Le Caire 1929-1935.
49. Kimble, George, H.T., Geography in the Middle Ages. London 1936.
50. Lane-Poole, Stanley., Medieval India under Mohammedan Rule A.D. 712. 1764. London 1925.
51. Lane-Poole, Stanley, A History of Egypt in the Middle Ages. London 1936.
52. Lane-Poole, Stanley, Turkey. London 1922.
53. Lane-Poole, Stanley, The Story of Cairo. London 1924.
54. Leo L'Africanus, The History and discription of Africa. (3 Vols.) London MDCCCXCVI.
55. Lodge, H., The Close of the Middle Ages. London 1922.
56. Lopez, and Raymond, Medieval Trade in the Mediterranean World. London 1955.
57. Maillet, J., Histoire des Faits Economique des Origines au XXe Siècle. Paris 1952.
58. Marco Poles Travels (2 Vols.). London 1903.
59. Miller, William, The Latins in the Levant. A History of the Frankian Greece (1204-1566). London 1908.

60. Mookerji, Radhakumud, N.A., Indian Shipping, A History of Sea. Borne Trade and Maritime Activity of the Indians from the Earliest Times to the End of the Moghal Period. London 1912.
61. Moreland, W.H., The Ships of the Arabian Sea about A.D. 1500. The Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland. p. 1 - 11. London 1939.
62. Muir, W., The Mamemluk or Slave Dynasty of Egypt. Lodon 1896.
63. Newton, Arthur Percival, Travel and Travellers of the Revival Irade. Prinotion 1925.
64. Pirenne Henri, Medieval Cities. Their Origins and the Revival Trade. Princeton 1925.
64. Pirenne, H., History of Europe from the Invasions to the 16th Century. Lodon 1939.
66. Pirenne, H., Economic and Social History of Med. Europe. London 1937.
67. Poliak, Les Révoltes Populaires en Egypte à l'Epoque des Mamelouks et leur Cause Economiques. 1934.
68. Poston, M.M. & Habakkuk. The Cambridge Economic Hist. of Europe. Part II. Camb. 1952.
69. Power, Eleen, Medieval People. London. 1954.
70. Quatremer, Mémoire sur l'Egypte. Histoire de Sultans Mameluks de l'Egypte (2 Vols.). Paris 1837-1845.
71. Regine Pernaud, Les Villes Marchands aux XIVème et XVème. Impérialisme et Capitalisme au Moyen-Age. Paris 1948.
72. Richard, Hakluyt., The Principals Navigation Voyages, London.
73. Roberta Leues, The Merchant's Moppe of Commerce, Wherein the Unirateral Manner and Matter of Trade, in compendiously handled. London MLCXXXVIII. 1638.

74. Schameil, Maurice. Le Caire, Sa Vie, Son Histoire, Son Peuple. Le Caire 1949.
75. Synge, M.P., A Book of Discovery, The History of the World's Exploration from the World Earliest Times to the Finding of the South Pole. London 1925.
77. Thenaud, J., Le Voyage d'Outre Mer de Jean Thenaud. Paris 1888.
78. Varthema, Ludvice, di. Les Voyage de Ludvico Varthema, Paris 1888.
79. Von Harff, Arnold, The Pilgrimage of von Harff. (1496-1499). London 1946.
80. Waugh, W.T., A History of Europe (1378-1494),
81. Wobester, Hutton, A History of Civilization, Ancient and Medieval. Boston, U.S.A., 1947.
82. Wiet, G., L'Egypte Arabe, Histoire de la Nation Egyptienne. Paris 1926-1937.
83. Wilson, Arnold T., The Persian Gulf. London 1954.
84. Ziada, Foreign Relations of Egypt in the 15th Century. (Thesis.)
85. Gibb, H.A.R., Historical Atlas of Muslim Peoples. Amsterdam 1957.

ملاحق الكتاب

الموضوع	الصفحة
١ - الوثائق والمعاهدات	٣٧٣ - ٤٨١
٢ - المراجع العربية	٤٨٣ - ٤٩٢
٣ - المراجع الأوروبية	٤٩٣ - ٤٩٨
٤ - قائمة الوثائق والمعاهدات	٥٠٠ - ٥٠٢
٥ - فهرس الموضوعات	٥٠٣ - ٥٠٥
٦ - الخرائط	٥٠٦ - ٥١١

قائمة الوثائق والمعاهدات

الرقم	الموضوع	الصفحة
١	اتفاقية التوابل الشريفة بين البنادقة والسلطان أحمد بن السلطان الأشرف إينال عام ١٤٦١ م	٣٧٣
٢	خطاب من السلطان الأشرف قايتباي إلى دوق البندقية بتاريخ ١٠ شعبان ٨٧٧ هـ / ١٤٨٢ م	٣٧٤
٣	تعليمات إلى السفير بندقية سانودو - سفير البندقية إلى السلطان الأشرف قانصوه الغوري	٣٧٦
٤	تعليمات مجلس العشرة في البندقية للسفير البندقي فرنسوا تالدي - تكلفه بالتوجه للقاهرة للتفاوض مع السلطان الغوري سرا في الوسائل الممكن اتباعها لمنع توسع البرتغاليين التجاري في المياه الهندية	٣٨١
٥	مناقشات السناتو بشأن سفارة تغرى بردى إلى البندقية	٣٨٨
ملحق رقم ٥	خطاب السناتو إلى السلطان الغوري بشأن المباحثات بين سفيره تغرى بردى ومندوبي حكومة الجمهورية على ما اتفق عليه الطرفان في الوثيقة رقم ٥	٣٩٠
٦	خطاب من جمهورية البندقية إلى السلطان تشكو فيه من أن عمال السلطان يعملون على ترحيل سفن المدة قبل انتهاء المدة أحيانا وبعد انتهاء المدة بوقت	٣٩١
٧	خطاب من جمهورية البندقية إلى السلطان تشكو فيه من الإجراءات الانتقامية التي اتخذت ضد مواطنيها بسبب تراسلهم واستقبالهم مبعوث الشاه الصفوي	٣٩٥
٨	تعليمات للسفير دومنكو تريفراني - سفير جمهورية البندقية إلى السلطان	٣٩٩
	ثم نص اتفاقية السفير البندقي تريفراني والسلطان الغوري ١٥١١ / ١٥١٢	٤٠٦
٨ (أ)	الاتفاقيات بين السلطان الغوري والسفير البندقي تريفراني فيما يتعلق ببيع ال ٢١٠ أجمال من التوابل الشريفة	٤١٧

الصفحة	الموضوع	الترقيم
٤١٩	أسئلة من البندقية ورد السلطان عليها	٨ (ب)
٤٢٢	تعليمات لعمال السلطان وللفرنح وتجارهم	٨ (ج)
٤٢٢	بعض النظم التجارية الخاصة بتجارة البندقية في الاسكندرية بناء على طلب القنصل وتجاره بالمدينة	٨ (د)
٤٢٥	اتفاقية خاصة بتجارة البندقية في ميناء طرابلس بالشام	٩ (أ)
٤٢٦	عريضة مقدمة للسلطان من قنصل وتجار دمشق ووافق عليها نائب السلطان بدمشق	٩ (ب)
٤٢٦	اتفاقية خاصة بالتجار البنادقة المقيمين في حلب	٩ (ج)
٤٢٩	المعاهدة بين السلطان سليم الأول العثماني وطائفة البنادقة في نهر الاسكندرية بعد فتح العثمانيين لمصر ١٤ من فبراير ١٥١٧ م	١٠
٤٣٥	اتفاقية بين جنوة والسلطان محمد الثاني العثماني بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣ - وهي بتاريخ ١١ من مارس ١٤٥٤	١١
٤٣٧	أولى المعاهدات التجارية بين البنادقة والعثمانيين بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣ - وهي بتاريخ ٢٨ من ابريل ١٤٥٤	١٢
٤٣٩	نسخة من الشروط بين فلورنسا والسلطان قايتباي بشأن التجارة الفلورنسية في مصر ودمشق وبيروت ١٤٨٨ م	١٣
٤٤٧	ملحق لمعاهدة الامتيازات الممنوحة لطائفة الفرنتيين ببلاد السلطان المماليكي عام ١٤٨٨ م بامتيازات جديدة غير ما منح للبنادقة	١٤
٤٥٠	تعليمات للسفير لويجي ولاستوفا سفير فلورنسا لسلطان مصر بتاريخ ١٠ من نوفمبر ١٤٨٨	١٥
٤٥٢	اتفاقية بين السلطان الأشرف قايتباي - سلطان مصر والمعظم الأفخم لورنزو ديميديتشي حاكم فلورنسا بواسطة سفيره لويجي دلاستوفا عام ١٤٨٨	١٦
٤٥٥	خطاب السلطان قايتباي لأمير فلورنسا بشأن تأكيد امتيازات طائفة التجار الفلورنسيين ببلاد السلطان بتاريخ ٢٤ من ذى الحجة ٨٩٤ هـ / ١٨ من نوفمبر ١٤٨٩ م	١٧
٤٥٧	المعاهدة الشاملة - وهي امتيازات منحها السلطان قايتباي لطائفة الفرنتيين ببلادهم وهي بتاريخ ٢٢ من فبراير ١٤٩٦	١٨

الصفحة	الموضوع	الرقم
٤٦٩	خطاب السلطان قايتباى الى حاكم فلورنسا يمنح رعاياه وتجاره فى بلاده امتيازات خاصة بالتجارة - وصورة الخطاب لنائب الاسكندرية والشام لمراعاة هذه الطائفة	١٩
٤٧١	مرسوم سلطاني من السلطان الغورى لجميع عماله بتنفيذ ما تضمنه المرسوم السابق لطائفة الفرنتيين الوافدين لبلاد السلطان وتأييد ما منح لهم من امتيازات سابقة بتاريخ ١٢ من ابريل ١٥٠٦	٢٠
٤٧٣	خطاب موجه من حاكم فلورنسا الى السلطان الغورى بشأن الهدايا المرسله مع سفيره تغرى بردى عام ١٥٠٧ ومعه مقترحات جديدة بامتيازات لتجار الفرنتيين فى بلاد السلطان	٢١
٤٧٤	مرسوم موجه لجماعة الفرنتيين ولتجارهم فى بلاد السلطان باعفاءات وامتيازات جديدة وصورته لعمال ونواب السلطان لمراعاة تجار هذه الطائفة وهو بتاريخ ١٩ من اكتوبر ١٥٠٧	٢٢
٤٧٥	امر من السلطان قانصوه الغورى لتسهيل الامر على تجار الفرنتيين فى موانى مصر والى عماله لمراعاة مصالحهم فى بلاده	٢٣
٤٧٧	مرسوم من السلطان قانصوه الغورى بشأن منح امتيازات جديدة لطائفة الفرنتيين لدى وصولهم لبلادهم وذلك بناء على طلب سفيرهم الى السلطان بتاريخ ٥ من يوليو ١٥٠٩	٢٤
٤٧٩	مرسوم صادر من السلطان قنصوه الغورى الى جميع نوابه وموظفيه وعماله لمراعاة مصالح الفرنتيين فى بلاده	٢٥

فهرس الموضوعات

الفصل الاول

نظرة سياسية عامة فى احوال دول البحر المتوسط من سقوط
القسطنطينية ١٤٥٣ الى دخول العثمانيين مصر ١٥١٧ م

من ص ١١ الى ص ٣٤

سقوط القسطنطينية - حدود دولة سلاطين المماليك فى النصف
الثانى من القرن ١٥ م - الدول المعاصرة : مملكة الحبشة المسيحية -
دول شمال افريقيا - الهند الاسلامية - قبرس - مملكة قشتاله ومملكة
فرنسا - الجمهوريات الايطالية - الاسبان ومسلمو الأندلس - السلطان
اينال - السلطان خشقدم وسياسته الاسلامية ، وعلاقاته مع العثمانيين
- السلطان قايتباى - السلطان قانصوة الغورى - كشف رأس الرجاء
الصالح - الصفويون والعثمانيون - المماليك والعثمانيون .

الفصل الثانى

العلاقات التجارية الخارجية بين دول شرق البحر المتوسط
وغربه فى النصف الثانى - القرن ١٥ م

(من ص ٣٥ - ص ١١٤)

اثر سقوط القسطنطينية فى تحول التجارة لمصر والشام -
العلاقات التجارية بين دولة المماليك والمدن الايطالية والفرنسية
والقطالونية على عهد السلطان اينال - العلاقات التجارية على عهد
السلطان قايتباى - العلاقات التجارية على عهد السلطان الغورى -
تحول طريق التجارة الى رأس الرجاء الصالح واثره على تجارة مصر
وعملائها - السفارات البندقية لمصر - السفارات المصرية للبندقية -
وقعة شول ١٥٠٨ - وقعة ديو ١٥٠٩ - نهب سفن السلاح المرسلة لمصر
من الدولة العثمانية - بعثة تريفزانى وما حققتة - الموقف فى مصر

والهند بعد ديو - أفتح العثماني لمصر واتفاقية التجارة بين العثمانيين والبنادقة .

الفصل الثالث

الطرق والمراكز التجارية

(من ص ١١٥ - ص ١٨٨)

الطريق الأول البحري من الهند والصين الى الخليج العربي وفروعه ومراكزه - الطريق الثاني من الشرق الأقصى للبحر الأحمر وفروعه ومراكزه في مصر والشام - الطريق الثالث من وسط آسيا والهند برا الى بلاد بلقان شمالا والبحر الأسود وآسيا الصغرى والشام - الطريق الرابع بحرا من الصين الى الهند والخليج العربي والبحر الأحمر ومراكزه طريق البندقية التجارى لشرق البحر المتوسط - طريق جنوة التجارى لشرق البحر المتوسط - طريق فلورنسا التجارى لشرق البحر المتوسط - طريق مرسلية التجارى لشرق البحر المتوسط - طريق برشلونة التجارى لشرق البحر المتوسط - طريق القسطنطينية البرى .

الفصل الرابع

السلع التجارية

(من ص ١٨٩ - ص ٣٧٢)

أنواع السلع المتبادلة - موقف البابوية من التعامل مع الممالك - التوابل : الفلفل - القرفة - القرنفل - الخلدجان - الزنجبيل .
العقاقير الطبية : البلسم - الكافور - الهندشعيرة - خيار شمير - الراوند - العفص والمن - العود الهندي - جوزة الطيب - التوتيا - الزعفران او الكركم . الرقيق الأبيض والأسود ومصادره - موقف البابوية من تجارة الرقيق . البخور والعطور : عود البند - المسك - خشب الصندل - العنبر - البخور - اللادن - المصطكى - اللبان الجاوى - الصمغ - صمغ الك - مواد الصباغة : الفرة - النيلة -

دودة القرمز - الشب - التوتيا - القطران الطبيعى - خشب البرازيل
- العاج - السكر - الخزف - والبورسلين - المنسوجات القطنية
والحريرية والكتانية والمطرزة بخيوط الذهب والفضة - المنسوجات
الصوفية . موقف الكنيسة من استيراد المنسوجات من الشرق -
الخشب . الأحجار الكريمة : الزمرد - الفيروز - اللازورد - العقيق -
الذهب - الماس - الزجاج والبلور .

الفصل الخامس

النظم التجارية

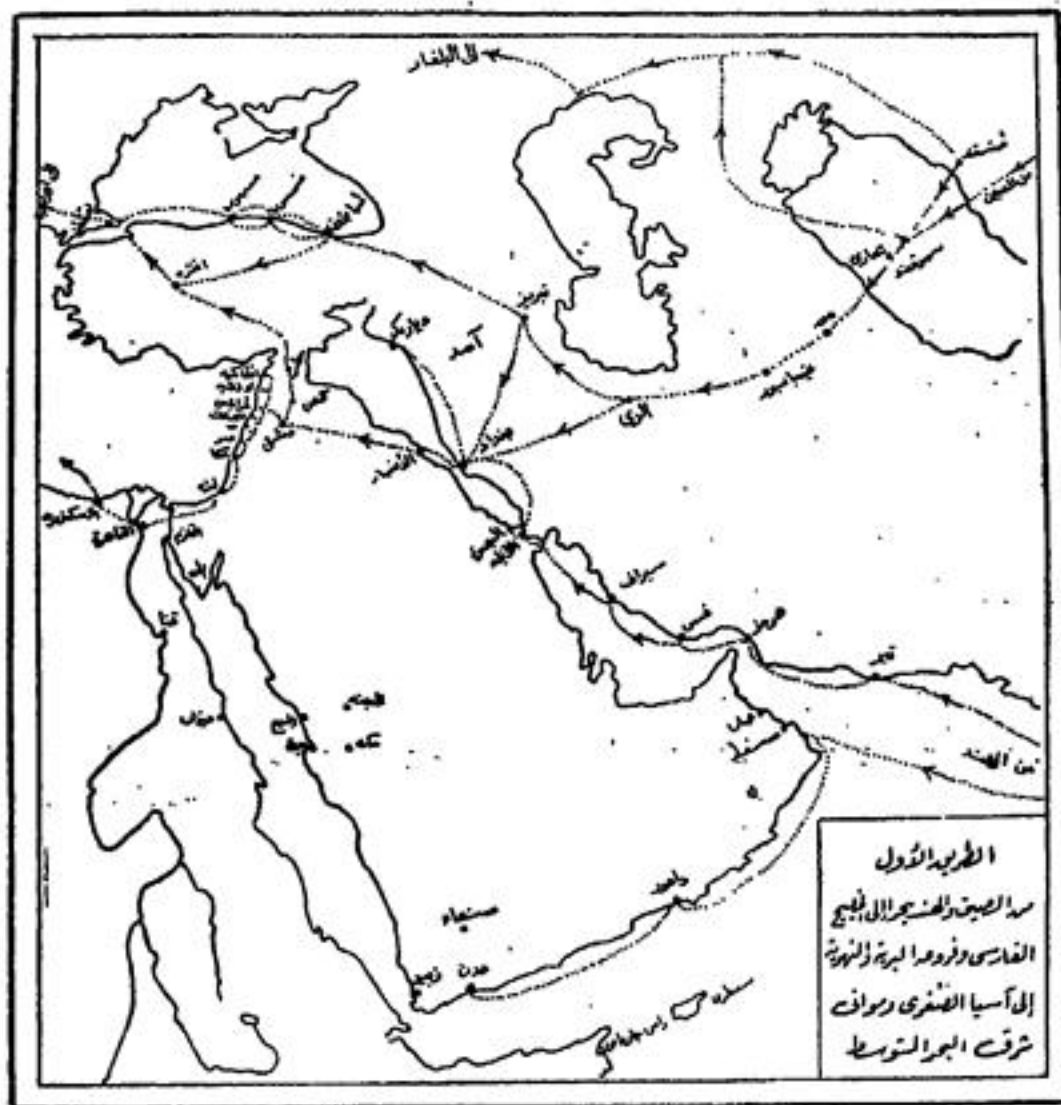
سبق الشرق فى نظم التجارة ونقل الغرب عنه - بعض المشاكل
التي واجهت تجار العصور الوسطى - نظام النقل البحرى فى التجارة -
نظام سفن المدة البحرى - نظام النقل البرى - نظام تجارة العبور -
المنشآت والمرافق التجارية : الأسواق - الوكالات - القياس - الخانات
- الفنادق - طوائف التجار الشرقيين والغربيين والوطنيين - الهيئات
المشرفة على التجارة - الاجراءات الجمركية فى ميناء الاسكندرية -
القناصل التجاريون - نقابات التجار - الاحتكار التجارى - الرأسمالية
فى النظام التجارى - المعاملات المالية : النظام المصرفى - طرق المحاسبة
التجارية - الضرائب التجارية - نظام الدفع فى المعاملات التجارية -
نظام المقايضة .

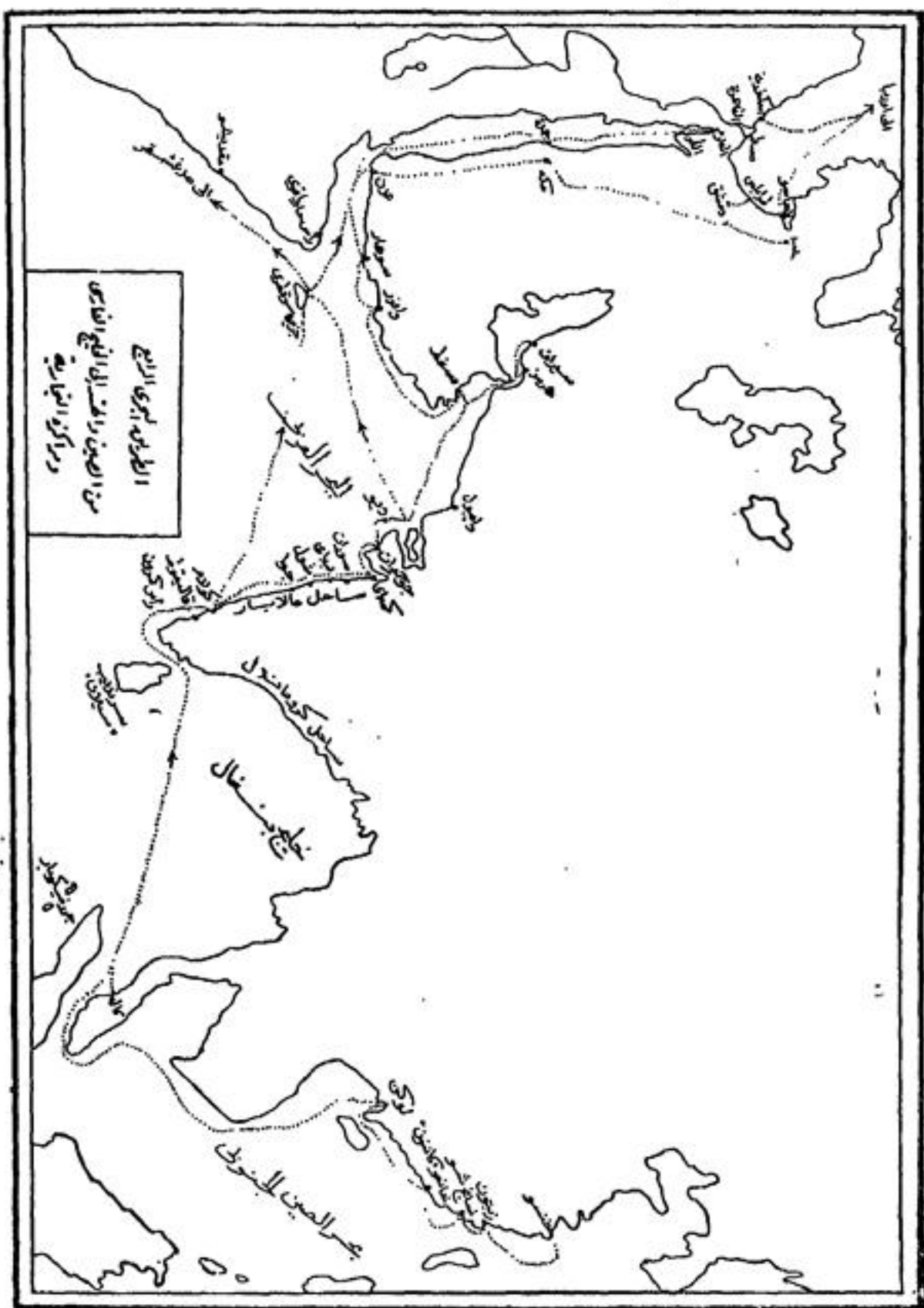
الفصل السادس

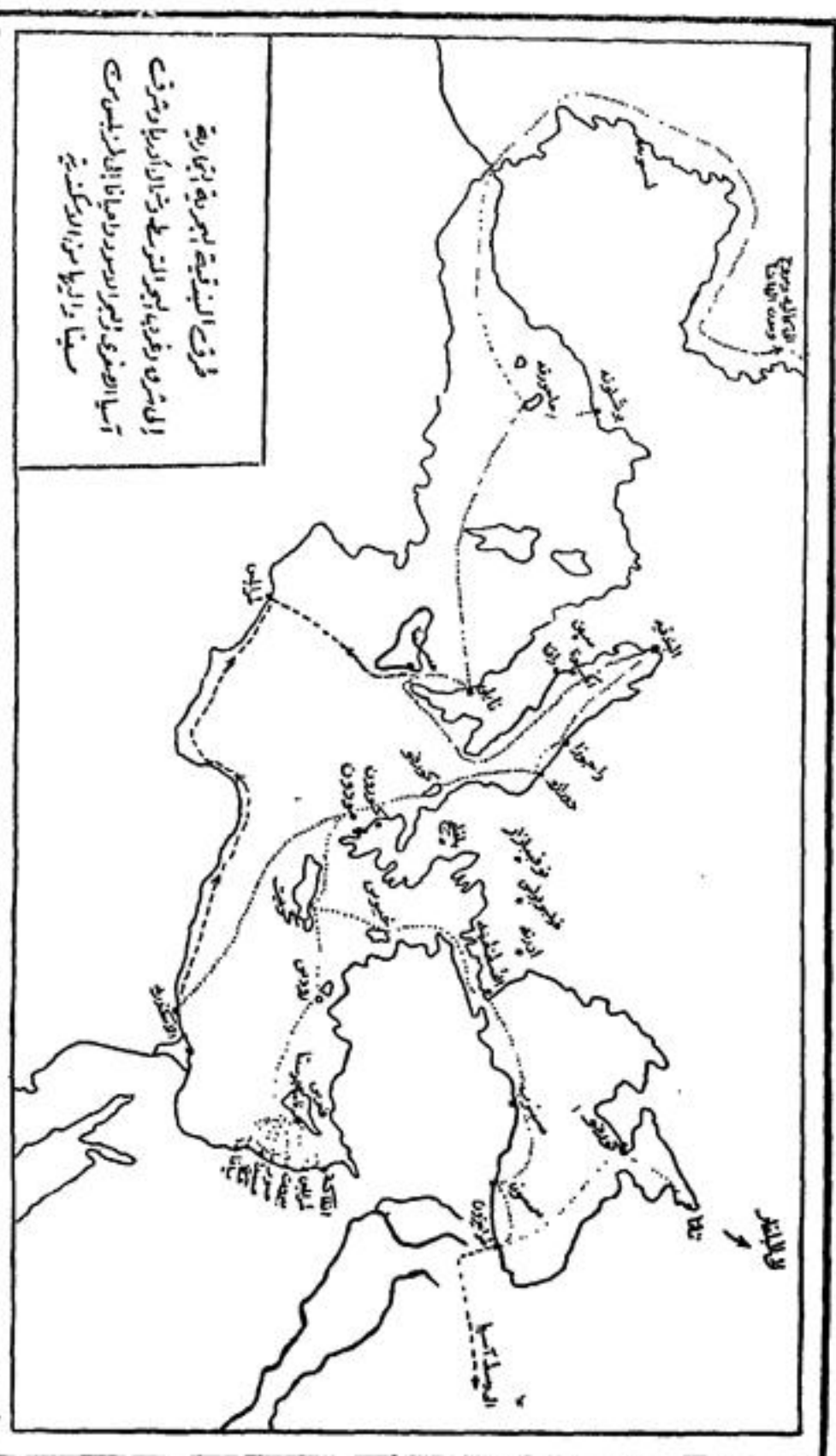
خاتمة

كشف طريق راس الرجاء الصالح ونهاية دولة سلاطين المماليك

عوامل الانهيار فى دولة المماليك وفى طريق التجارة بالبحر
الأحمر - فساد النظام الاقطاعى - احتكار التجارة - طبيعة تكوين دولة
المماليك - عداء البرتغال والأسبان للمماليك - تحول تبر السودان الى
لشيرة - وصول البرتغاليين الى الهند - فاسكوده جاما - كابرال -
البوكيرك ، وجهودهم ضد المماليك وتجارهم - العلاقات العثمانية
المماليكية وانهيار دولة سلاطين المماليك - مصر والشام ولايتان
عثمانيتان .







طرق الميناء البحرية بين
 الشرق والغرب عبر البحر المتوسط والشرق
 آسيا الهندى البحر الأحمر والخليج العربى
 سينا واليمن العربى

رفع
مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك

التمن ١٢٠ قرشا

